

تقديم وثناء السادة العلماء الأفاضل :

الشيخ العلامة أديب الكلاس — الشيخ المربي حسين بن الشيخ موسى — الشيخ العلامة عدنان حقي

الشيخ العلامة عبد الرحمن الشاغوري — الشيخ الداعية محمد بن الشيخ موسى — الشيخ الداعية محمد سعيد الكحيل

الشيخ العلامة مصطفى التركماني — الشيخ المرشد ياسين الخطيب

تأليف : الشيخ يوسف خطار محمد

الجزء الأول

الجزء الثاني

الموسوعة اليوسفية

في بيان أدلة الصوفية

الشيخ يوسف خطار محمد



الكتاب : الموسوعـة اليوسـفية في بيان أدلة الصوفية

المؤلف : الشيخ يوسف خطار محمد

عنوان المؤلف :
سوريا . دمشـق . الحجـر الأسود
تلفاكس : ٦٣١٨٦٩٦ - ص.ب : ٨٥

رقم الموافقة : ٧٢٠٨٨

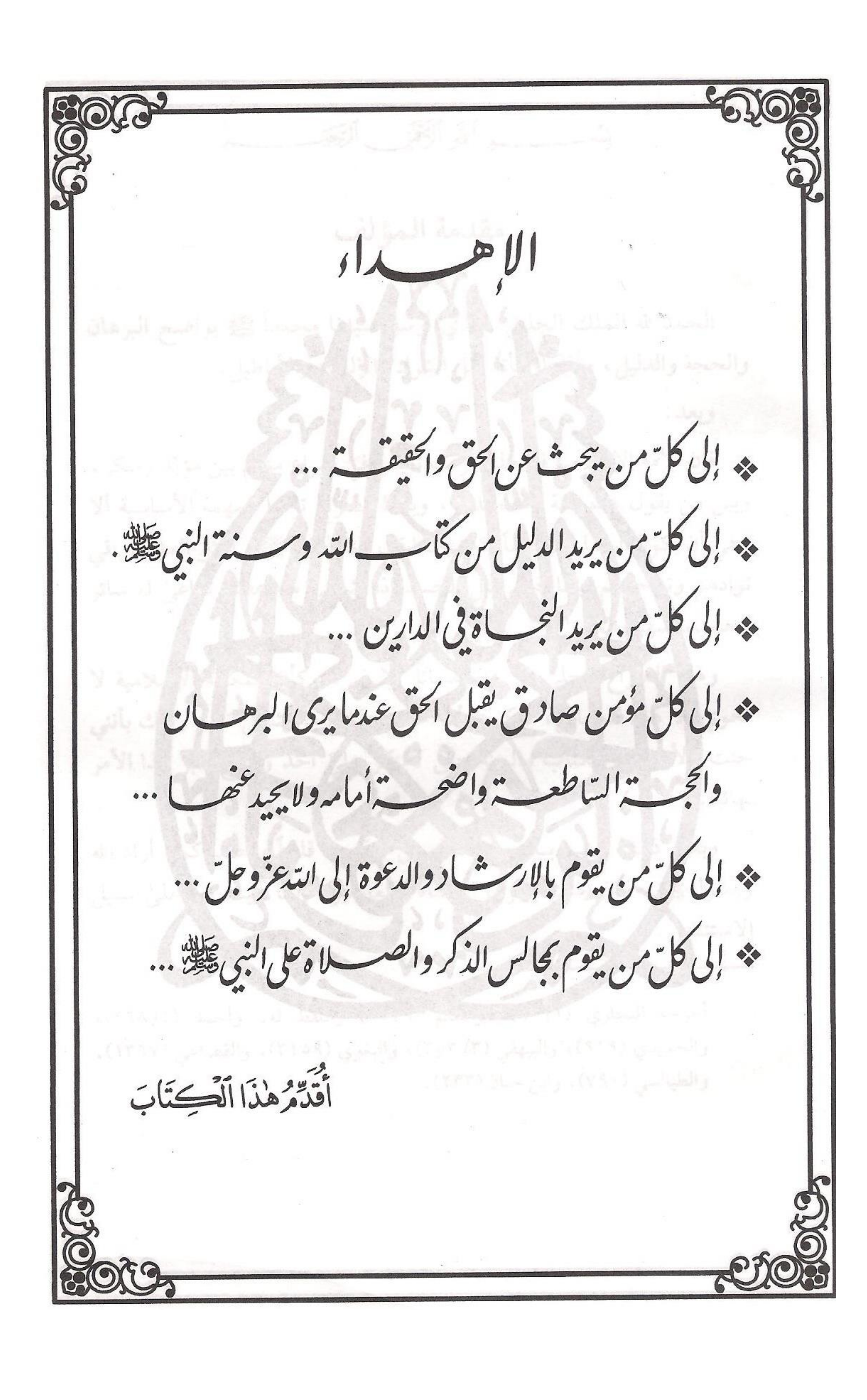
تاريخ الطبع : ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

عدد النسخ : ٣٠٠٠ نسخة

دار التقوى
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا . دمشق . حلبوني . ص.ب: ٣٠٧٢١
هاتف: ٢٢٤٩١٠٧ - ٠٩٣ ٢٠٦٠٠٧

دار الفقيه
للنشر والتوزيع ذ.م.م
دبي . الإمارات العربية المتحـدة . ص.ب ٨١٤٤١
هاتف ٢٧٣٧٧٧٩ ٠٠٩٧١٤ فاكس ٢٧٢٧٧٢٠ ٠٠٩٧١٤
اليمن . حضرموت . تـريم . هاتف ٤١٦٩٦٧ ٠٠٩٦٧٥

دار الفتح
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن . عمّان . العبدلي
هاتف: ٤٦٤٦١٩٩
ص.ب: ١٨٣٤٧٩ عمان ١١١١٨٠ الأردن



الإهداء

- إلى كلّ من يبحث عن الحق والحقيقة ...
- إلى كلّ من يريد الدليل من كتاب الله وسنة النبي ﷺ.
- إلى كلّ من يريد النجاة في الدارين ...
- إلى كلّ مؤمن صادق يقبل الحق عندما يرى البرهان والحجة السّاطعة واضحة أمامه ولا يحيد عنها ...
- إلى كلّ من يقوم بالإرشاد والدعوة إلى الله عزّ وجلّ ...
- إلى كلّ من يقوم بمجالس الذكر والصلاة على النبي ﷺ ...

أُقدِّمُ هذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الملك الجليل ، الذي أرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواضح البرهان والحجة والدليل، وأذل لوطأته أهل الشرك والإلحاد والأباطيل.

وبعد:

فإن الأمة الإسلامية في هذا الوقت تعيش في صراع مؤلم بين مؤيد ومنكر، وبين من يقول هذه سنة وهذه بدعة، وبهذا الصراع تركنا المهمة الأساسية ألا وهي أن يكون المسلمون صفا واحدا كما قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»([1]١).

وبهذا الصراع يتجلى في عدة مسائل لا غير ، وكأن المكتبة الإسلامية لا تحوي إلا هذه المسائل ففكرت أن أحسم هذا الأمر بشكل تام وذلك بأنني جئت بالأدلة من الكتاب والسنة حتى لا ينكر علي أحد وأقطع دابر هذا الأمر نهائيا.

وبعد ذلك نهتم بأمور المسلمين ونكون قلبا واحد كما أراد الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإن جئت بأقوال العلماء والعارفين فإنما أتيت بها على سبيل الاستئناس.

وأطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا على كلمة التقوى وأن لا نكون ألعوبة في يد أعداء الإسلام فهناك أمور كثيرة يجب محاربتها فلماذا نترك هذه الأمور الواضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار ونحارب الذاكرين المحبين لله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم

اللهم ردنا إلى ديننا ردا جميلا وبصرنا بالحقائق ونور قلوبنا وأبصارنا واجعلنا محبين للحق والحقيقة.

والحمد لله رب العالمين.

([1]١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٦٥٢٩) واللفظ له ، وأحمد (٢٦٨/٤) والحميدي (٩١٩) والبيهقي (٣٥٣/٣) والبغوي (٣٤٥٩) والقضاعي (١٣٦٧) والطيالسي (٧٩٠) وابن حبان (٢٣٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد اطلعت على (باب العقيدة) من كتاب الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية فوجدته كتابا مفيدا جدا وهو كتاب يوضح أفكار وآراء أهل التصوف الحقيقيين الذي أعملاهم توافق أهل السنة والجماعة.

الشيخ أديب الكلاس

السبت ٣ جمادى الأولى عما ١٤٢٠هـ

الموافق لـ ١٤/٨/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

وبعد: لقد اطلعت على كتاب الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية فوجدته كتابا مليئا بالعلم وغزيرا جدا بالأدلة الصريحة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم.

وهذا الكتاب: لا يستغني عنه طالب علم يبتغي الحق والصواب ولقد سررت جدا بهذا الكتاب لأنه قد جمع المواضيع التي تثار حولها الشكوك والأوهام.

وبتوفيق الله عز وجل لهذا المؤلف أرى أنه قد وفق لإزالتها بشكل مقنع وصريح لكل من أراد طريق الحق والصواب.

ولقد بين المؤلف في هذا الكتاب عقيدة أهل التصوف المبينة على الكتاب والسنة . وهذا هو الحق الذي لا يزيغ عنه إلا هالك.

وفي نهاية الكلمة لا يسعني إلا أن أقول:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل	وقل الفصل وجانب من هزل
باكتساب العلم إرغام العدى	وجمال العلم إصلاح العمل

ثم أقول:

لا تقل قد ذهبت أربابه	كل من سار على الدرب وصل

الشيخ عبدالرحمن الشاغوري

السبت ٣/جمادى الأولى ١٤٢٠هـ

١٤/٨/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

وبعد:

فقد أطلعني الأستاذ الفاضل الشيخ يوسف خطار محمد على كتابه القيم الذي أسماه (الموسوعة اليوسفية) فألفيته كتابا جمع فيه مؤلفه (جزاه الله خير الجزاء) مباحث قيمة طال فيهما الأخذ والرد بل والشغب أحيانا للتمويه على الحق وتعتيمه وإلقاء بذور الحيرة والشك في نفوس الأبرياء الذين ينشدون الحق لتطمئن إليه قلوبهم.

ومن خلال الذي اطلعت عليه وسمح ظرفي في الإطلاع عليه وضح لي أن المؤلف بذل جهدا مشكورا وواصل البحث لتجلية كل موضوع طرقه على ضوء من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة وأفهام العلماء سلفا وخلفا عازيا للمصادر التي نقل منها ما يريده بأمانة ودقة كشأن العلماء الأمناء الذي يخشون الله ويراقبونه في أعمالهم وأقوالهم.

والآن فقد أصبح بين يدي القارئ مصباح منيرا ومرجعا مصانا بعيدا عن التهريج وساحة التضليل والتمويه لا تعبث به الرياح الهوج ولا يخاف حامله من مزالق الطريق فهو على بصيرة من أمره وشريعة ربه.

فلله الحمد والمنة أن جعل هذا الدين محفوفا بالعناية له حراسة وعدوله الذين يذبون عن حماه «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

وأخيرا لا يسعني إلا الداء للمؤلف على ما بذل من جهد مشكور وعلى نيته الطيبة وهدفه السامي في جمع شمل الأمة ووحدة صفها وإعزاز كلمتها حتى تكون كالجسد الواحد والبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه الفقير إلى الله

مصطفى عبدالرزاق تركماني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد:

فلقد أهداني الأستاذ يوسف خطار محمد كتابه المسمى الموسوعة اليوسفية فتصحفحته وقرأت عناوين المواضيع التي شرحها فوجدت ذا الكتاب حجة واضحة لكل منصف وبرهانا لكل محقق يريد الحق وكلما قرأت فيه كلما ازددت رغبة بأن أقرأ أكثر فأكثر ولقد جمع فيه ما لم يجمع بكتاب فيما يختص في هذا الباب.

ولعمر الله إنه لكتاب لا يستغني عنه طاب علم فأسأل الله تعالى أن يمد هذا المؤلف بمدد من عنده وأن يجزيه خير الجزاء على هذا الجهد الذي قدمه كما أنني أهنئه على هذا التوفيق والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والحمد لله رب العالمين .

حماة. حلفايا الأحد ٢٢ ربيع الأول سنة ١٤٢٠ هجري

٤/٧/١٩٩٩م.

الفقير إلى الله تعالى

حسين بن الشيخ موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فلقد أهداني الشيخ يوسف خطار محمد كتابه المسمى الموسوعة اليوسفية فلما تفحته وقرأت بعض المواضيع فيه فإذا هو كتاب لا يستغني عنه طالب علم لما حوى من حجج واضحة وأقوال صائبة وعقيدة أهل السنة والجماعة فجزاه الله خير الجزاء وبارك الله فيه وأجزى إليه المثوبة والحمد لله رب العالمين.

العبد الفقير إلى الله تعالى

محمد بن الشيخ موسى

تدمر في ١٤١٩/١١/١٤هـ

١٩٩٩/٣/١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي أمتن علينا بهذا الدين المبين وجعل العلماء ورثة للنبيين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمين الذي ورثه من كل خلف عدوله ينفون عن شريعته تحريق الغالين وانتحال المبطلين وتأمويل الجاهلين .

وبعد:

لما اطلعت على هذا الكتاب المسمى (الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية) لمؤلفه الشيخ يوسف خار محمد وجدته كتابا مفيدا جمع فيه ما تفرق في كتب العلماء من معلومات نافعة حول التصوف ومسائله ورجاله وأجاب فيه بأسلوب حسن ميسر وتفصيل كاف وحجة وافية عن كثير من التساؤلات والشبهات التي أثيرت حول هذه القضية مستندا في كلامه إلى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال العلماء الأعلام وذلك غيرة منه على الحق وأهله وقياما بواجب النصيحة للمسلمين .

إن ما ذكره المؤلف من الإشادة بفضلل التصوف الذي هو عبارة عن مقام الإحسان المصرح به في حديث جبريل عليه السلام وأن رجاله هم بقية السلف الصالح علماء الأمة وأكابر الأئمة وأن طريقهم أصوب الطرق وأخرقهم أزكى الأخلاق ذلك مما أجمع عليه العلماء الراسخون من أهل السنة والجماعة قديما وحديثا وهو ما وجدنا عليه مشايخنا الكرام حماة هذا الدين وأئمة الإسلام رحمهم الله أجمعين.

فنسأل الله تعالى أن ينفع به وبمؤلفه المسلمين ويردهم إلى دينهم ردا جميلا وأن يوفقنا جميعا لمحبة نبيه الكريم والاقتداء بسنته النسية وأن يشرحنا تحت لوائه يوم الدين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الشيخ ياسين الخطيب.

تدمر في ١٤١٩/١١/١٤هـ

١٩٩٩/٣/١م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبي الهدى سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن سار بسيره واهتدى بهديه.

أما بعد: ففي غمرة غزارة الكتب التي تقذف بها المطابع كل يوم كثيرا ما نشاهد بينها ما يثير أسباب الاختلاف بين المسلمين وهؤلاء الذين يثيرون هذه الفتن يقدمونها باسم الغيرة على الإسلام ومحاولة تنقيته من الشوائب تحت عناوين جذابة وأسماء يتقدمها الحرب (د.) هذا الحرف المغري فيؤخذ بهذا كثير من البسطاء سليمي الصدر بما زينوه بعبارات الإغراء والإغواء يونطلي عليهم ما قد جاؤوا به فيغدون فريسة لهذا الزيف من الكلام المزخرف لأنهم لا يميزون بي الحق والباطل وكثيرا ما يؤيد هؤلاء يفهم بإثارة العواطف حول مواضيع حساسة فينجذب البساطاء نحو فخاخ هؤلاء المزورين بما جاؤوا به من دقيق الكلام الذي يحمل في ثناياه التحريف والإضلال.

والذي سهل الوقوع في هذه الفخاخ هو عدم تمييز أكثر الناس الحق عن الباطل لبعدهم عن لعلماء الصالحين المعروفين بورعهم ونزاهتهم.

فلما ابتعد هؤلاء عن العلماء زلت أقدامهم في مهاوي الضلال من حيث لا يشعرون ولو أننا ارتسمنا هدي رسل الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كنا لنتردى في هذه المهاوي السحيقة التي تندق فيها الأعناق وتقصم الظهور ها هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول «اغد عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلمك فالرابع ليس أحاد هؤلاء ولذلك فهو إلى الغواية أقرب ويقول أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه: اعرف الحق تعرف أهله.

ولا تتسنى لنا معرفة الحق إلا إذا غدونا أحد هذه الأصناف التي أتينا على ذكرها ثم إن هذه الكتب شاعت وانتشرت ولا رقابة عليها من آمر بالمعروف أو ناه عن المنكر.

وذلك يعود إلى أن القائم بهما لا يجد وزرا يحتمي به إزاءؤ المخالفين أما والأمر كذلك فعلى المؤمن أن يكون حذرا لئلا تسري اليه عدوى هذه الضلالات فلا يبتعد عن العلماء والأتقياء الذين أجمع الناس على علمهم وورعهم ليتلقى عنهم ما يحصن به إيمانه ويحفظ به عقيدته ويشجعه على البر والعمل الصالح.

هب أن لدينا مريضا ألسنا سنبحث له عن طيب حاذق مشهود له بالكفاءة وأننا إن نرد اتخاذ باب ألسنا سنسأل عن أحذق النجارين؟ إلخ.
أفليس ديننا أعز علينا من هذه الأمور فهو الذي سنلقى عليه ربنا.
إذن فغلنبحث عنه عند المكملين علما وورعا وقد ورد في الحديث الشريف ﴿سل عن أمور دينك ولو قيل لك إنك مجنون﴾ أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
أن هذه المسائل التي أوردها الموفق الشيخ يوسف خطار في الموسوعة اليوسفية مسائل مهمة جدا دار حولها نقاش حاد ولا يزال النقاش قائما وقد أثار حولها المغرضون غبار الخلاف([2]١) ،(وهي أمور خاضعة للاجتهاد ومما هو معروف في آداب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن القئام بهذا الشأن ينبغي أن ينهى عن المنكرات المجمع على أنها كذلك ولا ينصرف عنها إلى النهي عما اختلف فيه المسلمون من المسائل الاجتهادية التي لا يكلف المجتهدون فيها باكثر من الوقوف عند ما قضت به أجتهاالتهم وفهومهم.
إذا الإمعان في النهي عن هذه المسائل لا يمكن أن ينتهي إلا إلى إثارة أسباب الشقاق وتصديع وحدة المسلمين وبث عوامل البغضاء فيما بينهم وإن في حياتنا ومن حولنا من المنكرات الشنيعة والمفاسد الخطيرة التي لا خلافغ في مدى جسامتها وسوء آثارها ما يكفي لأن نمضي العمر كله في معالجتها والسعي إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف للقضاء عليها فلماذا نتشاغل عن هذا الذي أجعت الأمة على أنه من المنكر الذي لا عذر لأحد في السكوت عليه ثم ننشغل بالانتصار لاجتهاداتنا الشخصية وحاربة ما يقابلها ويكافؤها من الاجتهادات الأخرى)([3]٢).
ثم إن مشكلة هؤلاء أن الذي يقودهم فيما ياخذون ويذرون إنما هو العصبية العمياء لأفكارهم ومن ثم فلا جدوى في مناقشتهم فيما لا يعتدقونه ولو جئت تبحث في الواقع فلسوف تجد أن القائلين بهذه الأمورأكثر عددا وأغزر علما وأكثر تقوى من الدين ينكرونها فلا يعقل أن يترك رأي ألف مثلا ويؤخذ براي واحدا فها هو رسول الهل صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «لا تجتمع أمتي على ضلالة ويقول عليكم بالسواد الأعظم » أو كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

([2]١) بين هذه المسائل أمور مرفوضة قطعا وهي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وتحريف لفظ الجلالة (الله) أثناء الذكر.
([3]٢) من كلام الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي نقلا عن مجلة العربي الكويتية بتصرف يسير، العدد (٢٨٠) أذار مارس ١٩٨٢.

هذا وقد أحسن الاختيار الشيخ يوسف خطار إذ ناقش هذه الأمور المهمة ودافع عن الحق وقد جمع فأوعى وأتى بأدلة قوية من ردود العلماء وأقوالهم فأثابه الله ثواب المقبولين وزاده توفيقا في مساعيه الهادفة في خدمة العقيدة والدين وإنني أهيب بمن يغار على عقيدته ليحصنها أن يقرأ هذا الكتاب ففيه الدواء للشبهات التي أثارها أهل الوى والزيغ فإنه الكتاب الذي جمع الشبهات ورد عليها مجتمعة فكل الصيد في جوف الغرى كما قيل والله الموفق وهو يهدي السبيل.

القامشلي في :٢٨/صفر ١٤٢٠هـ

١٢ حيزاران ١٩٩٩م

كتبه

عدنان بن الشيخ إبراهيم حقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه وبعد:

فقد تفضل الله علي بالنظر في كتاب الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية فوجدته قد وفى المقصود وبلغ المأمون في بيان الحقئقا المطلوبة والطرائق المكلومة التي وجعت إليها سهام الانتقاد وفساد الاعتقاد جماعات تدعي التمسك بالكتاب والسنة فبين الؤلف جزاه الله عنا وعن الإسلام خيرا أن كل عمل من أعمال السادة الصوفية مبني على الكتاب والسنة.

لا يحيد عنهما قيد شعرة وهم الذين وفقهم الله تعالى لتطبيق أحكام الكتاب والسنة وفق مراد الله لأن الله تبارك وتعالى منحهم فهما صحيحا وتفسيرا سديدا لفهم كلامه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكانوا هداة مهديين راشدين مرشدين في كل بعقة من بقاع الأرض كالمطر الوابل أحيا الله بهم القلوب وطهر النفوس وحسن الأخلاق وقوم السلوك فنسأله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب من أراد الوصول إلى الحق والصواب.

خادم العلم الشريف بحمص

محمد سعيد الكحيل

خطيب مسجد سيدنا خلد بن الوليد رضي الله عنه

حمص – الجمعة في ٢ جمادى الأولى عام ١٤٢٠هـ

الموافق لـ ١٩٩٩/٨/١٢م.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثناء من الشيخ أحمد نصيب المحاميد

لقد أثنى الشيخ أحمد نصيب المحاميد (حفظه الله تعالى وأطال في عمره) على كتاب الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية حيث قال:

الكتاب لا يحتاج إلى مقدمات لعلو قدر وجلي بيانه لما فيه من الأدلة الواضحة التي عزاها المؤلف إلى الكتاب والسنة وأقال العلماء المعتمدين ويكفي لمن قرأه ولو مر واحدة أن يرى الحقائق ساطعة أمامه لا يزيغ عنها أبدا.

وهذا الكتاب: لا يستغني عنه طالب علم يريد الحق والصواب وجزى الله المؤلف خير الجزاء لما فيه نفع العباد.

والحمد لله رب العالمين

السبت ٣/ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ

الموافق ١٤/٨/١٩٩٩م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي دفع الشبه والشكوك باكف التنزيه بالعلم والتمكين وكشف لنا من النصوص خفيات المعاني وأوقفنا على المراد من تلك المباني وجعل الأداءه على ذوي الإخلاص دائمة مستمرة وبشائر رضاه متجددة على أوليئاه بإعطائهم أسرار العلم ودره فأضحت قلوبهم وأرواحهم بمدده مشرقة الأوضاح متهللة الأسرة فسبحان من اطلع أنجمهم بأفق التقريب مرة بعد مرة وجعلهم يكشفون ويزيلون حجب الأغيار وشكوكهم عن بصيرهم حتى يروا النور الساطع فينظرون به حتى يصلوا إلى رضا الله عز وجل وقربه.

ونحمد الله تعالى أن جبل سجايانا في مقام الإحسان والمبرة وسخرنا لنشر عقيدة الإسلام الصحيحة والذب عنها بحجج وبراهين دامغة ساطعة ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذي أسمى سبحانه على الخلائق قدره وتولى في المضايق نصره وأعلى في المشارق والمغارب ذكره.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين وقدوة كاملة للمتقين وأسوة حسنة للصالحين داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا فهو القدوة للعلماء العاملين والمرشدين المربين وكل من أراد الوصول لرضا رب العالمين.

ورضي الله عن آله وأصحابه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد وفقني الله عز وجل ومن علي بإصدار كتاب (الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية) الطبعة الأولى.

وكان الهدف منه تصحيح الأفكار وإزالة الشبه والشكوك من الأذهان وجمع المسلمين كما أراد سيد بني عدنان عليه السلام.

وقد لقي الكتاب بحمد الله عز وجل وفضله وكرمه قبولا وترحيبا واستحسانا عند كثير من العلماء المخلصين الصادقين والباحثين المنصفين والمرشدين المربين الذين أعربوا عن آثار وأسرار هذا الكتاب في توضحيه أفكار أهل الصوف للأذهان خصوصا وقد تعرض لحملات عنيفة وافتراءات مغرضة ودسائس باطلة على الرغم من أن ظهور الحق واضح جدا وذلك:

(أن هذه الحملات جاءت متأخرة ولم تكن بزمن أهل التصوف فلم يثبت ولو مر واحدة أن شخصا ما اعترض على الشيخ أحمد الرفاعي أو الشيخ عبدالقادر الجيلاني أو غيرهم من العارفين والصالحين مثل هذه الاعتراضات التي في زماننا فالقاعدة الأساسية متينة جدا لأنها مبنية على الكتاب والسنة).

ورحم الله الإمام الرواس حيث قال:

وإذا الجبال تحولت عن أرضها	عن شاننا في الله لا نتحول

وقد وردتني الرسائل العديدة والرجاءات الملحة بإعادة طبعة تعميما للنفع وتتميما للفائدة فنزولا عند رغبة هؤلاء الصادقين عمدت لطبعة مرة ثانية وأسأل المولى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين والحمد لله رب العالمين.

يوسف خطار محمد

الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية

الجزء الأول

١- التصوف	١٠- القيام
٢- التوسل	١١- الذكر الجهري
٣- المدد	١٢- الذكر بالاسم المفرد (الله)
٤- المولد	١٣- الدف
٥- التبرك	١٤- السبحة
٦- الحضرة	١٥- الإنشاد والسماع
٧- الحركة بالذكر	١٦- وصول ثواب القرآن
٨- تقبيل اليد	١٧- زيارة القبور
٩- السيادة	

التصوف

اشتقاق اسم التصوف

إن الإسلام الحقيقي هو اتباع لما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الله سبحانه وتعالى والإيمان به مع الإذعان وقد نقلت إلينا تعاليم الإسلام من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق صحابته الذين أخذوا عنه الشريعة وكذلك أخذها عنهم الذين تبعوهم وسموا باسم التابعين وهم الذين صحبوا من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد نقلت عنهم الوراثة النبوية العلمية فأخذ عنهم تابعو التابعين ودنوا الشريعة وتفرد بها العلماء فمنهم من تخصص بالحديث النبوي الشريف وأصبح من الحفاظ ، وكذلك تفرد أناس بعلوم الآله (النحو والصرف والبلاغة).

وتفرد بعضهم بعلم التفسير وتفرد بعضهم بعلم الفقه ، وتفرد بعضهم بعلم التربية السلوك والعمل، وقد دونت العلوم المنقولة وسميت بأسماء ومصطلحات : فسمي من اشتغل بالحديث الشريف (محدثا)، ومن اشتغل بالنحو (نحويا)، ومن اشتغل بالتفسير (مفسرا)، ومن اشتغل بالفقه (فقيها)، ومن اشتغل بالتربية والسلوك في طريق الله (صوفيا).

كل هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما هي إلا مصطلحات لأسماء العلوم الشرعية التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكل من تسمى بواحد من هذه الأسماء وغيرها لا يخرج عن تسميته مسلما، وليس كل اسم أو وصف لم يأت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل جائز شرعا فقد سمى الله سبحانه وتعالى المسلمين بأسماء عديدة (السابقين ، المقربين ، الصادقين ، الشهداء ، الصالحين ، الأولين ، الآخرين ، المخبتين..) فكل اسم ذكر له اشتقاق.

فالشهداء (من الاستشهاد في سبيل الله) والمخبتين (من التواضع) والصادقين (من الصدق في أعمالهم وأقوالهم وسرائرهم مع الله) وكذلك في مجال المهن في جميع الأزمنة والعصور (كالمهندس والطبيب والحداد والنجار.. الخ) وكل واحد منهم سمي

بذلك نسبة لعمله وكذلك نسبة إلى القبائل والأوطان مثل سيدنا محمد عليه الصلاة واللام (القرشي المكي) وسيدنا أبي ذر (الغفاري المكي) وسيدنا بلال (الحبشي) وسيدنا سلمان(الفارسي) وسيدنا صهيب (الرومي) وكذلك فإن اسم التصوف قد كثرت فيه الأقاويل فمنهم من قال: (من الصفاء) حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله تعالى :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا	وظنه البعض مشتقا من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى	صفا فصوفي حتى سمي الصوفي(١[1])

ومنهم من قال : إن التصوف نسبة إلى لبس الصوف الخشن ، لأن الصوفية كانوا يؤثرون لبسه للتقشف والاخشيشان ، وهو شعارهم .

* قال سيدنا الإمام الكبير أحمد الرفاعي قدس الله سره:

(قيل لهذه الطائفة الصوفية) واختلف الناس في سبب التسمية وسببها غريب لا يعرفه الكثير من الفقراء وهو أن رجلا من جماعة من مضر يقال لهم بنو الصوفة هو الغوث ابن مر بن أدبن طابخة الربيط كانت أمه لا يعيش لها ولد فنذرت إن عاش لها ولد لتربطن برأسه صوفه وتجعله ربيط الكعبة وقد كانوا يجيزون الحاج إلى أن من الله بظهور الإسلام فأسلموا وكانوا عباد ونقل عن بعضهم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن صحبهم سمي بالصوفي وكذلك من صحب من صحبهم أو تعبد ولبس الصوف مثلهم ينسبونه إليهم فيقال صوفي)(٢[2]).

وقيل (من الصف): لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

ومنهم من قال (من الصفة) لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾(٣[3]) وهذا يستقيم معنى لا اشتقاقا وأهل الصفة هم الرعيل الأول من رجال التصوف فقد كانت حياتهم التعبدية الخالصة المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة .

ومنهم من قال : من الصوفة لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه لله تعالى .

([1]١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية للعلامة ابن عجيبة: ص٦.

([2]٢) البرهان المؤيد ص ٦٣ .

([3]٣) سورة الكهف آية ٢٨.

ومنهم من قال : من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة([4]١) وقيل: (من الصفوة) يعني أنهم صفوة الله من خلقه.

وقيل : كان هذا الاسم في الأصل صفوي واستثقل ذلك وجعل صوفيا ومنهم من قال: لفظ كلمة التصوف أربعة أحرف: التاء والصاد والواو والفاء . فالتاء: من التوبة ، والصاد: من الصفاء ، والواو من الولاية ، والفاء: من الفناء.

ومنهم من قال: إن مشتق من (صوفة) وذلك أن قوما كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله تعالى وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية .

وقال الإمام القشيري رحمه الله : ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر أنه كاللقب يعتبر اسم الصوفي اسما جامدا أو لقبا أطلق على هذه الطائفة يميزها عن غيرها.

وذكر المستشرق نيكلسون([5]٢) نقلا عن المستشرق (نولدكه): منكرا أن تكون الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غيره.. لا يوجد دليل إيجابي يرجع افتراض أن الكلمة([6]٣) مشتقة من الأصل اليوناني (سوفوس) في حين أن نسبتها إلى الصوف يؤيدها نصوص من أقوال الكتاب المسلمين أنفسهم ... ثم ذكر (نولد كه) طائفة من الأدلة على كلامه وأنهم كانوا يلبسون الصوف وخصوصا منهم الزهاد.

([4]١) إيقاظ الهمم ص ٦.

([5]٢) كتابه (في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦٧).

([6]٣) أي كلمة التصوف التي مر ذكرها و (ال) فيها للعهد الذكري.

التصوف ومنشؤه

* قال الدكتور حسن إبراهيم حسن: ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر (التصوف) وذلك أن كثيرا من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله سبحانه وتعالى فرأوا أن يتقربوا اليه عن طريق الزهد والتشقف وفناء الذات في حبه تعالى ومن ثم سموا (بالمتصوفين)(١[7]).

وأول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي في سنة / ١٥٠ / هـ(٢[8]) .

وأن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري (٢٤٥هـ) تلميذ الإمام مالك والذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة (٣٣٤هـ)(٣[9]).

ومنهم من قال: التصوف مشتق من الصوف، وقد كان يلبسه بعض العباد والزهاد الذين لا يميلون إلى الترف ، وقد وتهم في ذلك أهل الصفة الذين قال الله فيهم ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾(٤[10]) .

وأثر عن سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف.

والتصوف: لقب اصطلح الناس عليه والمراد به الشخص المسلم المتمسك بالكتاب والسنة، وممن عرف بالتصوف في الصدر الأول الإسلامي سيدنا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه وأنه أمة وحده يعيش وحده ويموت وحده كما أبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم سيدنا حذيفة بن اليمان وسيدنا سلمان الفارسي فقد كان يأكل من عمل يده (كان ينسج الخوص ويبيعه) ثم جاء من بعدهم الحسن البصري الذي كان يغظ الناس ويرشدهم وقد ربى رجالا منهم مالك بن دينار ثم جاء بعد ذلك إبراهيم بن أدم ثم الإمام الجنيد والقشيري ثم ذو النون المصري المتوفى سنة (٢٤٥هـ) والتصوف من حيث ذاته عقيدة وخلق وجهاد ودعوة ودعائمه الإسلام والإيمان والإحسان بما فيه

([7]١) تاريخ الإسلام ٣/٢٢٠.

([8]٢) ذكره حاجي خليفة في كشف النون عن أسماء الكتب والفنون.

([9]٣) من كنوز الإسلام (٩٤).

([10]٤) سورة الكهف الآية (٢٨).

المراقبة والمشاهدة ومتابعة (القرآن والسنة) وأهدافه التخلي عن كل رذيلة والتحلي بكل فضيلة والسلوك الملتزم بطاعة الله ورسوله وجهاد النفس وإصلاح الباطن والإيثار.

ويبدو لمتتبع هذه النحلة السامية أنها مرت بمراحل مختلفة قبل أن تتسمى بهذا الاسم المعروف فكانت أحوالها تظهر في كل مرحلة باسم معين وهكذا إلى أن استقرت باسم (التصوف) وآية ذلك أن الشيخ الأستاذ أبا القاسم القشيري يقول في رسالته الشهيرة (الرسالة القشيرية): اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ لا أفضلية فوقها فقد قيل (الصحابة)ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة (التابعين) ورأوا ذلك أشرف تسمية ثم قيل لمن بعدهم (أتباع التابعين) ثم اختلفت وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس مم لهم شدة عناية بامر الدين (الزهاد والعباد) ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا بان منهم زهادا فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم (التصوف) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة([11]١) .

ومما يشير أيضا إلى أن اسم التصوف رف بعد القرن الثاني للهجرة ما أورده المسعودي في تاريخه (مروج الذهب ومعادن الجواهر) عن يحيى بن أكثم أن المأمون([12]٢) كان جالسا ذات يوم إذ دخل عليه حاجبه علي بن صالح فقال: يا أمير المؤمنين رجل بالباب عليه ثياب بيض غلا يطلب الدخول للمنارة فقال : إنه بعض المتصوفة ومما يشهد لهذا أيضا ما ذكره الكندي في كتاب (ولاة مصر في حوادث سنة مائتين) أنه ظهر بالاسكندرية طائفة يتسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف هذا عن ذيوع اسم التصوف وانتشاره ولكن يبدو أن اسم التصوف كان موجودا قبل المائتين لكنه ذاع وانتشر بعد الماتي وفي ذلك يقول ابن تيمية في كتابه (الصوفية والفقراء)([13]٣) : وأول ما ظهرت الصوفية من البصرة.

([11]١) يبدو أن هذا الاسم كان موجودا قبل المئتين بقليل لكنه اشتهر بعدها كما سيأتي.

([12]٢) توفي المأمون سنة (٢١٨).

([13]٣) الصوفية والفقراء ص (٣ – ٤).

واول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبدالواحد بن زيد([14]١) وهو من أصحاب الحسن البصري رحمهم الله تعالى وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سار الأمصار ولهذا كان يقال، فقه كوفي وعبادة بصرية وبه يقول العلامة محمد كرد علي رحمه الله تعالى : وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة (١٥٠) وكان من النساك يجيد الكلام وينطق الشعر كما وصفه الحفا مثل هاشم الأوقص وصالح بن عبدالله الجليل([15]٢) ولسنا نهتم كثيرا بمصطلح الكلمة واشتقاقها بقدر اهتمامنا بمضمونها.

فإن شئت سم (التصوف) بالتزكية ونهي النفس عن الهوى كما قال تعالى ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾([16]٣) أو سمه الإحسان أو علم التربية والسلوك ولكن لا مرفر لنا من إطلاق اسم التصوف عليه لأنه الاصطلاح الذي تعاهده أهل التاريخ وشاع عندهم أكثر من غيره.

والعجيب أن الذين اعترضوا على أنل التصوف جاؤوا بعد القرن السادس الهجري والذين كانوا في زمان أهل التصوف المؤسسين لم يعترضوا عليهم ، بل شهدوا لهم وأكدوا أنهم على الحق والنور والهدى وشهادتهم ستكون في مضمون هذا الكتاب ليقرأها طالب الحق.

- ويقول الدكتور أحمد علوش:

(قد يتسائل الكثيرون عن السبب في عدم هور هذه الدعوة إلا بعد عهد اصحابة والتابعين والجواب عن هذا: أنهلم تكن ثمة حاجة إليها في العصر الأول لأن أهل ذاك العصر كانوا أهل تقى وورع وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علما يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلا وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابرا عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيسئا من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض ، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغ

([14]١) توفي عام (١٧٧)هـ.

([15]٢) الإسلام والحضارة العربية (٣١/٢) لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

([16]٣) سورة النازعات الآيتان (٤٠ – ٤١).

ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن وضعف التعبير أو لمن يريد من الأانب أن يتفهمها ويتعرف عليها أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون – وإن لم يتسما باسم المتصوفين– كانوا صوفيين فعلا وإن لم يكونوا كذلك اسما ، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه ، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي اروحي إلى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان والقيام بفروض الإسلام بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلا عن المحرمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم وكذلك كان شان التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق وقد جاء ن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله (خير القون قرني هذا فالذي يليه والي يليه)([17]١) فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الإسلام أمم شتى وأجناس عديدة واتسعت دائرة العلوم وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه وعلم التوحيد وأصول الدين وعلوم الحديث والتفسير المنطق ومصطلح الحديث وعلم الأصول والفرائض (الميراث) وغيرها..

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئا فشيئا وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية والقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضا على تدوين علم التصوف ، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم ولم يكن ذلك منهم احتجاجا على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم – كما يظن ذلك – خطأ – بعض المستشرقين– بل كان سدا للنقص ن

([17]١) (خير الناس في قرني ثم الذين يلونهم ..) أخرجه البخاري (٢٠٠٩) ومسلم (٢٥٣٣).

واستكمالا لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لابد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى([18]١).

وقد بنى أئمة الصوفية الأولون أصول طريقهم على ما ثبت في تاريخ الإسلام نقلا عن الثقات الأعلام.

أما تريخ التصوف فيظهر في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه اله فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟ وهل هو بوحي سماوي؟

فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا دينا بقوله: (هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم)([19]٢). وهو الإسلام والإيمان والإحسان فالإسلام ط

اعة وعبادة والإيمان نور وعقيدة والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ...).

ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته تلك : فإنه كما في الحديث الدين عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بهذا المقام (الإحسان) فدينه ناقص بلا شك لتركه ركنا من أركانه فغاية ما تدعو اليه الطريقة وتشير اليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان([20]٣).

- وقال ابن خلدون في مقدمته:

(وهذا العلم – يعني التصوف – من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عن سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن

([18]١) مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم (١٣٧٦هـ) من بحث التصوف من الوجهة التاريخة للدكتور أحمد علوش وهو من الرواد الأوائل الذين نقولا حقائق التصوف الإسلامي إلى اللغات الأجنبية وقد ألف فضيلته كتابا باللغة الإنجليزية عن التصوف الإسلامي كان له أكبر الأثر في تصحيح الأفكار والرد على المستشرقين كما ألف كتابه الجامع عن الإسلام الذي رد فيه على التهم المفتراة على دين الله وكان له أثره البعيد في خدمة هذا الدين.

([19]٢) أخرجه البخاري (٢٦) ومسلم (٩٣)، وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٠) والنسائي (٥٠٠٥)، وابن ماجه (٦٣)، وأحمد (٢٨/١)، وابن حبان (١٦٨)، وابن خزيمة (٢٥٠٤)، والبغوي (٢٢)، والطيالسي ص (٢١)، وابن أبي شيبة (٢٤/١١ و ٤٥).

([20]٣) الانتصار لطريق الصوفية للمحدث محمد صديق الغماري ص ٦ .

زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف: فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)([21]١).

ويعنينا من عبارة ابن خلدون الفقرة الأخيرة التي يقرر فيها أن هور التصوف والصوفية كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن الثاني للهجرة فإن ذلك يدعو أن يتخذ المقبلون على العبادة اسما يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا الفانية.

فمن هذه النصوص السابقة يتبين لنا أن التصوف ليس أمرا مستحدثا جديدا ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحياة أصحابه الكرام كما أنه ليس مستنبطا من أصول لا تمت إلى الإسلام بصلة كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعا أسماء مبتكرة فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية والكهانة النصرانية والشعوذة الهندية فقالوا : هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي...

يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى ولكن الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية الماكرة ويتبين الأمور ويتثبت في البحث عن الحقيقة فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام([22]٢).

([21]١) مقدمة ابن خلدون ، علم التصوف ص (٣٢٩).

([22]٢) حقائق عن التصوف ص (١٩ – ٢٥) بتصرف يسير.

أسس التصوف

التصوف الإسلامي علم جليل الشأن ونحلة عظيمة القدر وثبت بالأدلة القوية أنه إسلامي المنشأ وبذلك أضحى موصلا للسعادة في الدنيا والآخرة وهو الدواء الذي يشفي صاحبه من أمراض النفس والمنهاج الذي يزكي النفس ويصفي الروح وهو مرآة الحياة الروحية الإسلامية التي قوامها التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل لتزكو النفس وتسمو الروح بالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الكرام ومن أهم مقاصده خمسة أمور سنتولى شرحها وبيانها بإذن الله واحدا إثر واحد:

١- صفاء النفس ومحاسبتها.

٢- قصد وجه الله .

٣- التمسك بالفقر والافتقار.

٤- توطين القلب على الرحمة والمحبة.

٥- التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإتمامها.

التفصيل:

١- القاعدة الأولى : (صفاء النفس ومحاسبتها): ومعناها: أن كل من أراد أن يدخل في سبيل المقربين ليعد الجواب لسؤال الحق تعالى فعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله ويزن أعماله قبل أن توزن بقسطاس الآخرة ويصفي نفسه من شوائبها ووساوسها قال سيدنا عمر رضي الله عنه (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا).

٢- القاعدة الثانية: (قصد وجه الله): ومعناها: أن المتصوف لابد أن يقصد وجه ربه في جميع أقواله وأفعاله غاسلا قلبه بماء الإخلاص لوجه الله تعالى قال الله تعالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾([1][23]) .

وقال عز من قائل : ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾([2][24]) .

٣- القاعدة الثالثة: (التمسك بالفقر والافتقار): ومعناها الزهد في الدنيا ومتاعها عزوفا بالنفس عما يلهيها ويشغلها فإن التمسك بالفقر دليل التقشف الذي هو الآلة

([23][1]) سورة الكهف الآية (٢٨).

([24][2]) سورة الليل الآية ١٩ – ٢٠ .

القاطعة حبل الوصال بين العبد والشيطان، فتتأهل النفس بالعبادة الخالصة وعدم العلو والفساد في الأرض لهذه الخصلة التي تصعد بهمم الإنسان نحو الروحانية والبعد عن كدورة الإنسانية أما الافتقار فهو تجرد المرء عن زينة الحياة الدنيا لينقطع إلى تقوى الله تعالى وأنه لا حول ولا طول الا به طالبا منه الكرم بالإمداد والتجليات وذلك هو منتهى الإقرار بالعبودية التي هي مركز التصوف وعقيدة الإيمان. وصفوة القول: أنالفقر أساس التصوف وقوامه وأن التحقق بأحوال التصوف ومقاماته مبني على الفقر والزهد فيما اشتملت عليه الدنيا من زخرف ومتاع، أي أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه بمعنى أن يكون أغنى بما عند الله منه بما عنده.

وقد قص علينا السهرودي في كتابه (عوارف المعارف) قصة عن ذي النون المصري رضي الله عنه جديرة بالنر والاهتمام قال ذو النون: (رأيت ببعض سواحل الشام امرأة فقلت لها : من أين أقبلت؟ فقالت: من عند أقوام ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾([25]١)، فقلت لها: وأين تريدين ؟ فقالت : إلى ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾([26]٢) .

ألا يجدر بنا أن نمعن النظر في هذين الجوابين لنعلم مدى خلو قلوب القوم عن حظوظ النفس والهوى لنعلم مدى انجذابهم نحو الله تعالى وإيثارهم لما عنده بحيث أصبحت قلوبهم لا تنزع إلى الله متجردين من القيود الجسمانية التي تفسد على الإنسان حياته وتكدر صفاء نفسه وتنسي الإنسان عبوديته لله .

٤- القاعدة الرابعة : (توطين القلب على الرحمة والمحبة): ومعناها: أنه يجب على كل صوفي أن يلزم محبة كل المسلمين ويعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير فإن رسخ في هذه القاعدة واستقام في التدريب عليها أفاض الله عليه أنوار الرحمة وأذاقه حلاوة الرضى وألبسه ثوب القبول فينال مما ورثه النبيون من المحبة والرضى حظا وافرا قال الله تعالى في حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾([27]٣) .

([25]١) سورة السجدة الآية ١٦.

([26]٢) سورة النور الآية ٣٧.

([27]٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه (لا تحقر أحدا من المسلمين فإن حقير المسلمين عند الله كبير).

٥- القاعدة الخامسة : (التجمل بالأخلاق التي بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإتمامها): وهذه القاعدة زبدة الدين وحقيقة أخق الصوفيين وذلك بأن يكون العبد هينا لينا مع أهل بيته وعشيرته وجميع المسلمين قال الله تعالى ﴿وقولوا للناس حسنا﴾([1][28]).

وقد ورد في الأثر : (اهل الجنة كل هين لين سهل قريب وأهل النار كل شديد قبعثري قالوا وما القبعثري؟ قال: الشديد على الأهل والصحاب والعشير) إذ ان الله تعالى يعامل عبده في وصفه وخلقه وفي الحديث القدسي: يا بان آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال يارب كيف أطعمل وأنت رب العالمين قال : استطعمك عبد فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين!؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي)([2][29]) ذلك هو الحديث القدسي الذي جمع محاسن الأخلاق وجميل الصفات بين الناس وهو القانون الإلهي الذي سلك منهاجه رجال في حياتهم الدنيوية والعملية فمن رسخت قدمه منهم في هذه المقامات صارت أحواله ومعاملاته مع الرب في كل شء فلا يراقب غير الله تعالى في حركاته وسكناته([3][30]).

([28][1]) سورة البقرة ا{لآية ٨٣.

([29][2]) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩٠/٤ برقم ٢٥٦٩).

([30][3]) الصوفية والتصوف ص ٤٠ – ٤٢ .

أهمية التصوف

قال الإمام السيد أحمد الرفاعي قدس الله سره:

هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره ، وظاهره ظرف باطنه ، لولا الظاهر لما بطن لولا الظاهر لما كان ولما صح القلب لا يقوم بلا جسد ، بل لولا الجسد لفسد والقلب نور الجسد .

هذا العلم (التصوف) الذي سماه بعضهم بعلم الباطن هو إصلاح القلب.

إذا انفرد قلبك بحسن نيته، وطهارة طويته وقتلت وسرقت وزنيت وأكلت الربا وشربت الخمر وكذب وتكبرت وأغلظت القول فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك ؟! وإذا عبدت الله وتعففت وصمت وصدقت وتواضعت وأبطن قلبك الرياء والفساد فما الفائدة من عملك؟! ... أي حالة باطنة للمسلم لم يأمر ظاهر الشرع بعلمها؟! أي حالة ظاهرة لم يأمر ظاهر الشرع بإسلاح الباطن لها ؟!([31]١) .

إن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه وترجع إلى قسمين:

قسم يتعلق بأعماله الظاهرة وقسم يتعلق بأعماله البطنة وبلفظ آخر : أحكام تتعلق باهر الجسد وأحكام تتعلق بباطن الجسد (القلب).

وأما الأعمال التي تترتب على الجسد فهي نوعان: أوامر نواه فالأوامر المفروضة هي كالصلاة والصوم والزكاة والحج... وأما لنواهي المحظورة فهي كتحريم الزنا والسرقة وشرب الخمر وحقوق العباد كافة ...

واما الأعمال التي تتربت على القلب فهي نوعان أيضا أوامر ونواه فالأوامر الفمروضة : كالإيمان بالله وملائمته وكتبه ورسله واليوم الآخر .. وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر .... .

وأما الواهي المحورة فكالكفر والنفاق والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء.

وهذا القسم الثاني هو المعول عليه في ديننا ألا وهو أعمال القولب لأن مبنى الأمور كلها على إخلاص النيات لرب البريات التي لا يعلم بها غيره ، فقد قرن الله سبحانه وتعالى أعمال الظاهر وسلامة الباطن فيها لأن فساد الباطن يوجب فساد الأعمال

([31]١) البرهان المؤيد : ص ١٢٢ .

الظارة فقال: ﴿فمن كانه يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾([32]١).

ولهذا كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ينم ملكا وتوجيها لاهتمام صحابته الكرام لإصلاح قلوبهم ويبين لهم هذا الملك وأن صلاحج الإنسان متوقف على صلاح هذا القلب وصفائه من كل الشوائب الكامنة في جنباته فقال : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)([33]٢)، لأن العمدة يوم القيامة القلب السليم كما أخبر الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾([34]٣).

وكما أخبر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن محل نظر الرب هو القلب فقال (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينر إلى قلوبكم وأعمالكم)([35]٤).

وما فرق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ظاهر صلاح الأعمال عن باطن صدق القلوب.

وقال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى : (وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها فقال فيها الإمام الغزالي رحمه الله تعالى إنها فرض عين)([36]٥).

(فتصفية القلب ومداواته من أهم الفرائض العينية وأهم الواجبات الربانية، وقد دل على ذلك ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال العلماء والفقهاء) .

أولا : أهميته في الكتاب:

أمر الله تعالى خلقه أن تكون جميع عباداتهم القولية والفعلية والمالية خالصة له تعالى بعيدة عن الرياء فقال: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾([37]٦)، وقد

([32]١) سورة الكهف الآية ١٠.

([33]٢) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (٢٥٢٣).

([34]٣) سورة الشعراء الآية ٨٨ – ٨٩.

([35]٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

([36]٥) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٥٠٤.

([37]٦) سورة البينة الآية ٥.

حرم الفواحش فقال: ﴿قل إنما حرم ربي افلفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾([38]١)،
وقال تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما هر منها وما بطن﴾([39]٢).
والفواحش الباطنية كما قال المفسرون هي الحقد والرياء والحسد والنفاق... .

ثانيا: أهميته في السنة :

الأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرياء والحسد كثيرة منها:

- قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يحقره التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)([40]٣).

- ويقول عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه)([41]٤).

- وكذلك الأحاديث التي تأمر بالتحلي بالأخلاق الحسنة والمعاملة الجيدة الطيبة فقد قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الرجل ليبلغ بحسن الخلق درجة الصائم القائم)([42]٥).

- ويقول عليه الصلاة والسلام: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)([43]٦).

أقوال العلماء في أهمية التصوف:

([38]١) سورة الأعراف الآية ٣٣.

([39]٢) سورة الأعراف الآية ٣٣.

([40]٣) رواه البخاري (٥٧١٨) ومسلم (٢٥٥٩).

([41]٤) رواه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد (٢٣) باب ما جاء فيمن يقاتل رياء.

([42]٥) رواه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/١٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٤/٣)، والدارمي (٣٢٣/٢).

([43]٦) رواه الترمذي (١٩٨٨) وأحمد (٥٣/٥ و ١٥٨و ٢٢٨ و ٢٣٦).

أجمع العلماء على أن الأمراض والآفات القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة لأن أمراض الباطن كافية لإحباط أعمال العبد ولو كانت كثيرة.

قال الفقيه العلامة الكبير ابن عابدين في حاشيته الشهيرة: (إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين مثل غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة القسوة وطول الأمل ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات في الإحياء قال فيه : ولا ينفك عنها بشر فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجا اليه وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه)([44]١).

وإن التصوف هو الذي اختص بمعالجة الأمراض القلبية وتزكية النفوس والتخلص من صفاتها الناقصة الذميمة.

ويقول صاحب مراقي الفلاح العلامة الشرنبلالي: (لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة وبالإخلاص والنزاهة عن الغل والغش والحقد والحسد وتطهير القلب عما سى الله من الكونين فيعبده لذاته لا لعلة مفتقرا إليه وهو يتفضل بالمن بقضاء حوائجه المضطر اليها عطفا عليه فتكون عبدا فردا للمالك الأحد الفرد لا يسترقك شيء من الأشياء سواه ولا يستملك هواك عن خدمتك إياه)([45]٢).

نعم كما لا يحسن بالعبد أن يظهر أمام الناس بثياب ملطخة بالإذار والأوساخ وكذلك لا يليق به أن يتحرك وقلبه مسود بالظلمات مريض بالعلل والآفات ونفسه مشوبة بالكدورات ومتعلقة بالشهوات.

ويقول صاحب الهدية العلانية: وقد تظاهرت نصوص الشرع والإجماع على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم والكبر والعجب والرياء والنفاق وجملة الخبائث من أعمال القلوب بل السمع البصر والفؤاد فكل ذلك كان عنه مسؤولا مما يدخل تحت الاختيار([46]٣).

وقال صاحب جوهرة التوحيد الشيخ إبراهيم اللقاني:

([44]١) حاشية ابن عابدين المسماة رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ج١ ص ٣١.

([45]٢) حاشية الطحاوي على مراقي الفلارح شرح نور الإيضاح ص ٧٠ -٧١ .

([46]٣) الهدية العلانية ، علاء الدين عابدين ص ٣١٥.

وغيبة وخصلة ذميمة	وأمر بعرف واجتنب نميمة
وكالمراء والجدل فاعتمد	كالعجب والكبر وداء الحسد

يقول شارحها عند قوله: وخصلة ذميمة أي واجتنب كل خصلةذميمة شرعا وإنما خص المصنف ما ذكره يعد اهتماما بعيوب النفس لأن بقاءها مع إصلاح الظاهر كالذي يلبس ثيابا حنة وجسمه ملطخ بالأوساخ ويكون كالعجب أيضا وهو رؤية العبادة واستعظامها كما يعجب العالم بعلمه والعابد بعبادته فهذا كله حرام ومثل العجب الرياء واللم والبغي والكبر وداء الحسد والجدل والمراء([47]١).

والكبر من أمراض القلوب وهو وحده يكفي لدخول النار بدليل قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »([48]٢).

يقول ابن ذكوان في أهمية التصوف وفائدته:

من كدرات النفس في المواطن	علم به تصفية البواطن

قال العلامة المنجوري في شرح هذا البيت (التصوف علم يعرف به كيفية تصيفة الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب الطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله تعالى)([49]٣).

وللسادة الصوفية الحظ الأوفر من الوراثة النبوية في تحلية النفس بالصفات الكاملة كالتوبة والتقوة والاستقامة والصدق والإخلاص والورع والتوكل والرضا والأدب والتسليم والمحبة والذكر والمراقبة وقد قيل في حقهم:

وطهروا الأبدان والقلوب	قد رفضوا الآثام والعيوبا
وانتهجوا مناهج الإحسان([50]٤)	وبلغوا حقيقة الإيمان

([47]١) شرح الجوهرة للباجوري ص ١٢٠ – ١٢٢ .

([48]٢) رواه مسلم (٢٦٣) والترمذي (١٩٩٨) مطولا.

([49]٣) النصرة النبوية للشيخ مصطفى إسماعيل لمدني على هامش شرح الرائية للفاسي، ص ٢٦.

([50]٤) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية للعلامة ابن عجيبة على هامش شرح الحكم لابن عجيبة ج١ ص ١٠٥.

فالتصوف اهتم بالجانب القلبي واهتم أيضا بما يقابله من العبادات المالية والبدنية وسهل ورسم الطريق الحقيقي العلمي المعلي الذي يوصل المسلم إلى أعلى مقامات الكمال الإيماني الخلقي ولم يقتصر فقط على قراءة أوراد وحلقات أذكار فحسب بل التصوف منهج علمي وعملي صحيح شامل كامل يحقق تغير الإنسان إلى شخصية مسلمة متكاملة مثالية وسبب نجاح الصوفية في هذه الأعمال هو حرصهم وشدة اتباعهم لسيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ويوقل الإمام السيد أحمد الرفاعي قدس الله سره : (الفقير (الصوفي) على الطريق ما دام على ا لسنة فمتى حاد عنها زل عن الطريق)(١[51]).

فتجلى لنا إذا بعد كل هذه الألة وبوضوح أن التصوف هو روح الإسلام وقلبه السليم وليس أعمالا ظاهرية وأفعالا شكلية لا حياة فيها ولا روح.

وبفقد روح الإسلام وجوهره وصل المسلمون إلى درك من الانحطاط والضعف لذلك هم العلماء العاملون الصادقون أصحاب المبادئ والمرشدون المربون العارفون بنصح الناس بالالتزام مع الصوفية وصحبتهم ليتحققوا بأمر الله تعالى ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾(٢[52]) لكي يحظوا برضاء الله ويتذوقوا معاني الصفاء القلبي والسمو الخلقي ويتعرفوا على الله تعالى معرفة حقيقية يقينية وحظوا بمحبته ومراقبته ودوام ذكره.

قال حجة الإسلام الإمام الغزالي: بعد أخ اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته (الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)(٣[53]).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : (عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهاليكن وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق واحرص على اللحاق بهم وغض الطرف عن سواهم فإنهم لن يغنوا عنك من الله تعالى شيئا وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت اليهم فإنك متى التفت اليهم أخذوك وعاقوك)(٤[54]).

([51]١) البرهان المؤيد ص ٦٣.

([52]٢) سورة التوبة الآية (١١٩).

([53]٣) النصرة النبوية على هامش شرح الرائية للفاسي ص ٢٦.

([54]٤) إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة ص ٧.

ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فعلى الإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى ينقذ نفسه من بعد الله وغضبه.

ما قيل في تعريف التصوف

يقول السهروردي([55]١) رضي الله تعالى عنه (قال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول).

وقال الشيخ أحمد رزوق في قواعده: وقد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها صدق التوجه إلى الله وإنما هي وجوه فيه([56]٢).

١- **قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله** : التصوف ليس ما أخذ عن القيل والقال ولكن أخذ من الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات([57]٣).

٢- **وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى** : التصوف هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه أي تخليص القلب لله تعالى واعتقاد ما سواه اعتقادات أنه لا يضر ولا ينفع فلا يعول إلا على الله فالمراد باحتقار ما ساه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع وليس المراد الازدراء التنقيص([58]٤).

٣- **وقال الشيخ ابن عطاء الله السكندري:** (التصوف هو الاسترسال مع الحق).

٤- **وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى** : (التصوف لب الإسلام).

وقال أيضا: التصوف : هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل وأوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة([59]٥).

٥- **وقال الشبلي رحمه الله تعالى** (التصوف : ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك)([60]٦).

وقال أيضا : (التصوف هو الجلوس مع الله بلا وهم).

٦- **وقال الشيخ معروف الكرخي رحمه الله تعالى** : (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيد الخلائق)([61]٧).

([55]١) سهرورد: كلمة مركبة من (سهر)بمعنى أحمر بالكردية و (ورد) بمعناها العربي أي الوردة الحمراء والتركيب من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

([56]٢) قواعد التصوف – القاعدة الثانية.

([57]٣) قواعد التصوف – القادعدة الثانية.

([58]٤) حكايا الصوفية ص ٢٥ – ٢٦ .

([59]٥) معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص ٤.

([60]٦) معيد النعم ومبيد النقم ص ٩٤.

([61]٧) تاريخ التصوف الإسلامي ص ١٧.

٧- **وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى** (التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية)(١[62]).

٨- **وقال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى** (التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا .

وقال أيضا: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف(٢[63]).

٩- **وسئل رويم عن التصوف فقال:** (التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد).

وقال أيضا: (التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار(٣[64]) والتحقيق بالذل والإيثار وترك التعرض للاختيار).

١٠- وقال الإمام الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى : (التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع) وقال أيضا (علمنا هذا التصوف مقيد بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال أيضا : (علمنا هذا التصوف مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجلس ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه).

وقال أيضا: (التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن صفا من كل ما سوى الله فهو الصوفي)(٤[65]).

وقال أيضا: (التصوف حفظ الأوقات).

وقال أيضا (التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقة واستعمال من هو ألى على الأبدية النصح لجميع الأمة والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول في الشريعة)(٥[66]).

([62]١) نور التحقيق ص ٩٣.

([63]٢) شرح كلمات الصوفية ص ٣٢٦ -٣٢٧ .

([64]٣) الفقر عند السادة الصوفية هو الالتجاء إلى الله تعالى والافتقار اليه.

([65]٤) مقدمة الشيخ عبدالحليم محمود رحمه الله تعالى على كتاب (غيث المواهب العلمية فيشرح الحكم العطائية) (٢٦/١).

([66]٥) التعرف لمذب أهل التصوف ص ٢٠.

وسئل الجنيد عن التصوف فغقال: (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء) أي أن تعتقد أنك فقير على وجه الحقيقة لا تملك شيئا والله سبحانه وتعالى هن المالك الحقيقي.

وقال الشبلي رحمه الله تعالى سمعت الجنيد يقول: (التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به).

١١- **وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله عن التصوف فقال:** الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني.

١٢- **وقال الشيخ عمر بن عثمان المكي رحمه الله تعالى :** (التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت).

١٣- **وقال أبو الحسن ابن أبي ذر في كتابه** (منهاج الدين أنشدونا للشبلي):

علم التصوف علم لانفاد له	علم سني سماوي ربوبي
فيه فوائد للأرباب يعرفها	أهل الجزالة والصنع الخصوصي([67]١)

١٤- وقال الشيخ أبو حفص رحمه الله تعالى : (التصوف كله آداب لكل وقت أجب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول)([68]٢).

١٥- وقال صاحب كشف الظنون: التصوف علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم إلى أن قال:

علم التصوف علم ليس يعرفه	إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده	وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

١٦- وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى : (التصوف علم قصد به صلاح القلوب وإرادها لله تعالى عما سواه والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام والأصول (علم التوحيد) لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان والطب لحف الأبدان النحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك)([69]٣).

([67]١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠١.

([68]٢) طبقات الصوفية ص ١١٩.

([69]٣) قواعد التصوف -٠ قاعدة ١٣ ص ٦.

١٧- وقال الشيخ حسين الزيباري العلواني رحمه الله تعالى: (ينحصر التصوف في أربع كلمات : أن تنصف الناس من نفسك ولا تطلب الإنصاف منهم وأن تبدي لهم شيئك وأن تكون من شيئهم آيسا)([70]١).

١٨- وقال الشيخ أبو يعقوب السوسي رحمه الله تعالى : (الصوفي هو الذي لا يزعجه سلب ولا يتعبه طلب).

١٩- وقال الشيخ أبو القاسم النصر أبادي رحمه الله: (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ورؤية أعذار الخلائق والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات).

٢٠- وقال أبو جعفر الحداد رحمه الله : (التصوف هو استقامة الأحوال مع الحق).

٢١- وقال المزين رحمه الله تعالى : (التصوف هو الانقياد للحق) .

٢٢- وقال الشيخ علي بن بندار رحمه الله تعالى : (التصوف هو إسقاط الخلق ظاهرا وباطنا)([71]٢).

٢٣- وسئل أبو الحسن النوري رحمه الله : ما التصوف؟ فقال: ترك كل حظ للنفس.

٢٤- وقال الشيخ أبو القاسم جعفر بن أحمد المقرئ: التصوف استقامة الأحوال مع الحق([72]٣).

٢٥- وقال السيد الشريف الجرجاني: التصوف هو وقوف مع الآداب الشرعية اهرا فيسري حكمها من الظاهر إلى الباطن وباطنا فيسري حكمها من الباطن إلى الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمة كمال.

٢٦- وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر الباطن لنيل السعادة الأبدية([73]٤).

٢٧- وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى : (التصوف اسم حادث لمسمى قديم إذ إن مسماه لا يعدو كنونه سعيا إلى تزكية النفس من

([70]١) المراد بالشيء: متاع الدنيا.

([71]٢) معيد النعم ومبيد النقم ص ٩٤.

([72]٣) طبقات الصوفية ص ٥١١.

([73]٤) الرسالة القشيرية ص ٧.

الأوضار العالقة بها عادة كالحسد والتكبر وحب الدنيا وحب الجاه وكذلك ابتغاء توجيهها إلى حب الله عز وجل والرضا عنه والتوكل عليه والإخلاص له)([74]١).

٢٨- وقال الشيخ محمد بدر الدين الحامد رحمه الله : (التصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية وتعمير القلب بذكر الله تعالى وخشيته ورجائه والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة...).

٢٩- وقال الدكتور محمد حسن الذهبي : التصوف (هو مناجاة القبلب ومحادثة الروح وفي هذه المناجاة طهر لمن شاء أن يتطهر وصفاء لمن أراد التبرأ من الرجس والدنس وفي تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة والصعود إلى عالم الفيض والإلهام..)([75]٢).

٣٠- وقال العلامة حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق: (التصوف هو تربية علمية وعملية للنفوس وعلاج لأمراض القلوب وغرس للفضائل واقتلاع للرذائل وقمع للشهوات وتدريب على الصبر والرضا والطاعات...)([76]٣).

وقيل إن التصوف هو :

٣١- الافتقار إلى الله تعالى .

٣٢- تصفية القلوب من غير الله تعالى ، ثم الصعود بالروح إلى عالم التقديس بإخلاص العبودية للخالق المعبود والتجريد من السوى.

٣٣- قلوب منكسرة بما عملت لما منه حذرت.

٣٤- سخاء ووفاء وسلوك طريق المصطفى عليه الصلاة والسلام.

٣٥- الرغبة في المحبوب لدرك المطلوب ثم مفارقة الأشرار ومصادقة الأخيار.

٣٦- صدق في المعاملة لا تزين ولا محاولة.

٣٧- بذل الروح طول مدة الحياة وتبديدها استعدادا لسكرة الممات.

٣٨- رتوع القلب الهائم في مرتع العز الدائم.

٣٩- جباه ساجدة وقلوب هالعة والعة.

٤٠- أنس بعد بأس وسرور بعد يأس.

([74]١) كتاب السلفية للدكتور محمد سعيد رمضان البوي ص ١٨٩.

([75]٢) التفسير والمفسرون (٣٢٤/٢ - ٣٢٥).

([76]٣) السالكون إلى الله ص ١٥.

٤١- خوف ورهبة وأدب ورغبة.
٤٢- التزام الصمت واغتنام الوقت.
٤٣- عفة بالنفوس وشهامة بالرؤوس.
٤٤- أرواح متعشقة وباسم الذات متحققة.
٤٥- رقة وشوق وترقي وذوق.
٤٦- نقاء الأفكار وسلوك الأبرار.
٤٧- الموافقة للحق في مفارقة الخلق.
٤٨- حسن الصحبة والقيام بحقها.
٤٩- علم وحكمة وتبصرة وهداية وتربية وتهذيب وعلاج ووقاية وتقوى واستقامة وصقبر واجتهاد وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد.
٥٠- العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى .
٥١- ثورة على التكلف ودعوة إلى التقشف ثورة على الحقد ودعمة إلى الحب ، ثورة على الجاه ودعوة إلى الله ، ثورة على الجدل ودعوة إلى لعمل ، ثورة على الظلم ودعوة إلى العلم، ثورة على الشكوى ودعوة إلى التقوى، ثورة على الشر ودعوة إلى البر، ثورة على التكبر ودعوة إلى التفكر ثورة على التملق ودعوة إلى التذوق ثورة على الكذب ودعوة إلى الصدق.
٥٢- العمود الفقري للإسلام وهو طريق الأبرار الأخيار المقتبس من أعمال الصحابة الكرام فهو طريق الحق والهداية.
٥٣- الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق.
٥٤- لب الشريعة وروجها وثمرتها وحكمتها.
٥٥- الإكباب على العمل والإعراض عن العلل.
٥٦- أن تبتعد عن الكذب ما ساتطعت وإن ظننت ان فيه نجاتك وتدنو من الصدق ما استطعت وإن تيقنت أن فيه هلاكك.
٥٧- حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك.
٥٨- ترك الاختيار.

٥٩- الجد في السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل.

٦٠- أن تصفي قلبك من الأكدار وعملك من الأعذار وتخلص لله الجبار وتعلم أنه لا هادي ولا ولي ولا ناصر ولا غافر إلا الله ولا ملجأ ولا منجي منه إلا اليه.

٦١- أن تعرف ربك بالبقاء ونفسك بالفناء والبقاء الحقيقي هو بروز أوصافك المحودة والفناء الحقيقي هو سقوط أوصافك الذميمة فمن ترك أفعاله الذميمة فني عن شهاته وبالتالي بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته.

٦٢- تعاليم روحية مستمدة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام إنه مرتبة الإحسان التي أشار اليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فغن لم تكن تراه فإنه يراك»([77]١).

٦٣- قطع الشهوات وترك الدنيا والمستحسنات والميل عن المألوفات([78]٢).

٦٤- تصفية القلب من أوضار المادة وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم.

٦٥- التمسك بكتاب الل عز وجل والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم واكل الحلال وكف الأذى اجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق.

([77]١) مر تخريج باب التصوف ومنشؤه.

([78]٢) قطع الشهوات: أي قطع حبها عن القلب لا تركها بالكلية لأنه لا رهبانية في الإسلام.

ما قيل في تعريف الصوفي

١- قال الإمام الرفاعي الكبير قدس الله سره : الصوفي من صفى سره من كدورات الأكوان، وما رأى لنفسه على غيره مزية(١[79]).

وقال رضي الله عنه يذكر علامة الصوفي الصادق: الصوفي هو الصادق في جميع الحركات، المتقلل من المباحات والصمم عن كثير من المسموعات وأن لا يطلب المعدوم حتى يبذل المجهول والموجود(٢[80]) ويقطع الحيلة حتى لا يرى في أحواله وشدته ورخائه وتقلبه غير خالقه ومكونه وإن الفقير متى نظر إلى ما يلبس التبس عليه أمهر ومتى رأى الخلق من دونه هرت عيوبه . الفقير ابن وقته يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر ، يودع لكل ساعة ما يصلح لها ، ولا يضيع شيئا(٣[81]).

٢- وقال أيضا: الصوفي لا يسلك غير طريق الرسول المكرم صلى الله عليه وآله وسلم فلا يجعل حركاته وسكناته إلا مبنية عليه.

٣- وقال أيضا: الصوفي يتجنب مخالطة الخلق مهما أمكن لأن الصوفي كملا زاد اختلاطه بالخلق ظهرت عيوبه والتبس عليه الأمر وإذا خالط البعض فليختر لنفسه صحبة الصالحين فإن المرء على دين خليله.

٤- وقال أيضا: الصوفي لا يصرف الأوقات في تدبير أمور نفسه لعلمه أن المدبر: هو الحق عز وجل، ولا يلجأ في أموره ولا يعول على غير الله تعالى(٤[82]) .

٥- وقال الإمام محمد بهاء الدين الرواس قدس الله سره : الصوفي التقي: الذي لا يريد فسادا في الأرض ولا علوا ، ومن رؤية أبيه وجده وطوره ومقامه الذي يصير مع الحق أين كان ولا ينحرف عنه.

٦- وقال أيضا: المتصوف المتلصص: المحجوب بزيه وأبيه وجده أو شيخه وعمله فإن ذلك من المتصنمين الذي لا خير فيهم ولا في صحبتهم والعاقبة للمتقين(٥[83]).

([79]١) البرهان المؤيد ص ٦٩.

([80]٢) أي لا يطلب الرزق الغائب حتى ينفق الحاضر.

([81]٣) النظام الخالص لأهل الاختصاص ص ٥٩- ٦٠ .

([82]٤) حكم السيد أحمد الرفاعي ص (٤٩ - ٥٠) .

([83]٥) بوارق الحقائق ص ٣١٥.

٧- وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : الصوفي إذا نطق أبان منطقه عن الحقائق وإذا سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق أي أن الصوفي بين حالتين إما أن يتكلم أو يلزم الصمت فغن تكلم لم يقل إلا حقا وإن سكت عهن الكلام نطقت جوارحه فهو مشغول بالله في الحالتين حالة نطقه وحالة سكونه([84]١).

٨- وقال الشيخ بشر بن الحارث الصوفي من صفا قلبه لله.

٩- وسئل الشيخ سهل بن عبدالله التستري من الصوفي؟ فقال: من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى نده الذهب والمدر([85]٢).

١٠- وقال أبو تراب النخشبي: الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء([86]٣).

١١- وقال الإمام الشبلي : الصوفي منقطع عن اللق متصل بالحق لقوله تعالى ﴿واصطنعتك لنفسي﴾([87]٤)، قطعه عن كل غير ثم قال لن تراني([88]٥).

١٢- وقال أبو علي الروذباري: الصوفي من لبس الصوف على الصفا، وأذاق الهوى طعم الجفا، ولزم طريق المصطفى ، وكانت الدنيا منه على القفا([89]٦).

١٣- وقال السهروردي رحمه الله تعالى : الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية ولا يزال يصفي الأوقات من شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ويعينه على كل هذا دوام افتقاره إلى مولاه فبدوام الافتقار ينقي الكدر وكلما تحركمت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها لربه فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى ﴿كونوا قامين بالقسط﴾([90]٧) وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف.

١٤- وقال النوري : نعت الصوفي:/ في السكن عند العدم والإيثار عند الوجود.

([84]١) في رحاب الله ص ١٠.

([85]٢) المدر: قطع الطين اليابس وقيل الطين العلك الذي لا رمل فيه (لسان العرب- مادة مادة مدر).

([86]٣) الرسالة القشيرية ص ٢١٨.

([87]٤) سورة طه الآية (٤١).

([88]٥) تاريخ التصوف الإسلامي (١٦).

([89]٦) معيد النعم ومبيد النقم ص (٩٤).

([90]٧) سورة النساء الآية (١٣٥).

١٥- وقال الشيخ الشعراوي: الصوفي هو الذي يتقرب إلى الله بفروض الله ثم يزيدها بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام من جنس ما فرض الله وأن يكون عنده صفاء في استقبال أقضية العبادة فيكون صافيا لله والصفا هو كونك تصافي الله([91]١).

وقيل إن الصوفي:

١٦- الذي يعطي كل ذي حق حقه جمع بين الدنيا والآخرة بظاهره توجه إلى الدنيا وبقلبه توجه إلى خالقه.

١٧- أن يكون مع الناس ببدنه ومع الله بروحه شهد المكون فغاب عن الأكوان شهد الله فغاب عما سواه فكلما ازداد الصوفي بعدا عن الخلق ازداد قربا من الخالق.

١٨- من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته.

١٩- حكيم ذو حكمة فإن لم يكن حكيما ورعا زاهدا صواما قواما فلاحظ له بهذا اللقب لأنه صفاء القلب وتزكية النفس وجهاد الهوى وأن يكون له عقل راجح وحضور وتمكن قوي من نفسه حتى لا تحكم عليه الأغراض النفسية فهو الخليفة المختار دون غيره من المخلوقين الأمين على خلق الله تعالى فلا يعدل بهم عن سنة الله فكل الموجودات بيد الإنسان أمانة عرضت عليه فحملها فغن أداها فهو الخليفة الأمين، وإن لم يؤدها فهو الظلوم الجهول ولا تطمع بأن ترى هذه الأوصاف في غير الرجال الكمل أهل التحقيق والعرفان السادة الصوفية([92]٢).

٢٠- من كان صافيا من آفات النفس خاليا من مذموماتها([93]٣).

٢١- الصوفي كثير الاستغفار في الليل والنهار في إقبال قلبه والإدبار.

([91]١) أصول الوصول ص ٣٣٧.

([92]٢) حقيقة التصوف ص ٣.

([93]٣) التصوف منشؤه ومصطلحاته ص ٣٢.

ما قيل في تعريف الصوفية

١- قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : الصوفية أطفال في حجر الحق([94]١).

٢- وقال ذو النون: الصوفية هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء.

٣- وقيل لعبدالواحد بن زيد: من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية.

٤- وقال السراج: إذا قيل لك : الصوفية من هم في الحقيقة؟ صفهم لنا فقل: هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله تعالى المتحققون بما استعملهم الله عز وجل([95]٢).

٥- وقال ذو النون: رأيت ارمأة ببعض سواحل الشام فقلت لها: من أين أقبلت رحمك الله ؟ قال: من عند قوم تتافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا قلت: وأين تريدين؟ قالت إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله قلت : صفيهم لي فأنشأت تقول:

قوم همومهم بالله قد علقت	فما لهم همم تسموا إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم	يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف	من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق	ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إثر منزلة	قد قارب الخطو فيها باعد الأبد([96]٣)

٦- وقيل هم الذين ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كالصحابة أهل الصفة والتابعين وتابع التابعين كالجنيد البغدادي وأقرانه إلى يومنا هذا فهؤلاء قوم قلوبهم وعزائمهم صاعدة إلى الملأ الأعلى بالشهود التوحيدي لا يستنكفون عن العبادة ولا يفترون عن الذكر فقوتهم الطاعة ومناجاتهم حب ووجد

([94]١) هذه إشارة للتسليم المطلق منهم لله عز وجل.

([95]٢) اللمع ص (٤٧).

([96]٣) التعرف (ص ٢٠ - ٢١).

بقرب وحياة بعبادة وذوق بعلم وبسط بأنس وخلق بقرآن أي بفهم له أمناء للخلق وخزنة للسر وصفوة للخلق عملوا وتحققوا بالأخوة الروحية والقيم الإنسانية.

أهل مبادئ يعبرون عن روح القرآن وجوهر السة ورثوا أخلاقا حميدة وإيمانا خالصا بهديه عليه الصلاة والسلام فبرز النور المحمدي فيهم وانطلقت أرواحهم تجول بحب وإحساس وقرب مقدس فم أهل ذوق ووجدان ومشاهدة يترنمون بأفكارهم في تجلي الجلال والجمال والكمال حكماء ربانيون أرباب فتوة قائمون بعقولهم على هممهم عاكفون عليه بقولهم معتصمون بسيدهم من شر نفوسهم فهم خير أمة أخرجت للناس.

٧- وقيل: الصوفية هم المجتمعة على الله هممهم المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم الذين لا تشهد سوى الله أسرارهم وليس إلا إليه غدوهم ورواهم فهم أحكم الناس وأعقلهم([1][97]).

٨- وقيل أيضا : إن اصوفية هم بقية من بقايا أهل الصفة([2][98]).

٩- وقيل : الصوفية أوفر الناس حظا في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحقهم بإحياء سنته والتخلق باخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حسن الاقتداء به وإحياء سنته([3][99]).

([97][1]) المدخل إلى التصوف (ص ٩).

([98][2]) اللمع ص ٤٧.

([99][3]) عوارف المعارف (٢٢٩).

- سدينا الإمام الرفاعي:
- قال رضي الله عنه معرفا التوحيد: هو وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعطيل والتشبيه.
- وقال في البرهان المؤيد: صونوا عقائدكم من التمسك بظاهر ما تشابه من الكتاب والسنة، لأن ذلك من أصول الكفر قال تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾([100]١) –والواجب عليكم وعلى كل مكلف في المتشابه الإيمن بأنه من عند الله أنزله على عبده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما كلفنا سبحانه وتعالى تفصيل علم تأويله قال جلت عظمته: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾([101]٢) فسبيل المتقين من السلف تنزيه الله تعالى عما دل عليه ظاهره وتفيض معناه المراد منه إلى الحق تعالى وتقدس وبهذا سلامة الدين.
- وقال: أي سادة نزهوا الله عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين وطهروا عقائدكم من تفسير معنى الاستواء في حقه تعالى بالاستقرار كاستواء الأجسام على الأجسام المستلزم للحول تعالى لله عن ذلك. وإياكم والقول بالفوقية والسفلية والمكان واليد والعين بالجارحة والنزول بالإتيان الانتقال فإن كل ما جاء في الكتاب والسنة مما يدل ظاهره على ما ذكر فقد جاء ي الكتاب والسنة مثله مما يؤيد المقصود فما بقي إلا ما قال صلحاء السلف وهو الإيمان بظاهر كل ذلك ورد حكم المراد منه إلى الله ورسوله مع تنزيه الباري تعالى عن الكيف وسمات الحدوث وعلى ذلك درج الأئمة وكل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله ولكم حمل المتشابه على ما يوافق أصل المحكم لأنه أصل الكتاب والمشتابه لا يعارض المحكم.

([100]١) سورة آل عمران الآية ٧.

([101]٢) سورة آل عمران الآية ٧.

- وقال الصوفي يتباعد عن الأوهام والشكوك ويقول بوحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله لأنه ليس كمثله شيء يعلم ذلك يقينا ليخرج من باب العلم النى وليخلع من عنقه ربقة القليد(١[102]).
- الإمام محمد مهدي بهاء الدين الشهير بالرواس:

قال رضي الله عنه يقول رجال هذه الطائفة رضي الله عنهم : الحمد لله نزمن بالله ونشهد أنه لا شريك له لا في السماء ولا في الأرض تنزه وتقدس عن أن يشاركه فيهما أحد ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾(٢[103]) ونؤمن بما جاء به عن الله الأنبياء والمرسلون وننزهه في ذاته وصفاته عن النظير في الدنيا والآخرة ونقدسه عن الجهات ومجانسة الحادثات ونؤمن بكتابه كله بأنه من عنده أنزله على عبده ونرد تفصيل علم تأويله إليه وننزهه عما دل عليه ظاهره ونفوض المعنى المراد منه اليه تعالى وتقدس ونؤمن بنبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ونشهد بأنه رسول الل وأفضل المرسلين والرحمة العامة للعالمين ونؤمن بأنه رأى ربه بعين بصره وبصيرته ﴿دنا فتتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾(٣[104]) وأنه صلى الله عليه وآله وسلم محمد بن عبدالله ابن عبدالمطلب بن هاشم قرشي عربي بشر فضله الله على خلقه كلهم واختاره لجنابه اصطفاه لذاته وأعطاه الوسيلة الكبرى والشفاعة العظمة وقدمه على النبيين والمرسلين في الآخرة والأولى ونعتقد أنه هو وةإخوانه النبيون والمرسلون معصومون عن الكبائر مطلقا ونبوته عليه الصلاة والسلام باقية وشريعته ناسخة ويقولون نعتقد أن الله تعلى أرسل قبل رسوله ونبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم رسلا أولهم آدم عليه السلام وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكلهم جاؤوا بالحق وتكلموا بالصدق وبلغوا الرسالة وصدقوا فيما بلغوا عن ربهم عز وجل وكل ما أنزل اليهم من الكتب والصحف حق وأن المعراج حق وأن الصالحين معل علو منزلتهم وقربهم من ربهم لا يسقط عنهم شيء من الفرائض والواجبات من الصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك ومن زعم أنه صار وليا وسقطت عنه الفرائض فقد كفر وإن الولي كبقلة تحت شجرة النبوة وإن البعث حق

([102]١) حكم السيد الإمام أحمد الرفاعي قدس الله سره)ص ٤٨*.

([103]٢) سورة الأنبياء الآية (٢٢).

([104]٣) سورة النجم الآية (٨ -٩).

والعرض حق والحساب حق وإن الجنة ونعيمها حق والنار وعذابها حق وأهل الجنة يرون ربهم بعينهم من غير إدراك ولا إحادة ولا كيفية ولا مقابلة ولا على مكان ولا في جهة وإن قراءة الكتب حق يؤتى المؤمن كتابه بيمينه والكافر بشماله والميزان حق الصراط ق وحوض الكوثر حق الشفاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حق وشقفاعة المؤمنين حق ومحبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على العموم حق وكلم على هدى وأن أبا بكر رضي الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته وخلافته حق وبعده خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حق وبعده خلافة عثمان ابن عفان رضي الله عنه تحق وبعده خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه عنه حق وأفضل الخلق بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين([105]١).

وقال رضي الله عنه : في لا إله إلا الله القول بوحدانية الواحد الأحد الفرد الصمد ألا وهو الذي لا إله إلا هو الذي لا شريك له ولا نير له ولا ند له ولا ضد له الذي يحي ويميت وهو على كل شيء قدير([106]٢).

وقال رضي الله عنه: بويعت على تنزيه الله تعالى عن افوقية والجهة والجسم والمكان ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير([107]٣)﴾([108]٤) .

- الإمام عبدالقادر الجيلاني:

قال رضي الله عنه: أخرج عن الخلق جدا واجعلهم كالباب يرد ويفتح وشجرة توجد فيها ثمرة تارة وتحيل أخرى وكل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر وهو الله عز وجل فإذا صح لك هذا كنت موحدا للرب عز وجل.

ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله عز وجل لكيلا تعبدهم وتنسى الله ، ولا تقل فعلهم دون فعل الله فتكفر

([105]١) مسلك ناجية الفطين في مراحل السالكين للسيد محمد مهدي الرواس (ص ٧٩- ٨١).

([106]٢) المرجع السابق (ص١٥).

([107]٣) سورة الشورى الآية(١١).

([108]٤) بوارق الحقائق ص ٣١٣.

فتكون قدريا ولكن قل هي لله خلقا وللعباد كسبا كما جاءت به الآثار ، ولبيان موضع الجزاء من الثواب العقاب..([109]١).

- الإمام الشعراني:

قال رضي الله عنه: اعلم يا أخي أن القوم أجمعوا على أن الله تعالى إله واحد لا ثاني، تنزه عن الصاحبة والولد مالك لا شريك له صانع لا مدبر معه موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده بل ك موجود مفتقر اليه في وجوده فالعامل كله موجود به وهو تعالى مطلق مستمر قائم بنفسه ليس بجوهر فيقدر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء مقدس عن الجهة والأقدار مرئي بالقلوب والأبصار استوى تعالى على عرشه كما قاله ، وعلى المعنى الذي أراده كما أن العرش وما حواه به استوى، له الآخرة والأولى ليس له مثل معقول ، ولا دلت عليه العقول، ولا يحده زمان ولا يقله مكان، وهو الآن على ما عليه كان..، علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما هي عليه، فلم يزل عالما بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء أتقن الأشياء وأحكمه يعلم الكليات والجزئيات على الإطلاق فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالى عما يشركون...، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يرد الله تعالى لهم أن يريدوه ما أرادوه أو أن يفعلوا شيئا لم يرد الله إيجاده أو أرادوه ما فعلوه ولا استطاعوه ولا أقدرهم عليه.

وكما شهدنا لله تعالى بالوحدانية وما يستحقه من الصفات العلية كذلك نشهد لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة إلى جميع الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وأنه صلى الله عليه وآله وسلم بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه وأدى أمانته ونصح أمته ، ونؤمن بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما علمنا ومما لم نعلم([110]٢).

- الإمام الجنيد:

قال رضي الله عنه: التوحيد هو إراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته ، أنه هو الواحد الذي لم يلد ولم يولد بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

([109]١) آداب السلوك للإمام الجيلاني (ص ٦٧– ٦٨).

([110]٢) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني (ص ٢٠– ٢٥).

وقال رضي الله عنه: التوحيد إفراد القدم عن الحدث.

- الإمام القشيري:

قال رضي الله عنه: إن شيوخ هذه الطائفة بنوا عقائدهم على أحوال صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما ه حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العد.

- الشيخ حسين منصور الحلاج:

قال رضي الله عنه: الزم الكل الحدث لأن القدم له فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه والذي بالأداة اجتماه فقواه تمسكه والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت والذي يقيمه غير فالضرورة تمسه والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي اليه ومن آواه محل أدركه أين إنه سبحانه وتعالى لا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله ولا يزاحمه عند ، ولا يحده أمام، ولم يظهره قبل، ولم يفنه بعد، ولم يجمعه كل، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وصفه لا صفة له، وفعله لا علة له، وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج باينهم بقدمه كما باينوه بحدثهم إن قلت متى؟ فقد سبق الوقت كونهن وإن قلت هو فالهاء والواو من خلقه وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده فالحروف آياتهن ووجوده إثباته ومعرفته توحيده وتوحيده تمييزه عن خلقه ما تصور بالأوهام فهو بخلافه كيف يحل به ما منه بداه أو يعود إليه ما هو أنشأه لا تراه العيون ولا تقابله الظنون علوه من غير توقل([111])،ومجيؤه من غير تنقل هو الأول والآخر والظاهر الباطن والقريب والبعيد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

- الشيخ أبو محمد سهل بن عبدالله التستري:

قال رضي الله عنه حين سئل عن الله عز وجل: ذات موصوفة بالعلم غعير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا وهو موجود في حقائق الإيمان من غير حد ولا حلول تراه العيون في العقبى ظاهرا في ملكوته وقدرته لقد حجب سبحانه وتعغالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته.

([111]) وقل في الجبل: يقل صعد ورفع رجلا وأثبت أخرى

- الشيخ أبو الحسن البوشنجي:

قال رضي الله عنه: التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه للذوات ولا منفي الصفات.

- **الشيخ أبو محمد الحريري:**

قال رضي الله عنه: من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلت به قدم الغرور في مهواة التلف ومن لم يتأمل التوحيد سقط عن سنن النجاة ووقع في أسر الهلاك.

- الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني:

قال رضي الله عنه: جميع ما قاله المتكلمون في التوحيد قد جمعه أهل الحقيقة في كلمتين: الأولى: اعتقاد أن كل تصور في الأوهام فالله بخلافه، والثانية: أن ذاته تعالى غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات.

- الشيخ أبو بكر محمد الكلاباذي:

قال رضي الله عنه: اجمعت الصوفية على أن الله واحد أحد فرد صمد عالم قادر حي سميع بصير عزيز عظيم جليل جواد رؤوف متكبر جبار باق أول إله سيد مالك رب رحمان رحيم مريد حكيم متكلم خالق رازق موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته مسمى بكل ما سمي به فنسه لم يزل قديما بأسمائه وصفاته غير مشبه بالخلق بوجه من الوجوه لا تشبه ذاته الذوات ولا صفته الصفات لا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم لم يزل سابقا متقدما للمحدثات موجودا قبل كل شيء لا قديم غيره ولا إله سواه ليس بجسم ولا شبح ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا اجتماع له ولا افتراق لا يتحرك ولا يسكن لا ينقص ولا يزيد ليس بذي أبعاد ولا أجزاء ولا أعهضاء ولا بذي جهات ولا أماكن لا تجري عليه الآفات ولا تأخذه السنات ولا تداوله الأوقات ولا تعينه الإشارات لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان ، لا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن لا تحيط به الأفكار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الأبصار.

قيل:

التوحيد: هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتا وصفات وأفعالا.

أخلاق الصوفية

ويفصل السهروردي بيان أن ما دعا اليه الصوفية من أخلاق هي نفس ما تخلق به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سلوكه ودعا إليه في أحاديثه ومن ذلك:

١- أن من أخلاق الصوفية: التواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض([112]١)،»وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب دعوة الحر والعبد ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين.

٢- ومن أخلاقهم المداراة واحتمال الأذى من الخلق: قال رسول الهل صلى الله عليه وآله وسلم : «المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»([113]٢).

٣- ومن أخلاقهم الإيثار والمواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا وقوة اليقين شرعا([114]٣) وفي هذا المعنى نزلة الآية: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾([115]٤)، ويؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود.

٤- ومن أخلاقهم التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة، وقد روي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »([116]٥).

٥- ومن أخلاقهم البشر وطلاقة الوجه، فالصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس([117]٦). وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق([118]١)»([119]٢) .

([112]١) أخرجه مسلم (٧١٣٩) والبخاري في الأدب المفرد (٤٢٨)، وأبو داود (٤٨٩٥)، والطبراني في الكبير (١٧/١٠٠٠) وابن ماجه (٤١٧٩)، وأحمد (٤/١٦٢)، والنسائي في فضائل القرآن (٩٥).

([113]٢) أخرجه البخاري في الأدب (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٢/٤٢).

([114]٣) عوارف المعارف (ص٢٤٧).

([115]٤) سورة الحشر الآية (٩).

([116]٥) عوارف المعارف ص ٢٥٣ والحديث في كنز العمال (٧٠١٦).

([117]٦) عوارف المعارف ص ٢٥٤.

٦- ومن أخلاقه من غير افتقار وترك الادخار، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه نهى خادمه عن الادخار قائلا: «ألن أنهك أن تخبئ شيئا لغد؟ فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد» وورد أيضا أنه قال : «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا([120]٣).»([121]٤).

٧- ومن أخرقهم التودد والتآلف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»([122]٥).

٨- ومن أخلاقهم رضي الله عنهم غيرتهم لله تعالى: إذا انتهكت حرماته نصرة للشريعة المطهرة فكانوا لا يفعلون فعلا ولا يصحبون أحدا إلا إذا علموا رضا الله تعالى فيه، فلا يحبون أحدا ولا يبغضونه لعلة دنيوية.

- وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما يقول: لا يصطحب اثنان على غير طاعة الله إلا تفرقا على غير طاعة الله.
- وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: إذا أحدث الرجل حدثا ولم يبغضه من زعم أنه أخوه فمحبته لغير الله إذ لو كانت لله لغضب على من عصاه.
- وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: من ادعى أنه يحب عبدا لله تعالى ولم يبغضه إذا عصى الله تعالى فقد كذب في دعواه أن يحبه لله.
- وقد كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى لا يطرد الكلب إذا جلس بحذاءه ويقول: هو خير من قرين السوء (وكفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع في الصالحين).

([118]١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٣٠٤)، والترمذي (١٩٧٠)، وقال حديث حسن، وأحمد (٣٤٤/٢)، وعبد ابن حميد (١٠٩٠).

([119]٢) عوارف المعارف (٢٥٥ص.

([120]٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (٢٤٢٤)، والترمذي (٢٣٦١)، وابن ماجه (٤١٣٩)، وأحمد (٢٣٢/٢)، وفي الزهد ص (٨)، ووكيع في الزهد (١١٩)، وابن أبي شيبة (٢٤٠/١٣، ٢٤١)، وابن حبان (٦٣٤٤)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ص (٢٦٨)، والبيهقي (١٥٠/٢، وفي دلائل النبوة (٨٧/٦).)

([121]٤) عوارف المعارف ص (٢٦١).

([122]٥) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٩١٤٧) ورمز لصحته.

- وكان أحمد بن حرب رحمه الله تعالى يقول: ليس شيء أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم وليس شيء أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم.

٩- ومن أخلاقهم رضي الله عنهم قلة الضحك وعدم الفرح بشيء من الدنيا: بل كانوا ينقبضون بكل شيء حصل لهم من ملابسها ومراكبها ومناكحها عكس ما عليه أبناء الدنيا كل ذلك خوفا أن يكون من جملة ما عجل لهم من نعيم الآخرة وكيف يفرح بشيء من هو في السجن محبوس عن لقاء الله عز وجل فكما يحزن المحبوس عن داره وعياله ويتكدر كذلك يحزن أولياء الله تعالى على طول عمرهم وسجنهم في هذه الدار عن لقاء ربهم عز وجل.

- وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى لا يراه أحد إلا ظن أنه قريب عهد بمصيبة لما يرى به من شدة الحزن والخوف.
- وكان الفضيل بن عياض رحمه الهل تعالى يقول: رب ضاحك وأكفانه قد خرجت من عند القصار([123]١).

١٠- ومن أخرقهم رضي الله عنهم كثرة الخوف من الله تعالى أن يعذبهم على ما جنوه من مظالم نفوسهم ومالم العباد: ولو عود خلال لأحد أو إبرة يخيطون بها لاسيما إن كان أحدهم يتقل أعماله الصالحة في عينه فإنه يشتد خوفه وكربه لعدم أن يكون معه شيء من الحسنات يعطي منها الخصوم يوم القيامة ، وربما شح أحد المظلومين يوم القيامة فلا يرضى بجميع أعمال الظالم الصالحة في مظلمة واحدة من مال أو عرض أو لطمة.

وكان الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى يقول: بلغنا أنه تاب كيال عن الكيل وأقبل على عبادة ربه عز وجل ، فلما مات رآه بعض أصحابه في منامه فقالوا له: ما فعل الله بك يا فلان؟ قال أحصى علي خمسة عشر قفيزا من أنواع الحبوب التي كنت أكتالها، فقال له : كيف ذلك؟ قال: كنت أغعفل عن تعاهد الكيل بالنقص من الغبار فيتراكم في قعره التراب، فكانت كل كيلة تنقص بقدر ما في القعر من التراب.

([123]١) تنبيه المغترين للشعراني (ص ٤٧- ٤٨).

(وكان ميمون بن مهران رحه الله تعالى يقول: إن الرجل ليلعن نفسه في الصلاة ولا يشعر ، فقيل له: وكيف ذلك ؟ قال يقرأ: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾([124]١) وهو قد ظلم نفسه بالمعاصي وظلم الناس بأخذ أموالهم والوقوع في أعراضهم).

- وكان أحمدبن حرب رحمه الله تعالى يقول: يخرج من الدنيا أقوام أغنياء من كثرة الحسنات فيأتون يوم القيامة مفاليس من أجل تبعات الناس.
- وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: لأن تلقى الله تعالى بسبعين ذنبا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد.

١١- ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم : كثرة الخوف من الله تعالى إذا ذكروا أهوال القيامة وكثرة الغشيان إذا سمعوا القرآن والذكر: وقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما قوله تعالى : ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما﴾([125]٢) وكان وراءه حمران بن أعين فخر ميتا رضي الله عنه([126]٣).

١٢- ومن أخلاقهم رضي الهل تعالى عنهم: تقديم أعمال الآخرة دائما علىأعمال الدنيا: فيقدم أحدهم ورده بعد صلاة الصبح على سائر مهماته كما يقدم التهجد في الليلة الباردة على نومه تحت اللحاف وعلى ذلك درج السلف الصالح كلهم رضي الله عنهم فمن أصبح وهمته الدنيا فهو خارج عن طريقهم.

- وكان يونس بن عبيد رحمه الله تعالى يقول: من لم تكن عنده تسبيحة أو تهليلة واحدة خيرا من الدنيا وما فيها فهو ممن آثر الدنيا على آخرته.
- وكان سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول: الدنيا ابنة إبليس فمن خطبها كثر تردد أبيها اليه ، فإن دخل بها أقام عنده بالكلية قلت المراد (بخطبته الدنيا) تمنيها، و (بالدخول بها) إمساكها أي إمساك الفاضل منها عن حاجته لغير غرض شرعي فعلم أن من أراد أن إبليس لا يسكن عنده مع تزويجه ابنته فقد رام المحال ولذلك كان يتوسوس في الصلاة والوضوء والنيات كلها كثير من الناس الذين يحبون الدنيا بقلوبهم.

([124]١) سورة: هو الآية (١٨).

([125]٢) سورة المزمل الآية (١٢ - ١٣)..

([126]٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩١٧).

١٣- ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم عدم غفلتهم عن ذكر الله تعالى نوعن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مجلس جلسوه: عملا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا كان عليهم تره/ [أي : تبعة ونقصا] يوم القيامة»([127]١).

وأيضا عملا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها([128]٢).

- وكان داود الطائي رحمه الله يقول: كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين. وكان ثابت البناني رحمه الله تعالى يقول: (إني لأعرف متى يذكرني الله تعالى ، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: إذا ذكرته سبحانه وتعالى ذكرني قال تعالى ﴿فاذكروني أذكركم﴾([129]٣).
- وكان يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يقول: حادثوا القلوب بذكر الله فإنها سريعة الغفلة وكان وهب بن منبه رحمه الله تعالى يقول: واعجبا من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد([130]٤).

١٤- ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم دقة قلوبهم وكثرة بكائهم: على تفريطهم في حقوق الله تعالى لعل الله أن يرحمهم.

- وكان على هذا المقام الإمام أبوبكر الصديق رضي الله عنه وعمر بن الخطاب وأبو الدرداء رضي الله عنهم.

١٥- ومن أخلاقهم رضي الله عنهم نصح بعضهم بعضا: فكان الكبير لا يتكدر من نصح الصغير له ، وبالعكس.

وكان يحيى بن معاذ يقول: ما أمر الإنسان في هذه الدار ولو طال إلا كنفس واحد في جنب عيش الجنة، ومن ضيع نفسا واحدا يعيش به عيش الأبد إنه والله من الخاسرين.

([127]١) أخرجه أحمد (٤٦٣/٢) وكذا في مجمع الزوائد (١٦٧٨٦) ورجاله رجال الصحيح وأخرجه أيضا ابن المبارك في الزهد (٩٦٢).

([128]٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٢/٢٠) ورجاله ثقات كذا في مجمع الزوائد (١٠/رقم ١٦٧٤٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣).

([129]٣) سورة البقرة الآية (١٥٢).

([130]٤) تنبيه المغترين ص (١١٨- ١١٩).

١٦- ومن أخلاقهم رضي الله عنهم شدة خوفهم من الله تعالى أن يختم لهم بسوء: فيكونوا من اللمحجوبين عنه في النار وكان أحدهم يأخذ في التفكير والحزن ححتى يغيب عن الحاضرين.

- وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يقول: أكثر ما يسلب من الناس الإيمان عند الموت وبكى سفيان الثوري مرة حتى غشي عليه فقيل له: علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زمانا ، ونحن الآن نبكي على الإسلام – أي : خوفا أن يذهب منا. وكان موسى بن مسعود يقول: شكنا إذا جلسنا عند سفيان الثوري فكأنما نار أحاطت بنا لما نرى عليه من شدة الخوف والجزع.
- وكان الفضيل بن عياض يقول: خوف العبد من الله على قدر معرفته به([131][١]).

١٧- ومن أخرقهم رضي الله تعالى عنهم أن يكون أحدهم هينا لينا ينقاد للصغير كما ينقاد الجمل: وفي الحديث الذي فه الأمر بتسوية الصفوف: (ولينوا في يد إخوانكم)([132][٢])، وفي القرآن العظيم ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾([133][٣]) إذا علمت ذلك فاعلم أن من جملة لين الفقراء أن أحدهم إذا دخل على جماعة يذكرون الله تعالى كذكر الأعاجم أو المغاربة أو الشناوية أو المطاوعة مثلا أن يذكر معهم كهيئتهم في الصورة بطرقة الشرعي وكذلك يوافقهم في ذكرهم الذي لقنوه حين دخلوا في الطريق من نفي أو إثبات، ولا يقول إن هذه الكيفية ليست طريقة شيخنا كما يقع في ذلك كثير من الناس، فيفوتهم الأجر مع وقوعهم في الجفاء وغلظ الطبع فالعم ذلك واعمل عليه ، والحمد لله رب العالمين.

١٨- ومن أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم رؤية محاسن الناس والتعامي عن مساويهم: حتى إن أحدهم لا يكاد يرى في أخيه المسلم عيبا يهجوه به أبدا ويصير الناس كلهم عنده صالحين فعلم أن الصالحين لا يعادون أحدا لفحظ نفس وإما الناس هم الذين يعادونهم حسدا وعدوانا فإن قيل: إن صاحب هذا المقام يقل نفعه لأصحابه من حيث عدم النصح والتحذير من المنكر فيصير

([131][١]) تنبيه المغترين للشعراني ص(٨٨- ٩١).

([132][٢]) قطعة من حديث مطلعه (أقيموا الصفوف) أخرجه أبو داود (٦٦١)، والنسائي: (٨٢٠)، وأحمد في المسند (٢/٩٧).

([133][٣]) سورة آل عمران الآية(١٥٩).

هذا مرتكبا للمعاصي على الدوام ولا يهتدي لتحذيره عنها لعدم شهودها فيه إذا حمله على المحامل الحسنة! فالجواب أنه يهتدي للتحذير بالإلهام الصحيح بواسطة رابطته به ، أو بقياسه على نفسه ويقول: كما أني ارتكب المعاصي مثلا فكذلك أخي قد لا يخلو منها فإن ما جاز في حقي جاز في حق غيري ومعلوم عند القوم أن ذكرهم نقائص إخوانهم لا يكون إلا على وجه التحذير دون التشفي لبراءتهم من مثل هذا الفعل.

١٩- ومن أخرقهم رضي الله تعالى عنهم : كثرة أدبهم مع من علمهم سورة أو آية من القرآن وهم أطفال: فلم يزل أحدهم يتأدب مع من علمه السورة أو الآية أو الباب من العلم حتى إنه لا يقدر يمر عليه راكبا ولا يتزوج له مطلقة ولو صار من مشايخ الإسلام([134]١).

فأخلاق أهل التصوف كثيرة جدا وما هي إلا صورة عن أخلاق سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم الذي وصفه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله ﴿وإنك على خلق عظيم﴾([135]٢).

([134]١) تنبيه المغترين للشعراني (ص ١٠٠- ١٠٤).

([135]٢) سورة القلم الآية ٤.

أقوال الأئمة والعلماء في التصوف

١- الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى([1][136]): صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات:

قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك.

وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: العدم عصمة([2][137]).

وقال أيضا: حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف وعشرة الخلق بالتلطف والاقتداء بطريق أهل التصوف([3][138]).

٢- الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى:

نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر: أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: (أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي وهو من داود الطائي ، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله)([4][139]).

٣- الإمام مالك رحمه الله تعالى:

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى : (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق)([5][140]).

٤- الإمام أحمد رحمه الله تعالى :

كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى([6][141]) قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبدالله رحمه الله تعالى : (يا ولدي عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم

([136][1]) الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي في مصر سنة ٢٠٤هـ

([137][2]) تأييد الحقيقة العلية للإمام جلال الدين السيوطي ص ١٥.

([138][3]) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للإمام العجلوني المتوفي سنة ١٦٦٢هـ، ج/ ص ٣٤١.

([139][4]) الدر المختار ج١ – ص ٤٣ وعليه حاشية ابن عابدين.

([140][5]) حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني في الفقه المالكي ج٣ ص ٩٥ وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي القاري المتوفي ١١٤هـ ج١ ص ٣٣ والإمام مالك رحمه الله تعالى أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي سنة ١٧٩هـ في المدينة المنورة.

([141][6]) الإمام أحمد رحمه الله تعالى أحد الأئمة الأربعة المشهورين توفي سنة ٢٤١هـ.

صوفية فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة)([142]١).

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول أبي حمزة البغدادي رضي الله عنه: ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟ فمهما قال له اعتمده.

ونقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى عن إبراهيم بن عبدالله العلاني رحمه الله تعالى أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قال عن الصوفية (لا أعلم أقواما أفضل منهم قيل إنهم يستحيون ويتواجدون قال دعوهم يفرحون مع الله ساعة...)([143]٢).

٥- ابن تميمية رحمه الله تعالى :

تحدث أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة في الجزء العاشر من مجموع فتاويه فقال: فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يجرخ عن الأمر والنهي الشرعيين بل علهي أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف وهذا كثير في كلامهم([144]٣).

ويصفهم أيضا بانهم من أكمل صديقي زمانهم([145]٤).

٦- ويقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد عن الصوفية:

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء (الصوفية) ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ولكهم رضوا أن يكونا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس لهم

([142]١)تنوير القلوب ص ٤٠٥ للعلامة الشيخ أمين الكردي المتوفي سنة ١٣٣٢هـ.

([143]٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ج١ ص ١٢٠.

([144]٣) مجموع فتاوي أحمد بن تيمية ج١ س٥١٦ – ٥١٧.

([145]٤) الفتاوي (١١/ ١٧).

مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله ولامه عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحته ما يتحدثون به ومنه ظهور الأثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم.

وقال أيضا فيما يرويه تلميذه محمد رشيد رضا عنه في كتاب (تاريخ الأستاذ الإمام) ص ٩٢٨، لا يوجد في أمة من الأمم من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتزكية النفوس وإنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين وكل ما أنا فيه من نعمة في ديني أحمد الله فسببها الصفوية ؟

ويقول تلميذه محمد رشيد رضا في الكتاب السابق ذكره ص ١٢٦ وقد بينا في أول الفصل أن الأستاذ الإمام رحمه الله قد ربى تربية صوفية وأنه كان صوفيا صفيا خفيا وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف وإن كان مع الناس فيما يشاركهم فيه من الصفات والأحوال.

٧- تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى :

وقال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه الله تعالى في كتابه معيد النعم ومبيد النقد تحت عنوان (الصوفية) حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعبا ناشئا عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها إلى أن قال وإنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة .. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجي الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم فرضي الله عنهم وعنا بهم([146]١).

٨- الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى:

قال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : (الباب الثامن في أحوال الصوفية: اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية

([146]١) كتاب معيد النعم ومبيد النقم ص ١١٩، للإمام تاج الدين عبدالوهاب السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ

وهذا طريق حسن.. وقال أيضا: والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية ويجتهدون أن لا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل وهؤلاء هم ير فرق الآدميين)([147]١).

٩- الإمام الشاطبي رحمه الله

ذكرت مجلة المسلم ، العشيرة المحمدية([148]٢) تحت عنوان (الإمام الشاطبي([149]٣)) صوفي سلفي للسيد أبي التقي أحمد خليل: كتاب الاعتصام من الكتب التي يعتبرها المتسلفة مرجعا أساسيا لبعض آرائهم ويرون في الشيخ أبي إسحاق الشاطبي إماما لهم وقد عقد الإمام الشاطبي في كتابه هذا فصولا كريمة عن التصوف الإسلامي وأثبت أنه من صميم الدين وليس هو مبتدعا ووفي المقام هناك بما تسلم له العقول والقلوب فاستمع إلى الإمام الشاطبي يقول:

إن كثيرا من الجهال يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الاتباع والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون عليه وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوابه : فأول شيء بنوا عليه طريقهم اتباع السنة واجتناب ما خالفها حتى زعم مذكرهم وحافظ مأخذهم وعمود نحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم إنما اخصتوا باسم التصوف انفرادا به عن أهل البد فذكر أن المسلمين بعد رسول الهل صلى الله عليه وآله وسلم لم يسم أفاضلهم في عصرهم باسم علي سوى الصحبة إذ لا فضيلة فوقها ثم سمي من يليهم التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية في الدين: الزهاد والعباد قال ثم ظهرت البدع وادعى كل فريق أن فيهم زهادا وعبادا فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله، والحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف، فتأمل تغنم والله أعلم.

١٠- ابن خلدون رحمه الله تعالى:

وقال ابن خلدون رحمه الله تعالى في كلامه عن علم التصوف: هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فيالملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة

([147]١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام فخر الدين الرازي ص ٧٢ – ٧٣ توفي سنة ٦٠٦هـ.

([148]٢) مجلة المسلم ، العشيرة المحمدية ، عهدد ذي القعدة سنة ١٣٧٣هـ

([149]٣) الشاطبي هو إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي المتوفى سنة ٧٩٠هـ.

وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف ، فلما فشي الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح النا إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية([150]١).

١١- العلامة الشريف الجرجاني في (التعريفات) ص ٥٢:

يقول : التصوف مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل وهو تصفية القلب عن مواقف البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة واتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الشريعة.

١٢- الإمام أبو حامد الغزالي:

يقول الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب (الأربعين) وعلوم الفلسفة القديمة بكتاب (مقاصد الفلاسفة) وكذلك التاهفت يقول واصفا التصوف والصوفية: ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان حينئذ العلم أيسر علي من اغلعمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، حصلت على ما يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسماع فظهر لي أن أخص خصائصهم لا يمكن الوصول اليه بمجرد العلم بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات ، فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال.

([150]١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٨ وهو عبدالرحمن ابن الشيخ أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي توفي ٨٠٨هـ.

والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى.

وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخرقهم أزكى الأخرلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية ومذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله([151]١).

١٣- الإمام القشيري رحمه الله تعالى:

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في مقدمة رسالته المشهورة متحدثا عن الصوفية: جع الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووفقهم للقيام بآلآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانسكار ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال علما منهم بانه جل وعلا يفعل ما يريد ويختار من يشاء من العبيد لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم بعدل وأمره قضاء فصل([152]٢).

١٤- العز بن عبدالسلام رحمه الله تعالى :

قال سلطان العلماء عز الدين بن عبدالسلام رحمه الله تعالى : قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم

([151]١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالي تحقيق الدكتور عبدالرحيم محمود ص (١٤٥).

([152]٢) الرسالة القشيرية للإمام القشيري ص ٢.

ومما يدلك على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات فإنه فرع عن قربات الحق لهم ورضاه عنهم ولو كان العلم من غير عمل يرضي الحق تعالى كل الرضى لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم ولو لم يعملوا بعلمهم هيهات هيهات([153]١).

١٥- الإمام ابن عابدين

وتحدث خاتمة المحققين العلامة الكبير والفقيه الشهير الشيخ محمد أمين المشهور بابن عابدين رحه الله تعالى في كتابه المسمى مجموعة رسائل ابن عابدين الرسالة السابعة (شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل) عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قبل أشخاص تزيوا بزي العلم وانتحلوا اسم الصوفية ثم استدرك الكلام عن الصوفية الصادقين حتى لا يظن أنه يتكلم عنهم عام فقال:

(ولا كلام لنا مع الصُّدَّق من ساداتنا الصوفية المبرئين عن كل خصلردية، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواما يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع الله تعالى يفرحوه فإنهم قوم قطعت الطريق أكبادهم ومزق النصب فؤادهم وضاقوا ذرعا فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم ولو ذقت مذاهقم عرتهم في صياحهم.. وبمثل ما ذكره الإمام الجنيد أجاب العلامة النحرير ابن كمال باشا لما استفتي عن ذلك حيث قال:

ما فيا لتواجد إن حققت من حرج	ولا التمايل إن أخلصت من باس
فقمت تسعى على رجل وحق لمن	دعاه مولاه أن يسعى على الرأس

للرخصة فيما ذكر من الأوضاع عند الذكر والسماع للعارفين الصارفين أوقاتهم إلى أحسن الأعمال السالكين المالكين لضبط أنفسهم عن قبائح الأحوال فهم لا يستمعون إلا من الإله ولا يشتاقون إلا له إن ذكروه ناحوا وإن شكروه باحوا وإن وجدوه صاحوا وإن شهدوه استراحوا وإن سرحوا في حضرات قربه ساحوا إذ غلب عليهم الوجد بغلباته وشربوا من موارد إرادته فمنه من طرقته طوارق الهيبة فخر وذاب ومنهم من

([153]١) نور التحقيق للشيخ حامد صقر ص ٩٦.

برقت له بوارق اللطف فتحرك وطاب ومنهم من طلع عليهم الحب من مطلع القرب فسكر وغاب هذا ما عن لي في الجواب والله أعلم بالصواب.

وأيضا فإن سماعهم ينتج المعارف الإلهية والحقائق الربانية ولا يكون إلا بوصف الذات العلية والموعظة الحكيمة والمدائح النبوية .

ولا كلام لنا أيضا مع من اقتدى بهم ، وذاق من مشربهم ووجد من نفسه الشوق والهيام في ذات الملك العلام وسيأتي الكلام عن أدلة جواز الحركة في الذكر في بابها الاص بها إن شاء الله تعالى .. الخ([154]١).

١٦- محمد الحامد رحمه الله تعالى:

يقول فضيلة الشيخ الحموي محمد الحامد رحمه الله فيما نقله لنا صاحب كتاب: (المحامد من حياة الشيخ محمد الحامد): اعلم أن التصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية، وتعمير القلب بذكر الله تعالى وخشيته ورجائه والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السة الشريفة وخلافا للبدعة السيئة التي يحظر الإسلام التلبس بها.

١٧- الدكتور أبو الوفا التفتازاني:

يقول فضيلة الدكتور أبو الوفا التفتازاني في كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامي): ليس التصوف هروبا من واقع الحياة كما يقول خصومه وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة تعينه على مواجهة الحياة المادية ، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.

وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور الجتمع إلى الأمام فمن ذلك أه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار ليصحح أخطاءها ويكملها بالفضائل ويجعل فطرته إلى الحياة معتدلة فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه فيشقى شقاء لا حد له. والتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية وبذلك يتحرر تماما من شهواته وأهوائه بإرادة حرة.

١٨- الشيخ محمد أبو زهرة:

([154]١) الرسالة السابعة شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل ص (١٧٢ - ١٧٣)، للفقيه الكبير ابن عابدين المتوفى سنة ١٢٥٢هـ.

نحن في عصرنا هذا أشد الناس حاجة إلى متصوف بنظام التصوف الحقيقي وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء وسيطرت على قلبه الشهوات.. وغذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال أصبحت خطب الخطباء لا تجدي وكتابة الكتاب لا تجدي ومواع الوعاظ لا تجدي وحكم العلماء لا تجدي وأصبحت كل وسائل الهداية لا تجدي شيئا.

إذا لابد لنا من طريق آخر للإسلاح هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب وهذا الاسيتلاء يكون بطريق الشيخ ومريده بحيث يكون في كل قرية وفي كل حي من أحياء المدن وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية رجال يقفون موقف الشيخ الصوفي من مريديه.

إن العلاقة بين المريد والشيخ ، وبين مراتب هذا المريد هي التي يمكن أن تهذب وأن توجه.

يقول الشاطبي في كتابه (الموافقات) إن بين المعلم والمتعلم روحانية تجعله ينبطع بفكره وينطبع بكل ما يلفته من معلومات نحن بحاجة إلى هؤلاء الذي يستهون الشباب ليصرفوهم عن هذا الهوى الماجن ويوجهوهم([155]١).

١٩- الشيخ **محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى:**

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي فيما يرويه لنا كتاب (أصول الأصول) للشيخ زكي إبراهيم ص ١٧٧:

.. الصوفي يتقرب إلى الله بفروض الله ، ثم يزيدها بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام من جنس ما فرض الله وأن يكون عنده صفاء في استقبال أقضية العبادة فيكون صافيا لله والصفاء هو كونك تصافي الله فيصافيك الله.

والتصوف رياضة روحية لأنها تلزم الإنسان بمنهج تعبدي لله فوق ما فرضه.. وهذه خطوة نحو الود مع الله ..

وهكذا يمن الله تعالى على هؤلاء المتصوفين ببعض العطاءات التي تثبت لهم أنهم على الطريق الصحيح نتلك العطاءات هي طرق ناموس ما في الكون ويكون ذلك

([155]١) ملة لواء الإسلام، العدد الثاني شبعان ١٣٧٩هـ الموافق ١٩٦٠م ندوة لواء الإسلام، التصوف في الإسلام.

على حسب قدر صفاء المؤمن فقد يعطي الله صفحة من صفحات الكون لأي إنسان فيبنئه به أو يبشره به ليجذبه إلى جهته .

وعندما يدخل الصوفي في مقامات متعددة وجئنا بمن لم يتريض ولم يدخل في مقامات الود وحدثناه بها فلا شك أنه يكذبها ولكن تكذيبها دليل حلاوتها.

والمتصوف الحقيقي يعطيه الله أشياء لا تصدقها عقول الآخرين ولذلك فعليه أن يفرح بذلك ولا يغضب من تكذيب الآخرين له.

١٩- أبو الحسن الندوي:

يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومعتمد ندوة العلماء بالهند) : إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة والتوبة عن المعاصي والظلم والقسوة ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء واللم وحب الجاه وتزكية النفس وإصلاحها ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه ، إنهم كانوا يعظون الناس دائما ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه والحنيني إلى رضاه ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغير الحال.. .

ثم تحدث عن مدى تأثير أخرقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة ، وضرب عض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي ثم تحدث عن الشيخ أحمد الشهيد رحمه الله تعالى فقال: إن النسا أقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير وإنل لم يمر ببلدة إلا وتاب على يديه وبايعه عدد كبير من الناس وإنه أقام في كلكتا شهرين ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يوميا وتستمر البيعة إلى نصف الليل وكان من شةة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحدا واحدا فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشر أو ثماني عشرة مرة.

وتحدث عن شيخ الإسلام علاء الدين رحمه الله تعالى فقال إن السنوات الأخيرة من عهده تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر والحرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلا وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علنا وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش... .

ثم قال إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشيء في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصا على خدمتهم ومساعدتهم.

وذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية) ص ١٧ – ١٨ فلا شك أنه لولا هؤلاء الصوفية أصحاب النفوس المسماة الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن لانهار المجتمع الإسلامي إيمانا روحانيا وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية الباقية من إيمان الأمة الأمة وتماسكها وضعفت صلة القلوب بالله والحياة بالروح والمجتمع بالأخلاق وفقد الإخلاص والاحتساب وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس وفقد الطبيب وتكالب الناس على حطام الدنيا وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب وغلب عليهم الطخمع والطموح وتعطلت شعبة من أهلم شعب النبوة وبنيانها وهي (تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن) .

ثم بين الأستاذ الندوي أن تأثير هذه المواعظ ودخول الناس في الدين وانقادهم للشرع أدى إلى تعطيل تجارة الخمر وكساد سوقها في كلكتا وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز وكسدت سوقها وأفقرت الخانات واعتذر الخمارون عن دفع الضراسب للحكومة متعللين بكساد السوق وتعطيل تجارة الخمر ...

ثم قال: إن هذه الحالة كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانيتهم أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى.

وفي ختام البحث قال الأستاذ الندوي حفظه الله تعالى : لقد كانت هناك بجهود هؤء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مائات من بلاد الهند استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة([156]١).

وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) عن الصوفية وأثرها في نشر الإسلام بصدر حديثه عن الصوفي الشهير والمرشد الكبير سيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله روحه فقال : وكان يحضر مجلسه نحوا من سبعين ألفا وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى وتاب على يديه من العيارين أو المسالحة([157]٢) أكثر من مائة ألف وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا الله وصلحت أحوالهم وحسن إسلامهم وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان ثم يجيمز الشيخ كثيرا منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله ويربون النفوس ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارسالإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي([158]٣).

وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه روائع إقبال فقال: إنني أقول دائما: لولا وجوهم وجهادهم لابتلعت الهند وحضارتها وفلسفتها الإسلام([159]٤).

٢٠- الأستاذ عبدالباري الندوي:

ويقول الأستاذ عبدالباري الندوي في كتابه (بين التصوف والحياة) في عدة صفحات متفرقة من كتابه : يجب أن يعرف المسلمون أنه لا حظ لهم من الدنيا إذا لم يتمكن في أعماق نفوسهم الإيمان الخالص ومن الظلم والجور العظيمين أن تنفق في تحصيل العلم الظاهر سنوات عديدة ولا تبذل لإصلاح الباطن عدة شهور إن التصوف أو العلم الباطني بالغ فيه الناس مبالغة عظيمة وصورة تصويره شائها

([156]١) المسلمون في الهند ص (١٤٠ – ١٤٦) للعلامة الكبير أبي الحسن الندوي.

([157]٢) المسالح: الجماعة أو القوم ذوو الصلاح.

([158]٣) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص (٢٤٨ – ٢٥٠).

([159]٤) روائع إقبال للأستاذ أبي الحسن الندوي / ص ٧.

وشرحوه شرحا طبعه بطابع الضلالة إلا أنه قانون لأعمال القلب والباطن.. وتجد تفاصيل أحكام التصوف منصوصة في الكتاب والسنة مثل ما نجد أحكام الفقه تماما وتتبين أهمية أحكام التصوف وأفضليته من نصوص القرآآن والحديث اغلتي تصرح بها أو تلمح إليها.. .

فإن أبى شخص أن يعترف بالتصوف كعلم بعينه وفن بذاته فلم لا ينفر ويشمئز من المصطلحات الدينية الأخرى ن من تفسير ومفسر ، وتجويد ومجود ولام ومتكلم وغيرها أما أولئك الذين رأوا التصوف والطريقة والحقيقة والمعرفة ضدا للبشرية فهؤلاء الذين وقعوا في ضلالة أشد خطأ وأطم.

٢١- أحمد الشرباصي:

قال الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي الكاتب الإسلامي المعروف والمدرس في الأزهر الشريف في مجلة الإصلاح الاجتماعي تحت عنوان (الأخلاق عند الصوفية) بعد أن تحدث عن التصوف وتعريفه واشتقاقه : وأنا أعتقد أن حقيقة التصوف الكاملة هي مرتبة الإحسان الذي حدده رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلامفي حديث جبريل حين قال :«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١[160]).

وقال الأستاذ أيضا في مقدمته لكتاب نور التحقيق : أرأيت إلى كنز وسيع عجيب فيه المال الغزير الذي لا يحصى وفيه أدوية الجسم الشافية التي لا تخون وفيه نور القلب الذي لا يخبو ... ماذا يكون شأنك لو أن إنسانا أخبرك بوجود هذا الكنز بمكان ما ورسم لك الطريق اليه وذكر لك ما تحتاجه الرحلة من مجهود وتكاليف ألا تحاول أن تبذل جهدك وتستفيذ طاقتك وتعمل وسعك حتى تصل إلى هذا الكنز الذي ستجد فيه جاه الدنيا وعز الآخرة؟ كذك شأن التصوف يا صاح إنه الدواء المخفي والكنز المطوي والسر العلمي إنه الدواء الذي يحتاج اليه جسمك وفهمك وخلقك ولكنك لن تصل اليه ولن تنفع به حتى تتجه بمشارعرك نحوه وحتى تقبل ببصرك وبصيرتك عليه وحتى تبذل من ذات يدك وذات نفسك ومن وقتك وبحثك ما يهيء

([160]١) مر تخريجه في باب التصوف ومنشؤه.

لك البلوغ اليه والوقوف عليه فهل فعلت من ذلك شيئا وقد عرفت الطريق إلى النعيم؟!

يهمني أن تكون على بصيرة من أمرك وأن لا تجهل شيئا جليلا يطالبك دينك وعقلك بأن تعرفه ومن هنا يتحتم عليك أن تدرس التصوف لتتصوره وتفهمه وتفقهه وبعد ذلك تحكم له أو عليه أوزيدك بيانا فأقول لك:" إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف اليه أو افتراه المفترون عليه، ومن هنا يستتر حق وراء باطل ومن هنا أيضا يطالبك دينك بان تقوم لتهتك حجاب الباطل وتستضيء بنور الحق فهلا يكفي ذلك لتحريضك على رداسة التصوف؟؟!!

يا أبناء الإسلام: إن التصوف يحتل من أخرقكم وتاريخكم جانبا كبيرا وقد ضيعتموه زمانا طوالا ، فحسبكم ما كان ، وأقبلوا على التصوف ففيه إذاء ودواء والله الهادي إلى سبيل السواء([161]١).

٢٢- الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى:

ويقول الشيخ أشرف علي التهانوي (ت – سنة ١٣٦٢هـ) في أكثر من كتاب له : التصوف ليس إلا تعبيرا للشريعة الإسلامية وتفسيرا لها لأجل ذلك يجب أن يدرس الناس كتب التصوف مثل كتاب (قوت القلوب) للمكي (والعوارف) للسهروردي ، وكتب الغزالي ، تماما كما يدرسون كتب الفقه فالتصوف للا يمكن أن يصلح الأمر بغيره لأن أول شيء في طريق التصوف هو تعليم التواضع وعنوانه في التصوف : الفناء.

التصوف هو عنوان للأحكام التي تعالج الباطن والقلب كما تعالج أحكام الفقه الحياة الدينية الظاهرة وإن أحكام التصوف منصوصة في القرآن والحديث مثل أحكام الفقه.

٢٣- الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله :

وقال فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (هذا والدي) ص ٩٨ – ٩٩ كان أبي رحمه الله يجزم بأن التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه وكان يؤكد أن المسلم إذا لم يكن قد تشرب حقيقة التصوف فقد حبس نفسه في معاني الإسلام ولم يرق صعدا إلى حقيقة الإيمان.

([161]١) تصدير كتاب نور التحقيق للشيخ حامد إبراهيم محمد صقر ص (١ – ٣) بتصرف.

وقال: التصوف الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون مأخوذا من كتاب الله وسنة رسوله ذلك لأن السعي إلى الوصول إلى ثمرات الإيمان بالله في القلب واجب رسمه القرآن واكدته السنة ولم يكن رحمه الله يقيم وزنا لتصوف لم ينهض على أساس من العلم السليم بكتاب الله وسنة رسوله وكان يرى أن صدق الانفعال بثمرات الإيمان التي هي حقيقة التصوف ولبه لا يتي إلا من سعة العلم بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبالشرئاع والأحكام التي خاطب الله بها عباده([162][١]).

وقال حفظه الله أيضا في كتاب (السلفية) ص ١١٧ – ١١٨ : التصوف بمعناه الحقيقي السليم هو لب الإسلام وجوهره الكامن في أعماق فؤاد الإنسان المسلم وبدونه يغدو الإسلام مجرد رسوم ومظاهر وشعارات يجامل بها الناس بعضهم بعضا وهذا اللباب يتمثل في الرغبة والرهبة إذ تهيمن على قلب المسلم حبا له ومخافة منه فيتظهر فؤاده من أدران الضغائن والأحقاد وحب الدنيا.. ولا توقفنك إزاء هذه الحقيقة مشكلة الاسم لقد كان التحلي بهذا اللباب في صدر الإسلام مسمى لا اسم له إلا الإسلام ثم سمي فيما بعد بسم الله الرحمن الرحيم (التصوف) . (بتصرف).

٢٤- الشيخ كريم راجح شيخ قراء الشام حفظه الله تعالى:

٢٥- وقال الشيخ كريم راجح: علم التصوف من أشرف العلوم وأجل الفهوم وخير ما كتب فيه الكاتبون وألف المؤلفون لأنه يتعلق بالإيمان فيقويه ويثبته وبالسلوك فيحسنه ويقومه وبالعلاقات مع الناس فيبنيها على الإخلاص والمبحة وهو علم يصفي المرء من كل الشوائب ويرفعه إلى أعلى المراتب في تواضع منقطع النظير وخدمة للآخرين لا تعرف الأنانية وتتبرأ من الذاتية فالصوفي الصادق أخ في الله وعلى الله يعطيك ولا يمن لن الذي اعطى على الحقيقة هو الله فهو ينفع الخلق ليتقرب من الخالق ويعيش خادما للناس من أجل رب الناس والصوفي هو الذي يتمسك بالكتاب فيحكمه في كل سلوكه ومعاملته وبالسنة فلا يجيد عنها طرفة عين ويسلك مسالك العلمءا فلا يبني عبادته على جهل([163][٢]).

٢٦- الدكتور محمد عبداللطيف الفرفور حفظه الله

([162][١]) هذا والذي ص ١٠٦.

([163][٢]) الصوفية والتصوف ص (٥).

ويقول الدكتور محمد عبداللطيف الفرفور في كتابه (من ذخائر الفكر الإسلامي) ص ١٣٢- ١٣٥:

.. تعالوا بنا بعد ذلك إلى هؤلاء القوم (الصوفية) ويحاتهم وسلوكهم النقي فها هي كتب التراجم والتواريخ تشهد كلها متضافرة على استقامة ظواهرهم على الشريعة المطهرة وبواطنهم على الطهارة والتزكية والصفاء والنور فتحقق لديهم الفيض وواعدهم الفتح ونطقت عبائرهم رضي الله عنهم بما رزقهم الله تعالى من الأنوار والعلوم الوهبية ومن استقرأ حياة هؤلاء المشاعل وجدها منورة بالقرآن متوجة بالرضوان مكللة بإكليل الاتباع بعيدة كل البعد عن الابتداع فرضي الله عنهم ما أعرفه بربهم : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾([164]١).

... فلماذا إذن نحارب التربية الروحية بما فيها من سمو خلقي رفيع ومعان إنسانية ندر وجودها في أي دين آخر أو فلاسفة وضعية بحجة أن هذه التربية الروحية تشتمل بدعا وشوائب.

٢٧- الشيخ عدنان حقي حفظه الله :

يقول الشيخ عدنان حقي حفظه الله تعالى : التصوف مذهب إسلامي أخلاقي اجتماعي نفسي له أسلوبه وطريقته وبراهينه وادلته ورجاله وأصله سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته والتابعين لهم بإحسان وهو طريق الحق والهداية والعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه وهو لب الإسلام وروحه ويقول القرآن الكريم عنهم ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾([165]٢) ويقول: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾([166]٣) .

والمتصوفون يحققون في أنفسهم صفات الإخلاص والمراقبة لله عز وجل وليس لقلقة وإنما هو أذواق ووجدان وهو مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وسير التابعين وتابعيهم([167]٤) .

([164]١) سورة البينة الآية (٨).

([165]٢) سورة يونس الآية (٢٦).

([166]٣) سورة لقمان الآية (٢٢).

([167]٤) الصوفية والتصوف ص (١٦٢).

٢٨- الشيخ عبدالله التليدي:

يقول الشيخ عبدالله التليدي في كتابه (أسباب هلاك الأمم): أفلا يعلمون أن التصوف هو روح الإسلام ولبه ، وهل الصوفية إلا أناس تخلوا عن الرذائل وتحلوا بالفضائل وبلغوا بفضل استقامتهم ومجاهداتهم الذروة العليا في الكمالات البشرية حتى يصبح أحدهم فانيا في الله غائبا فيه عن كونه وحسه وهل الصوفي إلا رجل تحقق بمقام ا؟لإحسان فعبد الله كأنه يراه وأخلص وصدق في توجهه وسيره إلى الله.

٢٩- الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى:

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) ج٢ ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ما نصه : معنى التصوف – وكما قيل – مناجاة القلب ومحادثة الروح وفي هذه المناجاة طهر لمن شاء أن يتطهر وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس وفي تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة وصعود إلى عالم الفيض والإلهام وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل والنظر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلابد له أن يبترأ من الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف إذن فكر وعمل ودراسة وسلوك والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن النيا ومتاعبها آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف مبالغين في العبادة فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيبا لروحه غير أنهم لم يعرفوا في زمنهم باسم الصوفية وكان هذا الاشتهار في القرن الثاني للهجرة .

٣٠- العلامة أبو النصر مبشر الطرازي:

يقول العلامة أبو النصر مبشر الطرازي كبير علماء تركستان في كتابه : الإسلام الدين الفطري ج٢ ص ٣٥ -٣٦ ما نصه:

.. هذا وقد امتثل بالسنن ونوافل العبادات وإيثار ذكر الله طائفة من خواص المسلمين منذ العهد الأول من عهود الإسلام إلى عهدنا هذا عرفهم التاريخ في الغابر والحاضر (الصوفية) فنالوا ما نالوا من المقامات عند ربهم في الدنيا والآخرة.

ثم يقول: ولسنا في صدد بيان مبادئهم التي تستند على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أو خصالهم التي تتلخص في الزهد والتقوى والرياضة في سبيل تزكية النفس وتهذيبها والوصول بها إلى مقام الفناء في الله والحب في الله والبغض في الله وإرادة كل خير لخلق الله حتى يحصلوا على رضاء الله جل جلاله وعم نواله وعز ذكره ولا إله غيره ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾([168]١)، اللهم اجعلنا منهم واحشرنا معهم آمين.

٣١- الأستاذ أنور الجندي:

يقول الأستاذ أنور الجندي في كتابه (عالمية الإسلام):

ولا ريب أن مفهوم التصوف العملي إنما هو الذي جاء به الإسلام من خلال الانقطاع للعلم باعتباره عبادة وجهادا حيث لا غرض مادي ولا سعي لشهرة زائفة بل وقف العقل والنفس الحقائق ووجهة التعليم والعلم والتربية في ذلك هو مرضاة الله تعالى على أن يتم ذلك كله في إطار تقوى الله والخوف منه وفي محيط الأخلاق.

٣٢- المفكر رجاء غارودي:

يقول المفكررجاء غارودي في كتابه (ما يعد به الإسلام) ص ٧٧: إن التصوف يعد من أبعاد العقيدة الإسلامية بل هو بعده (الجواني) وكل محاولة تجعل من التصوف (تيارا) مستقلا أو وظيفة منفصلة تحط حتما من قيمته فليس في الإسلام وهو دين الوحدة والتكامل الفصل بين التأمل والعمل وبين الذات والوجود وما التصوف إلا لون من ألوان الروحانية في الإسلام وهو التوازن الأساسي بين الجهاد الأكبر والصراع الداخلي ضد الرغبات التي تبعد الإنسان عن ذاته وبين الجهاد الأصغر ذلك النضال في سبيل الوحدة والانسجام في المجتمع الإسلامي ضد كل أشكال عبادة السلطة والمال والضلالات التي تبعد المؤمن عن طريق الله.

٣٣- الأستاذ محمد الصادق عرجون:

يقول الأستاذ محمد الصادق عرجون في كتابه (التصوف في الإسلام) ص ٧٢-٧٤ التصوف في الإسلام يقوم على إخلاص التعبد لله تعالى في كل أمر من أمور

([168]١) سورة المجادلة الآية (٢٢).

الدين والدنيا وهذه الدنيا عندهم دين لأنهم يأتون ما يأتون منها وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون لا يسارعون إلى الخيرات وهم لها سابقون.

ويقوم على الشفقة على خلق الله والرحمة لهم فهو عمل تطبيقي في واقع الحياة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة خاصة أصحابه وقد أخذه عنهم بحقيقته العابدون من تلاميذهم أهل المعرفة والعلم بالله ، ثم تلقاه مثلا حية من العمل في سيرة هؤلاء.

ثم يقول في خاتمة كتابه (اللهم إني أسألك مغفرة تطاولي إلى الحديث عن مقامات أولئك فإني أحبهم وقصدت تحبيبهم إلى من يريد سلك طريقهم في الوصول إلى رضاك).

٣٤- الإمام أحمد السرهندي رحمه الله تعالى:

يقول الإمام أحمد السرهندي رحمه الله في كتابه (الأنوار القدسية) اعلم يا أخي أن الله كلفنا امتثال الأوامر واجتناب النواهي .. وإذا كنا مأمورين بالإخلاص في ذلك وهو لا يتصور بدون الفناء وبدنون المحبة الذاتية وجب علينا أيضا سلوك طريق الصوفية الموصلة للفناء والمحبة حتى نتحقق حقيقة الإخلاص ولما كانت طرق الصوفية متفاوتة الكمال والتكميل ان كل طريق تلتزم فيه متابعة السنة السينة وأداء الأحكام أولى وأنسب بالاختيار وإن هؤلاء الأكابر التزموا في هذه الطريقة متابعة السنة واجتناب البدعة ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعة للحكام الشرعية .. والكتاب والسنة عندهم أولا قبل كل شيء.

والتصوف الذي أردت هو الإسلام الكامل في مقاصده وأهدافه والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين استقام سلوكهم على هذا المبدأ في منهجه ولا شأن لي فيما شارك اسما وامتلأ بالدخائل والبدع فذلك ما لم أقصد اليه فإن التصوف حال أكثر منه قالا وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق ما ذاقوه إن شاء الله تعالى له ذلك.

٣٥- الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى:

قال الأستاذ والمؤرخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى في كتابه : (الثقافة الإسلامية) فإذا كان التصوف عبارة عن تزكية النفوس وتصفية الأخلاق فنعم المذهب ونعم المقصد وذلك هو الغاية من بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ففي

الحديث عنه عليه الصلاة والسلام «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»([169]١) وقد تأملنا سيرة الصوفية في القرون الأولى من الإسلام فوجدناها سيرة حسنة جميلة مبنية على مكارم الأخلاق والزهد والورع والعبادة منطبقة على الكتاب والسنة وقد صرح بذلك سيد هذه الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى كما في ترجمته في تاريخ ابن خلكان حيث قال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة وفي شرح الإحياء للعلامة الزبيدي (ج١ / ص ١٧٤) وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهي في ترجمته في (الرسالة القشيرية) ص ١٩ وفيها: قال الجنيد: من لم يحفظ القرين ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة ثم قال بعد السند عن الجنيد مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة.

وقال الجنيد: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال سري السقطي: التصوف اسم لثلاثة معان: هو الذي لا يطفيء نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله تعالى ، وفي شذرات الذهب (ج ٥ / ص٢٧٩) في ترجمة أبي الحسن الشاذلي ومن كلامه (كل علم تسبق إليك فيه الخواطر وتميل النفس وتلتذ به فارم به وخذ بالكتاب والسنة).

وهؤلاء فوق ما اتصفوا به من تهذيب النفس والورع والزهد والعبادة قد قاموا في عصورهم بالواجب عليهم ، من إرشاد الخلق إلى الحق والدعوة اليه وصدهم الناس عن التهافت على الدنيا وجمع حطامها من أي وجه كان ، والاسترسال في الشهوات والملذات مما يؤدي إلى الانهماك في المحرمات والغفلة عن الواجبات وما خلق الإنسان له وتكون نتيجة ذلك انتشار الفوضى وظهور الفساد، وكثرة البغي والهرج فكان هؤلاء بوعظهم وإرشادهم والحكم والحقائق التي تفجرت من ينابيع قلوبهم هم رحاس الأخلاق والآخذون بيد الأمة إلى مناهج الحق وسبل الرشاد والدعاة إلى السعادة الحقيقية وهي قيام الإنسان بجميع ما أمر به مع عدم نسيانه نصيبه من الدنيا فكانوا في جملة السامعين في هذه الأمة والمجيبين لقوله تعالى : ﴿ولتكن منكم

([169]١) رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد (٢/٣٨٢) والحاكم (٢/٦١٣)، وصححه ووافقه الذهبي وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٥٨٤) ورمز لصحته.

أمـة يـدعون إلـى الخيـر ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عـن المنكـر وأولئـك هـم المفلحون﴾([170]١) .

فسلف الصوفية هم أعلام الملة وسادة الأمة سراجها الوهاج ونورها الوضاح وبهم وبأمثالهم من المحدثين والفقهاء اهتدت اهتدت الأمة إلى الصراط المستقيم وسلكت المنهاج القويم وانتظمت أحوال معاشهم وصلحت أمور معادهم وفازوا فوزا عظيما.

وإذا تتبعنا آثار الصوفية وتراجمهم نجد أن الكثير منهم قد كان للواحد منهم أتباع يعدون بالألوف كلما انتسب اليه شخص الآخى بينه وبين سابقيه فتمكنت بين أتباعه والمنتسبين اليه أواصر الألفة وروابط المحبة وتواسوا فيما بينهم وتواصوا بالحق وعطف غنيهم على فقيرهم ورحم كبيرهم صغيرهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانا وصاروا كالجسد الواحد([171]٢).

٣٦- الأستاذ عباس محمود العقاد:

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (الفلسفة القرآنية) التصوف في الحقيقة غير دخيل في العقيدة الإسلامية كما قلنا في كتابنا عن أثر العرب في الحضارة الأوربية ومثبوت في آيات القرآن الكريم مستكن بأصوله في عقائد صريحة.

٣٧- الدكتور عبدالحليم محمود:

ويقول فضيلة الدكتور عبدالحليم محمود (شيخ الأزهر سابقا) في كتابه (قضية التصوف) ص ٢٥٩/ التصوف لا يعدو أن يكون جهادا عنيفا ضد الرغبات ليصل الإنسان إلى السمو أو إلى الكمال الروحي ، ليكون عارفا بالله ، وإن الذين يربطون بين التصوف من جانب أو الكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ولا خوارق للعادات.

٣٨- أوب الأعلى المودودي:

قال العلامة الكبير الأستاذ أبو العلى المودودي في كتابه مبادئ الإسلام تحت عنوان التصوف: إن علاقة الفقه إنما هي باهر الإنسان فقط ولا ينظر إلا هل قمت

([170]١) سورة آل عمران الآية (١٠٤).

([171]٢) الثقافة الإسلامية للمؤرخ الكبير الأستاذ محمد راغب الطباخ ص (٣٠٢ - ٣٠٤) ولد عام ١٢٩٣هـ وتوفي عام ١٣٧٠هـ في حلب.

بما أمرت به على الوجه المطلوب أم لا ؟ فإن قمت فلا تهمه حال قلبك وكيفيته أما الشيء الذي يتعلق بالقلب ويبحث عن كيفيته فهو التصوف.

إن الفقه لا ينظر في صلات مثلا إلا هل أتممت وضوءك على الوجه الصحيح أم لا؟ وهل صليت موليا وجهك شطر المسجد الحرام أم لا ؟ وهل أديت أركان الصلاة كلها أم لا؟ وهل قرأت في صلاتك بكل ما يجب أن تقرأ فيها أم لا ؟ فإ نقمت بكل ذلك فقد صحت صلاتك بحكم الفقه إلا أن الذي يهم التصوف هو ما يكون عليه قلبك حين أدائك هذه الصلاة من الحالة هل أنبت فيها إلى ربك أم لا؟ وهل تجرد قلبك فيها عن هموم الدنيا وشؤونها أم لا؟ وهل أنشأت فيك هذه الصلاة خشية الله واليقين بكونه خبيرا بصيرا وعاطفة ابتغاء وجهه الأعلى وحده أم لا ؟ والى أي حد نزهت هذه الصلاة روحه؟ والى أي حد جعلته مؤمنا صادقا عاملا بمقتضيات إيمانه؟ فعلى قدر ما تحصل له هذه الأمور وهي من غايات الصلاة وأغراضها الحقيقية في صلاته تكون صلاته كاملة في نظر التصوف وعلى قدر ما ينقصها الكمال من هذه الوجهة تكون ناقصة في نظر التصوف فهكذا لا يهم الفقه في سائر الأحكام الشرعية إلا هل أدى المرء الأعمال على الوجه الذي أمره به لأدائها أم لا .

أما التصوف فيبحث عما كان في قلبه من الإخلاص وصفاء النية وصدق الطاعة عند قيامه بهذه الأعمال ويمكنك أن تدرك هذا الفرق بين الفقه والتصوف بمثل أضربه لك:

إنك إذا أتاك رجل نظرت فيه من وجهتين : إحداهما: هل هو صحيح البدن كامل الأعضاء؟ أم في بدنه شيء من العرج أو العمى؟ وهل هو جميل الوجه أو ذميمه؟ وهل هو لابس زيا فاخرا أو ثيابا بالية.

والوجهة الأخرى: إنك تريد أن تعرف أخلاقه وعاداته وخصاله ومبلغه من العلم والعقل والصلاح فالوجهة الولى وجهة الفقه والوجهة الثانية وجهة التصوف وكذلك إذا أردت أن تتخذ أحدا صديقا لك فإنك تتأمل في شخصيته من كلا الوجهتين وتحب أن يكون جميل المنظر وجميل الاطن معا كذلك لا تجعل في عين الإسلام إلا الحياة التي فيها اتباع كامل صحيح لأحكام الشيعة من الوجهتين الظاهرة والباطنة.

[ثم قال: إنما التصوف عبارة – في حقيقة الأمر– عن حب الله ورسوله الصادق بل الولوع بهما والتفاني في سبيلهما والذي يقتضيه هذا الولوع والتفاني ألا ينحرق المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فليس التصوف الإسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة وغنما هو القيام بغاية من الإخلاص وصفاء النية وطهارة القلب].

٣٩- عبدالقادر البغدادي رحمه الله تعالى:

قال الإمام الكبير حجة المتكلمين عبالقادر البغدادي رحمه الله تعالى في كتابه (الفرق بين الفرق) الفصل الأول من فصول هذا الباب في بيان أصناف أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس: ذكر منها الصنف السادس قائلا: والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا ، واختبروا فاعتبروا، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسئول عن الخير والشر ومحاسب على مثاقيل الذر ، فأعدوا خير الإعداد ليوم المعاد وجرى كلامهم في طريقي العبارة والإشرارة على سمت أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء ولا يتركونه حياء، دينهم التوحيد، ونفي التشبيه ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى ، والتوكل عليه، والتسليم لأمره ، والقناعة بما رزقوا والإعراض عن الاعتراض عليه: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم([172]١)﴾([173]٢).

٤٠- الإمام النووي رحمه الله تعالى:

وها هو الإمام الحجة أبو زكريا يحيى بن شرف الدين النووي يقرر في رسالته (المقاصد) أصولا لطريق التصوف فيقول: إن أصول طريق التصوف خمسة:

١- تقوى الله تعالى في السر والعلانية.

٢- اتباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤- الرضى عن الله في القليل والكثير.

([172]١) الفَرْقُ بن الفِرَقِ للإمام عبدالقاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ ص (١٨٩).

([173]٢) سورة الجمعة الآية (٤).

٥- الرجوع إلى الله في السراء والضراء([174]١).

٤١- الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:

ويقول الشيخ محمد الغزالي في بعض كتبه منها (الجانب العاطفي من الإسلام) ما نصه: هناك تصوف نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يكون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله.. .

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب الرافعي بأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم فإني مع إكباري للرافعي وأدبه أرى كلمة سعد أصدق ما تكون في حكم الصوفي ابن عطاء الله السكندري رحمه الله.

٤٢- جلال الدين السيوطي رحمه الله:

وقال العلامة المشهور جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه (تأييد الحقيقة العلية) إن التصوف في نفسه علم شريف ، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع والتبري من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها والتسليم لله والرضى به وبقضائه وطلب محبته واحتقار ما سواه . وعلمت أيضا أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا باهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع ، فوجه أهل العلم للتمييز بين الصنفين ليعلم أهل الحق من أهل الباطل وقد تأملت الأمور اليت أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أر صوفيا محققا يقول بشيء منها ، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادعوا أنهم صوفية وليسوا منهم([175]٢).

٤٣- الإمام القشيري رحمه الله تعالى:

قال رضي الله عنه: جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وجعل الله قلوبهم معادن أسراره

([174]١) مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف ص ٢٠، توفي رحمه الله سنة ٦٧٦هـ في قرية من قرى الشام تسمى نوى.

([175]٢) تأييد الحقيقة العلية ص (٥٧) للعلامة جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق([176]١).

٤٤- العلامة حسنين محمد مخلوف (مفتي الديار المصرية الأسبق):

قال فضيلته : [التصوف الإسلامي هو تربية علمية وعملية للنفوس وعلاج لأمراض القلوب وغرس الفضائل واقتلاع للرذائل .. وتعرض نفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلا منه وكرما]([177]٢).

٤٥- الدكتور مصطفى البغا حفظه الله تعالى:

سمعته يقول أنا صوفي وأخذت الطريقة الشاذلية.

وقال : أنا شيخي محمد الهاشمي والشيخ أبو الخير الميداني.

٤٦- الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله تعالى:

على المسلم أن يتعلم الأشياء التي لابد منها في الشرع، منها:

ما يزكي به نفسه ويطهر به قلبه بان يعرف الفضائل (المنجيات) ليتحراها ويتخلق بها، ويعرف الرذائل (المهلكات) لتجنبها ويتوقاها ويتعلم ما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه أو مع أسرته أو مع الناس حكاما ومحكومين ، مسلمين وغير مسلمين، فيعرف في ذلك الحلال من الحرام والواجب من غير الواجب واللائق من غير اللائق .

ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر تحت اسم التوحيد أو الفقه أو التصوف أو الآداب الشرعية أو الزهد وغير ذلك.

فهذه التسميات مصطلحات محدثة ولم يتعبدنا الله بها وإنما يهمنا المضمون ولا عبرة بالأسماء والعناوين متى وضحت المسميات والمضامين ، وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزاميا يتعلمه كل مسلم ومسلمة([178]٣).

([176]١) معيد النعم ومبيد النقم ص ٩٤.

([177]٢) السالكون إلى الله ص ١٥.

([178]٣) الرسول والعلم للدكتور يوسف القرضاوي ص ٨٨.

التوسل

الاستعانة – الاستغاثة

التوسل: هو طريقة من طرق التضرع إلى الله عز وجل ، وأحد أبواب دعاءه والتوجه اليه سبحانه وتعالى، فالوسيلة هي كل ما جعله الله سببا للتقرب اليه وبابا لقضاء الحوائج منه، قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة﴾([1]١).

وأما الاستغاثة : فهي طلب الإغاثة ممن يملكها على وجه الحقيقة وهو الله عز وجل، أو ممن أعطاهم الله بحوله وقوته القدرة عليها، وهم أنبياؤه وأولياؤه.

وأما الاستعانة: فهي طلب العون ممن يملكه على وجه الحقيقة وهو الله تبارك وتعالى أو ممن أعطاهم الله بمنه وكرمه القدرة عليها، وهم أنبياءه وأولياؤه .

فيظهر لنا أن التوسل والاستغاثة والاستعانة شيء واحد ، لأن المتوسل أو المستغاث أو المستعان به على القيقة هو الله وأما المتوسل به من العبيد فواسطة ووسيلة للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، هذا ولم يختلف أحد من المسلمين في مشروعية التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وغير ذلك والدليل على هذا حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فتوسل أحدهم إلى الله ببر والديه، وتوسل الثاني بابتعاده عن الفاحشة بعد تمكنه من أسبابها، وتوسل الثالث بأمانته وحفظه لمال غيره وأدائه له كاملا ، ففرج الله عنهم ما هم فيه([2]٢).

وأما التوسل بغير العمل الصالح كالذوات والأشخاص فما هو في الحقيقة إلا توسل بعمله الصالح فمن توسل بشخص ما فذلك لأنه يحبه إذ يقدر صلاحه وولايته وفضله تحسينا للظن به، أو لأنه يعتقد أن هذا الشخص محب لله سبحانه وتعالى، فيكون الله تعالى محبا له أيضا قال جل جلاله ﴿يحبهم ويحبونه﴾([3]٣) ولو تدبرنا الأمر لوجدا أن هذه المحبة وذلك الاعتقاد هما من عمل المتوسل لأنه اعتقاده الذي انعقد عليه قلبه فهو منسوب اليه ومسؤول عنه ومثاب عليه ، فمن قال: اللهم إني

([1]١) سورة المائدة الآية (٣٥).

([2]٢) أخرجه البخاري (٢١٥) ومسلم (٦٨٨٤) وأحمد (٣٠٨/٣٠٧/٢).

([3]٣) سورة المائدة آية ٥٤.

أتوسل اليك بمحبتي لنبيك أو قال بنبيك سواء لأنه ما أقدم على هذا إلا لمحبته وإيمانه بنبيه، ولولا المحب له والإيمان به ما توسل به فهو إذا توسل بعمله الصالح.

ثم إن المسلم عندما يتوسل أو يستغيث بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بالرجل الصالح إنما يتوسل به لما يعلم من كرامته وجاهه عند الله عز وجل ولاعتقاده بانه يمكن أن يكون قد أعطى القدرة على الإمداد والإعانة ونعني بالجاه المنزلة التي يختص الله بها من يشاء من عباده فالله سبحانه وتعالى متصف بصفة تسمى صفة الاختصاص قال عز وجل﴿يختص برحمته من يشاء﴾([4]١).

والنبوة والرسالة والولاية الخاصة ليست مكتسبة بل هي محض فضل الهي واجتباء واختصاص رباني يكون بسببها لذلك العبد منزلة عند الله تسمى الجاه ، قال تعالى ﴿الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب﴾([5]٢) وقال سبحانه في إثبات الوجاهة والمكانة لبعض أنبيائه وملائكته عليه السلام كسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وكان عند الله وجيها﴾([6]٣) أي ذا وجاهة.

وقال في حق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وجيها في الدنيا والاخرة ومنا المقربين﴾([7]٤) وقال عن سيدنا جبريل عليه السلام ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾([8]٥) أي صاحب مكانة.

فالإنسان عندما يتوسل إلى الله تعالى بجاه نبي أو ولي فإن ذلك يعني أنه توسل إلى الله تعالى بفعل من أفعاله خلقه لذلك النبي وسماه جاها، وبصفة من صفاته سماها اختصاصا ، وهذا من التوسل إلى الله بصفاته وأفعاله وهو مجمع على جوازه عند أهل الحق([9]٦).

ونحن إذ نظرنا إلى كل فرد من أفراد المتوسلين والمستغيثين بالأنبياء والصالحين لا نجد في نفس أحد منهم إلا التقرب إلى الله تعالى لقضاء حاجاتهم الدنيوية والأخروية مع علمهم بأنهم كلهم عبيد لله تعالى فقلوبهم موقنة أنه جل جلاله الفعال المطلق

([4]١) سورة آل عمران الآية ٧٤.

([5]٢) سورة الشورى الآية ١٣.

([6]٣) سورة الأحزاب الآية ١٣.

([7]٤) سورة آل عمران آية ٤٥.

([8]٥) سورة التكوير الآية ٢٠.

([9]٦) من كتاب الإسعاد.

المستحق للتعظيم بالأصالة لا شريك له ولا رب ولا موجد سواه، ولا نافع ولا ضار إلا هو ، وأما تعظيمهم لغيره من خواص عبيده فإنما يكون بقدر منزلة ذلك العبد عند الله تعالى بحسب ما علموه فها هم يعظمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من سائر الخلق لعلمهم أنه أحب عبيده تعالى إليه وأقربهم لديه ثم يعظمون بعده الأنبياء والمرسلين أكثر من غيرهم لأن درجتهم تلي درجته صلى الله عليه وآله وسلم وهكذا سائر عباد الله من صحابته صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته وبقية الأولياء والصالحين على اختلاف درجاتهم وما يمتاوزن به عن غيرهم من علم وتقوى وما خدموا به هذه الشريعة المحدية ونفعا به الأمة الإسلامية من العلوم والمعارف والفتوحات والذب عن المسلمين والإسلام بعضهم بحد القلم وبعضهم بحد الحسام وما فضلهم الله به من الكرامات وخوارق العادات فهم يعتقدون الاعتقاد الجازمم الذي لا يعتريه خلل ولا يشوبه خطأ ولا زلل أنهم كلهم عبيده وأن كل ما هم عليه من مقامات ودرجات إنما هو من فضل الله عليهم فقد أثنى عليهم الله تعالى في كتابه وأثنى عليهم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديثه مبينا أوصافهم الجليلة وهي كلها ترجع إلى صدق عبوديتهم لله تعالى وحسن خدمتهم له عز وجل فعظموهم لذلك واتخذوهم وسائط لقضاء حوائجهم عنده لكونهم وإن شاركوهم في أصل العبودية له تعالى إلا أنهم امتازوا عنهم بما تفضل الله عليهم به م الرسالة والنبوة والولاية وكثرة العلم والعمل والمعرفة والطاعات وسائر الخدمات التي تليق به تعالى.

فيفهم مما مر أن غاية الأمر أن بعض المتوسلين والمستغيثين يتسامحون في التصريح بهذا الأمر وهو الطبب من الله دون واسطعة عملا بالحقيقة والأصل ويكتفون بعلم من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فيادون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو أحد الأولياء الصالحين ويطلبون منهم العون والإغاثة وهم في قريرة أنفسهم يعلمون حق العلم أنه وحده سبحانه وتعالى هو النافع والضغار ولا يقع في ملكه إلا ما يريد وذلك طمعا في الإجابة لما للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من منزلة عند الله وهذا ضرب من أضرب المجاز ولا يستطيع أحد ممن له أدنى مسكة في علم الشريعة واللغة العربية أن ينكر وجود المجاز في القرآن الكريم والسنة الشريفة:

١- فقد أسند الله تعالى إلى سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص مجازا فقال جل جلاله حكاية عنه ﴿وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله﴾([10]١) فما دام قد وجه الإذن الإلهي لعبد محبوب عنده فلا حر إذا في قول الإنسان يا عيسى أحي ميتي واشف مريضي لأن الله تعالى أجاز ذلك بإلهام سيدنا عيسى هذا الكلام وإثباته قرآنا يتلى إلى يوم القيامة مع العلم أن إبراء الأكمه والأبرص وإحياء المتى أمور لا يقدر عليها حقيقة إلا الله وحده ورغم هذا رضي من عبده عيسى عليه السلام قوله وأقره عليه.

٢- ومثل هذا قول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لخادمه ربيعة بن كعب الأسلمي سلني فقال أسألك مرافقتك في الجنة فقال أو غير ذلك فقال هو ذاك قال أعني على نفسك بكثرة السجود([11]٢) وسؤال الجنة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استغاثة وطلب لما لا يقدر عليه إلا الله ولم ينكر عليه الصلاة والسلام سؤاله ولم يقل له لا تسأل غير الله .

٣- ومن المجاز قوله تعالى حكاية عن جبريل عليه السلام ﴿لأهب لك غلاما زكيا﴾([12]٣) فإسناد الوهب اليه مجاز والواهب حقيقة هو الله تعالى وحده.

٤- ومن ذلك أيضا قول الله جل جلاله ﴿يوما يجعل الولدان شيبا﴾([13]٤) فإسناد جعل الولدان شيبا إلى اليوم مجاز والجاعل الحقيقي هو الله تعالى وتبارك .

٥- وقوله تعالى ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾([14]٥) فقد جعل الحق تعالى في هذا النص ملائكته أولياء للذين آمنوا واستقاموا وقال في نصنص أخرى ينوه أن المؤمنين بعضهم أولياء

([10]١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

([11]٢) أخرجه مسلم (١٠٩٤) وأبو داود (١٣٢٠) والترمذي (٣٤١٦) النسائي (١١٣٧) وابن ماجه (٣٨٧٩).

([12]٣) سورة مريم الآية١٩.

([13]٤) سورة المزمل الآية ١٧.

([14]٥) سورة فصلت الآية ٣٠- ٣١.

بعض أيضا ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾([15]١) وقال أيضا: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾([16]٢) .

وقال : ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾([17]٣)، ومولاه أي ناصره فأسند الله النصرة للمؤمنين والملائكة كما أسندها إلى نفسه فلا مانع إذا أن يقول قائل: اللهم انصرني بجبريل أو يا جبريل انصرني أو اللهم انصرني وأيدني بصالحي المؤمنين وبملائكتك أو يا أيها الصالحون ويا أيها المئكة انصروني وما هو بذلك إلا مقتد بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال: يا عباد الله احبسوا([18]٤) كما سيأتي معنا في هذا الباب إن شاء الله تعالى .

فالنصوص كلها عامة التعليق دون تخصيص حياة أو موت لأن المؤمنين لم يسلب عنه وصف الإيمان بانتقالهم إلى البرزخ فيكون بين المؤمنين من أهل البرزخ ولاية للمؤمنين في الدنيا ويكون للملائكة ولاية لجميعهم وولاية الملائكة مظهر ولاية الله تعالى لعباده المؤمنين .

٦- ومنها أيضا قوله تعالى : ﴿وإذا تليت عليهم آيته زادتهم إيمانا﴾([19]٥) مسندا الزيادة إلى الآيات لأنها سبب في الزيادة والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده.

٧- ومنها قوله تعالى ﴿وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾([20]٦) والنصر حقيقة على الله تعالى وحده.

٨- ومنها قوله ﴿فالمدبرات أمرا﴾([21]٧) مسندا التدبير إلى الملائكة مجازا لأنهم قائمين بإبراز مقادير الله تعالى في السماء والأرض بأمره ومشيئته وبحوله وقوته والمدبر الحقيقي هو الله تعالى.

([15]١) سورة المائدة الآية ٥٥.

([16]٢) سورة المائدة الآية ٥٦.

([17]٣) سورة المائدة الآية ٥٦.

([18]٤) أخرجه الطبراني في اكبير (١٠٥١٨) وأبو يعلى (٥٢٦٩) وذكره البيهقي في مجمع الزوائد (١٧١٠٥).

([19]٥) سورة الأنفال الآية ٢.

([20]٦) سورة الأنفال الآية ٧٢.

([21]٧) سورة النازعات الآ]ة٥.

وها هو الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى أيضا يتكلم عن الطلب من غير الله منوها أنه في الحقيقة طلب من الله وأنه من العبد مجاز وشرح بذلك حديث »وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله([31]١).

فيقول : إنما قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله فيفهم منه الاستعانة المطلقة أما الاستعانة بالأسباب فيقصد بها الاستعانة بالله بواسطة السبب.

وقال الشيخ محمد علوي المالكي عن هذا الحديث: هذا الحديث يخطئ كثير من الناس في فهمه إذ يستدل به على أنه لا سؤال ولا استعانة مطلقا من أي وجه وبأي طريق إلا بالله ويجعل السؤال والاستعانة بغير الله من الشرك المخرج عن الملة وهو بهذا ينفي الأخذ بالأسباب والاستعانة بها ويهدم كثيرا من النصوص الواردة في هذا الباب.

والحق:

إن هذا الحديث الشريف ليس المقصود به النهي عن السؤال والاستعانة بما سوى الله كما يفيد ظاهر لفظه وإنما المقصود به النهي عن الغفلة عن كون ما جرى من الخير على يد الأسباب فهو من الله والأمر بالانتباه إلى أن ما كان من نعمة على يد المخلوقات فهي من الله وبالله فالمعنى: وإذا أردت الاستعانة بأحد من المخلوقين ولا بد لك من ذلك – فاجعل كل اعتمادك على الله وحده ولا تحجبنك الأسباب عن رؤية المسبب جل جلاله ولا تكن ممن يعلمون ظاهر من هذه الاتباطات والعلاقات بين الأشياء المترتب بعضها على بعض وهم عن الذي ربط بينها غافلون.

وقد أومأ هذا الحديث نفسه إلى هذا المعنى وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام في تتمة الحديث نفسه عقيب هذه الجملة الشريفة: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك) فأثبت لهم كما ترى نفعا وضرا بما كتبه الله للعبد أو عليه. فهذا منه صلى الله عليه وآله وسلم توضيح لمراده.

([31]١) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (٢٥١٦) وأحمد (٢٩٣/١).

والحديث ليس فيه أصلا لا تسأل غير الله ولا تستعن بغير الله وإنما هو كقوله: صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي»([32]١) فهل في هذا الحديث أن مصاحبة غير المسلم حرام؟! وهل يفهم منه أن إطعام غير التقي حرام؟! وقد رخص الله في كتابه بإطعام الأسير الكافر بل مدح ذلك بقوله: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾([33]٢) .

الأدلة من القرآن الكريم

١-قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة﴾([34]٣): لفظ الوسيلة عام في الآية كما نرى فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من الأنبياء والصالحين في الحياة وبعد الممات لأنه لا فرق بينهما كما سيمر معنا وهو شامل أيضا للتوسل بالأعمال الصالحة.

٢-وقال تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾([35]٤) وقال سيدنا ابن عباس ومجاهد: هم عيسى عليه السلام وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم، يبتغون أي يطالبون إلى ربهم الوسيلة أي القربة، وقيل الدرجة: أي يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا وقيل: الوسيلة ما يتقرب به إلى الله تعالى وقوله: ﴿أيهم أقرب﴾ معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله تعالى فيتوسلون به.

وقال الزجاج أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ونحوه في تفسير الخازن.

٣-وقال تعالى: ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾: يقص الله جل وعلا علينا في هذه الآية قصة الرجل القبطي الذي استغاث بسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، وهو من شيعته فأغاثه ن ومعلوم أن الأنبياء عليهم السلام كلهم جاؤوا بالتوحيد الخالص لله تعالى وعدم الإشراك به، فلو كانت

([32]١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢) والترمذي وقال حديث حسن (٢٣٩٥) وأحمد (٣٨/٣) والدارمي (١٩٨٥) والبغوي (٣٤٨٤) والحاكم (١٢٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه ابن حبان (٥٥٤) والطيالسي (٢٢١٣) وأخرجه أيضا أبو يعلى (١٣١٥).

([33]٢) سورة الإنسان الآية (٨).

([34]٣) سورة المائدة الآية: ٣٥.

([35]٤) سورة الإسراء الآية ٥٦.

الاستغاثة الرجل به نوعا من الشرك لم يجز لسيدنا موسى أن يغيثه وحاشا الأنبياء أن يقروا الناس على ما فيه مخالفة المولى عز وجل.

٤-وقال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾([36]١) قال ابن عباس هي: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾([37]٢) وذكر الألوسي في تفسيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أنها (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).

وقيل : رأى مكتوبا على ساق العرش محمد رسول الله فتشفع به .

٥-وقال تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾([38]٣) قال الحافظ ابن كثير في التاريخ: قال ابن جرير عن هذا التابوت: وكانوا إذا قاتلوا أحدا من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم.

قال ابن كثير: وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه، وكان فيه طمست من ذهب كانت يغسل فيه صدور الأنبياء([39]٤).

وقال ابن كثير في التفسير: كان فيه عصا موسى وعصا هارون ولوحان من التوراة وثياب هارون ومنهم من قال: العصا والنعلان.

وقال القرطبي: والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام فكان في بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة وسلبوا التابوت منهم([40]٥).

([36]١) ٣٧.

([37]٢) سورة الأعراف الآية٢٣.

([38]٣) ٢٤٨.

([39]٤) البداية والنهاية (ج٢/ ص٨).

([40]٥) تفسير القرطبي (ج٣/ص٢٤٧).

وهذا في الحقيقة ليس إلا توسلا بآثار أولئك الأنبياء إذ لا معنى لتقديمهم التابوت بين أيديهم في حروبهم غير ذلك والله سبحانه وتعالى راض عن ذلك بدليل أنه رده إليهم وجعله علامة وآية على صحة ملك طالوت ولم ينكر عليهم ذلك الفعل.

٦-وقال تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾([41]١) روى أبو نعيم في دلائل النبوة من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا يقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا فينصرون فلما جاءهم ما عرفوا يريد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ولم يشكوا فيه كفروا به ولهذا الأثر طرق كثيرة.

وفي تفسير النيسابوري ما نصه: قوله يستفتحون على الذين كفروا وذلك أن اليهود قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن يسألون به الفتح والنصرة على المشركين إذا قاتلوهم يقولون: اللهم انصرنا بالني المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

وقال في تفسير الكشاف وفي تفسير الخازن ما نصه: وكانوا يعني اليهود من قبل أي من قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستفتحون أي يستنصرون به على الذين كفروا يعني مشركي العرب وذلك أنهم كانوا إذا حزبهم أمر ودهمهم عدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان بني يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما جاءهم ما عرفوا أي الذي عرفوه يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بني إسرائيل كفروا به أي جحدوا وأنكروا بغيا وحسدا ونحوه في تفسير البغوي والنسفي.

([41]١) .٨٩

وفي روح المعاني للآلوسي: وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا نزلت في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل مبعثه قاله ابن عباس وقتادة والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم به على المشركين كما روى السدي أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا:اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به كنى عن الكتاب المتقدم بما عرفوا لأن معرفة من أنزل عليه معرفة له ووجه الدلالة من هذه الآية ظاهر فإن الله سبحانه أقر استفتاح اليهود بالرسول ولم ينكره عليهم وإنما ذمهم على الكفر والجحود بعد إذ شاهدوا بركة الاستفتاح بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

٧-وقال الله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾([42]١):

في هذا النص بيان أن الصحابة رضوان الله عليهم استغاثوا بالله سبحانه فاستجاب لهم فأغاثهم وأمدهم بألف من الملائكة عليهم السلام والملائكة من جنود الله تعالى يغيث بهم من يشاء من عباده والذي يغيث بالملائكة هو الله تعالى وقدرته قابلة أن يغيث بها من شاء من عباده وأن يغيث عباده بعضهم ببعض لأن الخلق جميعا سواء من حيث الإمكان والحدوث وجواز تعلق صفات الله تعالى بهم.

ومن الذي أوجب على الله تعالى أن يمد الملائكة ويمد بهم فقط ولا يمد بالأنبياء والأولياء الصالحين والجميع حولهم وقوتهم بالله سبحانه وتعالى والتفريق بين الملائكة والأنبياء والأولياء من قبيل التفريق بين المتماثلين وهو مخالف لما عليه المحققون.

٨-وقال تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾([43]٢) .

([42]١) سورة الأنفال الآية٩.

([43]٢) سورة النساء الآية ٦٤.

قال الزمخشري في الكشاف: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت جاؤوك تائبين من النفاق مستنصلين عما ارتكبوا فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص وبالغوا في الاعتذار اليك من إيذائك برد قضائك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفرا لوجدوا الله توابا أي لتاب عليهم ولم يقل واستغفرت لهم وعد عنه إلى طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان.

فهذه الآية وإن نزلت بسبب المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت فهي عامة تشمل كل عاص ومقصر، لأن ظلم النفس المذكور فيها يشمل كل معصية ثم إنها أي الآية تدل على الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حالتي حياته ووفاته ه لأن كلا من المجيء والاستغفار وقع في سياق الشرط فيدل على العموم ، الاستشفاع في حال الحياة ظاهر ليس فيه خلاف.

وورد في تفسير ابن كثير: عند قوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ..﴾([1][44]) ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاوؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم انشد يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال: «الحق بالأعربي فبشره أن الله قد غفر له»([2][45]).

وقد جاء في تفسير القرطبي ما نصه: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك روى أبو صالح عن علي قال: قدم علينا أعرابي بعدما دفنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحثا على رأسه من ترابه فقال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا

([44][1]) سورة النساء الآية ٦٤.

([45][2]) تفسير ابن كثير (ج١/ص٦٤٣).

منك وكان فيما أنزل الله عليك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي فنودي من القبر أنه قد غفر لك([46]١).

فالآية دليل على جواز التوسل والاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في سائر الأحوال لأنه في قبره الشريف حي يرزق تعرض عليه أعمال أمته فيدعو لهم ويستغفر ويلحق به في جواز التوسل كل ما تثبت له هذه المزية كالشهداء والعلماء العاملين والأولياء المتقين ونحوهم والله أعلم.

هذا وقد روى هذه القصة غير من مضى من الأئمة:

١- الإمام النووي في كتابه الإيضاح([47]٢).

٢- وابن قدامة في كتابه المغني([48]٣).

٣- وأبو الفرج بن قدامة في كتابه الشرح الكبير([49]٤).

٤- والشيخ منصور البهوتي في كتابه المعروف بكشفا القناع من أشهر كتب المذهب الحنبلي([50]٥) ولم يذكر واحد منهم أن هذا الفعل إشراك بالله تعالى فيكون إقرارا منهم بالتوسل.

الأدلة

من الأحاديث الشريفة وآثار الصحابة

ونبدأ بذكر الأدلة على التوسل والاستغاثة بالأحياء:

١- عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه: أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله لي أن يعافيني فقال: إن شئت صبرت وهو خير لك قال فادعه وفي رواية : ليس لي قائد وقد شق علي فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في قضاء حاجتي لتقضى لي اللهم شفعه في وزاد البيهقي فقام وقد أبصر وفي رواية اللهم

([46]١) تفسير القرطبي (ج٥/ص٢٦٥).

([47]٢) الباب السادس (ص٤٩٨).

([48]٣) (ج٣/٥٥٦).

([49]٤) (ج٣/٤٩٥).

([50]٥) (ج٥/٣٠).

شفعه في وشفعني في نفسي([51]١)، فقوله: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك.. توسل وقوله : يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في قضاء حاجتي.. استغاثة فها هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يرض ان يدعو له هو بنفسه بل أمره أن يتوسل إلى الله به بل ويناديه حال غيابه عنه قائلا: يا محمد وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمر بما فيه طعن في العقيدة أو يرضى به أصلا وهذا توسل ظاهر واستغاثة صريحة بذاته وجاهه صلى الله عليه وآله وسلم عليه وقد اعتمدها علماء المحدثون والحفاظ في كتب السنة في صلاة الحاجة حاثين الأمة عليها.

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك»([52]٢).

وهذا حث ظاهر منه للصحابة على التوسل إلى الله تعالى بجاه ومنزلة السائلين عنده والسائلين جمع يشمل الأموات والأحياء ومن كان حاضرا ومن كان غائبا وفي الحديث دليل التوسل بالعمل الصالح وهو ممشى الرجل إلى المسجد لوجه الله فالشرع لم يفرق بين التوسل بالذوات الفاضلة وبين التوسل بالعمل الصالح بل لقائل أن يقول: كيف لا يجوز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أشرف خلق الله ويجوز التوسل بصلاة العبد وصيامه وصدقته وكلا الأمرين خلق الله.

([51]١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٣٨/٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٨) والترمذي (٣٥٧٨) وابن ماجه (١٣٨٥) وقال أبو إسحاق: هذا حديث صحيح وعبد بن حميد (٣٧٩) وابن خزيمة (١٢١٩) والحاكم (٣١٣/١) وصححه ووافقه الذهبي وفي رواية (فرجع وقد كشف له عن بصره) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٦٦٠).

([52]٢) أخرجه ابن ماجه (٧٧٨) وأحمد (٢١/٣) والطبراني في الدعاء (٩٩٠/٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة ص(٤٠) والبيهقي في الدعوات الكبير ص(٤٧) وأخرجه ابن أبي شيبة (٢١١/١٠ -٢١٢) وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ ابن حجر كما في أمالي الأذكار (٧٢/١) والحافظ العراقي كما في تخريج أحاديث الإحياء (٢٩١/١) والحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ الحافظ المنذري كما في الترغيب والترهيب (٢٧٣/٣) والحافظ الدمياطي كما في المتجر الرابع ص (٤٧١ -٤٧٢) وقال الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة (٩٩/١) رواه ابن خزيمة في صحيحه في طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده.

٣- وعن سيدنا علي كرم الله وجهه: ان سيدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما دفن فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنهما قال: اللهم بحقي وحق الأنبياء من قبلي اغفر لأمي بعد أمي([53]١).

٤- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه :كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال: فيسقون وفي الحديث إثبات التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم وبيان جواز التوسل بغيره كالصالحين من آل البيت وغيرهم كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري([54]٢).

ومن الشبه التي قد ترد على هذا الحديث أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه توسل بالعباس لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان قد توفي والجواب أن يقال: هل قال لكم عمر أو العباس إن هذا التوسل لأن الرسول كان قد توفي كلا لا قال عمر ذلك ولا أشار إليه ولا قال العباس ذلك ولا أشار إليه، وهنا مسائل لابد من ذكرها:

١- ترك الشيء لا يدل على منعه كما تقرر في الأصول فترك عمر للتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا دلالة فيه أصلا على منع التوسل وقد ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا من المباحات فهل دل تركه لها على حرمتها؟ لم يقل ذلك أحد من العلماء ثم إن صاحب الوسيلة لا يتصرف بنفسه في قضاء حاجة المتوسل حتى يحول موته دون ذلك وإنما هو يسعى بالشافعة عند الله تعالى في قضاء حاجة المتوسل فهل ورد نص بتجرد الأنبياء والصالحين بموتهم مما لهم عند الله من المنزلة والجاه على أنه سيمر معنا إن شاء الله تعالى الكلام عن الروح وقوة تصرفها بعد مفارقة البدن.

٢- أراد عمر ان يبين التوسل بالمفضول مع وجود الأفضل لوجود علي وعثمان رضي الله عنهما.

٣- توسل عمر بالعباس في الحقيقة توسل بالنبي لأن عمر توسل به لمكانته من النبي وكونه عمه فها هو يقول عم نبينا ولم يقل بالعباس بن عبدالمطلب.

([53]١) رواه الطبراني في الأوسط (١٥٢/١) وأبو نعيم في الحلية (١٢١/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٧/٩).

([54]٢) أخرجه البخاري (١٠١٠).

٤- أراد عمر بفعله أن يبين جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الصلاح ممن ترجى بركته.

٥- وعن شريح بن عبيد قال: ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين قال: لا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: الأبدال بالشام هم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب([55]١).

وفي رواية: أربعون رجلا مثل خليل الرحمن([56]٢).

ومعنى المثلية في قوله مثل خليل الرحمن أنهم على طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في سلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين .

٦- وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كنت لابد سائلا فأسأل الصالحين([57]٣) فهذا حث ظاهر منه صلى الله عليه وآله وسلم على سؤال الصالحين.

٧- وقال عليه الصلاة والسلام (إن الله خلقا خلقهم لحوائج الناس يفعزع إليهم في حوائجهم أولئك هم الآمنون من عذاب الله)([58]٤).

٨- وعن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا علي ، يا عباد الله احبسوا علي، فإن لله في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم)([59]٥).

وفي رواية: »إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدم غوثا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل: يا عباد الله أغيثوني يا عباد الله أغيثوني فإن لله عبادا لا نراهم.

وفي رواية: »إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظ يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصابت أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله أعينوني، وفي رواية أعينوا([60]٦).

([55]١) أخرجه أحمد (١١٢/١) وفي (مجمع الزوائد ١٠/١٦٦٧).

([56]٢) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٦٣) وقال إسناده حسن.

([57]٣) أخرجه أحمد (٣٢٤/٤) في المسند وأبو داود (١٦٤٦) والنسائي (٢٥٨٦).

([58]٤) رواه الطبراني في الكبير (٣٢٣٤) وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٣٥٠ ورمز لحسنه.)

([59]٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥١٨) وأبو يعلى (٥٢٦٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١٠٥).

([60]٦) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧.

وذكر الإمام الطبراني في الكبير، والإمام النووي في الأذكار بعد روايتهما للحديث بأنهما جربا ذلك بأنفسهما ، وهو ظاهر جلي لا يحتمل التأويل ولا التبديل ففي هذا الموقف الذي ينادي فيه الإنسان (ياالله) بفطرته ، حيث لا يرى حوله من يآنسه أو يقاسمه همه رغم هذا أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول «يا عباد الله حثا على الأخذ بالأسباب فهل بعد الحق إلا الضلال المبين».

٩- عن الحارث بن حسان البكري رضي الله عنه قال: خرجت أنا والعلاء ابن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. الحديث وفيه فقلت: أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد، فقال: أي سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: وما وافد عاد؟.....الخ(١[61]) .

فها هو رضي الله عنه الله عنه يستعيذ بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورغم هذا اقره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهل من المعقول أن يقره على الإشراك بالله.

١٠- وعن سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش من جيوشهم فيقال: هل فيكم من صحب محمدا فيستنصرون به فينصرون ثم يقال: هل فيكم من صحب محمدا فيقال: لا فيقال: فمن صحب أصحابه؟ فلو سمعوا به من وراء البحر لأتوه»(٢[62]).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم(٣[63]).

وهذا دليل على الاستغاثة بالحصابة والتوسل بهم إلى الله طلبا للنصر.

١١- وعن عبدالله بن دينار رضي الله عنه قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشعر أي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأرامل

([61]١) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري وقال الإسناد حسن الفتح (٥٧٩/٨).

([62]٢) أخرجه أبو يعلى (٢١٨٢).

([63]٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٩).

وفي لفظ قال: ربما ذكرت قول الشاعر وانا أنظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأرامل([64]١)

فتمثله رضي الله عنه بهذا البيت من قول أبي طالب دون غيره دليل على توسله بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نص لا يحتمل غير هذا الفهم، ومثل سيدنا ابن عمر لا يصدر عنه ما يشك في قبوله شرعا.

١٢- وعن سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في حديث الشفاعة: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نفصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فيشفع ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم»([65]٢).

وهذا الحديث ظاهر في أن الناس يتوسلون بسيد الأنام عند اشتداد الأمر عليهم ويستغيثون به، ولو كان التوسل والاستغاثة كفرا لما جاز لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يشفع لهم عند الله ، ومعلوم أن الشفاعة يوم القيامة لا تنال الكافرين بل لو كان فيهما شيء من الإشراك بالله لبينه لأصحابه عندما أخبرهم بهذا الحديث فلما لم يكن كفرا كان أمره مستحبا ومندوبا إليه في الدنيا والآخرة.

١٣- وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقص على أصحابه حادثة السيدة هاجر هي وابنها بعد أن تركها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مكة أنها كلما سمعت صوتا عند الطفل قالت: (إن كنت ذا غوث فأغث)([66]٣) والمخاطب هو جبريل عليه السلام فغمز الأرض بعقبه فنبعت زمزم التي ما زالت وستبقى إلى يوم القيامة مفضلة على جميع أنواع المياه لبركتها وفائدتها فهل من المعقول أن يكرم الله السيدة هاجر بماء زمزم إن كان في كلمتها شيء من الكفر ثم إن كان فيها كفر فلماذا لم ينبه

([64]١) أخرجه البخاري (١٠٠٨).

([65]٢) هذا الحديث متواتر ، وممن رواه البخاري ومسلم (١٩٤).

([66]٣) اخرجه البخاري (٣٣٦٥).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه عليها وهو يحدثهم أيسكت صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر فيه إخراج أصحابه عن عقيدتهم؟!

١٤- وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنه شكا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم النسيان لما يسمعه من حديثه الشريف وهو يريد أن يزول عنه ذلك فقال رضي الله عنه : يا رسول الله : إني أسمع منك حديثا كثيرا فأنساه فأحب أن لا أنسى فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ابسط ردائك فبسطه فغرف يديه فيه ثم قال: ضمه فضمه قال ابو هريرة فما نسيت حديثا بعد وفي رواية فما نسيت شيئا قط»([67]١).

وعدم النسيان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله وحده ورغم هذا لم ينكر عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأجابه إلى مطلبه فهذا توسل منه رضي الله عنه بذات سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومكانته عند الله لا بدعائه فحسب لأنه لم يرد أنه دعا له وإنما اغترف له من الهواء وألقاه في ثوبه وأمره بضمه إلى صدره وهذا دليل منه رضي الله عنه على جواز سؤال مثل هذه الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله من غير الله تعالى، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل له لا تسألني وسل من هو أقرب إليك مني بل أجابه إلى مطلبه وقضيت حاجته باللحظة التي ضم فيها الرداء إلى صدره.

١٥- ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن عمر عس([68]٢) ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحجدا يضحك ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة ولم ير سائلا يسأل فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين إن الناس سألو فلم يعطوا فقطعوا السؤال والناس في هم وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة أن يا غوثاه لأمة محمد وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر أن ياغوثاه لأمة محمد فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الأطعمة([69]٣).

وهذا ظاهر في جواز إطلاق لفظ التوسل والاستغاثة.

([67]١) أخرجه البخاري (٣٦٤٨) والترمذي (٣٨٣٥).

([68]٢) تجول في البلد ليلا لينظر في احوالها.

([69]٣)البداية والنهاية (٩٧/٧) وقال عنه : أثر جيد الإسناد

١٦- وعن قتادة رضي الله عنه أنه أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فقال: لا حتى استأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستأمره فقال: لا ثم وضع راحته على حدقته ثم غمزها فعادت كما كانت فكانت أصح عينيه([70]١)، فهذا توسل منه بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى يبرأ من مرضه.

ومثل هذا الفعل مما يختص به الله عز وجل إلا أن يكرم به أحد عباده ويأذن له بفعله .

١٧- وقال صلى الله عليه وآله وسلم «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»([71]٢) فهذا دليل جواز استعانة العباد بعضهم ببعض بل والحث على ذلك وإكرام المعين لغيره بمعونة الله الكبرى.

([70]١) أخرجه أبو يعلى (١٥٤٩) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤١٦) وابن حجر في أسد الغابة (٣٩٠/٤) والإصابة (١٣٨/٨) وابن هشام في اللسيرة (٨٢/٢) مرسلا والطبراني في الكبير (١٩ رقم ١٢) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (/٢٩٧ -٢٩٨) (١١٣/٦) وابن كثير في الشمائل ص (٥٦٨) والحاكم (٢٩٥/٣) وابن كثير في السيرة (٦٦/٣ -٦٧).

([71]٢) أخرجه مسلم (٦٧٩٣) وأبو داود (٤٩٤٦).

الأدلة على التوسل والاستغاثة بالأموات

لابد لنا قبل الخوض في ذكر الأدلة على التوسل والاستغاثة بالأموات من الإجابة على أسئلة ثلاثة قد تتبادر إلى أذهان كثير من الناس وهي:

١- هل الموتى أحياء في قبورهم فنتوسل بهم؟

٢- وهل يسمعون توسلنا وهم في القبور؟

٣- وهل يستطيعون إثاثتنا ونفعنا وهم قد انتقلوا إلى الحياة البرزخية؟

الجواب عن الأسئلة الثلاثة (نعم) إنهم أحياء في قبورهم يسمعون توسلنا ويقضون حوائجنا والأدلة على ذلك كثيرة:

١- منها قوله تعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عن ربهم يرزقون﴾(١[72]).

٢- وقوله تعالى ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾(٢[73]).

فدلت الآيتان على حياة الذين يقتلون في سبيل الله والقتل في سبيل الله عام يشمل الشهادة في الحروب وفي غيرها كما دلت الأحاديث والآثار على ذلك ثم إذا كان هذا حال الشهداء فماذا يكون حال الأنبياء عامة وحال نبينا خاصة وقد جمع الله له بين الشهادة والنبوة؟ لا شك انهم أدنى بهذه المزية منه.

٣- ومنها قوله تعالى ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾(٣[74]) فقد قال الحافظ ابن كثير رضي الله عنه عن تفسير هذه الآية:

(... وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ).

٤- ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»(١[75]).

([72]١) سورة آل عمران الآية (١٦٩).

([73]٢) سورة البقرة الآية (١٥٤).

([74]٣) سورة التوبة الآية (١٠٥).

٥- ومنها حديث أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أفضل أيامكم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي قالوا كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يقولون بليت فقال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»([٢][76]).

٦- ومنها حديث الإسراء المتواتر الذي ورد من طريق بضع وأربعين صحابيا([٣][77]) وفيه أنه صلى الله عليه وآله وسلم بهم جماعة وأن سيدنا آدم وغيره من الأنبياء دعوا لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن سيدنا موسى عليه السلام طلب منه العودة إلى ربه ليطلب منه تخفيف الصلاة عنا حتى خففها الله من خمسين صلاة إلى خمس صلوات في اليوم والليلة فهذا كله دليل حياتهم في دار البرزخ أي القبر بل وحريتهم في الانتقال من مكان إلى آخر ودعاء سيدنا آدم وإرشاد سيدنا موسى لأمر تخفيف عدد الصلوات دليل نفعهم لنا وهم في الحياة البرزخية .

٧- ومنها حديث سيدنا أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: »إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم([٤][78]).

٨- ومنها حديث سيدنا أبي طلحة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام على القليب قليب بدر وفيه قتلى المشركين فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء

([75][١]) أخرجه أبو يعلى (٣٤٢٥) رمز السيوطي لحسنه، وأخرجه أيضا البيهقي في حياة الأنبياء (ص)٣ وصححه والبزار في مسنده (٢٣٣) (٢٥٦) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨٥/٤) وابن عدي في الكامل (٢/٩) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٣٨/٢) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ برقم ١٣٨١٢) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٤٥٢) وصححه المناوي إسناده صحيح ويشهد له حديث سيدنا أنس رضي الله عنه قال رسلو الله صلى الله عليه وآله وسلم مررت بموسى ليلة أسري بي وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر أخرجه مسلم (٦١٠٧) والنسائي (٦٣١) وأحمد (١٤٨/٣) وأبو نعيم في الحلية (٢٥٣/٦) وأبو يعلى (٣٣٢٥) وابن حبان (٥٠) وابن أبي شيبة (٣٠٧/١٤ ، ٣٠٨) والسيوطي في الدر المنثور (١٥٠/٤) .

([76][٢]) أخرجه أبو داود (١٠٤٧) والنسائي (١٣٧٣) وابن ماجه (١٠٨٥) وأحمد (٨/٤) والدارمي (١٥٣٥) وابن خزيمة (١٧٣٣) وابن أبي شيبة (٥١٦/٢) والبيهقي (٢٤٨/٣) والحاكم (٢٧٨/١) وصححه ووافقه الذهبي والطبراني في الكبير (٥٨٩).

([77][٣]) أخرجه البخاري (٣٤٩) ومسلم (٤١٣) والدارمي في الرد على الجهمية وابن منده في افيمان (٧١٤) وأبو عوانة (١٣٣/١ - ١٣٥) والآجري في الشريعة ص (٤٨١ - ٤٨٢).

([78][٤]) أخرجه البخاي (١٣٣٨) ومسلم (٧١٤٥) وأبو داود (٣٢٣١) والنسائي (٢٠٤٨) وأحمد (١٢٦/٣) وعبد بن حميد (١١٨٠) والبيهقي في إثبات عذاب البقبر (١٣) والآجري في الشريعة ص (٣٦٥) وأحمد في السنة (١٣٥٥) والبيهقي في السنن (٨٠/٤) والبغوي (١٥٢٢) وابن حبان (٣١٢٠) .)

آبائهم يا فلان ابن فلان قال: إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟! فقال سيدنا عمر يا رسول الله: ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟! فقال رسول الله صل والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما اقول منهم([79]١) وهذا قسم منه صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يسمعون كلامه.

٩- ومنها حديث سيدنا عبدالله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن امتي السلام»([80]٢).

١٠- ومنها حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد السلام»([81]٣).

والسلام هو الأمان فهو يدعو للمسلم بالأمان إذا يلحق به النفع وهو في قبره صلى الله عليه وآله وسلم ويرد على الحديث إشكال وهو أن ظاهره أن عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه وهو الموت وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة:

١- المراد بقوله (رد الله علي روحي) أن رد روحه كانت سابقة عقب دفنه لا أنها تعاد ثم تنزع ثم تعاد.

٢- سلمنا لكن ليس هو نزع موت بل لا مشقة فيه.

٣- المراد بالروح الملك الموكل بذلك.

٤- المراد بالروح النطق فتجز فيه من جهة خطابنا بما نفهمه.

٥- أنه يستغرق في أمور الملأ الأعلى فإذا سلم عليه رجع اليه فهمه ليجيب من سلم عليه. وقد استشكل ذلك من جهة أخرى ، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة وأجيب بأن أمور الآخرة لا تدرك بالعقل وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الأخرة والله أعلم انتهى كلام الحافظ بحروفه([82]٤).

([79]١) أخرجه البخاري (٣٧٥٧) ومسلم (٢٨٧٥) .

([80]٢) أخرجه النسائي (١٢٨١) في عمل اليوم والليلة (٦٦) وأحمد (٣٨٧/١) وأبو يعلى (٥٤١٣) وعبدالرزاق في مصنفه (٣١١٦) وابن أبي شيبة (٥١٧/٢) والدارمي (٢٦٢٧) والبزار (٢٩٥/١) والطبراني في الكبير (١٠٢٨) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٠٥/٢) والبغوي (٦٨٧) والخطيب في تاريخ بغداد (١٠٤١٥) وابن القيم في جلاء الأفهام ص (٢٤) والحاكم (٤٢١/٢) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (٩١٤) وفي الحديث الحث على الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفيه تعظيمه وإجلال مترلته حيث سخر الله تعالى الملائكة الكرام لهذا الشان العظيم.

([81]٣) أخرجه أبو داود (٢٠٤١) وأحمد (٥٢٧/٢).

([82]٤) المقالات السنية ص (١١٥).

١١- ومنها حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»([83]١) فهذا صريح في أنه صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لأمته وهو في الحياة البرزخية والاستغفار دعاء تنتفع منه الأمة الإسلامية جمعاء.

١٢- ومنها حديث سيدنا أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم فإن كان خيرا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لاتمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه : «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم في قبورهم فإن كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»([84]٢) وهذا دليل نفع الأموات من غير الأنبياء.

١٣- ومنها حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: »والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى بن مريم إماما مقسطا عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليصلحن ذات البين وليذهبن الشحناء وليعرضن المال فلا يقبله أحد حتى لئن قام على قبري فقال: يا محمد لأجبته([85]٣): وفي قوله لأجبته دلالة ظاهرة على سماعه إياه.

١٤- ومنها حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما من أحد يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»([86]٤).

١٥- ومنها أحاديث السلام على الموتى عند المرور بهم: كحديث بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا ذهب إلى المقابر يقول:

([83]١) أخرجه البزار (٨٤٥) ورجاله رجال الصحيح كذا في مجمع الزوائد (١٤٢٥٠) وقال الحافظ العراقي في طرقح التثريب (٢٩٧/٣) إسناده جيد وصححه الحافظ السيوطي كما في الخصائص (٢٨١/٢) وكذلك الحافظ الغماري في نهاية الآمال في شرح وتصحيح حديث عرض الأعمال.

([84]٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٤/٤) وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٣٨٥/١٠) وفي تفسير ابن كثير (١٤٧/٤) وفي كنز العمال (٣٤٠٢٩) وفي الحاوي للسيوطي (٣٠٣/٢ - ٣٠٤) .

([85]٣) ذكره الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨١٣) ورواه أبو يعلى (٦٥٨٤) ورجاله رجال الصحيح .

([86]٤) أورده الحافظ السيوطي في الحاوي(١٧٠/٢) وقال : صححه الحافظ ابن عبدالحق وهو إمام في العلل كما قال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ.

السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية([87]١).

فلولا حياة الموتى في قبورهم وصحة سماعهم لم يكن لهذه الخطابات أي معنى ولكانت بمثابة مخاطبة الجمادات.

١٦- ومنها حديث سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :«إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه فإنهم يتزاورون في قبورهم»([88]٢).

١٧- ومنها حديث سيدنا أبي أمامة عندما مر به سعيد الأودي أو الأزدي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فقال له : يا سعيد إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس القبر ثم ليقل : يا فلان بن فلانة فلإنه يسمع ولا يجيب – أي لا يستطيع الجواب– ثم ليقل: يا فلان بن فلانة المرة الثانية فإنه يستوي قاعدا ثم ليقل يافلان ابن فلانة المرة الثالثة فإنه يقول: أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تشعرون... الخ»([89]٣).

وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ما نصه : قوله: ويستحب أن يلقن الميت بعد الدفن وحديث التلقين إسناده صالح وقد قواه الضياء في أحكامه([90]٤).

١٨- ومنها حديث الرجل الذي ضرب خباءه ليلا على قبر فسمع من القبر قراءة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾([91]٥) إلى آخرها فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (هي المانعة هي المنجية)([92]٦).

١٩- ومنها ما قاله سعيد بن عبدالعزيز: (لما كان أيام الحرة لم يؤذن في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثا ولم يقم ، ولم يخرج سعيد بن المسيب من

([87]١) أخرجه مسلم (٢٢٥٤) والنسائي (٢٠٣٦) وأحمد (٢٢/٦) وابن أبي شيبة (٣٤٠/٣) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٤) والبيهقي (٧٩/٤) والبغوي (١٥٥٥) وابن حبان (٣١٧٣).

([88]٢) أخرجه الترمذي (٩٩٤) وابن ماجه (١٤٧٤) بشطره الأول.

([89]٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٧٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢٤٨).

([90]٤) التلخيص الحبير (١٣٥/٢) وذكره افمام النووي في المجموع (ج٥/ ص٢٤٣).

([91]٥) سورة الملك الآية١.

([92]٦) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) وحسنه السيوطي.

المسجد وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم)([93]١).

٢٠- ومنها ما رواه نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا قدم من سفر أتى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبتاه)([94]٢).

٢١- ومنها ما ثبت أن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأضع ثيابي وأقول إنما هو زوجي وأبي فلما دفن عمر معهما فو الله ما دخلت إلا وأنا مشدودة حياء من عمر ([95]٣).

٢٢- ومنها قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته : (بأبي أنت وأمي يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين)([96]٤).

٢٣- ومنها ما ثبت عن سيدنا شيبان بن جسر عن أبيه أنه قال: (أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتا البناني في لحده ومعي حميد الطويل فلما سوينا عليه اللبن سقطت لبنة فإذا أنا به يصلي في قبره)(**[97]٥**).

٢٤- ومنها قول ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يتحدث عن الورح ومداى قوة تصرفها وانتقالها بعد انفصالها عن الجسد فقد ذكر رضي الله عنه في كتابه الروح ما نصه: ففلروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت وفارقته واجتمعت فيها قواتها وكانت في أصل شأنها روحا علية زكية كبيرة ذات همة عالية فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر.

([93]١) أخرجه الدارمي (٩٣).

([94]٢) رواه الإمام عبدالرزاق في مصنفه بسند صحيح (٥٧٦/٣) حديث (٦٧٢٤).

([95]٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٢/٦) والحافظ الهيثمي وقال رجاله رجال الصحيح مجمع الزوائد (١٢٧٠٤) وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين (٧/٤) ووافقه الذهبيس.

([96]٤) أخرجه البخاري (١٢٤١) والنسائي (١٨٤٠) وأحمد (١١٧/١).

([97]٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣١٩/٢).

وقد تواترت الرؤيا في أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا يقدر على مثله حال اتصالها بالدبن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك وكم قد رؤي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مقلوبة مكسورة مع كثير عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقتلهم([98]١).

ويقول أيضا: فهي أي الرؤى على كثرتها وانها لا يحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أرى رؤياكم قد تواطأت([99]٢) على أنها في العشر الأواخر يعني ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء كانت كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه أو استقباحه ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه قبيحا فهو عند الله قبيح([100]٣) ويقول صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء خصوصا بموسى وقد أخبر بانه (ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله روحه حتى يرد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وغن كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال في الملائكة فإنهم احياء موجودون لا نراهم([101]٤) .

ويقول: السلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم.

٢٥- وقد سئل الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذه المسالة فأفتى بما يؤيد ذلك([102]٥).

٢٦- ومنها: قول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في مرقاة الصعود: تواترت بحياة الأنبياء في قبورهم الأخبار.

([98]١) كتاب الروح ص (١٩١).

([99]٢) أخرجه البخاري (٢٢٠١٥) ومسلم (٢٧٥٣) وأحمد (٢/٥) وابن خزيمة (٢١٨٢) وابن خزيمة (٢١٨٢) والنسائي (تحفة الأشراف (٨٣١٥) والبيهقي (٣١٠/٤ - ٣٦١) والبغوي (١٨٢٣) وعبدالرزاق (٧٦٨٨) وابن حبان (٣٦٧٥).

([100]٣) ص (٢٥).

([101]٤) ص (٥٣ - ٥٤).

([102]٥) انظر الفتاوى (٣٣١/٢٤ ، ٣٦٢).

وقال في إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء ما نصه(حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا قطعيا لما قام عندنا من الأدلة في ذلك وتواترت بها الأخبار الدالة على ذلك).

٢٧- ومنها قول **الإمام السخاوي** رضي الله عنه يحكي الإجماع على ذلك فقد قال بعد سرده الأدلة على عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وآله وسلم من صلاة وغيرها ما نصه:

السادسة: يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم حي على الدوام وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه في ليل ونهار ونحن نؤمن ونصدق بانه صلى الله عليه وآله وسلم حي يرزق في قبره وإن جسده الشريف لا تأكله الأرض والإجماع على هذا وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤذنين وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا لم تتغير أجسامهم والأنبياء أفضل من الشهداء جزما.

٢٨- ومنها قول **الإمام السبكي في شفاء الأسقام**: وأقول إن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جائز في كل حال: قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة .

٢٩- ومنها ذكر ابن حزم للإجماع أيضا في كتابه المحلى.

٣٠- وتأليف البيهقي لجزء خاص يثبت فيه حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم وغيرها من الأقوال التي سنتطرق اليها إن شاء الله عند ذكر أقوال العلماء في التوسل والاستعانة .

ومما قد يرد على حياة الأموات في قبورهم وسماعهم للأحياء قول الله عز وجل ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾[103] لكن هذه الآية دليل على أن الكفار المصرين على الباطل لن ينتفعوا بالتذكير والموعظة فهم غارقون في قبور كفرهم وعنادهم محجوبون عن نور الهداية والإيمان كما هو حال الموتى الذين في القبور وأنهم لن ينتفعوا بما يسمعونه من التذكير والموعظة فهذا مؤول لا يحمل على الظاهر والدليل عليه قول الله عز وجل ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم

[103] سورة فاطر الآية (٢٢).

الدعاء إذا ولو مدبرين﴾([104]١)، والأموات لا يولون مدبرين بعد العظة والتذكير وإنما المراد بذلك الكفار.

يقول **الإمام الطبري** في تفسيره:

إنك يا محمد لا تقدر أن تفهم الحق من طبع الله على قلبه فأماته، لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه.

﴿ولا تسمع الصم الدعاء﴾ يقول: ولا تقدر أن تسمع ذلك من أصم الله عن سماعه سمعه.

﴿إذا ولوا مدبرين﴾ يقول: إذا هم أدبروا معرضين عنه لا يسمعون له لغلبة دين الكفر على قلوبهم ولا يسغون للحق ولا يتدبرون ولا ينصتون لقائله لكنهم يعرضون عنه وينكرون القول به والاستماع له([105]٢).

ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكره مثل الحي والميت)([106]٣).

وإن قيل قد ثبت في الحديث أن الميت إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث... فكيف نثبت للميت النفع والتأثير ولو كان المقصود أنه مجرد واسطة؟

فالجواب : أن المعنى المقصود هنا هو أنه انقطع الثواب والنفع الذي كان يحصل عليه الميت مما كان يعمله هو بنفسه من صلاة وصيام وغير ذلك من الأعمال لأن هذه الأعمال قد توقف عنها بعد الموت إلا ما يصله من صدقة جارية كان عملها أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ولا يعني بانقطاع عمله أنه لم تعد له قدرة على فعل شيء بعد الموت لما مر من الأدلة والحجج.

ثم من اعتقد أن لأحد من الخلق تأثيرا في الحياة ينقطع عنه بانتقاله إلى البرزخ ففي عقيدته شيء من إشراك العبد لله في الأفعال والتأثير فليس لأحد من الخلق تأثير ذاتي ولا قيام له بنفسه وحولهم وقوتهم بالله تعالى هو يجري على أيد خلقه ما يشاء من المقادير في حال حياتهم الدنيوية وكذلك الأمر في حال الحياة البرزخية والأخروية فلو كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ليغره تأثير في حياته كما

([104]١) سورة النمل الآية (٨٠).

([105]٢) المجلد (١١) (ج٢٠ /ص ١٢).

([106]٣) أخرجه البخاري رقم (٦٠٤٤) ومسلم (١٨٢٠) وابن حبان (٨٥٤).

توهم بعض القاصرين لصح نفيه عنه بعد انتقاله ولجاز حينئذ سؤاله ونداؤه في حياته فقط أما ما دام لا تأثير له في حياته الدنيوية كذلك لا تأثير له بعد انتقاله إلى الحياة البرزخية والله تعالى أجرى بحوله وقوته على يديه الخير في حال حياته الدنيوية هو الذي يجري على يديه بعد انتقاله ومن الذي يقيد الله تعالى ويوجب عليه أن يفتح على أيدي خلقه في حال حياتهم الدنيوية ولا يفتح على أيديهم في حال انتقالهم إلى حياة أخرى برزخية أو أخروية؟!

فالتوسل حكم مقرر جوازه من احكام الشريعة المطهرة ومعمول به في عصره لا يتغير بانتقاله عليه الصلاة والسلام كما لا تتغير بقية أحكام التشريع فلا يحق لإنسان ان يقول: هل الوضوء جائز بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وهل الصلاة جائزة بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ وهكذا ومثل ذلك قولهم: هل التوسل جائز بعد موته عليه الصلاة والسلام؟!

لأنها جميعا أحكام شرعية مقررة بأدلتها ومعمول بها في حياته وبعد انتقاله([107]١)، فلو أجزنا التوسل بالحي دون الميت لجعلنا للحي نوع تأثير دون أن نشعر وهذا خلاف عقيدة الإسلام.

وقد مر معنا في بداية باب التوسل أن المتوسل لا يعتقد أن للمتوسل به أي تأثير من خير أو نفع إلا ما أثبته له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجازا عندما قال: .. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإنهم لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك([108]٢). فأثبت لهم النفع والإضرار وحصره ضمن إرادة الله ومشيئته فالمتوسل به إذا لا يتصرف بنفسه في قضاء حاجة المتوسل حتى يحول موته دون ذلك وإنما هو يسعى بالشفاعة عند الله تعالى في قضاء تلك الحاجة.

وإنه لم يرد نص واحد يثبت أن الله ينزع من أنبيائه وأوليائه المكانة والجاه بعد انتقالهم إلى عالم البرزخ.

أما الآن وبعد أن تبين لنا يقينا مما مر من الأدلة أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم يسمعون توسلنا بهم ويستطيعون بقدرة الله التي أعطاهم إياها أن يغيثونا

([107]١) من كتاب الإسعاد ص (٢٢ – ٢٣).

([108]٢) اخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح وأحمد (١/٢٩٣).

ويكونوا سبب نفع لنا رغم انتقالهم إلى الحياة البرزخية إجابة عن الأسئلة الثلاثة الماضية فننتقل إلى **ذكر الأدلة على التوسل والاستغاثة بالأموات:**

١- عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسلو الله صلى الله عليه وآله وسلم لما دفن فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنهما : (اللهم بحقي وحق الأنبياء من قبلي اغفر لأمي بعد أمي)([109]١).

٢- وعن سيدنا أبي الجوزاء أوس بن عبدالله رضي الله عنه قال(قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبيلى فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف قال: ففعلوا فمطرنا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق)([110]٢).

٣- وعن مالك الدار وكان خازن عمر قال أصاب الناس قحط في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله (وفي رواية يا محمداه استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتى الرجل في المنام فقيل له: ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره بأنكم مستقيون وقل له : عليك الكيس فأتى عمر فأخبره فبكى عمر ثم قال: يا رب لا آلو إلا ما عجزت عنه)([111]٣).

٤- وعن سيدناعثمان بن حنيف رضي الله عنه : أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضثي في حاجة له وكان عثمان رضي الله عنه لا يلتفت اليه ولا ينظر في حاجته فلقيه الرجل فشكا ذلك اليه فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضأة ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه اليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيقضي حاجتي وتذكر حاجتك فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذه بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة([112]٤) وقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاها له ثم قال ما ذكرت

([109]١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٢/١) وأبو نعيم في الحلية (١٢١/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٥/٩) .

([110]٢) أخرجه الدارمي في سننه برقم (٩٢).

([111]٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١/١٢ ، ٣٢) والبخاري في تاريخه (٣٠٤/٧) والحافظ أبو يعلى الخليلي في الإرشاد ص (٦٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧/٧) وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٩٥/٢) إسناده صحيح وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٠٥/٧) وفي التفسير (٩١/١) إسناده صحيح.

([112]٤) الطنفسة: مثلثة الطاء والفاء أيضا وقد تفتح الطاء وتكسر الفاء : اسم اللبساط وتطلق على حصير من سعف يكون عرضه ذراعا.

حاجتك حتى كانت هذه الساعة ثم قال ما كانت لك حاجة فائتنا ثم إن الرجل لما خرج من عنده لقي عثمان بن حنيف وقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت الي حتى كلمته في فقال عثمان ابن حنيف والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه رجل ضرير فشكا اليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أو تصبر؟ قال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم ائت الميضاة فتوضأ ثم ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات فقال عثمان بن حنيف فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط([113]١).

٥- ومن الأدلة على جواز التوسل بانبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته : القياس على جواز التبرك بآثاره المنفصلة في حال حياته وبعد مماته فلقد ثبت في أحاديث صحيحة وردت في الصحيحين أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا يتبركون بشرعه وأم سليم تأخذ من عرق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتضعه في زجاجة وكلما نقص زادته ماء وغيره من الأدلة التي ستمر معنا إن شاء الله في باب التبرك فبقيت إذا آثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته كدواء يتشفى به بإذن الله عز وجل.

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن الذي انفصل من أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حال حياته ثم بقي إلى ما بعد وفاته يأخذ الحكم وهو جعله سببا للشفاء أو التبرك والمسبب هو الله وحده يأخذ هذا الحكم ذاته بعد وفاته أيضا.

فمن باب أولى ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاهه الكريم عند الله عز وجل فإنه لم يتبدل ولم يتغير ولم يبل ولم يخلق فالأنبياء أحياء في قبورهم يصلون والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وهذا ما قاله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعليه الإجماع كما مر معنا.

([113]١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٣١١٠) وقال بعد ذكر طرقه (والحديث صحيح) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٢٨) وصححه الحاكم (٥٢٦/١) ووافقه الذهبي وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٦٦٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٦/١) ونقلا تصحيح الطبراني له والشيخ ابن تيمية في كتابه التوسل والوسيلة ص (١٠١).

٦- وعن الهيثم بن خنيس قال: كنا عند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فخدرت رجله فقال له رجل: اذ١كر أحب الناس اليك فقال: يا محمد فكأنما نشط من عقال.

وعن عبدالرحمن بن سعد قال(خدرت رجل ابن عمر فقال له رجل اذكر أحب الناس اليك فقال محمد)([114]١).

٧- وذكر الحافظ ابن كثير خلال كلامه عن وقعة اليمامة ما نصه : (وحمل خالد بن الوليد رضي الله عنه حتى جاوزهم وسار لجبال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل اليه فيقتله ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البزار وقال: أنا ابن الوليد العود أنا ابن عامر وزيد ثم نادى بشعار المسلمين وكان شعارهم يومئذ (يا محمد)([115]٢) .

٨- وها هو سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام يتوسل بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد روى سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي فقال الله تعالى يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق اليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق الي وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولو لا محمد ما خلقتك)([116]٣).

٩- وها هو سيدنا معاذ رضي الله عنه يتذكرقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أرسله إلى اليمن : «فعلك تمر بقبري ومسجدي»([117]٤) فيأتي إلى قبره صلى الله عليه وآله وسلم ويبكي أمامه وإذا بسيدنا عمر يراه فيقول له : ما يبكيك ؟

([114]١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٦٤) وذكره الشيخ ابن تيمية في الكلم الطيب في الفصل السابع والأربعين ص ١٦٥.

([115]٢) البداية والنهاية (٣٢٤/٦).

([116]٣) أخرجه البيهقي في كتابه دلائل النبوة (٤٨٩/٥) والحاكم (٦١٥/٢) وصححه والطبراني في الأوسط (٦٤٩٨) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٩١٧) وقد حقق الإمام تقي الدين السبكي في كتابه: شفاء الأسقام أن هذا الحديث لا يترل عن درجة الحسن.

([117]٤) أخرجه أحمد (٢٣٥/٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٥٥/١٠).

فيقول سيدنا معاذ حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «اليسير من الرياء شرك»([118]١).

١٠- وروى الخطيب في تاريخه عن علي بن ميمون رضي الله عنه أنه قال : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة أجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائرا فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما يبعد عني حتى تقضى وقد صح وبسند صحيح توسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما.

١١- وروى أيضا عن احمد بن جعفر القطيعي قال : سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال وهو شيخ الحنابلة في وقته يقول (ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر يعني الكاظم فتوسلت به إلا سهل الله لي ما أحب)([119]٢).

١٢- وقال الحافظ عبدالغني المقدسي: (خرج في عضدي شيء يشبه الدمل وكان يبرأ ثم يعود ودام بذلك زمانا طويلا فسافرت إلى أصبهان وعدت إلى بغداد وهو بهذه الصفة فمضيت إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه ومسحت به القبر فبرأ ولم يعد([120]٣).

١٣- وقد قال الإمام أحمد نفسه عندما ذكر أمامه صفوان بن سليم: (هذا رجل ينزل القطر من السماء بذكره)([121]٤).

١٤- وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه أن الإمام إبراهيم الحربي أحد أئمة الحديث قال(قبر معروف يعني الكرخي الترياق المجرب).

وأن أبا عبدالله المحاملي أحد أئمة الحديث أيضا قال: اعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة وما قصده مهموم إلا فرج الله همه.

([118]١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٥/١٠) والحاكم (٤/١) وقال صحيح لا علة له ووافقه الذهبي والطبراني في الأوسط (٧١٠٨).

([119]٢) من كتاب إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء للشيخ عبدالله صديق الغماري.

([120]٣) ذكرها الحافظ ضياء الدين المقدسي المتوفى سنة (٦٤٣) في كتابه الحكايات المنثورة بخطه برقم (٣٨٣٤) الورقة (١١٢) الوجه (أ) السطر (١٠).

([121]٤) تذكرة الحفاظ ص (٦١).

وأخرج أن الإمام عبيد الله بن عبدالرحمن بن محمد الزهري قالك سمعت أي يقول: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج ويقال: إن من قرأ عنده مائة مرة ﴿قل هو الله أحد﴾([122]١) وسأل الله تعالى ما يريد قضى الله له حاجته.

١٥- وأخرج أيضا أن أحمد بن العباس الشامي قال: (خرجت من بغداد أريد الحج فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة فقال لي: من أين خرجت قلت من بغداد خرجت منها لما رأيت فيها من ا لفساد فخفت أن يخسف بأهلها قال: ارجع ولا تخف فإن فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن لم من جميع البلايا قلت : من هم؟ قال: أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر الحافي ومنصور بن عمار فرجعت وزرت القبور)([123]٢) .

ومن لطائف القول أن بعض الحجاج كان يقبل حديدة حجر سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم فرآه بعض المسلمين هناك فقال لأحد العلماء حوله : (انظر إلى هذا المشرك يقبل حديدة الحجرة وهو حديد صنعناه بأيدينا لا ينفع ولا يضر فنظر اليه العالم فرأى على رأسه قلنسوة فقبله منها ثم قال له: ألم نصنع هذه القلنسوة بأيدينا؟

قال: نعم .

قال لماذا قبلتها أنا ؟

قال إكراما لي لأنها على رأسي.

فقال له: وهؤلاء يقصدون ذلك).

==================================

أقوال العلماء والصالحين في التوسل والاستغاثة

١- الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى:

([122]١) سورة الإخلاص الآية ١.

([123]٢) من كتاب إتحاف الأذكياء للشيخ عبدالله صديق الغماري.

قال في رسالته الموجهة لأهل القصيم مستنكرا بشدة على من نسب اليه تكفير المتوسل بالصالحين: (إن سليمان بن سحيم افترى علي أمورا لم أقلها ولم يأت أكثرها على بالي فمنها: أني أكفر من توسل بالصالحين وأني أكفر البوصيري لقوله يا أكرم الخلق وأني أحرق دلائل الخيرات وجوابي عن هذه المسائل ان أقول: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾([124]١))([125]٢).

وسئل الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن قولهم في الاستسقاء لا بأس بالتوسل بالصالحين فأجاب بكلام كثير منه:

(... ولكن يقول في دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين أو يقصد قبرا معروفا أو غيره يدعو عنده)([126]٣) وهذا يدل على جواز التوسل عنده.

٢- الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى :

سئل رضي الله عنه : هل يجوز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أم لا ؟ فأجاب :

(الحمد لله التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه مشروع باتفاق المسلمين)([127]٤).

وقال في موضع آخر : (وكذلك مما يشرع التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علم شخصا أن يقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيجلي حاجتي ليقضيها فشفعه في)([128]٥).

وقال في موضع آخر: وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ففيه حديث في السنن: (أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ! إني

([124]١) سورة النور الآية (١٦).

([125]٢) الرسالة الأولى والحادية عشرة من رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب القسم الخامس ص (١٢) ص (٦٤).

([126]٣) فتاوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب في مجموعة المؤلفات القسم الثالث ص(٦٨) التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب والغريب من الذين يقرون أسبوع محمد ابن عبدالوهاب وينكرون مولد النبي محمد بن عبدالله السنوي...).

([127]٤) التفاوى الكبرى (١/١٤٠).

([128]٥) أخرجه الترمذي وصححه في كتاب الدعوات (٣٥٧٨).

أصبت في بصري فادع الله لي، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (توضأ وصل ركعتين ثم قل: اللهم أسألك وأتوجه اليك نبيك نبيك محمد يا محمد إني أتشفع بك في رد بصري اللهم شفع نبيك في وقال فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك فرد الله بصره([129]١))([130]٢).

٣- الشيخ محمد ناصر الألباني:

ذكر الشيخ الألباني أنه يجوز التوسل بأسماء الله وصفاته وبعمل الداعي ودعاء رجل صالح آخر فيما نقله عنه عيد العباسي في كتابه التوسل أنواعه وأحكامه ذلك الذي قال عنه مؤلفه : إنه مقالات كتبها وألقاها الشيخ ناصر الألباني فقال:

(فمما سبق تعلم أن التوسل هو مشروع دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وجرى عليه عمل السلف الصالح وأجمع عليه المسلمون وهو:

١- التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

٢- التوسل بعمل صالح قام به الداعي.

٣- التوسل بدعاء رجل صالح.

ثم ينقل أقوال الأئمة المعتمدين في مسألة التوسل فيقول:

(فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحده وأجاز غيره كالإمام الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين)([131]٣).

٤- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى:

قال الإمام أحمد للمروزي رحمهما الله تعالى : (ويتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه وجزم به في المستوعب وغيره).

وقد مر معنا قوله عندما ذكر أماه صفوان بن سليم : (هذا رجل ينزل القطر من السماء بذكره).

٥- الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى :

قال رضي الله عنه للخليفة المنصور لما حج وزار قبر النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام وسأل مالكا قائلا: يا أبا عبدالله أأستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله

([129]١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥٧٨) وقال حسن صحيح وأخرجه ابن ماجه في صلاة الحاجة (١٣٨٥).

([130]٢)افتاوى الكبرى (١٠٥/١).

([131]٣) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ محمد ناصر الألباني ص (٤٦).

صلى الله عليه وآله وسلم وأدعو؟ فقال الإمام مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى ؟ بل استقبل واستشفع به فيشفعه الله فيك.

قال الله تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما([132]١)﴾([133]٢).

٦- الإمام النووي رحمه الله تعالى:

قال رضي الله عنه : (.. واعلم أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أهم القربات وأنجح المساعي .. إلى أن قال: ثم يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر ويقف في مقام الهيبة والإجلال فيقول: السلام عليك يا رسول الله ... إلى ان قال: ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى)([134]٣).

٧- الإمام تقي الدين أبو الحسن السبكي رحمه الله تعالى:

قال رضي الله عنه (اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين المعروف من فعل الأنبياء والمرسلين وسيرة السلف الصالحين والعلماء المسلمين).

وقال: (وأقول: إن التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جائز في كل حال: قبل خلقه وبعد خلقه في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد المبعث في عرصات القيامة والجنة)([135]٤).

٨- الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى:

قال رضي الله عنه (التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم يكون في حياته وبعد موته وفي حضرته ولا يخفاك أنه قد ثبت التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وثبت التوسل بغيره بعد موته بإجماع الصحابة إجماعا سكوتيا لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في توسله بالعباس رضي الله عنه والتوسل إلى الله بأهل

([132]١) سورة النساء الآية (٦٤).

([133]٢) ذكره العلامة ابن حجر في الجوهر المنظم والقسطلاني في المواهب اللدنية والسمهودي في خلاصة الوفاء والقاضي عياض في الشفا بسند صحيح وغيرهم.

([134]٣) كتاب المجموع (٢٧٢/٨).

([135]٤) كتاب شفاء الأسقام في زيارة خير الأنام الباب الثامن وص ١٦١.

الفضل والعلم هو في التحقق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة إذ لا يكون فاضلا إلا بأعماله).

وقال: (ويتوسل إلى الله بأنبيائه والصالحين) أقول: ومن التوسل بالأنبياء: وذكر قصة الأعمى([136]١)، وأما التوسل بالصالحين حديث استسقاء سيدنا عمر بسيدنا العباس رضي الله عنهما([137]٢)،([138]٣).

وينقل رضي الله عنه إجماع الصحابة على جواز التوسل ثم يقول: (وأما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه في مطلب يطلبه من ربه فقد قال عز الدين بن عبدالسلام: إنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعندي (أي عند الشوكاني) أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمرين: الأول: ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم والثاني: أن التوسل إلى الله تعالى بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلا إلا بأعماله.

٩- العلامة الشهاب الرملي الشافعي رحمه الله تعالى :

سئل رضي الله عنه فأجاب: (إن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين عيهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء الصالحين جائزة وللرسل والأنبياء والأولياء إغاثة بعد موتهم لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع بعد موتهم وأما الأنبياء فإنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم ، والشهداء أيضا أحياء شوهدوا نهارا جهارا يقاتلون الكفار وأما الأولياء فهي كرامة لهم.

١٠- الإمام السامري وصاحب التلخيص رحمهما الله تعالى:

قال السامري وصاحب التلخيص: لا بأس بالتوسل للاستسقاء بالشيوخ والعلماء المتقين ، وقال في المذهب: يجوز أن يستشفع إلى الله برجل صالح ، وقيل يستحب([139]٤).

١١- العلامة ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى:

([136]١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥٧٨) وابن ماجه في صلاة الحاجة (١٣٨٥).

([137]٢) أخرجه البخاري (٣٤/٢) و (٢٥/٥) وابن خزيمة (١٤٢١).

([138]٣) كتاب تحفة الذاكرين ص (٣٧).

([139]٤) كشف القناع (٢٩/٢).

ذكر انه يجوز التوسل بصالح وقيل يستحب.

١٢- الشيخ علاء الدين علي المرداوي الحنبلي من كبار علماء الحنابلة رحمه الله تعالى:

قال: (ومنها يجوز التوسل بالرجل الصالح على الصحيح من المذهب وقيل يستحب) وقال : (والتوسل بالإيمان به صلى الله عليه وآله وسلم وطاعته ومحبته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحوه مما هو من فعله أو أفعال العباد المأمور بها في حقه مشروع إجماعا)([140]١).

١٣- الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى:

قال: (ولا يخفى على أحد من المسلمين بل وغير المسلمين ممن عنده أدنى إلمام بمعرفة هذا الدين المبين وأحوال من اتبعه من المؤمنين أن جمهور الأمة المحمدية من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية وغيرهم من الخواص والعوام من جميع مذاهب الإسلام متفقون بالقول والفعل على استحسان الاستغاثة والتوسل والتشفع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله تعالى لقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية واستحباب شد الرحال والسفر لزيارته صلى الله عليه وآله وسلم من الأقطار البعيدة والقريبة حتى صار ذلك عندهم بمنزلة الأمور المعلومة من الدين بالضرورة بحيث لا يجهله ولا يتصور خلافه أحد بل لا يتوهم خلافه ولا يتخيله كثير من طلبة أهل العلم فضلا عن جمهور العامة الذين لا يخطر شيء من ذلك في بال أحد منهم بل ولا يجوز أنه يوجد مخالف من المسلمين في استحسان ذلك وما زالت الأمة المحمدية بحمد الله تعالى كذلك يتلقاه المتأخرون عن المتقدمين ويعتقدون كما هو الواقع أن ذلك من أفضل الطاعات وأكمل القربات).

١٤- الشيخ محمد الحامد رضي الله عنه :

يقول رضي الله عنه في باب نداء الصالحين : (يجوز التوسل بهم إلى الله تعالى والدعاء يكون لله سبحانه والأدلة على هذا كثيرة ومن ناداهم بقصد التوسل بهم لا يلام([141]٢).

([140]١) كتاب الإنصاف (٢/٤٥٦).

([141]٢) ردود على أباطيل ص (٢٥) القسم الثاني.

وقال أيضا في باب جواز التوسل: (يجوز التوسل إلى الله سبحانه وتعالى برسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعلى آلهم وبأوليائه رضوان الله عليهم وأما التوسل إلى الله سبحانه وتعالى برسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعلى آلهم وبأوليائه رضوان الله عليهم فإنه جائز وسائغ عند أهل الحق بل إنه مستحب إذ هو من أسباب إجابة الدعاء وليس فيه أدنى شبه بشرك لأن الله تعالى هو المدعو وحده ولا شريك له في الخلق والتأثير والاستشفاع غير الدعاء فما من وضر يلحق الداعي ولا من لوث يمس عقيدة التوحيد فيه والناس في الآخرة يستشفعون إلى الله برسله وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم([142]١).

وقال أيضا في باب التوسل: (لو كان التوسل شركا أو فيه شائبة الشرك ما علمه نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم للأعمى حين سأله أن يدعو الله له ، فقد علمه التوسل به وإجازة التوسل في حياة المتوسل به لا بعد مماته لا يعتمد شرعا وفعل عمر رضي الله عنه ليس فيه إلا التوسل بالحي وفعل الشيء لا ينفي ما عداه كما هو مقرر([143]٢).

ونذكر هنا أسماء أشهر من قال بالتوسل أو نقل أدلته من كبار الأمة وحفاظ السنة وبعض المعاصرين:

١- فمنهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه .

٢- ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

٣- ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه .

٤- ومنهم الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رضي الله عنه .

٥- ومنهم الإمام أبو زكريا النووي رضي الله عنه .

٦- ومنهم الإمام جلال الدين السيوطي رضي الله عنه .

٧- ومنهم الإمام أبو بكر البيهقي رضي الله عنه .

٨- ومنهم الإمام أبو عبدالله الحاكم رضي الله عنه .

٩- ومنهم الشيخ الإمام نور الدين القاري المعروف بملا علي قاري رضي الله عنه.

١٠- ومنهم الإمام الحافظ القسطلاني رضي الله عنه.

([142]١) ردود على أباطيل ص (٢٦) القسم الثاني.

([143]٢) ردود على أباطيل ص (٢٥) القسم الثاني.

١١- ومنهم الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه .

١٢- ومنهم الإمام ابن القيم الجوزية رضي الله عنه .

١٣- ومنهم الإمام القاضي عياض رضي الله عنه .

١٤- ومنهم الإمام العلامة أحمد شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى .

١٥- ومنهم الإمام المحدث علي بن عبدالكافي السبكي رحمه الله تعالى

١٦- ومنهم العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله تعالى .

١٧- ومنهم العلامة الحافظ المفسر ابن كثير رضي الله عنه .

١٨- ومنهم العلامة المفسر أبو عبدالله القرطبي رحمه الله تعالى .

١٩- ومنهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى .

٢٠- ومنهم الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى.

٢١- ومنهم الشيخ محمد ناصر الألباني.

٢٢- ومنهم الشيخ العلامة ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى .

٢٣- ومنهم الإمام العلامة ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى.

٢٤- ومنهم الإمام العلامة الشيخ محمد عبدالباقي الزرقاني رحمه الله تعالى.

٢٥- ومنهم العلامة الشهاب الرملي الشافعي رحمه الله تعالى.

٢٦- ومنهم العلامة الشيخ علاء الدين علي المرداوي الحنبلي رحمه الله تعالى.

٢٧- ومنهم الشيخ العلامة أحمد المردوي.

٢٨- ومنهم العلامة الشيخ السامري.

٢٩- ومنهم الشيخ يوسف النبهاني.

٣٠- ومنهم الشيخ محمد الحامد.

فها هي يا أخي أدلة التوسل والاستغاثة قد سردت أمامك ظاهرة جليلة فانظر اليها بعين الإنصاف والبحث عن الحقيقة انظر اليها نظرة الباحث عن الطريقة التي تجمع ذلك الجسد المتشتت الأعضاء الذي أخبر عه نبي المسلمين كلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله «المسلمون كالجسد الواحد...»([144]١) سائلين الله أن يهدينا سواء السبيل والحمد لله رب العالمين .

([144]١) أخرجه البخاري (٥٦٦٥) ومسلم (٣٥٨٦) والحاكم (٤/٢٧٠).

المدد

معنى لفظ المدد

يختلف معنى كلمة (مدد) باختلاف نية قائلها.

وورد في لسان العرب عن معنى كلمة مدد: مددنا القوم، أي صرنا لهنا أنصارا ومددا.

وأمدَّ الأمير جنده بالخيل والرجال وأعانهم وأمدهم بمال كثير وأغناهم..

والمدد: العساكر التي تلحق بالمغازي في سبيل الله والإمداد أن يرسل الرجل مددا([1]١).

وقال الإمام الفيومي رحمه الله تعالى: أمددته بمدد: أعنته وقويته به([2]٢).

فإذا قال المسلم: مدد يا الله أي أعنِّي وأمدَّني بقوتك وانصرني على عدوك وزدني بالرحمات والبركات وأمدني بالمقدرة على طاعتك ومحاربة نفسي وشيطاني.

وأما إذا قال: مدد يا أولياء الله فمعناه: علمونا مما علمكم الله وأمدونا مما أمدكم الله سبحانه به من العلوم والعرفان وساعدونا بما ينفعنا لسيرنا وأرشدونا في سلوكنا إلى محبة الله بإذن الله: وما كان هذا إلا لأن أكثر العباد فقدوا من يدربهم ويؤدبهم بالإسلام وبأخلاق سيد الأنام صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم بحاجة إلى من يعينهم ويمدهم بالعلم ويعلمهم أدب طريقة السير والسلوك والمدد بالمعنى الذي ذكرناه موجود حسا ومعنى في حياتنا فلا يستطيع أحد أن ينكر أن الإنسان يستعين بوسائط النقل كالسيارة والطيارة والباخرة والقطار لقضاء الحوائج الدنيوية والانتقال بواسطتها من بلد إلى آخر لا يصل اليه الإنسان بدونها إلا بشق الأنفس هذا وإن البحارة والطيارين يستولون على وجهة سفرهم بحرا وجوا بواسطة قطعة معدنية يقال لها:

([1]١) لسان العرب مادة (م د د).

([2]٢) المصباح المنير مادة (م د د).

البوصلة ترشدهم إلى الجهة المطلوبة ولا ينكر هذا فهل الاستعانة بالمعدن تخرج عن الملة؟! وهل ترفض مساعدة ثمينة يقدمها الينا من له خبرة في سلوك طريق محبة الله المحفوفة بشتى أنواع المخاطر للوصول من خلال ذلك المدد وتلك المساعدة بلا مشقة ولا تعب.. علما بأن أقل الأعداء في هذا الطريق النفس والشيطان والهوى..؟!

ومن هنا يظهر لنا أن الإنسان بحاجة إلى الاستعانة بأشياء كثيرة من مخلوقات الله لتمده بمدد قد سخره الله له على أيدي خلقه ومصنوعاتهم من أي نوع كانت. وهناك فرق بين مدد الخالق سبحانه ومدد المخلوق فكلمة مدد تأتي بمعنى المساعدة والمعاونة وهي مستحبة في كل أنواع البر بجميع الطرق التي أجازها الشرع الحنيف فاستعانة الناس بعضهم ببعض في الأمور لا مفر منها ولا غنى عنها والإنسان مأمور بها لا سيما في أمور البر والتقوى فقد قال الله تعالى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾([3]١).

فالتعاون بين الخلائق هو المدد أي المساعدة ونصرة بعضهم لبعض فلو طلب الإنسان من بني جنسه الإمداد فليس بمعنى أنه يطلب منه كما يطلب من ربه ولكن بالمدد والقدرة التي أمده الله بها والإمداد بالمعنى المذكور على قسمين:

القسم الأول: هو مدد صرف من الله سبحانه وهو ما لا يتم على الحقيقة إلا منه ولا تكون الإغاثة للخلق إلا به سبحانه قال الله تعالى ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾([4]٢)، والمعنى كما قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى : نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية([5]٣).

والقسم الثاني: وهو ما يجريه الله سبحانه على يد ملائكته الكرام بما آتاهم الله من القوة والأسرار وعلى يد أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بواسطة المعجزات وعلى يد أوليائه بطريق الكرامات.

والفرق جلي واضح جدا: وهو أن الله سبحانه يمد من يشاء من عباده من خزائن فضله ورحمته بالمعونة والإغاثة والنصرة على الكفار والمشركين متى شاء وكيفما

([3]١) سورة المائدة الآية ٢.

([4]٢) سورة الإسراء الآية (٢٠).

([5]٣) فتح القدير (٢١٧/٣).

شاء ولا يتوقف عطاؤه تعالى على إذن أحد أو رضاه وأما أنبياؤه وأولياؤه فلا يكون إمدادهم للطالبين إلا بإذن الله ومشيئته ورضاه وهو بالحقيقة مستمد من إمداد الله تعالى والأمثلة على ذلك كثيرة جدا.

وقد جعل الله تعالى في هذه الدنيا ملائكة لهم وظائف وأعمال ظاهرية وباطنية ويخدمون بها خلق الله تعالى بما أمرهم به الله.

قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره للآية الكريمة : ﴿من الله ذي المعارج﴾([6]١): وعندي فيه وجه رابع: وهو أن هذه السماوات كما أنها متفاوتة في الارتفاع والانخفاض والكبر والصغر وقوتها وشدة القوة على تدبر هذا العالم (أي بحسب أمر الله تعالى لها) فلعل نور إنعام الله وأثر فيض رحمته لا يصل إلى هذا العالم إلا بواسطة تلك الأرواح إما على سبيل العادة أو لا([7]٢).

وقال أيضا رحمه الله تعالى في تفسير قول الله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾: وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم([8]٣).

ولقد سخر الله ملائكة لمعرفة وكتابة أفعال العباد بأمر منه جل وعلا وهو في الوقت نفسه ينسب المعرفة والكتابة لنفسه قائلا سبحانه: ﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾([9]٤).

قال الإمام الطبري رضي الله عنه : أي ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر ومن صالح الأعمال وسيئها([10]٥).

وقال تعالى في حق الملائكة ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾([11]٦).

وسخرهم أيضا لحفظ العباد وكذلك نسب الحفظ لذاته سبحانه وتعالى فقال: ﴿فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾([12]٧).

([6]١) سورة المعارج الآية (٣).

([7]٢) تفسير الفخر الرازي (١٢٢/٢٤).

([8]٣) تفسير الفخر الرازي (١٧٤/٢٦).

([9]٤) سورة يس الآية (١٢).

([10]٥) صفوة التفاسير (٨/٣).

([11]٦) سورة ق الآية (١٨).

([12]٧) سورة يوسف الآية (٦٤).

وقال سبحانه وتعالى أيضا في حق الملائكة ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾([13]١).

وسخر ملك الموت لقبض الأرواح وفي نفس الوقت أيضا نسب ذلك لنفسه سبحانه فقال: ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾([14]٢).

وقال عز وجل في حق الملائكة : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾([15]٣).

فالفعل في هذه الآية راجع لملك الموت بأمر الله وإذنه سبحانه.

وعلى هذا فإن الله تعالى قد أمد الملائكة بأسرار يحفظون بها عباد الله بتسخير منه عز وجل ، فهو فعال لما يريد فمهما ظهر من الملائكة الكرام من عجائب وغرائب لا يكون ذلك منهم على الحقيقة فهم مسخرون بأمر الله فقد قال عنهم ربنا تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾([16]٤).

([13]١) سورة الرعد الآية (١١).

([14]٢) سورة النحل الآية (٧٠).

([15]٣) سورة السجدة الآية (١١).

([16]٤) سورة التحريم الآية (٦).

وقد جعل الله تعالى في هذه الدنيا لخلقه ما جعل للملائكة الكرام عليهم السلام من وظائف وأعمال ظاهيرة وباطنية وزودهم بإمدادات وقدرات نورانية فقد أكرم الله أنبياءه ورسله وأولياءه بشيء من الأسرار التي تجعلهم قائمين بها على نصرة دين الله ويمدون بها من شاؤوا بإذن ربهم ورضاه لإقامة دين الله جل جلاله وقال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى في تفسير قول الله سبحانه: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾(١[17]) أي لا يعلمون من علمه إلا ما شاء أن يعلمهم إياه بتعليمه(٢[18]).

وقال البغوي رحمه الله تعالى في تفسير قوله سبحانه في حق سيدنا الخضر رضي الله عنه : ﴿**وعلمناه من لدنا علما**﴾(٣[19]) أي علم الباطن إلهاما(٤[20]).

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أرفع درجة وأجل قدرا عند الله من الملائكة عليهم السلام فلذلك أمدهم ببعض صفاته وأجرى على أيديهم بعض الخوارق التي لو سمع بها من ينكر المدد لأول وهلة ولم يعلم أنها صدرت عن رسول مؤيد لحكم على قائلها بالكفر والخروج عن الملة فورا!! وأدل دلالة على هذا ما أجراه الله على يد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فلنسمع إلى قول الله تعالى وهو ينسب إلى نفسه إحياء الموتى قائلا: ﴿فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾(٥[21])، ثم يقول في حق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾(٦[22])، وكذلك ينسب شفاء المرض اليه سبحانه وتعالى فيقول: ﴿وإذا ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾(٧[23])، ثم يقول في حق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وتبرى الأكمه والأبرص بإذني ﴾(٨[24]) وينسب الخلق إلى نفسه سبحانه

([17]١) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

([18]٢) الأسماء والصفات للبيهقي ص (١٤٣).

([19]٣) سورة الكهف الآية (٦٥).

([20]٤) معالم التزيل في التفسير (٥٨٤/٣).

([21]٥) سورة الشورى الآية (٩).

([22]٦) سورة المائدة الآية (١١٠).

([23]٧) سورة الشعراء الآية (٨٠).

([24]٨) سورة المائدة الآية (١١٠).

وتعالى فيقول: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾([25]١)، ثم يقول في حق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني﴾([26]٢) وليس ذلك فحسب بل بعد أن أمد الله سيدنا عيسى بتلك الصفات الصفات نراه يتكلم بلسان المدد الإلهي فينسب الأسباب إلى نفسه والفعل الحقيقي إلى مسببها فيقول: ﴿أني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله﴾([27]٣)، وهذه الآية أكبر دليل على جواز إطلاق مثل هذه الألفاظ على من جعل الله المقدرات على يديه من باب المجاز الذي لا سبيل لإنكاره كما مر معنا في باب التوسل.

ثم إن هذا في الحقيقة أعظم من كلمة مدد في مضمونها ودلالتها فالبركات والخيرات التي يمد الله تعالى بها أحدا من مخلوقاته يستفيد منها كل من حوله من المؤمنين فقد قال الله تعالى في حق سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾([28]٤).

وأي وخيرات عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة([29]٥).

وقال القرطبي: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة([30]٦).

ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

«مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير»([31]٧).

وما يمد الله سبحانه وتعالى به رسله وأنبياءه إنما هو في سبيل إقامة الحجة ونشر الدعوة وقد علمنا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الأنبياء على الإطلاق كما قال صاحب الجوهرة رحمه الله تعالى:

وأفضل الخلق على الإطلاق	نبينا فمل عن الشقاق

([25]١) سورة آل عمران الآية (٤٩).

([26]٢) سورة المائدة الآية (١١٠).

([27]٣) سورة آل عمران الآية (٤٩).

([28]٤) سورة هود الآية (٤٨).

([29]٥) صفوة التفاسير (١٧/٢).

([30]٦) تفسير القرطبي (٤٨/٩).

([31]٧) أخرجه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٦٦٣٥) وأحمد (٤٠٨/٤) وابن حبان (٥٦١) والطيالسي موقوفا (٥١٥) والقضاعي (١٣٨٠) (١٣٨٠) عن أبي موسى وأخرجه أيضا البغوي (٣٤٨٣).

وبهذا يكون المدد المعطى له صلى الله عليه وآله وسلم من الله سبحانه وتعالى أرقى وأعظم من جميع ما أعطيه سائر الأنبياء والمرسلين لأن الله بعث كل نبي مبلغا وداعيا لقومه ولكن بعثة الحبيب المصطفى كانت للخلق كافة.

قال أحد الصالحين: إن الإمداد الذي يفيضه الله على أنبيائه كالأمانة المستعارة عندهم ليعلموا بواسطتها لهداية الخلق إلى طاعة ربهم ألم يقل الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾([32]١)، وقال أيضا سبحانه وتعالى في حقه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾([33]٢).

فما دام سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حاملا الرحمة والرأفة الإلهية للعالمين وأسرار التزكية للعالم باجمعه فهذا يعني أنه يمد الخلق بإذن الله بالرحمة والرأفة والآية الكريمة واضحة في كلمة ﴿ويزكيهم﴾ واستطاع بفضل الله وبواسطة عطاء الله له تزكية من اتبعه وأطاعه فأصلح من كانوا أشر الناس في الجاهلية وأفظهم قتلا وكفرا فأصبحوا بعدها ألطف الناس وأحسنهم أخلاقا ودينا وإيمانا.

وإن الله تعالى أعطى سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم المقدرة والإمداد ليرشد الخلق.

وهو يحمل في صدره المبارك مددا نورانيا يمد به عباد الله بإذن الله وقال القاضي البيضاوي في تفسير الآية الكريمة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾([34]٣) قال: (إن استخلافه سبحانه وتعالى ليس مبنيا على العجز والاحتياج ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل هو مبني على قصور المستخلف عليه .. فمعاملته تعالى في إفاضة الكمالات والمعارف على خلقه إنما هي بحسب استعداداتهم فمن كان مستعدا لاستفاضتها بلا واسطة يفيض عليه بنفسه بلا واسطة ملك ومن كان لا يقبلها إلا ممن كان من جنسه يفيض عليه بواسطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن الأنبياء قوتهم النظرية فائقة على قوى سائر الأنام من حيث إنهم يتمكنون بقواهم على

([32]١) سورة الشورى الآية (٥٢).

([33]٢) سورة الجمعة الآية (٢).

([34]٣) سورة البقرة الآية (٣٠).

استنباط أنوار العلوم والمعارف لكونهم اعطوا مصباح البصيرة المودع في زجاجة القلب الكائنة في مشكاة الجسد الموقدة تلك الزجاجة من زيت الروح الصافية عن الكدرات بحيث يكاد زيتها لغاية صفائه يضيء ولو لم تمسسه نار .(١[35]) أهـ انتهى كلام البيضاوي.

فالمدد إذاً هو النور الرباني الذي يفيضه الله تعالى على قلوب أنبيائه وأوليائه من الرحمات والبركات والأسرار وفي الحقيقة إن كل دليل ذكرناه في معرض إثبات التوسل عامة وبالغائبين والأموات خاصة يصلح لأن يكون دليلا لإثبات المدد وسنذكر هنا بعضها ونزيد عليها إن شاء الله تعالى فمن ذلك ما رواه سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله قال: «إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا علي دابتي فإن لله في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم»(٢[36]).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعلى أنه جربه هو وبعض أكابر شيوخه ووجد أثره وجاء في الحديث الشريف أيضا عن سيدنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد غوثا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل يا عباد الله أغيثوني يا عباد الله أغيثوني فإن لله تعالى عبادا لا نراهم»(٣[37]) وقال الحافظ: ولحديث عتبة شاهد من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله أعينوني(٤[38]).

والإغاثة هنا ليست كإغاثة الله لخلقه إنما هي تعليم وتعريف وإرشاد ومساعدة بإذن الله.

([35]١) حاشية تفسير القاضي البيضاوي (٢٤/١ أو ٢٧).

([36]٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥١٨) وأبو يعلى (٥٢٦٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧١٠٥).

([37]٣) أخرجه الطبراني في الفتح الكبير (٨٣/١).

([38]٤) قال الشيخ عبدالقادر أرناؤوط : وقال الحافظ : هذا حديث حسن الإسناد ، الأذكار للنووي (ص ١٩٢).

وفـي هـذه الأحاديـث دلالـة علـى أن الله سـبحانه وتعـالى قـد خـص عبـادا بأسـرار وإمدادات ليخدموا بها المؤمنين مهما كان بين الداعي والمجيب من مسافات شاسعة وذلك كله بأمر الله تعالى وهذا دليل صريح بجواز طلب المدد من عباد الله .

وهذا لا يتعارض مع حديث «إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله »([39]١) كما مر معنا في التوسل والاستغاثة.

(نظرة):

وما يقال في معنى المدد وطلبه من الله عن طريق الأحياء والمنتقلين يقال كذلك في معنـى (النظـرة) فـإن مـن يقـول لفـظ (نظـرة) وهـو يتوسـل أو يسـتغيث إنمـا يقصـد أن يقول: انظر الي (يا رسول الله أو يا ولي الله) نظرة رحمة وإغاثة واشفع لي عند ربك يقضي حاجتي.

هـذا هـو نفـس معنـى (أغيثـوني – أعينـوني – يـا محمـد – يـا محمـداه) وغيرهـا مـن الألفاظ التي مرت معنا بصدد الكلام عن الأدلة.

وطالبو المدد من الأنبياء والصالحين لا يدفعهم إلى ذلك إلا اعترافهم بتقصيرهم في أداء مـا افتـرض الله علـيهم علـى الوجـه الكامـل وعـدم وصـولهم لمقامـات الإحسـان فطلبـوا الإمـداد والمسـاعدة مـن الله بواسـطة المصـطفين الأخيـار والأوليـاء الأبـرار لمـا لهـم مـن قـوة ومقـدرة كبيـرة بفضـل الله علـى الطاعـة والصـدق والصـفاء والعبـادة والإخلاص والمعرفة بآداب العبودية وما هذا إلا اقتداء بما أمر الله به صحابة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاسـتغفروا الله واسـتغفر لهـم الرسـول لوجـدوا الله توابـا رحيمـا﴾([40]٢) فالآيـة المباركـة ترشـدنا إلـى أدب السـؤال والطلـب فـأمر أولا بـالمجيء إلـى رسـول الله ثـم اسـتغفار المذنب بنفسه بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم اعترافه بعدم أهليته للطلب من الله لسواد صحيفته مع الله فيطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغفر له وما ذلك إلا لأن استغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم افضل واقرب قبولا منهم لما عنده من إخلاص وصفاء قلب وقوة في الطاعة أعظم مما عند

([39]١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال حديث حسن صحيح وأحمد (٢٩٣/١).

([40]٢) سورة النساء الآية (٦٤).

السائل المستغفر فالسائل يسأل ربه أولا ومن ثم يطلب المدد ممن هو أرفع منه اعترافا بتقصيره وبأنه ليس أهلا لإجابة دعائه وبهذا يكون ملتزما بالكتاب والسنة حالا ومقالا.

فقول السائل: مدد يا رسول الله أي استغفر لي وعلمني مما علمك الله بإذن الله وكذلك إذا قال: مدد يا أولياء الله أي يطلب منهم التوسط له عند سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بطلب الشفاعة والمغفرة والإحسان ، فكل إنسان مبتدئ في أمور الدين والتزكية يحتاج إلى علم من سبقه في هذا المجال.

والذي يذهب إلى الطبيب ويستغيث به بقوله: يا طبيب خلصني من آلامي هل يكون مخطئا لأنه يستغيث بإنسان ليمده بالشفاء بواسطة العقاقير بالطبع لا لأن الله جعل الوسائط والأسباب بين خلقه وسعي العباد لكسب الأرزاق وكذلك معالجة المرأة العاقر بالعقاقير والأدوية مع العلم يقينا أن الله سبحانه هو رازق العباد بالأموال والبنين لا ينافي قول الله ﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾([41]١)، ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى بحكمته قد سخر الخلائق بعضها لبعض، وليفيد بعضها بعضا بإذنه تعالى، فكل نوع يفيد نوعه، فالشمس تعكس نورها على القمر في الليل، والقمر يعكس ضوءه على الأرض ويقال لهذه الظاهرة : (مدد انعكاس).

فمن هنا نرى بأن الإنسان يستفيد من هذه الأنوار المخلوقة بوسائط ووسائل، فالله عز وجل قادر أن ينير الأرض بدون شمس ولا قمر وهو ليس بحاجة لهما ولا لغيرهما من مخلوقاته.

قال تعالى ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾ فالشمس والقمر ليسا أعظم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي وهبه قوة أعظم من الشمس والقمر تضيء بنور سراج قلبه عالم القلوب بإذن ربه لقوله تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾([42]٢).

فإن طلب المريد المدد من شيخه ما هو إلا انعكاس قلب الولي الكامل الذي هو أفضل عند الله من الشمس والقمر على قلب المريد ولا شك أن الشيخ هو أحد وراث النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال «إن العلماء ورثة الأنبياء» وقال في

([41]١) سورة نوح الآية (١٢).

([42]٢) سورة يونس الآية (٥).

الحديث نفسه «وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب »([43]١).
قال «كفضل القمر» لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الشمس المضيئة كما أن الشمس تعكس نورها على القمر والقمر يعكس نوره على الأرض كذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعكس نوره على قلوب الأولياء وهم يعكسون ذلك النور على المريدين.

وإذا ثبت الاستمداد بين الجمادات فيما بينها، فيكف ينتفي بين المخلوقات البشرية والله خلق الإنسان في أحسن تقويم وكرم بني آدم؟!

قال المحدث الورع الفقيه الإمام ابن أبي جمرة الأندلسي رضي الله عنه في شرحه لحديث الإفك: ... ولهذا المعنى جعل صلى الله عليه وآله وسلم لقيا المؤمن لأخيه المؤمن ببشاشة الوجه صدقة لأن المؤمن يستمد من أخيه بحسب ما يظهر على ظاهره، كما أن أهل البواطن يستمد بعضهم من بعض بحسب ما يكون في بواطنهم..([44]٢) .

وقد أورد الإمام الفقيه محمد أمين أفندي المشهور بابن عابدين في رسالته : (الفوائد المخصصة) حيث يقول: ... وقد رأيت فيها رسالتين الأولى لعمدة المحققين فقيه النفس أبي الإخلاص الشيخ حسن الشرنبلي الوفائي رحمه الله تعالى وشكر سعيه والثانية لحضرة الأستاذ من جمع بين علمي الظاهر والباطن مرشد الطالبين ومربي السالكين سيدي عبدالغني النابلسي قدس الله تعالى سره وأعاد علينا من بركاته آمين فأردت أن أذكر حاصل ما في هاتين الرسالتين مستعينا بالله تعالى مستمدا من مدد هذين الإمامين الجليلين... .

فهذا الإمام الجليل ابن عابدين الذي لا يخفى على أحد من طالبي العلم الشريف مكانته العلمية يستمد من أمداد الصالحين وهو رحمه الله تعالى يعلم يقينا أن الذي أمد هؤلاء الأكارم إنما هو الله سبحانه وهو يطلب مدد ربه بواسطة صلاح وتقوى هؤلاء الأكارم والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ومن هنا يتبين لنا جواز الاستمداد من الأولياء (أي طلب المدد منهم) بشرط أن يعتقد المرء عند الطلب أن ما من شيء يجري في هذا الكون إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وعلمه .

([43]١) رواه ابن حبان (ج١/٨٨) وأبو داود (٣٦٤١) وابن ماجه (٢٢٣) والدارمي (٩٨/١) وأحمد (١٩٦/٥) والترمذي (٢٦٨٢) .

([44]٢) بهجة النفوس (٦٢/٣ – ٦٣).

وإن الولي إذا أمد الطالبين فإنما يمدهم مما أمده الله به فهو لا يفيد الناس بشيء من دون الله إنما الضار والنافع في الحقيقة هو الله تعالى فجميع الفوائد التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء رضي الله عنهم من عجائب المعجزات وغرائب الكرامات ما هي إر إشارات على نعم المنعم العظيم سبحانه التي أظهرت على يد من أنعم عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وإن إمداد الله لرسله وأوليائه يكون حسب ما يريد الله ويشاء وإمداد الرسل والأولياء لباقي العباد يكون أيضا حسب ما يريد الله ويشاء هذا ولم ترد آية أو حديث بتكفير من يستمد من الأنبياء والصالحين الاستمداد الشرعي الصحيح ومن ادعى يلزمه الدليل: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾([45]١) وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المولد

قال الله تعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾([1]٢) وقال صلى الله عليه وآله وسلم «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا»([2]٣) وقال أيضا : «إنما أنا رحمة مهداة»([3]٤) فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الرحمة العظمى وقد أذن الله لنا بالفرح والسرور بمولد تلك الرحمة قال تعالى ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾([4]٥) فقد قال السيوطي في تفسير هذه الآية ناقلا عن ابن عباس رضي الله عنهما : «فضل الله العلم ورحمته محمد صلى الله عليه وآله وسلم »([5]٦).

وقال تعالى أيضا : ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾([6]٧) يظهر من ذلك أن الحكمة في قصص أنباء الرسل عليهم السلام تثبيت فؤاد النبي

([45]١) سورة البقرة الآية: (١١١).

([1]٢) سورة الأنبياء الاية (١٠٧).

([2]٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٥٨٣) ورمز لصحته.

([3]٤) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/١٠٠).

([4]٥) سورة يونس الآية (٥٨).

([5]٦) الدر المنثور (٢/٣٠٨) .

([6]٧) سورة هود الآية (١٢٠).

صلى الله عليه وآله وسلم ولا شك اننا اليوم نحتاج إلى تثبيت أفئدتنا بأنبائه وأخباره أشد من احتياجه هو صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن المولد الشريف يحث على الصلاة والسلام المطلوبين بقوله تعالى : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾([7]١) وما كان يبعث على المطلوب شرعا فهو مطلوب شرعا.

وقال تعالى ﴿قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا ولآخرنا وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾([8]٢) فنزول المائدة اعتبر عيدا لأهل الأرض للأولين والآخرين ليظهروا فرحهم فما أحرانا أن نفرح بمولده صلى الله عليه وآله وسلم وهو الرحمة العظمى للعالمين قال تعالى ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾([9]٣)، إن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تعبير عن الفرح والسرور بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقد انتفع به الكافر به صلى الله عليه وآله وسلم فقد جاء أنه يخفف عن ابي لهب كل يوم اثنين بسبب عتقه لثويبة جاريته لما بشرته بولادة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم([10]٤) وقال إمام القراء الحافظ شمس الدين بن الجزري رحمه الله تعالى في كتابه (عرف التعريف بالمولد الشريف) : قد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم فقيل له: ما حالك فقال: في النار إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنين بإعتاقي ثويبة عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبإرضاعها له فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه يخفف عنه العذاب كل ليلة اثنين بسبب فرحه بمولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما حال المسلم الموحد من أمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي سر بمولده ويبذل ما تصل اليه قدرته في محبته صلى الله عليه وآله وسلم إنه سيكون له أجر عظيم عند الله عز وجل ويقول في ذلك الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقي :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه	بتبت يداه في الجحيم مخلدا

([7]١) سورة الأحزاب الآية (٥٦).

([8]٢) سورة المائدة الآية (١١٤).

([9]٣) سورة الأنبياء (١٠٧).

([10]٤) أخرجه البخاري (٣٦٣/٣) والسهيلي في الروض الأنف (١٩٢/٥) وفتح الباري (١٢٤/١).

يخفف عنه للسرور بأحمدا	أتى أنه في يوم الاثنين دائما
بأحمد مسرورا ومات موحدا	فما الظن بالعبد الذي كان عمره

وإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعظم يوم مولده ويشكر الله تعالى فيه على نعمته الكبرى عليه إذ سعد به كل موجود وكان يعبر عن ذلك التعظيم بالصيام كما جاء في الحديث عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل علي»([11]١) وهذا في معنى الاحتفال به إلا أن الصورة مختلفة ولكن المعنى موجود سواء كان ذلك بصيام أو إطعام طعام أو اجتماع على ذكر أو صلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو سماع شمائله الشريفة .

وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التي مضت وانقضت فإذا جاء الزمان الذي وقعت فيه كان فرصة لتذكرها وتعظيم يومها لأجلها ولأنه ظرف لها.

وقد أصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه القاعدة بنفسه كما صح في الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم : لما وصل إلى المدينة ورأى اليهود يصومون يوم عاشوراء سأل عن ذلك فقيل له: إنهم يصومونه لأن الله نجى فيه نبيهم وأغرق عدوهم فهم يصومون شكرا لله على هذه النعمة فقال صلى الله عليه وآله وسلم «نحن أولى بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»([12]٢).

(وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عق عن نفسه بعد النبوة) مع انه قد ورد أن جده عبدالمطلب عق عنه في سابع ولادته والعقيقة لا تعاد مرة ثانية فيحمل ذلك على أن الذي فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم إظهار للشكر على إيجاده رحمة للعالمين وتشريع لأمته كما كان يصلي على نفسه كذلك([13]٣).

([11]١) أخرجه مسلم (٢٧٣٨) وأبو داود (٢٤٢٥) والترمذي (٧٤٩) والنسائي (٢٣٨٢) وفي الكبرى تحفة الأشراف (١٢١١٨/٩) وابن ماجه (١٧١٣) وأحمد (٢٩٦/٥) وابن خزيمة (٢٠٨٧) وابن حبان (٣٦٤٢) والبيهقي (٢٨٦/٤) وابن أبي شيبة (٧٨/٣) والبغوي (١٧٨٩) .

([12]٢) أخرجه البخاري (٣٩٤٣) ومسلم (٢٦٥١) (٢٤٤٤) وابن ماجه (١٧٣٤) وأحمد (٣٤٠/١) والبيهقي (٩٨٩/٤) والطبراني في الكبير (١٢٤٤٢) وابن خزيمة (٢٠٨٤) وابن أبي شيبة (٥٦/٣) وعبدالرزاق (٧٨٤٣) والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف (٥٤٥٠) والدارمي (١٧٠٨) والبغوي (١٧٨٢) والطحاوي (٧٥/٢) والحميدي (٥١٥).

([13]٣) الحاوي للفتاوى (٢٩٢/١).

ويؤخذ من قوله صلى الله عليه وآله وسلم في فضل يوم الجمعة وعد مزاياه وفيه ولد آدم تشريف الزمان الذي ثبت أنه ميلاد لأي نبي كان من الأنبياء عليهم السلام فكيف باليوم الذي ولد فيه افضل النبيين وأشرف المرسلين.

ويكون الفرح والسرور أحيانا في ذكرى الإحياء للحوادث التاريخية الخطيرة ذات الإصلاح المهم في تاريخ الإنسانية كما يؤخذ تعظيم المكان الذي ولد فيه نبي من أمر جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصلاة ركعتين ببيت لحم ثم قال له: (أتدري أين صليت ؟ قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى)([14]).

وإن المولد أمر استحسنه العلماء والمسلمون في جميع البلاد وجرى به العمل في كل صقع فهو مطلوب شرعا للقاعدة المأخوذة من حديث ابن مسعود الموقوف الذي ذكره أبو نعيم عند ترجمته قال: (ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح).

وإن معرفة شمائله ومعجزاته وإرهاصاته تستدعي كمال الإيمان به عليه الصلاة والسلام وزيادة في المحبة إذ الإنسان مطبوع على حب الجميل خُلُقاً وخَلْقاً علما وعملا حالا واعتقادا ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل من أخلاقه وشمائله صلى الله عليه وآله وسلم وزيادة المحبة وكمال الإيمان مطلوبان شرعا فما كان يستدعيهما مطلوب كذلك.

وإن الاحتفال بالمولد إحياء لذكرى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وذلك مشروع عندنا في الإسلام فأنت ترى ان أكثر أعمال الحج إنما هي إحياء لذكريات مشهورة ومواقف محمودة فالسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والذبح بمنى كلها حوادث ماضية سابقة يحيى المسلمون ذكراها بتجديد صورتها في الواقع.

وكل ما ذكرناه سابقا من الوجوه في مشروعية المولد إنما هو في المولد الذي خلا من المنكرات المذمومة التي يجب الإنكار عليها أما إذا اشتمل المولد على شيء مما يجب الإنكار عليه كاختلاط الرجال بالنساء وارتكاب المحرمات وكثرة الإسراف مما لا يرضى به صاحب المولد الشريف صلى الله عليه وآله وسلم فهذا لا شك في

([14]) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٥٦).

تحريمه ومنعه لما اشتمل عليه من المحرمات لكن تحريمه حينئذ يكون عارضيا لا ذاتيا كما لا يخفى على من تامل ذلك.

أول من أحدث المولد:

وأول من أحدث ذلك صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبري ابن زين الدين علي بن بكتكين أحد الملوك الأمجاد والكبراء الأجواد .. قال ابن كثير في تاريخه : كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالا هائلا وكان شهما شجاعا عاقلا عادلا رحمه الله وأكرم مثواه([15]١).

([15]١) الحاوي للفتاوى (٢٩٢٩/١).

أقوال العلماء في مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

١- قال ابن تيمية رحمه الله تعالى : ... فتعظيم المولد واتخاذه موسما قد يفعله بعض الناس ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصد وتعظيمه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(١[16]).

٢- وقد قال ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى: والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك أي بدعة حسنة.

٣- ومن ثم قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النووي رحمهما الله تعالى : ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وآله وسلم من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مشعر بمحبته صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمه في قلب فاعل ذلك وشكرا لله على ما من به من إيجاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين.

٤- وقال السخاوي: لم يفعله أحد من السلف في القرون الثلاثة وإنما حدث بعد، ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن يعملون المولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم(٢[17]).

٥- وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : من خواصه أنه أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام(٣[18]).

٦- وقال السيوطي رحمه الله تعالى : هو من البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها لما فيه من تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف(٤[19]).

وقال أيضا: يستحب لنا إظهار الشكر بمولده صلى الله عليه وآله وسلم والاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات(٥[20]).

([16]١) السيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي (١/٨٣ -٨٤) وذكره ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم

([17]٢) السيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي (١/٨٣ - ٨٤).

([18]٣) السيرة الحلبية لعلي بن برهان الدين الحلبي (١/٨٣ - ٨٤) .

([19]٤) الحاوي للفتاوى (١/٢٩٢).

([20]٥) الحاوي للفتاوى (١/١٩٦).

وقال أيضا: ما من بيت أو محل أو مسجد قرئ فيه مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا حفت الملائكة أهل ذلك المكان وعمهم الله تعالى بالرحمة والرضوان([21]١).

٧- وقال ابن الحاج رحمه الله تعالى: فكان يجب أن نزداد يوم الاثنين الثاني عشر في ربيع الأول من العبادات والخير شكرا للمولى على ما أولانا من هذه النعم العظيمة وأعظمها ميلاد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم([22]٢) .

٨- وقال ابن الحاج رحمه الله تعالى: ومن تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم الفرح بليلة ولادته وقراءة المولد([23]٣).

٩- وقال الحافظ العراقي رحمه الله تعالى : إن اتخاذ الوليمة وإطعام الطعام مستحب في كل وقت فكيف إذا انضم إلى ذلك الفرح والسرور بظهور نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الشهر الشريف ولا يلزم من كونه بدعة كونه مكروها فكم من بدعة مستحبة بل قد تكون واجبة([24]٤).

١٠- وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى : أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها فمن تحرى في عملها المحاسن وجنب ضدها كان بدعة حسنة وإلا فلا وقد ظهر لي تخريجها على أصل ثابت في الصحيحين من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشورا فسألهم فقالوا هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى فنحن نصومه شكرا لله تعالى فيستفاد منه الشكر لله على ما من به في يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة والشكر لله يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم وعلى هذا فينبغي أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من التلاوة والإطعام وإنشاد شيء من المدائح النبوية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة وأما ما يتبع ذلك من

([21]١) الوسائل في شرح المسائل للسيوطي.

([22]٢) المدخل (٣٦١/١).

([23]٣) الدرر السنية ص (١٩٠).

([24]٤) شرح المواهب اللدنية للزرقاني.

السماع واللهو وغير ذلك فينبغي أن يقال: ما كان من ذلك مباحا بحيث يقتضي السرور بذلك اليوم لا بأس بإلحاقه به وما كان حراما أو مكروها فيمنع وكذا ما كان خلاف الأولى([25]١).

١١- وقال ابن عابدين في شرحه على مولد ابن حجر: اعلم أن من البدع المحمودة عمل المولد الشريف من الشهر الذي ولد فيه صلى الله عليه وآله وسلم: وقال أيضا: فالاجتماع لسماع قصة صاحب المعجزات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات من اعظم القربات لما يشتمل عليه من المعجزات وكثرة الصلوات.

١٢- وقال الشيخ حسنين محمد مخلوف شيخ الأزهر رحمه الله تعالى : إن إحياء ليلة المولد الشريف وليالي هذا الشهر الكريم الذي أشرق فيه النور المحمدي إنما يكون بذكر الله تعالى وشكره لما أنعم به على هذه الأمة من ظهور خير الخلق إلى عالم الوجود ولا يكون ذلك إلا في أدب وخشوع وبعد عن المحرمات والبدع والمنكرات ومن مظاهر الشكر على حبه مواساة المحتاجين بما يخفف ضائقتهم وصلة الأرحام والإحياء بهذه الطريقة وإن لم يكن مأثورا في عهده صلى الله عليه وآله وسلم ولا في عهد السلف الصالح إلا أنه لا بأس به وسنة حسنة([26]٢) .

١٣- وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى : وإكراما لهذا المولد الكريم فإنه يحق لنا أن نظهر معالم الفرح والابتهاج بهذه الذكرى الحبيبة لقلوبنا كل عام وذلك بالاحتفال بها من وقتها..([27]٣) .

١٤- وقال المبشر الطرازي([28]٤) رحمه الله تعالى : إن الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف أصبح واجبا أساسيا لمواجهة ما استجد من الاحتفالات الضارة في هذه الأيام.

([25]١) الفتاوى الكبرى (١٩٦/١).

([26]٢) فتاوى شرعية (١٣١/١).

([27]٣) على مائدة الفكر الإسلامي ص (٢٩٥).

([28]٤) شيخ الإسلام السابق في تركستان.

قصة عتق ثويبة

يذكر العلماء في كتب الحديث والسيرة قصة عتق أبي لهب لجاريته ثويبة لما اخبرته بولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن العباس بن عبدالمطلب رأى أبا لهب في النوم بعد وفاته فسأله عن حاله فقال: لم ألق خيرا بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة وإنه ليخفف علي في كل يوم اثنين([29]١).

قلت: هذا الخبر رواه جملة من أئمة الحديث والسير مثل الإمام عبدالرزاق الصنعاني والإمام البخاري والحافظ ابن حجر والحافظ البيهقي وابن هشام والسهيلي والحافظ البغوي وابن الديبع والأشخر والعامري وسأبين ذلك بالتفصيل:

فأما الإمام عبدالرزاق الصنعاني فقد رواه في المصنف (٤٧٨/٧) وأما الإمام البخاري فقد رواه في صحيه بإسناده إلى عروة بن الزبير مرسلا في كتاب النكاح باب﴿وأمهاتكم اللاتي ارضعنكم﴾ وأما ابن حجر فقد ذكره في الفتح وقال : إنه رواه الإسماعيلي من طريق الذهلي عن أبي اليمان ورواه عبدالزاق عن معمر وقال: وفي الحديث دلالة على أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة لكنه مخالف لظاهر القرآن قال الله تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ وأجيب أولا بأن الخبر مرسل أرسله عروة ولم يذكر من حدثه به وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذي في الخبر رؤيا منام فلا حجة فيه ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد فلا يحتج به وثانيا على تقدير القبول فيحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم مخصوصا من ذلك بدليل قصة أبي طالب أنه خفف عنه فنقل من الغمرات إلى الضحضاح وقال البيهقي : ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات.

وأما عياض فقال: انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب وإن كان بعضهم أشد عذابا من بعض قلت: وهذا لا يرد الاحتمال الذي ذكره البيهقي فإن جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر، وأما

([29]١) أخرجه البخاري (٥١٠١) في النكاح والسهيلي في الروض الأنف (١٩٢/٥) فتح الباري (١٢٤/١) .

ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه؟ وقال القرطبي: هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه، وقال ابن المنير في الحاشية: هنا قضيتان: أحدهما محال وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح وهذا مفقود من الكافر والثانية: إثابة الكافر على بعض الأعمال تفضلا من الله تعالى وهذا لا يحيله العقل فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبي لهب لثويبة قربة معتبرة ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبي طالب والمتبع في ذلك التوقيف نفيا وإثباتا.

قلت وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكراما لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك والله أعلم([30]١) .

وأما الحافظ عبدالرحمن بن الديبع الشيباني صاحب الأصول فقد رواه في سيرته وقال معلقا: قلت: فتخفيف العذاب عنه إنما هو كرامة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كما خفف عن أبي طالب لا لأجل العتق لقوله تعالى ﴿وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون([31]٢)﴾([32]٣).

وأما الحافظ البغوي فقد رواه في شرح السنة (٩/٧٦).

وأما العامري فقد رواه في بهجة المحافل وقال شارحه الأشخر قيل: هذا خاص به إكراما له صلى الله عليه وآله وسلم كما خفف عن أبي طالب بسببه وقيل لا مانع من تخفيف العذاب عن كل كافر عمل خيرا([33]٤).

وأما السهيلي فقد رواه في الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام وقال بعد نقل الخبر: فنفعه ذلك وهو في النار كما نفع أخاه أبا طالب أن هذا النفع إنما هو نقصان من العذاب وإلا فعمل الكافر كله محبط بلا خلاف أي لا يجده في ميزانه ، ولا يدخل به جنة([34]٥).

وحاصل البحث أن هذه القصة مشهورة في كتب الأحاديث وفي كتب السير ونقلها حفاظ معتبرون معتمدون ويكفي في توثيقها كون البخاري نقلها في صحيحه المتفق

([30]١) فتح الباري (٩/١٤٥).

([31]٢) سورة هود الآية (١٦).

([32]٣) حدائق الأنوار في السيرة (١/١٣٤).

([33]٤) شرح البهجة (١/٤١).

([34]٥) الروض الأنف (٥/١٩٢).

علـى جلالتـه ومكانتـه وكـل مـا فيـه مـن المسـند صـحيح الثبـوت بـلا خـلاف حتـى المعلقات والمرسلات فإنها لا تخرج عن دائرة المقبول ولا تصل إلى المردود وهذا يعرفه أهل العلم المشتغلون بالحديث والمصطلح .

ثم إن هذه المسألة من المناقب والفضائل والكرامات التي يذكرها العلماء في كتب الخصائص والسير ويتساهلون في نقلها ولا يشترطون فيها الصحيح بالمعنى المصطلح عليه ولو ذهبنا إلى اشتراط هذا الشرط لما أمكننا ذكر كثير من حوادث سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة وبعد البعثة مع أنك تجد كتب الحفاظ الذين عليهم العمدة وعلى صنيعهم المعول والذين منهم عرفنا ما يجوز ومالا يجوز ذكره من الحديث الضعيف نجد كتبهم مملوءة بالمقطوعات والمراسيل وما أخذ عن الكهان وأشباههم في خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن ذلك مما يجوز ذكره في هذا المقام.

أما قول من قال: إن هذا الخير يعارض قوله تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ فهذا قول مردود بما قاله العلماء ونقلناه عنهم سابقا وتحرير الكلام في هذا المقام هو أن الآية تدل على أن أعمال الكفار لا ينظر اليها وليس فيها أنهم سواء في العذاب وأنه لا يخفف عن بعضهم العذاب كما هو مقرر عند العلماء وكذالك الإجماع الذي حكاه عياض فإنه في عموم الكفار وليس فيه أن الله تعالى لا يخفف العذاب عن بعضهم لأجل عمل عملوه ولهذا جعل الله تعالى جهنم دركات والمنافقون في الدرك الأسفل منها.

ثم إن هذا الإجماع يرده النص الصحيح ولا يصح إجماع مع مخالفة النص كما هو معلوم للطلبة وذلك أنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمه العباس حين سأله عن عمه أبي طالب وما هو جزاؤه إذ كان يحوطه ويغضب له فقال: إنه لفي ضحضاح من النار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل([35]١).

فها هو أبو طالب قد نفعه دفاعه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخرجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أجل ذلك من غمرات النار إلى ضحضاح منها .

([35]١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف كتاب ذكر النار حديث (٤٢).

فالتخفيف عن أبي لهب من هذا الباب أيضا لا منكر فيه والحديث يدل على أن الآية المذكورة فيمن لم يكن لهم عمل يوجب التخفيف وكذلك الإجماع وفي حديث أبي طالب المذكور دلالة على ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتصرف الآن وقبل يوم القيامة في أمور الآخرة ويشفع لمن تعلق به ودافع عنه.

وأما قول من قال: إن هذا الخبر رؤيا منام لا يثبت بها حكم فإن هذا القائل هداه الله للصواب لا يفرق بين الأحكام الشرعية وغيرها أما الأحكام الشرعية فإن الخلاف واقع بين الفقهاء هل يجوز أخذ الأحكام وتصحيح الأخبار برؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام أم لا ؟

وأما غيرها فإن الاعتماد على الرؤيا في هذا الباب لا شيء فيه مطلقا وقد اعتمد عليها الحفاظ وذكروا ما جاء في رؤيا أهل الجاهلية قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المنذرة بظهوره وأنه سيقضي على الشرك وما هم عليه من فساد وكتب السنة مملوءة بهذا وفي مقدمتها كتاب دلائل النبوة وعدوها من الإرهاصات التي لا مانع من الاستدراك في شأنها بالرؤيا ولولا ذلك لما ذكروها.

فقول القائل في شأن رؤيا العباس: إنها ليست بحجة ولا يثبت بها حكم ولا خبر خروج عن عمل الأمة من الحفاظ وغيرهم والمراد به التهويل لا غير وما هكذا يكون شأن الباحث عن الحق والأمر لله.

وأما من قال: إن الرائي والمخبر هو العباس في حال الكفر والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم فإن هذا القول مردود لا رائحة للعلم فيه وهو باطل ذلك لأنه لم يقل أحد أن الرؤيا من باب الشهادات مطلقا وإنما هي بشارة لا غير فلا يشترط فيها دين ولا إيمان بل ذكر الله تعالى في القرآن معجزة يوسف عليه السلام عن رؤيا ملك مصر وهو وثني لا يعرف دينا سماويا مطلقا ومع ذلك جعل الله تعالى رؤيته المنامية من دلائل نبوة يوسف عليه السلام وفضله وقرنها بقصته ولو كان ذلك لا يدل على شيء لما ذكرها الله تعالى لأنها رؤيا مشرك وثني لا فائدة فيها لا في التأييد ولا في الإنكار.

ولهذا ذكر العلماء أن الكافر يرى الله تعالى في المنام ويرى في ذلك ما فيه إنذار له وتوبيخ وتقريع والعجب كل العجب من قول القائل: إن العباس رأى ذلك في حال

كفره والكفار لا تسمع شهادتهم ولا تقبل أخبارهم فإن هذا القول يدل على عدم المعرفة بعلم الحديث إذ المقرر في المصطلح أن الصحابي أو غيره إذا تحمل الحديث في حال كفره ثم روى ذلك بعد إسلامه أخذ ذلك عنه وعمل به وانظر أمثلة ذلك في كتب المصطلح لتعرف بعد صاحب هذا عن العلم وإنما الهوى هو الذي حمل المعترض على الدخول فيما لا يتقنه([1][36]).

القيام في نهاية المولد:

مفهوم خاطئ : يظن بعض من يحضر المولد النبوي ويقوم مع القائمين أن الناس يقومون معتقدين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل إلى المجلس في تلك اللحظة بجسده الشريف حقيقة وأن البخور والطيب الذي يوضع هو له فهذه الظنون باطلة لا أصل لها.

نعم نحن نعتقد أنه صلى الله عليه وآله وسلم حي حياة برزخية كاملة لائقة بمقامه وإن روحه جوالة في ملكوت الله سبحانه وتعالى ويمكن أن تحضر مجالس الخير وكذلك أرواح الأولياء والصالحين من أتباعه وقد قال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وقال سلمان الفارسي: أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت([2][37]).

وإن القيام في المولد ليس سنة ولا واجبا وإنما هي حركة جرت عادة الناس بها واستحسن ذلك من استحسنه من أهل العلم يقول البرزنجي مؤلف أحد الموالد النبوية ما نصه: وقد استحسن القيام عند ذكر مولده الشريف أئمة ذوو رواية وروية فطوبى لمن كان تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم غاية مرامه ومرماه.

ويقول أيضا:

وقد سن أهل العلم والفضل والتقى	قياما على الأقدام مع حسن إمعان
بتشخيص ذات المصطفى وهو حاضر	بأي مقام فيه يذكر بل دان

فأنت تراه يقول: وقد سن أهل العلم ولم يقل سن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الخلفاء الراشدون ولم يقل: سنة مطلقة بل قال: وقد سن أهل العلم وبعدها يقول: بتشخيص ذات المصطفى أي أن هذا القيام لتصور شخص النبي صلى الله عليه

([36][1]) مفاهيم يجب أن تصحح ص (٣١٥) وما بعدها.

([37][2]) الروح لابن القيم ص (١٤٤).

وآله وسلم في الذهن وهذا التصور شيء محمود ومطلوب بل لابد من أن يتوفر في ذهن المسلم الصادق في كل حين ليكمل اتباعه له صلى الله عليه وآله وسلم وتزيد محبته فيه صلى الله عليه وآله وسلم ويكون هواه تبعا لما جاء به فالناس يقومون احتراما وتقديرا لهذا التصور الواقع في نفوسهم عن شخصية ذلك الرسول العظيم مستشعرين جلال الموقف وعظمة المقام وهو أمر عادي كما تقدم ولذلك فإن من لم يقم لا شيء عليه ولا يكون آثما شرعا.

فالقيام كما قدمنا أمر استحسنه العلماء شرقا وغربا والقصد فيه تعظيم صاحب المولد وجرى به العمل في سائر البلاد وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن كما مر في حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

وقال الشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي: وقد وجد القيام عند ذكر اسمه صلى الله عليه وآله وسلم من عالم الأمة ومقتدى الأئمة دينا وورعا الإمام تقي الدين السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره فأنشد قول البوصيري في مدحه صلى الله عليه وآله وسلم:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب	على ورق من خط أحسن من كتب
وأن تنهض الأشراف عند سماعه	قياما صفوفا او جثيا على الركب

فعند ذلك قام السبكي رحمه الله وجميع من في المجلس فحصل أنس كبير بذلك المجلس ويكفي مثل ذلك في الاقتداء([38]١).

كيفية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

إن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ليست له كيفية مخصوصة لابد من الالتزام وإلزام الناس بها بل إن كل ما يدعو إلى الخير ويجمع الناس على الطاعة ويرشدهم إلى ما فيه منفعتهم في دينهم ودنياهم يحصل به تحقيق المقصود من المولد النبوي ولذلك فلو اجتمعنا على شيء من المدائح التي فيها ذكر الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم وفضله وجهاده وخصائصه ولم نقرأ قصة المولد النبوي التي تعارف الناس على قراءتها واصطلحوا عليها حتى ظن بعضهم أن المولد النبوي لا يتم إلا بها ثم

([38]١) السيرة الحلبية (١/٨٣ – ٨٤) والسيرة النبوية لزيني دحلان ص (٥١).

استمعنا إلى بعض المواعظ والإرشادات وقراءة القرآن الكريم فإن ذلك داخل تحت الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

شبهات وردت حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

الشبهة الأولى: قول القائل : إن الاحتفال بالمولد لم يفعله السلف ولم يكن في الصدر الأول فهو بدعة محرمة يجب الإنكار عليها.

فالجواب على ذلك: أنه ليس كل ما لم يفعله السلف ولم يكن في الصدر الأول فهو بدعة محرمة ولو كان الأمر كذلك لحرم جمع أبي بكر وعمر وزيد رضي الله عنهم القرآن وكتبه في المصاحف خوفا على ضياعه بموت الصحابة القراء رضي الله عنهم ولحرم جمع عمر رضي الله عنه الناس على إمام واحد في صلاة القيام مع قوله: نعمت البدعة هذه([1][39]) ، وحرم التصنيف في جميع العلوم النافعة واتخاذ الربط والمدارس والمستشفيات والإسعاف ودار اليتامى والسجون بل يجب أن يعرض ما أحدث على أدلة الشرع فما اشتمل على مصلحة فهو واجب أو على محرم فهو محرم أو على مكروه فهو مكروه أو على مباح فهو مباح أو على مندوب فهو مندوب وللوسائل حكم المقاصد فكل ما تشمله الأدلة الشرعية ولم يقصد بإحداثه مخالفة الشريعة وليشتمل على منكر فهو من الدين ومن ثم قيد العلماء حديث «كل بدعة ضلالة»([2][40])، بالبدعة السيئة ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء([3][41]).

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ما أحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا، فهو البدعة الضالة وما احدث من الخير ولم يخالف شيئا من ذلك فهو المحمود.

([39][1]) أخرجه البخاري (٢٠١٠) ومالك (١/١١٤ - ١١٥).

([40][2]) أخرجه أحمد (٤/١٢٦ - ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤٣) والدارمي (٩٥) والبغوي (١٠٢) والحاكم (١/٩٥ - ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي والبيهقي (٦/٥٤١) والطحاوي في مشكل الاثار (٢/٦٩) والآجري في الشريعة ص (٤٦) وابن عاصم (٢٧٩ .

([41][3]) أخرجه مسلم (٢٣٤٨) والنسائي (٢٥٥٣) وأحمد (٤/٣٥٧) مختصرا والترمذي (٢٦٧٥) وابن ماجه (٢٠٣) .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : البدعة في الشرع هي إحداث ما لم يكن في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهي منقسمة إلى حسنة وقبيحة ويدل على ذلك أيضا قول سيدنا عمر رضي الله عنه السابق: نعمت البدعة هذه([42]١).

الشبهة الثانية: قول القائل : إن الاحتفال بمولده صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع الأول وهو نفس الشهر الذي توفي فيه فلماذا يكون الفرح بولادته ولا يكون الحزن بوفاته؟..

<u>والجواب على ذلك:</u> كما قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى : أن ولادته عليه الصلاة والسلام أعظم النعم علينا ووفاته أعظم المصائب لنا والشريعة حثت على إظهار الولادة ولم يأمر عند الموت بذبح ولا بغيره فدلت قواعد الشرعية على أنه يحسن في هذا الشهرإظهار الفرح بولادته صلى الله عليه وآله وسلم دون إظهار الحزن.

الشبهة الثالثة: قول القائل: إن الاحتفال بمولده نوع من الإطراء والتقديس له صلى الله عليه وآله وسلم مما يؤدي إلى رفع مقامه عن كونه بشرا وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبدالله ورسوله»([43]٢).

<u>فالجواب:</u> أن هذا الاستدلال غير صحيح لأن الإطراء المنهي عنه هو المشابه لإطراء النصارى بأن المسيح هو ابن الله حاشاه تعالى من ذلك أما إطراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الاحتفال بمولده فلا يعدو عن ذكر فضائله النبوية وأخلاقه المحمدية وقد مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم اناس من الصحابة وأثنوا عليه في حياته وبعد مماته ولم ينكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أحد منهم ذلك بل وربما أيدهم فهذا كعب بن زهير لما قال أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصيدته المشهورة : (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) واتمها نجد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد خلع عليه عباءته وألبسه إياها جزاء لصنيعه وهذا عبدالله بن رواحة يقول مادحا النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق معروف من الصبح ساطع

([42]١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢٢/١)).

([43]٢) أخرجه أحمد (١٥٣/١).

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع

وكذلك استقبال أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منشدين : طلع البدر علينا... فهل كان مدح هؤلاء الصحابة وغيرهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثنائهم عليه أمرا مخالفا للشرع؟ وإذا كان كذلك فهل يسكت عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يرضى عمن مدحه فكيف لا يرضى عمن جمع شمائله الشريفة؟!

كبار علماء الأمة ومصنفاتهم في المولد النبوي الشريف:

- **الحافظ محمد بن ابي بكر بن عبدالله القيسي الشافعي** المعروف بالحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي المولود سنة (٧٧٧هـ) والمتوفى سنة (٨٤٢هـ) قال عنه الحافظ ابن فهد في لحظ الألحاظ ذيل تذكرة الحفاظ: هو إمام مؤرخ له الذهن الصافي السليم تولى مشيخة اهل دار الحديث بالأشرفية بدمشق وترجم الحافظ جمال الدين عبدالهادي الحنبلي في كتابه (الرياض اليانعة) لابن ناصر الدين وقال معظما للشيخ ابن تيمية محبا له مبالغا في محبته قد صنف في المولد النبوي الشريف أجزاء عديدة ذكرها صاحب كشف الظنون ص (٣١٩) ومنها جامع الآثار في مولد النبي المختار ومنها اللفظ الرائق في مولد خير الخلائق.
- **الحافظ العراقي** : وهو الإمام الكبير عبدالرحيم بن حسين بن عبدالرحمن المصري الشهير بالحافظ العراقي المولود سنة (٧٢٥هـ) المتوفى سنة (٨٠٨هـ) برع في الحديث والإسناد والحفظ وهو العلامة الحجة صنف مولدا شريفا سماه (المورد الهني في المولد السني) ذكره ضمن مؤلفاته.
- **الحافظ السخاوي:** وهو محمد بن عبدالرحمن القاهري المعروف بالسخاوي المولود سنة (٨٣١هـ) المتوفى سنة (٩٠٢هـ) بالمدينة المنورة وترجم له الشوكاني في كتابه البدر الطالع وقال عنه: من الأئمة الكبار وقال عنه ابن فهد: لم أر في الحفاظ المتأخرين مثله وقال عنه الشوكاني لو لم يكن له من التصنيف إلا كتاب (الضوء اللامع) لكان دليلا على إمامته وقال صاحب كشف الظنون : للحافظ السخاوي جزء في المولد الشريف.

- **الحافظ ملا علي القاري بن سلطان بن محمد الهروي:** المتوفى سنة (١٠١٤هـ) صاحب شرح المشكاة ترجم له الشوكاني في (البدر الطالع) وقال: أحد مشاهير الأعلام ومشاهير أولي الحفظ والإفهام وقد صنف في مولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كتابا قال صاحب اكشف الظنون اسمه (المورد الروي في المولد النبوي).
- **الحافظ ابن كثير:** وهو عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير صاحب التفسير فقال الذهبي في المختص : الإمام المحدث البارع ثقة متقن محدث متفنن وترجم له العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) فقال: اشتغل بالحديث ومتونه ورجاله وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتحن بسببه كثرت تصانيفه في البلاد صنف الإمام ابن كثير مولدا نبويا طبع أخيرا بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.
- **الحافظ ابن الديبع:** وجيه الدين بن عبدالرحمن بن علي بن محمد الشيباني اليمني الزبيدي الشافعي والديبع بلغة السودان: هو لقب جده الأعلى ولد في محرم سنة (٨٦٦هـ) وتوفي يوم الجمعة ثامن رجل الفرد سنة (٩٤٤هـ) وكان أحد أئمة الزمان حدث بالبخاري أكثر من مائة مرة وصنف مولدا مشهورا حققه الشيخ محمد علوي المالكي رحمه الله.

التبرك

معاني البركة :

للبركة معان شتى تختلف باختلاف سياقها من الآية أو الحديث أو الأثر أو الموضوع ومن معانيها الزيادة والنماء وهما يشملان المحسوسات والمعنويات جميعا والحقيقة أن البركة سر إلهي وفيض زاده الله تعالى ونمى به أعمال البر بملازمة القربات الكريمة فكانت البركة بهذا ثمرة من ثمرات العمل الصالح يحقق الله بها الآمال ويدفع السوء ويفتح بها مغالق الخير من فضله فالبركة بهذا المعنى لون من الرحمة والفضل الرباني

والخير الشامل والفائدة واللطف الخفي الذي يحبو به الله أعمال أوليائه وأحبابه الأبرار ثم إن الله تعالى بارك القرآن في ذاته فقال﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾([1]١) وبارك المنازل فقال﴿وقل رب أنزلني منزلا مباركا﴾([2]٢) وبارك اسمه الكريم فقال﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾([3]٣) وبارك الله الأسرة النبوية من سيدنا إبراهيم فقال: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾([4]٤) وتبارك في نفسه تعالى فقال: ﴿تبارك الله رب العالمين﴾([5]٥) وبركاته كثيرة جدا في جميع ما خلق سبحانه وتعالى.

ولما كان (التبرك بالشيء) هو طلب البركة بذلك الشيء من الله تعالى، (والبركة) هي الزيادة والنماء كان معنى التبرك بآثار الصالحين طلب الزيادة من الخير من الله عز وجل بجاههم ومنزلتهم عنده.

ولقد تكلم كثير من فقهاء المذاهب الأربعة في كتبهم الفقهية عن التبرك في مناسبات عديدة وأقروه بشرط أن لا يتجاوز حدود الشريعة الإسلامية واستعمل هؤلاء الفقهاء أنفسهم التبرك تأسيا بسلفهم الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وعنا بجاههم.

والتبرك في الحقيقة ليس هو إلا توسلا إلى الله سبحانه وتعالى بذلك المتبرك به سواء أكان أثرا أو مكانا أو شخصا أما الأعيان فلاعتقاد فضلها وقربها من الله سبحانه وتعالى مع اعتقاد عجزها عن جلب خير أو دفع شر إلا بإذنه تعالى.

وأما الآثار والأماكن فلأنها منسوبة إلى تلك الأعيان فهي مشرفة بشرفها ومكرمة ومعظمة ومحبوبة لأجلها.

التبرك بسور القرآن:

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده لبركتها)([6]٦).

([1]١) سورة ص الآية (٢٩).

([2]٢) سورة المؤمنين الآية (٢٩).

([3]٣) سورة الرحمن الآية (٧٨).

([4]٤) سورة هو الآية (٧٣).

([5]٥) سورة العراف الآية (٥٤).

([6]٦) أخرجه البخاري (٥٧٤٨) ومسلم (٥٦٧٩) وأبو داود (٣٩٠٢) وابن ماجه (٣٥٢٩) ومالك في كتاب العين رقم (٩٩).

وفي رواية قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مرض أحد من اهله نفث عليه بالمعوذات)([7]١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (فاسترقوا لها فإن بها نظرة)([8]٢) أي اطلبوا لها من يرقيها.

وعنها أيضا رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (بها نظرة فاسترقوا لها)([9]٣) يعني بوجهها صفرة.

التبرك بقبر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم :

عن داود بن أبي صالح قال: أقبل مروان يوما فوجد رجلا واضعا وجهه على القبر فأخذ برقبته وقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم فأقبل عليه، فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فقال : نعم جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم آت الحجر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله)([10]٤).

والحديث فيه التجاء أحد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتمسحه بقبره الشريف . وقال القاضي عياض: رؤي ابن عمر رضي الله عنهما واضعا يده على مقعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه.

وروى القاضي عياض عن أبي قسيط والعتبي كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا المسجد جسوا رمانة المنبر التي تلي القبر بميامينهم ثم يستقبلون القبلة يدعون.

وقال الملا علي القاري شارح الشفا: رواه ابن سعد عن عبدالرحمن بن عبدالقاري([11]٥).

وروى ذلك الشيخ ابن تيمية أيضا عن الإمام أحمد أنه رخص في التمسح بالمنبر والرمانة وذكر أن ابن عمر وسعيد بن المسيب ويحيى بن سعيد من فقهاء المدينة كانوا يفعلون ذلك . أهـ([12]٦)

([7]١) أخرجه مسلم (٥٦٧٨).

([8]٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٩).

([9]٣) أخرجه مسلم (٥٦٨٩).

([10]٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٥٧١) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

([11]٥) (ج٢/٥١٨).

([12]٦) اقتضاء الصراط المستقيم ص (٣٦٧).

ولما حضرت الوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنه عبدالله : (انطلق إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقل : يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل : أمير المؤمنين فإني لست اليوم بأمير المؤمنين وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه قال: فاستأذن وسلم ثم دخل عليها وهي تبكي فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت : كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي فلما أقبل قيل: هذا عبدالله بن عمر قد جاء فقال: ارفعوا فأسنده رجل اليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا امير المؤمنين أذنت ، فقال الحمد لله ما كان شيء أهم الي من ذلك فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين)(١[13]).

وقال إبراهيم الحربي: يستحب تقبيل حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال صاحب غاية المنتهى الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي ما نصه: (ولا بأس بمس قبر بيد لاسيما من ترجى بركته).

وقال المرداوي في الإنصاف ما نصه: (يجوز لمس القبر من غير كراهية).

وقال السمهودي في وفاء الوفاء ما نصه: لما قدم بلال رضي الله عنه من الشام لزيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى القبر فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه.

وقد ورد أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يضع يده اليمنى على القبر وأن بلالا رضي الله عنه وضع خديه عليه.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: استنبط بعضهم من مشروعية تقبيل الحجر الأسود جواز تقبيل يد الآدمي.

وسئل الإمام أحمد عن تقبيل منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبره فلم ير به بأسا(٢[14]).

ونقل عن ابن أبي الصيف اليماني أحد علماء مكة من الشافعية جواز تقبيل المصحف واجزاء الحديث وقبور الصالحين.

ونقل الطيب الناشري عن المحب الطبري أنه يجوز تقبيل القبر ومسه وقال وعليه عمل العلماء الصالحين(١[15]).

([13]١) أخرجه البخاري (١٣٩٢).

([14]٢) البداية والنهاية (٨/٢).

التبرك بشعره صلى الله عليه وآله وسلم :

ومن حديث أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى منى فأتى الجمرة فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر وقال للحلاق خذ وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ثم جعل يعطيه الناس.

وقد جاء في رواية حفص بلفظ : «فبدأ بالشق الأيمن فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس ثم بالأيسر فصنع مثل ذلك »

ومن حديث أنس رضي الله عنه أيضا قال: لما رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجمرة نحر نسكه ثم ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه فأعطاه أبو طلحة لأم سليم بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم ناوله شقه الأيسر فحلقه فقال اقسم بين الناس([16]٢).

وعن محمد بن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصبناه من قبل أنس – أو من قبل أهل أنس، فقال: (لأن تكون عندي شعرة منه احب الي من الدنيا وما فيها).

وعن عثمان بن عبدالله بن موهب قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح من ماء فجاءت بجلجل من فضة فيه شعر من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث اليها مخضبة قال: فاطلعت في الجلجل فرأيت شعرات حمراء([17]٣).

قال الإمام الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد بينه وكيع في مصنفه فقال: كان جلجلا من فضة صيغ صونا لشعرات النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت عند ام سلمة والجلجل هو شبه الجرس يتخذ من الفضة أو الصفر أو النحاس، وقد تنزع منه الحصاة التي تتحرك فيه فيوضع فيه – ما يحتاج إلى صيانته([18]٤).

([15]١) المقالات السنية ص (١٢٨ – ١٢٩).

([16]٢) أخرجه مسلم (٣١٢٤٢) وأبو داود (١٩٨٢) والترمذي (٩١٢) وأحمد (١١١/٣) والحميدي (١٢٢٠) وابن خزيمة (٢٩٢٨) والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف (١٤٥٦) والبغوي (١٩٦٢) وابن حبان (٣٨٧٩) والبيهقي (١٣٤/٥) وفي رواية عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره أخرجه البخاري (١٧١).

([17]٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٦) ورواه مسلم (٨٣/١).

([18]٤) كذا في فتح الباري (٣٥٣٩/١.

وقال الإمام العيني : وبيان ذلك على التحرير: أن أم سلمة رضي الله عنها كان عندها شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حمر في شيء مثل الجلجل وكان الناس عند مرضهم يتبركون بها ويستشفون من بركتها ويأخذون من شعره ويجعلونه في قدح من الماء فيشربون الماء الذي فيه الشعر فيحصل لهم الشفاء وكان أهل عثمان أخذوا منها شيئا وجعلوه في قدح من فضة فشربوا الماء الذي فيه فحصل لهم الشفاء ثم ارسولا عثمان بذلك القدح إلى أم سلمة ووضعته في الجلجل فاطلع عثمان في الجلجل فرأى فيه شعرات حمراء.

قوله: (وكان إذا أصاب الإنسان إلى آخره) : كلام عثمان بن عبدالله بن موهب أي كان اهلي كذا فسره الكرماني وقال بعضهم وكان إذا أصاب الإنسان أي منهم والذي قاله الكرماني أصوب يبين به أن الإنسان إذا أصابه عين أو شيء من الأمراض بعث أهله اليها أي إلى أم سلمة مخضبة بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الضاد المعجمة والباء الموحدة وهي الإجانة ويجعل فيها ماء وشيئا من الشعر المبارك ويجلس فيها فيحصل له الشفاء ثم يرد الشعر إلى الجلجل([19]١).

وعن جعفر بن عبدالله بن الحكم أن خالد بن الوليد قد فقد قلنسوة له يوم اليرموك فقال اطلبوها فلم يجدوها فقال اطلبوها فوجدوا فإذا هي قلنسوة خلقة أي ليست بجديدة فقال خالد اعتمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحلق رأسه فابتدر الناس جوانب شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهي معي إلا رزقت النصر([20]٢).

وفي سير أعلام النبلاء([21]٣) للذهبي ما نصه: قال عبدالله بن أحمد: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيضعها على فيه يقبلها وأحسب أني رأيته يضعها على عينيه ويغمسها في الماء البرد ويشربه ويستشفي به ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به ويمسح به يديه ووجهه.

([19]١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧٩/١٨).

([20]٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزائد (٣٤٩/٩) وابن حجر في المطالب العالية (٩٠/٤) وفيه يقول خالد (فما وجهت من جهة الا فتح لي).

([21]٣) سير أعلام النبلاء (٢١٢/١١) وروى القصة ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد.

وقد ثبت أن عبدالله سأل أباه عمن يلمس رمانةمنبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويمس الحجرة النبوية فقال: لا أرى بذلك بأسا.

وفي البداية والنهاية لابن كثير ما نصه: قال أحمد فعند ذلك قال لي: يعني قال له المعتصم حين طالبه بالقول بخلق القرآن فامتنع أحمد لعنك الله طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني ثم قال خذوه واخلعوه واسحبوه قال أحمد: فأخذت وسبحت وخلعت وجيء بالعاقبين والسياط وأنا انظر وكان معي شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصرورة في ثوبي فجروني منه وصرت بين العاقبين([22]١).

وقال ابن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى في طهارة الشعر (إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرق شعره بين اصحابه قال أنس : لما رمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمرة العقبة ونحر نسكه ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه ثم ناوله شقه الأيسر قال: احلقه وأعطاه أبا طلحة فقال اقسمه بين الناس([23]٢).

التبرك بعرقه صلى الله عليه وآله وسلم :

عن سيدنا أنس رضي الله عنه أن سيدتنا ام سليم رضي الله عنها (كانت تبسط للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قطعا فيقيل عندها على ذلك النطع قال فإذا نام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة ثم جمعته في سك وهو نائم قال فلما حضر أنس بن مالك الوفاة أوصى إلى أن يجعل في حنوطه من السك قال: فجعل في حنوطه)([24]٣).

وفي رواية: دخل علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عندنا فجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ فقال: أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟ قالت: هذا عرقك تجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب([25]٤).

([22]١) البداية والنهاية (١٠/٣٣٤).

([23]٢) تقدم تخريجه.

([24]٣) أخرجه البخاري (٦٢٨١).

([25]٤) أخرجه مسلم (٦٠٠٩) وأحمد (٣/١٣٦) وعبد بن حميد (١٢٦٨).

وفي رواية: عرق فاستنقع عرقه على قطعة أديم عتيدة فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها فأفاق فقال: ما تصنعين؟ قالت: نرجوا بركته لصبياننا فقال: أصبت([26]١).

وفي رواية أبي قلابة: فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير فقال: ما هذا؟ قالت: عرقك أدوف به طيبي([27]٢).

ويستفاد من هذه الروايات إطلاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فعل أم سليم وتصويبه ولا معارضة بين قولها إنها كانت تجمعه لأجل طيبه وبين قولها للبركة بل يحتمل على أنها كانت تفعل ذلك للأمرين معا([28]٣).

التبرك بجلده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم :

عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: كان أسيد بن حضير رضي الله عنه رجلا صالحا ضاحكا مليحا فبينما هو عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدث القوم ويضحكهم فطعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خاصرته فقال: أوجعتني قال صلى الله عليه وآله وسلم اقتص قال: يا رسول الله إن عليك قميصا ولم يكن علي قميص قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قميصه فجعل يقبل كشحه فقال: يأبي أنت وأمي يا رسول الله! أردت هذا([29]٤).

وعن حبان بن واسع عن أشياخ من قومه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية رضي الله عنه حليف بني عدي بن النجار وهو مستنصل من الصف أي خارج فطعنه في بطنه بالقدح وقال:/ استو يا سواد فقال يا رسول الله ! أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني فكشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بدنه فقال: استقد فاعتنقه فقبل بطنه فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله! حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير ([30]٥).

([26]١) أخرجه مسلم (٦٠١٠) وأحمد (٢٢١/٣).

([27]٢) أخرجه مسلم (٦٠١١) وأحمد (٢٧٦/٦) وأدوف بمعنى أبل به طيبي.

([28]٣) فتح الباري الجزء الحادي عشر ص ٧٢.

([29]٤) أخرجه أبو داود (٥٢٢٤) والحاكم (٢٨٨/٢) وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٥٧).

([30]٥) أخرجه ابن إسحاق كذا في البداية (٢٧١/٣).

وعن الحسن أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقي رجلا مختضبا بصفرة وفي يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم جريدة : فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم خط ورس فطعن بالجريدة بطن الرجل وقال: ألم أنهك عن هذا؟ فأثر في بطنه دما أدماه، فقال: القود يا رسول الله! فقال الناس: أمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقتص؟ فقال: ما لبشرة أحد فضل على بشرتي فكشف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بطنه ثم قال: اقتص فقبل الرجل بطن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أدعها([31]١) لك أن تشفع لي يوم القيامة([32]٢).

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «زاهر باديتنا ونحن حاضرته وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحبه فمشى صلى الله عليه وآله وسلم يوما إلى السوق فوجده قائما فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زاهر بأنه رسول الله قال: فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته.

وفي رواية: فاحتضنه من خلفه ولا يبصره فقال: أرسلني من هذا؟ فالتفت فعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعل لا يألوما ألصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينه عرفه – فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من يشتري العبد فقال له زاهر: يا رسول الله ! إذا تجدني كاسدا. فقال صلى الله عليه وآله وسلم " «أنت عند الله غال».

وفي رواية أخرى: لكن عند الله لست بكاسد أو قال أنت عند الله غال([33]٣).([34]٤)

التبرك بلباسه أو بجبته صلى الله عليه وآله وسلم :

عن سيدنا سهل بن سعد رضي الله عنه في البردة التي استوهبها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلامه الصحابة على طلبها فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي أكفن فيها([35]٥).

([31]١) وقوله – أدعها لك: أي أترك المقاصصة.

([32]٢) أخرجه عبدالرزاق (٤٦٦/٩) وكذا في الكتز (٩١/١٥).

([33]٣) أخرجه أحمد (١٦١/٣) والترمذي في الشمائل (٢٣٩) وأبو يعلى (٣٤٥٦) والبزار (٢٧٣٥) والبيهقي (١٦٩/٦) والبغوي (٣٦٠٤) وعبدالرزاق في المصنف (١٩٦٨٨) وابن حبان (٥٧٩٠) والهيثمي في المجمع (٣٦٨/٩ -٣٦٩) وصححه الحافظ في الإصابة (٥٢٣/١).

([34]٤) المواهب اللدنية (٢٩٧/١).

([35]٥) أخرجه البخاري (٦٠٣٦).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت قبضتها وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها([1][36]).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرحه على الصحيح (٤٤/١٤) وفي هذا الحديث دليل على استحباب التبرك بآثار الصالحين وثيابهم.

وفي شرح الإحياء للحافظ الزبيدي([2][37]) ما نصه: عن الشعبي قال: حضرت عائشة رضي الله عنها : وهي تقول (إني قد أحدثت حدثا ولا أدري ما حالي عنده فلا تدفنوني معه فإني أكره أن أجاور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أدري ما حالي عنده ثم دعت بخرقة من قميص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: ضعوا هذا على صدري وادفنوها معي لعلي أنجو من عذاب القبر).

وقال الحافظ الزبيدي في الإتحاف([3][38]) ما نصه

ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية إذ قال: أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي إلا وهو شر مني كما كان من قبلي خيرا مني ويا يزيد – يعني ولده – إذا وفى أجلي فول غسلي رجلا لبيبا فإن اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد – أي أقصد – إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراظة أنفي وعيني واجعل الثوب على جلدي دون اكفاني.

التبرك بموضع فمه صلى الله عليه وآله وسلم :

عن سيدنا أبي بردة قال: قدمت المدينة فلقيني عبدالله بن سلام فقال لي: (انطلق إلى المنزل فأسقيك في قدح شرب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتصلي في مسجده)([4][39]).

([36][1]) أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة (١٤٥/٣).

([37][2]) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (٣٣٣/١٠).

([38][3]) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين(٣٢١/١٠).

([39][4]) أخرجه البخاري (٧٣٤٢).

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل إلى ام سليم وفي البيت قربة معلقة فشرب من فيها – أي من فم القربة – وهو قائم قال أنس : فقطعت أم سليم فم القربة فهو عندنا([١][40]).

والمعنى: أن أم سليم قطعت فم القربة الذي هو موضع شربه صلى الله عليه وآله وسلم واحتفظت به في بيتها للتبرك بأثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

التبرك بيده وبموضعها صلى الله عليه وآله وسلم :

عن محمد بن عبدالملك بن أبي محذورة عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله علمني سنة الأذان قال : فمسح مقدم رأسه قال: «تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر ترفع بها صوتك ..»([٢][41]) الحديث.

وفي رواية: فكان أبو محذورة يجز ناصيته لا يفرقها لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسح عليها([٣][42]).

وعن صفية بنت مجرأة: (أن أبا محذورة كانت له قصة في مقدمة رأسه إذا قعد أرسلها فتبلغ الأرض فقالوا له ألا تحلقها؟ –فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسح عليها بيده فلم اكن لأحلقها حتى أموت).

وعن موسى بن عقبة قال: رأيت سالم بن عبدالله يتحرى أماكن من الطريق فيصلي فيها ويحدث أن أباه كان يصلي فيها وأنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في تلك الأمكنة قال موسى : وحدثني نافع أن ابن عمر كان يصلي في تلك الأمكنة([٤][43]).

وعن يزيد بن الأسود في حديث حجة الوداع قال: فلما صلى الصبح انحرف جالسا فاستقبل الناس بوجهه وذكر قصة الرجلين الذين لم يصليا قال ونهض الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونهضت معهم وأنا يومئذ أشب الرجال وأجلدهم قال: فما زلت أزاحم الناس حتى وصلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذت بيده فوضعها إما على وجهي أو على صدري قال: فما وجدت شيئا أطيب ولا أبرد من يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: وهو يومئذ بمسجد الخيف.

([40]١) أخرجه أحمد (٢٢/٧٠).

([41]٢) أخرجه أحمد (٣/٤٠٨ ، ٤٠٩) وبو داود (٥٠٠) والنسائي (٦٣٢) وابن حبان (١٦٨٢) والبيهقي في السنن (١/٣٩٤) والبغوي في شرح السنة (٤٠٨) وابن خزيمة في صحيحه (٣٧٨).

([42]٣) رواه ابو داود (٥٠١).

([43]٤) أخرجه البخاري (٤٨٣).

وفي رواية: ثم ثار الناس يأخذون بيده ويمسحون بها وجوههم([44]١).

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا وغمس يده فيها فربما جاؤوا في الغداة الباردة فيغمس يده فيها([45]٢).

وعن نافع أن عبدالله بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي يشرف الروحاء وقد كان عبدالله يعلم المكان الذي صلى فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ثم عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلي وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى وأنت ذاهب إلى مكة بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر أو نحو ذلك([46]٣).

التبرك بموضع قدمه صلى الله عليه وآله وسلم :

عن أبي مجلز ان أبا موسى كان بين مكة والمدينة فصلى العشاء ركعتين ثم قام فصلى ركعة أوتر بها فقرأ فيها بمائة آية من النساء ثم قال: ما ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم([47]٤) .

التبرك بالأمكنة:

قال العلامة ابن حجر رحمه الله تعالى: يتأكد ندب احترام نحو المدارس والربط ومحال العلماء والصلحاء وكل محل علم أنه صلى الله عليه وآله وسلم نزله أو صلى فيه فله فضل عظيم على غيره على ممر الدهر فيتأكد الاعتناء به بتحري نزوله والتبرك به كما كان ابن عمر وغيره رضي الله عنهم يفعلون بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم([48]٥) .

وما يقال من أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قطع شجرة بيعة الرضوان لتحريم التبرك بقبور الأنبياء والصالحين فليس في ذلك دليل لهم:

فإنه محمول على أنه تخوف أن يأتي زمان قد يعبد الناس تلك الشجرة وليس مقصوده تحريم التبرك بآثار الرسول ولو كان الأمر كما ظنوا ما كان ابنه عبدالله ينزل تحتها أي

([44]١) أخرجه أحمد (٤/١٦١).

([45]٢) أخرجه مسلم (٥٩٩٦).

([46]٣) أخرجه البخاري (٤٨٥).

([47]٤) أخرجه النسائي (١٧٢٧).

([48]٥) الفتاوى الكبرى لابن حجر(٢/١١٩).

تبركا وكان يسقيها الماء كي لا تيبس([49]١) ولا شك أن عبدالله بن عمر أفهم بسيرة أبيه من غيره.

التبرك بدار مباركة:

عن محمد بن سوقة عن أبيه قال: (لما بنى عمرو بن حريث داره أتيته لأستأجر منه فقال ما تصنع منه؟ فقلت: أريد أن أجلس فيه وأشتري وأبيع قال: قلت: لأحدثك في هذه الدار بحديث إن هذه الدار مباركة على من سكن فيها مباركة على من باع فيها واشترى وذلك أني أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعنده مال موضوع فتناول بكفه منه دراهم فدفعها إلي وقال: هاك يا عمرو هذه الدراهم حتى تنظر في أي شيء تضعها فإنها دراهم أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذتها ثم مكثنا ما شاء الله حتى قدمن الكوفة فأردت شراء دار فقالت لي أمي : يا بني إذا اشتريت دارا وهيأت مالها فأخبرني ففعلت ثم جئتها فدعوتها فجاءت والمال مضوع فأخرجت شيئا معها فطرحته في الدراهم ثم خلطتها بيدها فقلت يا أمه! أي شيء هذه؟ قالت: يا بني! هذه الدراهم التي جئتني بها فزعمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطاكها بيده فأنا أعلم أن هذه الدار مباركة لمن جلس فيها مباركة لمن باع فيها واشترى)([50]٢).

التبرك بفضل وضوئه صلى الله عليه وآله وسلم :

عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبة حمراء ورأيت بلالا أخرج وضوءا فرأيت الناس يبتدرون ذلك الوضوء فمن اصاب منه شيئا تمسح به ومن لم يصب منه أخذ من بلل صاحبه([51]٣) وفي رواية (شهدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبطحاء وأتى بلال بفضل وضوئه فابتدره الناس فنلت منه شيئا)([52]٤).

التبرك بتقبيل يد من مس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

([49]١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٠٧٤).

([50]٢) أخرجه أبو يعلى (١١١/٤).

([51]٣) أخرجه البخاري (٣٧٦) ومسلم (٥٠٣) وأحمد (٣٠٨/٤).

([52]٤) أخرجه النسائي (١٣٧).

عن عبدالرحمن بن رزين قال: (مررنا بالربوة فقيل لنا ههنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، فأتينا فسلمنا عليه فأخرج يديه فقال: بايعت بهاتين نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخرج كفا له ضخمة كأنها كف بعير فقمنا اليها فقبلناها)([53]١).

وعن ابن جدعان : قال ثابت لأنس رضي الله عنه (أمسست النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيدك؟ قال: نعم، فقبلها).

وعن صهيب قال: رأيت عليا رضي الله عنه يقبل يد العباس رضي الله عنه ورجله([54]٢).

وعن يحيى بن الحارث الذماري قال: لقيت واثلة بن الأسقع رضي الله عنه فقلت: بايعت بيدك هذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: نعم قلت: أعطني يدك أقبلها، فأعطانيها فقبلتها([55]٣).

وعن يونس بن ميسرة قال: دخلنا على يزيد بن الأسود عائدين فدخل عليه واثلة الأسقع رضي الله عنه فلما أن نظر اليه مد يده فأخذ يده فمسح بها وجهه وصدره لأنه بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: يا يزيد! كيف ظنك بربك؟ فقال: حسن فقال ابشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي إن خيرا فخير وإن شرا فشر([56]٤).

وعن ثابت قال: كنت إذا أتيت أنسا يخبر بمكاني فأدخل عليه وآخذ يديه وأقبلهما وأقول: بأبي هاتين اليدين اللتين مستا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبل عينيه وأقول بأبي هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم([57]٥) .

تبرك الخلفاء الراشدين بخاتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمحافظة عليه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اتخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتما من ورق وكان في يده ثم كان بعد في يد أبي بكر ثم كان بعد في يد عمر ثم كان في يد عثمان حتى وقع بعد في بئر أريس نقشه محمد رسول الله([58]٦) .

([53]١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٣) وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣٠٦/٤).

([54]٢) أخرجهما البخاري في الأدب المفرد ص (١٤٤).

([55]٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/٨).

([56]٤) أخرجه أبو نعيم في الحيلة (٣٠٦/٩).

([57]٥) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١١١/٢).

([58]٦) أخرجه البخاري (٥٥٢٨/٥).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى : جاء في رواية: (أنه التمس فلم يوجد)([59]١).

وجاء في رواية ابن سعد: (أنه كان في يد عثمان ست سنين)([60]٢).

وقال العيني : وبئر أريس حديقة بقرب مسجد قباء([61]٣).

وهذه البئر صارت معروفة اليوم ببئر الخاتم وهو خاتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي سقط فيها أيام خلافة عثمان وقد اجتهد ثلاثة أيام في استخراجه بكل ما وجده سبيلا فلم يلقه([62]٤).

التبرك بآثار الأنبياء السابقين:

عن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا للإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر الذي كانت تردها الناقة([63]٥).

وقال النووي في شرحه على هذا الحديث من فوائد هذا الحديث جواز التبرك بآثار الصالحين.

التبرك بآثار الصالحين:

جاء الإمام السبكي رحمه الله تعالى لزيارة الإمام النووي – رحمه الله تعالى – فوجده قد توفي فأتى إلى دار الحديث وسأل عن مكان جلوس الإمام النووي فدل عليه فصار يمرغ وجهه ولحيته عليه وأنشد:

وفي دار الحديث لطيف معنى	أصلي في جوانبها وآوي
لعلي أن أمس بحر وجهي	مكانا مسه قدم النواوي

وعن الربيع بن سلمان قال: إن الشافعي رحمه الله تعالى خرج إلى مصر فقال: لي: يا ربيع خذ كتابي هذا فامض به وسلمه إلى أبي عبدالله (أحمد بن حنبل) وأتني بالجواب قال الربيع فدخلت بغداد ومعي الكتاب فصادفت أحمد بن حنبل في صلاة الصبح فلما انتقل من المحراب سلمت إليه الكتاب وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر

([59]١) أخرجه النسائي (٥٢٣٢).

([60]٢) فتح الباري (٣١٣/١٠).

([61]٣) عمدة القاري (٣١/٢٢).

([62]٤) المغانم المطابة في معالم طابه للفيروز آبادي ص (٢٦).

([63]٥) أخرجه مسلم (٧٣٩١).

فقال لي أحمد: نظرت فيه؟ فقلت: لا فكسر الخاتم فقرأ وتغرغرت عيناه فقلت له: إيش فيه يا أبا عبدالله؟ فقال: يذكر فيه أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال له: (اكتب إلى أبي عبدالله فاقرأ عليه السلام وقل له إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم فسيرفع الله لك علما إلى يوم القيامة) قال الربيع : فقلت له : البشارة يا أبا عبدالله فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده فأعطانيه فأخذت الجواب وخرجت إلى مصر وسلمته إلى الشافعي فقال: إيش الذي أعطاك؟ فقلت : قميصه فقال الشافعي : ليس نفجعك به ولكن بله وادفع الي الماء لأتبرك به([64]١).

وفي رواية: قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لا نبتاعه منك ولا نستهديه ولكن اغسله وجئنا بمائه قال: فغسلته فحملت ماءه إليه فتركته في قنية وكنت أراه في كل يوم يأخذ منه ويمسح على وجهه تبركا بأحمد بن حنبل([65]٢).

وروي عن أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى (أنه غسل قميصا للشافعي وشرب الماء الذي غسله به) وإذا كان هذا تعظيمهم لأهل العلم فكيف بمقادير الصحابة؟ أو كيف بآثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟!

وجاء في كتاب (الحكايات المنثورة) للإمام الحجة ضياء الدين المقدسي رحمه الله تعالى قال: (سمعت الشيخ الإمام أبا محمد عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي يقول: خرج في عضدي شيء يشبه الدمل وكان يبرأ ثم يعود ودام بذلك زمانا طويلا فسافرت إلى أصبهان وعدت إلى بغداد وهو بهذه الصفة فمضيت إلى قبر الإمام أحمد رضي الله عنه وأرضاه ومسحت به القبر فبرأ ولم يعد([66]٣).

والشواهد كثيرة وإنما أردت بما ذكرته الاستشهاد والاستدلال ولم أرد الاستقصاء ومن لم ينفعه القليل لا ينفعه الكثير والله أعلم.

([64]١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧٠/٧).

([65]٢) أخرجه ابن الجوزي في مناقب أحمد بن حنبل ص (٤٥٦).

([66]٣) الحكايات المنثورة (٣٨٣٤).

الخاتمة

والحاصل من هذه الأحاديث والآثار هو أن التبرك به صلى الله عليه وآله وسلم وبآثاره وبكل ما هو منسوب إليه وكذلك التبرك بالصحابة والصالحين وكل ما هو منسوب اليهم سنة مرغوبة وطريقة محمودة مشروعة ويكفي في إثبات ذلك فعل خيار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وتأييد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك بل وأمره مرة وإشارته أخرى إلى فعل ذلك وقد تبين أن كثيرا من الصحابة الكرام كانوا على هذا المسلك كسيدنا ابن عمر والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم – وأم سلمة وخالد بن الوليد وواثلة بن الأسقع وسلمة بن الأكوع وأنس بن مالك وأم سليم وأسيد بن حضير وسواد بن غزية وسواد بن عمرو وعبدالله بن سلام وأبو موسى وعبدالله بن الزبير وسفينة مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسرة خادم أم سلمة ومالك بن سنان وأسماء بنت أبي بكر وأبو محذورة ومالك بن انس وأشياخه من أهل المدينة كسعيد بن المسيب ويحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل والشافعي رضي الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحضرة

* الحضرة: هي حضور القلب مع الله .

* وهي الركن الهام في طريق القوم.

وهذا الركن هو الاجتماع على ذكر الله عز وجل تحت إمارة الشيخ أو وكيله المسمى بالمقدم يبدأ بتلاوة القرآن الحكيم ، ثم تنشد أناشيد من أقوال العارفين بالله المأخوذة بما فيها من القرآن والسنة وأفهام العلماء بالله مثل الشيخ عبدالغني النابلسي وابن الفارض ثم تقوم الجماعة للذكر ويبقون على حالة الذكر حتى يأذن الشيخ أو المقدم بختامها وبعد ذلك يقرأ أحد الإخوة بعض الآيات من القرآن الحكيم ويتم تفسيرها من قبل الشيخ أو وكيله.

وإن الحضرة منقولة ومتوارثة عن كبار الأشياخ العاملين فهي مقررة في كتبهم ومظهر من مظاهر التصوف في سلوك طريقهم عند سيدي أحمد الرفاعي (انظر البرهان المؤيد) والجنيد والجيلاني والشاذلي والشعراني والحاتمي والقشيري وغيرهم رضي الله عنهم.
الأصل فيها ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾([1]١).
والاصطلاح على كيفيتها هو من باب البدعة الحسنة.

- وفي كتاب (النصرة النبوية لأهل الطريقة الشاذلية للشيخ مصطفى حبش المدني)([2]٢):

إن القوم لما كان جل قصدهم ذكر الله في سائر أوقاتهم أوجب لهم اشتغال أنواره في بواطنهم وأجسادهم فجعلوا حلقة الذكر والجهر به دواء لحالهم وسببا لنشاطهم واسرتواحا لقلوبهم وزيادة على السير إلى مقصودهم ولسريان المدد بينهم وجمع الهمة على محبوبهم وردا لداء الكسل والفتور والنوم وسدا لباب الغفلة الموجب للمعاصي وجعلوا لحلقة الذكر الجهري كيفية وشروطا وآدبا.. أهـ باختصار.

- وكل ذلك معروف عند من سلك طريق القوم.

وجواز حلق الذكر شرعا بشكل جماعي جهرا وقياما مأخوذ من قوله تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾([3]٣) فالذين تدل على الجماعة وقياما تدل على جواز الذكر واقفا.

وقال تعالى في الذكر الجماعي ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾([4]٤) .

- وأما الأحاديث التي وردت في فضيلة الذكر فكثيرة منها ما يلي:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ليبعثن الله أقواما يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء فجثا أعرابي على ركبتيه وقال: يا رسول الله حلهم لنا نعرفهم فقال عليه الصلاة والسلام هم المتحابون في الله من قبائل شتى ومن بلاد شتى يجتمعون على ذكر الله»([5]٥).

([1]١) سورة آل عمران الآية (١٩١).

([2]٢) ص (١٧٣).

([3]٣) سورة آل عمران الآية (١٩١).

([4]٤) سورة الأحزاب الآية (٤١ – ٤٢).

([5]٥) أخرجه الطبراني بإسناد حسن وانظر الترغيب والترهيب (٢/٤٠٦ –٤/٢١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فقالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»(١[6]).

وورد في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول«إن لله ملائكة سيارين يتطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليها حفوا بها فيقول الله: غشوهم برحمتي فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

- وفي الرواية المطولة: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضْلاً يتبعون مجالس الذكر، فإن وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين سماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء قال فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويهللونك ويحمدونك وفي رواية البخاري ويمجدونك ويسألونك...»(٢[7]) .
- ويستفاد من هذا الحديث أيضا: أن المقصود من الذكر هو ما فسرته الملائكة من التسبيح والتهليل والتحميد وليس المراد العلم كما يظنه بعض المسلمين.

وعن سيدنا معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا قال: آ لله ما أجلسكم إلا ذاك، قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة(٣[8]).

وعن ثابت البناني قال: إن أهل ذكر الله ليجلسون إلى ذكر الله وإن عليهم الآثام أمثال الجبال وإنهم ليقومون من ذكر الله تعالى ما عليهم من شيء.

صلى الله عليه وآله وسلم : «ما جلس قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ...»(٤[9]).

([6]١) أخرجه أحمد (١٥٠/٣) والترمذي (٣٥١٠) وقال حديث حسن غريب وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٠٧/٢ - ٤٠٨).

([7]٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٦٧٨٠) والترمذي (٣٦٠٠) وأحمد (٢٥١/١).

([8]٣) أخرجه مسلم (٦٧٩٧) والترمذي (٣٣٧٩) والنسائي (٥٤٤١) وأحمد (٩٢/٤).

([9]٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) والترمذي (٣٣٧٨) وأحمد (٤٤٧/٢) وأبو يعلى (١٢٥٢) وعبدالرزاق (٢٠٥٧٧).

وسئل الإمام السيوطي عن حلق الذكر والجهر في المساجد فقال : لا كراهة فيه وجوز ذلك العز بن عبدالسلام والبلقيني وغيرهم كثير ([10]١) .

والحضرة: لفظ اصطلح عليه أهل التصوف ومعنى الحضرة: حضور القلب مع الله تعالى وقد سماها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (حلق الذكر) وسماها أيضا (مجالس الذكر) كما مر معنا ويأتي أناس يسمونها كذا وكذا وهذا لا يهم فلا مشاحة في المصطلحات المهم أن يكون مجلس الذكر أو حلقة الذكر أو الحضرة خالية من المخالفات الشرعية وربنا سبحانه وتعالى قال ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ فلم يقيد أحدا بحالة معينة وقال أيضا ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ وبهذه الآية: جعل الذاكرين في راحة كاملة لم يقيدهم بحالة واحدة وتكلم بلسان الجمع فيمكن أن يذكروا الله جماعة قياما وقعودا وعلى جنوبهم على حسب الهيئة التي تناسب الذاكرين ولم يقيدهم بحالة مخصوصة وبيوم مخصوص وبساعة مخصوصة فإذا فتح ربنا باب الذكر على مصراعيه فلماذا يأتي أحدهم ويقيد باب الذكر بحالة مخصوصة...؟.

فالله وحده أعلم وأرحم([11]٢).

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى : والذين يتداعون إلى هذه الحلقات ويحضرونها يحتجون بالعموم الذي يدل عليه قول الله عز وجل: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾([12]٣).

وهو عموم بين لا يخرج عن نطاقه إلا إذا أخرجه نص آخر من طريق الاستثناء والتخصيص.

وكما أنه لم يرد نص بتحديد حالة أو وقت معين له كذلك لم يرد نص يأمر بتجنب حالة مخصوصة أو وقت محدود له([13]٤).

- والخلاصة:

([10]١) حقيقة الصوفية.

([11]٢) السلفية للدكتور محمد سعيد البوطي ص ١٩٢.

([12]٣) سورة آل عمران الآية (١٩١).

([13]٤) كتاب السلفية ص (٩٢).

أن غالب طرق التربية والإرشاد لا تخلو من الحضرة كمظهر من مظاهرها وذلك للنفع الحاصل فيها من ذكر الله عز وجل ومراقبته ونزول الرحمات بذكر الصالحين فيها والإرشاد الحاصل بالسماع والإنشاد والبركة الحاصلة بالحركة فهي مما سنه السادات العارفون ولا دليل لمنكرها لأن الأصل في الأشياء الإباحة حيث لا تعارض أصلا بل هي سبيل لتحريك القلب والتوجه به نحو ربه سبحانه([14]١).

الحركة في الذكر

تمهيد:

الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأجساد وعندما برزت الأجساد إلى عالم الوجود أودعت تلك الأرواح فيها.

والروح من طبعها السمو والتعالي عن صفات البشرية بل هي من مرافقات الملأ الأعلى فمن صفت روحه من شوائب الأغيار وطهرت من دنس الأوزار كان قريبا إلى العالم الروحاني الذي لا يغفل فيه عن ربه ولا يلتفت إلا إليه .

ومن انكسفت أنوار روحه وغشتها ظلمات الوهم والشهوات هوى في واد سحيق عميق من أودية البهيمية قال تعالى : ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾([1]٢).

وحينما يقرأ العبد القرآن أو يذكر الله تستمد الروح من ذلك طاقات فعالة وتكتسب قوة وصفاء فتهتز في الجسم وتضطرب شوقا لمن ألفتهم من يوم ﴿ألست بربكم﴾([2]٣).

وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها وأفقها السماوي الروحاني حيث الملأ الأعلى وتتجرد من ظلمة هذا الجسد وتتخلص من عوائقه ولكن الذي يعوقها ضعفها وكدورتها والقيود التي قيدها بها الجسد من شهوات وغيرها.

([14]١) كتاب الإبريز (٢/١٨٠).

([1]٢) سورة الفرقان الآية (٤٤).

([2]٣) سورة الأعراف الآية(١٧٢).

فكم من رجال ملائكيين بأرواحهم ربانيين بأخلاقهم لا يقدرون على تثبيت أنفسهم أثناء الذكر لشدة اضطراب أرواحهم في أجسادهم وانفعال نفوسهم وربما غابوا عن إدراكهم وسبحت أرواحهم في عالم الملكوت.

قال بعض العارفين: سبب اضطراب الإنسان بالصوت الحسن أن الروح تتذكر لذيذ الخطاب يوم (ألست بربكم) حين أخرجت من صلب آدم وخوطبت بذلك فتحن لما تتذكر ذلك([3]١).

ومن الأمور المسلم بها أن الإنسان يتأثر بالكلمة الطيبة ويهتز للصوت الرخي ويطرب للنغمة الحلوة والإيقاع الموزون ويأسره المنظر البهيج ولا يدري كيف تتم هذه الأمور في نفسه؟ وأين محالها في ذاته؟ فإن أراد التعبير عنها باللغة الموضوعة للتخاطب جاء تعبيره ناقصا وتخونه العبارة إذا أراد أن يفصح عما يشعر به إفصاحا واقعيا لأنها أمور لا تنال إلا بالذوق ويقف الحس أمامها مبهوتا حائرا قد لا يستطيع ضبط نفسه عن ذلك التأثير فتصدر عنه أصوات أو حركات دون إرادته وقد ينتقده الآخرون عليها وينفعل بذلك ولكنه لا يملك التحكم بمشاعره وانفعالاته.

وهكذا يستولي حب الذكر على قلب صاحبه استيلاء قويا ويتمكن منه تمكنا لا يستطيع ضبط نفسه عنده وهذا ما عبر عنه العلماء (الوجد والتواجد) فالوجد كما قال الشيخ أمين الكردي في (تنوير القلوب) وارد يرد على القلب من كشف أسرار الذات وأنوارها فيدهش الروح أو يظهر ذلك على الجوارح فيهتز الرأس والبدن قال تعالى ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾([4]٢).

وورد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صعد أحدا يوما ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فاهتز الجبل فرحا وتحرك طربا وزهوا بمن علاه فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برجله وقال(اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان) وقال(إن أحدا جبل يحبنا ونحبه)([5]٣).

([3]١) تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر ص (٥١).

([4]٢) سورة الحديد الآية (١٦).

([5]٣) أخرجه مطولا ومختصرا مالك (٨٨٩/٢) في الجامع والبخاري (٢٨٨٩) و (٢٨٩٣) و (٣٣٦٧) و (٦٣٦٣) و (٧٣٣٣) ومسلم (١٣٩٣) وأحمد (١٤٠/٣ -١٤٩) والترمذي (٣٩٢٢) وابن ماجه (٣١١٥) وعبدالرزاق (١٧١٧٠).

إن الجبال الرواسي قد طربت واهتزت فرحا برسول الله ومحبة فيه فكيف حال المؤمن الصادق الذي وله بذكر محبوبه واستولى حبه على قلبه؟ وعلينا تحسين الظن بالناس وكل أعلم بنفسه ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾([6]١) ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن([7]٢)﴾([8]٣).

*** أدلة الحركة في الذكر من القرآن الكريم**

يقول الله تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾([9]٤).

قال الآلوسي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ بعد كلام طويل([10]٥): وعليه فيحمل ما حكي عن ابن عمر رضي الله عنهما وعروة بن الزبير وجماعة رضي الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد إلى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم ، أما قال الله تعالى ﴿يذكرون الله قياما وقعودا﴾ فقاموا يذكرون الله تعالى على أقدامهم على أن مرادهم بذلك التبرك بنوع موافقة للآية في ضمن فرد من أفراد مدلولها.

ويقول العلامة الكتاني: غاية الرقص عند القوم ذكر من قيام وهو مشروع بنص القرآن الكريم ﴿يذكرون الله قياما وقعودا﴾ والتمايل والاهتزاز منقول عن الصحابة فقد روى أبو نعيم عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال: (كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكروا الله تمايلوا كما تتمايل الشجرة بالريح العاصف إلى أمام ثم تراجع إلى وراء)([11]٦).

ويقول سبحانه وتعالى ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم﴾([12]٧).

وقال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: ذكر الله تعالى ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره فكأنها تحصر زمانه ومن هذا المعنى قول عائشة

([6]١) سورة القيامة الآية (١٤).

([7]٢) تنبيه الفكر ص (٥٧).

([8]٣) سورة الحجرات الآية (١٢).

([9]٤) سورة آل عمران الآية (١٩١).

([10]٥) تفسير الآلوسي الكبير روح المعاني (٤/١٤٠).

([11]٦) التراتيب الإدارية للعلامة عبدالحي الكتاني (٢/١٤٣).

([12]٧) سورة النساء الآية (١٠٣).

رضـي الله عنهـا (كـان رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم يـذكر الله علـى كـل أحيانـه)([13]١)... إلـى أن قـال فـذاكر الله تعـالى علـى حـالاتـه مثـاب مـأجور إن شـاء الله([14]٢). ([15]٣)

- أدلة الحركة في الذكر من السنة الشريفة:

١- عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو في قبة له يوم بدر (أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدا) فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب بالدرع وهو يقول﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر([16]٤)﴾([17]٥) .

الشاهد في جواز قراءة كلام الله سبحانه وتعالى في حالة الوثب وهو الظفر والقفز فجوزا ذكر الله تعالى في هذه الحالة من باب أولى.

٢- وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد... إلى أن قالت: وهو صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «دونكم يا بني أرفده» حتى إذا مللت قال: «حسبك » قلت: نعم قال (فاذهبي)([18]٦).

([13]١) أخرجه مسلم (٨٢٤) وأبو داود (١٨) وابن ماجه (٣٠٢) وأحمد (٧٠/٦) وابن خزيمة (٢٠٧) وأبو يعلى (٤٦٩٩) والبيهقي (٩٠/١) وأبو عوانة (٢١٧/١) والبغوي (٢٧٤) والبخاري (٤٠٧/١) تعليقا وابن حبان (٨٠٢) وقال : (قول عائشة يذكر الله على كل أحيانه أرادت به أن الذكر هو غير القرآن).

([14]٢) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن (٣١٠/٤ و ٣١١).

([15]٣) فالاستدلال بعموم الآية الأولى والثانية التي تنص على جواز ذكر الله تعالى قياما وقعودا وعلى جنوبهم المراد من ذلك أنهم يذكرون الله على كل الأحيان والحالات كما ورد ذلك في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها كان يذكر الله على كل أحيانه وهذا من باب إطلاق النصوص وعموماتها و لم يوجد نص آخر يخصص هذا العموم أو يقيد هذا الإطلاق فيعمل بالمطلق على إطلاقه وبالعام على عمومه حتى يريد نص يخصصه فإذا لم يرد نص يخصصه لا يجوز إخراج فرد من أفراد مدلوله إلا بدليل وإخراج فرد من أفراده بدون دليل تحكم وتهجم على كتاب الله تعالى وتخصيص له بالرأي دون دليل.

([16]٤) سورة القمر الآيات (٤٥ -٤٦).

([17]٥) أخرجه البخاري (٣٩٥٣) وفي تفسير ابن كثير (٢٦٦/٢) وأحمد (٣٢٩/١).

([18]٦) أخرجه البخاري (٩٤٩) ومسلم (٢٠٦٢).

وفي رواية عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: (كان الحبشة يرقصون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون بكلام لهم: محمد عبد صالح فقال صلى الله عليه وآله وسلم (ماذا يقولون؟) فقيل:يقولون : محمد عبد صالح)(١[19]).

قال ابن حجر العسقلاني عند شرحه: دونكم يا بني أرفدة: يقولون دونكم بالنصب على الظرفية بمعنى الإغراء والمغزى به محذوف وهو لعبهم بالحراب وفيه إذن وتنهيض لهم وتنشيط(٢[20]).

ونقل العلامة الكتاني بعد أن ذكر عددا من أحاديث رقص الحبشة قوله فيها دلالة على أنواع من الرقص:

الأول : اللعب ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب.

والثاني: قوله عليه الصلاة والسلام : «دونكم يا بني أرفدة» وهذا أمر باللعب والتماس له فكيف يقرر كونه حراما.

والرابع: منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أو وقت سرور.

والخامس: وقوفه طويلا في مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها(٣[21]).

وقال العلامة الكتاني أيضا : (وحيث لم ينههم بل أقرهم وأغراهم فهو ذكر قصد به التعبد والطاعة وإظهار الفرح بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلذلك اقرهم عليه الصلاة والسلام وعجب من فعلهم ونالوا غاية الرضى منه)(٤[22]).

ونقل العلامة الكتاني من قول القاضي عياض ما نصه (فيه أقوى دليل على إباحة الرقص إذ زاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إقرارهم أن أغراهم نقله المواق(٥[23]) في سنن المهتدين والونشر يسي(٦[24]) في المعيار وأقراه)(٧[25]).

([19]١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٢/٣) وابن حبان (٥٨٧٠) وإسناده صحيح.

([20]٢) فتح الباري (٤٤٤/٢).

([21]٣) التراتيب الإدارية (١٤٤/٢ و ١٤٥) وهو كلام الإمام الغزالي في الإحياء.

([22]٤) التراتيب الإدارية (١٤٣/٢).

([23]٥) المواق: هو محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرنباطي أبو عبدالله المواق فقيه مالكي وكان عالم غرناطة وإمامها وصالحها في وقته . توفي عام (٨٩٧هـ).

([24]٦) الونشر يسي هو أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني أبو العباس فقيه مالكي.

([25]٧) التراتيب الإدارية (١٤٣/٢).

٣- وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت(جاء حبش يزفنون في يوم عيد في المسجد فدعاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضعت رأسي على منكبيه انظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي انصرف عن النظر اليهم)([26]١).

قال النووي في شرح صحيح مسلم عند شرح: (جاء حبش يزفنون في يوم عيد في المسجد (هو بفتح الياء وإسكان الزاي وكسر الفاء ومعناه يرقصون وحمله العلماء على التواثب بسلاحهم ولعبهم بحرابهم على قريب من هيئة الراقص)([27]٢).

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى (والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط ولو كان حراما لما نظرت عائشة إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم يزفنون)([28]٣).

٤- عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق إلى مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال: «سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله ؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا»([29]٤)).

وفي رواية (يا رسول الله وما المفردون؟ قال« المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافا»([30]٥)).

(والمستهترون بصيغة اسم الفاعل: هم المولعون بالذكر المداومون عليه لا يبالون ما قيل فيهم ولا فعل بهم)([31]٦).

٥- وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله في كل أحيانه([32]١).

([26]١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٦٣).

([27]٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٤٨٦/٦) (٤٢٥ -٤٢٦).

([28]٣) إحياء علوم الدين (٣٠٤/٢).

([29]٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٧٤٩) وأحمد (٤١١/٢) (٣٢٣/٢) كما في صحيح ابن حبان (٨٥٨) والحاكم (٤٩٥/١) والبيهقي في شعب الإيمان (٣١٤/١) والطبراني في الأوسط (٢٧٩٤).

([30]٥) أخرجه الترمذي (٣٥٩٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧٥٩).

([31]٦) وقد يقول قائل: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والتابعين لم يفعلوا ذلك وعد فعلهم دليل على عدم جوازه والجواب على ذلك انه قد مر إثبات جواز ذلك بالكتاب والسنة قولا في حديث الحبشة لأنه عليه الصلاة والسلام أغرهم وقال (دونكم يا بني أرفدة) وفعلا في حديث عائشة: (كان يذكر الله على كل أحيانه) وإقرارا في حديث الحبشة وحجل سيدنا علي وجعفر وزيد ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة رضي الله عنهم كانوا منصرفين للجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الإسلام والفتوح و لم يكن وقتهم متسعا لفعل كل مفردات هذه الكليات فيكفي أنهم فعلوا بعضها وأقروا بعضها وجاء ذكر عمومها في القرآن الكريم.

٦- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال(أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون) وفي رواية (حتى يقال إنه مجنون)([33]٢) الشاهد فيه أن الذكر لله تعالى إن كان ساكنا لا موجب لقول الناس عنه مجنون لو لم ير بحالة وهيئة تدفع غيره من الغافلين إلى إلقاء تهمة الجنون عليه.

٧- عن سيدنا علي بن أ بي طالب رضي الله عنه : (اختصم علي وجعفر وزيد ابن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلي: أنت مني وأنا منك فحجل علي وقال لجعفر بن أبي طالب أشبهت خلقي وخلقي فحجل وقال لزيد بن حارثة أنت أخونا ومولانا فحجل زيد... الحديث)([34]٣).

قال العلامة الكتاني (والحجل بحاء فجيم فلام رقص على هيئة مخصوصة)([35]٤).

وقال ابن حجر العسقلاني عند شرح الحديث: (وحجل بفتح المهملة وكسر الجيم أي وقف على رجل واحدة وهو الرقص بهيئة مخصوصة)([36]٥).

وقال فقيه السادة الشافعية بمكة المكرمة العلامة أحمد زيني دحلان رحمه الله تعالى في كتابه المشهور في السيرة النبوية عند ذكره الحديث ما نصه (فرقص يعني جعفر – رضي الله عنه من لذة هذا الخطاب فلم ينكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم وجعل ذلك أصلا لرقص الصوفية عندما يجدون لذة المواجيد في مجالس الذكر والسماع)([37]٦).

٨- وروى أبو نعيم عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال: (كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكروا الله تمايلوا يمينا وشمالا كما تتمايل الشجرة بالريح العاصف إلى أمام ثم إلى وراء)([38]٧).

([32]١) مر تخريجه في الباب نفسه.

([33]٢) أخرجه أحمد (٦٨/٣) وابن حبان (٨١٧) والحاكم (٤٩٩/١) وصححه ووافقه الذهبي كما في كشف الخفاء (١٨٧/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧٦١) وأخرجه ابن عدي في الكامل (٩٨٠/٣) وابن السني (٤) وعبد بن حميد (٩٢٥).

([34]٣) أخرجه أحمد (١٠٨/١) و (٩٨/١).

([35]٤) التراتيب الإدارية (١٤٩/٢).

([36]٥) فتح الباري (٥٠٤/٧).

([37]٦) السيرة النبوية والآثار المحمدية لزيني دحلان على هامش السيرة الحلبية (٢٥٢/٢).

([38]٧) التراتيب الإدارية (١٤١/٢).

٩- وعن أبي أراكة يقول: صليت مع علي رضي الله عنه صلاة الفجر فلما انتقل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قدر رمح صلى ركعتين ثم قلب يده فقال: (والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم فما أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين أعينهم كأمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يتراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا اصبحوا فذكروا الله ما دوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت عيونهم حتى تبل ثيابهم..)([39]١).

أقوال العلماء في الحركة في الذكر:

- الإمام السيد الكبير أحمد الرفاعي قدس الله سره:

قال رضي الله عنه : القوم سمعوا وطابوا ولكنهم سمعوا أحسن القول فاتبعوه وسمعوا غير الحسن فاجتنبوه تحلقوا وفتحوا مجالس الذكر وتواجدوا وطابت نفوسهم وصعدت أرواحهم لاحت عليهم بوارق الإخلاص حالة ذكرهم وسماعهم وترى أن أحدهم كالغائب على حال الحاضر كالحاضر على حال الغائب يهتزون اهتزاز الأغصان التي تحركت بالوارد لا بنفسها يقولون لا إله إلا الله ولا تنشغل قلوبهم بسواه.

يقولون: هو وبه لا بغيره يتباهون إذا غناهم الحادي يسمعون منه التذكار فتعلوا همتهم في الأذكار.

ولك أن تقول يا أخي: الذكر عبادة فما الذي أوجب أن يذكر في حلقته كلام العاشقين وأسماء الصالحين؟

ولكن يقال لك: الصلاة أجل العبادات يتلى فيها كلام الله وفيه الوعد والوعيد ويقال في تحية الصلاة (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) ما أشرك المصلي ولا خرج عن بساط عبادته ولا عن حد عبوديته وكذلك الذاكر سمع الحادي يذكر اللقاء فطاب بطلب لقاء ربه.

(من أحب لقاء الله أحب الله لقاه)([40]٢).

([39]١) كذا في البداية والنهاية لابن كثير (٦/٨) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٧٦/١) وابن عساكر في الكتر (٢١٩/٨) كما في حياة الصحابة (٤٩/١).

([40]٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧) ومسلم (٦٧٦١) والترمذي (٢٣٠٧) والنسائي (١٨٣٧).

سمع الحادي يذكر الفراق فتأهب للموت وتفرغ من حب الدنيا: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)([41]١).

سمع الحادي يذكر الصالحين فتقرب بحب أحباب الله إلى الله هذه من الطرق إلى الله التي هي بعدد أنفاس الخلائق:

غنى بهم حادي الأحبة في الدجى	فأطار منهم أنفسا وقلوبا
فأراد مقطوع الجناح بثينة	وهمو أرادوا الواحد المطلوبا

سمى القوم الهز بالذكر رقصا!! إذا كان وارد الهزة من الروح فنسبه الرقص للروح لا للجسم وإلا فأين الراقصون؟ وأين الذاكرون؟

طلب هؤلاء حق وطلب هؤلاء ضلال؟

سارت مشرقة وسرت مغربا	شتان بين مشرق ومغرب

الراقصون كذابون والذاكرون مذكورون بين الملعون والمحبوب بون([42]٢) عظيم إذا دخلتم مجالس الذكر فراقبوا المذكور واسمعوا بأذن واعية.

وإذا ذكر الحادي أسماء الصالحين فألزموا أنفسكم اتباعهم لتكونوا معهم (المرء مع من أحب)([43]٣) أوجبوا عليكم التخلق بأخلاقهم خذوا عنهم الحال والوجد الحق الوجد الحق : وجدان الحق.

فها هو سيد الطائفة قد بين لنا صدق قصد الذاكرين حينما يهتزون في الذكر متبرئا بذلك من كل ما ينسب إليه والى أتباعه من الظنون الكاذبة والدعاوي الباطلة.

- الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى:

سئل الحافظ ابن حجر المجدث الكبير عن رقص الصوفية وهل له أصل وهل رقص أحد بحضرة الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه؟

قال: نعم ، إن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه رقص بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قال له : أشبهت خلقي وخلقي وذلك من لذة الخطاب ولم

([41]١) أخرجه البيهقي في الحدي والسبعين من الشعب ، بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلا وهو أبي نعيم في مكايد الشيطان له عن مالك بن دينار وقيل إنه من قول جندب البجلي.

([42]٢) البون: البعد (مختار).

([43]٣) رواه البخاري (٦١٦٨) ورواه مسلم (٢٦٤٠) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكره أبو داود (٥١٢٧) والترمذي (٣٥٣٥) بروايات مختلفة وزيادات عن أنس وأبي موسى وأبي ذر وصفوان بن عسال.

ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو في مصطلح الحديث إقرار والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يسكت عن حرام أو مكروه.

وأفتى بجواز الرقص عند سؤال أحد الحاضرين في مجلسه فقال: يجوز الرقص بدليل فعل الحبشة في المسجد بين يدي رسول الله صلى وكان رقصهم بالوثبات والوجد وإنشاد الشعر جائز بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصل هذه الطرائق من الكتاب والسنة الحاثين على كثرة ذكر الله والاجتماع على محبة الله أما سب المشايخ وتكفيرهم فكفر شرعا بلا خلاف(١[44]).

- الإمام خير الدين الرملي رحمه الله تعالى:

سئل العلامة خير الدين الرملي عما اعتاده الصوفية من حلق الذكر والجهر في المساجد ونشر القصائد وغير ذلك من عوائدهم فأجاب : إن الأمور بمقاصدها والأعمال بالنبيات(٢[45]).

- الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى:

جاء في الحاوي للفتاوى ما يلي : مسألة : في جماعة صوفية اجتمعوا في مجلس ذكر ثم إن شخصا من الجماعة قام في المجلس ذاكرا واستمر على ذلك الوارد الذي حصل له فهل له ذلك سواء باختيار أم لا؟ وهل لأحد منعه وزجره من ذلك؟

فالجواب: لا إنكار عليه في ذلك ، وقد سئل عن هذا السؤال بعينه شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني(٣[46]) فأجاب بأنه لا إنكار عليه في ذلك وليس لمانع التعدي بمنعه ويلزم المتعدي بذلك التعزير وسئل عنه العلامة برهان الدين الأنباسي فأجاب بمثل ذلك وزاد أن صاحب الحال مغلوب والمنكر محروم ما ذاق لذة التواجد ولا صفا له المشروب إلى أن قال في أخر جوابه: وبالجملة فالسلامة في تسليم حال القوم.

واجاب أيضا بمثل ذلك بعض أئمة الحنفية والمالكية كلهم كتبوا على هذا السؤال بالموافقة من غير مخالفة أقول وكيف ينكر الذكر قائما والقيام ذاكرا وقد قال الله تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾(٤[47]) وقالت عائشة رضي

([44]١) السيف القاطع للسيوطي والإلهامات الإلهية للشيخ محمود أبي الشامات.

([45]٢) حقيقة الصوفية ص (١٠٨ – ١٠٩).

([46]٣) هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكتاني العسقلاني الأصل ثم البلقيني المصري الشافعي أبو حفص سراج الدين،

([47]٤) سورة آل عمران الآية (١٩١).

الله عنها (كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله على كل أحيانه)([48]١) وإن انضم إلى هذا القيام رقص أو نحوه فلا إنكار عليهم فذلك من لذات الشهود أو المواجيد وقد ورد في الحديث رقص جعفر بن أبي طالب بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قال له (أشبهت خلقي وخلقي)([49]٢) وذلك من لذة هذا الخطاب ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان ذلك اصلا في رقص الصوفية لما يدركونه من لذات المواجيد وقد صح القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع عن جماعة من كبار الأئمة منهم شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام([50]٣) .

- العلامة ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى:

يقول الإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى (وكل حركة في العالم العلوي أو السفلي فأصلها المحبة...)

فلولا الحب ما دارت الأفلاك وتحركت الكواكب النبيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحب الحاملات ولا تحركت الكواكب النبيرات ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات ولا انصدع عن الحب أنواع النبات واضطربت أمواج البحار الزاخرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضون والسماوات وما فيها من المخلوقات([51]٤).

وقال أيضا: (والتكلف والتعامل في أوائل الطريق والسلوك لابد منه إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال ومن تأمله بنية حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لا يذم والتواجد يكون بما يتكلفه العبد من حركات ظاهرة)([52]٥).

- الإمام النووي رحمه الله تعالى:

ينص الإمام النووي عمدة المذهب الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه (منهاج الطالبين وعمدة المفتين) بعد أن ذكر عددا من المحرمات نفى منها الرقص فيقول ما نصه:

(لا الرقص إلا أن يكون فيه تكسر كفعل المخنث).

([48]١) تقدم تخريجه في هذا الباب (١٧٨).

([49]٢) تقدم تخريجه في هذا الباب (١٨٢).

([50]٣) الحاوي للفتاوى (١٢٨/٧).

([51]٤) الجواب الكافي لابن القيم الجوزية ص (٣٨).

([52]٥) مدارج السالكين للإمام ابن القيم الجوزية (٦٩/٣).

فيقول الرملي([53]١) في كتاب نهاية المحتاج في شرح المنهاج: (لا الرقص) فلا يحرم ولا يكره لأنه مجرد حركات على استقامة واعوجاج ولإقراره صلى الله عليه وآله وسلم الحبشة في مسجده يوم عيد.

ويقول عند قول النووي: (إلا أن يكون فيه تكسر([54]٢) كفعل المخنث بكسر النون وهذا أشهر وهو أفصح فيحرم على الرجال والنساء وهو من يتخلق بخلق النساء حركة وهيئة)([55]٣).

وقال النووي في الروضة (والرقص ليس بحرام)([56]٤).

وتجدر الإشارة إلى خطأ من وقف عند كلمة: تكسر وأغمض عينيه عما قبلها وبعدها وفسر بانثناء الركبة فلو كان انثناء الركبة محرما لذاته لحرم الرمل في الطواف والهرولة في السعي لأنه يتعذر على الإنسان المشي بدون ثني ركبة فكلمة تكسر استعملها الفقهاء لعدم وجود أي دليل يحرم الرقص مطلقا من كتاب الله أو السنة المطهرة وإنما علة التحريم هي التشبه بالمخنثين والعلة تدور مع المعلول وجودا أو عدما والفقهاء عرفوا المخنث بأنه من يتخلق بخلق ا لنساء حركة وهيئة كما ذكره الرملي في نهاية المحتاج.

غير أني لم أجد هذا المعنى المتعسف في أمهات اللغة العربية كلسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس وغيرها.

وجاء في المعجم الوسيط: (ويقال لان فيه تخنث وتكسر: تفكك ورأيته متكسرا فاترا) والقاعدة الأولية تقول: إذا تعارض معنى شرعي ومعنى لغوي قدم المعنى الشرعي ولذا فلا يلتفت إلى هذا الادعاء.

- الإمام العلامة محمد السفاريني الحنبلي:

(نقل إبراهيم بن عبدالله القلانسي أن الإمام أحمد رضي الله عنه قال عن الصوفية: لا أعلم أقواما أفضل منهم قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون قال دعوهم يفرحون مع الله

([53]١) شمس الدين الرملي (٩١٩ – ١٠٠٤هـ) محمد بن أحمد بن حمزة شمس الدين الرملي فقيه الديار المصرية في عصره ومرجعها في الفتوى يقال له : الشافعي الصغير ومولده ووفاته بالقاهرة ولي إفتاء الشافعية وجمع فتاوى أبيه وصنف شروحا وحواشي كثيرة.

([54]٢) يفسر التكسر بالتثني : وهو أن المراة من عادها إذا مشت في بيتها وامام زوجها أن تنثني يمينا ويسارا لأجل أن تلفت نظر زوجها اليها بحركاها كما تلفت نظره اليها بجمالها وبلباسها.

([55]٣) نهاية المحتاج في شرح المنهاج للرملي (٢٨٢/٨، ٢٨٣).

([56]٤) روضة الطالبين للإمام النووي (٢٢٩/١١).

ساعة، قيل: فمنهم من يموت ومنهم من يغش عليه فقال : وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ذكره العلامة في الفروع)([57]١).

- الإمام السيد أبو مدين رضي الله عنه :

يقول رحمه الله تعالى في بعض أبياته:

وقل للذي ينهى عن الوجد أهله	إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا	نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنى
أما تنظر الطير المقفص يا فتى	إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى
يفرج بالتغريد ما بفوائده	فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
كذلك أرواح المحبين يا فتى	تهزهزها الأشواق للعالم الأسنى
أنلزمها بالصبر وهي مشوقة	وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
فيا حادي العشاق قم واشد قائما	وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا

- الإمام الشيخ السنوسي رحمه الله تعالى:

قال الشيخ السنوسي في نصرة الفقير وغيره: (وقد تواتر النقل عن الصوفية قديما وحديثا شرقا وغربا أنهم كانوا يجتمعون لذكر الله ويقومون ويرقصون ولم يبلغنا عن أحد من العلماء المعتبرين([58]٢) أنه أنكر عليهم. وقد رأيت بفاس بزاوية الصقليين جماعة يذكرون ويرقصون من صلاة العصر يوم الجمعة إلى المغرب مع توفر العلماء فلم ينكر أحد عليهم وقد بلغني أن شيخنا شيخ الجماعة سيدي التاودي([59]٣) بن سودة كان يحضر معهم في بعض الأحيان)([60]٤).

- الإمام العلامة الكتاني رحمه الله تعالى:

يقول الإمام الكتاني رحمه الله تعالى في باب رقص الحبشة في المسجد النبوي أمامه عليه الصلاة والسلام ما نصه:

([57]١) غذاء الألباب لمحمد السفاريني (١٢٩/١).

([58]٢) بل لو استقرأنا تراجم العلماء منذ نشأة التصوف إلى الآن لوجدنا أكثرهم أو كلهم قد اتخذ مبدأ التصوف وعمل به والف فيه وكان من أئمته ولا يعتبر من شذ لعدم اطلاعه أو لعناده وجهله.

([59]٣) هو محمد بن الطالب بن علي بن سودة التاودي (١١١١ – ١٢٠٩هـ) المري الفاسي فقيه المالكية في عصره وشيخ الجماعة بفاس ذات شهرته بعد رحلة قام بها إلى مصر والحجاز.

([60]٤) الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية ص (٢٨٢ – ٢٨٣).

(وقال القاضي عياض[1][61]: فيه أقوى دليل على إباحة الرقص إذ زاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إقرارهم أن أغراهم) نقله المواق في سنن المهتدين والونشريسي في المعيار وأقراه.

وقال أيضا: (فإن الرقص الذي أثبته الصوفية ليس قصدهم منه اللهو وحاشاهم من قصد ذلك وإنما قصدهم به الاجتماع على الذكر والإقبال عليه بالقلب والقالب واستغراق الجوارح كلها فيه)[2][62].

- الإمام ابن ليون التجيبي[3][63] رحمه الله تعالى:

وقال ابن ليون التجيبي ما نصه : (وأما الرقص في المسجد ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (جاء حبش من الحبشة يزفنون يوم عيدهم في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضعت كفي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم) قال ابن عيينة فثبت أن الرقص في اصله مباح ولو كان حراما لذاته ما رقصوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[4][64].

- الإمام العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى:

قال العلامة المرحوم محمد أمين عابدين في حاشيته الشهيرة (رد المحتار على الدر المختار):

بعد كلام ما نصه : (وخلاصة ما أجاب به العلامة النحرير ابن كمال باشا بقوله:

ما في التواجد إن حققت من حرجٍ	ولا التمايل إن أخلصت من بأس
فقمت تسعى على رجل وحق لمن	دعاه مولاه أن يسعى على الراسِ

الرخصة فيما ذكر من الأوضاع عند الذكر والسماع للعارفين الصارفين أوقاتهم إلى أحسن الأعمال السالكين المالكين لضبط أنفسهم عن قبائح الأحوال فهم لا يستمعون إلا من الإله ولا يشتاقون إلا له إن ذكروه ناحوا وإن شكروه باحوا وإن وجدوه صاحوا وإن شهدوه استراحوا وإن سرحوا في حضرة قربه ساحوا إذا غلب عليهم الوجد بغلباته

([61]1) القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون الحصبي السبتي أبو الفضل عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته كان من أعلم النس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ولي قضاء سبته ومولده فيها ثم قضاء غرناطة وتوفي بمراكش عام (٥٤٤هـ).

([62]2) التراتيب الإدارية (١٤١/٢ و١٤٣).

([63]3) هو سعيد بن أحمد بن ليون التجيبي أبو عثمان فقيه مالكي من علماء الأندلس وأدبائها المتقدمين له اكثر من مئة مصنف توفي نحو عام (٧٥٠).

([64]4) الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية ص(٢٨٢).

وشربوا من موارد إراداته فمنهم من طرقته بوارق الهيبة فخر وذاب ومنهم من برقت له بوارق اللطف فتحرك وطاب ومنهم من طبع عليه الحب من مطلع القرب فسكر وغاب هذا ما عن لي في الجواب والله أعلم بالصواب([65]١).

وميز العلامة ابن عابدين في رسالته (شفاء العليل) بين الصوفية الصادقين السائرين على قدم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين الدخلاء المارقين وندد بالدخلاء على الصوفية واستعرض بدعهم ومنكراتهم في الذكر وحذر منهم ومن الاجتماع بهم ثم قال: (ولا كلام لنا مع الصدق من ساداتنا الصوفية المبرئين من كل خصلة ردية فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواما يتواجدون ويتمايلون ؟ فقال: دعوهم مع الله تعالى يفرحون... إلى ان قال: ولا كلام لنا مع من اقتدى بهم وذاق من مشربهم ووجد من نفسه الشوق والهيام في ذات الملك العلام بل كلامنا مع هؤلاء العوام الفسقة اللئام... ([66]٢).

- الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله تعالى:

قال الشيخ عبدالغني رحمه الله (حديث علي صريح بأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتحركون حركة شديدة في الذكر فثبت مطلقا إباحة الاهتزاز بهذا الأثر على ان الرجل غير مؤاخذ حين يتحرك ويقوم ويعقد على أي نوع كان حيث لم يأت بمعصية ولم يقصدها).

- الشيخ محمد سعيد البرهاني رحمه الله تعالى:

وقال العلامة المرحوم الشيخ محمد سعيد البرهاني في تعليقاته على الهدية العلائية: (ولا شك أن التواجد هو تكلف الوجد وإظهاره من غير أن يكون له وجد حقيقة ففيه تشبه بأهل الوجد الحقيقي وهو جائز بل مندوب شرعا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم (من تشبه بقوم فهو منهم)([67]٣). وإنما كان المتشبه بالقوم منهم لأن تشبهه بهم يدل على حبه إياهم ورضاه بأحوالهم وأفعالهم وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فله مثل عمله)([68]٤). وذكر النووي رحمه

([65]١) حاشية الدر المختار لابن عابدين (٣/٢٥٩).

([66]٢) مجموعة رسائل ابن عابدين – الرسالة السابقة- شفاء العليل وبل الغليل لخاتمة محققي الحنفية ابن عابدين رحمه الله تعالى ص (١٧٢ ، ١٧٣).

([67]٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٢٣).

([68]٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/٩٢٢).

الله تعالى أن في هذا الحديث فضل حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وحب الصالحين والأحياء والأموات إن لم تكونوا مثلهم فتشبهوا إن التشبه بالكرام فلاح... إلى أن قال: والحاصل أن تكلف الكمال من جملة الكمال والتشبه بالأولياء لمن لم يكن منهم امر مطلوب مرغوب فيه على كل حال)([69]١).

([69]١) هامش الهدية العلائية ص (٢٣٣ و ٢٣٤) باختصار.

الخلاصة

وبعد فهذه الأدلة المستوفية والقاطعة الملزمة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قولا وفعلا وتقريرا وأخبار الصحابة وأعمالهم رضي الله عنهم وأقوال السادة العلماء سلفا وخلفا كافية شافية لشرح الصدر بالحركة في الذكر هذا وبالإضافة إلى أن الأمر بالذكر مطلق يشمل جميع الأحوال فمن ذكر الله تعالى قائما أو قاعدا متحركا أو ساكنا ماشيا أو واقفا فقد قام بالمطلوب ومن المعلوم أن الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم من مشي تارة وركوب تارة أخرى ودعوة وغزوات والى غير ذلك من أعماله صلى الله عليه وآله وسلم كان يذكر الله فيها ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾([70]١).

والذي يدعي تحريم الحركة في الذكر أو كراهتها هو المطالب بالدليل لأنه يخصص بعض الحالات المطلقة دون غيرها بحكم خاص وعلى كل حال فإن الغاية من حلقات الذكر هي القيام بنوع من أنواع عبادة الله ألا وهي الذكر الذي استفاضت الأوامر الإلهية به وإن الحركة في ذلك ليست شرطا ولكنها وسيلة للنشاط في تلك العبادة وتشبها بأهل الصفاء والوجد مع خلوص النبية:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم	إن التشبه بالكرام فلاح

والحمد لله رب العالمين

تقبيل اليد

عن سيدنا صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه : أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله قال: لا تقل نبي فإنه إن يسمعك تقول له نبي كانت له أربع أعين – كناية عن شدة سروره لأن السرور يزيد في حدة البصر والله أعلم – فأتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألا عن قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾([1]٢) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا

([70]١) سورة الحشر الآية (٧).

([1]٢) سورة الإسراء الآية (١٠١).

تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان – وفي رواية بدون ذي– فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم اليهود خاصة ألا تعتدوا في السبة) فقبلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي قال (فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود)(١[2]).

وعن سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فحاص الناس حيصة(٢[3]) فكنت فيمن حاص،قال فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ قلنا: ندخل المدينة فنثبت فيها ونذهب ولا يرانا احد قال فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا قال فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرارون فأقبل الينا فقال: (لا بل أنتم العكارون(٣[4]) قال فدنونا فقبلنا يده فقال (أنا فئة المسلمين)(٤[5]).

وعن أم أبان بنت الوارع بن زراع عن جدها زراع رضي الله عنه وكان في وفد عبد القيس قال : لما قدمنا المدينة جعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورجله(٥[6]).

وعن ابن جدعان قال ثابت لأنس: أمسست النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيدك؟ قال: نعم فقبلها(٦[7]).

وعن سيدنا حبان بن واسع عن أشياخ من قومه رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدل الصفوف يوم بدر وفي يده قدح فمر بسواد بن غزية فطعن

(١[2]) أخرجه الترمذي (٣١٤٤) وأحمد (٢٣٩/٤) وابن ماجه (٢٧٠٥).

(٢[3]) يقال: حاص الرجل إذا حاد عن طريقه أو انصرف عن وجهه إلى جهة أخرى.

(٣[4]) العكارون: العائدون إلى القتال.

(٤[5]) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٢) والترمذي (١٧١٦) وقال حديث حسن وابن ماجه (٣٧٠٤) وأحمد (٢٣/٢) والحميدي (٦٨٧) والبيهقي (١٠١/٧) مختصرا وابن أبي شيبة (٥٣٦/١٢) وأبو يعلى (٥٥٩٧) وابن سعد (١٠٧/٢/٤) .

(٥[6]) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٥) وفي التاريخ الكبير (٤٤٧/٣) وفي خلق أفعال العباد (٢٨) وأبو داود (٥٢٢٥) والطبراني في الكبير (٥٣١٣) وأحمد (٧٠/٢) وحكم الحافظ في الفتح على الإسناد بأنه جيد (٥٧/١١) .

(٦[7]) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٩٧٤) وأحمد (١١١/٣).

في بطنه فقال أوجعتني فأقدني فكشف صلى الله عليه وآله وسلم فاعتنقه وقبل بطنه فدعا له بخير([8]١).

وعن سيدنا جابر رضي الله عنه أن سيدنا عمر رضي الله عنه قبَّل يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم([9]٢) .

وعن الشعبي : أن زيد بن ثابت رضي الله عنه صلى على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابها فقال زيد ابن ثابت رضي الله عنه خل عنك يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال سيدنا ابن عباس رضي الله عنه هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبَّل زيد بن ثابت يد عبدالله وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم([10]٣) .

وعن ثابت قال: كنت إذا أتيت أنسا رضي الله عنه يخبر بمكاني فأدخل عليه فآخذ بيديه فأقبلها فأقول : بأبي هاتين اليدين اللتين مستا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقبل عينيه وأقول: بأبي هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله([11]٤) .

وعن أبي مالك الأشجعي قال: قلت لابن أبي أوفى رضي الله عنه ناولني يدك التي بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فناولنيها فقبلتها([12]٥).

وعن سيدنا الوزاع بن عامر رضي الله عنه قال: قدمنا فقيل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذنا بيديه ورجليه نقبلها([13]٦).

وعن صهيب قال: رأيت عليا يقبِّل يد العباس ورجليه([14]٧).

وقال حيان أبو النصر: قال لي واثلة بن الأسقع : قدني إلى يزيد بن الأسود فإنه بلغني أنه ألم به أي مرض فقدته فلما دخل عليه قلت: إنه ثقيل قد وجه إلى القبلة

([8]١) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٧/٢ – ٤٨٨).

([9]٢) أخرجه الحافظ ابن المقرئ الأصبهاني في جزء تقبيل اليد مخطوط (١٦٦/ب).

([10]٣) أخرجه الحاكم (٥٨٠٨) وابن المقرئ في تقبيل اليد (مخطوط ١٦٦/ب).

([11]٤) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١١١/٢).

([12]٥) أخرجه الحافظ أبو بكر ن المقرئ الأصبهاني في جزء تقبيل اليد (مخطوط ١٦٦/ب).

([13]٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٥) .

([14]٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٦).

وذهب عقله – غاب من سكرات الموت – فقال: نادوه فقلت هذا أخوك واثلة فجعلتها في يده فجعل يقبل كفه ويضعها مرة على فؤاده ومرة على وجهه وعلى فيه.

وعن عبدالرحمن بن رزين قال: مررنا بالربذة فقيل لنا ههنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه فأتيته فسلمنا عليه فأخرج يده فقال: بايعت بهاتين نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخرج كفا له ضخمة كأنها كف بعير فقمنا اليها فقبلناها(١[15]).

وجاء في (فتح الباري) للعسقلاني: أن أبا لبابة وكعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم قبَّلوا يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين تاب الله عليهم(٢[16]) .

وقال ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) في فتح بيت المقدس على يد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ... فلما وصل عمر بن الخطاب إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء كخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فترجل أبو عبيدة وترجل عمر فأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر فهم عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة فكف أبو عبيدة فكف عمر(٣[17]).

من أقوال فقهاء المذاهب الأربعة

المذهب الشافعي: قال العلامة العسقلاني في كتابه (فتح الباري) قال الإمام النووي: تقبيل يد الرجل لزهده وصلاحه وعلمه أو شرفه أو نحو ذلك من الأمور الدينية لا يكره بل يستحب فإن كان لغناه أو شوكته أو جاهه عند أهل الدنيا فمكروه شديد الكراهة(٤[18]).

وقال العلامة البادوري في حاشيته" ... ويسن تقبيل اليد لصلاح ونحوه من الأمور الدينية كعلم وزهد ويكره ذلك لغني ونحوه من الأمور الدنيوية كشوكة ووجاهه(٥[19]).

المذهب الحنفي: قال العلامة ابن عابدين في حاشيته : ولا بأس بتقبيل يد الرجل العالم المتورع على سبيل التبرك وقيل : سنة قال الشرنبلاني: وعلمت أن مفاد الأحاديث سنيته أو ندبه كما أشار إليه العيني(٦[20]).

([15]١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٣).

([16]٢) فتح الباري (٤٨/١١).

([17]٣) البداية والنهاية (٥٥/٧).

([18]٤) فتح الباري (٤٨/١١).

([19]٥) حاشية الباجوري (١١٦/٢) .

([20]٦) حاشية ابن عابدين (٢٥٤/٥).

وقال العلامة الطحاوي في حاشيته: .. وفي غاية البيان عن الواقعات: تقبيل يد العالم أو السلطان العادل جائز وورد في أحاديث ذكرها البدر العيني.. ثم قال: فعلم من مجموع ما ذكرناه إباحة تقبيل اليد...([21]١) .

وقال العلامة الزيلعي في كتابه (تبيين الحقائق): ... وفي الجامع الصغير : ورخص الشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي وبعض المتأخرين تقبيل يد العالم أو المتورع على سبيل التبرك.. وقال سفيان الثوري: تقبيل يد العالم أو يد السلطان العادل سنة([22]٢).

المذهب الحنبلي: قال العلامة الاسفاريني في كتابه (غذاء الألباب) قال المروزي: سألت أبا عبدالله – الإمام أحمد بن حنبل– رحمه الله عن قبلة اليد ، فقال: إن كان على طريق التدين فلا بأس وإن كان على طريق الدنيا فلا.

وقال أيضا: وفي الآداب الكبرى: وتباح المعانقة وتقبيل اليد والرأس تدينا وتكرما واحتراما مع أمن الشهوة.

وقال أيضا: وقال الحافظ ابن الجوزي في مناقب أصحاب الحديث: ينبغي للطالب أن يبالغ في التواضع للعالم ويذل له، قال: ومن التواضع تقبيل يده وقبل سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض أحدهما يد الحسين بن علي الجعفي والآخر رجله.

وقال أيضا: وقال أبو المعالي في شرح الهداية: أما تقبيل يد العالم والكريم لرفده فجائز([23]٣) ، وقد علمت أن الصحابة قبلوا يد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند قدومهم من غزوة مؤتة([24]٤).

المذهب المالكي: قال العلامة العسقلاني في كتابه (فتح الباري) قال الإمام مالك: إن كانت على وجه التكبر والتعظيم فمكروهة وإن كانت([25]٥) على وجه القربة إلى الله لدينه أو لعلمه أو لشرفة فإن ذلك جائز([26]٦).

الأحاديث المعارضة للتقبيل والجواب عليها:

([21]١) حاشية الطحاوي (٢٠٩).

([22]٢) تبين الحقائق (٦/٢٥).

([23]٣) الرفد: بكسر الراء العطاء والصلة.

([24]٤) غذاء الألباب (١/٢٨٧).

([25]٥) أي قبلة يد الرجل.

([26]٦) فتح الباري (١١/٨٤).

هناك أحاديث تدل بظاهرها على النهي عن التقبيل وهي:

عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال لا قال: فأيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم([27]١).

وأخرج الطبراني وأبو يعلى وابن عدي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجلس إلى البزار فاشترى سراويل بأربعة دراهم وكان لأهل السوق وزّان فقال له صلى الله عليه وآله وسلم «زن وأرجح؟» فقال الوزان: إن هذه الكلمة ما سمعتها من أحد قال أبو هريرة فقلت له: كفى بك من الوهن والجفاء ألا تعرف نبيك فطرح الميزان ووثب إلى يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد تقبيلها فجذب يده منه وقال هذا إنما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم.

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعا: قبلة المسلم أخاه المصافحة([28]٢).

فالجواب على هذه الأحاديث أنها ضعيفة لا تصلح للمعارضة: أما الحديث الأول منها فقد نقل الحافظ العراقي تضعيفه في المغني عن أحمد والبيهقي.

وأما الحديث الثاني: فقد أورده ابن الجوزي في الوضوعات وعن الدارقطني أنه قال: في الإراد: الحمل فيه على يوسف بن زياد لأنه مشهور بالأباطيل ولم يروه عن الإفريقي([29]٣) غيره، وعن ابن حبان أنه قال في الإفريقي: يروي الموضوعات عن الأثبات([30]٤).

وأما الحديث الثالث: فقد قال ابن عدي عنه أنه غير محفوظ وأعله بأن عَمْراً روى عن عمه مناكير.

وبما أن الأحاديث السابقة لم يثبت منها حتى حديث واحد فلا حاجة للعناء في تأويلها.

وفيما ذكرناه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

([27]١) أخرجه الترمذي (٢٧٢٨).

([28]٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٦٠٩٠).

([29]٣) أحد رواة الحديث.

([30]٤) أي عن الثقات.

السيادة

ولنبدأ من الأدلة بذكر قول الله عز وجل مطلقا على سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام لفظ (سيد) حيث قال ﴿أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا﴾([1]١) أفيصح إطلاق لفظ [السيد] على سيدنا يحيى عليه الصلاة والسلام دون سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفضله عليه وعلى بقية الأنبياء وسائر المخلوقات معلوم من الدين بالضرورة؟!.

على أننا لو نظرنا إلى عموم الآيات لوجدناها داعية إلى احترامه وتقديره عليه الصلاة والسلام ومنها قوله جل جلاله: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾([2]٢) وهذا أمر منه جل جلاله ولئن لم يكن الأمر للوجوب فلا أقل من أن يكون للندب وما تسويده صلى الله عليه وآله وسلم إلا ضرب من أضرب احترامه وتقديره وقد قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاما لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقال قتادة: أمر الله تعالى أن يهاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأن يجل ويعظم وأن يسود (سيد) وقال مقاتل ومثله مالك عن زيد بن أسلم أمرهم أن يشرفوه([3]٣).

وأما ما ورد من الأحاديث فها هو صلى الله عليه وآله وسلم يطلق على نفسه لفظ السيادة في الدنيا وينبئ عن سيادته يوم القيامة بشكل ظاهر جلي لا يقبل التأويل ولا التبديل فيما ينقله عنه:

١- سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه قائلا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)([4]٤) وفي رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بزيادة: ولا فخر([5]٥).

([1]١) الآية (٣٩) من سورة آل عمران.

([2]٢) الآية (٦٣) من سورة النور.

([3]٣) تفسير ابن كثير ()ج٣/ص٣٠٦).

([4]٤) رواه الإمام مسلم (٥٨٩٩) وأبو داود (٤٦٧٣) وأحمد (٢/٥٤٠).

([5]٥) رواه الإمام أحمد (٣/٢) مطولا والترمذي (٣١٤٨) مختصرا وأخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨) .

وفي رواية للبيهقي : «أنا سيد العالمين».

وفي رواية عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : «أنا سيد الناس يوم القيامة»(١[6]).

٢- وعن سيدنا سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: مررنا بسيل فدخلت فاغتسلت فيه فخرجت محموما فنمي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا رقى إلا في نفس أو حمة أو لدغة)(٢[7]).

فقد ناداه سيدنا سهل بلفظ يا سيدي ولم ينكر عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا دليل الإقرار وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقر أصحابه على ما فيه مخالفة شرعية.

٣- هذا وقد صح إطلاقه صلى الله عليه وآله وسلم لفظ السيادة على عدد من أصحابه وأتباعه فمن ذلك ما روته سيدتنا عائشة رضي الله عنها في قصة مجيء سعد بن معاذ ليحكم في بني قريظة قالت: قال صلى الله عليه وآله وسلم : «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه...»(٣[8]).

قال الخطابي في شرح هذا الحديث: وفيه من العلم أن قول الرجل لصاحبه: يا سيدي غير محظور إذا كان خيرا فاضلا وإنما جاءت الكراهة في تسويد الرجل الفاجر.

وفي رواية عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (قوموا لسيدكم) من غير لفظة (أنزلوه)(٤[9]) وهذا القيام كان تعظيما لسيدنا سعد رضي الله عنه ولم يكن من أجل كونه مريضا وإلا قال: قوموا إلى مريضكم ولم يقل إلى سيدكم ولم يأمر الجميع بالقيام بل كان يأمر البعض.

٤- وعن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه قال:(رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه

(١[6]) رواه الإمام البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (٤٧٩) والترمذي (٢٤٣٤) وأحمد (٣٣١/٢) وابن ماجه (٢٣٠٧) وفي الشمائل (١٦٧) وابن أبي شيبة (٤٤٤/١١) وابن خزيمة في التوحيد ص (٢٤٢ - ٢٤٤) وابن حبان (٦٢٦٥) والبغوي (٤٣٣٢) والنسائي في الكبرى تحفة الأشراف (١٤٩٥٧/١٠).

(٢[7]) رواه الإمام أحمد (٤٨٦/٣) وأبو داود (٣٨٨٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٥٧) والحاكم (٤١٣/٤) وقال صحيح وأقره الذهبي.

(٣[8]) رواه الإمام أحمد بسند صحيح (٢٢/٣) والبخاري (٦٠٤٠.) وفي الأدب المفرد (٩٤٥) ومسلم (٤٥٧١) وأبو داود (٥٢١٥).

(٤[9]) رواه الإمام البخاري (٣٠٤٣) وأبو داود (٥٢١٥) وأحمد (٢٢/٣).

أخرى ويقول: إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين([10]١).

٥- وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالا([11]٢).

وقال سيدنا أبي بكر يوم البيعة: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ بيده وبايعه الناس([12]٣).

٦- وورد في صحيح مسلم أن السيدة أم الدرداء تقول: أخبرني سيدي أبو الدرداء أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجاب([13]٤).

٧- وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة([14]٥).

٨- وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين([15]٦).

٩- وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : الحليم سيد في الدنيا وسيد في الآخرة([16]٧).

١٠- وقال صلى الله عليه وآله وسلم للسيدة الكريمة فاطمة الزهراء رضي الله عنها : (أما ترضين أن تكوني سيدة نساء الجنة)([17]٨).

١١- قال المقبري: كنا مع أبي هريرة رضي الله عنه فجاء الحسن بن علي رضي الله عنها فسلم فرد عليه القوم ومضى ومعنا أبو هريرة لا يعلم فقيل له: هذا

([10]١) رواه الإمام البخاري (٣/٣١) والترمذي (٣٧٧٣).

([11]٢) رواه البخاري (٣/٣٢).

([12]٣) رواه البخاري (٣/١١).

([13]٤) رواه مسلم (١٥/٣٩).

([14]٥) رواه الترمذي (٣٧٦٨) وقال حديث حسن صحيح ورمز له السيوطي بالصحة.

([15]٦) رواه الترمذي (٣٦٦٤).

([16]٧) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٨٣١).

([17]٨) أخرجه الترمذي (٣٧٨١).

حسن بن علي يسلم فلحقه فقال : وعليك يا سيدي فقيل له: تقول : يا سيد؟ فقال: أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنه سيد)([18]١).

وحيث أطلق صلى الله عليه وآله وسلم لفظ السيد على السيدة فاطمة وعلى سيدنا سعد وسيدنا الحسن والحسين رضي الله عنها وسيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وعلى الحليم مطلقا فإطلاقنا إياها عليه صلى الله عليه وآله وسلم أحق وأولى.

ولما مر من الأدلة قال جمهور المتأخرين من علماء أهل السنة والجماعة بجواز إطلاق لفظ السيادة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل قال بعضهم: أنه مندوب وحيث لم يأت ما يخصص هذه الأدلة والنصوص أو تقيدها فإنها تبقى على عمومها وإطلاقها فتشمل جميع الأوقات من صلاة وغيرها.

وها هو الإمام الفقيه ابن عابدين رضي الله عنه يقول في حاشيته موافقة لصاحب الدر وابن ظهيرة والرملي الشافعي في شرحه على منهاج النووي وغيرهم من العلماء قال: والأفضل الإتيان بلفظ السيادة.

وورد في كتاب الأذكار للإمام النووي رحمه الله تعالى في صفحة (٤) وروينا عن السيد الجليل أبي علي الفضيل بن عياض رحمه الله قال: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

الشاهد: حقق هذا الكتاب وخرج أحاديثه عبدالقادر أرناؤوط: في أسفل ص ٤ رقم (٢) حيث يقول: (٢) فيه إطلاق السيد على غير الله تعالى وهو جائز وقيل بكراهته إذا كان بأل وهذا دليل على جواز إطلاق السيد على غير الله تعالى وهذا ما أقره الشيخ عبدالقادر أرناؤوط في كتاب الأذكار طبعة ١٩٧١ دار الملاح.

ويستحب أن يقول المصلي في التشهد وفي الصلاة الإبراهيمية (سيدنا) قبل ذكر اسم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونقول في الصلاة الإبراهيمية لفظ /سيدنا/ ذلك: لأن السنة لا تؤخذ من فعله صلى الله عليه وآله وسلم فقط بل تؤخذ أيضا من قوله وقد ثبتت السيادة بأحاديث كثيرة من سنة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد ناداه الصحابي الجليل ابن مسعود في صيغة الصلاة حيث قال: (إذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل

([18]١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٩٦) ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد (١٥٠٤٩).

ذلك يعرض عليه قال: فقالوا له: فعلمنا قال، قولوا : اللهم اجعل صلاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك ...) الخ([١][19]).

واستدل به على جواز إحداث ذكر في الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور.

وقد جاء في الدر المختار ورد المحتار ما ملخصه : وندب السيادة لأن زيادة الإخبار الواقع هو عين سلوك الأدب فهو افضل من تركه ذكره الرملي الشافعي أي في شرحه على منهاج النووي وذكر ذلك غيره أيضا أهـ.

وزيادة لفظ (سيدنا) فيها تأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم والله تعالى يقول: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾([٢][20]).

والتعزير: التوقير والتعظيم([٣][21]).

فإثباتها مع ورودها في السنة موافق للقرآن الكريم واستدل قوم على ذلك أيضا بأن التأدب خير من الامتثال وهو استدلال حسن ودلائله من السنة ثابتة في البخاري ومسلم من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا علي (امح رسول الله) قال سيدنا علي لا والله لا أمحوك أبدا([٤][22]).

ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : «ما منعك أن تثبت إذ أمرتك قال: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»([٥][23]).

وما يتناقله الناس من قولهم (لا تسيدوني في الصلاة) فهو موضوع مكذوب مفترى وليس بحديث قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة لا أصل له.

وهو لحن أيضا لأنه واوي العين من ساد يسود([٦][24])، فالأصح أن تقول (تسودوني).

([19][١]) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٩٣/١).

([20][٢]) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

([21][٣]) مختار الصحاح مادة (ع ز ر).

([22][٤]) أخرجه البخاري (٤٩٩/٧) ومسلم (١٤٠٩/٣).

([23][٥]) أخرجه البخاري (١٦٧/٢فتح) ومسلم (٣١٦/١).

([24][٦]) المقاصد الحسنة (ص٤٦٣ برقم ١٢٩٢).

وفي هذا القدر كفاية لمن يقبل الدليل والحمد لله رب العالمين.

القيام

- أدلة القيام:

أ- من القرآن الكريم : قال تعالى ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾([1]١).

وقال أيضا: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾([2]٢).

فإذا كان تعظيم شعائر الله – وهي البدن المهداة للبيت المعظم- من التقوى وكمال الإيمان، فالأولى تعظيم المؤمن الذي هو أفضل من الحرم ، بل أفضل من الكعبة قال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبا الكعبة: «ما أعظمك وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك»([3]٣).

ومن وجوه تعظيم المؤمن القيام له.

ب- من السنة الشريفة:

عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد هو ابن معاذ بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان قريبا منه فجاء على حمار فلما دنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قوموا لسيدكم) وفي رواية قوموا إلى خيركم أو إلى سيدكم، قال: (إن هؤلاء نزلوا على حكمك) قال فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبي الذرية قال: (لقد حكمت فيهم بحكم الملك)([4]٤).

وعن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه في حديث تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك قال فيه بعد كلام طويل: (... وانطلقت أتأمم رسول

([1]١) سورة الحجر الآية(٨٨).

([2]٢) سورة الحج الآية (٣٢).

([3]٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢).

([4]٤) أخرجه البخاري (٣٠٢٣) وفي الأدب المفرد (٩٤٥) ومسلم (٤٥٧١) وأبو داود (٥٢١٥) وأحمد (٢٣/٣) وعبد بن حميد (٩٩٥) والطبراني في الكبر (٥٣٢٣) وأبو يعلى (١١٨٨ والبيهقي (٥٧/٦ – ٥٨)) وابن حبان (٧٠٢٦) وابن سعد (٤٢٤/٣) والبغوي (٢٧١٨) وأبو نعيم (١٧١/٣) .

الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلقاني الناس فوجا فوجا يهنؤوني بالتوبة ويقولون لي : لتهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني..)([5]١).

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحدا كان اشبه سمتا وهديا ودلا وقال الحسن حديثا وكلاما (ولم يذكر الحسن السمت والهدي والدل) برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فاطمة كرم الله وجهها: كانت إذا دخلت عليه قام اليها فأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه وكان إذا دخل عليها قامت إليه فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها([6]٢).

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي فقرع الباب فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عريانا([7]٣) يجر ثوبه فاعتنقه وقبله)([8]٤).

وأخرج مالك في قصة سيدنا عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنه لما فر إلى اليمن يوم الفتح ورحلت امرأته إليه حتى أعادته إلى مكة مسلما فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وثب إليه ورمى عليه رداءه.

وفي قصة سيدنا جعفر لما قدم من الحبشة قام له النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبل عينيه والتزمه وقال: «ما أدري بأيهما أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ». (سيرة ابن هشام ص ١٥٩).وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه قال: (حدثتني أمي أم الفضل أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى العباس قادما فقام إليه وقبل ما بين عينيه وأقامه عن يمينه ثم قال: (هذا عمي فمن شاء فليباه بعمه)([9]٥).

([5]١) أخرجه البخاري(٤٤١٨) ومسلم (٦٩٤٧) وأبو داود (٢٢٠٢) مختصرا ، والسنائي (٢٤٢٣) مختصار وأحمد (٤٥٦/٣) والأدب المفرد (٩٤٤) والروايات مطولة ومختصرة.

([6]٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٤٧) وأبو داود (٥٢١٧) والترمذي (٣٨٧٢) في عشرة النساء (٣٥٥) والبيهقي (١٠١/٧) والطبراني في الكبير (٢٢/ برقم ١٠٣٨) مختصرا وابن حبان (٦٩٥٣) والحاكم (٢٧٢/٤ - ٢٧٣) وصححه ووافقه الذهبي.

([7]٣) عريانا: من غير ما بين السرة والركبة.

([8]٤) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢).

([9]٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٢/٩).

وعن سيدنا عمر بن السائب أنه بلغه : (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جالسا فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ثم اقبل أخوه من الرضاعة فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجلسه بين يديه)([10]١).

وعن سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنها أنه كان في سرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص فلما نفرنا قلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟! فقلنا : ندخل المدينة فنثبت فيها لنذهب ولا يرانا أحد قال: فلما دخلنا المدينة قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن كان لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا قال: فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل صلاة الغداة فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون فأقبل علينا وقال: لا ، بل أنتم العكارون([11]٢) قال فدنونا فقبلنا يده فقال: أنا فئة المسلمين)([12]٣).

وروي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه إنه إذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدثهم فقام قاموا حتى يرى أنه دخل إلى بعض أزواجه.

وهذا الأثر يدل على القيام عند الانصراف أما ما سبقه من أحاديث فإنها تدل على القيام عند القدوم.

جـ- من أقوال العلماء:

١- من أقوال شُرَّاح الحديث وأصحاب السير:

قال البدر العيني في (عمدة القاري) عند شرحه لحديث أبي سعيد (قوموا لسيدكم)([13]٤) وقال الخطابي في حديث الباب (قوموا لسيدكم) جواز إطلاق السيد على الحبر الفاضل وفيه أن قيام المرؤوس للرئيس الفاضل والإمام العادل والمتعلم

([10]١) أخرجه أبو داود (٥١٤٥) مرسلا ويجوز الاحتجاج بالمرسل عن أكثر الفقهاء.

([11]٢) العكارون: مفردها عكار: وهو الذي يفر إلى إمامه لينصره ليس يريد الفرار من الزحف.

([12]٣) أخرجه الباري في الدب المفرد (٩٧٢) والترمذي (١٧١٦) وقال حديث حسن وابن ماجه (٣٧٠٤) وأحمد (٢٣/٢) والحميدي (٦٨٧) والبهقي (١٠١/٧) مختصرا وابن أبي شيبة (٥٣٦/١٢) وابو يعلى (٥٥٩٧) وابن سعد (١٠٧/٢/٤).

([13]٤) أخرجه البخاري (٣٠٤٣) وفي الأدب المفرد (٩٤٥) وأبو داود (٥٢١٥) ومسلم (٤٥٧١) وابن حبان (٧٠٢٦) وعبد بن حميد (٩٩٥) والطبراني في الكبير (٥٣٢٣) وأبو يعلى (١١٨٨) والبيهقي (٥٧/٦ - ٥٨).

للعالم مستحب وإنما يكره لمن كان بغير هذه الصفات.وعن أبي الوليد بن رشد أن القيام على أربعة أوجه:

- الأول: محظور وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرا وتعاظما على القائمين إليه.
- والثاني: مكروه ، وهو ما يقع لمن لا يتكبر ولا يتعاظم على القائمين ولكن يخشى أن يدخل نفسه شيء بسبب ما يحذره ولما فيه من التشبه بالجبابرة.
- والثالث: جائز وهو أن يقع على سبب البر والإكرام لمن لا يريد ذلك ويؤمن معه التشبه بالجبابرة.
- والرابع: مندوب وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحا بقدومه ليسلم عليه أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها ، أو مصيبة فيعزيه بها... .

وقال البيهقي: القيام على وجه البر والإكرام جائز كقيام الأنصار لسعد وطلحة لكعب ولا ينبغي لمن يقام له أن يعتقد استحقاقه لذلك حتى إن ترك القيام له حنق([14]١) عليه أو عاتبه أو شكاه([15]٢).

وقال المناوي في كتابه (فيض القدير) في شرح الحديث السابق (قوموا) خطابا للأنصار ولجميع من حضر منهم ومن المهاجرين (إلى سيدكم) سعد بن معاذ القادم عليكم لما له من الشرف المقتضي للتعظيم وقيل معناه: قوموا لإعانته في النزول عن الدابة لما به من الجرح الذي أصاب أكحله يوم الأحزاب وأيده التوربشتي بأنه لو أراد تعظيمه لقال: قوموا لسيدكم ورد الطيبي بأن (إلى)في هذا المقام أفخم من اللام كأن قيل: قوموا إليه تلقيا وإكراما ويدل له ترتب الحكم على الوصف المناسب المشعر بالعلية فإن قوله (إلى سيدكم) علة للقيام له وفيه ندب وإكرام أهل الفضل من عالم او صالح أو ذي شرف بالقيام لهم إذا أقبلوا والتنبيه على شرف ذوي الشرف والتعريف بأقدارهم وتنزيلهم منازلهم . وقد قام المصطفى لعكرمة بن أبي جهل لكونه من رؤساء قريش ولعدي بن حاتم لكونه سيد بني طيء يتألفهما به. أهـ كلام المناوي([16]٣).

([14]١) حنق: اغتاظ، والحنق الغيظ وجمعها حناق- كجبل وجبال- .

([15]٢) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للبدر العيني ص (٤٩٣ - ٤٩٤).

([16]٣) فيض القدير(٤/٥٣٠).

وقال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي تعليقا على هذا الحديث: وقد استدل عامة العلماء بهذا الحديث وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام اليهم في المناسبات الداعية إلى ذلك عرفا يقول الإمام النووي في تعليق على هذا الحديث فيه إكرام أهل الفضل وتلقيهم بالقيام قال القاضي: (وليس هذا من القيام المنهي عنه وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قياما طول جلوسه(١[17]).

قلت: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب وقد جاء فيه أحاديث ولم يصح في النهي عنه شيء صريح(٢[18]).

وقال العلامة السفاريني في كتابه: (غذاء الألباب) ... (وفي مسند الإمام احمد رضي الله عنه : (قوموا إلى سيدكم فأنزلوه) لكن ينصر كون الآمر للقيام له آخر الخبر: وكان رجال بني الأشهل يقولون:قمنا له على أرجلنا صفين يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في السيرة الشامية)(٣[19]).

وقد ذكر هذا الخبر العلامة علي بن برهان الدين الحلبي في كتابه السيرة الحلبية(٤[20]).

كما ذكره أيضا مفتي السادة الشافعية بمكة المشرفة العلامة أحمد زيني دحلان في كتابه السيرة النبوية والآثار المحمدية(٥[21]) .

٢- من أقوال السلف الصالح:

عن سيدنا حماد بن زيد رضي الله عنه قال: كنا عند أيوب فجاء يونس فقال حماد : قوموا لسيدكم أو لسيدنا(٦[22]).

وعن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه أتاه أبو إبراهيم الزهري فسلم عليه فلما رآه أحمد وثب قائما وأكرمه فلما مضى قال له ابنه عبدالله : يا أبت ! أبو إبراهيم

([17]١) وليس هذا على إطلاقه أيضا وسيأتي التنويه عليه في قصة يحيى بن سعيد القطان.

([18]٢) فقه السيرة النبوية للدكتور البوطي ص (٣٣٣).

([19]٣) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب للعلامة السفاريني الحنبلي (٢٧٦/١).

([20]٤) السيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي (٣٢٩/٢).

([21]٥) السيرة النبوية والآثار المحمدية (١٣١/٢).

([22]٦) الترخيص بالقيام ص (١٣- ٣٠).

شاب وتقوم إليه؟! فقال: يا بني لا تعارض في مثل هذا ألا أقوم إلى ابن عبدالرحمن بن عوف؟!

وقال الإمام أبو عبدالرحمن السلمي في كتابه (آداب الصحابة) ويقوم لإخوانه إذا أبصرهم مقبلين ولا يقعد إلا بقعودهم وأنشد:

فلما بصرنا به مقبلا	حللنا الحبا وابتدرنا القيام
فلا تنكرن قيامي له	فإن الكريم يجل الكرام

وقد أنشد أبو موسى الأصبهاني لبعضهم:

قيامي والعزيز اليك حق	وترك الحق مالا يستقيم
فهل أحد له عقل ولب	ومعرفة يراك ولا يقوم؟!

وقال الشيخ عبدالباسط العلموني رحمه الله تعالى في كتابه (المعيد في أدب المفيد والمستفيد) : (... وروي أن يحيى بن سعيد القطان كان يصلي العصر، ثم استند إلى أصل منارة المسجد فوقف بين يديه علي بن المديني والشاذكوني وعمرو بن علي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهم يسألونه عن الحديث وهم قيام على أرجلهم إلى أن تحين صلاة المغرب لا يقول لواحد منهم اجلس ولا يجلسون هيبة له وإعظاما قلت: وهذا القيام بين يديه لله لا له ، وإنما لما خصه الله من العلم... فلا يدخل في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار»([23]١) لأنه لا يحب ذلك لنفسه وإنما للسر المودع فيه من العلم ولتهذيب أخلاق الطلبة وصونهم عن التكبر وتخلقهم بالتواضع والله أعلم.

ثم ذكر آداب المتعلم مع شيخه فقال: (... ومنها: أن يقوم بقيام الشيخ ولا يجلس وهو قائم ولا يضطجع وهو قائم أو قاعد بل لا يضطجع بحضرته مطلقا إلا أن يكون وقت نوم ويأذن له ويقوم له كلما ورد عليه ولو تكرر لزيادة التوقير والإعظام والاحترام)([24]٢).

٣- من أقوال فقهاء المذاهب الأربعة:

([23]١) أخرجه أحمد (٩١/٤) وعبد بن حميد (٤١٣) والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٧) وأبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٥٥).

([24]٢) المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص (٦٣ – ٦٥).

المذهب الشافعي: قال العلامة الشربيني في كتابه: (مغني المحتاج) ويسن القيام لأهل الفضل من علم وصلاح أو شرف أو نحو ذلك ولا رياء وتفخيما قال في الروضة: وقد ثبتت فيه أحاديث صحيحة(١[25]).

وقال العلامة الباجوري في حاشيته: ويسن القيام لأهل الفضل إكراما لا رياء وتفخيما بخلاف غير أهل الفضل فلا يطلب القيام لهم إلا لحاجة أو ضرورة وخرج بالقيام نحو الركوع بين يدي الأمراء فهو حرام ولو مع الطهارة واستقبال القبلة كما قال العلامة ابن حجر. وقال الإمام الغزالي الشافعي رحمه الله : القيام مكروه على سبيل الإعظام إلا على وجه الإكرام(٢[26]).

المذهب الحنفي: قال العلامة ابن عابدين في حاشيته: (وفي الوهبانية يجوز، بل يندب القيام تعظيما للقادم كما يجوز القيام ولو للقارئ بين يدي العالم (قال في القنية: قيام الجالس في المسجد لمن دخل عليه تعظيما وقيام قارئ القرآن لمن جيء تعظيما لا يكره إذا كان ممن يستحق التعظيم) وفي مشكل الآثار (القيام لغيره ليس بمكروه لعينه إنما المكروه محبة القيام لمن يقام له فإن قام لمن لا يقام له لا يكره قال ابن وهبان: أقول : وفي عصرنا ينبغي أن يستحب ذلك – أي القيام– لما يورث تركه من الحقد والبغضاء والعداوة ولاسيما إذا كان في مكان اعتيد فيه القيام. وما ورد من التوعد عليه، في حق من يحب القيام بين يديه كما يفعله الترك والأعاجم)(٣[27]).

المذهب المالكي: قال القرافي في كتابه (الفروق) : (اعلم أن الذي يباح من إكرام الناس قسمان:

القسم الأول: ما وردت به النصوص الشرعية من إفشاء السلام وإطعام الطعام ، وتشميت العاطس والمصافحة عند اللقاء...).

القسم الثاني: ما لم يرد في النصوص ولا كان في السلف لأنه لم تكن أسباب اعتباره موجودة حينئذ وتجددت في عصرنا فتعين فعله لتجدد أسبابه لأنه شرع مستأنف وتأخر الحكم لتأخر سببه، ووقوعه عند وقوع سببه لا يقتضي تجديد شرع...

(١[25]) مغني المحتاج (٣/١٣٥) .

(٢[26]) حاشية الباجوري (٢/١١٦).

(٣[27]) حاشية ابن عابدين (٥/٢٥٤).

وهذا القسم هو ما في زماننا من القيام للداخل من الأعيان وإحناء الرأس له.. وهو جائز مأمور به مع كونه بدعة: ولقد حضرت يوما عند الشيخ عز الدين بن عبدالسلام وكان من اعيان العلماء وأولي الجد في الدين والقيام بمصالح المسلمين خاصة وعامة والثبات على الكتاب والسنة لا تأخذه في الله لومة لائم فقدمت إليه فتيا فيها: ما تقول أئمة الدين وفقهم الله في القيام الذي أحدثه أهل زماننا مع أنه لم يكن في السلف هل يجوز أم لا يجوز أو يحرم؟ فكتب إليه في الفتيا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا»([28]١)، وترك القيام في هذا الوقت يفضي للمقاطعة والمدابرة فلو قيل بوجوبه ما كان بعيدا([29]٢).

المذهب الحنبلي: قال ابن قدامة المقدسي الحنبلي في كتابه (مختصر منهاج القاصدين) والقيام على ضربين:

١- قيام على رأسه وهو قاعد فهذا منهي عنه قال صلى الله عليه وآله وسلم «من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار»([30]٣). وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

٢- قيام عند مجيء الإنسان فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك . وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل وفضلاء الناس وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته والتقصير في حقه فيوجب هذا حقدا واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك ويرى أنه ليس بأهل لذلك([31]٤).

- أقوال العلماء في أحاديث النهي عن القيام:

([28]١) أخرجه البخاري (٥٧١٨) ومسلم (٢٥٥٩) والترمذي (١٩٣٥).

([29]٢) الفروق للقرافي (٢/٢٥٠، ٢٥١).

([30]٣) تقدم تخريجه ص (٢١٠).

([31]٤) مختصر منهاج القاصدين ص (٢٥١ - ٢٥٢).

هناك بعض الأحاديث التي تدل على النهي عن القيام منها: حديث سيدنا أنس رضي الله عنه قال: (لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك)(١[32]).

وحديث سيدنا معاوية رضي الله عنه : من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار(٢[33]).

وحديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متوكئا على عصا فقمنا إليه فقال: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا»(٣[34]).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : بعد أن أورد هذه الأحاديث في كتابه (الترخيص بالقيام): (أما الحديث الأول: وهو أقرب ما يحتج به للنهي فالجواب عنه من وجهين:

الجواب الأول: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاف عليهم وعلى من بعدهم الفتنة بإفراطهم في تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الآخر «لا تطروني(٤[35]) كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم»(٥[36]) فكره صلى الله عليه وآله وسلم قيامهم له لهذا المعنى ولم يكره قيام بعضهم لبعض بل قام صلى الله عليه وآله وسلم لبعضهم وقاموا لغيره بحضرته ولم ينههم عن ذلك بل أقره وأمر به في حديث القيام لسعد.

([32]١) أخرجه الترمذي (٢٧٥٤) وقال حسن صحيح غريب والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦).

([33]٢) تقدم تخريجه ص (٢١٠).

([34]٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠).

([35]٤) من الإطراء: وهو المدح والمقصود مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه ، وإطراء الصالحين وصفهم بما يصرفهم عن بشريتهم إلى ما فوق البشرية.

([36]٥) أخرجه البخاري (٣٤٣٥) وأحمد (٢٣/١) والدارمي (٢٦٨٢) وابن حبان (٦٢٣٩) وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاف ان يصل بالأمة من تعظيمهم لنبيهم ما وصل إليه النصارى من العبادة لعيسى عليه السلام ورحم الله البوصيري إذ يقول:

دع ما دعته النصارى في نبيهم	واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

الجواب الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان بينه وبين أصحابه من الأنس وكمال المودة والصفاء مالا يحتمل زيادة الإكرام فلم يكن بالقيام مقصود بخلاف غيره. أهـ([37]١)

وقال الشيخ منصور علي ناصيف في كتابه (التاج): وحديث أنس يمكن تأويله بأن هذا كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم زيادة في التواضع وخوفا على الأمة من زيادة تعظيمه فربما جرهم إلى ما وقع فيه بعض اليهود والنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾([38]٢).

وربما جرهم إلى عمل الأعاجم من السجود لرؤسائهم .. بل قال الجمهور : إن القيام لأهل الفضل مستحب للحديثين الأولين: حديث القيام لسعد وحديث القيام لفاطمة وعمل السف والخلف على القيام من غير نكير وهذا هو الحق([39]٣).

وقال الإمام الباجوري رحمه الله تعالى في كتابه (المواهب اللدنية) : لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك وإنما كرهه تواضع او شفقة عليهم وخوفا عليهم من الفتنة إذا أفرطوا في تعظيمه وكان لا يكره قيام بعضهم لبعض ولذلك قال: (قوموا لسيدكم) يعني سعد بن معاذ سيد الأوس فأمرهم بفعله لأنه حق لغيره فوفاه حقه وكره قيامه له لأنه حقه فتركه تواضعا... وقد قام صلى الله عليه وآله وسلم لعكرمة بن أبي جهل لما قدم عليه وكان يقوم لعدي بن حاتم كلما دخل عليه كما جاء ذلك في حديثين وهما وإن كانا ضعيفين يعمل بهما في الفضائل فزعم سقوط الاستدلال بهما وهم وقد ورد أنهم قاموا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيناقض ما هنا. إلا أن يقال في التوفيق أنهم إذ رأوه من بعد غير قاصد لهم لم يقوموا له، أو أنه إذا تكرر قيامه وعوده اليهم لم يقوموا فلا ينافي أنه إذا قدم عليهم أولا قاموا وإذا انصرف عنهم قاموا([40]٤).

وقال الإمام النووي معلقا على الحديث الثاني من الأحاديث الثلاثة السابقة : (وأما الحديث الثاني فقد أولع أكثر الناس بالاحتجاج به والجواب عنه من أوجه: الأصح

([37]١) الترخيص بالقيام للنووي ص (٢٤ – ٢٩).

([38]٢) سورة التوبة الآية (٣٠).

([39]٣) التاج (٥/٢٧٠ –٢٧١).

([40]٤) المواهب اللدنية للباجوري ص (١٥٣).

والأولى والأحسن بل الذي لا حاجة إلى ما سواه أنه ليس فيه دلالة وذلك أن معناه الصريح الظاهر منها الزجر الأكيد والوعيد الشديد للإنسان أن يحب قيام الناس له وليس فيه تعرض للقيام بنهي ولا غيره وهذا متفق عليه وهو أنه لا يحل للآتي أن يحب قيام الناس له والمنهي عنه هو محبته للقيام ولا يشترط كراهته لذلك وخطور ذلك بباله حتى إذا لم يخطر بباله ذلك فقاموا له أو لم يقوموا فلا ذم عليه وإذا كان معنى الحديث ما ذكرناه فمحبة أن يقام له محرمة فإذا أحب فقد ارتكب التحريم سواء قيم له أو لم يقم فمدار التحريم على المحبة ولا تأثير لقيام القائم ولا نهي في حقه بحال فلا يصح الاحتجاج بهذا الحديث.

فإن قال من لا تحقيق عنده: إن قيام القائم سبب لوقوع هذا في المنهي عنه قلنا: هذا سؤال فاسد لا يستحق سائله جوابا... عن أحمد بن المفلس قال: قال أبو نصر بشر بن الحارث وقد ذكرت بين يديه حديث(لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذالك)([1][41]).

فقال: الحديث إنما كره القيام على طريق الكبر وأما على طريق المودة فلا وقد قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عكرمة بن أبي جهل وألقى ثوبه لظئره وقال قوموا إلى سيدكم وقال صلى الله عليه وآله وسلم «من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار»([2][42]) من أحب أن تقوم له فلا تقم له... وأما أبو موسى الأصبهاني فقال: معنى الحديث أن يقوم الرجال على رأسه وهو قاعد كما يقام بين يدي الملوك أو أن يأمرهم بذلك ويلزمهم إياه على مذهب الكبر والنخوة([3][43]).

وقال ابن بطال رحمه الله تعالى : وأجاب عنه الطبري بأن هذا الخبير إنما فيه نهي من يقوم له إكراما له وأجاب عنه ابن قتيبة بأن معناه من أراد أن يقوم الرجال على

([1][41]) تقدم تخريجه ص (٢١٢).

([2][42]) تقدم تخريجه ص (٢١٠).

([3][43]) الترخيص بالقيام ص (٢٤- ٢٩).

رأسه كما يقام بين ملوك الأعاجم وليس المراد به نهي الرجل عن القيام لأخيه إذا سلم عليه([44]١).

وقال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى في كتابه (فقه السيرة النبوية) بعد أن أورد أدلة القيام معلقا على هذا الحديث: (... واعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار) لأن مشروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته قبل من أبرز صفات الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زهادا في طلب هذا الشيء أرأيت إلى الفقير المحتاج؟ إن الأدب الإسلامي يوصيه ويعلمه الترفع عن المسألة وإظهار الفاقة والحاجة للناس ولكن هذا الأدب الإسلامي نفسه يوصي الأغنياء بالبحث عن هؤلاء الفقراء المتعففين ويأمرهم بإكرامهم وإعطائهم من فضول أموالهم فلكل أحب وظيفة ولا ينبغي أن نخلط بينهما أو ننسخ الواحد بالآخر فإن ذلك من أسوأ مظاهر التسرع والجهل)([45]٢).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في الحديث الثالث: (وأما الحديث الثالث: فالجواب عنه من وجهين ظاهرين حسنين: أحدهما : جواب الإمامين أبي بكر بن أبي عاصم وأبي موسى الأصبهاني أنه حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به.

والثاني: أن الحديث في نفسه بين المقصود منه ومن غيره وهو أن الذم لمن قام على طريق التعظيم كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا وهذا لاشك في ذمه والله أعلم([46]٣).

ومن خلال أقوال العلماء والمحدثين في تفسير الأحاديث السابقة نرى أن المنهي عنه هو حب القيام لما يورث من الكبر البغيض والأمر بالقيام – عدا أمر المعلم تلاميذه والوالد أولاده للتعليم والتربية والتهذيب والقيام على رأس القاعد تشبها بملوك الفرس والروم من الأعاجم كما قال بعضهم والى هذا يشير الحديث الذي رواه سيدنا جابر رضي الله عنه إذ قال (اشتكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فصلينا وراءه وهو

([44]١) فتح الباري (١١/٥٠).

([45]٢) فقه السيرة النبوية ص (٣٣٤).

([46]٣) الترخيص بالقيام ص (٢٩).

قاعد وأبو بكر يسمع الناس تكبيره فالتفت الينا فرآنا قياما فأشار الينا فقعدنا فصلينا بصلاته قعودا فلما سلم قال: «إن كدتم لتفعلوا فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود : فلا تفعلوا ائتموا بأئمتكم إن صلى قائما فصلوا قياما وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا»([47]١).

ولكن يستثنى من هذا النهي جواز القيام في حال قدوم رسل للعدو إلى الإمام أو الخليفة فقد ورد في حديث صلح الحديبية حينما جاء عروة بن مسعود يكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكلما تكلم أخذ بلحيته والمغيرة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي واقف والنبي جالس ومعه السيف وعليه المغفر فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضرب يده بنصل السيف وقال له: أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه (زاد المعاد) معلقا على هذه الحادثة: وفي قيام المغيرة بن شعبة رضي الله عنه على رأس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسيف ولم يكن عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد سنة يقتدي بها عند قدوم رسل العدو ومن إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس وهذه هي هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين . وليس هذا من النوع الذي ذمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار)٢[48] كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره([49]٣).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : وقال أبو محمد البغوي(كذلك تجوز إقامة الإمام والوالي الرجل على رأسه في موضع الحرب ومقام الخوف)([50]٤).

وقال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى في كتابه (فقه السيرة النبوية) معلقا على الحادثة السابقة تحت عنوان : حكم الوقوف على الإنسان وهو قاعد (لقد علمت مما سبق أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه كان واقفا على رأس

([47]١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٤٨).

([48]٢) تقدم تخريجه ص (٢١٠).

([49]٣) زاد المعاد (٣٠٤/٣).

([50]٤) الترخيص بالقيام للنووي ص (٢٣).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه السيف وكلما أهوى عروة بن مسعود بيده إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضرب يده بنصل السيف قائلا: أخر يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد كنا ذكرناه فيما مضى عند الحديث عن غزوة بني قريظة أنه لا يشرع القيام على رأس أحد وهو قاعد وأن ذلك من مظاهر التعظيم الذي تعارفه الأعاجم فيما بينهم وأنكره الإسلام . فكيف كان الأمر على خلاف ذلك هنا؟ والجواب أن يستثني من عموم المنع مثل هذه الحالة بخصوصها أي في حالة قدوم رسل العدوا إلى الإمام أو الخليفة فلا بأس حينئذ من قيام حرس او جند على رأسه إظهارا للعزة الإسلامية وتعظيما للإمام وطاعة ووقاية له مما قد يفاجأ من سوء أما في أعم الأحوال فلا يجوز ذلك لمخالفته مقتضى التوحيد والعقيدة الإسلامية دون أية ضرورة إليه.

ويشبه هذا ما مر بيانه عند الحديث عن أبي دجانة في غزوة أحد فقد قلنا: إن ما يدل على الكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعا ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم عن مشية أبي دجانة (إنها لمشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع)([51]١).

القيام للجنازة

- حكم القيام للجنازة : اختلف الفقهاء والمحدثون في حكم القيام للجنازة وذلك لتعارض الأدلة في ذلك فعن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع»([52]٢).

وعن سيدنا عبدالرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال: كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد بن عبادة بالقادسية فمر عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة لأن المسلمين لما فتحوا البلاد أقروهم على عمل الأرض وحمل الخراج فقالا مُرَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجنازة فقام فقيل له: إنه يهودي فقال: أليست نفسا([53]٣)؟! وتعارض هذان الحديثان بحديث سيدنا علي رضي

([51]١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٥٠٨) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠٧١).

([52]٢) أخرجه البخاري (١٣١٠) ومسلم (٩٥٩) وأبو داود (٣١٧٢) والنسائي (١٩١٧) والترمذي (١٠٤٢).

([53]٣) أخرجه البخاري (١٣١٢) تعليقا ومسلم (٢٢٢٢) والنسائي (١٩٢٠) والبيهقي (٤/٢٧).

الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام للجنازة ثم قعد فذهب الشافعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن حديث علي ناسخ للأمر بالقيام ولكنه في الحقيقة ليس نصا في النسخ لاحتمال أن قعوده صلى الله عليه وآله وسلم كان لبيان الجواز.

قال النووي رحمه الله تعالى: والمختار أنه مستحب ولم ينسخ حديث الأمر بالقيام وهذا هو الرأي الراجح فقد روى البيهقي من حديث أبي هريرة وغيره: «أن القائم كالحامل في الأجر»([54]١).

الذكر الجهري

قال الله تعالى ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾([1]٢).

وقال تعالى ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾([2]٣).

وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾([3]٤).

أحاديث وآثار تبين استحباب الجهر بالذكر والحث عليه
إما تصريحا أو التزاما

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يتلمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول: هل رأوني؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا قال يقول فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة قال: يقول: وهل رأوها؟قال يقولون لا والله يا رب

([54]١) أخرجه أبو داود (٣١٧٥) والترمذي (١٠٤٤).

([1]٢) سورة آل عمران الآية (١٩١).

([2]٣) سورة الأحزاب الآية (٣٥).

([3]٤) سورة الأحزاب الآية (٤١- ٤٢).

ما رأوها قال يقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال فيقلون لو أنهم راوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون ؟ قال: يقولون من النار قال يقول وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها؟ قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»(١[4]).

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة قالوا وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذكروا أنفسكم من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه(٢[5]).

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال : حلق الذكر»(٣[6]).

٣- وعن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده فقال: إنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة»(٤[7]).

٤- وعن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بعض أبياته ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾(٥[8])،فخرج يلتمسهم فوجد قومه يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد فلما رآهم جلس معهم وقال«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»(٦[9]).

([4]١) أخرجه البخاري (١٠٧/٨) ومسلم (٦٨/٨) والترمذي (٣٦٠٠) وأحمد (٢٥١/٢).

([5]٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه (١٨٢٠) والبزار (٣٠٦٤).

([6]٣) تقدم تخريجه .

([7]٤) أخرجه أحمد (٢٠٥/١٤) والترمذي (٣٣٧٩).

([8]٥) سورة الكهف الآية (٢٨).

([9]٦) الحاوي للفتاوى للإمام السيوطي مجلد ٢ ص ٢٧ رقم ١.

وفي رواية لأحمد في الزهد عن ثابت قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكفوا فقال: «ما كنتم تقولون؟ قلنا نذكر الله قال: إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم».

فكف سيدنا سلمان وأصحابه عن الذكر لقدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم دليل على أنهم كانوا يجهرون فيه قبل قدومه وهذا دليل الجهر به.

٥- وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال ابن الأدرع : انطلقت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة، فمر برجل بالمسجد يرفع صوته قلت: يا رسول الله عسى أن يكون ذلك مرائيا؟ قال: لا ولكنه أواه وفي رواية عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل يقال له ذو البجادين : إنه آواه وذلك أنه كان يذكر الله([10]١).

وقال الحسن بن مسلم: كان رجل من أهل نجد إن دعا رفع صوته وإن صلى رفع صوته وإن قرأ رفع صوته فشكاه أبو ذر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن هذا الأعرابي قد آذاني لئن دعا ليرفعن صوته ولئن قرأ ليرفعن صوته فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «دعه فإنه أواه»([11]٢).

٦- وعن ابن الزبير رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله)([12]٣).

٧- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتا في الجنة » وفي بعض طرقه (فنادى) ([13]٤).

([10]١) أخرجه أحمد (١٥٩/٤).

([11]٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٦٥٥٩).

([12]٣) رواه مسلم (٥٩٤) والترمذي (٢٩٩).

([13]٤) أخرجه الحاكم (١٩٧٤).

٨- وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: هل فيكم غريب يعني (أهل الكتاب) قلنا : لا يا رسول الله فأمر بغلق الباب فقال: ارفعوا أيديكم فقولا لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده ثم قال: «الحمد لله اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد ثم قال أبشروا فإن الله قد غفر لكم»([14]١).

٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أنا عند ظن عبدي بي .. وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»([15]٢) والذكر في الملأ لا يكون إلا عن جهر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرفالناس من المكتوبة كان على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ([16]٣).

١٠- وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ما من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»([17]٤).

١١- وأخرج بقية من مخلد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بمجلسين أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يعلمون العلم فقال: «كلا المجلسين خيرا وأحدهما أفضل من الآخر» فإقراراه صلى الله عليه وآله وسلم لمجلس الدعاء والذكر الذي يفهم منه الجهر فيما بالخيرية دليل على جواز الجهر فيهما.

١٢- وعن عبدالله بن معضل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا

([14]١) أخرجه الحاكم (١٨٤٤).

([15]٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥) وأحمد (٢٦٨/١٤) والترمذي (٢٣٨٨).

([16]٣) أخرجه البخاري (٨٠٥ - ٨٠٦).

([17]٤) تقدم تخريجه ص (١٧٣).

ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات »([18]١)
والاجتماع على ذكر الله دليل الجهرية.

١٣- وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي رزي العقيلي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «ألا أدلك على ملاك الأمر الذي تصيب به خيري الدنيا والآخرة ؟ قال: بلى ، قال: عليك بمجالس الذكر وإذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله».

١٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الرب تعالى يوم القيامة : سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم ، قيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال: أهل مجالس الذكر في المساجد »([19]٢).

١٥- وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «لأن أذكر الله تعالى مع قوم بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس أحب الي مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله مع قوم بعد صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من الدنيا وما فيها»([20]٣).

١٦- وعن أبي الجوزاء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون»([21]٤).

١٧- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون»([22]٥).

١٨- وعن السائب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «جائني جبريل فقال: مر أصحابك يرفعوا أصواتهم بالتكبير »([23]٦).

وأخرج المروزي في كتاب العيدين أنه كان كل من عبدالله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما يأتيان السوق أيام العشر فيكبران لا يأتينا السوق إلا لذلك.

([18]١) أخرجه أحمد (٢٠٢/١٤) وأبو يعلى (٤١٤١) والبزار (٣٠٦١) والطبراني في الأوسط (١٥٧٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧٦٤).

([19]٢) أخرجه احمد (٢٠٥٩/١٤ وأبو يعلى (١٠٤٦) و (١٤٠٣) وابن حبان (٨١٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧٦٣).

([20]٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير(٧١٩٩) ورمز لحسنه.

([21]٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (١٣٩٨).

([22]٥) تقدم تخريجه ص (١٨٢).

([23]٦) أخرجه أحمد (١٨٠/١١) وأبو داود (١٨١٤) والترمذي (٨٢٩) وصححه النسائي (٢٧٥٢) وابن ماجه (٢٩٢٣) والحاكم (١٦٥٣) وابن خزيمة (٢٦٢٨).

وكذلك نقل عن سيدنا عمر أنه كان يكبر في قبته فيكبر أهل المسجد فيكبر أهل السوق حتى ترتج منى تكبيرا.

وقال ميمون بن مهران: أدركت الناس وإنهم ليكبرون في العشر حتى كنت أشبهها بالأمواج من كثرتها.

وأخرج ابن جرير في تفسيره عن سيدنا ابن عباس في قوله تعالى ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾([24]١) قال : إن المؤمن إذا مات بكى عيه من الأرض الموضع الذي كان يصلي فيه ويذكر الله فيه.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي عبيد قال: (إن المؤمن إذا مات نادت بقاع الأرض: عبد الله المؤمن مات فتبكي الأرض والسماء فيقول الرحمن ما يبكيكما على عبدي؟ فيقولون: ربنا لم يمش في ناحية منا قط إلا وهو يذكرك) فلو لم يكن الذكر جهرا لما سمعته الأرض والجبال.

وقد صح أن سيدنا أبا بكر كان يسر في قراءة القرآن وكان سيدنا عمر يجهر فيها فلما سألهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن السبب أجاب سيدنا أبو بكر بمآثره الإسرار لمجاهدة النفس وتعليمها طرق الإخلاص وأن من يناجيه يسمع كلامه وأجاب سيدنا عمر بمآثرة الجهر لإيقاظ الوسنان وطرد الشيطان وإرضاء الرحمن.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأمر من يقرأ القرآن في المسجد أن يسمع قراءته.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يأمر رجلا يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون لأنه أكثر عملا وأبلغ في التدبر ونفعه متعد لإيقاظ قلوب الغافلين.

وذكر ابن الجزري في كتاب الحصن الحصين(أن كل ذكر مشروع أي مأمور به في الشرع واجبا كان او مستحبا لا يعتد بشيء منه حتى يتلفظ به ويسمع نفسه).

وقال الإمام السيوطي رحمه الله أنه وردت أحاديث تقتضي استحباب الجهر بالذكر واحاديث تقتضي استحباب الإسرار به والجمع بينهما أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ثم قال: إذا تأملت ما أوردنا من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر بل فيه ما يدل على استحبابه إما تصيحا أو التزاما وأما معارضته بحديث (خير الذكر الخفي) فهو تظهر فيه معارضة احاديث

([24]١) سورة الدخان الآية (٢٩).

الجهر بالقرآن بحديث (المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة) وقد جمع النووي بينهما بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصلون أو نيام والجهر أفضل من غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى ويطرد النوم ويزيد في النشاط وقال بعضهم (يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار) .

وقال الشيخ عبدالوهاب الشعراني رحمه الله تعالى (وأجمعوا على انه يجب على المريد الجهر بالذكر بقوة تامة بحيث لا يبقى منه متسع إلا ويهتز من فوق رأسه إلى إصبع قدميه)([25]١).

وقال الشيخ ابن عطاء الله : وينبغي إن كان الذاكرون جماعة فالأولى في حقهم رفع الصوت بالذكر مع توافق الأصوات بطريقة موزونة فذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيرا وأشد قوة فيرفع الحجب عن القلب وأما أن هذا معارض بقوله تعالى ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول﴾([26]٢) فالحق ما بينه الإمام السيوطي في كتابه (نتيجة الفكر في الجهر بالذكر) حيث قال: إن الجواب عن هذه الآية يكون من ثلاثة أوجه: الأول: إنها مكية لأنها من الأعراف وهي مكية كآية الإسراء﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾([27]٣) وقد نزلت حين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بالقرآن فيسمعه المشركون فيسبون القرآن ومن أنزله فامره الله بترك الجهر سدا للذريعة كما نهى عن سب الأصنام في قوله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾([28]٤) وقد زال هذا المعنى.

والثاني: أن جماعة من المفسرين منهم عبدالرحمن بن يزيد بن أسلم شيخ مالك وابن جرير حملوا الآية على الذكرحال قراءة القرآن وأنه أمره بالذكر على هذه الصفة تعظيما للقرآن الكريم أن ترفع الأصوات عنده ويقويه اتصاله بقوله تعالى ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾([29]٥) قلت: وكأنه لما أمر بالإنصات خشي من ذلك الإخلاد إلى البطالة فنبه على أنه وإن كان مأمورا بالسكوت باللسان

([25]١) الأنوار القدسية (١/٣٨).

([26]٢) سورة الأعراف الآية (٢٠٥).

([27]٣) سورة الإسراء الآية (١١٠).

([28]٤) سورة الأنعام الآية (١٠٨).

([29]٥) سورة الأعراف الآية (٢٠٤).

إلا أن تمكين الذكر بالقلب باق حتى لا يغفل عن ذكر الله ولذا ختم الآية بقوله﴿ ولا تكن من الغافلين﴾([30]١).

الثالث: ما ذكره علماء الصوفية من أن الأمر في الآية خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم واما غيره فمن هو محل الوساوس والخواطر فمأمور بالجهر لأنه أشد تأثيرا في دفعها وأما قوله تعالى ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾([31]٢) فالجواب عنه من وجهين : إحدهما: أن الراجح في تفسيره أنه تجاوز المأمور أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع فعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه أنه سمع ابنه يقول: (اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول«يكون في الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور»([32]٣) وقرأ هذه الآية فهذا تفسير صحابي وهو أعلم بالمراد).

الثاني: على تقدير التسليم فالآية في الدعاء لا في الذكر والدعاء بخصوصه الأفضل فيه الإسرار لأنه أقرب إلى الإجابة ولذا قال تعالى ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا﴾([33]٤).

هذا وقد نص الإمام النووي رحمه الله في فتاويه على أن الجهر بالذكر حيث لا محذور شرعا مشروع مندوب إليه بل هو افضل من الإخفاء في مذهب الإمام الشافعي وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد وإحدى الروايتين عن الإمام مالك بنقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري وهو قول قاضيخان في فتاويه وقد قال العلامة الطحاوي في حاشيته على مراقي الفلاح (لا يمنع من الجهر بالذكر في المساجد احترازا عن الدخول تحت قوله تعالى ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾([34]٥))([35]٦).

وقال الشيخ حسنين مخلوف رحمه الله تعالى : (الأحاديث الصحيحة مع إثباته مشروعية الجماعة وفضلها في الذكر تثبت الجهرية (ايضا) وفضله فيه لأنه هو

([30]١) سورة الأعراف الآية (٢٠٥).

([31]٢) سورة الأعراف الآية (٥٥).

([32]٣) أخرجه ابن ماجه (٣٨٦٤) والحاكم في مستدركه وصححه (١٩٧٩).

([33]٤) سورة مريم الآية (٣).

([34]٥) سورة البقرة الآية(١١٤).

([35]٦) مراقي الفلاح ص (٢٠٨) وانظر حاشية ابن عابدين.

الذي صيرهم جماعة (كما هو المعهود لغة وعرفا).. إلى أن قال: (وبالتأمل في عموم الآيات والأحاديث وما نقله الآلوسي في آية الدعاء تعلم انه لا وجه للقول بكراهة الجهر بالذكر جماعة) إذا خلا من الموانع الشرعية ولم يكن فيه إخلال بشيء من آدابه المعروفة.

وقال الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى : والذكر جائز في انفراد وفي اجتماع بشرط أن لا يكون من الذاكرين جهر يتأذى به الجيران والنائمون والعالمون والعابدون.

حكم الذكر بالاسم المفرد

(أما ما ورد في الذكر بالاسم المفرد (الله) من آيات فكثيرة منها قول الله تبارك وتعالى ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾([1]١)).

وقوله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿قل الله ذم ذرهم﴾([2]٢).

وقوله تعالى : ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾([3]٣).

- وقد وردت أحاديث مشروعية الذكر باسم الله الأعظم منها:

ما رواه أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله».

وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله، الله»([4]٤).

فها هو اسم الله المفرد يرد ذكره مكررا في هذا الحديث.

قال العلامة علي القاري في شرح هذا الحديث: أي لا يذكر الله فلا يبقى حكمة في بقاء الناس ومن هذا يعرف أن بقاء العالم ببركة العلماء العاملين والعباد الصالحين وعموم المؤمنين([5]٥).

([1]١) سورة المزمل الآية (٨).

([2]٢) سورة الأنعام الآية (٩١).

([3]٣) سورة الإنسان الآية (٢٥).

([4]٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان (٣٧٤).

([5]٥) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ج ٥ ص ٢٢٦.

وأخرج الإمام أحمد في الزهد عن ثابت رضي الله عنه قال: كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكفوا فقال: ما كنتم تقولون؟ قلنا: نذكر الله ، الله، فقال: إني رأيت الرحمة تنزل عليكم فأحببت أن أشارككم فيها ثم قال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر معهم([6]١).

وللعلماء في هذا الباب أقوال كثيرة تؤيد مشروعيته فقد قال العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة عند شرح البسملة وتبحثه عن لفظ (الله) روى هشام عن محمد عن أبي حنيفة أنه أي الله اسم الله الأعظم وبه قال الطحاوي : وكثير من العلماء وأكثر العارفين حتى أنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به كما في شرح التحرير لابن أمير حاج([7]٢).

وقال العلامة المحدث المناوي رحمه الله تعالى شارحا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله تعالى يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه([8]٣): فهو مع من يذكره بقلبه ومع من يذكره بلسانه ولكن معيته مع الذكر القلبي أتم وخص اللسان لإفهامه دخول الأعلى بالأولى لكن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه صار معه وجليسه ولزوم الذكر عند أهل الطرق من الأركان الموصلة إلى الله تعالى وهو ثلاثة أقسام:

ذكر العوام باللسان وذكر الخواص بالقلب وذكر خواص الخواص بفنائهم عند ذكرهم عند مشاهدتهم مذكورهم حتى يكون الحق مشهودا في كل حال قالوا: وليس للمسافر إلى الله في سلوكه أنفع من الذكر المفرد القاطع من الأفئدة الأغيار وهو الله وقد ورد في حقيقة الذكر وآثاره وتجلياته مالا يفهمه إلا أهل الذوق([9]٤).

وقال العلامة الخادمي رحمه الله واعلم أن اسم الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم عند أبي حنيفة والكسائي والشعبي وإسماعيل بن إسحاق وأبي حفص وسائر جمهور العلماء وهو اعتقاد جماهير مشايخ الصوفية ومحققي العارفين فإنه لا ذكر عندهم

([6]١) الحاوي للفتاوى مجلد ٢ ص ٢٧ الحديث رقم١.

([7]٢) حاشية ابن عابدين ج١ص٥ -٧.

([8]٣) أخرجه البخاري (٤١٠/٤) تعليقا ، ووصله في خلق أفعال العباد (٤٣٦) والإمام أحمد (٥٤٠/٢) في مسنده والحاكم (٤٩٦/١) في مستدركه وصححه ووافقه الذهبي وابن ماجه (٣٧٩٢) والبغوي (٢٤٢).

([9]٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ج٢ ص ٣٥٩.

لصاحب مقام فوق مقام الذكر باسم الله مجردا قال الله لنيه المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿قل الله ثم ذرهم﴾.

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه : ذاكر هذا الاسم (الله) ذاهب عن نفسه متصل بربه قائم بأداء حقه ناظر إليه بقلبه قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته.

وقال الإمام ابن عجيبة رضي الله عنه فالاسم المفرد (الله) هوسلطان الأسماء وهو اسم الله الأعظم ولا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه وتسري أنواره في كلياته وجزئياته..)([10]١).

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه ليكن ذكرك (الله، الله) فإن هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساط وثمرة فبساطه العلم وثمرته النور وليس النورمقصودا لذاته بل لما يقع به من الكشف والعيان فينبغي الإكثار من ذكره واختياره على سائر الأذكار لتضمنه جميع ما في (لا إله إلا الله) من العقائد والعلوم والآداب والحقائق... .([11]٢)

ويقول فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى : ولكن عامة المسلمين من غيرهم أي الذين ينكرون الذكر بالاسم المفرد (الله) لا يجدون حرجا من ان يذكروا الله بأي من أسمائه وصفاته المفردة أو يذكروه بشيء من الصيغ أو الجمل الدالة على معنى يتضمن حكما من أحكام التوحيدأو التنزيه ودليلهم على ذلك صريح قول الله عز وجل ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾([12]٣) .

ومن المعلوم أن أول أسمائه تعالى الله.

وقال تعالى ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾([13]٤).

وذكر الله في النفس أعم من أن يقيد بمدلول جملة ذات معنى متكامل يتضمن حكما من أحكام التوحيد او التنزيه فإن الجملة من مستلزمات التراكيب اللفظية والذكر النفسي قد لا يعتمد على شيء من هذه التراكيب وإنما يكون بإجراء اسم الجلالة أو

([10]١) تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية ص ١٥.

([11]٢) نور التحقيق ص ١٧٤.

([12]٣) سورة الأعراف الآية (٢٥).

([13]٤) سورة الأعراف الآية (٢٠٥).

أي صفة من صفات الله تعالى كالخالق الرزاق المصور الحكيم الخ على القلب بحيث يكون يقظا لشهود الله تعالى ففي اسمه المفرد أو أي صفة من صفاته المعروفة([14]١) .

ثم إنه قد وردت آيات وأحاديث كثيرة مطلقة عامة عدا ما مر فيها من أدلة ظاهرة جلية في ذكر اسم الله المفرد تحث على ذكر الله عز وجل من غير تعيين نوع معين من الذكر أو تحريم نوع آخر منه فيتبين لنا من هذا عدم ورود أي دليل يدل أو يشير إلى حرمة الذكر باسم الله المفرد.

ومما يعترض على الذكر باسم الله المفرد أنه لا يؤلف جملة مفيدة تامة يحسن السكوت عليها كقولنا الله غفور والجواب : أن الذاكر باسم الله المفرد إنما يخاطب الله وحده وهو جل جلاله عالم بما في نفسه مطلع على سريرته فلا يشترط في الخطاب معه ما يشترط في الخطاب مع البشر من جعل الكلام تاما مفيدا يحسن السكوت عليه.

وقول (الله ، الله) إنما هو نداء بحذف أداة النداء وأصله (يا الله، يا الله) كقوله تعالى ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾([15]٢) وأصله يا يوسف ثم إن المنادى عند النحويين مفعول به لفعل محذوف وأصل الكلام (أدع الله) وقد يكون المبتدأ الله والخبر الله أو اسم من أسماء الله عز وجل ويكون هناك في القلب (العفو، الرحيم..) وذلك كما أراد أحدهم أن يشبه شجاعة زيد بشيء آخر فلم يستطع فقال: زيد زيد.

وكذلك من حاول تشبيه الإمام شعبة بشخصية عظيمة تقربه لذهن المخاطب فلم يجد إلا أن يقول: شعبة شعبة.

على أن الذكر باسم الله المفرد أسرع في قلع جذور النفس من منابتها من السكين الحاد فهو يزيل علائق الخلق من القلب ويفرغه من الأكوان فترتحل عن قلوب الذاكرين الغفلة حتى يكون السلام ساريا في عروقهم ممزوجا بأرواحهم ويكون المذكور تجاههم لا يغفلون إذا غفل الناس وعندها يتحققون بمقام الإحسان الذي

([14]١) كتاب السلفية لفضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى ص ١٩٣– ١٩٤.

([15]٢) سورة يوسف الآية (٢٩).

أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله «... الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه...»([16]١).

وفي نهاية الباب أقول: وأما ما ذهب ايه بعضهم من عدم جواز الذكر بالاسم المفرد فلا دليل له على ذلك بل إن نصوص القرآن الكريم تخالفهم كقوله تعالى ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾([17]٢).

وقوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾([18]٣) وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقوم الساعة وعلى الأرض من يقول الله([19]٤) وقول سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه حين كان يعذبه أمية بن خلف أشد العذاب تحت حر شمس مكة: أحد أحد([20]٥) وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسمع قوله ولا ينكر عليه وسكوته عليه الصلاة والسلام إقرار وهذه كلها أدلة على جواز الذكر بالاسم المفرد فإذا كانت قدوتنا وأسوتنا الشريعة المطهرة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف نترك الأدلة الصريحة ونتبع عقولنا إنه لشيء عجاب!!.

وهل يوجد دليل من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهانا عن ذكر الله عز وجل.

إنه لشيء عجاب!!.

التلقين الفردي

١- عن سيدنا جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على إقام صلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)([1]٦).

([16]١) مر تخريجه ()ص١٦.

([17]٢) سورة الأنعام الآية (٩١).

([18]٣) سورة لقمان الآية (٢٥).

([19]٤) مر تخريجه في أول الباب (٢٢٧).

([20]٥) كتاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ص ٨٨.

([1]٦) أخرجه البخاري (٥٧) والترمذي (١٩٢٥) وأحمد (٣٦٠/٤) والحميدي (٧٩٥) وابن خزيمة (٢٢٥٩) والدارمي (٢٤٤٥).

وفـي روايـة : (بايعـت رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم علـى السـمع والطاعـة فلقنني : (فيما استطعت) والنصح لكل مسلم)([2]١).

٢- وعنه رضي الله عنه أيضا قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبايع فقلت : يا رسول الله ! ابسط يدك حتى أبايعك واشترط علي فأنت أعلم بالشرط قال: (أبايعك على أن تعبد الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتناصح المسلمين وتفارق المشركين)([3]٢).

٣- وعن سيدنا بشير بن الخصاصية السدوسي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبايعه قال: فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن أقيم الصلاة وأن أؤدي الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم شهر رمضان وأن أجاهد في سبيل الله فقلت: يا رسول الله! أما اثنتان فو الله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت تلك خشعت نفسي وكرهت الموت والصدقة فو الله مالي إلا غنيمة وعشر ذود وهو رسل أهلي وحمولتهم قال: فقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده ثم حرك يده ثم قال: (فلا جهاد ولا صدقة! فلم تدخل الجنة إذا؟!) قال: قلت: يا رسول الله! أنا أبايعك عليهن كلهن([4]٣).

وأخرج الطبراني والبزار عن سيدنا علي كرم الله وجهه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عنده تعالى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «عليك بمداومة ذكر الله سرا وجهرا» فقال علي: كل الناس ذاكرون فخصني بشيء قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله ولو أن السماوات والأرضين في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت بهم ولا تقوم القيامة وعلى وجه الأرض من يقول: لا إله إلا الله » ثم قال علي: فكيف أذكر؟ قال النبي

([2]١) أخرجه البخاري (٧٢٠٤) ومسلم (١٩٩) والنسائي (٤٢٠٠) وأحمد (٣٦٤/٤) والحميدي (٧٩٨).

([3]٢) أخرجه النسائي (٤١٨٨) واحمد (٣٦٥/٤).

([4]٣) أخرجه أحمد (٢٤٤/٥) والأوسط مجمع البحرين ص ٧، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦٩/١٠ -١٧٠) وصححه الحاكم (٧٩/٢ -٨٠) ووافقه الذهبي.

صلى الله عليه وآله وسلم «غمض عينيك واسمع مني لا إله إلا الله ثلاث مرات ثم قلها ثلاثا وأنا أسمع» ثم فعل ذلك برفع الصوت.

مبايعة الصحابة لخلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

١- عن إبراهيم بن المنتشر عن أبيه عن جده قال: (كانت بيعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين أنزل الله عليه : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾([5]١) التي بايع الناس عليها البيعة لله والطاعة للحق وكانت بيعة أ بي بكر رضي الله عنه (تبايعوني ما أطعت الله)، وكانت بيعة عمر رضي الله عنه ومن بعده كبيعة النبي)([6]٢).

٢- وعن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: (قدمت المدينة وقد مات أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر رضي الله عنه فقلت لعمر: ارفع يدك ابايعك على ما بايعت عليه صاحبك قبلك وعلى السمع والطاعة فيما استطعت)([7]٣).

ثم نهج الورّاث من مرشدي سلوك منهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم في أخذ البيعة في كل عصر فقد ذكر الأستاذ الندوي في كتابه (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) : (أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني فتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي يجددون العهد والميثاق مع الله ويعاهدون على ألا يشركوا ولا يكفروا ولا يفسقوا ولا يبتدعوا ولا يظلموا ولا يستحلوا ما حرم الله وقد دخل في هذا الباب – وقد فتحه الله على يد الشيخ عبدالقادر الجيلاني – خلق لا يحصيهم إلا الله وصلحت احوالهم وحسن إسلامهم وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم فأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان) وقد ذكر العلامة ابن حجر الهيثمي في فتاويه في باب الشهادات وأتى بأوجه له أيضا.

وما ثبت من الأدلة الصريحة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يتبين لنا أنه يجب على مريد الوصول إلى الكمال أن يلتحق بمرشد مربي يتعهده

([5]١) سورة الفتح الآية (١٠).

([6]٢) الإصابة (٣/٤٥٨).

([7]٣) حياة الصحابة (١/٢٣٧).

بالإرشاد والتوجيه إلى الطريق المستقيم وينور قلبه حتى يعبد الله على بصيرة ونور وهدى فيبايع المربي المرشد ويعاهده على السير معه في طريق التخلي عن العيوب والرذائل والتحلي بالصفات الحسنة والفضائل ويترقى في المقامات النورانية الإيمانية ويتحقق بركن الإحسان ويصاحب أهل الصدق والإيمان وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾([8]١).

التلقين الجماعي

- عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه – وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (هل فيكم غريب؟) – يعني من أهل الكتاب – فقلنا: لا يا رسول الله ! فأمر بغلق الباب وقال «ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله » فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده ثم قال : «الحمد لله اللهم بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال : «أبشروا فإن الله قد غفر لكم»([1]٢).

الدف

وأما ما جاء من الأدلة على جواز ضرب الدف فقد أخرج البخاري عن خالد ابن ذكوان قال: قالت الربيع بنت معوذ: جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدخل علي صبيحة عرسي فجلس على فراشي كمجلسك مني فجعلت جويرات لنا يضربن بالدف

([8]١) سورة التوبة الآية (١٩٩).

([1]٢) أخرجه احمد (١٢٤/٤) والطبراني في الكبير (٧١٦٣) والبزار (١٠) والحاكم (٥٠١/١) ورجاله موثقون في مجمع الزوائد (٢٣).

ويندبن من قتل آبائي يوم بدر إذ قالت إحداهن: وفينا نبي الله يعلم ما في غد، فقال صلى الله عليه وآله وسلم «دعي هذا وقولي ما كنت تقولين»(١[1]).

وقوله: دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين: فيه إشارة إلى جواز سماع المدح، مما ليس فيه مبالغة تقضي إلى الغلو.

ويستفاد من هذا الحديث مشروعية إعلان النكاح بالدف والغناء المباح.

وأخرج البخاري أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو(٢[2]).

وفي رواية شريك : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟ قلت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

أتيناكم أتيناكم	فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر	ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمرا	ء ما سمنت عذاريكم(٣[3])

وفي الحديث دلالة على جواز اللهو في وليمة النكاح كضرب الدف والغناء لإعلان النكاح وإظهاره وانتشاره حتى تثبت الحقوق فيه.

وسئل مالك عن اللهو يكون فيه البوق فقال: إن كان كبيرا مشتهرا فإني أكرهه وإن كان خفيفا فلا بأس بذلك وقال مالك: لا بأس بالدف في وليمة العرس.

وقال اصبغ من المالكية: ولا يجوز الغناء في العرس ولا في غيره إلا مثل ما يقول نساء الأنصار أو رجز خفيف(٤[4]).

ودخل الشعبي رحمه الله تعالى إلى وليمة فأقبل على أهلها فقال: مالكم كأنكم اجتمعتم على جنازة!! أين الغناء والدف؟ [إن الله عز وجل ليؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر أو ينافح عن رسول الله](١[5]).

([1]١) أخرجه البخاري (٤٠٠١) و (٥١٤٧) وأبو داود (٤٩٢٢) والترمذي (١٠٩٠) والطبراني (٦٩٨/٢٤) والبيهقي (٢٨٩/٧) وأحمد (٣٥٩/٦ – ٣٦٠) وابن ماجه (١٨٩٧) وابن حبان (٥٨٧٨).

([2]٢) أخرجه البخاري (٥١٦٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٩ج٢/ص ٢٠٣.

([3]٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (ج٢/ ص١٤٩) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٨٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٧٣٧).

([4]٤) المفصل (ج٤/ ص٦٣).

ودليل الغناء مع الدف وقت النكاح لإعلانه وتشجيعه قوله عليه الصلاة والسلام (فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت في النكاح)([6]٢).

وكذلك متفق على إباحة الدف بقوله عليه الصلاة والسلام «اعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال»([7]٣).

وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال«أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدف»([8]٤) وهو مباح في النكاح وغيره أي ضرب الدف لأنه روى الإمام الترمذي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن امرأة جاءته فقالت: إني نذرت إن رجعت من سفرك سالما أن أضرب على رأسك بالدف فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوفي بنذرك»([9]٥) ولو كان مكروها لم يأمرها به وإن كان منذورا([10]٦).

وأخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر ببعض المدينة فإذا هو بجوار يضربن بدفهن ويتغنين ويقلن:

نحن جوار من بني النجار	يا حبذا محمد من جار

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «الله يعلم أني أحبكن»([11]٧).

وأخرج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف»([12]٨).

قالوا: لا بأس بضرب الدف يوم العيد لما روي عن عائشة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدففان وتضربان والنبي صلى الله عليه وآله وسلم متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي صلى الله

([5]١) أخرجه البخاري (٣٢١٢) ومسلم (٦٣٣٤) والترمذي (٢٨٤٦) وأحمد بن حنبل (٢٢٢/٥) وأبو داود (٥٠١٣) مختصرا والنسائي (٧١٨).

([6]٢) أخرجه الترمذي (١٠٨٨) وقال حديث حسن والنسائي (٣٣٦٩) وابن ماجه (١٨٩٦) وأحمد (٤١٨/٣) .

([7]٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٥) وأبو نعيم (٢٦٥/٣).

([8]٤) أخرجه الترمذي (١٠٨٩) والسيوطي في الجامع الصغير(١١٩٨).

([9]٥) رواه أبو داود (٣٢١٢).

([10]٦) المفصل (ج٧١/٤).

([11]٧) سنن ابن ماجه (١٨٩٩) وقال: (إسناده صحيح ورجاله ثقات).

([12]٨) أخرجه الترمذي (١٠٨٩) والسيوطي في الجامع الصغير (١١٩٨).

عليه وآله وسلم عن وجهه فقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد([13]١) وتلك الأيام أيام منى.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث قالت: وليستا بمغنيتين([14]٢).

وقد نص الفقهاء على جواز الدف والضرب به لعرس وختان وقدوم غائب وولادة وعيد وشفاء مريض وغير ذلك وإن كان فيه جلاجل لإطلاق الخير ودعوى أنه لم يكن فيه جلاجل تحتاج إلى إثباته والجلاجل إما نحو حلق تجعل داخله كدف العرب أو صنوج عراض من صفر تجعل من خروق دائرته كدف العجم وكلها جائزة ومن قال بالكراهة فقوله مردود وسواء ضرب به رجل أو أنثى وتخصيصه بالنساء مردود أيضا كما أفاده السبكي([15]٣).

- وما جاء من أقوال وحكم للعلماء في الدف:

حكى الإمام البيهقي عن شيخه الإمام الحليمي ولم يخالفه إذا أبحنا الدف فإنما نبيحه للنساء خاصة أهـ.

وعبارة منهجه: وضرب الدف لا يحل لغير النساء لأنه في الأصل من أعمالهن وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المتشبهين بالنساء . أهـ.

ونازعه السبكي في الحلبيات بأن الجمهور لم يفرقوا بين الرجال والنساء.

قال: فتفريق الحليمي بينهما ضعيف والأصل اشتراك الذكور والإناث في الأحكام إلا ما ورد الشرع فيه بالفرقة ولم يرد هنا.

وليس ذلك مما يختص بالنساء ليقال: يحرم على الرجال التشبه بهن فيه فينبه على العموم وقد جاء :«اعتلوا النكاح واضربوا عليه بالدف»([16]٤).

وقال الإمام الغزالي رضي الله عنه في الإحياء: يباح في العرس والعيد وقدوم الغائب وكل سرور حادث([17]٥). وهنا الدليل واضح بقوله صلى الله عليه وآله وسلم

([13]١) أخرجه مسلم (٢٠٦٠).

([14]٢) أخرجه البخاري (٩٥٢) ومسلم (٢٠٥٨) وابن ماجه (١٨٩١) وأحمد (٩٩/٦) والبغوي (١١١١) والبيهقي (٢٢٤/١٠) وابن حبان (٥٨٧٧).

([15]٣) نيل الأوطار للشوكاني (٣٣٧/٦ -٣٣٨).

([16]٤) أخرجه الترمذي (١٠٨٩).

([17]٥) الزواجر ج٢ ص٢٩١.

(اضربوا) فالواو لجمع المذكر السالم ولو كان القصد فقط النساء لقال: (اضربن عليه بالدفوف) فهذا ظاهر في الجواز للرجال والله أعلم.

ويقول الشيخ ابن حجر الهيثمي في رسالته كف الرعاع: المعتمد من مذهبنا أنه حلال بلا كراهة في عرس وختان وتركه أفضل وهكذا حكمه في غيرهما فيكون مباحا أيضا على الأصح في المنهاج بلا كراهة وظاهر ندبه لكل سرور مطلوب([1][18]).

وذكر الشيخ عبدالرؤوف المناوي رحمه الله في شرحه الكبير على الجامع الصغير للسيوطي رحمه الله تعالى : عند قوله عليه الصلاة والسلام : «أعلنوا النكاح واجعلوه بالمساجد واضربوا عليه بالدفوف» وقد أفاد الخبر حل ضرب الدف في العرس ومثله كل حادث سرور ومذهب الشافعية: أن الضرب فيه مباح مطلقا ولو بجلاجل وقد وقع الضرب به في حضرة شارع الملة ومبين الحل من الحرمة وأقره ولا فرق بين ضربه من امرأة أو رجل على الأصح([2][19]).

وسئل أبو يوسف رحمه الله تعالى عن الدف أتكرهه في غير العرس قال: لا أكرهه([3][20]).

- وقال الإمام الجليل بهاء الدين الرواس رحمه الله وقدس سره :

نعم إن السماع قد تكاثرت فيه الأقوال وتباينت عليه الأحوال إثباتا ونفيا فمنهم من يلحقه بالفسق ومنهم من يشهد أنه واضح الحق فيتجاذبون بين الإفراط والتفريط والحق الاقتصاد وهو التفصيل في المسموع أما أصوات الملاهي فغير ما هو من شعار أهل الشرب منها مثل الدف ونحوه فعند الإمام الشافعي الأعظم رضي الله عنه فسحة وللقول فيها تفاصيل حررتها بقصيدة لي وهي:

اضرب الدف وجانب جاهلا	حكمة الشرع لغي ما درى
قد أباح الدف قدما مالك	وعن الأصحاب يروي الخبرا
والإمام الشافعي المنتقى	تبع القول وقوى الأثرا
وكذا النعمان قد قيده	لنكاح أو لعيد وجرى

([18][1]) كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع / ٢٩٠ -٢٩١ /٠.

([19][2]) إيضاح الدلالات في سماع الآلات ص٥٤- ٥٥.

([20][3]) الفتاوى الهندية ص ٣٥٢.

وأتى عن أحمد بينهما	خبر خذ نصه معتبرا
إن يكن في العيد أو في مثله	من دواعي الخير زين لا مرا
وحكى فيه ثوبا بينا	لطباق جاء عن خير الورى
نكتة الإجماع إن جاءت على	حكم نص أبدا لن تتكرا
هذه الأخبار عن أربعة	لبقاء الدين أفنوا العمرا
ولشأن النص سر آخر	نثر الأقوام منه الدررا
كل ما حرك قلبا ساكنا	ودعا العقل به معتبرا
وأجال الروح في برزخها	تذكر الله وتبغي مظهرا
فهو بر والذي يفعله	فعل البر ولله سرى
إن في الدف وفي رنته	نغمة يعرفها من ذكرا
صوته ذكر وفي بحته	أنة تذكر أوقات السرى
نضرب الدف ومنه عندنا	ذاكرا نسمعه لن يفترا
وبهذا اللف من دورته	دورة الكوكب إن ما أبدرا
يرفع العزم إلى الله وقد	يحكي معنى كيف تقضي العمرا
كم صباح دار بالليل وكم	من هلال بالليالي انحدرا
وبه معنى رقيق مخبر	كيف شق الهاشمي القمرا
وبه رق إلى الرق عزي	كل نفس طيشها قد كبرا
وبه الدفة تروي خبراـ	دفة الملساء عمن قبرا
ويريك الجلد منه ميتا	أذهب العين وأبقى الأثرا
ويريك الخشب الملوي فيـ	ـه بأن الفقد يلوي الشجرا
دورة في نسجها دائرة	تبرز النقطة فافهم ما جرى
وبرن الجلد من ضاربه	طلب الهمة ممن قدرا
فإذا يترك يغدو ساكنا	وإذا يضرب طورا احضرا
لك هذا الرق من قلبك إن	لم ترعه خلته ما ذكرا
وإذا هز بحال ضارب	داوم الذكر وخاف الخطرا
قام في الدف مناد كامن	إن رأى الكف بدا واشتهرا

خذ به الكف عن الدنيا وقم	بيد الذكر له مستظهرا
وافهمن من جلده معنى إذا	أنت حققت كما الجسم يرى
رق حتى طاب منه صوته	بعد شد فافهمن ما أضمرا
واعمل الرقة خلقا ثم شد	لها العزم لتعطى مظهرا
وانظر اللوح الذي دار به	قد غدا في جلده مستترا
فاستر الكامن من حال وكن	لمحيط ساتر مفتقرا
واحذر المس لنار بالذي	خالف الشرع لتكفى الغيرا
جلدة الدف إذا النار بها	عبثث تدخل في نوع الثرى
يذهب الستر وتبقى خشبا	ما بها صوت ولا السر يرى
فاحذر النار وكن ذا فطنة	دائما مستشعرا مستبصرا
وافهم الحكم بهذا عيدنا	عن نبي هابه ليث الشرى
سيد قد أيد الدين به	وبه قد شرفت أم القرى
فاضرب الدف على حكمته	ودع اللاهي بما فيه افترى
ومن الأشياء خذ تسبيحها	مثل ما في الآي نصا ذكرا
وارشد العالم واهجر جاهلا	نظر الشمس كأن ما نظر
واهمل الحاسد في حيرته	عرف الحق وولى مدبرا
ولدي كن مهدوي المرتقى	أحمديا واستدق النظرا
إن موسى من أولي العزم وقد	لخفاء الحكم لام الخضرا
فاحكم استدلالك الدهر وكن	ثابت العزم مكينا وقرا
قد نظمنا حكمة الدف لمن	قلبه سر التدلي وقرا
وكتبناه سطورا لفتى	فهم النظم وللسطر قرا
جاء شعرا مهدويا رمزه	بمعانيه أطاش الشُّعرا
راح في طي مباين نظمه	درنا منسلكا منتثرا
عنه آيات المعاني أحكمت	خبرا يحيي قلوب الفقرا
وطوى معنى لطيفا سائغا	كلما أورد سرا أصدرا([21]١)

([21]١) طي السجل ص ١٣٩ -١٤٢.

- وقال الشيخ عبدالغني النابلسي:

وأما ضرب الدف والرقص فقد جاءت الرخصة في إباحته للفرح والسرور في أيام الأعياد والعرس وقدوم الغائب والوليمة والعقيقة وقد ثبت جواز ذلك بالنص([22]١).

ومن ذلك كله يتبين أن الغناء في الأفراح والأحزان جائز ولكن ضمن القيود والضوابط التي وضعها العلماء لهذه الإباحة وسيأتي الكلام عنه مفصلا في باب الإنشاد والسماع إن شاء الله تعالى.

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته (ج٣/ص٥٧٥) يجوز الغناء المباح وضرب الدف في العرس والختان بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال» (وتحرم الأغاني المهيجة للشرور والمشتملة على وصف الجمال والفجور ومعاقرة الخمور في الزفاف وغيره).

وفي مجموع رسائل الشيخ محمد الحامد في الكلام على الدف ما نصه (ص ٦٣): (اللهو في العرس هو الضرب بالدف والغناء السالم من الفسوق).

وقال الشيخ كريم راجح حفظه الله تعالى: قلت للشيخ ملا رمضان البوطي رحمه الله لماذا لا نحرم الدف فقال الشيخ ملا رحمه الله: كيف نحرم شيئا أحله الشرع؟! وهذا مسعته من الشيخ كريم راجح حفظه الله تعالى.

وفي هذا القدر كفاية لطالب الحق والدليل والحمد لله رب العالمين.

السبحة

تعريف السبحة في اللغة: قال الإمام محي الدين النووي في تهذيب الأسماء واللغات (سبحة بضم السين وإسكان الباء الموحدة خرزات منظومة يسبح بها معروفة يعتادها أهل الخير مأخوذة من التسبيح والمسبحة : بضم الميم وفتح السين وكسر الباء

([22]١) إيضاح الدلالات ص٦٦.

المشددة الإصبع السبابة وهي التي تلي الإبهام وسميت بذلك لأن المصلي يشير بها إلى التوحيد والتنزيه أهـ).

وفي المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للشهاب الفيومي : التسبيح : التقديس والتنزيه ويكون بمعنى الذكر والصلاة فريضة كانت أو نافلة ويسبح على راحلته أي يصلي النافلة عليها وصلى سبحة الضحى أي صلاة الضحى ومنه ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾[1] أي من المصلين والسبحة خرزات معروفة منظومة قال الفارابي وتبعه الجوهري: كلمة مولدة وجمعها سبح مثل غرفة وغرف . أهـ[2].

وفي القاموس : السبحة خرزات للتسبيح تعد والدعاء وصلاة التطوع .

وفي شمس العلوم[3]: السبحة : الصلاة يقال قضيت سبحتي والسبحة الخرزات التي يسبح بها وجمعها سُبَح[4].

- مشروعية اتخاذ السبحة :

١- عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعقد التسبيح بيده[5].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء بالعقد بأصابعهن فقال: «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات ومستنطقات»[6].

٢- وعن صفية قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين يدي أربعة آلاف نواة أسبح بنه فقال : ما هذا يا بنت حيي؟ قلت: قد سبحت منذ قمت على راسك أكثر من هذا قلت: علمني يا رسول الله قال قولي سبحان الله عدد خلقه[7].

---

[1] سورة الصافات الآية (١٤٣).

[2] نقل شارح القاموس عن شيخه أنها ليست من اللغة في شيء ولا تعرفها العرب وإنما حدثت في الصدر الأول إعانة على الذكر وتذكيرا أو تنشيطا.

[3] للإمام أبي الحسن نشوان بن سعيد بن فشوان اليمني الحميري الفقيه اللغوي المحقق المؤرخ الشاعر المتوفى سنة (٥٧٣) هـ باليمن.

[4] نزهة الفكر ص ٨ – ٩.

[5] رواه الترمذي (٣٤١١) و (٣٤٨٦) وأبو داود (١٥٠٢) والنسائي (٧٩/٣) والحاكم (٥٤٧/١) والبيهقي (٢٥٣/٢) وأحمد (١٦٠/٢) وابن حبان (٨٤٣) والبغوي (١٢٦٨).

[6] أخرجه أبو داود (١٥٠١) والترمذي (٣٥٨٣) وأحمد (٣٧٠/٦) والطبراني في الكبير (٢٥/٧٣" ١٨١") وابن أبي شيبة في المصنف (٢٨٩/١٠) وصححه الذهبي في المختصر وحسنه الحافظ ابن حجر في أمالي الأذكار والنووي في الأذكار.

[7] رواه الترمذي (٣٥٥٤).

٣- وأخرج الإمام أحمد في الزهد عن يونس بن عبيد عن امه قالت: رأيت أبا صفية رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان جارنا قالت فكان يسبح بالحصى.

٤- وأخرج أحمد في الزهد: عن عبدالرحمن قال: كان لأبي الدرداء رضي الله عنه نوى العجوة في كيس فكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة يسبح بهن حتى ينفذن.

٥- وأخرج أبو داود في باب (ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابة أهله) من كتاب النكاح عن أبي نضرة حدثني شيخ من طفاوة([١][8]) قال تثويت أبا هريرة بالمدينة فلم أر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد تشميرا ولا أقوم على ضيق منه ، فبينما أنا عنده يوما وهو على سرير له معه كيس فيه حصى أو نوى وأسفل منه جارية له سوداء وهو سبح بها حتى إذا نفذ ما في الكيس القاه إليها فجمعته فأعادته في الكيس فرفعته إليه فقال: ألا أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحديث([٢][9]).

قال السيوطي في مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود معنى تثويت : تضيفت ونزلت عنده ضيفا أهـ([٣][10]).

٦- وكذلك أخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري أنه كان يسبح بالحصى وكذلك صح أنه كان لأبي هريرة أيضا خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به.

٧- وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مولاة لسعد أن سعدا كان يسبح بالحصى أو النوى.

٨- وأخرج ابن سعد أن سعد بن أبي وقاص كان يسبح بالحصى.

٩- وأخرج أيضا عن أبي هريرة أنه كان يسبح بالنوى المجزع : أي ما فيه سواد وبياض.

([١][8]) أبو نضرة : هو المنذر بن مالك تابعي جليل وطفاوة بضم الطاء حي من قيس عيلان.

([٢][9]) رواه أبو داود (٢١٧٤).

([٣][10]) نزهة الفكر ص ١٢.

١٠- وأخرج ايضا عن فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب أنها كانت تسبح بخيط معقود فيها.

١١- وورد في الأثر: نعم المذكر السبحة.

- أقوال العلماء في اتخاذ السبحة:

ورد في حديث مسلسل أن الحسن البصري كان يستعمل السبحة وكان هو في عصر الصحابة.

وقال عمر المكي: رأيت أستاذي الحسن البصري وفي يده سبحة فقلت له: يا أستأذ مع عظم شأنك وحسن عبادتك أنت إلى الآن مع السبحة؟ فقال لي: هذا شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات إني احب أن أذكر الله بقلبي ويدي ولساني.

وقال محمد الأمير في رسالته: قال الشيخ أبو العباس الرواد: تبين من قول الحسن أن السبحة كانت موجودة في زمن الصحابة لأن بدايته في زمنهم([11]١).

وفي الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي الهيتمي الشافعي: يحل نحو الجلوس على الحرير بحائل ولو رقيقا ومن استعماله المحرم التدثر به ويحل جعل الطارز منه على الكم إذا كان بقدر أربعة أصابع وخيط السبحة([12]٢) وعلم الرمح وكيس المصحف.

وقال ابن علان وقد أفردت السبحة بجزء لطيف سميته (إيقاد المصابيح في اتخاذ المسابيح) وأوردت فيه ما يتعلق بها من الأخبار والآثار والاختلاف في تفاصيل الاشتغال بها أو بعقد الأصابع في الأذكار وحاصل ذلك أن استعمالها في أعداد الأذكار الكثيرة التي يلهي الاشتغال بها عن التوجه للذكر أفضل من العقد بالأنامل ونحوه... ، إلى آخر كلامه وقال عند قوله صلى الله عليه وآله وسلم «وأن يعقدن الأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات بعد كلام (ولهذا اتخذ أهل العبادة وغيرهم السبحة)([13]٣).

([11]١) نزهة الفكر في سبحة الذكر للإمام اللكنوي (ص ١٦ – ١٨ – .

([12]٢) أي يحل خيط السبحة وما عطف عليه إذا كان من الحرير.

([13]٣) من الفتوحات الربانية على الأذكار النووية للعلامة محمد بن علان الصديقي المتوفى سنة (١٠٥٧هـ) (ج١ ص ٢٥١ – ٢٥٢).

وفي شرح المشكاة لابن حجر: ويستفاد من الأمر المذكور في الحديث ندب اتخاذ السبحة وزعم أنها بدعة غير صحيح.. .

وقال ابن الجوزي: إن السبحة مستحبة لما في حديث صفية أنها كانت تسبح بنوى أو حصى وقد أقرها صلى الله عليه وآله وسلم على فعلها والسبحة في معناها إذ لا يختلف الغرض عن كونها منظومة أو منثورة.

وقال عكرمة: قد اتخذ السبحة سادات يشار إليهم مؤخذ عنهم ويعتمد عليهم كأبي هريرة كان له خيط فيه ألفا عقدة فكان لا ينام حتى يسبح به ثنتى عشرة ألف تسبيحة وفي الدر المختار (في مذهب الحنفية) لا بأس باتخاذ السبحة لغير رياء كما بسطه في البحر.

وقال الإمام السيوطي: وقد أخذ السبحة سادات يشار اليهم ويؤخذ عنهم ويعتمد عليهم فلو لم يكن في اتخاذها غير موافقة هؤلاء السادة والدخول في مسلكهم لكفى.

وذكر القاضي أبو العباس أحمد بن خلكان في وفيات الأعيان أنه رؤي في يد أبي القاسم الجنيد بن محمد يوما سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ قال: طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه([14]١).

وقد قال العلامة ابن عابدين في حاشيته المشهورة: لا بأس باتخاذ السبحة ودليل الجواز ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به فقال «أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض وسبحان الله عدد ما بين ذلك»([15]٢).

فلم ينهها عن ذلك وإنما أرشدها إلى ما هو أيسر وأفضل ولو كان مكروها لبين ذلك ولا تزيد السبحة على مضمون هذا الحديث إلا بضم النوى في خيط ومثل ذلك لا

([14]١) الحاوي (ج٢/ص٣٧ -٤٠).

([15]٢) أخرجه بلفظ (سبحان الله عدد ما هو خالق) في المرة الثالثة أبو داود (١٥٠٠) والترمذي (٣٥٦٨) والطبراني في الدعاء (١٧٣٨) والبغوي (١٢٧٩) وابن حبان (٨٣٧) والحاكم (١/٥٤٧ - ٥٤٨) وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الحافظ ابن حجر في أمالي الأذكار.

يظهر تأثير المنع فلا جرم أنه نقل اتخاذها والعمل بها عن جماعة من الصوفية الأخيار وغيرهم([16]١).

وقال علي القاري في المرقاة في شرح حديث سعد المذكور: هذا أصل صحيح لتجويز السبحة بتقريره صلى الله عليه وآله وسلم تلك المرأة إذ لا فرق بين المنظومة والمنثورة ولا يعتد بقول من عدها بدعة وقد قال المشايخ إنها سوط الشيطان([17]٢).

وقال بعض العلماء : عقد التسبيح بالأنامل أفضل من السبحة ولكن يقال: إن المسبح إن أمن الغلط كان عقده بالأنامل أفضل وإلا فالسبحة أولى.

- الشبهات في اتخاذ السبحة:

شبهة: لو كان فيها حسن لاتخذها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهدى الصحابة اليها.

وجوابه: أنه ليس كل ما لم يفعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه فهو ليس بحسن فإن ما رغب فيه أو قرر عليه أو على نظير له وجد بين يديه أيضا حسن([18]٣).

والدليل على ذلك عقده صلى الله عليه وآله وسلم بالأنامل وأمره النسوة أن يعقدن بها كما في الأدلة في أول الباب.

شبهة : أن بعض الفقهاء قد حكم بأن مطلق العد بدعة فما بالك بالعد بالسبحة والأمر إذا دار بين الحسن والابتداع ترك حذار عن شبهة الاختراع.

وجوابه: أن قول من قال مطلق العد بدعة مردود ذلك بنص النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفعله وفعل أصحابه الأجلاء والأمر الدائر بين الحسن والابتداع إنما يترك إذا تساوى فيه طرفا الحسن والابتداع وههنا قد ترجح جانب الحسن بالوجوه العديدة فتكون العبرة له لا للشبهة السخيفة.

وأما القول بأن السبحة منقولة عن الأديان أو الأوطان الأخرى فغير صحيح بعد ما قدمنا من نشوئها وتطورها في الوسط الإسلامي فإن اتفق وجه شبه بين هذا وذاك

([16]١) من حاشية ابن عابدين ج١/ ص٤٥٧ .

([17]٢) أي: السوط الذي يزجر به ويطرد.

([18]٣) وهنا قرر صلى الله عليه وآله وسلم النظير وهو التسبيح بالحصى.

فليس معناه النقل والتقليد ولكنه نوع من توارد الخواطر والأفكار علما بأنه ليس كل نقل أو تقليد حرام!!..

ولو اتخذ السبحة من نوع جيد بنية تعظيم الذكر والمذكور سبحانه كان لا بأس به ولا حرج عليه فإن اتخذها من نوع غال بنية المفاخرة والشهرة ولفت النظر كانت حراما واتخاذ السبحة الكاملة أفضل من اتخاذ الثلث قولا واحدا كما يحرم اتخاذ السبحة للهو واللعب والمفاخرة ومجرد اشتغال اليد لأنها أداة عبادة كما يحرم العد عليها من غير ذكر لأنه تشبه كاذب وعبث كما أفتى بذلك الإمام ابن الحاج رضي الله عنه وقد أفتى الشيخ العدوي بعدم اتخاذ السبح الكبار جدا اللافتة للأنظار ووضعها في العنق أو نحو ذلك نقول: لما في ذلك من طلب الشهرة والرياء وحب زعم الولاية واستغلال السبح واستغفال العامة والله الموفق للصواب.

ومن لطيف العبر ما حكاه الإمام السيوطي عن بعض الثقات أنه أخبره : أنه كان مع قافلة في درب بيت المقدس فقامت عليهم سرية عرب وجردوا القافلة جميعها وردوني معهم فلما أخذوا عمامتي سقطت سبحة من رأس فلما رأوها قالوا: هذا صاحب سبحة فردوا علي ما كان أخذ مني وانصرفت سالما منهم.

قال السيوطي: فانظر يا أخي إلى أهل الآلة المباركة الزاهرة وما جمع فيها من خيري الدنيا والآخرة ([19]١).

([19]١) نزهة الفكر في سبحة الذكر للإمام الكنوي ٢٥.

الخاتمة

ومن مجموع هذه الآثار نجد أن أصل اتخاذ السبحة قائم في الإسلام لإحصاء الذكر وإن الذي تطور إنما هو النوى والحصى وتطورت العقد في الخيط وعلى الأنامل إلى حبات مثقوبة على صورة العقد يجمعها خيط يحملها العابد فتذكره بربه وبورده.

وفي هذا القدر كفاية لمن أراد أن يكفتي والحمد لله رب العالمين

الإنشاد والسماع

- الأدلة من القرآن الكريم:

لقد استدل القائلون بإباحة الغناء بكثير من الأدلة من القرآن الكريم منها:

قال الله تعالى ﴿يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾([1]١).

وقال ابن كثير نقلا عن الإمام الزهري وابن جريج في قوله تعالى ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ يعني حسن الصوت ورواه عن الزهري البخاري في الأدب المفرد([2]٢).

وقال القرطبي في تفسير الآية: إنه حسن الصوت كما ذكر ابن كثير عن الزهري([3]٣).

والى هذا المعنى ذهب أكثر المفسرين كالنسفي واليضاوي والخازن وغيرهم ([4]٤).

- الأدلة من السنة الشريفة:

عن سيدنا أنس رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في سفره وكان غلام يحدو بهن يقال له أنجشة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير» قال أبو قلابة : يعني ضعفة النساء)([5]٥).

([1]١) سورة فاطر الآية (١).

([2]٢) تفسير ابن كثير (٥/٥٦٧).

([3]٣) الجامع لأحكام القرآن القرطبي (١٤/٣٢٠).

([4]٤) تفسير البغوي بهامش تفسير الخازن(٣/٢٩٦).

([5]٥) أخرجه البخاري في (٦٢١١) ومسلم (٥٩٩٤) والبيهقي (١٠/٢٠٢٧) والبغوي (٣٥٧٧) وابن حبان (٥٨٠١).

وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أيضا قال: كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حاد يقال له أنجشة وكان حسن الصوت فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم (يا أنجش رويدك لا تكسر القوارير)([6]١).

قال قتادة : يعني ضعفة النساء.

وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: قال ابن بطال : القوارير كناية عن النساء اللاتي على الإبل التي تساق حينئذ فأمر عليه الصلاة والسلام الحادي بالرفق بالحداء لأنه حيث الإبل حتى تسرع فإذا أسرعت لم يؤمن على النساء السقوط وإذا مشت رويدا أمن على النساء السقوط... إلى أن قال: نقل ابن عبدالبر الاتفاق على إباحة الحداء وفي كلام بعض الحنابلة خلاف فيه ومن منعه محجوج بالأحاديث الصحيحة.

ويلتحق بالحداء هنا الحداء للحجيج المشتمل على التشوق إلى الحج يذكر الكعبة وغيرها من المشاهد ونظيره ما يحرض أهل الجهاد على القتال.

وعن سيدنا أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود([7]٢).

وعن عامر بن سعد قال: دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار يغنين فقلت أي صاحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن أهل بدر يُفعل هذا عندكم؟! ... فقالا اجلس إن شئت فاستمع معنا وإن شئت فاذهب فإنه قد رخص لنا في اللهو عن العرس([8]٣).

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم «يا عائشة ما كان معكم لهو؟» فإن الأنصار يعجبهم اللهو».

وفي رواية شريك : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني؟ قلت: ماذا تقول؟ قال تقول:

أتيناكم ... أتيناكم	فحيانا وحياكم

([6]١) مر تخريجه.

([7]٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٨) وفي خلق أفعال العباد ص ٣٣ ومسلم (١٨٤٩) والترمذي (٣٨٥٥) .

([8]٣) أخرجه النسائي (٣٣٨٣).

ولولا الذهب الأحمر	ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء	ما سمنت عذاريكم([1][9])

وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : (دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث([2][10]) فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإما قال: (تشتهين تنظرين؟) قلت نعم ، فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول: (دونكم يا بني أرفدة حتى إذا مللت قال: (حسبك؟) قلت: نعم، قال: (فأذهبي).

وفي رواية قالت: (دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث قالت : وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر أبمزور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك يوم عيد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا»([3][11])).

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: أنشدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مئة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول (هيه هيه) ثم قال «إن كاد في شعره ليسلم»([4][12]).

([1][9]) أخرجه البخاري في الصحيح (٥١٦٢) والحاكم (١٨٤/٢) والبيهقي (١٨٨/٧) والأبيات هي من بحر الهزج وهو نوع من بحور الشعر خفيف الإيقاع ووزن الأبيات كالتالي:

أتيناكم أتيناكم	فحيانا وحياكم
أَتَيْنَاكُم أَتَيْنَاكُمْ	فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ
مفاعيلن مفاعيلن	مفاعيلن مفاعيلن

([2][10]) يوم بعاث: يوم كان الحرب بين الأوس والخزرج قبل الإسلارم وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح فتح الباري لابن حجر (٧٧/٨).

([3][11]) فتح الباري ، ط السلفية (٤٤٥/٢) وأحمد في مسنده (١٣٤/٦) ومسلم (٢١/٣) ط الحلبي وابن ماجه (٦١٢/١) والنسائي في سننه (١٩٦/٣).

([4][12]) أخرجه مسلم (٢٢٥٥) والبخاري في الأدب (٧٩٩).

وعن سيدنا بريدة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى قال لها : «إن كنت نذرت فاضربي وإلا فلا» فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل علي وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحت إستها ثم قعدت عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر إني كنت جالسا وهي تضرب ثم دخل عثمان وهي تضرب فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف»([13]١).

وعن سيدنا قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت)([14]٢).

وعن سيدنا فضالة بن عبيد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لله أ شد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته»([15]٣).

وقالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها (كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتناشدون عنده الشعر وهو يبتسم)([16]٤).

وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر ببعض المدينة فإذا هو بجوار صغار يضربن بدفهن ويتغنين ويقلن:

([13]١) أخرجه الترمذي (٣٦٩٠) ولقد نظم الشاعر حافظ إبراهيم هذه القصة النبوية في قصيدة شعرية رائعة تقول:

أرأيت تلك التي لله قد نذرت	أنشودة لرسول الله تهديها
قالت: نذرت لئن عاد النبي لنا	من غزوة لعلى دف أغنيها
ويممت حضرة الهادي وقد ملأت	أنوار طلعته أرجاء ناديها
واستأذنت ومشت بالدف واندفعت	تشجي بألحانها ما شاء مشجيها
حتى إذا لاح من بعد لها عمر	خارت قواها وكاد الخوف يرديها
وخبأت دفها في ثوبها فرقا	منه وودت لو أن الأرض تطويها
قد كان حلم رسول الله يؤنسها	فجاء بطش أبي حفص يخشيها
فقال مهبط وحي الله مبتسما	وفي ابتسامته معنى يواسيها
قد فر شيطانها لما رأى عمرا	إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

([14]٢) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٣٨٣) وزاد قوله (وكان نبيكم حسن الوجه وحسن الصوت).

([15]٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٦).

([16]٤) أخرجه الترمذي (٢٨٥٠) وقال حديث حسن صحيح.

نحن جوار من بني النجار	يا حبذا محمد من جار

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «الله يعلم إني لأحبكن»([17]١).

عن عبدالله نب الزبير قال: (ما أعلم رجلا من المهاجرين إلا قد سمعته يترنم)([18]٢).

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل مكة وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله
يا رب إني مؤمن بقيله	

فقال عمر رضي الله عنه يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي حرم الله تقول شعرا؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل([19]٣).

وعن سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن من الشعر حكمة»([20]٤).

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: قالت الأنصار يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا	على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

لا عيش إلا عيش الآخرة	فانصر الأنصار والمهاجره([21]٥)

([17]١) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) وقال حديث صحيح ورواته ثقات.

([18]٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٢٥/١٠).

([19]٣) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) وقال حديث حسن صحيح والنسائي (٢٨٧٣) وأبو يعلى (٣٤٤٠) والبغوي (٣٤٠٤) والبيهقي (٢٢٨/١٠) وأبو نعيم (٢٩٢/٦) وابن حبان (٥٧٨٨) وعبد بن حميد (١٢٥٧) .

([20]٤)أخرجه البخاري (٦١٤٥) وابن ماجه (٣٧٥٥) والدارمي (٢٦٠٤) وأبو داود (٥٠١٠) والبخاري في الأدب المفرد (٨٥٨) والطيالسي (٥٥٦) والبيهقي (٢٣٧/١٠) وعبدالرزاق (٢٠٤٩٩) وابن أبي شيبة (٦٩١/٨) وأحمد (١٢٥/٥) وابنه في زوائد المسند (١٢٦/٥) والشافعي (١٨٨/٢).

([21]٥) أخرجه البخاري (٢٩٦١) وفي أماكن كثيرة ومسلم (١٨٠٥) والترمذي (٣٨٥٧) وأحمد (١٧٠/٣) والبيهقي (٣٩/٦) وفي مسند علي بن الجعد (١٥٠٧).

وعن سيدنا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتضينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينة علينا	إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا	

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من هذا السائق) قالوا: عامر بن الأكوع قال (يرحمه الله) الحديث(١[22]).

وعن سعيد بن المسيب قال: مر عمر في المسجد وحسان ينشد فلحظه عمر (أي نظر إليه نظرة إنكار) ثم التفت أي حسان إلى أبي هريرة فقال: (أنشدك بالله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول«أجب عني اللهم أيده بروح القدس ») قال نعم(٢[23]).

وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »(٣[24]) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الشعر فقال: «هو الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام»(٤[25]).

- أقوال العلماء

(١[22]) أخرجه البخاري (٤١٩٦) مطولا و (٢٤٧٧) مختصرا ومسلم (٤٦٤٤) مطولا وابن ماجه (٣١٩٥) بنحوه مختصرا وأحمد (٤٧/٤ – ٤٨) مختصرا ومطولا وابن حبان (٥٢٧٦) والبيهقي (٣٣٠/٩) والبغوي (٣٨٥٠) والطبراني في الكبير (٦٢٩٤).

(٢[23]) أخرجه البخاري (٣٢١٢) ومسلم (٦٣٣٤) وأبو داود (٥٠١٣) مختصرا والنسائي (٧١٥) وأحمد (٢٢٢/٥ ، ٢٢٣).

(٣[24]) أخرجه الترمذي (٢٨٤٦) وأحمد (٧٢/٦) وفي رواية إن روح القدس مع حسان أخرجه أبو داود (٥٠١٥).

(٤[25]) أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن (ج٨ /٤٧٦٠) وذكره الهيثمي (١٣٣١٧/٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٣٩/١٠) وقال: وصله جماعة والصحيح عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرسلا والدار قطني (١٥٥/٤) وذكره في المطالب العالية (٢٥٧٨) وقال محققه سكت عليه البوصيري ويشهد له حديث عبدالله بن عمر وفي الأوسط (٧٦٩٢) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الشعر بمنزلة الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحة كقبيح الكلام » وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد (١٣٣/٨) وأخرجه أيضا الدارقطني (١٥٦/٤).

١- الإمام السفاريني رحمه الله تعالى:

يقول العلامة السفاريني شارح منظومة الآداب: (وفي رواية أبي بكر بن الأنباري أن كعب بن زهير لما جاء تائبا وقال قصيدته المشهورة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول

إلى أن وصل إلى قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به	مهند من سيوف الهند مسلول

رمى صلى الله عليه وآله وسلم إليه بردة كانت عليه وأن معاوية بذل فيها عشرة آلاف فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدا فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم إلى أن قال: تحصل من إنشاد قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه البردة عدة سنن: إباحة إنشاء الشعر واستماعه في المسجد والإعطاء عليه([26]١).

وقال العلامة السفاريني في منظومة الآداب : (قال في الإقناع وغيره ويباح الحداء الذي تساق به الإبل ونشيد الأعراب).

وقال أيضا: (المذهب الإباحة من غير كراهية لما تضافرت به الأخبار وتضافرت به الآثار من إنشاد الأشعار والحداء في الأسفار وقد ذكر بعض العلماء الإجماع على إباحة الحداء)([27]٢).

وقال أيضا في غذاء الألباب : والسماع مهيج لما في القلوب محرك لما فيها فلما كانت قلوب القوم معمرة بذكر الله تعالى صافية من كدر الشهوات محترقة بحب الله ليس فيها سواه كان الشوق والوجد والهيجان والقلق كامن في قلوبهم كمون النار في الزناد فلا تظهر إلا بمصادفة ما يشاكلها فمراد القوم فيما يسمعون إنما هو مصادف ما في قلوبهم فيستثيره بصدمة طروقه وقوة سلطانه فتعجز القلوب عن الثبوت عن اصطدامه فتبعث الجوارح بالحركات والصرخات والصعقات لثوران ما في القلوب لأن السماع يحدث في القلوب شيئا.

٢- الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى:

([26]١) غذاء الألباب ص ١٥٥.

([27]٢) غذاء الألباب (١/١٤٥).

ذكر الإمام الشاطبي في كتابه (الاعتصام) أن أبا الحسن القرافي الصوفي يروي عن الحسن البصري رحمه الله أن أقواما أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين إن لنا إماما إذا فرغ من صلاته تغنى فقال عمر رضي الله عنه من هو؟ فذكر الرجل فقال قوموا بنا إليه فإنا إن وجهنا إليه يظن أنا تجسسنا عليه امره . قال: فقام عمر رضي الله عنه مع جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أتوا الرجل وهو في المسجد فلما نظر إلى عمر قام فاستقبله فقال يا أمير المؤمنين ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ إن كانت الحاجة لنا كنا الأحق بذلك منك أن نأتيك وإن كانت الحاجة لله فأحق من عظمناه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمر: ويحك بلغني عنك أمر ساءني قال: وما هو يا أمير المؤمنين قال: أتتمجن في عبادتك؟ قال: لا يا أمير المؤمنين لكنها عظة أعظ بها نفسي قال عمر قلها فإن كان كلاما حسنا قلته معك وغن كان قبيحا نهيتك عنه فقال:

وفؤادي كلما عاتبته	في مدى الهجران يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا	في تماديه فقد برح بي
يا قرين السوء يا هذا الصبا	فني العمر كذا في اللعب
ما أرجي بعده إلا الفنا	ضيق الشيب علي مطلبي
ويح نفسي لا أراها أبدا	في جميل لا ولا في أدب
نفس لا كنت ولا كان الهوى	راقبي المولى وخافي وارهبي

فقال عمر رضي الله عنه :

نفس لا كنت ولا كان الهوى	راقبي المولى وخافي وارهبي

ثم قال عمر رضي الله عنه : (على هذا فليغن من غنى)([28]١).

قال الإمام الشاطبي أيضا: والتطريب مد الصوت وتحسينه ففيها ان الشعر المغنى به قد اشتمل على أمرين:

١- ما فيه من الحكمة والموعظة وهذا مختص بالقلوب ففيها تعمل وبها تنفعل ومن هذه الجهة ينسب السماع إلى الأرواح.

([28]١) الاعتصام للإمام الشاطبي (١/٢٢٠).

٢- ما فيه من النفحات المرتبة على النسب التلحينية وهو المؤثر في الطباع فيهيجها إلى ما يناسبها وهي الحركات على اختلافها فكل تأثير في القلب من جهة السماع تحصل عنه آثار السكون والخضوع فهو رقة وهو التواجد ولا شك أنه محمود وكل تأثير يحصل عنه ضد السكون فهو طرب لا رقة فيه ولا تواجد ولا هو عند شيوخ الصوفية محمود([١][29]).

٢- الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

* وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في بحثه عن الغناء:

اعلم أن السماع هو أول الأمر ويثمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق أو الرقص.

والقول بأن السماع حرام معناه أن الله يعاقب عليه وهذا الأمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس إلى المنصوص ولم يستقم في هذا المجال نص ولا قياس وبهذا يبطل القول بتحريمه ويبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات بل إن هناك نصوصا تدل على إباحته فالغناء سماع صوت طيب مفهوم المعنى محرك للقلب وسماع الصوت الطيب بالنسبة لحاسة السمع كرؤية الخضرة والماء الجاري بالنسبة للعين فلا يحرم فإن أدى المنظر إلى الاطلاع على شيء حرام حرم النظر كالنظرة إلى العروة وكالنظر بشهوة وكذلك يحرم السماع إذا كان سماعا لشيء غير حلال أو أدى بطريق انحرف عن الحلال([٢][30]).

- الأصل في أقوال الإمام الغزالي:

منهج الإمام الغزالي في تحليل الغناء: يذكر الإمام الغزالي منهجه في تحليل الغناء بعد أن استعرض أقوال الفقهاء في حكم الغناء والمقصود سماع ماليس مجونا ولا فسادا، فمن الفقهاء من ذهب إلى تحريمه ومنهم من ذهب إلى كراهته ولكن الإمام الغزالي ينظر إلى الموضوع على أساس آخر ولا يوجد في الدين نص يحرم السماع ولا قياس على نص فيبقى النظر في السماع من حيث هو وهنا يأتي منهج الإمام

([29][١]) الاعتصام للإمام الشاطبي (١/١٧٥).

([30][٢]) الاعتصام للإمام الشاطبي (١/١٧٥).

الغزالي في تحليل الغناء إلى عناصره لمعرفتها وكل منها على حدته ثم النظر فيها مجتمعة فعند تحليل الغناء نجد أن فيه سماع:

١- صوت طيب ، وهذا هو الوصف الأعم وسماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب حلال بالنص وهنا يذكر الإمام الغزالي بعض الأحاديث كغناء الجاريتين وهو حلال بالقياس لأنه تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصص بها كغيرها من الحواس وهذه فطرة مجبولة في الإنسان.

٢- صوت طيب موزون والوزن شيء زائد على حسن الصوت فقد يكون الصوت حسنا غير موزون أو موزنا غير حسن ومن الأصوات الموزونة أصوات بعض ذات السجع من الطيور فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها ومنها أصوات بعض الآلات الموسيقية فلا حرمة في ذلك إلا ما نهي عنه من آلات أهل المجون أو الشراب وما يؤدي إليه وهو أمر عارض([31]١).

٣- كلام موزون مفهوم وهو الشعر وليس فيه من زيادة إلا كونه مفهوما والكلام المفهوم غير حرام والحق في ذلك ما قاله الإمام الشافعي رحمه الله وهو أن الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح([32]٢) وإذا كانت العناصر كل منها على حدة مباحة أيضا فإن الجملة مباحة أيضا إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه الآحاد وليس هنا شيء محظور.

٤- كون السماع محركا للقلب مهيجا لما هو الغالب عليه وهنا يطرح الإمام الغزالي مسألة هامة لم يهتم بها أحد قبله يقول : لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنا يا ينوم ومنا ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس.

ويؤكد الإمام الغزالي إلى قيمة هذا الانفعال الإنساني امام الجمال فيقول: من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج وليس له علاج.

([31]١) إحياء علوم الدين (٢/٢٣٩ و ٢٤٠).

([32]٢) إحياء علوم الدين (٢/٢٤١ و ٢٤٢).

ومن ثم يشير الإمام إلى تأثير الغناء في صرف الطفل عما يبكيه والجمال ثقل ما تحمله ثم يزيد رأيه تأكيدا بقوله : إن تأثير السماع في القلب محسوس ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإنها جميعا تتأثر بالنغمات الموزونة([33]١) .

وإذا كان الأمر متعلقا بتأثير السماع في القلب الإنساني فإن الحكم في أمره بالإباحة أو التحريم لا يصح أن يكون مطلقا بل يراعى فيه اختلاف الأحوال والأشخاص وطرق الأنغام نفسها والغاية منها.

ثم بعد هذا يذكر الإمام الغزالي أن الترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي ستة مواضع:

أ- غناء الحجيج لما فيه من الشوق إلى حج بيت الله وإذا كانت عناصر الغناء والألحان كثيرة متنوعة كان التأثير أبلغ([34]٢).

ب- والغناء والألحان من وسائل تحريض الغزاة والمجاهدين إذا كان مع الألحان شعر يدعو إلى الشجاعة والتضحية ومن ذلك رجزيات التشجيع في أنواع المباريات وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس وكل ما في الأمر أن يكون القتال مشروعا وأن تكون الألحان نفسها عاملا على تقوية النفس لا على حل عقدة الشجاعة وإضعاف صرامتها([35]٣).

جـ- أصوات النبياحة ونغماتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة وشريطة ذلك ألا تكون على ما فات ونفذ فيه قضاء الله وإنما تكون على ما فات من تقصير الإنسان وما فرط منه وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك والمبدأ العام عند الإمام الغزالي أن المفضي إلى المحمود محمود.

ء- ولم ينس الإمام الغزالي حاجات النفس الإنسانية وما يصاحب شعورها بالسرور في أوقاته مثل أيام الأعياد والأعراس وقدوم الغائب وولادة مولود ونحو ذلك

([33]١) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٢).

([34]٢) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٣).

([35]٣) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٤).

وهذه مناسبات يباح فيها السرور لذلك يقول : ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع.

والإمام الغزالي يدرك تماما الطبيعة البشرية فيقرر السماح بالتعبير المتنوع من السرور بالغناء بالشعر بالرقص والحركات في حدود آداب الدين([36]١) ويؤكد الإمام الغزالي صحة ما ذهب إليه بأدلة نقلية كحديث عائشة حينما كانت تنظر إلى الحبشة ولعبهم في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتشجيع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بقوله: «دونكم يا بني أرفدة» وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة «تشتهين أن تنظري»([37]٢) ثم قال «فهذه الأحاديث في الصحيحين وهي نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام»([38]٣).

هـ- سماع العشاق تحريكا للشوق وتهييجا للعشق وتسلية للنفس فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة وإن كان في المفارقة فالغرض تهييج الشوق كل هذا يكون في عشق مباح.

والإمام الغزالي يقدر نفسية العاشق ويتفهما ويعرف ما يريح قلبه فيقول: إن الشوق وإن كان ألما فيه نوع لذة إذا أضيف إليه الوصال، فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشيء المرجو فهذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الإطناب فيوصف حسن المحبوب وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته فيقضي إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها فيحظى بالمشاهدة البصر وبالسماع الأذن ويفهم لطائف معاني الوصال

([36]١) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٤).

([37]٢) تقدم تخريجه ص ١٧٩.

([38]٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٥ و ٢٤٦).

والفراق القلب فتترادف أسباب اللذة فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب . وهذا منه.([39]١)

و- سماع من أحب الله تعالى واشتاق إلى لقاءه فصار لا ينظر إلى شيء إلا رأى آلاء الله فيه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه فالسماع في حقه مؤكد لحبه مهيج لشوقه ومور زناد قلبه ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاحظات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن تذوقها وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذا من الوجد والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع ثم تكون تلك الأحوال أسباب لروادف وتوابع لها تحرق القلوب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات هي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها فالمضي اليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي([40]٢).

ومن هذا المنطلق يؤكد الإمام الغزالي رضي الله عنه من جديد إمكان محبة الإنسان لله تعالى لأنه مصدر الموجودات لها فيقول (ولا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا هو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعة من أنوار حضرته)([41]٣).

- وقال الغزالي والعز بن عبدالسلام من أئمتنا: إنه سنة إن حرك لحال سني مذكرا للآخرة.

وبه يعلم أن كل شعر فيه الأمر بالطاعة أو كان حكمة أو كان في مكارم الأخلاق أو الزهد ونحو ذلك من خصال البر كحث على طاعة أو سنة أو اجتناب معصية يكون من إنشائه وإنشاده وسماعه سنة كما صرح به غير واحد من أئمتنا وهو ظاهر إذ وسيلة الطاعة طاعة.

([39]١) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٦).

([40]٢) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٦ و ٢٤٧).

([41]٣) إحياء علوم الدين (٢/٢٤٧).

وقال الإمام الغزالي أيضا: (النصوص التي وردت في السماع والدف تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج في اوقات السرور كان قياسا على يوم العيد فإنه وقت سرور)([42]١).

٣- الإمام السهروردي رحمه الله تعالى:

قال الإمام السهروردي : المنكر إما جاهل بالسنن والآثار وإما جاهل الطبع لا ذوق له وأشار بالسنن إلى ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان له شعراء يصغي اليهم في المسجد وغيره منهم حسان بن ثابت وابن رواحة رضي الله عنهما واستنشد أمية بن الصلت واستمع إليه كما في مسلم([43]٢).

٤- الإمام العز بن عبدالسلام رحمه الله تعالى:

قال العز بن عبدالسلام : أما سماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية المذكر للأمور الأخروية فلا بأس به بل يندب عند الفتور وسآمة القلب ولا يحظر إلا لمن في قلبه هوى خبيث فإنه يحرك ما في القلب([44]٣) .

وثم قال العز في تفسيره : وأما الأشعار والتشبيهات فمأذون بها وقد أنشد كعب رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بانت سعاد القصيدة المشهورة فاستمعها ولم ينكر عليها شيئا وفيها الاستعارات والتشبيهات حتى شبه الريقة بالخمرة وكانت حرمت.

ولكن تحريمها لم يمنع عندهم طيبها بل تركوها مع الرغبة فيها والاستحسان بها وكان ذلك أعظم لأجرهم.

وذكر الروياني في البحر أن سعاد كانت زوجته وبنت عمه وأنه إنما أنشد فيها هذه القصيدة لطول غيبته عنها بهروبه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وحكي عن العز بن عبدالسلام رحمه الله ورضي عنه أنه كان يرقص في السماع([45]٤).

٥- الإمام الماوردي رحمه الله تعالى:

([42]١) إحياء علوم الدين (٢/٢٨٨).

([43]٢) الزواجر (٢/٢٧٤).

([44]٣) الزواجر (٢/٢٧٣).

([45]٤) الزواجر (٢/٢٨٢).

قال الأذرعي : وما أحسن قول الماوردي: الشعر في كلام العرب مستحب إن حذر من الدنيا أو رغب في الآخرة أو حث على مكارم الأخلاق ومباح وهو ما سلم من فحش وكذب ومحظور وهو ما اقترن بأحدهما.

وقد روي أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشعر فقال: هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح(١[46]).

٦- الإمام ابن عبدالبر رحمه الله تعالى:

قال ابن عبدالبر: لا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهى وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر أو تمثل به أو سمعه فرضيه وقد نقل ابن عبدالبر الإجماع على جوازه إن كان كذلك(٢[47]).

٧- الإمام أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله تعالى:

قال أبو بكر بن العربي المالكي شارح سنن الترمذي : لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد إذا كان في مدح الدين وإقامة الشرع.

وقال ابن العربي: أما الاستعارات والتشبيهات فمأذون بها وإن استغرق الحد وتجاوزت المعتاد واستدل بإنشاد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين جاء تائبا حيث قال:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت	كأنه منهل بالراح معسول

فجاء في القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ولا ينكر حتى في تشبيهه ريقها بالراح(٣[48]).

وقال أبو بكر بن العربي أيضا: وأما الغناء فإنه من اللهو المهيج للقلوب عند أكثر العلماء منهم مالك بن أنس وليس في القرآن ولا في السنة دليل على تحريمه أما في الحديث الصحيح فالدليل على إباحته فإن أبا بكر دخل على عائشة وعندها جاريتان حاديتان من حاديات الأنصار ثم ساق الحديث بتمامه وقال: فلو كان الغناء

([46]١) الزواجر (٢/٢٧٥) والحديث أخرجه أبو يعلى (٨/٤٧٦٠) والبيهقي (١٠/٣٣٩) والدارقطني (٤/١٥٦) .

([47]٢) فتح الباري (١٣/١٥٥).

([48]٣) أحكام القرآن (٣/١٤٣٤).

حراما ما كان في بيت رسول الله وقد أنكره أبو بكر بظاهر الحال فأقره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفضل الرخصة والرفق بالخليقة في إجماع القلوب([49]١) ثم قال : وكل حديث يروى في التحريم، آو آية تتلى فيه فإنه باطل سندا باطل معتقدا خبرا وتأويلا وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رخص في الغناء في العيدين وفي البكاء على الميت من غير نوح([50]٢).

٨- الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى:

ورد ابن حزم على الذين تمسكوا بأحاديث الجارية المغنية أنه لا يحل بيعها حيث قال: طالما أنه يجوز وطؤهن بالبيع فكيف لا يجوز سماع أصواتهن ولو غناء ثم رد على الآخرين الذين تمسكوا بالآية الكريمة ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾([51]٣).

فقال: وهذه صفة من فعلها كان كافرا بلا خلاف إذا اتخذ سبيل الله هزوا ولو أن امرا اشترى مصحفا ليضل به عن سبيل الله ويتخذه هزوا لكان كافرا فهذا هو الذي ذمه الله تعالى وما ذم قط عز وجل من اشترى لهو الحديث ليتملى به ويروح نفسه لا يضل عن سبيل الله تعالى فبطل تعلقهم بقول كل من ذكرنا([52]٤).

٩- الإمام المحاسبي رحمه الله تعالى:

قال أبو عثمان النبيسابوري : أنشد قوال بين يدي الحارث المحاسبي هذه الأبيات:

أنا في الغربة أبكي	ما بكت عين غريب
لم اكن يوم خروجي	من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي	وطنا فيه حبيبي

فقام يتواجد ويبكي حتى رحمه كل من حضره([53]٥).

١٠- الإمام أبو حفص النبيسابوري رحمه الله تعالى:

([49]١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/٩).

([50]٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٠).

([51]٣) سورة لقمان الآية (٦).

([52]٤) المحلى لابن حزم الأندلسي (٩/٦٠).

([53]٥) طبقات الصوفية للسلمي المتوفى (٤١٢هـ) بتحقيق نور الدين شريبة ص (٦٠).

قال رجل لأبي حفص النبيسابوري إن فلانا من أصحابك أبدا يدور حول السماع فإذا سمع هاج وبكى ومزق ثيابه فقال أبو حفص: إيش يعمل الغريق؟! يتعلق بكل شيء يظن نجاته فيه(١[54]).

١١- العلامة الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله تعالى:

يقول الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله تعالى (إن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- منه ما هو حرام محض: وهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وملكهم حب الدنيا.

٢- والقسم الثاني منه مباح: وهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح أو يتذكر غائبا أو ميتا.

٣- والقسم الثالث منه مندوب: وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق إليه فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة وتضاعف الشوق إلى الله تعالى وهذا القسم الثالث هو سماع الصوفية أهل الصدق والإخلاص في كل زمان(٢[55]).

ويقول في موضع آخر: (وأما المباح من ذلك فهو إذا كان المجلس خاليا من الخمر والزنا واللواط والمس بشهوة والتقبيل والنظر بشهوة لغير الزوجة والأمة وكان لذلك السامع قصد حسن ونية صالحة وباطن نظيف طاهر من الهجوم على الشهوات المحرمة وكان قادرا على ضبط قلبه وحفظ خاطره من ان يخطر فيه شيء مما حرمه الله تعالى عليه فإنه يجوز له أن يسمع هذا السماع المذكور حينئذ بأنواعه كلها ولا يحرم عليه شيء من ذلك ولا يكره له ما دام موصوفا بما ذكرناه فهو مباح له إن لم يكن من أهل المعرفة بالله تعالى بأن كان عاميا جاهلا غافلا وأما إذا كان من أهل المعرفة والشهود فيصير السماع المذكور حينئذ في حقه مستحبا مندوبا إليه يثاب عليه)(٣[56]).

ويقول أيضا: ومعلوم أن هذه الآلات المطربة بجميع أنواعها ليست حرمتها من حيث ذاتها وصورتها المخصوصة ولا من حيث ما يصدر عنها من الأصوات المطربة وإلا لكان كل صوت مطرب حراما وهو باطل لأن أصوات الطيور والشحارير

([54]١) طبقات الصوفية ص (١١٩).

([55]٢) إيضاح الدلالات ص (٧٧).

([56]٣) إيضاح الدلالات في سماع الآلات ص (١٣١ - ١٣٣).

المطربة ليست بحرام إجماعا – كما سيأتي – بل حرمتها لاقتران اللهو بها ولكونها ملاهي واللهو بهذا التفسير المذكور يمكن زواله عنها وتعريها عنه فتصير خارجة عن كونها ملاهي ويزيل اللهو عن سامعها بها وإلا لكان العبد مكلفا في الشرع بما ليس في قدرته ومطلوبا منه ما لا يمكنه والله تعالى يقول: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾([57]١). ([58]٢)

١٢- الإمام أبو نصر السراج رحمه الله تعالى:

قال أبو نصر السراج: السماع على ثلاث طبقات فقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون به لله من ذلك وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطيبة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم اقرب الناس إلى السلامة. وأسلمهم من الفتنة وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف.

١٣- الإمام ابن البطال رحمه الله تعالى:

قال ابن بطال: ما كان في الشعر والرجز ذكرا لله تعالى وتعظيما له ووحدانيته وإيثار طاعته والاستسلام له فهو حسن مرغب فيه وهو المراد من الحديث (إن من الشعر لحكمة) وما كان كذبا وفحشا فهو مذموم... إلى ان قال: ومحصله: أن الحداء بالرجز والشعر لم يزل يفعل في الحضرة النبوية وليس هو إلا أشعارا توزن بأصوات طيبة وألحان موزونة([59]٣).

١٤- الإمام النحلاوي رحمه الله تعالى :

قال الفقيه خليل النحلاوي الدمشقي في كتابه (الحظر والإباحة) : الباب السبعون: الغناء وهو السماع قال في الفتاوى الخيرية (١٦٧/٢) بعد نقل أقوال العلماء واختلافهم في مسألة السماع : (وأما سماع السادة الصوفية رضي الله عنهم فبمعزل

([57]١) سورة البقرة آية (٢٨٦).

([58]٢) إيضاح الدلالات في سماع الآلات ص (٤٠ –٤١).

([59]٣) فتح الباري (١٠/ ٤٤٢).

عن هذا الخلاف بل ومرتفع عن درجة الإباحة إلى رتبة المستحب كما صرح به غير واحد من المحققين)([60]١).

ولما كانت الغاية من الإنشاد الإرشاد والمواعظ والفوائد حيث إن من طبيعة سماعه إثارة كوامن النفوس وتهييج مكنونات القلوب بما فيها من الأنس بالحضرة القدسية والشوق إلى الأنوار المحمدية مما اتصف به ساداتنا الصوفية الذين لم يحتجبوا بالأصوات لهوا ولا يجتمعون عبثا وهم في واد والناس في واد آخر والسر أنهم سمعوا ما لم يسمع الناس وعرفوا ما لم يعرف الناس فسماعهم يثير أحوالهم الحسنة ويظهر وجدهم ويبعث ساكن السوق ويحرك القلب ولما كانت قلوبهم بربهم متعلقة وعليه عاكفة وفي حضرة قربه قائمة فالسماع يسقي أرواحهم ويسرع في سيرهم إلى الله تعالى خلافا لسماع الفسقة اللئام يجتمعون على اللهو وآلات الطرب فيبعث ما في قلوبهم من الفحش والفسق وينسيهم واجباتهم تجاه الله تعالى وعلى ذلك لايمكن قياس الأبرار بالفجار ولا الصالحين على الطالحين وفي معرض الحديث عن فوائد الاستماع لدى ساداتنا الصوفية يطيب للنفس ذكر بعض الشواهد المروية عنهم فمنها:

قال مسلم السواري: ونزلوا على الساحل ذات ليلة فهيأت لهم طعاما ودعوتهم إليه فجاؤوا الي ولما وضعت الطعام بين أيديهم قال قائل:

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم	ولذة نفس غيها غير نافع

فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبكى القوم فرفعت الطعام من بين أيديهم وما ذاقوا والله لقمة منه([61]٢).

ولما ورد ذو النون المصري بغداد جاءه قوم من الصوفية بقوالهم وطلبوا منه أن يأذن له بأن يقول فأذن له فأنشد:

صغير هواك عذبني	فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت في قلبي	هوى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب	إذا ضحك الخلي بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه([62]١).

([60]١) الدرر المباحة في الحظر والإباحة للشيخ خليل بن عبدالقادر الشيباني الشهير بالنحلاوي ص (٩٣).

([61]٢) الإحياء (١٥٢/٢).

وروي أن أبا الحسين النوري كان مع جماعة في دعوة فجرى بينهم مسألة في العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم:

رب ورقاء هتوف في الضحى	ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفا ودهرا صالحا	وبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها	وبكاها ربما أرقني
ولقد أشكو فما أفهمها	ولقد تشكو فما تفهمني
غير أني بالجوا أعرفها	وهي أيضا بالجوى تعرفني

قال فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجد ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي خاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا(٢[63]).

وقال أبو القاسم الجنيد قدس الله سره : (السماع لا يحدث في القلوب شيئا وإنما هو مهيج ما فيها فتراهم يهيجون من وجدهم وينطقون من حيث قصدهم ويتواجدون من حيث كامنات سرائرهم لا من حيث قول الشاعر ولا يلتفتون إلى الألفاظ لأن الفهم سبق إلى ما يتخيله الذهن وشاهد ذلك كما حكي: أن أبا حكمان الصوفي سمع رجلا يطوف وينادي (يا سعتربري)) فسقط وغشي عليه فملا أفاق قيل له في ذلك فقال سمعته وهو يقول (اسمع تر بري) ألا ترى أن حركة وجده من حيث هو فيه لا من قول القائل ولا قصده.

وكما روي عن بعض الشيوخ أنه سمع قائلا يقول: (الخيار عشرة بحبة) فغلبه الوجد فسئل عن ذلك فقال (إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار؟).

فالمحترق بحب الله تعالى لا تمنعه الألفاظ الكثيفة عن فهم المعاني اللطيفة حيث لم يكن واقفا مع نغمة ولا مشاهدة صورة فمن ظن أن السماع يرجع إلى رقة المعنى وطيب النغمة فهو بعيد من السماع.

وقالوا: وأما الحال الذي يلحق المتواجد فمن ضعف حاله عن تحمل الوارد وذلك لازدحام أنوار اللطائف في دخول باب القلب فيلحقه دهش فيعبث بجوارحه ويستريح إلى الصعقة والصرخة والشهقة وأكثر ما يكون ذلك لأهل البدايات وأما أهل النهيات فالغالب عليهم السكون والثبوت لانشراح صدورهم واتساع سرائرهم للوارد عليهم فهم

([62]١) الإحياء (٢/٢٥٠).

([63]٢) الإحياء (٢/٢٦٣).

في سكونهم متحركون في ثبوتهم متقلقلون كما قيل لأبي القاسم الجنيد رضي الله عنه (ما لنا نراك لا تتحرك عند السماع؟.) فقال ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ([64]١).([65]٢)

- أقوال الفقهاء:

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : (الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح).

قال الإمام النووي من الشافعية: ويباح قول الشعر والإنشاده إلا أن يهجو أو يفحش أو يعرض بامرأة معينة.

وقال أيضا: (لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد إذا كان مدحا للنبوة أو الإسلام أو كان حكمة أو في مكارم الأخلاق أو الزهد ونحو ذلك من أنواع الخير).

وقال الإمام ابن عابدين من الحنفية في حاشيته: جواز القول بالشعر وإنشاده ما لم يذكر فيه مالا يحل كصفة الذكور والمرأة المعينة الحية ووصف الخمر المهيج اليها، والهجاء لمسلم أو ذمي وشرط كذلك السادة الحنفية أن لا يكون الغالب عليه هو الشعر بحيث يلهيه عن ذكر الله تعالى وعن أداء الواجبات وطلب العلم.

وقال أيضا في حاشيته : إن التغني المحرم ما كان في اللفظ ما لا يحل كصفة الذكور والمرأة المعينة الحية ووصف الخمر المهيج اليها والحانات والهجاء لمسلم أو ذمي إذا أراد المتكلم هجاءه لا إذا أراد إنشاده للاستشهاد به أو ليعلم فصاحته وبلاغته وكان فيه وصف الزهريات المتضمنة وصف الرياحين والأزهار والمياه فلا وجه لمنعه على هذا([66]٣).

وقال العلامة ابن جزئ من السادة المالكية: الشعر ليس مذموما على الإطلاق ثم قال: إن الشعر أربعة أقسام: أحدها حسن وهو الجد والحكمة والثاني ممنوع مطلقا وهو الهجو والثالث المدح والرثاء فإن كان حقا فهو مكروه وإن كان باطلا فهو ممنوع والرابع التغزل فإن كان فيمن لا يحل له فهو حرام وإلا فلا([67]٤) .

([64]١) سورة النمل الاية (٨٨).

([65]٢) غذاء الألباب (١٣٧/١).

([66]٣) حاشية ابن عابدين (٣٠٥/٥).

([67]٤) قوانين الأحكام الشرعية محمد بن جزئ المالكي ص (٤٦٥).

وقال العلامة ابن قدامة المقدسي من السادة الحنبلية: الشعر كالكلام حسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه ثم قال: وليس في إباحة الشعر خلاف وقد قاله الصحابة والعلماء، والحاجة تدعو إليه لمعرفة اللغة العربية والاستشهاد به في التفسير وتعرف معاني كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويستدل به أيضا على النسب والتاريخ وأيام العرب ويقال الشعر ديوان العرب([68]١).

وبعد:

فإن هذه الأدلة تبين لنا بجلاء تام أن الإسلام لم يكن موقفه من الشعر سلبيا بل العكس في ذلك واليك الآن نماذج من سماع الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم:

الغناء والسماع عند الصحابة رضي الله عنهم:

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر بالحداء([69]٢) ويقول: الغناء زاد الراكب([70]٣) وكان إذا سمع الحادي قال: لا تعرض بذكر النساء([71]٤).

وقد حكى الزهري قال السائب بن يزيد: بينا نحن مع عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه في طريق الحج ونحن نؤم مكة اعتزل عبدالرحمن بن عوف الطريق ثم قال لرباح بن المعترف : غننا يا أبا عبدالرحمن وكان حسن النصب (بسكون الصاد المهملة ضرب من الغناء عند العرب أرق من الحداء) فبينما رباح يغنيهم أدركهم عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – في خلافته فقال ما هذا ؟ فقال عبدالرحمن : لا بأس نلهو ونقصر عنا فقال عمر: فإن كنت آخذا فعليك بشعر ضرار بن الخطاب.

وكان لا يفضل على شعر ضرار إلا أن يغني الإنسان بشعر من شعره لأنه يكون فيه أصدق عاطفة وأسمى إحساسا.

([68]١) المغني للإمام ابن قدامة (١٧٧/٩ و ١٧٨).

([69]٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٧٧/١).

([70]٣) المغني (١٧٥/٩) وسنن البيهقي (٦٨/٥).

([71]٤) سنن البيهقي (٦٨/٥).

فعن خوات بن جبير قال: خرجنا حجاجا مع عمر فسرنا في ركب منهم أبو عبيدة بن الجراح وعبدالرحمن بن عوف قال فقال القوم إننا يا خوات فغناهم فقالوا غننا من شعر ضرار بن الخطاب فقال عمر: دعوا أبا عبدالله يغني من بنيات فؤاده يعني من شعره فما زلت أغنيهم حتى إذا كان السحر قال عمر: لسانك يا خوات فقد أسحرنا([١][72]).

وكذلك البغوي رحمه الله تعالى في تهذيبه وصاحب المهذب وغيرهما: أن عبدالرحمن استأذن على عمر فسمعه يترنم فقال عمر: أسمعني يا عبدالرحمن؟

فقال: نعم فقال: إنا إذا خلونا في منازلنا نقول كما تقول الناس وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يترنم بالبيت والبيتين.

عثمان بن عفان رضي الله عنه :

أما سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد قال الماوردي في الحاوي وصاحب البيان وغيرهما (كان له جاريتان تغنيان له فإذا كان وقت السحر قال لهما: أمسكا فإن هذا وقت الاستغفار)([٢][73]).

علي بن أي طالب([٣][74]) رضي الله عنه :

إذا كان الغناء حلالا بشروط فإن من شرط حله عن سيدنا علي رضي الله عنه ألا يعتاده المرء قال سيدنا علي رضي الله عنه (بئس البيت بيت لا يُعرف إلا بالغناء)([٤][75]).

عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه :

ذكر أهل الأخبار أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى دار عبدالرحمن فسمعه يتغنى بالركبانية([٥][76]) شعرا:

وكيف مثواي بالمدينة بعد ما	قضى وطرا منها جميل بن معمر

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

([١][72]) موسوعة فقه عمر بن الخطاب (عصره وحياته تأليف الدكتور محمد رواس قلعه جي دار النفائس سلسلة موسوعات فقه السلف ط٣ / ١٩٨٦ / ص ٦٧١).

([٢][73]) إيضاح الدلالات في سماع الآلات ص (٨٠).

([٣][74]) موسوعة فقة علي بن أبي طالب تأليف الدكتور محمد رواس قلعه جي سلسلة موسوعات فقه السلف دار الفكر ط١/ ١٩٨٣م.

([٤][75]) الروض النضير : (٥/٤٣٠).

([٥][76]) الركبانية: غناء للعرب فيه مد وتمطيط.

روى ابن قتيبة بسنده إلى سليمان بن يسار أنه سمع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتغنى بين مكة والمدينة فقال سليمان: سبحان الله!! أتفعل هذا وأنت محرم؟ .. فقال سعد: يا ابن أخي: وهل تسمعني أقول هجرا.

أبو سعيد عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه :

روى البيهقي بسنده أن أبا سعيد عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه وكان قد شهد بدرا مر وهو على راحلته وهو أمير الجيش رافعا عقيرته يتغنى بالنصب.

بلال الحبشي رضي الله عنه :

روى البيهقي بسنده عن وهب بن كيسان قال قال عبدالله بن الزبير تغنى بلال وكان متكئا فقال له الرجل: تغنى بالنصب؟ فاستوى جالسا ثم قال: وأي رجل من المهاجرين والأنصار لم نسمعه يتغنى بالنصب.

عبدالله بن الأرقم رضي الله عنه :

ذكر ابن عبدالبر والبيهقي أن عبدالله بن عتبة سمع عبدالله بن الأرقم رافعا عقيرته يتغنى قال عبدالله لا والله ما رأيت رجلا قط ممن رأيت وأدركت أراه كان أخشى لله من عبدالله بن الأرقم وكان عبدالله بن الأرقم من كبار الصحابة رضي الله عنهم([77]١).

حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه :

ثبت في الصحيحين أنه كان عنده قينة تغنيه رضي الله تعالى عنه ([78]٢).

عبدالله بن عمر رضي الله عنه :

روى ابن قتيبة بسنده أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان يدعو عبدالله بن أسلم وخالد بن أسلم فيغنيان له وقال ابن أبي الدم الحموي في شرح الوسيط: أن العلماء رووا أن أشعب دخل على عبدالله بن عمر رضي الله عنه وهو في حائط المدينة فسأله أن يوفر له تمرا في غرارة ففعل ثم سأله أن يأمر غلمانه أن يكبوا ما يعونه فيها ثم سأله أن يغني له وكان أشعب طيب الصوت جيد الغناء فامتنع من أدبه فألح عليه فأذن له فغنى وأطربه.

البراء بن مالك رضي الله عنه :

([77]١) إيضاح الدلالات ص (٨١ ، ٨٢).

([78]٢) ولا شك أن هذه القينة كانت تغنيه الغناء المباح وأنها أمته فيجوز له سماعها.

حكى الحافظ أبو نعيم أنه كان يميل إلى السماع ويستلذ بالترنم.

عبدالله بن جفعر بن أبي طالب رضي الله عنه :

قال ابن عبدالبر في الاستيعاب إنه كان لا يرى بالغناء بأسا وقال الأستاذ أبو منصور البغدادي في مؤلفه في السماع: كان عبدالله بن جعفر مع كبر شأنه يصوغ الألحان لجواريه ويسمعه منهن على أوتاره وكان أمير المؤمنين إذ ذاك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسماع عبدالله بن جعفر مشهور مستفيض نقله عنه كل من أمعن في المسألة من الفقهاء والحفاظ وأهل التاريخ الأثبات([79]١).

المغيرة بن شعبة رضي الله عنه :

وأما المغيرة بن شعبة فقد حكى سماع الغناء عنه أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه (قوت القلوب) والشيخ تاج الدين الفزاري وغيرهما.

عامر الشعبي رحمه الله تعالى:

وهو من أكابر التابعين علما وعملا وقد حكى عنه الأستاذ أبو منصور أنه كان يقسم الأصوات إلى الثقيل الأول والى الثقيل الثاني وما بعدها من المراتب.

عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى :

وهو من أكابر التابعين وهو مع علمه وعبادته وزهده ومعرفته بالسنن والآثار فقد قال عنه الأستاذ أبو منصور: إنه كان يقسم الأصوات إلى الثقيل الأول والى الثقيل الثاني وما بعدهما من المراتب ونقل ابن قتيبة أن عطاء بن أبي رباح ختن ولده وعنده الأبجر يغني فكان إذا سكت وإذا لحن رد عليه.

عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى:

قال ابن قتيبة : سئل إسحاق عنه فقال: ما طن في سمعه شيء بعد أن أفضت إليه الخلافة وأما قبلها فكان يسمع من جواريه خاصة ولا يظهر عنه إلا الجميل وربما صفق بيده وتمرغ على فراشه طربا وضرب برجليه.

- **الغناء والسماع عند السلف رضي الله عنهم**

عبدالله بن جريج رحمه الله تعالى:

([79]١) إيضاح الدلالات ص (٨٢ – ٨٣).

وهو من العلماء والحفاظ العباد المجمع على عدالته وجلالته وكان يسمع الغناء ويعرف الألحان وحكى عنه الأستاذ أبو منصور أنه كان يصوغ الألحان ويميز البسيط والنشيد والخفيف.

وقال ابن قتيبة : حُكي عن ابن جريج أنه كان يروح إلى الجمعة فيمر على مغن فيدق بابه عليه فيخرج فيجلس معه على الطريق ويقول: غن فيغنيه أصواتا فتسيل دموعه على لحيته ثم يقول: (إن من الغناء لما يذكر الجنة)([1][80]).

أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى:

حكى ابن قتيبة عنه وغيره: أنه كان له جار كل ليلة يغني ويقول شعرا:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا	ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان يستمع إليه وإنه فقد صوته فسأل عنه فقيل له: إنه وجد بالليل وسجن في سجن عيسى الأمير فلبس عمامته وتوجه إلى الأمير وتحدث معه فقال: لا أعرف اسمه فقال أبو حنيفة رضي الله عنه اسمه عمرو فقال الأمير: أطلقوا كل من اسمه عمرو فأطلق الرجل فلما خرج قال له أبو حنيفة رحمه الله تعالى : أضعناك يا فتى؟ قال بل حفظت فتضمنت هذه الحكاية أنه كان يستمع إليه ولم ينهه عن الغناء.

الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

قال الغزالي رحمه الله تعالى : ليس تحريم الغناء من مذهبه وحكى عنه الأستاذ أبو منصور البغدادي أن مذهبه إباحة السماع بالقول والألحان إذا سمعه من رجل أو جارية أو امرأة يحل له النظر اليها في داره أو دار صديقه ولم يسمعه على قارعة الطريق ولم يقترن بشيء من المنكر ولم يضع الصلاة عن وقتها ولم يضيع بشهادة لزمه أداؤها([2][81]).

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى:

قال أبو الوفاء بن عقيل في كتابه المسمى (بالفصول) صحت الرواية عن أحمد أنه سمع الغناء عند ابنه صالح وقال شارح المقنع روي عن أحمد أنه سمع قوالا فلم ينكره فقال له ابنه: يا أبت كنت تكرهه فقال قيل إنهم يستعملون المنكر معه!!.. وقد

([80][1]) إيضاح الدلالات ص (٩٠ – ٩١).

([81][2]) إيضاح الدلالات ص (٩٤ – ٩٥٤).

قال ابن الجوزي إنه يحمل قوله وفعله على ما كان يغنى له في زمنه من القصائد الزهديات.

وسأل الإمام أحمد رجل فقال: يا أبا عبدالله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال مثل أي شيء؟ قال يقولون:

إذا ما قال لي ربي	أما استحيت تعصيني
وتخفي الذنب عن خلقي	وبالعصيان تأتيني

فقال: فدخل بيته ورد الباب فسمعت نحيبه من داخل البيت يردده وهو يقول هذه الأشعار.

سفيان بن الحارث رحمه الله تعالى:

حكى عنه تلميذه الفقيه العالم الحافظ الزبير بن بكار في الموفقيات والماوردي في الحاوي: أنه لما قدم ابن جامع مكة بمال جم قال سفيان لأصحابه علام يعطى ابن جامع هذه الأموال؟ قالوا على الغناء قال: ما يقولون فيه؟ قالوا يقول شعرا:

أطوف بالبيت مع من يطوف	وأرفع من مئزري المسبل

قال هي السنة ثم ماذا فقالوا: يقول شعرا:

وأسجد بالليل حتى الصباح	وأتلو من المحكم المنزل

قال: أحسن وأصلح ثم ماذا؟ فقالوا: يقول شعرا:

عسى فارج الهم عن يوسف	يسخر لي ربة المحمل

قال: أفسد الحبيب ما أصلح سخرها الله له.

الإمام ابن مجاهد رحمه الله تعالى:

قال أبو طالب المكي رحمه الله تعالى في كتابه (قوت القلوب) كان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيها سماع([82]١).

فها هو ذا سماع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والتابعين والسلف الصالح وهو كما رأينا سماع هادف لنوع مخصص من الغناء والنشيد والحداء إنه غناء يحي في النفس جذوة الإيمان ويوقظ في العقل قبس الفكر أو هو من اللهو

([82]١) إيضاح الدلالات في سماع الآلات ص (٩٧- ٩٩).

المباح الذي يروح به عن النفس في ساعة الضيق ولكن دون الخروج عن قانون الشريعة الإسلامية أو تخط لحدود الشارع سبحانه وتعالى .

والغناء الإسلامي الهادف: أحد الفنون الإنسانية التي يلجأ اليها الإنسان يروي بها ظمأ روحه العطشى إلى السكينة والأمان وقد يلوي عليها ليثبت في نفسه جوا من الفرح والسرور والأنس والطرب.

وقد نظر الإسلام إلى الحياة نظرة جادة فاعلة خلاقة منشئة وجعل من كل مخلوقات الله ما هو مسخر لهذا الهدف النبيل والوجود الأمثل الذي خلق المسلم من أجله. والغناء أحد هذه الأمور التي أراد لها الإسلام أن تكون هادفة مسخرة لقوى المسلم في خصم صراعاته مع الحياة والناس.

ولقد عُني بعض من شعراء الدعوة الإسلامية بنظم قصائد مغناة وأناشيد هادفة تعبر خير تعبير عن الغناء الإسلامي الهادف والذي رما إليه الإسلام ولعل أشهر أنواع هذا الغناء الإسلامي الهادف:

١- النشيد الديني:

وهو الذي فيه ذكر الله ووصف الجنة والنار وحب الله ورسوله والتعشق لوصالهم والحظوة بقربهم ولعل (الموالد النبوية) زاخرة بمثل هذه الأمور التي يكثر ذكرها والتغني بها ومثاله قول الشاعر في قصيدة بعنوان: (رحماك):

رحماك يا رب العباد رجائي	ورضاك قصدي فاستجب لدعائي
وحماك أبغي يا إلهي ضارعا	منك الرضا فجد بولائي
ناديت باسمك يا إلهي ضارعا	إن لم تجبني فمن يجيب دعائي
أنت الكريم فلا تدعني تائها	فلقد عييت من العباد النائي
مالي سوى أعتاب جودك موئلٌ	فلئن رددت فمن سواك رجائي
ولقد رجوتك يا إلهي ضارعا	متذللا أن لا ترد رجائي

ومنه كذلك هذه القصيدة بعنوان (إلهنا ما أعدلك):

إلهنا ما أعدلك	مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك	لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	والليل لما أن حلك

والسابحات في الفلك	على مجاري المنسلك
ما خاب عبد أملك	أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك	كل نبي وملك
يا مخطئا ما أغفلك	عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك	لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك	والعز لا شريك لك

٢- نشيد الحب والمنأجاة:

وفي هذا النشيد نلمح الحب المطلق ذلك الذي يتجاوز كل شيء إنه حب لا محدود حب الله ورسوله وملائكته وخلقه وبديع صنعه ذلك الحب الذي يتخذ في بعض الأحيان أشكالا رمزية تعطي الألفاظ مدلولات أشمل وأرحب.

ولعل أجمل ما في هذه الأناشيد هو ذلك الحب المثالي حب المطلق (الله جل جلاله) الذي يعشقه الشاعر فيسبغ على محبته ألفاظا رقيقة ومعان عذبة فتارة هو ليلى ومرة سعدى ولعل رابعة العدوية وتحفة الزاهدة وابن الفارض والحلاج ... وغيرهم خير ممثل لهذا الاتجاه الرمزي الصوفي العميق الذي بلغ شأنا عظيما ومدرسة مستقلة بذاتها.

ومثاله قول الشاعر:

فما المنازل لولا أن تحل بها	وما الديار وما الأطلال والخيم
لولاك ما شاقني ربع ولا طلل	ولا سعت بي إلى نحو الحمى قدم
في كل جارحة عين أراك بها	مني وفي كل عضو للثناء فم
فإن تكلمت لم أنطق بغيركم	وإن سكت فشغلي عنكم بكم
إن مت في حبكم شوقا فيا شرفي	ويا سروري من موتي لكم بكم
أنا المقر بذنبي فاصفحوا كرما	فبانكساري وذلي قد أتيتكم
لا تطردوني فإني قد عرفت بكم	وصرت بين الورى أدعى بعبدكم

٣- النشيد النبوي:

وهو النشيد الذي فيه ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته العطرة ومعجزاته وحب الصحابة والمؤمنين له ووصفه عليه الصلاة والسلام كاملا من ناحية خَلْقية

وخُلُقية وتشوق المؤمنين لرؤيته وورود الحوض معه يوم القيامة ثم العيش معه في جنة الخلد ولعل أكثر الموالد النبوية هي التي تأخذ بهذا الشأن الذي يكثر من حب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والحديث عنه بشوق وهيام.

ومنه قول الشاعر في قصيدة بعنوان : (ناشر الإيمان):

ناشر الإيمان مبعوث السما	بهر الدنيا وعز البشر
يا رسول الله المجد يا فخر الحمى	قد تنادى الناس حيرى تنظر
أيها المرسل للكون بما	فيه خير وجمال عطر
أنت مصباح ينير الظلما	حجبته قدرة تستتر
مرسل أرسله رب الأنام	ونبي لم يلاق الوهنا
ينشر الرحمة في قوم نيام	نغما يحمل طيبا ومنى
مر يا ذكرى علينا كلما	ضاقت النفس وجل الخطر
إننا نشتاق ذاك النغما	ويناديننا إليه القدر

٤- نشيد الحكمة والموعظة:

وهو نوع من الشعر ينطلق صاحبه بموعظة إسلامية أو حكمة بالغة مستقاة إما من صميم شريعتنا أو من وحي تجارب الحياة وصراعاتها وهو شعر كثير على أن أكثر المنشدين يعرضون عنه لخلوه من العنصر الموسيقي في معظم الأحيان ومثاله قول الشاعر في قصيدة مليئة بالرضى والطمأنينة والحكمة وهي بعنوان (علمتني الحياة):

علمتني الحياة أن أتلقى	كل ألوانها رضا وقبولا
ورأيت الرضا يخفف أثقا	لي ويلقي على المآسي سدولا
وأنا راض بكل ما كتب الله	ومزج إليه حمدا جزيلا
لست اخشى من اللئيم اذاه	لا ولن أسأل النبيل قتيلا
في فؤادي لكل ضيق مكان	فكن الضيف مؤنسا أو ثقيلا
علمتني الحياة أن لها طعـ	مين مرا وسائغا معسولا
قد تسري الياة عني فتبدي	سخريات الورى قبيلا قبيلا
فأراها موعظا ودورسا	ويراها سواي خطبا جليلا
أمعن الناس في مخادع النفـ	س وضلوا بصائرا وعقولا

عبدوا الجاه والنضار وعينا	من عيون المها وخدا أسيلا
علمتني الحياة أني إن شعـ	ت لنفسي أعش حقيرا هزيلا
علمتني الحياة أني مهما	أتعلم فلا ازال جهولا

- **القرآن وأثر البالغ في النفوس:**

القرآن وأثره البالغ في نفوس المؤمنين : نزل القرآن على العرب الفصحاء فأثر فيهم وترك آثارا لا زالت إلى اليوم وستبقى إلى يوم الدين على أن المسلمين الأول وعوا معاني القرآن من صميم كلماته فكان تأثيره اكبر في نفوسهم وسماعه أعذب في آذانهم ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع قارئا يقرأ ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾([83]١) فارتكن إلى جدار ثم عاد إلى بيته يعوده الناس شهرا كاملا.

هكذا سمع الصحابة سماع الله سبحانه وتعالى فكان أن هيمنوا على العالم القديم بكل كيانه ونفوذه هذا القرآن العظيم هو كلام الله الأزلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهيهات أن يأتي بمثله بشر أو أي مخلوق كان.

ولقد تحدى القرآن المشركين والمعاندين على أن يأتوا بقرآن مثله تحداهم مرة أن يأتوا بمثله كاملا فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾([84]٢).

ثم تحداهم بما هو أيسر من هذا (أن يأتوا بعشر سور) فقال: ﴿أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾([85]٣).

ثم سهل لهم المهمة أكثر من ذلك بكثير ليظهر لهم عجزهم فقال: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾([86]٤).

([83]١) سورة الطور الآيات من (١– ٨).

([84]٢) سورة الإسراء الآية (٨٨).

([85]٣) سورة هو الآية (١٣).

([86]٤) سورة البقرة الآية (٢٣).

لقد سحر القرآن العرب من اول يوم سمعته آذانهم حتى إن المشركين أنفسهم كانوا يتناصحون فيما بينهم بعد سماعه كيلا يسحرهم ويؤثر فيهم.

وما قصة الوليد بن المغيرة إلا شاهدا حيا على عظمة القرآن وروعة كلماته وعظمتها فعندما سمع الوليد من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شيئا من القرآن أصغى بكل كيانه فإذا به يتيه في بلاغته فقالت قريش: صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلها فأرسلوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ويطلب إليه ان يقول في القرآن قولا يعلم به قومه أنه له كاره قال فماذا أقول فيه؟ فو الله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى عليه وإن أعلاه لمثمر وأسفله لمغدق فقال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر فيه فلما فكر قال: إن هذا السحر يؤثر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه([١][87]).

هكذا وعى الأقدمون القرآن فهموا معانيه وتشربوا أحكامه واليوم صار القرآن وقفا على الموتى وشفير القبور فما عدنا نسمع الآيات تتلى إلا إذا أممنا دارا فيها مأتم أو شيعنا جنازة إلى قبرها عند ذلك نسمع القرآن هكذا صار القرآن يتلى على الأموات في حين أنه بعث للأحياء ﴿لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين﴾([٢][88]).

هذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في رواية: (فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت فدخلت الإسلام) ويقال عنه في رواية أنه قال: (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه).

ثم هذا القرآن يصف لنا أثره في نفوس المؤمنين به وكذلك نفوس الذين أوتوا العلم من قبله يقول: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾([٣][89]) ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله وإذا يتلى عليهم يخرون للأذقان

([87]١) عن السيرة لابن هشام.

([88]٢) سورة يس الآية (٧٠).

([89]٣) سورة الزمر الآية (٢٣).

سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾([90]١) .

لقد اشتركت المعاني والألفاظ في القرآن لتجعل منه منهاج شريعة المسلمين وحديثهم في حلهم وترحالهم وفي ليلهم ونهارهم في جدهم وهزلهم وإذ هو يحكم في كل قضاياهم المصيرية والعادية على السواء.

(أما طريقته في ذلك فكانت هي الطريقة العامة طريقة التصوير والتشخيص التخييل والتجسيم في هذا المنطق اشتركت الألفاظ المعبرة والتعبيرات المصورة والصور الشاخصة والمشاهد الناطقة والقصص الكثيرة... وكل ما عرض من مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب يعد في جملة هذا المنطق الذي يلمس الحس ويوقظ الخيال فيلمس البصيرة ويوقظ الوجدان ويهيء النفس للاقتناع والإذعان)([91]٢).

هذا هو القرآن الذي ينبغي علينا أن نلبسه حلة الخلود في نفوسنا وضمائرنا وأسماعنا لأنه الكتاب الخالد في أحاسيسنا ويجب أن يبقى كذلك لأنه تنزيل من عزيز حميد.

وهل هناك من غناء أو كلام هو أفضل في مقياس الجمال من كلام الله سبحانه وتعالى هذا هو كلام الخالق وإنه لكلام رائع باهر يحي في النفس صور الحياة المثلى ليعبر بها إلى دار الخلود.

هل تكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الشعر

من المعلوم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نشأ في بيئة بني سعد موطن الفصاحة والبلاغة ولكن لم تذكر لنا كتب التاريخ والأدب انه قال شعرا قبل النبوة ولا نظمه بعد النبوة كالشعراء علما انه كان أفصح بني آدم كما تحدث بذلك هو عن نفسه حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم «أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر»([92]٣).

وتتجلى حكمة منعه صلى الله عليه وآله وسلم من القول بالشعر كما قال تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾([93]٤) ، حكمة ذلك لما

([90]١) سورة الإسراء الآية (١٠٨).

([91]٢) التصوير الفني في القرآن : ص (١٧٧– ١٧٨).

([92]٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٦٩٦) ورمز لصحته.

([93]٤) سورة يس الآية (٦٩).

كان الله قد ادخر من جعل فصاحة القرآن معجزة له ودلالة على صدقه لما هو عليه من أسلوب البلاغة وعجيب الفصاحة الخارجة عن أنواع كلام العرب البلغاء الفصح المتشدقين كما سلب عنه الكتابة وأبقاه على حكم الأمية تحقيقا لهذه الحالة وتأكيدا لها وذلك قوله تعالى ﴿وما ينبغي له ﴾ لأجل معجزته والتي صفتها من صفته ثم هي زيادة عظمى على علو مرتبته([94]١).

وقد اختلف في جواز تمثل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء من الشعر وإنشاده حاكيا عن غيره فالصحيح جوازه.

وقد روي عن شريح عن أبيه قلت لعائشة أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر ابن رواحة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود([95]٢).

وأما ما وقع منه في غزوة حنين (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب)([96]٣) فقد وقع منظوما من غير قصد منه إلى ذلك.

وروي عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبني المسجد وعبدالله بن رواحة يقول: أفلح من يعالج المساجد فيقولها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول ابن رواحة : يتلو القرآن قائما وقاعدا فيقولها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي هذا وفي غيره يؤيد أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجوز له أن يحكي الشعر عن ناظمه([97]٤).

وأنشد يوما وقد قيل له من أشعر الناس فقال: (الذي يقول:

ألم ترياني كلما جئت طارقا	وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

وأنشد يوما حينما جاءه العباس بن مرداس قال له : أأنت القائل:

أتجعل نهبي ونهب العبيد	يد بين الأقرع وعيينة

([94]١) أحكام القرآن لابن عربي (١٥٩٧/٤).

([95]٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٦٧) والترمذي (٢٨٤٨) و في الشمائل (٢٤١) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩٧) وأحمد (١٣٨/٦).

([96]٣) أخرجه البخاري (٢٩٣) ومسلم (٤٥٩١) وأحمد (٢٨٠/٤) والترمذي (١٦٨٨) وفي الشمائل (٢٤٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٠٥).

([97]٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٥٨/١٣).

فقال أبو بكر بين عيينة والأقرع فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هما واحد) فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾([98]١). ([99]٢)

وإصابته للوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر وكذلك يأتي أحيانا من نثر كلامه ما يدخل في وزن كقوله يوم حنين وغيره:

هل أنت إلا أصبع دميت	وفي سبيل الله ما لقيت([100]٣)

قال الإمام القرطبي تعليقا على تلك الأبيات التي أوردناها : ولا نلزم منه ان يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم عالما بالشعر ولا شاعرا إن التمثل بالبيت النزر وإصابة القافيتين من الرجز وغيره لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر ولا يسمى شاعرا باتفاق العلماء كما أن من خاط خيطا لا يكون خياطا قال أبو إسحاق الزجاج معنى ﴿وما علمناه الشعر ﴾ أي : وما علمناه أن يشعر أي ما جعلناه شاعرا وهذا لا يمنع أن ينشد شيئا من الشعر قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا.

الألغاز في الشعر والإنشاد:

قد اختار بعض الصوفية الألغاز والإشارة والتحجبة باستعمال المجاز والكناية والاستعارات والرموز اللغوية تعبيرا عن أذواقهم ومواجيدهم وأشواقهم حتى اختصوا بذلك وعرفوا بأهل الإشارة لأسباب منها: عدم مساعفة الألفاظ المألوفة والعبارات المألوفة لتصوير مداركهم ومشاعرهم فكان اللجوء إلى الإشارة والرمز ضرورة لقربها من حسن عرض المشاعر والأحاسيس وتصويرها والتعبير عنها.

ثم إن لكل علم مصطلحا مستحدثا وهذا اصطلاحهم الخاص بهم فلماذا يؤاخذون على أنهم استقلوا بنوع من الاصطلاح ولا يؤاخذ بقية أصحاب العلوم والفنون والحرف وغيرها.

وأما معاني المصطلحات فتطلب من كتبهم وخصوصا ما كتبه فيها الشيخ ابن عجيبة والشيخ علي وفا ومن قبلهم وبعدهم

([98]١) سورة يس الآية (٦٩).

([99]٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٩٤).

([100]٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٢) وأحمد (٤/٣١٢/٣١٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/٤٣/٤٤) والبغوي (٣٤٠١) والطحاوي في شرح مشكل الاثار (٤/٢٩٩) والترمذي (٣٣٤٥) والطبراني في الكبير (١٧٠٣) ومسلم (٤٦٣٠) وابن حبان (٦٥٧٧) والحميدي (٧٧٦) وابن أبي شيبة (٨/٧١٦).

ردود على أدلة التحريم

واما أدلة التحريم التي تمسك بها القائلون بتحريم الغناء والاستماع إليه فلقد ناقشها القائلون بالإباحة مناقشة علمية وحللوها تحليلا بحيث يزيل اللبس والإشكال ويضع النقاط على الحروف فقالوا:

١- إن الآية الكريمة التي تمسك بها القائلون بالتحريم ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾([101]١).

فقالوا عن لهو الحديث أنه الغناء مستشهدين برواية عن ابن مسعود وغيره من الصحابة إلا أن العلماء المحققين ذهبوا إلى ضعف الرواية مستدلين بما جاء في سنن الترمذي أن هذه الآية نزلت في مثل حديث (لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام([102]٢) كما قال الإمام الترمذي نفسه بعد إيراده لهذا الحديث.

ثم إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه يشتري كتب الأعاجم رستم واسفنديار فكان يجلس بمكة فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه وحدثهم باحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقيل كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته. فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه.

وهذا الرأي قد ذكره أكثر المفسرين([103]٣).

ثم إذا أمعنا النظر في منطوق الآية لوجدنا أن احتجاجهم يبطل بها لأن فيها ﴿ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾ وهذا القيد متفق عليه كما مر من كلام ابن حزم رضي الله عنه في تفسيرها.

٢- وأما الآية الكريمة الثانية التي احتجوا بها وهي قوله تعالى ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾... ﴿وأنتم سامدون﴾([104]١).

([101]١) سورة لقمان الآية (٦).

([102]٢) أخرجه الترمذي (٣١٩٥).

([103]٣) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٣٣٥/١٣).

ويقول ابن عباس هو الغناء بلغة حمير . فنقول : ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه فإن قيل: إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين وكما قال تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾([105]٢) وأراد به شعر الكفار ولم يدل على ذلك تحريم نظم الشعر في نفسه([106]٣).

٣- وكذلك الآية الثالثة التي احتجوا بها وهي قوله تعالى ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾([107]٤).

فقالوا: هو الغناء وعن ابن عباس قال: كداع إلى المعصية ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية ولهذا فسر صوت الشيطان به وقول مجاهد إنه الغناء الباطل . ورواية أخرى عنه: صوته هو المزامير([108]٥).

نقول: وذهب أكثر المفسرين إلى القول بصوتك: وصوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى لذلك فلا وجه للتخصيص بالغناء فقط وإنما بكل وسيلة تكون سببا إلى معصية الله.

٤- قال الحافظ أبو بكر البغدادي: من تمسك بتسمية أبي بكر مزمار الشيطان فقد اخطأ وأساء الفهم من وجوه منها:

تمسكه بقول أبي بكر مع رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم له قوله وزجره عن عنفه لهن ورجوع أبي بكر إشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنها : إعراض هذا القائل عن إقراره صلى الله عليه وآله وسلم واستماعه الذي لا احتمال فيه إلا أنه يقتضي الحل والإطلاق إلى لفظ أبي بكر ومحال أن يعتقد أبو بكر تحريم أمر حضره المصطفى وأقره عليه مع علم الصديق أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يقر على باطل والصحيح أنه يفهم من قول أبي بكر ما يليق به وهو أنه رأى ضرب الدف وإنشاء الشعر لعبا من جملة المباح الذي ليس فيه عبادة مما حمله على تنزيه حضرته صلى الله عليه وآله وسلم عن صورة اللعب ورأى أن الاشتغال بالذكر

([104]١) سورة النجم الآية (٥٨ -٦١).

([105]٢) سورة الشعراء الآية (٢٢٤).

([106]٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣٥١/٢).

([107]٤) سورة الإسراء الآية (٦٤).

([108]٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية (٢٥٥/١).

والعبادة في ذلك الموطن الكريم أولى فزجر عنه احتراما لا تحريما فرد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنكاره لأمرين:

إحداهما: أن لا يعتقد تحريم ما أبيح من شرعه توسعة لأمته ورفقا بها وتفسحا في بعض الأوقات.

والثاني: إظهار الشارع مكارم الأخلاق وسعة الصدر لأهله وأمته فتستريح ببعض المباح فيكون انشط لهم في العودة إلى وظائف العبادة([109]١).

٥- وأما حديث الجارية السوداء التي نذرت أن تضرب الدف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتتغنى وكان ذلك بحضرة جملة من أصحابه إلى أن حضر عمر رضي الله عنه فكفت فقال صلى الله عليه وآله وسلم «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر»([110]٢) فادعوا بأنه دليل على تحريم الغناء، لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم شبه المغني بالشيطان ولكن الحقيقة غير هذا لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أظهر لأصحابه منقبة من مناقب عمر([111]٣) هذا من جهة ومن جهة ثانية أن الجارية السوداء كانت قد نذرت بضرب الدف والتغني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن هو عاد سالما من سفره والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وافقها فالإقرار دليل الجواز حيث لا نذر في معصية الله كما جاء في الحديث الشريف «ثم إنه كان جالسا يسمع لها هو وأبو بكر وعثمان وعلي ولم ينكر عليها فهب أن سيدنا عمر لم يأت يومها فهل يقرها على معصية الله أم أنه يؤدي الأمانة أمام بعض الصحابة ويكتمها أمام الآخرين!!! حاش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يفعل هذا».

٦- وكذلك دعواهم بأن الصحابة والتابعين لم يسمعوا الغناء ولا جلسوا في مجالسه ولم يثبت عنهم أبدا والجواب عن هذا نقول: إن كثيرا من الأخبار جاءت في الكتب الموثوقة – كالإصابة في تمييز الصحابة والاستيعاب في معرفة

([109]١) التراتيب الإدارية ونظام الحكوومة النبوية لعبد الحي الكتاني (١٢٢/٢ –١٢٣) وانظر منهل الحديث : موسى شاهين وعبدالعال أحمد عبدالعال (٨٩/٣).

([110]٢) تقدم تخريجه ص (٣٧٧).

([111]٣) والحديث أخرجه الترمذي في باب مناقب عمر (٣٦٩٠).

الأصحاب، وكذلك نيل الأوطار – وذكروا طرفا من أخبار بعض الصحابة الذين كانوا يسمعون الغناء ولكن ليس في مجالس الفحش والمعصية كما جاء في الإصابة لابن حجر في ترجمة حسان بن عكرمة عن ابن عباس قال: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحسان ومعه أصحابه وسماطين وجارية له يقال لها سيرين وهي تغنيهم فلم يأمرهم ولم ينههم([112]١) وكذلك من مر معنا ذكره من الصحابة والتابعين في الحديث عن الغناء والسماع عند الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

الإمام الشعبي الفقيه الشهير الرواية الموثوق به كان يجعل من داره مكانا لابن سريج يغني فيه عندما استقدمه أهل العراق من الحجاز([113]٢).

ورب سائل يسأل فيقول: إن الآيات الواردة في سورة الشعراء والتي يقول فيها ربنا عز وجل ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا...﴾([114]٣).

أليس هذا دليلا واضحا على تحريم الشعر والقول به؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول: إن المفسرين ذكروا أن هذه الآيات إنما نزلت في الكفار كما ذكر ذلك الإمام القرطبي في تفسيره.

حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حينما نزلت هذه الآيات جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : يا نبي الله أنزل الله تعالى هذه الآية وهو تعالى يعلم أنا شعراء فقال (اقرؤوا ما بعدها) ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أنتم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أنتم ولا تذكروا الآباء والأمهات([115]٤).

([112]١) التراتيب الإدارية ونظام الحكومة النبوية لعبد الحي الكتاني (١٣٢/٢) ونيل الأوطار للشكوكاني (٢٦٥/٢) وما بعدها والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر (٢١١/٣).

([113]٢) التراتيب الإدارية ونظام الحكومة النبوية لعبدالحي الكتاني (١٣٢/٢ – ١٣٣).

([114]٣) سورة الشعراء الآية (٢٢٤ – ٢٢٧).

([115]٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٦٥/١٣).

وأما الإشكال الآخر فهو الذي ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا»([116]١).

قال علماؤنا إن فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ذلك الشاعر لما علم من حاله فلعل هذا الشاعر كان مما عرف من حاله أنه اتخذ الشعر طريقا للكسب فيفرط في المديح إذا أعطى وفي الهجو والذم إذا لم يعط فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم ولا خلاف في أن كل من كان على مثل هذا الحال فكل ما يكسبه بالشعر حرام وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ولا يحل الإصغاء إليه بل يجب الإنكار عليه ثم يتابع الإمام القرطبي قوله في تأويل معنى الحديث (لأن يمتلئ) وهذا الحديث أحسن ما قيل فيه وفي تأويله إنه الذي قد غلب عليه الشعر وامتلأ صدره منه دون علم سواه يخوض به في الباطل ويسلك به مسالك لا تحمد عقباها كالمكثر اللفظ والهذر والغيبة والنميمة وقبيح القول([117]٢).

ولقد تابعه في هذا القول الإمام ابن حجر في الفتح حيث قال في حديث (لأن يمتلئ) ولكن وجهه عندي أن يمتلئ قلبه من الشعر حتى يغلب عليه فيشغله عن القرآن وعن ذكر الله فيكون الغالب عليه واما إذا كان القرآن والعلم الغالبين عليه فليس جوفه ممتلئا من الشعر.

ولعل ما جاء في الإجابة للإمام الزركشي يوضح الإشكال أكثر فأكثر حيث جاء فيه أن السيدة عائشة رضي الله عنها استدركت حديث أبي هريرة رضي الله عنه (لأن يمتلئ) فقالت: لم يحفظ أبو هريرة الحديث إنما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لأن يمتلئ جوف احدكم قيحا ودما خير له من أن يمتلئ شعرا هجيت به)([118]٣). ([119]٤)

ولدى التأمل يتضح لنا من خلال هذا الاستدراك أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن لون معين من الشعر وهو فيما يتعلق بهجائه صلى الله عليه

([116]١) أخرجه مسلم (٥٨٥٥).

([117]٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (١٥٣/١٣).

([118]٣) أخرجه البخاري (٦١٦٥) وسلم (٥٨٥٣).

([119]٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٦٧/١٣).

وآله وسلم أو ما يكون مشابها للهجاء ومن المعلوم أن هجاء الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو هجاء للدعوة الإسلامية وهذا اللون لا خلاف في تحريمه([120]١).

وفي هذا القدر كفاية لمن يخضع لقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والله الهادي إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين

وصول ثواب القرآن

الأدلة النقلية والعقلية (القياس)

عن سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال«يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له اقرؤوها على موتاكم»([1]٢).

والمراد من (موتاكم) أي الميتين حقيقة وليس المحتضرين وقال الشوكاني والمحب الطبري في شرح موتاكم الواردة في الحديث اللفظ نص في الأموات وتناوله للمحتضرين مجاز فلا يصار إليه إلا لقرينة([2]٣).

وحيث لا توجد قرينة تصرف ظاهر اللفظ عن حقيقته إلى المجاز فلا يصار إلى المجاز أي لتفسير كلمة (موتاكم) الواردة في الحديث بالمحتضرين لعدم القرينة الصارفة ويبقى معنى موتاكم الميتين حقيقة ومعلوم لدينا ان الأموات إنما هم أحياء في قبورهم يسمعون قراءتنا ودعاءنا وقد مر معنا التفصيل في هذا في باب التوسل والاستغاثة في بداية فصل التوسل بالأموات (المنتقلين) فليراجع هناك.

([120]١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة: ص (٦٧٩ وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني (١٦١/١٣).

([1]٢) أخرجه أبو داود (٣١٢١) وابن ماجه (١٤٤٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٤) وأحمد (٢٦/٥) والحاكم (٥٦٥/١) والبغوي (١٤٦٤) وابن أبي شيبة (٢٣٧/٣) والطبراني في الكبير (٢٠ برقم ٥١٠) والبيهقي (٣٨٣/٣) وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١٣٤٤) ورمز لحسنه والطيالسي (٩٣١) وابن حبان (٣٠٠٢) عن ابي هريرة وأبي ذر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما من ميت يموت فيقرا عند يس إلا هون الله عز وجل عليه» أخرجه الديلمي (٦٠٩٩).

([2]٣) نيل الأوطار (٢٥/٣) .

عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال لي أبي اللجلاج : (يا بني إذا أنا مت فالحد لي لحدا فإن وضعتني في لحدي فقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله ثم سن التراب علي سنا ثم اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ذلك)([3]١).

وقال البعض: إن هذا الحديث مرسل وإننا لو سلمنا أنه مرسل فجمهور الفقهاء والأصوليين نصوا على الاستدلال بالحديث المرسل.

قال ابن كثير في كتابه الباعث الحثيث: قال ابن الصلاح والاحتجاج بالمرسل مذهب مالك وأبي حنيفة وأصحابهما قلت: أي ابن كثير- وهو محكي عن الإمام أحمد بن حنبل في رواية «الباعث الحثيث مصطلح الحديث ص ٤٨.

وقولهم مرسل: مردود لأن الحديث متصل وهذا سنده: قال الطبراني : حدثني الحسين بن إسحاق التستري ثنا علي بن حجر ثنا مبشر بن إسماعيل حدثني عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أ بيه قال أبي اللجلاج أبو خالد (يا بني إذا أنا مت... الحديث)([4]٢).

واخرج الحافظ السيوطي وأبو القاسم في قواعده (من دخل المقبرة فقرأ الفاتحة وألهاكم التكاثر وقل هو الله أحد ثم قال: إني جعلت ثواب ما قرأته من كلامك لأهل القبور من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له يوم القيامة).

وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه (يستحب أن يقرأ على القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخاتمتها)([5]٣).

وعن سيدنا أبي الدرداء وأبي ذر رضي الله عنهما : (ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه)([6]٤).

وعن أبي الشعثاء صاحب ابن عباس: أنه يستحب قراءة سورة الرعد وأن ذلك يخفف عن الميت وفيه عن الشعبي قال: كانت الأنصار يستحبون أن تقرأ عند الميت سورة البقرة([7]٥).

([3]١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦١٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٤٢) وقال رجاله موثوقون .

([4]٢) الرد المحكم المتين للشيخ عبدالله الصديق ص ٢٨٣ ونصب الراية للزيلعي (٣٠٢/٢).

([5]٣) الأذكار للنووي ص ١٢٣.

([6]٤) أخرجه الديلمي (٦٠٩٩).

([7]٥) ذكره الشوكاني في نيل الأوطار (٢٥/٣) وورد في سبل السلام (٩١/٢).

وعن الإمام أحمد قال: حدثنا ابن المغيرة حدثنا صفوان قال: كانت المشيخة يقولون: إذا قرئت أي يس عن الميت خفف عنه بها([8]١).

مذهب السادة الشافعية:

قال الحافظ السيوطي في شرح الصدور ما نصه: باب قراءة القرآن للميت أو على القبر اختلف في وصول ثواب القرآن للميت فجمهور السلف والأئمة الثلاثة قالوا بالوصول وخالف ذلك إمامنا الشافعي مستدلا بقوله تعالى ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ ثم أقر ذلك لقوله رحمه الله تعالى ... وأما القراءة على القبر فجزم بمشروعيتها أصحابنا وغيرهم قال الزعفراني: سألت الشافعي رحمه الله تعالى عن القراءة عند القبر؟ فقال: لا بأس بها قال الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين (باب الدعاء للميت بعد دفنه):

قال الشافعي رحمه الله: ويستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن وإن ختموا القرآن عنده كان حسنا([9]٢).

وقال النووي رحمه الله في شرح المهذب: يستحب لزائر القبور أن يقرأ ما تيسر من القرآن ويدعو لهم عقبها نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب وزاد في موضع آخر: وإن ختموا القرآن على القبر كان أفضل.

وقال القرطبي: وقد استدل بعض علمائنا على قراءة القرآن على القبر بحديث: العسيب والرطب الذي شقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم باثنين ثم غرس على قبر نصفا وعلى قبر نصفا وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا([10]٣) قال يستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن.

وقال النووي : استحب العلماء قراءة القرآن عن القبر واستأنسوا لذلك بحديث الجريدتين وقالوا : إذا وصل النفع إلى الميت بتسبيحهما حال رطوبتهما فانتفاع الميت بقراءة القرآن عند قبره أولى فإن قراءة القرآن من إنسان أعظم وأنفع من

([8]١)تفسير ابن كثير (٥٦٣/٣) والتلخيص (١٠٤/٢).

([9]٢) المجموع للنووي (٢٩٤/٥) ورياض الصالحين (٩٤٧).

([10]٣) أخرجه البخاري (٢١٨) وملم (١٦٧٥) وأبو داود (٢٠) والترمذي (٧٠٩ والنسائي (٣١) وابن ماجه (٣٤٧) وأحمد (٢٢٥/١) وابن أبي شيبة (٣٧٥/٣) والبيهقي في السنن (١٠٤/١) وابن خزيمة (٥٦) والدارمي (٧٣٩) وعبد بن حميد (٦٢٠).

التسبيح من عود وقد نفع القرآن بعض من حصل له ضرر في حال الحياة فالميت كذلك.

قال ابن الرفعة: الذي دل عليه الخبر بالاستنباط أن بعض القرآن إذا قصد به نفع الميت وتخفيف ما هو فيه نفعه إذ ثبت أن الفاتحة لما قصد بها القارئ نفع الملدوغ نفعته وأقر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بقوله (وما يدريك أنها رقية)([11]١) وإذا نفعت الحي بالقصد كان نفع الميت بها أولى([12]٢) وتبعه السبكي في ذلك.

وقال في شرح الروض في كتاب الإجارة فرع الإجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدرا معلوما جائزة للانتفاع بنزول الرحمة حين يقرأ القرآن ويكون الميت كالحي الحاضر سواء أعقب القرآن بالدعاء أو جعل أجر قراءته له أم لا فتعود منفعة القرآن إلى الميت في ذلك ولأن الدعاء يلحقه وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بكرة ولأنه إذا جعل أجره الحاصل بقراءته للميت فهو دعاء بحصول الأجر له فينتفع به فقول الشافعي إن القراءة لا تصل إليه محمول على غير ذلك.

وقال الإمام النووي: عن القاضي حسين في الفتاوى أن الاستئجار لقراءة القرآن على رأس القبر مدة جائز كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن واعلم أن عود المنفعة إلى المستأجر شرط فيجب عودها في هذه الإجارة إلى المستأجر أو الميت فالمستأجر لا ينتفع بقراءة غيره ومعلوم ان الميت لا يلحقه ثواب القراءة المجرد فالوجه تنزيل الاستئجار على صورة انتفاع الميت ذكر الشيخ عبدالكريم الشالوسي أنه إن نوى القارئ بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم يلحقه وإن قرأ ثم جعل ما حصل من الأجر له فهذاء دعاء بحصول ذلك الأجر للميت فينتفع الميت .

قال النووي ظاهر كلام القاضي حسين صحة الإجارة مطلقا وهو المختار فإن موضع القراءة موضع بركة وبه تنزل الرحمة وهذا مقصود ينفع الميت والله اعلم([13]٣).

([11]١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦) ومسلم (٥٦٩٧) وأبو داود (٣٤١٨) والترمذي (٢٠٦٤) وابن ماجه (٢١٥٦) وأحمد (٢/٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢٨) والداقطني (٦٤/٣) والبيهقي (١٢٤/٦) والطحاوي (١٢٦/٤ -١٢٧).

([12]٢) المقالات السنية ص (١٧٠ -١٧٢) وإتحاف السادة المتقين (٣٦٩٩/١٠).

([13]٣) روضة الطالبين للنووي (١٩١/٥).

وفي الرملي على المنهاج في باب الوصايا: أن الدعاء بوصول ثواب القراءة للميت مقبول قطعا فإنه إذا كان مقبولا بما لاحق فيه للداعي فكيف بما لا حق فيه ولا عمل؟ أي فهو مقبول من باب أولى وقال ابن الصلاح وينبغي الجزم بنفع قوله اللهم أوصل ثواب ما قرأناه لأنه إذا نفعه الدعاء بما ليس للداعي فماله أولى ويجري هذا في سائر الأعمال وقال الشبرملسي على الرملي: إنه إن نوى ثواب قراءته أو دعا عقبها بحصول ثوابها للميت أو قرأ عند قبره حصل له ثواب القراءة وحصل للقارئ أيضا الثواب فإذا سقط ثواب القارئ لمسقط كأن غلب الباعث الدنيوي فينبغي أن لا يسقط مثله بالنسبة إلى الميت فيها إذا كانت القراءة بأجرة وينبغي أن تكفي نية القارئ الثواب للميت ولو لم يدع واختار السبكي وابن حجر والرملي وغيرهم جواز إهداء القراءة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قياسا على الصلاة عليه.

وفي شرح المنهاج لابن النحوي: والمختار الوصول إذا سأل الله إيصال ثواب قراءته وينبغي الجزم به لأنه دعا فإذا جاز الدعاء للميت بما ليس للداعي فلأن يجوز ما هو له أولى([14]).

وفي باب الإجارة من فتاوى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ما نصه: سئل عن إجارة من يقرأ لحي أو ميت بوصية أو نذر أو غيرهما ختمة هل يصح ذلك من غير تعيين زمان أو مكان أو لابد من التعيين حتى يمتنع ذلك فيمن أوصى بالقراءة ثم مات غريقا أو لا يعرف له قبر؟ وإذا قلتم بالأول فهل تصح الإجارة لقراءة قرآن بالتعيين المذكور أو لا؟ وإذا فرغ القارئ من القراءة فما صورة ما يدعو به؟ هل يقول: اللهم اجعل ثواب ما قرأته لفلان أو مثل ثوابه؟ وهل يهديه أولا للأنبياء والصالحين ثم للمستأجر له أو يهديه أولا له ثم لهم؟ فأجاب: بأن الإجارة تصح لقراءة ختمة من غير تقدير بزمن وتصح قراء قرآن بتقدير ذلك سواء عين مكانا أم لا وقد افتى القاضي حسين بصحتها بقراءة القرآن على رأس القبر مدة كالإجارة للأذان وتعليم القرآن قال الرافعي والوجه تنزيله على ما ينفع المستأجر له إما بالدعاء عقب القراءة وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بركة وإما بجعل ما حصل من الأجر له والمختار كما قاله النووي صحة الإجارة مطلقا كما هو ظاهر كلام القاضي لأن محل القراء محل

([14]) نيل الأوطار (١٠٥/٤) سبل السلام (١١٨/٢ -١١٩).

بركة وتنزل الرحمة وهذا مقصود بنفع المستأجر له وبذلك علم انه لا فرق بين القراءة على القبر وغيره وصورة ما يدعو به: اللهم اجعل مثل ثواب ذلك .... الخ إذ المعنى على مثل ثواب ذلك كما لو أوصى لزيد بنصيب ابنه فإنه يصح على معنى مثل نصيب ابنه ، وإن كان المعنى على ذلك فله أن يهدي ثواب ذلك للأنبياء والصالحين ثم للمستأجر له بل هو أولى لما فيه من التبرك بتقديم من يطلب بركته وهو أحب للمستأجر غالبا.

وقال العسقلاني عندما سئل عن وصول ثواب القراءة للميت ما يلي: هي مسالة مشهورة والحاصل ان اكثر المتقدمين من العلماء نصوا على الوصول وان المختار الوقف عن الجزم على المسالة مع استحباب عمله والإكثار منه([15]١).

وقال العلامة الشربيني في تفسير قوله تعالى ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾([16]٢).

ما يلي: وأن ليس للإنسان كائنا من كان إلا ما سعى فلابد أن يعلم الحق في أي جهة فيسعى فيه ودعاء المؤمنين للمؤمن من سعيه بموداته ولو بموفقته لهم في الدين فقط وكذا الحج عنه والصدقة ونحوها فكذلك وتضحية النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أمته أصل كبير في ذلك فإن من تبعه واده وهو أصل في التصدق عن الغير وإهداء ماله من الثواب في القراءة ونحوها إليه وقال ابن عباس رضي الله عنهما هذا منسوخ الحكم في هذه الشريعة أي وإنما هو في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام بقوله ﴿ألحقنا بهم ذريتهم﴾([17]٣) فأدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء وقال عكرمة إن ذلك لقوم موسى وإبراهيم عليهما السلام أما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم لما يروى أن امرأة رفعت صبيا فقالت: يا رسول الله ألهذا حج فقال : (نعم ولك أجر)([18]٤) وقال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إن أمي

([15]١) الرسائل المنبرية (٤١/٤).

([16]٢) سورة النجم الآية (٣٩).

([17]٣) سورة الطور الآية (٢١).

([18]٤) أخرجه مسلم (٣٢٤١) وأبو داود (١٧٣٦) والنسائي (٢٦٤٦) وأحمد (٢١٩/١) ومالك (٤٢٢/١) والحميدي (٥٠٤) وابن خزيمة (٣٠٤٩) والبيهقي (١٥٥/٥) والطحاوي في مشكل الآثار (٢٢٩/٢) وفي شرح معاني الآثار (٢٥٦/٢) وابن الجارود في المنتقى (٤١١) والبغوي (١٨٥٢) والطبراني في الكبير (١٢١٧٦) والطيالسي(٢٧٠٧) والشافعي في مسنده (٢٨٩/١) وابن حبان (١٤٤).

افتلتت نفسها([1][19]) وأراها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال نعم([2][20]).

وقال السيد الآلوسي في تفسير الآية السابقة ما نصه: (وقال بعض أجلة المحققين إنه ورد في الكتاب والسنة ما هو قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهر الآية فتقيد بما لا يهنه العامل).

وقال الشيخ محمد العربي معقبا على قول الآلوسي السابق: على أن المحققين من المفسرين قالوا: إن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنيا على سعي نفسه (وهو أن يكون مؤمنا) كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تابعا له وقائما بقيامه ولأن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ولكن إذا نواه به فهو به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه.

وقد قال تعالى ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾([3][21]) ولو آمنوا لانتفعوا بشفاعة إخوانهم المؤمنين وكذلك سعي المؤمن لأخيه المؤمن لو لم يكن مؤمنا لا انتفع به فإيمانه هو سبب قبول شفاعة أخيه وسعيه وحيث إن إيمانه من سعيه وعليه ترتب قبول سعي غيره له دخل ذلك تحت نطاق قوله تعالى ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾([4][22]). حيث قد سعى بإيمانه في قبول سعي الغير له.

ويدل على ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده([5][23]): أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشاما ابنه نحر عنه حصته خمسين وأن عمرا ابنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال له: (أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك)([6][24]).

مذهب السادة الحنفية:

([19][1]) افتلتت نفسها: ماتت وأراها بضم الهمزة أي أظنها.

([20][2]) أخرجه البخاري (٢٧٦٠) ومسلم (٢٣٢٣) وأبو داود (٢٨٨١) والنسائي (٣٦٥١) وابن ماجه (٢٧١٧) وأحمد (٥١/٦) والحميدي (٢٤٣) وابن خزيمة (٢٤٩٩) والبيهقي (٢٧٧/٦) والبغوي (١٦٩) وابن حبان (٢٣٥٣) ومالك (٧٦٠/٢).

([21][3]) سورة المدثر الآية (٤٨).

([22][4]) سورة النجم الآية (٣٩).

([23][5]) وقد حقق ابن القيم في إعلام الموقعين صحة مسند عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

([24][6]) أخرجه أحمد (١٨٢/٢).

قال العلامة المرغيناني في كتابه (الهداية) في أول باب الحج عن الغير ما نصه: (الأصل في هذا الباب أن الإنسان له أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة أو صوما أو صدقة أو غيرها عند أهل السنة والجماعة لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أنه ضحى بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه والآخر عن أمته ممن أقر بوحدانية الله وشهد له بالبلاغ)(١[25]).

وقال العلامة البدر العيني في شرحه على كنز الدقائق ما نصه: يصل إلى الميت جميع أنواع البر من صلاة أو صوم أو حج أو صدقة أو ذكر أو غير ذلك(٢[26]).

وقال العلامة الزيلعي في شرحه على الكنز أيضا في باب الحج عن الغير ما نصه: الأصل في هذا الباب أن الإنسان له أن يجعل ثواب عمله لغيره عند أهل السنة والجماعة صلاة كان أو صوما أو حجا أو صدقة أو قراءة قرآن أو الأذكار إلى غير ذلك من جميع أنواع البر ويصل ذلك إلى الميت وينفعه... فقد ورد في الأثر إن من البر بعد الموت أن تصلي لهما – أي الوالدين – مع صلاتك وأن تصوم لهما مع صومك.

وورد أيضا: من مر على المقابر وقرأ قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ثم وهب أجرهما للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات.

وورد: من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها حسنات.

وورد أنه: يصل ثواب من يهدي اليهم ويفرحون به كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدي إليه.؟

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اقرؤوا على موتاكم سورة يس(٣[27]).

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه ضحى بكبشين أملحين أحدهما عن نفسه والآخر عن أمته.(١[28]) أي جعل ثوابه لأمته.وهذا تعليم منه عليه الصلاة والسلام ان الإنسان ينفعه عمل غيره والاقتداء به هو الاستمساك بالعروة الوثقى.

([25]١) أخرجه أبو داود (٢٧٩٥) وأحمد (٣/٣٦٢) وأبو يعلى (ج٣/١٧٩٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٤/برقم ٥٩٦٩).

([26]٢) تقدم تخريجه ص (٢٩٣).

([27]٣) انظر نيل الأوطار للشوكاني (٤/١٢٥).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك»([29]٢).

ولهذا قال تعالى ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾([30]٣) وما أمر الله به من الدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم وما ذكره في كتابه العزيز من استغفار الأنبياء والملائكة لهم حجة لنا عليهم لأن كل ذلك عمل الغير وأما قوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾([31]٤) فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما إنها منسوخة بقوله تعالى ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾([32]٥) وقيل هي خاصة بقوم موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام لأنه وقع حكاية عما في صحفهما بقوله تعالى ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى﴾([33]٦) وقيل : أريد بالإنسان الكافر وأما المؤمن فله ما سعى له أخوه.

وقال ابن عابدين رحمه الله تعالى : صرح علماؤنا في باب الحج عن الغير بأن للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاة أو صوما أو صدقة أو غيرها واستدلوا بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وإذا تصدق بصدقة تطوعا فيجعلها عن أبويه فيكون لهما أجرها ولا ينقص من أجره شيئا»([34]٧) بل قال بعضهم: إن الأفضل لمن يتصدق نفلا أن ينوي لجميع المؤمنين والمؤمنات لأنها تصل اليهم ولا ينتقص من أجره شيء وهو مذهب أهل السنة والجماعة وقال أيضا والذي حرره المتأخرون من الشافعية وصول القراءة للميت إذا كانت بحضرته أو دُعي له عقيبها – ولو غائبا – لأن محل القراءة تنزل فيه الرحمة والبركة والدعاء عقبها أرجى للقبول ولهذا اختاروا في الدعاء : اللهم أوصل مثل ثواب ما قراءته إلى فلان وأما عند (الحنفية) فالواصل إليه الثواب نفسه.

([28]١) أخرجه مسلم (٥٠٦٤) وأبو داود (٢٧٩٢) وأحمد (٧٨/٦) وقد تقدم تخريجه بلفظ مقارب.

([29]٢) أخرجه الإمام أحمد رقم (١٠٢٠٢) وقال ابن كثير في تفسيره : إنساده صحيح.

([30]٣) سورة محمد الآية (١٩).

([31]٤) سورة النجم الآية (٣٩).

([32]٥) سورة الطور الآية (٢١).

([33]٦) سورة النجم الآية (-٣٧).

([34]٧) مسند أحمد بشرح البنا (١٠١/٨).

وقال أيضا: وبهذا علم أنه لا فرق بين أن يكون المجعول له ميتا أو حيا والظاهر أنه لا فرق بين أن ينوي به عند الفعل للغير أو يفعله لنفسه ثم بعد ذلك يجعل ثوابه لغيره وروي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن أمي افتُلِتت نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم([35]١).

وعن سيدنا بريدة رضي الله عنه قال: بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت قال: فقال «وجب أجرك ورجعت اليك في الميراث». قالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال «صومي عنها» قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال« حجي عنها»([36]٢) وقال أيضا وفي شرح اللباب للملا علي القاري ثم من آداب الزيارة (أي زيارة القبور) ما قالوا أنه يأتي الزائر من قبل رجلي المتوفى لا من قبل رأسه لأنه أتعب لبصر الميت بخلاف الأول لأنه يكون مقابل بصره هذا إذا أمكنه وإلا فقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم (قرأ أول سورة البقرة عند رأس الميت وآخرها عن رجليه)([37]٣).

ويقرأ يس لما ورد «من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ وكان له بعدد من فيها من حسنات»([38]٤).

مذهب السادة المالكية:

قال القاضي عياض في شرحه على صحيح مسلم في حديث الجريدتين عند قوله صلى الله عليه وآله وسلم «لعله يخفف عنهما مادامتا رطبتين»([39]٥) ما نصه: (أخذ (أخذ العلماء من هذا الحديث استحباب قراءة القرآن على الميت لأنه إذا خفف عنه بتسبيح الجريدتين وهما جماد فقراءة القرآن أولى).

([35]١) تقدم تخريجه ص (٢٩٨).

([36]٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٢) وأبو داود (١٦٥٦) مختصرا، والترمذي (٦٦٧) مختصرا وابن ماجه (١٧٥٩) مختصرا وأحمـــد (٣١٥/٥) وانظر النووي في شرحه على مسلم (٢٦٥/٨ - ٢٦٩).

([37]٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦١٣) وأورده الهيثمي في المجمع (٤٢٤٢).

([38]٤) الحاشية (٢٤٢/٢).

([39]٥) تقدم تخريجه ص (٢٩٥).

وقال ابن رشد في كتابه النوازل ما نصه : (وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذاك وحصل للميت أجره).

وقال العلامة ابن الحاج في كتابه (المدخل) ما نصه: (لو قرأ في بيته وأهدى إليه لوصلت وكيفية وصولها: أنه إذا فرغ من تلاوته وهب ثوابها له أو قال: اللهم اجعل ثوابها له فإن ذلك دعاء بالثواب لأن يصل إلى أخيه والدعاء يصل بلا خلاف).

وقال العلامة عبدالحق الإشبيلي في كتابه (العاقبة) ما نصه: (واعلم أن الميت كالحي فيما يعطاه ويهدى إليه بل الميت أكثر وأكثر لأن الحي قد يستقل ما يهدى إليه ويستحقر ما يتحف به والميت لا يستحقر شيئا من ذلك ولو كان مقدار جناح بعوضة أو وزن مثقال ذرة لأنه يعلم قيمته وقد كان يقدر عليه فضيعه وقد قال عليه الصلاة والسلام : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو ولد صالح يدو له أو علم ينتفع به»([40]١).

فهذا دعاء الولد يصل إلى والده وينتفع به وكذا أمره عليه الصلاة والسلام بالسلام على أهل القبور والدعاء لهم ما ذاك إلا لكون ذلك الدعاء لهم والسلام عليهم يصل اليهم ويأتيهم والله أعلم.

وورد في الأثر أن: الميت في قبره كالغريق ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديقه فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها.

وقال صاحب كتاب مواهب الجليل ما نصه: ونقل ابن الفرات عن القرافي انه قال: الذي يتجه أنه لهم (الأموات) بركة القراءة كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم أو يدفنون عنده ثم قال في مسألة وصول القراءة للميت ما نصه: وإن حصل الخلاف فيها فلا ينبغي إهمالها فلعل الحق هو الوصول([41]٢).

مذهب السادة الحنابلة:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: الأمر الذي كان معروفا بين المسلمين في القرون المفضلة أنهم كانوا يعبدون الله بأنواع العبادات المشروعة فرضها ونفلها من الصلاة

([40]١) أخرجه مسلم (٤١٩٩) وأبو داود (٢٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) والنسائي (٣٦٥٣) والبخاري في الأدب لمفرد (٣٨) وأحمد (٣٧٢/٢) وابن حبان (٣٠١٦) والبغوي (١٣٩) والطحاوي (٢٤٦) والبيهقي (٢٧٨/٦) وابو يعلى (٦٤٥٧) والدارمي (٥٦٥) وابن خزيمة (٢٤٩٤).

([41]٢) مواهب الجليل (٢٣٨/٢).

والصيام والقراءة والذكر وغير ذلك وكانوا يدعون للمؤمنين والمؤمنات كما امر الله بذلك لأحيائهم وأمواتهم في صلاتهم على الجنازة وعند زيارة القبور وغير ذلك وروي عن طائفة من السلف: عند كل ختمة دعوة مجابة فإذا دعا الرجل عقيب الختم لنفسه ولوالديه ولمشايخه وغيرهم من المؤمنين والمؤمنات كان هذا من الجنس المشروع وكذلك دعاؤه لهم في قيام الليل وغير ذلك من مواطن الإجابة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أمر بالصدقة عن الموتى من الأعمال الصالحة وكذلك ما جاءت به السنة في الصوم عنهم وبهذا وغيره احتج من قال من العلماء إنه يجوز إهداء ثواب العبادات المالية والبدنية إلى موتى المسلمين كما هو مذهب أحمد وأبي حنيفة وطائفة من أصحاب مالك والشافعي فإذا أهدي لميت ثواب صيام او صلاة أو قراءة جاز ذلك.

وقال رحمه الله تعالى أيضا: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع وذلك باطل من وجوه كثيرة:

أحدها: ان الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير.

ثانيها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لأهل الموقف في الحساب ثم لأهل الجنة في دخولها ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار وهذا انتفاع بعمل الغير.

ثالثها: أن كل نبي وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير.

رابعها: أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض وذلك منفعة بعمل الغير.

خامسها: أن الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم.

سادسها: أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم وذلك انتفاع بمحض عمل الغير.

سابعها: قال تعالى في قصة الغلامين اليتيمين (وكان أبوهما صالحا) فانتفعا بصلاح أبيهما وليس هو من سعيهما.

ثامنها: أن الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والإجماع وهو من عمل الغير.

تاسعها: أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير.

عاشرها: أن الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير.

حادي عشرها: أن المدين الذي امتنع صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة وقضى دين الآخر علي بن أبي طالب وانتفع بصلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبردت جلدته بقضاء دينه وهو من عمل الغير.

ثاني عشرها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن صلى وحده (ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه)([42]١) فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير.

ثالث عشرها: أن الإنسان تبرأ ذمته من ديون الخلق إذا قضاها قاض عنه وذلك انتفاع بعمل الغير.

رابع عشرها: أن من عليه تبعات ومظالم إذا حلل منها سقطت عنه وهذا انتفاع بعمل الغير.

خامس عشرها: أن الجار الصالح ينفع في المحيا والممات كما جاء في الأثر وهذا انتفاع بعمل الغير.

سادس عشرها: أن جليس أهل الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له والأعمال بالنبيات فقد انتفع بعمل غيره.

سابع عشرها: الصلاة على الميت والدعاء له في الصلاة انتفاع للميت بصلاة الحي عليه وهو عمل غيره.

ثامن عشرها: أن الجمعة تحصل باجتماع العدد وكذلك الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض.

تاسع عشرها: أن الله قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾([43]٢) وقال تعالى ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾([44]٣) ﴿ولولا

([42]١) أخرجه أحمد (٥/٣) والترمذي (٢٢٠) وأبو داود (٥٧٤) والدارمي (١٣٤١) وأبو يعلى (١٠٥٧) والحاكم (١٠٩/١) وصححه ووافقه الذهبي.

([43]٢) سورة الأنفال الآية (٣٣).

([44]٣) سورة الفتح الآية (٢٥).

دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾([45]١) فقد دفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض وذلك انتفاع بعمل الغير.

عشرونها: أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن يمونه الرجل فينتفع بذلك من يخرج عنه ولا سعي له.

حادي عشرينها: أن الزكاة تجب في مال الصبي والمجنون ويثاب على ذلك ولا سعي له ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى فكيف يجوز أن تتأول الآية على خلاف صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة والمراد بالإنسان العموم([46]٢).

وقال الشيخ ابن القيم في كتاب الروح ما نصه: وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن قال عبدالحق: يروى أن عبدالله ابن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة وكان الإمام أحمد ينكر ذلك أولا حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجع وقال الخلال في كتاب الجامع : القراءة عند القبور عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال: قال أبي إذا أنا مت فضعني في اللحد وقل: بسم الله وعلى سنة رسول الله وسن علي التراب سنا واقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها فإني سمعت عبدالله بن عمر يقول ذلك قال عباس الدوري : سألت أحمد بن حنبل قلت تحفظ في القراءة عند القبر شيئا فقال : لا وسألت يحيى بن معين فحدثني بهذا الحديث قال الخلال: وأخبرني الحسن بن أحمد الوارق حدثني علي بن موسى الحداد وكان صدوقا قال: كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل: يا أبا عبدالله ما تقول في مبشر الحلبي؟ قال: ثقة قال: كتبت عنه شيئا؟ قال نعم قال: فأخبرني مبشر عن عبدالرحمن بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له أحمد: فارجع وقل للرجل يقرأ (وورد مرفوعا في بداية الباب).

([45]١) سورة الحج الآية (٤٠).

([46]٢) إسعاف المسلمين والمسلمات ص (٥٠ -٥٣) وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٢٨/٦).

وذكر الخلال عن الشعبي قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤون عنده القرآن.

وعزا رحمه الله وصول ثواب العبادات البدنية للميت كالصلاة والصوم وقراءة القرآن والذكر للإمام أحمد وجمهور السلف وعدم الوصول إلى أهل البدع من علماء الكلام.

وقال رحمه الله وصول ثواب العبادات البدنية للميت كالصلاة والصوم وقراءة القرآن والذكر للإمام أحمد وجمهور السلف وعدم الوصول إلى أهل البدع من علماء الكلام.

وقال رحمه الله أيضا في جواب عن قوله تعالى : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾(١[47]).

ما لفظه: وقالت طائفة أخرى : القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه وبين الأمرين من الفرق مالا يخفى(٢[48]) ، وأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فملك لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أبقاه لنفسه وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى وكان ابن تيمية يختار هذه الطريقة ويرجحها.

وقال رحمه الله في الجواب على شبه المانعين ما نصه: فصل وأما استدلالكم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم (إذا مات العبد انقطع عمله)(٣[49]).

فالاستدلال ساقط لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل انقطع انتفاعه وإنما أخبر عن انقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله فإن وهبه له فقد وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو فالمنقطع شيء والواصل إليه شيء آخر .

وقال رحمه الله أيضا: وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج فإن قيل فهذا لم يكن معروفا في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا ارشدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه ولكانوا يفعلونه:

([47]١) سورة النجم الآية (٣٩).

([48]٢) فقد يسكنك صديقك في داره بلا أجر فقد انتفعت بما ليس لك فإن ادعيت ملكيتها وأنها لك فهذا كذب وخطأ وبهذا يتضح أن انتفاعك بما لا تملك قد يصح وبخلاف دعوى المالكية من غير سعيك فإنه لا يصح.

([49]٣) تقدم تخريجه ص (٣٠٣).

فالجواب أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا الا تفريق بين المتماثلات؟ وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع (وقد مرت معنا الأدلة واضحة جلية).

ثم إنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له وهذا سأله عن الصدقة فأذن له ولم يمنعهم مما سوى ذلك وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟ وقال رحمه الله ما نصه: وهذا عمل الناس حتى المنكرين في سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء أهـ.

وقال الشيخ الإمام أبو محمد بن قدامة المقدسي في آخر كتاب الجنائز من (مغنيه) ما نصه: لا بأس بالقراءة عند القبر وقد روى عن أحمد أنه قال: (إذا دخلتم المقابر فاقرؤوا آية الكرسي وثلاث مرات قل هو الله أحد ثم قل : اللهم إن فضله لأهل المقابر).

وقال الخلال : حدثني أبو علي الحسن بن الهيثم البزار شيخنا الثقة المأمون قال: رأيت أحمد بن حنبل يصلي خلف ضرير يقرأ على القبور وقد ورد في الأثر أنه من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم يؤمئذ وكان له بعدد من فيها حسنات وورد أيضا أنه «من زار والديه فقرأ عنده أو عندهما يس غفر له» ثم قال: فصل: وأي قربة فعلها وجعل ثوابها للميت المسلم نفعه ذلك إن شاء الله تعالى .

أما الدعاء والاستغفار والصدقة وأداء الواجبات فلا أعلم فيه خلافا إذا كانت الواجبات مما تدخله النبيابة وقد قال تعالى ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾([50]١) وقال تعالى ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾([51]٢) ودعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي سلمة حين مات وللميت الذي صلى عليه في حديث عوف بن مالك ولكل ميت صلى عليه

([50]١) سورة الحشر الآية (١٠).

([51]٢) سورة محمد الآية (١٩).

وسأل رجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال «نعم»([52]١) وروي ذلك عن سعد بن عبادة رضي الله عنه وجاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: «نعم»([53]٢).

وقال للذي سأله : إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال «نعم»([54]٣) وهذه أحاديث صحاح وفيها دلالة على انتفاع الميت بسائر القرب لأن الصوم والحج والدعاء والاستغفار عبادة بدنية وقد أوصل نفعها إلى الميت وكذلك ما سواها مع ما ذكرنا من الحديث في ثواب من قرأ يس وتخفيف الله تعالى عن أهل المقابر بقراءته وروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمرو بن العاص (لو كان أبوك مسلما فأعتقتم أو تصدقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك)([55]٤) وهذا عام في حج التطوع وغيره ولأنه عمل بر وطاعة فوصل نفعه وثوابه كالصدقة والصيام والحج الواجب ثم قال: والدليل لنا ما ذكرناه وأنه إجماع المسلمين فإنهم في كل عصر ومصر يجتمعون ويقرؤون القرآن ويهدون ثوابه إلى موتاهم من غير نكير ولأن الحديث صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»([56]٥) والله أكرم من أن يوصل عقوبة المعصية إليه ويحجب عنه الثواب. أهـ.

وقال صاحب الروض المربع شرح زاد المستنقع ما نصه: ولا تكره القراءة على القبر...

([52]١) تقدم تخريجه ص (٢٩٨).

([53]٢) أخرجه البخاري (١٥١٣) ومسلم (٢٢٣٨) وأبو داود (١٨٠٩) والنسائي (٢٦٣٣) وأحمد (١/٢١٩) ومالك (١/٣٥٩) والحميدي (٢٥٠٧) والدارمي (١٧٧٧) وابن خمزيمة (٣٠٣١) والبيهقي (٤/٣٢٨) والطبراني في الكبير (١٨/ برقم ٧٢٢) والبغوي (١٨٥٤) وابن حبان (٣٩٨٩).

([54]٣) أخرجه البخاري (١٩٥٣) ومسلم (٦٨٨) وأبو داود (٣٣١٠) وأحمد (١/٢٢٤) والبيهقي (٤/٢٥٥) والدارقطني (٢/١٩٥) والبغوي (١٧٧٤) والطيالسي (٢٦٣٠) والطبراني في الكبير (١٢٣٢٩) وابن حبان (٣٥٧٠).

([55]٤) تقدم تخريجه ص (٢٩٩).

([56]٥) أخرجه البخاري (١٢٨٦) ومسلم (١٤٤٦) والنسائي (١٨٥٧) والبيهقي (٤/٧٣) والبغوي (١٥٣٧) وعبدالرزاق (٦٦٧٥) والشافعي في المسند (١ برقم ٥٥٨) وابن حبان (٣١٣٦).

وصح عن ابن عمر (أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها) ثم قال : وأي قربة من دعاء واستغفار وصلاة وصوم وحج وقراءة وغير ذلك فعلها مسلم وجعل ثوابها لميت مسلم أوحي نفعه، قال أحمد: (الميت يصل إليه كل شيء من الخير للنصوص الواردة فيه) ، وذكره المجد وغيره حتى ولو أهداها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جاز ووصل إليه ثوابها([1][57]).

وقال الشيخ محمد المنبجي الحنبلي في كتابه (تسلية أهل المصائب) : أما احتجاج بعض من خالف من اصحاب الشافعي ومالك بهذه الآية: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾([2][58]) على أن الميت لا ينتفع بثواب من سعي غيره لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»([3][59]).

قالوا: لأن نفع العبادة لا يتعدى فاعلها. فيقال لهم: قد ثبت بالسنة المتواترة وإجماع الأمة أن الميت يصلى عليه ويدعى له ويستغفر له وهذا من سعي غيره.

والرد بالنسبة للآية: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريهم ﴾([4][60]) فأدخل الأبناء بصلاح الآباء.

ولا خلاف بين العلماء في مشروعية تلقين من حضره الموت لا إله إلا الله للحديث الصحيح «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» وأما تلقينه بعد الدفن على القبر فاستحبه الشافعية والأكثر من الحنابلة والمحققون من الحنفية والمالكية لحديث أبي أمامة.

وقال المحقق ابن الهمام: ولا مانع من حمل موتاكم في الحديث الصحيح على حقيقته فيشمل التلقين على القبر وهذا نص كيفية التلقين: عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم عليها التراب فليقم أحدكم على رأس القبر ثم ليقل: يا فلان بن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ثم يقول: يا فلان بن فلانة فإنه يستوي قاعدا ثم يقول: يا فلان بن

([57][1]) الروض المربع (١٥٣/١).

([58][2]) سورة النجم الآية (٣٩).

([59][3]) تقم تخريجه (٣٠٣).

([60][4]) سورة الطور الآية (٢١).

فلانة فإنه يقول: أرشدنا رحمك الله ولكن لا تشعرون فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وانك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وبالقرآن إماما فإن منكرا ونكيرا يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا ما نقعد عند من لقن حجته فيكون الله حجيجه دونهما قال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه؟ قال: (ينسبه إلى حواء – يا فلان بن حواء)([61]١) وقالوا: ويكون تلقينه بعد انصراف المشيعين بصوت بين الجهر والإسرار والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين

زيارة القبور

مقدمة

قد أمرنا بزيارتها وزارها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعا قال تعالى ﴿ولا تصل على أحد منهم﴾ أي من المنافقين ﴿مات أبدا ولا تقم على قبره﴾([1]٢) ،معنى هذا أن يقوم الرسول على غير قبور المنافقين كقبور الصالحين وقد فعل هذا مع المرأة التي كانت تقم المسجد.

وأما شد الرحال فالممنوع شدها إلى المساجد لا إلى القبور وفرق كبير بين المساجد والقبور فتأمل بعمق على أنه مما ثبت عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال: (لو أن مسجد قباء في طرف الدنيا لشددنا إليه الرحال) مما يؤكد أن حديث شد الرحال ليس على إطلاقه والصوفية لا ييأسون من الموتى ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾([2]٣) وهم يرون أن الموت مرحلة من مراحل السفر الإنساني الكادح إلى الله فالميت عندهم حي حياة برزخية وللميت علاقة أكيدة بالحي بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحاديث رد الميت السلام على الزائر ومعرفته بتشريع

([61]١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٧٩) والهيثمي في المجمع (٤٢٤٨) وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١٣٥/٢) إسناده صالح وقد قواه الضياء في أحكامه ونقل الكلام الحافظ ابن حجر عن الإمام النووي في المجموع ج٥ ص٢٤٣.

([1]٢) سورة التوبة الآية (٨٤).

([2]٣) سورة الممتحنة الآية (١٣).

السلام على الميت عند قبره ومحادثته صلى الله عليه وآله وسلم الموتى (القليب يوم بدر) كما وردت في عدة أحاديث ثابتة مما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى .

ومن القرآن حسبك قوله تعلى ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾([3]١) فهناك علاقة مؤصلة بين الحي والميت وإلا كان الدعاء والسلام على الميت موجها إلى الحجار !! وإلا فما معنى زيارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأهل البقيع والسلام عليهم وتكليمهم والدعاء لهم.

والصوفية يعتقدون – بحق – أن الولي في الدنيا ولي بخصائصه الروحية ومواهبه الربانية والخصائص والمواهب من متعلقات الأرواح ولا ارتباط لها بالأجسام البتة فالولي حين يموت ترتفع خصائصه ومواهبه مع روحه إلى برزخه ولروحه علاقة كاملة بقبره . بدليل ما سيمر معنا من السلام عليه ورده السلام ... الخ.

ومن هنا جاء تكريم هؤلاء السادة الصالحين من أصحاب القبور:

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضع حجرا على قبر بعض الصحابة وهو عثمان ابن مظعون رضي الله عنه وقال (أتعرف به قبر أخي)([4]٢) .

وكان هذا الحديث بعد حديث علي رضي الله عنه بتسوية القبور المشرفة فاستدلوا به على جواز اتخاذ ما يدل على القبر وعلى فضل صاحب القبر بلا إغراق ولا مبالغة رجاء استمرار زيارته والدعاء له والاقتداء به والصدقة عليه وحفظ أثره..

ومن هنا جاء نقل الميت من مكان إلى مكان أفضل كما صح في حديث جابر وغيره.

وقد أصلح الناس القبور بحسن نية من جانب وخوف اندثار القبر من جانب آخر فاتُخذ الأمر بتصوير الصورة التي تراها ولكن الأمر يدور مع علته وقد كانت علة تسوية القبور والمنع الأول من زيارتها هي مخافة الانتكاس والعودة إلى الشرك وقد استقر الإيمان والتوحيد في قلوب الناس فلا بأس بعمل ما يذكر بالصالحين للقدوة والاعتبار والقيام بحق صاحب القبر من الزيارة وغيرها.

وهذه هي وجهة النظر عندهم بصفة عامة وقد مرت مئات السنين على هذه الأضرحة فما عُبِدَ منها ضريح من دون الله و لا صلى مسلم لولي ركعة والمثل العلمي مضروب بقبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقبور كبار الأئمة.

([3]١) سورة آل عمران الآية (١٧٠).

([4]٢) أخرجه أبو داود (٣٢٠٦) وابن ماجه (١٥٦١).

وما وراء القبور إلا الحياة البرزخية وهي ليست كحياتنا هذه بل هي حياة خاصة لائقة بهم وبالعالم الذي هم فيه ولأن حياتنا أقل وأضيق وأضعف.

فالإنسان فيها بين عبادة وعادة وطاعة ومعصية وواجبات مختلفة لنفسه وأهله ولربه وأنه تارة يكون على طهارة وتارة يكون على ضد ذلك وتارة يكون في المسجد وتارة يكون في غفلة وإنه لا يدري بم يختم له؟؟! فقد يكون بينه وبين الجنة ذراع ثم ينقلب الأمر فيصير من أهل النار وبالعكس أما في البرزخ فإنه إن كان من أهل الإيمان فإنه قد جاوز قنطرة الامتحان التي لا يثبت عندها إلا أهل السعادة ثم إنه قد انقطع عنه التكليف وأصبح روحا مشرقة طاهرة مفكرة سياحة سباحة جوالة في ملكوت الله وملكه سبحانه وتعالى لا هم ولا حزن ولا بأس ولا قلق لأنه لا دينار ولا عقار ولا ذهب ولا فضة فلا حسد ولا بغي ولا حقد ولا غيره.

أدلة زيارة القبور من السنة الشريفة والآثار:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها »([5]١).

وفي رواية: فزوروها فإنها تذكر الآخرة([6]٢).

وفي رواية : «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»([7]٣).

وفي رواية : «وترق القلب وتدمع العين فلا تقولوا هجرا»([8]٤).

وفي رواية : «فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت»([9]٥).

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»([10]٦).

([5]١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٤٦/٧) والنسائي (٧٣/٤) والحاكم في المستدرك (١٣٨٦) .

([6]٢) أخرجه الترمذي (١٥٩/٤).

([7]٣) أخرجه ابن ماجه (٥٠١/١) والحاكم (١٣٨٧).

([8]٤) أخرجه الحاكم من حديثه مع الزيادة (١٣٩٣).

([9]٥) أخرجه أبو داود (٣٢٣٥).

([10]٦) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢٣) والحاكم (١٣٩١) وابن حبان في صحيحه (٣١٦٩).

وفـي روايـة أخـرى «زار النبـي صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم قبـر أمـه فبكـى وأبكـى مـن حولـه»([11]).

ولا يلـزم مـن البكـاء عنـد القبـر عذابها وكفرهـا بـل يمكـن تحققـه مـع النجـاة والإسـلام فبكاؤه صلى الله عليه وآله وسلم لمزيد شفقته على والديه وقيامه بحقوقهما حق القيام.

٣- عن سيدنا ابن عباس رضـي الله عنهما قال قال رسول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسلم «ما من أحد يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليـه إلا عرفـه ورد عليه السلام»([12]).

٤- وعن سيدنا أبـي طلحـة رضـي الله عنـه أنـه صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم قـام علـى القليب قليب بدر وفيه قتلى المشركين فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان قال: «إنـا وجدنا ما وعدنا ربنـا حقا فهل وجدتم مـا وعدكم ربكم حقـا»؟! فقال سيدنا عمر: يـا رسولا لله ما تكلـم من أجساد لا أرواح لهـا؟! فقـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»([13]).

٥- ومنهـا أحاديـث كيفيـة السـلام علـى الأمـوات وذاك عنـد زيـارتهم ومنهـا مـا روتـه سيدتنا عائشـة وجـاء فيـه وكيـف أقـول يـا رسـول الله؟ قـال: ؟قـولي: السـلام علـى أهل الـديار مـن المـؤمنين والمسلمين ويـرحم الله المسـتقدمين مـنكم والمسـتأخرين وإنا إن شاء الله تعالى بكم للاحقون.([14]).

٦- ومنهـا حـديث سيدنا أبـي هريـرة رضــي الله عنـه انـه صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم قال«ما من احد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد السلام»([15]).

وهذا الحديث يتناول السلام عليه عند زيارته صلى الله عليه وآله وسلم .

([11]) أخرجه مسلم (٢٢٥٦) والحاكم في المستدرك (١٣٩٠).

([12]) أورده الحافظ السيوطي في الحاوي (١٧٠/٢) وكذلك ابن تيمية في الفتاوى وقال قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي صـلى الله عليه وآله وسلم وصححه عبدالحق صاحب الأحكام الفتاوى (٣٣١/٢٤) والحافظ عبدالحق إمام في العلل كما قـال الـذهبي في تـذكرة الحفاظ.

([13]) أخرجه البخاري (٣٧٥٧) ومسلم (٢٨٧٥) والنسائي (٢٠٧٣).

([14]) أخرجه مسلم (٢٢٥٣) وأحمد (٢٢١/٦) والنسائي (٢٠٣٨) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٩٢) والبيهقي (٧٩/٤) وابن السـني في عمل اليوم والليلة (٥٩٧) وابن حبان (٣١٧٢).

([15]) أخرجه أبو داود (٢٠٤١) وأحمد (٣١١/١٤ -٣١٢) ، الفتح الرباني.

٧- ومنها حديث الصحابي الذي ضرب خباءه ليلا على قبر فسمع من القبر قراءة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾(١[16]) إلى آخره فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: هي المانعة هي المنجية(٢[17]).

٨- ومنها ما رواه نافع أن ابن عمر كان يزور قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقول«السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبتاه»(٣[18]).

٩- ومنها حديث سيدنا أنس رضي الله عنه قال (مرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأتته فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»)(٤[19]) .

١٠- ومنها قول سيدنا أبي بكر عند ما يزور قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم : بأبي أنت وأمي يا نبي الله لا جمع الله عليك موتتين(٥[20]).

١١- ومنها ما رواه البيهقي عن سيدنا أبي هريرة أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف على مصعب بن عمير حين رجع من أحد وعلى أصحابه فقال: «أشهد أنكم أحياء عند الله فزوروهم وسلموا عليهم فوا الذي نفسي بيده لا يسلمن عليهم احد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة».

١٢- ومنها ما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال: دخلنا مقابر المدينة مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فنادى: (يا أهل القبور السلام عليكم ورحمة الله .... الخ).

١٣- وأخرج ابن أبي الدنيا في كتابه (من عاش بعد الموت) عن العطاف بن خالد قال: حدثتني خالتي قالت : ركبت يوما إلى قبور الشهداء وكانت لا تزال تأتيهم قالت: فنزلت عند قبر حمزة رضي الله عنه فصليت عنده وما في الوادي داع ولا

([16]١) سورة الملك الآية (١).

([17]٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) وحسنه السيوطي.

([18]٣) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه بسند صحيح (٦٧٢٤).

([19]٤) أخرجه البخاري (١٢٨٣) ومسلم (٩٢٦).

([20]٥) أخرجه البخاري (١٢٤١) والنسائي (١٨٤٠) وأحمد (١/١١٧).

مجيب فلما فرغت من صلاتي قلت : السلام عليكم فسمعت رد السلام علي يخرج من تحت الأرض أعرفه كما أعرف أن الله خلقني وكما أعرف الليل والنهار فاقشعرت كل شعرة مني.

١٤- وأخرج ابن أبي الدنيا أيضا عن ابن ميناء قال: دخلت الجبانة فصليت ركعتين خفيفتين ثم اضطجعت إلى قبر فو الله إني لنبهان إذ سمعت قائلا في القبر يقول: قم فقد آذيتني إنكم لتعملون ولكن لا تعلمون ونحن نعلم ولا نعمل فو الله لأن أكون صليت مثل ركعتيك أحب الي من الدنيا وما فيها.

١٥- وأخرج الذهبي في تاريخه أن أحمد بن نصر الخزاعي أحد أئمة الحديث دعاه الواثق إلى القول بخلق القرآن فأبى فضرب عنقه وصلب رأسه ببغداد ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة وبرمح فذكر الموكل به انه رآه بالليل يستدير إلى القبلة بوجهه فيقرأ سورة يس بلسان طلق قال الذهبي: رويت هذه الحكاية من غير وجه ومن طرقها عن إبراهيم بن إسماعيل بن خلف قال: كان أحمد بن نصر خالي قد قتل في المحنة وصلب وأخبرت أن الرأس يقرأ القرآن فمضيت فبت قريبا منه فلما هدأت العيون سمعت الرأس يقرأ ﴿الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾([21]١). فاقشعر جلدي.

أقوال العلماء في زيارة القبور:

- درجة مشروعيتها: أما درجة مشروعية زيارة القبور فهي الاستحباب والسنية لورود الأمر بها:

١- الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى:

وقد روى ابن قدامة في المغني أن الإمام أحمد سئل عن زيارة القبور وهل تركها أفضل أو زيارتها؟ فقال: زيارتها أفضل([22]٢).

٢- الإمام النووي رحمه الله تعالى:

استحباب زيارة القبور للرجال: قال الإمام النووي : قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

([21]١) سورة العنكبوت الآية (١ -٢).

([22]٢) المغني (٢/٥٦٥).

كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها([23]١) هذا من أحاديث التي تجمع الناسخ والمنسوخ وهو صريح في نسخ نهي الرجال عن زيارتها وأجمعوا على أن زيارتها سنة لهم([24]٢).

وقال النووي أيضا في المجموع : اتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على أنه يستحب للرجال زيارة القبور وهو قول العلماء كافة ونقل العبدري فيه إجماع المسلمين ودليله مع الإجماع الأحاديث الصحيحة المشهورة([25]٣).

حتى إن ابن حزم قال بوجوب زيارتها ولو مرة في العمر ولورد الأمر بها كما نقل ذلك عنه الحافظ ابن حجر في شرح صحيح البخاري (١٤٨/٣).

٣- الإمام الرواس رضي الله عنه :

قال الإمام الرواس رضي الله عنه بويعت على زيارة القبور والدعاء لأموات المسلمين والدعاء عند مقابرهم فإن الدعاء عند مقابر المسلمين مستجاب لأنها محل الرحمات([26]٤).

٤- وقال أبو عبدالله القوري رحمه الله تعالى:

إذا كانت الرحمة تنزل عند ذكرهم فما ظنك بمواطن اجتماعهم على ربهم ويوم قدومهم عليه بالخروج من هذه الديار وهو يوم وفاتهم فزيارتهم فيه تهنئة لهم وتعرض لما يتجدد من نفحات الرحمة عليهم([27]٥).

٥- الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله:

وقال الدكتور محمد سعيد البوطي عن والده: اتجه والدي قاصدا إلى جبلة لزيارة إبراهيم بن أدهم رحمه الله وبعض الصالحين من الأحياء فيها وذهب إلى الرقة متجشما بعض الصعوبات لزيارة أويس القرني فيها وكان ذلك في شهر شباط (١٩٧٢) وكان أبي يقول: كما تتنزل الرحمات عند ذكر الصالحين فإنها تتنزل في اماكن وجودهم سواء كانوا في الأحياء أو الأموات . وزار القدس ومسجد الخليل وزار

([23]١) أخرجه مسلم (٤٦/٧).

([24]٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٤٦/٧ – ٤٧).

([25]٣) المجموع للنووي (٢٨١/٥).

([26]٤) بوارق الحقائق ص (٣١٠).

([27]٥) قواعد التصوف القاعدة (١٥٤).

سيدي الشيخ عبدلقادر الجيلاني والجنيد البغدادي والإمام أبا حنيفة وبعض من يمكن أن يراهم من الصالحين الأحياء.

وكان يحرص على زيارة قبر الإمام النووي رحمه الله في قرية نوى جنوب دمشق كلما أتيح له ذلك وكان عمل أبي في زيارة هؤلاء الموتى يتلخص في السلام عليهم بأدب تام كما لو كانوا في الحياة وربما تلى بعد ذلك شيئا من القرآن ثم إنه يدعو شاء الله أن يدعو لنفسه وللمسلمين.

وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله أيضا: في الناس اليوم من ينكر قراءة القرآن على الموتى ويهون من امر زيارتهم وربما كان فيهم من ينكرها على الرغم من أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بها([١][28]).

جواز زيارة النساء للقبور

تجوز الزيارة للنساء: وهذا قول أكثر العلماء وأدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتي:

الدليل الأول: النساء دخلن في عموم الإذن بزيارة القبور المستفاد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»([٢][29]).

وهذا الخطاب يتناول بعمومه النساء والرجال لأن النساء قد نهين عن الزيارة فيتناولهن الإذن بالزيارة وهذا إذا أمنت الفتن في خروجهن لزيارة القبور([٣][30]).

الدليل الثاني: عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **(**مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال : اتقي الله واصبري قالت اليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم تجد عنده بوابين فقالت: لم أعرفك فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى**)**([٤][31]) ووجه الدلالة بهذا الحديث انه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينكر على المرأة قعودها عند القبر وتقريره صلى الله عليه وآله وسلم حجة ودليل([٥][32]).

([28]١) كتاب هذا والدي ص (٨٨ – ٩١).

([29]٢) تقدم تخريجه ص .(٤٥٢)

([30]٣) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (١٤٨/٣).

([31]٤) أخرجه البخاري (١٢٨٣) ومسلم (٩٢٦).

([32]٥) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (١٤٨/٣).

الدليل الثالث: وممن حمل الإذن بالزيارة للرجال وللنساء السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقد روي عن عبدالله بن مليكة أنه رآها زارت قبر أخيها عبدالرحمن فقال لها (أليس قد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك؟ قالت نعم كان قد نهى عنها ثم أمر بزيارتها)([33]١).

الدليل الرابع: ومما يؤيد جواز زيارة النساء للقبور الحديث المروي عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها وجاء فيه قلت (أي قالت عائشة) كيف أقول يا رسول الله؟ قال قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منكم ومنا والمستأخرين وإنا إن شاء الله تعالى بكم للاحقون([34]٢).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: فيه استحباب هذا القول لزائر القبور وفيه دليل لمن جوز للنساء زيارة القبور([35]٣).

الدليل الخامس: إن تعليل الإذن بزيارة القبور بأنها تذكر الآخرة هو مما يشترك في الحاجة إليه الرجال والنساء فالمرأة المسلمة تحتاج كما يحتاج الرجل المسلم إلى ما يذكرها بالآخرة ويزهدها في الدنيا فليس الرجال بأحوج من النساء فيما يذكر بالآخرة ويزهد بالدنيا([36]٤).

الدليل السادس: وأما حديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوارات القبور فقد قال الترمذي بعد أن رواه في جامعه قال: (وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم في زيارة القبور فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء)([37]٥).

قال ابن عبدالبر: يمكن أن يكون هذا – أي لعن زائرات القبور – قبل الإباحة بزيارتها([38]٦)، أو أن الأحاديث الدالة على تحريم زيارة النساء للقبور محمولة على زيارتهن المقترنة بمحرم كالنوح وغيره([39]١).

([33]١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (١٤٩/٣) والأثر أخرجه الحاكم في المستدرك (١٣٩٢) وقال الذهبي في التلخيص حديث صحيح.

([34]٢) أخرجه مسلم (٢٢٥٣) وأحمد (٢٢١/٦) والنسائي (٢٠٣٨) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٩٢) والبيهقي (٧٩/٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٧) وابن حبان (٣١٧٢).

([35]٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٤١/٧ -٤٢).

([36]٤) عون المعبود في شرح سنن أبي داود (٥٩/٩).

([37]٥) جامع الترمذي (١٦٠/٤).

([38]٦) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للعيني (٦٩/٨).

الدليل السابع: أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده([٢][40]).

حكم الذكر خلف الجنائز

جرت عادة الماشين خلف الجنازة أنهم يشتغلون باللغو وبأحوال الدنيا فينبغي أن لا ينكر على المؤذن الذي يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا ينبغي لفقيه ان ينكر ذلك إلا بنص أو إجماع فإن للمسلمين الإذن العام من الشارع بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله كل وقت شاؤوا يا لله!! العجب ممن ينكر مثل هذا وهو يرى المنكرات علنا ولا ينكر عليها وينكر شيئا سنه المسلمون على جهة القربة إلى الله ورأوه حسنا. فكيف ينكر ذلك؟ وقد فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا الباب لعلماء أمته وأباح لهم أن يسنوا ما استحسنوه ويلحقوه بالشريعة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «من سن في الإسلام سنة حسنة فله اجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»([٣][41]) ولا إله إلا الله محمد رسول الله من أكبر الحسنات ولو كان ذكر الله تعالى في الجنازة منهيا عنه بلغنا ولو في حديث كما بلغنا في قراءة القرآن في الركوع وشيء سكت عنه الشارع في أوائل الإسلام لا يمنع منه في آخر الزمن وبالجملة فلا يجوز لأحد أن يمنع الناس من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا أن يجد في ذلك حديثا يمنع ذلك . أهـ باختصار من شرح الطريقة المحمدية لسيدي عبدالغني النابلسي قدس الله تعالى سره ورحمه([٤][42]).

ما يقول زائر القبور:

عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : (إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت: قلت كيف اقول لهم يا رسول الله؟! قال : «قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين المسلمين

([39]١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (١٦١/٤).

([40]٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٣٩٦) ورواته عن آخرهم ثقات.

([41]٣) أخرجه مسلم (٢٣٤٨) والنسائي (٢٥٥٣) وأحمد (٣٥٧/٤) مختصرا والترمذي (٢٦٧٥) وابن ماجه (٢٠٣).

([42]٤) إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات للعلامة محمد العربي المغربي المكي ، طبعة ثالثة بإشراف الأستاذ محمد سعيد البرهاني ص (٦٠ – ٦١).

ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»([43]١) وفي رواية : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية)([44]٢).

وعن الحسن البصري رضي الله عنه قال: من دخل المقابر فقال: اللهم رب الأجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحا منك وسلاما مني استغفر له كل مؤمن مات منذ خلق الله آدم فالسلام على الأموات مشروع عند زيارتهم وكذا الدعاء لهم بالعافية وباستحباب ذلك قال جمهور العلماء.

وقال النووي رحمه الله : ويستحب للزائر أن يسلم على المقابر ويدعو لمن زيوره ولجميع أهل المقبرة والأفضل أن يكون الدعاء والسلام بما ثبت في الحديث ويستحب أن يقرأ من القرآن ما تيسر ويدعو له عقيبها نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب والزائر بالخيار إن شاء زار قائما وإن شاء قعد كما يزور الرجل أخاه حال الحياة وروي القيام عند القبر عن عدد من الصحابة كأبي امامة والحكم بن الحارث وابن عمر وانس رضي الله عنهم وعن جماعة من السلف.

سماع أهل القبور

قد تطرقنا لهذا الموضوع باستفاضة في باب التوسل بالأموات ونذكر هنا بعض الأدلة مما يليق بالمقام اختصارا:

عن أبي طلحة وعمر وابنه عبدالله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فألقوا في طوى من أطواء بدر فناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسماهم (يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة يا فلان بن فلان ! أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا !!) فقال عمر : يا رسول الله! ما تكلم من اجساد لا أرواح فيها فقال عليه الصلاة والسلام «والذي نفسي بيده ما انتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون»([45]٣).

([43]١) أخرجه مسلم (٢٢٥٣) والنسائي (٢٠٣٦) وأحمد (٢٢١/٦) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٩٢) والبيهقي (٧٩/٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٧) وأحمد (١٨٠/٦) وابن حبان (٣١٧٢).

([44]٢) أخرجه مسلم (٢٢٥٤) والنسائي (٢٠٣٩) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٩١) وابن ماجه (١٥٤٧) وأحمد (٣٥٣/٥) وابن أبي شيبة (٣٤٠/٣) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٩٤) والبيهقي (٧٩/٤) والبغوي (١٥٥٥) وابن حبان (٣١٧٣).

([45]٣) أخرجه مسلم (٧١٥١) والنسائي (٢٠٧٣).

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال« العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى انه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه»([46]١).

وذكر الحديث في سؤال القبر وسماع الميت خفق النعال وارد في عدة أحاديث منها الأحاديث الواردة في سؤال القبور وهي كثيرة منتشرة وفيها التصريح بسؤال الملكين له وجوابه بما يطالب حاله من سعادة أو شقاء ومنها ما شرعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأمته من السلام على أهل القبور ومخاطبتهم بلفظ : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين».

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه (الروح) وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة المعدوم والجماد والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به...) ثم ذكر رحمه الله تعالى جملة من الآثار عنهم.

وعن زيد بن أسلم قال: مر أبو هريرة وصاحب له على قبر فقال أبو هريرة سلم فقال الرجل : أسلم على القبر ؟ فقال أبو هريرة (إن كان رآك في الدنيا يوما قط إنه ليعرفك الآن)([47]٢).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولو مدبرين)([48]٣).

وقد تطرقنا أيضا لبعض الأدلة فيما يثبت سماعهم للزائر في بداية هذا الباب عند الكلام عن الأدلة على زيارة القبور من السنة الشريفة والآثار.

إيذاء أهل القبور:

لا تؤذ الميت لئلا يؤذيك: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا قد اتكأ على قبر فقال له: «لا تؤذ صاحب القبر»([49]٤).

([46]١) أخرجه البخاري (٣٩٧٩) ومسلم (٢١٥١) والنسائي (٢٠٧٥) وأحمد (٣٨/٢).

([47]٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٥٧٧/٣).

([48]٣) أخرجه ابن حبان (٣١٧٠٩ وصححه وتقدم نحوه.

([49]٤) ذكره ابن تيمية في المنتقى (١٠٤/٢) وكذا الحافظ ابن حجر في الفتح (١٧٨٩/٣ وقال : إسناده صحيح .

وعن ابن عمر بن حزم بلفظ: رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبر فقال: (انزل عن القبر لا تؤذ صاحب القبر ولا يؤذيك)([50]١).

صفاء الأرواح بزيارة قبور الصالحين:

قال الإمام فخر الدين الرازي في المطالب في الفصل الثالث عشر في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى: إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر ووقف هناك ساعة حصل تأثير في نفسه من تعلقه بزيارة تلك التربة ولا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقا بتلك التربة ايضا فحينئذ يحصل لنفس الزائر الحي ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة فصارت هاتان النفسان شبيهتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثار القوية الكاملة فينعكس منه نور إلى روح هذا الحي الزائر وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببا لحصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمة لروح هذا الزائر فهذا هو السبب والأصل في مشروعية الزيارة ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا وتمام الحقائق ليس إلا عند الله تعالى .

فتوى ابن تيمية في موضوع السلام على أهل القبور

وسئل الشيخ عن الأحياء إذا زاروا الأموات هل يعلمون بزيارتهم؟ وهل يعلمون بالميت إذا مات من قرابتهم أو غيره؟ فأجاب:

الحمد لله نعم جاءت الآثار بتلاقيهم وتساؤلهم وعرض أعمال الأحياء على الأموات كما روى ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري قال: إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها الرحماء من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعضهم: انظروا أخاكم يستريح فإنه كان في كرب شديد قال فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان وما فعلت فلانة هل تزوجت. الحديث.

([50]١) أخرجه الطحاوي في معاني الآثار (٢٩٦/١) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦١/٣).

وأما علم الميت بالحي إذا زاره وسلم عليه ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»([51]١).

قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصححه عبدالحق صاحب الأحكام([52]٢).

وجاء في موضع آخر أيضا سئل الشيخ ابن تيمة: هل الميت يسمع كلام زائره ويرى شخصه وهل تعاد روحه إلى جسده في ذلك الوقت أم تكون ترفرف على قبره في ذلك الوقت وغيره وهل تجمع روحه مع أرواح أهله وأقاربه الذين ماتوا قبله؟ فأجاب:

الحمد لله رب العالمين نعم! يسمع الميت في الجملة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه([53]٣). ... ثم ساق أحاديث متعددة في هذا المعنى ثم قال فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ولا يجب أن يكون السمع له دائما بل قد يسمع في حال دون حال كما قد يعرض للحي فإنه قد يسمع أحيانا خطاب من يخاطبه وقد لا يسمع لعارض قد يعرض للحي فهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفي بقوله:

﴿إنك لا تسمع الموتى﴾([54]٤) فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفقه المعنى فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ولا امتثال ما أمر به ونهى عنه فلا ينتفع بالأمر والنهي كذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي وإن سمع الخطاب وفهم المعنى كما قال تعالى ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾([55]٥) وأما رؤية الميت فقد روي في ذلك آثار عن عائشة رضي الله عنها وغيرها.

([51]١) تقدم تخريجه .

([52]٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية (٣٢١/٢٤).

([53]٣) تقدم تخريجه ص (٣٢٤).

([54]٤) سورة النمل الآية (٨٠).

([55]٥) سورة الأنفال الآية (٢٣).

أما قول القائل: هل تعاد روحه إلى بدنه ذلك الوقت أم تكون ترفرف على قبره في ذلك الوقت وغيره؟ فإن روحه تعاد إلى البدن في ذلك الوقت كما جاء في الحديث وتعاد أيضا في غير ذلك ومع ذلك فتتصل بالبدن متى شاء الله وذلك في اللحظة بمنزلة نزول الملك وظهور الشعاع في الأرض وانتباه النائم وهذا جاء في عدة آثار أن الأرواح تكون في افنية القبور قال مجاهد: الأرواح تكون في افنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارقه فهذا يكون أحيانا وقال مالك بن أنس: بلغني أن الأرواح مرسلة تذهب حيث شاءت والله أعلم.

وقال الشيخ ابن تيمية في موضع آخر: أما ما أخبر الله من حياة الشهيد ورزقه ما جاء في الحديث الصحيح من دخول أرواحهم الجنة فذهبت طوائف إلى أن ذلك مختص بهم دون الصديقين وغيرهم والصحيح الذي عليه الأئمة وجماهير أهل السنة أن الحياة والرزق ودخول الأرواح الجنة ليس مختصا بالشهيد كما دلت على ذلك النصوص الثابتة ويختص الشهيد بالذكر لكون الظان يظن أنه يموت فينكل عن الجهاد فأخبر بذلك ليزول المانع من الإقدام على الجهاد والشهادة كما نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق لأنه هو الواقع وإن كان قتلهم لا يجوز مع عدم خشية الإملاق([56]١).

قصد القبور للدعاء

ومن الأدلة على قصد القبور للدعاء قصة سيدتنا عائشة عندما شكوا اليها القحط فقالت : انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا فمطروا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق([57]٢) وفي رواية أنهم قحطوا فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال يا محمد استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا([58]٣)...

([56]١) مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية (٢٤/٣٦٢/٣٣٢).

([57]٢) أخرجه الدارمي في سننه برقم (٩٢).

([58]٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/٣١ – ٣٢) والبخاري في تاريخه (٧/٣٠٤) والحافظ أبو يعلى الخليلي في الإرشاد ص (٦٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/٤٧) وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢/٤٩٥) إسناده صحيح وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧/١٠٥) وفي التفسير (١/٩١) إسناده صحيح.

وورد أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده([59]١).

وذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة الحافظ عبدالغافر بن إسماعيل الفارسي يقول ابن عساكر: ودفن بنيسابور وقبره يزار وتجاب الدعوة عنده.

وروى الخطيب في تاريخه عن علي بن ميمون رضي الله عنه انه قال : سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: (إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائرا فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما يبعد عنه حتى تقضى).

وروى أيضا عن احمد بن جعفر القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال وهو شيخ الحنابلة في وقته يقول: (ما همني امر فقصدت قبر موسى بن جعفر يعني الكاظم وتوسلت به إلا سهل لي ما أحب).

وقال إبراهيم الحربي: قبر معروف ترياق مجرب ذكره الحافظ البغدادي في تاريخ بغداد وذكر الحافظ المحدث شيخ القراء شمس الدين بن الجزري في كتابه الحصن الحصين ان من مواضع إجابة الدعاء قبور الصالحين([60]٢).

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : قبر موسى الكاظم الترياق المجرب([61]٣).

وقال الحافظ عبدالغني المقدسي: (خرج في عضدي شيء يشبه الدمل وكان يبرأ ثم يعود ودام بذلك زمانا طويلا فسافرت إلى اصبهان وعدت إلى بغداد وهو بهذه الصفة فمضيت إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه ومسحت به القبر فبرأ ولم يعد)([62]٤).

عذاب القبر

عن سيدنا أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه) ثم أقبل علينا بوجهه فقال: (تعوذوا بالله

([59]١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٣٩٦) ورواته عن آخرهم ثقات.

([60]٢) المقالات السنية ص (١٣٣٩.

([61]٣) قواعد التصوف القاعدة (١٥٤).

([62]٤) ذكرها الحافظ ضياء الدين المقدسي المتوفى سنة (٦٤٣) في كتابه (الحكايات المنشورة) بخطه برقم (٣٨٣٤) الورقة (١١٢) الوجه (أ) السطر (١٠).

من عذاب النار) قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار فقال: (تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن) قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال (تعوذوا بالله من فتنة الدجال) قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال([63]١).

زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم:-

قال العلامة زين الدين بن حسين المراغي: ينبغي لكل مسلم اعتقاد كون زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قربة للأحاديث الواردة ولقوله تعالى ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾([64]٢).

الدليل من السنة الشريفة

واعلم ان زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم من اعظم القربات وارجى الطاعات والسبيل إلى أعلى الدرجات ومن اعتقد غير هذا فقد خالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام.

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى: زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها فمن السنة المؤكدة قصد المدينة المنورة مهاجر الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمشاهدة الروضة المطهرة من رياض الجنة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي»([65]٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من زار قبري وجبت له شفاعتي»([66]٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة»([67]٥).

وروي: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني».

وفي حديث ابن عدي والخطيب : «من وجد سعة ولم يفد الي فقد جفاني».

([63]١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧١٤٢).

([64]٢) سورة النساء الآية (٦٤) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية (٥٩٦).

([65]٣) أخرجه البخاري (١١٩٦) ومسلم (٣٣٥٧).

([66]٤) أخرجه الدارقطني (٢/٢٧٨) والبزار (١١٩٨) والطبراني في الكبير (٣١٤٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨٤١).

([67]٥) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٧١٦) ورمز لحسنه.

وإن هذه الزيارة للسيد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بعد مماته كزيارته في حياته فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»([68]١) ([69]٢).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «ليسلكن عيسى بن مريم حاجا أو معتمرا ، أو بنيتهما وليأتين قبري حتى يسلم علي ولأردن عليه»([70]٣).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «من جاءني زائرا لا تعلمه حاجة إلا زيارتي كان حقا علي ان اكون له شفيعا يوم القيامة»([71]٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي ومن مات في أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة»([72]٥).

وروي أن سيدنا عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذا عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي فقال: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (اليسير من الرياء شرك وإن من عادى ولي الله فقد بارز الله تعالى بالمحاربة وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة)([73]٦).

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من حج إلى مكة ثم قصدني في مسجد كُتبت له حجتان مبرورتان).

آداب زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكيفيتها

كلام الإمام الشيخ سيدي عبدالقادر الجيلاني الحنبلي المتوفى سنة (٥٦١هـ): قال رضي الله عنه في كتابه (الغنية) بعد الكلام على الحج والعمرة : فإذا من الله تعالى بالعافية وقدم المدينة فالمستحب له ان يأتي مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فليقل عند دخول المسجد: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا

([68]١) أخرجه الدارقطني (٢/٢٧٨) والطبراني في الكبير (١٣٤٩٧) والأوسط (٣٤٠٠) وذكره الهيثمي في المجمع (٥٨٤٣).

([69]٢) زيارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأثر محبته في رقي النفس المؤمنة ص (١٢).

([70]٣) أخرجه الحاكم (٤١٦٢) وصححه ووافقه الذهبي.

([71]٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١٤٩) والأوسط (٤٥٤٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨٤٢) .

([72]٥) أخرجه الدارقطني (٢/٢٧٨).

([73]٦) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) والحاكم (٧٩٣٣) .

محمد وافتح لي أبواب رحمتك وكف عني أبواب عذابك الحمد لله رب العالمين ثم يأتي القبر وليكن بحذائه بينه وبين القبلة ويجعل جدار القبلة خلف ظهره والقبر أمامه تلقاء وجهه والمنبر عن يساره وليقم مما يلي المنبر وليقل: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته الله صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة والمقام المحمود الذي وعدته اللهم صل على روح محمد في الأرواح وصل على جسده في الأجساد كما بلغ رسالتك وتلا آياتك وصدع بامرك وجاهد في سبيلك وأمر بطاعتك ونهى عن معصيتك وعادى عدوك ووالى وليك وعبدك حتى أتاه اليقين اللهم أنت قلت في كتابك لنبيك ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾([74]١) وإني أتيت نبيك تائبا من ذنوبي مستغفرا فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حال حياته فأقر عنده بذنوبه فدعا له نبيه فغفرت له ، اللهم إني اتوجه اليك بنبيك عليه سلامك نبي الرحمة يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي وترحمني اللهم اجعل محمدا أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين اللهم كما آمنا به ولم نره وصدقناه ولم نلقه فأدخلنا مدخله واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه واسقنا بكاسه مشربا رويا سائغا هنيا لا نظمأ بعده أبدا غير خزايا ولا ناكثين ولا مارقين ولا جاحدين ولا مرتابين ولا مغضوبا عليهم ولا ضالين واجعلنا من اهل شفاعته ثم يتقدم عن يمينه ثم ليقل: السلام عليكما يا صاحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورحمة الله وبركاته السلام عليك يا أبا بكر الصديق السلام عليك يا عمر الفاروق اللهم اجزهما عن نبيهما وعن الإسلام خيرا وغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ثم يصلي ركعتين ويجلس ويستحب ان يصلي بين القبر والمنبر في الروضة وإن أحب أن يتمسح بالمنبر تبركا به والصلاة بمسجد قباء وأن يأتي قبور الشهداء والزيارة لهم فعل ذلك وأكثر الدعاء هنالك ثم إذا أراد الخروج من المدينة اتى مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقدم إلى القبر وسلم على رسول الله صلى الله عليه

([74]١) سورة النساء الآية (٦٤).

وآله وسلم وفعل كما فعل أولا وودعه وسلم على صاحبيه كذلك ثم قال: اللهم لا تجعله آخر العهد مني بزيارة قبر نبيك وإذا توفيتني فتوفني على محبته وسنته آمين يا أرحم الراحمين ، انتهت الغنية.

وهو وإن لم يصرح فيها بالسفر بقصد الزيارة فهي مفيدة لذلك بذكر الاستغاثة به وسؤال الله تعالى بحقه والاعتناء بزيارته أولا ثم العود إلى زيارته مرة أخرى ووداعه والدعاء عنده بحاجاته وقوله اللهم لا تجعله آخر العهد من زيارة قبر نبيك كل ذلك يفيد أنه رضي الله عنه يرى أن السفر لزيارته صلى الله عليه وآله وسلم من احسن الطاعات وأقرب القربات كما هو الواقع وكون هذا هو بلا شك مذهب هذا الغوث العظيم وعقيدته السنية السنية من الأمور البديهية لأنه من أكبر أئمة أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والصوفية وقد صرح ايضا بطلب الدعاء عند زيارة قبور الشهداء([75]١).

قال الإمام النووي الشافعي المتوفى سنة (٦٧٦) هـ في إيضاح المناسك : قال رحمه الله تعالى :

الباب السادس في زيارة قبر سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشرف وكرم وعظم وما يتعلق بذلك:

اعلم أن لمدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسماء خمسة : المدينة وطابة وطيبة والدار ويثرب وذكر سبب تسميتها بهذه الأسماء ثم قال: في الباب مسائل:

الأولى: إذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيارة تربته صلى الله عليه وآله وسلم فإنه من أهم القربات وأنجح المساعي وقد روى البزار والدارقطني بإسنادهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من زار قبري وجبت له شفاعتي»([76]٢).

الثانية: يستحب للزائر أن ينوي مع زيارته صلى الله عليه وآله وسلم التقرب إلى الله تعالى بالسفر إلى مسجده صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة فيه.

([75]١) شواهد الحق للنبهاني (٩٣) وما بعدها.

([76]٢) تقدم تخريجه ص (٣٢٩).

الثالثة: يستحب أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه فإذا وقع بصره على أشجار المدينة وحرمها وما يعرف بها زاد من الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وآله وسلم ويسأل الله تعالى أن ينفعه بزيارته وأن يتقبلها منها.

الرابعة يستحب أن يغتسل قبل دخوله ويلبس أنظف ثيابه.

الخامسة: يستحضر في قلبه حينئذ شرف المدينة وأنها أفضل الدنيا بعد مكة عند بعض العلماء وعند بعضهم أفضلها على الإطلاق وان الذي شرفت به صلى الله عليه وآله وسلم خير الخلائق أجمعين وليكن من أول قدومه إلى أن يرجع مستشعرا لتعظيمه ممتلئ القلب من هيبته كأنه يراه صلى الله عليه وآله وسلم .

السادسة : إذا وصل إلى باب مسجده صلى الله عليه وآله وسلم فليقل ما قدمناه في دخول المسجد الحرام وهو أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم بسم الله والحمد لله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال هذا إلا أنه يقول: وافتح لي أباب فضلك ويقدم رجله اليمنى في الدخول واليسرى في الخروج وكذا يفعل في جميع المساجد ويدخل فيقصد الروضة الكريمة وهي ما بين المنبر والقبر فيصلي تحية المسجد بجنب المنبر وفي (إحياء علوم الدين) أنه يجعل عمود المنبر على حذاء منكبه الأيمن واستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد وسع المسجد بعده صلى الله عليه وآله وسلم وفي كتاب المدينة أن ما بين المنبر ومقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يصلي فيه حتى توفي أربع عشرة ذراعا وشبرا وأن ما بين المنبر والقبر ثلاثا وخمسون ذراعا وشبرا.

السابعة: إذا صلى التحية في الروضة أو غيرها من المسجد شكر الله تعالى هذه النعمة ويسأله إتمام ما قصده وقبول زيارته ثم يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر ويبعد من رأس القبر نحو "أربعة أذرع وفي (إحياء علوم الدين) يستقبل جدار القبر على نحو أربعة أذرع من السارية التي عند رأس القبر في زاوية جداره ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه ويقف ناظرا إلى أسفل ما

يستقبله من جدار القبر غاض الطرف في مقام الهيبة والإجلال فارغ القلب من علائق الدنيا مستحضرا في قلبه جلال موقفه ومنزلة من هو بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم ولا يرفع صوته بل يقتصد فيقول: السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبي الله السلام عليك يا خيرة الله السلام عليك يا خير خلق الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا نذير السلام عليك يا بشير السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا نبي الرحمة السلام عليك يا نبي الأمة السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا سيد المرسلين وخاتم النبيين السلام عليك يا خير الخلائق أجمعين السلام عليك يا قائد الغر المحجلين السلام عليك وعلى آلك وأهل بيتك وأزواجك وذريتك واصحابك أجمعين السلام عليك وعلى سائر الأنبياء وجميع عباد الله الصالحين جزاك الله يا رسول الله عنا أفضل ما جزى نبيا ورسولا عن أمته وصلى الله عليك كلما ذكرك ذاكر وغفل عن ذكرك غافل أفضل وأكمل وأطيب ما صلى على أحد من الخلق أجمعين أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده اللهم وآته الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته وآته نهاية ما ينبغي أن يسأله السائلون اللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريه كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

ومن عجز عن حفظ هذا وضاق وقته عنه اقتصر على بعضه وأقله : السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم . وجاء عن ابن عمر من السلف رضي الله عنهم الاقتصار جدا فكان ابن عمر يقول(السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبتاه) وعن مالك رحمه الله تعالى أنه كان يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ثم إن كان قد أوصاه أحد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليقل: السلام عليك يا رسول الله من فلان بن فلان أو

فلان بن فلان يسلم عليك يا رسول الله أو نحو هذا من العبارات ثم يتأخر إلى صوب يمينه قدر ذراع فيسلم على أبي بكر رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: السلام عليك يا أبا بكر صفي رسول الله وثانيه في الغار جزاك الله عن أمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم خيرا ثم يتأخر إلى صوب يمينه قدر ذراع للسلام على عمررضي فيقول: السلام عليك يا عمر أعز الله بك الإسلام جزاك الله عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خيرا ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتوسل به في حق نفسه ويتشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى ومن حسن ما يقول ما حكاه أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾([1][77]) وقد جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته	على الصراط إذا ما زلت القدم
وصاحباك فلا أنساهما أبدا	مني السلام عليكم ما جرى القلم

قال: ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيناي فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال: يا عتبي الحق الأعرابي وبشره بأن الله تعالى قد غفر له([2][78]).

ثم يتقدم إلى رأس القبر فيقف بين القبر والأسطوانة التي هناك ويستقبل القبلة ويحمد الله تعالى ويمجده ويدعو لنفسه بما أهمه وما أحبه ولوالديه ولمن شاء من أقاربه وأشياخه وإخوانه وسائر المسلمين ثم يأتي الروضة فيكثر فيها من الدعاء والصلاة فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

([1][77]) سورة النساء الآية (٦٤).

([2][78]) ذكرها ابن كثير في تفسيره (ج١ /ص٢٦٥) والإمام النووي في الإيضاح الباب السادس ص (٤٩٨) وابن قدامة في المغني (ج٣/٥٥٦) وغيرهم.

وآلـه وسـلم قـال: «مـا بـين قبـري ومنبـري روضــة مـن ريـاض الجنــة ومنبـري علــى حوضـي»([79]١) ويقف عند المنبر ويدعو.

الثامنة : لا يجوز أن يطاف بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

التاسـعة : ينبغـي لـه مـدة إقامتـه بالمدينـة أن ينـوي الاعتكـاف فيـه كمـا قـدمناه فـي المسجد الحرام.

العاشرة: يستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع خصوصا يوم الجمعة ويكون ذلك بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا انتهى إليه قال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين ونحن إن شاء الله بكم للاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد اللهم اغفر لنا ولهم ويزور القبور الظاهرة فيه كقبر إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعثمان والعباس والحسن بن علي وعلي بن الحسين ومحمد بن جعفر وجعفر بن محمد وغيرهم ويختم بقبر صفية رضي الله عنها عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ثبت في الصحيحين فضل قبور البقيع وزيارتها في أحاديث كثيرة.

الحاديـة عشـر: يسـتحب ان يـزور قبـور الشـهداء بأحـد وأفضـله يـوم الخمـيس وابتـداؤه بحمـزة عـم رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم ويبكـر بعـد صـلاة الصـبح بمسـجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يعود ويدرك جماعة الظهر فيه.

الثانية عشر: يستحب اسحبابا متأكدا أن يأتي مسجد قباء وهو في يوم السبت أولـى ناويـا التقرب بزيارتـه والصـلاة فيـه للحديث الصـحيح فـي كتـاب الترمـذي وغيـره عـن أسيد بن ظهير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صـلاة في مسجد قباء كعمرة»([80]٢) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي مسجد قباء راكبا وماشيا فيصلي فيه ركعتين)([81]٣)، وفي رواية صحيحة (كان يأتيه كل سبت) ويستحب أن يأتي بئر أريس التي روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفل فيها وهي عند مسجد قباء فيشرب من مائها.

([79]١) تقدم تخريجه ص (٣٢٩).

([80]٢) أخرجه ابن ماجه (١٤١١).

([81]٣) أخرجه البخاري (١١٣٤ -١١٣٥ - ١١٣٦) ومسلم (١٣٩٩).

الثالثة عشر: يستحب أن يأتي سائر المشاهد بالمدينة وهي نحو ثلاثين موضعا يعرفها أهل المدينة فليقصد ما قدر عليه منها وكذا يأتي الآبار التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ منها ويغتسل فيشرب ويتوضأ وهي سبع آبار.

الثالثة عشرة:ينبغي له أن يلاحظ بقلبه في مدة مقامه بالمدينة جلالتها وأنها البلدة التي اختارها الله تعالى لهجرة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم واستيطانه ومدفنه وليستحضر تردده صلى الله عليه وآله وسلم فيها ومشيه في بقاعها.

الرابعة عشر: يستحب المجاورة بالمدينة بالشرط المتقدم بالمجاورة بمكة وهو قوله المختار: إن المجاورة بها مستحبة إلا أن يغلب على ظنه الوقوع في الأمور المحذورة.

عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال؟من صبر على لأوء المدينة وشدتها كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة»([١][82]).

الخامسة عشر: يستحب أن يصوم بالمدينة ما أمكنه وأن يتصدق بما أمكنه على جيران رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن ذلك من جملة بره صلى الله عليه وآله وسلم .

السادسة عشر: ليس له أن يستصحب شيئا من الأكر المعمولة من ترام حرم المدينة لا الأباريق ولا الكيزان ولا غير ذلك من ترابه واحجاره كما سبق في حرم مكة.

السابعة عشر: يحرم صيد حرم المدينة وقطع أشجاره على الحلال والمحرم كما سبق في حرم مكة وحد حرم المدينة ما بين عير إلى أحد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها)([٢][83]).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما بين لابتيها حرام»([٣][84]) وكذا رواه جماعة من الصحابة في الصحيح واللابتان الحرتان والحرة في الأرض ذات الحجارة السود، والمدينة واقعة بين حرتين.

الثامنة عشر: إذا أراد السفر من المدينة والرجوع إلى وطنه أو غيره استحب أن يودع المسجد بركعتين ويدعو بما أحب ويأتي القبر ويعيد نحو السلام والدعاء المذكور في

([82]١) أخرجه مسلم (١٣٧٧) والترمذي (٣٩١٨).

([83]٢) أخرجه مسلم (١٣٧٢) وابن حبان (٣٧٥١) والترمذي (٣٩٢١).

([84]٣) أخرجه مسلم (١٣٦١) والترمذي (٣٩٢١) وابن حبان (٣٧٥١).

ابتداء الزيارة ويقول: اللهم لا تجعل هذا آخر العهد بحرم رسولك ويسر لي إلى الحرمين سبيلا سهلة وارزقني العفو والعافية في الدنيا والآخرة وردنا سالمين غانمين وينصرف تلقاء وجهه.

التاسعة عشر: في أشياء مهمة تتعلق بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومما ذكره: منها أن خارجة بن زيد قال: بنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين ذراعا وذكر الزيادات ثم قال: فإذا عرفت حال المسجد فينبغي أن تعتني بالمحافظة على الصلاة فيما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن الحديث الصحيح (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف فيما سواه إلا المسجد الحرام)([85]١) إنما يتناول ما كان في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم لكن إذا صلى جماعة فالتقدم إلى الصف الأول ثم ما يليه أفضل فليتفطن.

انتهى كلام الإمام النووي باختصار قليل لفوائد تاريخية ولغوية ونحوها مما يلي لم ار ذكره لازما وذكر ان زيارة الخليل عليه السلام قربة مستقلة لا تعلق لها بالحج ولا بزيارة النبي([86]٢) وبحذف بعض المسائل أيضا.

الإمام كمال الدين بن الهمام الحنفي المتوفى سنة (٨٦١هـ):

قال رحمه الله تعالى في فتح القدير في آخر الكلام على الحج: المقصود الثالث في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال مشايخنا رحمهم الله تعالى : من أفضل المندوبات وفي مناسك الفارسي وشرح المختار إنها قريبة من الوجوب لمن له سعة.

وقال عليه الصلاة والسلام «من زار قبري وجبت له شفاعتي»([87]٣) وعنه أيضا عليه الصلاة والسلام «من جاءني زائرا لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة »([88]٤) وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضا : «من حج وزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي »([89]٥) هذا والحج إن كان فرضا

([85]١) أخرجه البخاري (١١٣٣) ومسلم (١٣٩٤) والنسائي (٦٩٣).

([86]٢) شواهد الحق ص (٩٣ وما بعدها).

([87]٣) تقدم تخريجه ص (٣٢٩).

([88]٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١٤٩) والأوسط (٤٥٤٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨٤٢).

([89]٥) تقدم تخريجه ص (٣٣٠).

فالأحسن أن يبدأ به ثم يثني بالزيارة وإن كان تطوعا كان بالخيار فإذا نوى زيارة القبر فلينو معه زيارة المسجد أي مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، وفي الحديث «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[١][90] وإذا توجه إلى الزيارة يكثر من الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مدة الطريق والأولى فيما يقع عند العبد الضعيف تجريد النية لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم إذا حصلت له أن قدم ينوي زيارة المسجد أو يستمنح فضل الله سبحانه في مرة أخرى ينويهما فيها لأن في ذلك زيادة تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم وإجلاله ويوافق ظاهر ما ذكرناه من قوله عليه الصلاة والسلام «لا تعمله حاجة إلا زيارتي » وإذا وصل إلى المدينة اغتسل بظاهرها قبل أن يدخلها أو توضأ والغسل أفضل ، ولبس نظيف ثيابه والجديد أفضل وما يفعله بعض الناس من النزول بالقرب من المدينة والمشي على أقدامه إلى أن يدخلها حسن ولك ما كان أدخل في الأدب والإجلال كان حسنا وإذا دخلها قال : بسم الله ﴿رب أدخلني مدخل صدق﴾[٢][91]، اللهم افتح لي أبواب رحمتك وارزقني من زيارة رسولك صلى الله عليه وآله وسلم ما رزقت أولياءك وأهل طاعتك واغفر لي وارحمني يا خير مسئول وليكن متواضعا متخاشعا معظما لحرمتها لا يفتر عن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مستحضرا أنها بلدته التي اختارها الله تعالى درا لهجرة نبيه ومهبطا للوحي والقرآن ومنبعا للإيمان والأحكام الشرعية قالت عائشة رضي الله عنها (كل البلاد فتحت بالسيف إلا المدينة فإنها افتتحت بالقرآن العظيم).

وليحضر قلبه أنه ربما صادف موضع قدمه صلى الله عليه وآله وسلم لهذا كان مالك رحمه الله ورضي عنه لا يركب في طرق المدينة وكان يقول استحي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحافر دابة وإذا دخل المسجد فعل ما هو السنة في دخول المساجد من تقديم اليمين ويقول: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ويدخل من باب جبريل أو غيره ويقصد الروضة الشريفة فيصلي تحية المسجد مستقبلا السارية التي تحتها الصندوق بحيث يكون عمود المنبر حذاء

([90]١) أخرجه البخاري (١٧٦٥) ومسلم (١٣٣٨) والنسائي (٦٩٩٩.

([91]٢) سورة الإسراء الآية (٨٠).

منكبه الأيمن إن أمكنه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما قيل قبل أن يغير المسجد وفي بعض المناسك يصلي تحية المسجد في مقامه عليه الصلاة والسلام . وقال الكرماني وصاحب الاختيار ويسجد لله تعالى شكرا على هذه النعمة ويسأله تمامها والقبول وقيل ذرع ما بين المنبر وموقفه عليه الصلاة والسلام الذي كان يصلي فيه أربعة عشر ذراعا وشبر وما بين المنبر والقبر ثلاثة وخمسون ذراعا وشبر ثم يأتي القبر الشريف فيستقبل جداره ويستدبر القبلة على نحو أربعة أذرع من السارية التي عند رأس القبر في زاوية جداره عن أبي الليث أنه يقف مستقبلا مردود بما روى أبو حنيفة رضي الله عنه في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (من السنة أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قبل القبلة وتجعل ظهرك إلى القبلة وتستقبل القبر بوجهك ثم تقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) إلا أن تحمل على نوع ما من استقبال القبلة وذلك أنه عليه الصلاة والسلام في القبر الشريف المكرم على شقه الأيمن مستقبل القبلة وقالوا في زيارة القبور مطلقا: الأولى أن يأتي الزائر من قبل رجل المتوفى لا من قبل رأسه فإنه أتعب لبصر الميت لأنه يكون مقابلا بصره ناظرا إلى جهة قدميه إذا كان على جنبه فعلى هذا تكون القبلة عن يسار الوقف من جهة قدميه عليه الصلاة والسلام بخلاف ما إذا كان من جهة وجهه الكريم فإذا أكثر الاستقبال إليه عليه الصلاة والسلام لا كل الاستقبال فيكون استدباره القبلة أكثر من أخذه إلى جهتها وينبغي أن يكون وقوف الزائر على ما ذكرناه بخلاف تمام استدباره القبلة واستقباله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه يكون البصر ناظرا إلى جنب الواقف وعلى ما ذكرنا يكون مستقبلا وجهه عليه الصلاة والسلام وبصره فيكون أولى ثم يقول في موقفه : السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا خير خلق الله السلام عليك يا خيرة الله من جميع خلقه السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا سيد ولد آدم السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته يا رسول الله إني أشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وأشهد انك يا رسول الله قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة فجزاك الله عنا خيرا جزاك الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن أمته اللهم اعطِ سيدنا عبدك ورسولك محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة وابعثه

المقام المحمود الذي وعدته وأنزله المنزل القرب عندك إنك سبحانك ذو الفضل العظيم ويسأل الله تعالى حاجته متوسلا إلى الله بحضرة نبيه عليه الصلاة والسلام وأعظم المسائل وأهمها سؤال حسن الخاتمة والرضوان والمغفرة ثم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الشفاعة فيقول: يا رسول الله أسألك الشفاعة يا رسول الله أسألك الشفاعة وأتوسل بك إلى الله في أن أموت مسلما على ملتك وسنتك ويذكر كل ما كان من قبيل الاستعطاف والرفق ويجتنب الألفاظ الدالة على الإدلال والقرب من المخاطب فإنه سوء أدب ، وعن ابن أبي فديك قال: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذه الآية ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾([92]١) .

ثم قال : صلى الله عليك وسلم يا محمد سبعين مرة ناداه ملك وعليك يا فلان ولم تسقط له حاجة هذا وليبلغ سلام من أوصاه بتبليغ سلامه فيقول: السلام عليك يا رسول الله من فلان بن فلان أو فلان بن فلان يسلم عليك يا رسول الله ويروى أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كان يوصي بذلك ويرسل البريد من الشام إلى المدينة الشريفة بذلك ، ومن ضاق وقته عما ذكرناه اقتصر على ما يمكنه وعن جماعة من السلف الإيجاز في ذلك جدا ثم يتأخر عن يمينه إن كان مستقبلا قيد ذراع فيسلم على أبي بكر رضي الله عنه فإن رأسه حيال منكب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى ما ذكرنا يكون تأخره إلى ورائه بجانبه فيقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثانيه في الغار أبا بكر الصديق جزاك الله عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خيرا ثم يتأخر كذلك قدر ذراع فيسلم على عمر فيقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين عمر الفاروق الذي أعز الله به الإسلام جزاك الله عن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خيرا ثم يرجع إلى حيال وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيحمد الله ويثني عليه ويصلي ويسلم على نبيه ويدعو ويستشفع له ولوالديه ولمن أحب ويختم دعاءه بآمين والصلاة والتسليم وقيل ما ذكر من العود إلى رأس القبر الشريف لم ينقل عن الصحابة ولا التابعين وعن القاسم بن محمد قال: (دخلت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أماه اكشفي لنا قبر رسول الله صلى الله

([92]١) سورة الأحزاب الآية (٥٦).

عليه وآله وسلم وصاحبه فكشفت عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقدما وأبا بكر رأسه بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعمر رأسه عند رجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم)([93]١).

وإذا فرغ من الزيارة يأتي الروضة فيكثر فيها من الصلاة والدعاء إن لم يكن في وقت تكره فيه الصلاة ففي الصحيحين : «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»([94]٢).

وفي رواية «قبري ومنبري»([95]٣) ويقف عند المنبر ويدعو ففي الحديث «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة»([96]٤) وكان السلف يستحبون أن يضع أحدهم يده على رمانة المنبر النبوي التي كان عليه الصلاة والسلام يضع يده عليه عند الخطبة وهناك الآن قطعة تدخل الناس أيدهم من طاقة في المنبر إليه يتبركون بها يقال: إنها من بقايا منبره عليه الصلاة والسلام ويجتهد أن لا يفوته مدة مقامه صلاة في المسجد فقد ثبت أن صلاة في مسجده صلى الله عليه وآله وسلم تعدل ألف صلاة في غيره على ما قدمناه وهذا التفضيل مختص بالفرائض وقيل في النفل أيضا([97]٥).

ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بقيع الغرقد فيزور القبور التي به خصوصا يوم الجمعة ويبكر كي لا تفوته صلاة الظهر مع الإمام في المسجد فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يزوره وإذا انتهى إليه قال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لنا ولهم إنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد اللهم اغفر لنا ولهم ويزور القبور المشهورة كقبر عثمان بن عفان رضي الله عنه وقبر العباس وهو في قبته المشهورة وفيها قبران الغربي منهما قبر العباس رضي الله عنه والشرقي قبر الحسن بن علي زين العابدين وولده محمد الباقر وابنه جعفر الصادق رضي الله عنهم كلهم في قبر واحد وعند باب البقيع عن يسار الخارج قبر صفية أم الزبير عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيه قبر فاطمة بنت

([93]١) أخرجه الحاكم (١٣٦٨).

([94]٢) أخرجه البخاري (١٨٨٨) ومسلم (١٣٩٠) وابن حبان (٣٧٥٤٠) والنسائي (٦٩٤) والترمذي (٣٩١٦) .

([95]٣) تقدم تخريجه ص (٣٢٩).

([96]٤) أخرجه النسائي (٦٩٥) وابن حبان (٣٧٤٩).

([97]٥) شواهد الحق ص (١٠٠ وما بعدها).

أسد أم علي رضي الله عنهما ويصلي في مسجد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبقيع وهو المعروف ببيت الأحزان وقيل قبرها فيه وقيل بل في الصندوق الذي هو أمام مصلى الإمام في الروضة الشريفة واستبعده بعض العلماء وقيل إن قبرها في بيتها وهو في مكان المحراب المخشب الذي خلف الحجرة الشريفة داخل الدرابزين قال وهو الأظهر وبالبقيع قبة يقال إن فيها قبر عقيل في داره وفيه حظيرة مستهدمة مبنية بالحجارة يقال إن فيها قبور من دفن من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله عنهن وفيه قبر إبراهيم ابن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مدفون إلى جنب عثمان بن مظعون ودفن إلى جنب عثمان بن مظعون عبدالرحمن بن عوف رضوان الله عنهم أجمعين وعثمان هذا أول من دفن بالبقيع في شعبان على رأس ثلاثين شهرا من الهجرة ويأتي أحدا يوم الخميس مبكرا كي لا تفوته جماعة الظهر بالمسجد فيزور قبور شهداء أحد ويبدأ بقبر حمزة عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويزور جبل أحد نفسه ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أحد جبل يحبنا ونحبه»([98]١) وفي رواية (إنه على ترعة من ترع الجنة وعَيرٌ على ترعة من ترع النار)([99]٢).

وستحب أن يأتي مسجد قباء يوم السبت اقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم لأنه كان يأتيه في كل سبت راكبا وماشيا([100]٣) وهو أول مسجد في الإسلام وأول من وضع فيه حجرا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم وينوي زيارته والصلاة فيه ، فقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن الصلاة فيه كعمرة ويأتي في قباء بئر أريس التي تفل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وآله وسلم من عثمان رضي الله عنه فيتوضأ ويشرب ويزور مسجد الفتح وهو على قطعة من جبل سلع من جهة الغرب فيركع فيه ويدعو.

([98]١) أخرجه البخاري (٤٠٨٣) ومسلم (١٢٩٣) وابن حبان (٣٧٢٥) .

([99]٢) أخرجه ابن ماجه (٣١١٥).

([100]٣) تقدم تخرجيه.

وروى جابر : (أنه صلى الله عليه وآله وسلم دعا فيه ثلاثة أيام على الأحزاب فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين)([101]١).

والمساجد التي هناك منها مسجد يقال له: مسجد بني ظفر وفيه حجر جلس عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقال: (ما جلست عليه امرأة لتريد الولد إلا حبلت) ويقال إن جميع المساجد والمشاهد المفضلة التي بالمدينة ثلاثون يعرفها أهل المدينة ويقصد الآبار التي كان صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ منا ويشرب وهي سبعة: منها بئر بضاعة والله أعلم.

(فصل) : وإذا عزم الرجوع إلى أهله، يستحب له أن يودع المسجد بصلاة ويدعو بعدها بما أحب وأن يأتي القبر الكريم فيسلم ويدعو بما أحب له ولوالديه وإخوانه وأولاده وأهله وماله ويسأل الله تعالى أن يوصله إلى أهله سالما غانما في عافية من بليات الدنيا والآخرة ويقول غير مودع يا رسول الله ويسأل الله تعالى أن يرده إلى حرمه وحرم نبيه في عافية وليكثر دعاءه بذلك في الروضة الشريفة عقيب الصلوات وعند القبر ويجتهد في خروج الدمع فإنه من أمارات القبول وينبغي أن يتصدق بشيء على جيران النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم ينصرف متباكيا متحسرا على فراق الحضرة الشريفة النبوية والقرب منها([102]٢).

وقال الشيخ النبهاني رحمه الله تعالى: ثم نرجع إلى ما كنا بسبيله من زيارة القبور فيما ذكر من الآداب وهو في زيارة العلماء والصلحاء ومن يتبرك بهم وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيأتي إليهم الزائر ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل والانكسار والمسكنة والفقر والحاجة والاضطرار والخشوع ويحضر قلبه وخاطره إليهم والى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون ثم يثني على الله تعالى بما هو أهله ثم يصلي ويترضى عن أصحابه ثم يترحم على التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ثم يتوسل إلى الله تعالى بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه ويستغيث بهم ويطلب حوائجه ويجزم الإجابة ببركتهم ويقوي حسن ظنه في ذلك فإنهم باب الله المفتوح وجرت سنته سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج على أيديهم وبسببهم ومن

([101]١) أخرجه أحمد (٨٠/٢١).

([102]٢) شواهد الحق ص (١٠٣).

عجز عن الوصول إليهم فليرسل السلام عليهم ويذكر ما يحتاج إليه من حوائجه ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه إلى غير ذلك فإنهم السادة الكرام والكرام لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم وهذا الكلام في زيارة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عموما.

وأما زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه فكل ما ذكر يزيد عليه أضعافه أعني الانكسار والذل والمسكنة لأنه الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته ولا يخيب من قصده ولا من استعان أو استغاث به إذ أنه عليه الصلاة والسلام قطب دائرة الكمال وعروس المملكة قال الله تعالى في كتابه العزيز :﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾([103]١). وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم : إن الزائر يشعر نفسه بأنه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته إذ لا فرق بين موته وحياته أعني في مشاهدته صلى الله عليه وآله وسلم لأمته ومعرفته بأحوالهم ونياتهم وعزائمهم وخواطرهم وذلك عنده صلى الله عليه وآله وسلم جلي لا خفاء فيه فإن قال قائل: هذه الصفات مختصة بالمولى سبحانه وتعالى فالجواب: أن كل ما انتقل إلى الآخرة من المؤمنين فهم يعلمون أحوال الأحياء غالبا وقد وقع ذلك في الكثرة بحيث المنتهى من حكايات وقعت منهم ويحتمل أن يكون علمهم بذلك حيث عرض أعمال الأحياء عليهم ويحتمل غير ذلك وهذه أشياء مغيبة عنا وقد أخبر الصادق عليه الصلاة والسلام بعرض الأعمال عليهم فلابد من وقوع ذلك والكيفية فيه غير معلومة والله اعلم بها.

أقوال العلماء في زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى:

قال الإمام ابن حجر في شرحه على البخاري عند قوله: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)([104]٢) قوله إلا إلى ثلاثة مساجد المستثنى منه محذوف فإما أن يقدر فيصير: لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا الثلاثة أو أخص من ذلك ولا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم

([103]١) سورة النجم الآية (١٨).

([104]٢) تقدم تخريجه.

وغيرها فتعين الثاني والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو: لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين والله أعلم.

وقال السبكي الكبير: وقد التبس ذلك على بعضهم فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة لمن في غير الثلاثة داخل في المنع وهو خطأ لأن الاستثناء إنما يكون من جنس المستثنى منه فمعنى الحديث: لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو إلى مكان من الأمكنة لأجل ذلك المكان إلا إلى الثلاثة المذكورة وشد الرحال إلى زيارة أو طلب علم ليس إلى المكان بل إلى من في ذلك المكان والله أعلم([105]١).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من زار قبري وجبت له شفاعتي»([106]٢) . رواه وصححه جماعة كعبد الحق والتقي السبكي وبلفظ : «من جاءني زائرا لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة»([107]٣) والمراد بقوله: لا تحمله حاجة إلا زيارتي اجتناب قصد مالا تعلق له بالزيارة.

أما ما يتعلق بها من نحو قصد الاعتكاف في المسجد النبوي وكثرة العبادة فيه وزيارة الصحابة وغير ذلك مما يندب للزائر فعله فلا يضر قصده في حصول الشفاعة له فقد قال أصحابنا وغيرهم: يسن أن ينوي مع التقرب بالزيارة التقرب بشد الرحال للمسجد النبوي والصلاة فيه كما ذكره المصنف.

ثم الحديث يشمل زيارته صلى الله عليه وآله وسلم حيا وميتا ويشمل الذكر والأنثى الآتي من قرب أو بعد فيستدل به على فضيلة شد الرحال لذلك وندب السفر للزيارة إذ للوسائل حكم المقاصد.

وقد أخرج أبو داود بسند صحيح: (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه**)([108]٤).**

([105]١) فتح الباري (٣/٦٦).

([106]٢) تقدم تخريجه.

([107]٣) تقدم تخريجه.

([108]٤) أخرجه أحمد (١٤/٣١١ - ٣١٢) الفتح الرباني ، وأبو داود (٢٠٤١).

فتأمل هذه الفضيلة العظيمة وهي رده صلى الله عليه وآله وسلم على المسلم عليه إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم حي في قبره كسائر الأنبياء لما ورد مرفوعا: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»([109]١) ومعنى رد روحه الشريفة رد القوة المنطقية في ذلك الحين للرد عليه([110]٢).

الإمام الفيروز آبادي رحمه الله تعالى:

وقال الإمام شيخ الإسلام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي صاحب القاموس في كتابه (الصلات والبشر) : اعلم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره آكد فيستحب إعمال المطى لإدراك الفوز بهذا الشرف العظيم والمنصب الكريم قال القاضي ابن كج: (وهو القاضي يوسف بن أحمد بن كجٍ) فيما حكاه الرافعي : إذا نذر أن يزور قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعندي أنه يلزمه الوفاء وجها واحدا ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي وقد علم أنه لا يلزمه بالنذر إلا العبادات وممن صرح باستحبابها وكونها سنة من أصحابنا الرافعي في أواخر باب أعمال الحج والغزالي في الإيحاء والبغوي في التهذيب والشيخ عز الدين بن عبدالسلام في مناسكه وأبو عمرو بن الصلاح وأبو زكريا النووي رحمه الله تعالى .

ومن الحنابلة: الشيخ موفق الدين والإمام أبو الفرج البغدادي وغيرهما.

ومن الحنفية: صاحب الاختيار في شرح المختار له عقد لها فصلا وعدها من أفضل المندوبات المستحبات.

وأما المالكية: فقد حكى القاضي عياض منهم الإجماع على ذلك وفي كتاب تهذيب المطالب لعبدالحق الصقلي عن الشيخ أبي عمران المالكي أن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجبة قال عبدالحق : يعني من السنن الواجبة وفي كلام العبدي المالكي في شرح الرسالة: أن المشي إلى المدينة لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس وأكثر عبارات الفقهاء أصحاب المذاهب تقتضي السفر للزيارة لأنهم استحبوا للحاج بعد الفراغ من الحج الزيارة ومن ضرورتها السفر واما نفس الزيارة فالأدلة عليها كثيرة منها: قوله تعالى ﴿ولو أنهم إذ

([109]١) تقم تخريجه.

([110]٢) من الإيضاح ص (٤٨٨).

ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾([111]١).

ولا شك أنه صلى الله عليه وآله وسلم حي وأن أعمال أمته معروضة عليه. ثم ذكر الشيخ جملة من أحاديث الزيارة([112]٢).

الإمام محمد بن علان الصديقي رحمه الله تعالى:

قال الشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي شارح الأذكار معلقا على قول النووي: (فإن زيارته أفضل القربات وأنجح المساعي): وكيف لا وقد وعد الزائر بوجوب شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم وهي لا تجب إلا لأهل الإيمان ففي ذلك التبشير بالموت على الإيمان مع ما ينضم إلى ذلك بسماعه صلى الله عليه وآله وسلم سلام الزائر من غير واسطة. وأخرج أبو داود وغيره عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام»([113]٣) . قال الحافظ : حديث حسن أخرجه أحمد والبيهقي وغيرهما وأنبئت عن الشيخ السبكي في شفاء السقام قال: اعتمد جماعة من الأئمة على هذا الحديث في استحباب زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وهو اعتماد صحيح لأن الزائر إذا سلم عليه وقع الرد عليه من قرب وتلك فضيلة مطلوبة.

أقول: ورده عليه كذلك بنفسه ولو لم يكن للزائر من القرى إلا هذا الخطاب لكان فيه الغنى، وكيف وفيه الشفاعة العظمة ومضاعفة الصلاة في ذلك الحرم الأسنى وقد أورد جملة من الأحاديث في ذلك التقي السبكي في شفاء السقام وابن حجر الهيثمي في الدر المنظم ، وتلميذه الفاكهي في حسن الاستشارة في آداب الزيارة([114]٤).

الإمام الكرماني رحمه الله تعالى:

وقال الشيخ الكرماني في شرحه على البخاري عند قوله: (إلا إلى ثلاثة مساجد) : والاستثناء مفرغ فإن قلت فتقدير الكلام لا تشد الرحال إلى موضع او مكان فيلزم ان

([111]١) سورة النساء الآية (٦٤).

([112]٢) الصلاة والبشر في الصلات على خير البشر للفيروز آبادي ص (١٤٧٩.

([113]٣) ورد في الفتح الرباني (٣١١/١٤، ٣١٢) وأبي داود (٢٠٤١).

([114]٤) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (٢٣١/٥) مفاهيم ص (٢٦٩).

لا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى حتى لا يجوز السفر لزيارة إبراهيم الخليل عليه السلام ونحوه لأن المستثنى منه في المفرغ لابد ان يقدر أعم العام.
قلت: المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعا ووصفا كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيدا كان تقديره: ما رأيت رجلا أو واحدا إلا زيدا، لا ما رأيت شيئا أو حيوانا إلا زيدا فههنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة وقد وقع في هذه المسألة في عصرنا مناظرات كثيرة في البلاد الشامية وصنف فيها رسائل من الطرفين لسنا الآن لبيانها([١][115]).

الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى:

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى في شرحه للحديث الذي رواه مسلم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **(إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى حجرها)**([٢][116]) .
قال : وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : وهو يأرز إلى المدينة معناه: أن الإيمان أولا وأخرى بهذه الصفة لأنه في أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه وصح إسلامه أتى المدينة إما مهاجرا مستوطنا وإما متشوقا إلى رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومتعلما منه ومتقربا ثم بعده هكذا في زمن الخلفاء كذلك ولأخذ سيرة العدل منهم والاقتداء بجمهور الصحابة رضوان الله عليهم فيها ثم من بعدهم من العلماء الذين كانوا سرج الوقت وأئمة الهدى لأخذ السنن المنتشرة بها عنهم فكان كل ثابت الإيمان منشرح الصدر به يرحل إليها ثم بعد ذلك في كل وقت إلى زماننا لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك بمشاهدة وآثار أصحابه الكرام فلا يأتيها إلا مؤمن([٣][117]).

الإمام أبو محمد ابن قدامة إمام الحنابلة رحمه الله تعالى :

قال الشيخ موفق الدين عبدالله بن قدامة في كتابه المغني (ويستحب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في

([115]١) شرح الكرماني (١٢/٧).
([116]٢) أخرجه أحمد (١١٥/١) ومسلم (١٤٦٩).
([117]٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٧٧).

حياتي»([118]١) وفي رواية «من زار قبري وجبت له شفاعتي»([119]٢) وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «ما من أحد يسلم علي عند قبري إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»([120]٣)).

ويروى عن العتبي قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾([121]٤) وقد جئتك مستغفر لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشد يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فحملتني عيني فنمت فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقال: يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له([122]٥).

الإمام الشيخ بدر الدين العيني:

قال الشيخ العيني في شرح البخاري: وحكى الرافعي عن القاضي ابن كجٍ أنه قال: إذا نذر أن يزور قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعندي أنه يلزمه الوفاء وجها واحدا قال: ولو نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان عندي وقال القاضي عياض وأبو محمد الجويني من الشافعية: أنه يحرم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة لمقتضى النهي وقال النووي : وهو غلط والصحيح عند أصحابنا وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون أنه لا يحرم ولا يكره وقال الخطابي : لا تشد لفظة خبر ومعناه الإيجاب فيما نذره الإنسان من الصلاة في البقاع التي تبرك بها أي لا يلزم الوفاء بشيء من ذلكم حتى يشد الرحل له ويقطع المسافة إليه غير هذه الثلاثة التي هي مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأما إذا نذر الصلاة في غيرها من البقاع فإن له الخيار في أن يأتيها أو يصليها في موضعه ولا يرحل إليها وقال شيخنا زين الدين: من أحسن محامل هذا الحديث أن المراد منه حكم المساجد فقط وأنه لا يشد

([118]١) تقدم تخريجه.

([119]٢) تقدم تخريجه.

([120]٣) تقدم تخريجه.

([121]٤) سورة النساء الآية (٦٤).

([122]٥) المغني لابن قدامة (٣/٥٥٦).

الرحل إلى مسجد من المساجد غير هذه الثلاثة فأما قصد غير المساجد من الرحلة في طلب العلم وفي التجارة والتنزه وزيارة الصالحين والمشاهد وزيارة الإخوان ونحو ذلك فليس داخلا في النهي وقد ورد ذلك مصرحا به في بعض طرق الحديث فعن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا ينبغي للمصلي أن يشد رحاله إلى مسجد يبتغي فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»([123]١) وإسناده صحيح([124]٢).

الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي رحمه الله تعالى :

قال الشيخ منصور البهوتي في كتابه **(**كشاف القناع عن متن الإقناع**)**: فصل: وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لحديث الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي».

وفي رواية: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»([125]٣).

تنبيه: قال ابن نصر الله : لازم استحباب زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم استحباب شد الرحال إليها لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحال فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحال لزيارته([126]٤).

الشيخ ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى :

وقد ذكر الشيخ ابن القيم في قصيدته المعروفة بالنونية كيف تكون الزيارة وما هي الآداب المطلوبة فيها، وكيف ينبغي أن يكون شعور الزائر وهو واقف أمام المواجهة الشريفة وماذا ينبغي أن يحس به تجاه صاحب القبر وذكر في آخر تلك الأبيات أن الزيارة بهذا الإحساس والشعور وبتلك الكيفية هي من أفضل الأعمال فقال:

فإذا أتينا المسجد النبوي صلـ	ينا التحية أولا ثنتان
بتمام أركان لها وخشوعها	وحضور قلب فعل ذي الإحسان

([123]١) أخرجه أحمد (ج١٣ ص ٢٠) الفتح الرباني.

([124]٢) عمدة القاري (٧/٢٥٤).

([125]٣) تقدم تخريجه ص (٣٢٩).

([126]٤) كشاف القناع (٢/٥٩٨).

ثم اثثينا للزيارة نقصد الـ	قبر الشريف ولو على الأجفان
فنقوم دون القبر وقفة خاضع	متذلل في السر والإعلان
فكأنه في القبر حي ناطق	فالواقفون نواكس الأذقان
وتفجرت تلك العيون بمائها	ولطالما غاصت على الأزمان
واتى المسلم بالسلام بهيبة	ووقار ذي علم وذي إيمان
لم يرفع الأصوات حول ضريحه	كلا ولم يسجد على الأذقان
كلا ولم يُر طائفا بالقبر أسـ	بوعا كأن القبر بيت ثان
ثم انثنى بدعائه متوجها	لله نحو البيت ذي الأركان
هذي زيارة من غدا متمسكا	بشريعة الإسلام والإيمان
من أفضل الأعمال هاتيك الزيا	رة وهي يوم الحشر في الميزان

(انظر النونية المشهورة لابن القيم) وتدبر قوله رحمه الله تعالى الله : (من أفضل الأعمال هاتيك الزيارة).

الشيخ ابن عابدين رحمه الله تعالى :

وقال الشيخ صاحب الحاشية ابن عابدين عند قوله : (مندوبة) أي بإجماع المسلمين كما في اللباب قال في شرح اللباب: هل تستحب زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم للنساء؟ الصحيح نعم بلا كراهة بشروطها على ما صرح به بعض العلماء أما على الأصح من مذهبنا وهو قول الكرخي من أن الرخصة في زيارة القبور ثابتة للرجال والنساء جميعا فلا إشكال وأما على غيره فكذلك نقول بالاستحباب لإطلاق الأصحاب والله أعلم بالصواب، وقال عند قوله ولينو معه زيارة مسجده) : قال ابن الهمام: وفيما يقع عند العبد الضعيف تجريد النية لزيارة قبره عليه الصلاة والسلام ثم يحصل له إذا قدم زيارة المسجد، أو يستمنح فضل الله تعلى في مرة اخرى ينوي زيارة المسجد فيها "لأن في ذلك زيادة تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم وإجلاله ويوافقه ظاهر ما ذكرناه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «من جاءني زائرا لا تعمله حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة»([127]١). ونقل

([127]١) تقدم تخريجه.

الرحمتي عن العارف المنلاجامي أنه أفرد الزيارة عن الحج حتى لا يكون له قصد غيرها في سفره([128]١).

وقال الشيخ ابن عابدين أيضا: وهل تندب الرحلة للزيارة كما اعتيد من الرحلة إلى زيارة خليل الرحمن وأهله وأولاده وزيارة السيد البدوي وغيره من الأكابر الكبار؟ لم أرَ من صرح به من أئمتنا ومنع بعض أئمة الشافعية إلا لزيارته صلى الله عليه وآله وسلم قياسا على منع الرحلة لغير المساجد الثلاثة ورده الغزالي بوضوح الفرق فإن ماعدا المساجد الثلاثة مستوية في الفضل فلا فائدة في الرحلة إليها وأما الأولياء فإنهم متفاوتون في القرب من الله تعالى ونفع الزائرين بحسن معارفهم وأسرارهم ونقل عن ابن حجر في فتاويه قوله: ولا تترك الزيارة – لما يحصل عندها من منكرات ومفاسد كاختلاط الرجال بالنساء وغير ذلك لأن القربات لا تترك لمثل ذلك ، بل على الإنسان فعلها وإنكار البدع بل إزالتها إن أمكن قلت ويؤيده عدم ترك اتباع الجنازة وإن كان معها نساء نائحات ، تأمل([129]٢).

وقال صحاب الدر المختار: وزيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم مندوبة بل قيل واجبة لمن له سعة وذكر أن الحاج يبدأ بالحج إن كان فرضا ثم يزور وإذا كان تطوعا فإنه مخير بين البدء بالحج أو الزيارة ولينوِ مع زيارته زيارة مسجده عليه الصلاة والسلام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر أن الصلاة فيه خير من ألف صلاة في غير مسجده إلا المسجد الحرام وكذلك بقية القرب فإن كل قربة فيه بألف قربة في غيره.

الشيخ أبو عبدالله السامري الحنبلي: قال في كتاب (المستوعب) في باب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما نصه:

وإذا قدم مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استحب له أن يغتسل لدخوله ثم يأتي مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقدم رجله اليمنى في الدخول ثم يأتي القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ثم ذكر كيفية السلام والدعاء وأطال ومنه: اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك

([128]١) رد المحتار لابن عابدين (٢/٢٦٣ و ٢٦٤.

([129]٢) رد المحتار (٦٣١٩/١.

عليه الصلاة والسلام ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك...﴾([130]١)، وإني قد أتيتك مستغفرا فأسألك ان توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حال حياته اللهم إني أتوجه إليك بنبيك وذكر دعاء طويلا ثم قال: وإذا أراد الخروج عاد إلى القبر فودع وكذلك ذكر أبو منصور الكرماني من الحنفية أن يدعو ويطيل الدعاء عند القبر المكرم وفي مناسك الإمام أبي زكريا النووي ما نصه/: فصل في زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر كلاما مطولا ثم قال: فإذا صلى تحية المسجد أتى القبر فاستقبله واستدبر القبلة على نحو أربعة أذرع من جدار القبر وسلم مقتصدا لا يرفع صوته.

وقال الحصني: كان عمر بن عبدالعزيز يبعث بالرسول قاصدا من الشام إلى المدينة ليقرئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم السلام ثم يرجع.

وقالت الحنفية: إن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أفضل المندوبات والمستحبات صرح بذلك الإمام محمد الكرماني أبو منصور في مناسكه والإمام عبدالله بن محمود في شرح المختار وقال الإمام أبو العباس السروجي.

وإذا انصرف الحاج من مكة شرفها الله تعالى فليتوجه إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيارة قبره فإنها من أنجح المساعي.

وقال ابن الخطاب محفوظ الكلوإذي الحنبلي من أئمة الحنابلة في كتابه (الهداية) في آخر باب صفة الحج: استحب له زيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبيه وعقد الإمام ابن الجوزي في كتاب مثير الغرم بابا في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام.

وقال أبو عمران المالكي: زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجبة . وقال العبدي المالكي في شرح الرسالة: إن المشي إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من المشي إلى الكعبة وبيت المقدس([131]٢).

والحنابلة قد نصوا كغيرهم على كون زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة قصدت بالسفر لأجلها أو لم تقصد بالسفر لأجلها وأما الحديث فمعناه الذي فهمه السلف والخلف انه لا فضيلة زائدة في السفر لأجل الصلاة في مسجد إلا السفر إلى

([130]١) سورة النساء الآية (٦٤).

([131]٢) المقالات السنية ص (١٥٢ – ١٥٣).

هذه المساجد الثلاثة لأن الصلاة تضاعف فيها إلى مئة ألف وذلك في المسجد الحرام وعلى ألف وذلك في مسجد الرسول والى خمسمائة وذلك في المسجد الأقصى.

والحديث المراد به السفر لأجل الصلاة ، يبين ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من طريق شهر بن حوشب من حديث أبي سعيد مرفوعا: «لا ينبغي للمطي أن تعمل إلى مسجد ينبغي فيه الصلاة إلا إلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»(١[132]).

الموسوعة اليوسفية في بيان ادلة الصوفية
بداية الجزء الثاني

الذكر مع الجماعة

كثير من الآيات القرآنية تدل على الذكر الجماعي منها:

قال الله تعالى ﴿فاذكروني أذكركم﴾(٢[1]).

وقال تعالى : ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾(٣[2]).

وقال تعالى ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾(٤[3]).

وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا﴾(١[4]).

([132]١) المقالات السنية بتصرف (١٣٨) وفي الفتح الرباني ما نصه وقد أجاب الجمهور عن حديث شد الرحال أن القصر فيه إضافي باعتبار المساجد لا حقيقي قالوا والدليل على ذلك أنه قد ثبت بإسناد حسن في بعض ألفاظ الحديث (ولا ينبغي للمطي أن يشد رحالها إلى مسجد تبتغي فيه الصلاة غير مسجدي هذا أو المسجد الحرام والمسجد الأقصى) فالزيارة وغيرها خارجة عن النهي (وأجابوا ثانية) بالإجماع على جواز شد الرحال للتجارة وسائر مطالب الدنيا وعلى وجوبه إلى عرفة للوقوف والىمنى للمناسك التي فيها والى مزدلفة والى الجهاد والهجرة من دار الكفر وعلى استحبابه لطلب العلم وأجابو عن ماروي (لا تتخذوا قبري عيدا) بأنه يدل على الحث على كثرة الزيارة لا على منعها وأنه لا يُهمل حتى لا يزار إلا في بعض الأوقات كالعيدين ويؤيده قوله ولا تجعلوا بيوتكم قبورا أي لا تتركوا الصلاة فيها كذا قال الحافظ المنذري (وقال السبكي) معناه أنه لا تتخذوا لها وقتا مخصوصا ولا تكون الزيارة إلا فيه.

([1]٢) سورة البقرة الآية (١٥٢).

([2]٣) سورة آل عمران الآية (١٩١).

([3]٤) سورة الأحزاب الآية (٣٥).

أحاديث شريفة تبين استحباب الذكر الجماعي والحث عليه

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن لله ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا قال : فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – ما يقول عبادي؟ قال : يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول هل رأوني ؟ قال فيقولون لا والله ما رأوك قال فيقول كيف لو رأوني؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا اقل يقول فما يسألوني؟ قال يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال: فمم يتعوذون؟ قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها؟ فقال: يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»(٢[5]).

٢- وعن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ علينا قال: آ لله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة(٣[6]).

٣- وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر »(٤[7]).

(١[4]) سورة الأحزاب الآية (٤١ – ٤٢).

(٢[5]) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) والترمذي (٣٦٠٠٩ واحمد (٢/٢٥١) و (٢/٢٥١) والروايت مختصرة ومطولة.

(٣[6]) أخرجه مسلم (٦٧٩٧) والترمذي (٣٣٧٩) والنسائي (٥٤٤١) وأحمد (٤/٩٢).

(٤[7]) أخرجه أحمد (٣/١٥٠) والترمذي (٣٥١٠) وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٥٩) ورمز لصحته .

٤- وعن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بضع أبياته ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾([8]١) فخرج يلتمسهم فوجد قومه يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس، وجاف الجلد وذو الثوب الواحد فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»([9]٢).

٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يقول الله عز وجل يوم القيامة (سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم) فقيل ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال «أهل مجالس الذكر»([10]٣).

٦- وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: إنا لعند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: ارفعوا أيديكم قولوا لا إله إلا الله ففعلنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد ثم قال: ابشروا فإن الله قد غفر لكم([11]٤).

٧- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: تعال نؤمن بربنا ساعة فقال ذات يوم لرجل فغضب الرجل فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة)([12]٥).

٨- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي... وغن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)([13]٦).

([8]١) سورة الكهف الآية (٢٨).

([9]٢) الحاوي للفتاوى للإمام السيوطي مجلد /٢/ص٢٧ الحديث رقم ١.

([10]٣) أخرجه أحمد (٣/٦٨ - ٧٦) وابن حبان (٦١٦).

([11]٤) أخرجه الحاكم (١٨٤٤) وأحمد (٤/١٢٤) والطبراني في الكبير (٧١٦٣) والبزار (١٠).

([12]٥) أخرجه أحمد بإسناد حسن (٢٢/٢٨٦).

([13]٦) أخرجه البخاري(٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥) وأحمد (١٤/٢٦٨) والترمذي (٢٣٨٨) وابن ماجه (٣٨٢٢) .

٩- وفي رواية البزار والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (عبدي إذا ذكرتني خاليا ذكرتك خاليا وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم وأكثر).

١٠- وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»([14]١).

١١- وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات)([15]٢).

١٢- وأخرج بقي بن مخلد عن عبدالله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بمجلسين أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه والآخر يعلمون العلم فقال: (كلا المجلسين خير واحدهما أفضل من الآخر).

١٣- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (ليبعثن الله أقواما يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء قال فجثا أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله : حلهم لنا – صفهم – نعرفهم ؟ قال: المتحابون في الله من قبائل شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه)([16]٣).

١٤- وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي رزي العقيلي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له : (ألا أدلك على ملاك الأمر الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة؟ قال: بالى، قال: عليك بمجالس الذكر وإذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله).

١٥- وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد صلاة الصبح إلى أن تطلع الشمس أحب إلي

([14]١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) والترمذي (٢٣٧٨) وقال حديث حسن صحيح.

([15]٢) رواه أحمد (٢٠٢/١٤).

([16]٣) أخرجه الطبراني بإسناد حسن انظر الترغيب والترهيب (٢/٤٠٦.٤٠٦/٢١).

مما طلعت عليه الشمس ، ولأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى أن تغيب الشمس أحب إلي من الدنيا وما فيها»([17]١).

من أقوال العلماء والعارفين في مشروعية الذكر الجماعي:

١- قال العلامة ابن عابدين في حاشيته في معرض ذكر الله تعلى مع الجماعة: (وقد شبه الإمام الغزالي ذكر الإنسان وحده وذكرا لجماعة بأذان المنفرد وأذان الجماعة قال: فكما أن أصوات المؤذنين جماعة تقطع جرم الهواء أكثر من صوت المؤذن الواحد كذلك ذكر الجماعة على قلب واحد أكثر تأثيرا في رفع الحجب الكثيفة من ذكر شخص واحد)([18]٢).

٢- وقال الإمام الشعراني في (ذكر الذاكر للمذكور والشاكر للمشكور) : (أجمع العلماء سلفا وخلفا على استحباب ذكر الجماعة في المساجد وغيرها من غير نكير إلا أن يشوش جهرهم على نائم أو مصل أو قارئ)([19]٣).

٣- ويقول الإمام السيد محمد بهاء الدين المشهور بالرواس رحمه الله تعالى: (كمال الأدب حالة ذكر الله سواء كان مع الإخوان أو بالانفراد فإن طريقنا يشمل الذكرين الجلي والخفي أما الجلي فمع الإخوان في حلق الذكر وأما الخفي فهو ورد المرء يخلو به مع الله تعالى ولا ينفع كلاهما بغير الأدب الصحيح وهو صحة الحضور مع المذكور ليذكره الذاكر معتبرا بآياته معظما لجلال سلطانه ألا إلى الله تصير الأمور)([20]٤).

٤- يقول ابن المنير في كتابه (تحفة السالكين) في معرض ذكر جملة من آداب الذكر: (وعليهم مراعاة الوفاق في الأصوات علوا وخفضا لأن في ذلك نشطة للنفس ولذة للروح وراحة للسر وقهرا للشيطان وفرارا ولا يكثر أحدهم الالتفات ولا يعبث بلحيته ولا يلعب بيده ولا بشيء من ثيابه لأنه مجلس الله عز وجل ولا ينظر بعضهم بعضا لأنه مانع من الحضور بل يغمض عينيه).

([17]١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٧١٩٩) ورمز لحسنه.

([18]٢) حاشية ابن عابدين (٢٦٣/٥).

([19]٣) حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح ص ٢٠٨.

([20]٤) تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر ص ٤٢.

ثم إن الجماعة قوة قال الله تعالى ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾([21]١) والحجارة لا يستطيع كسرها إلا الجماعة وقد شبه الله تعالى القلوب القاسية بالحجارة في شدة قساوتها فقال عز من قائل: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾([22]٢) فكما أن الحجارة لا يستطيع كسرها إلا الجماعة فكذلك القلب القاسي يسهل تليينه إذا تساعدت عليه جماعة الذاكرين.

الحب في الله

(الرابطة الشريفة)

يقول محقق كتاب مكتوبات العارف بالله الشيخ خالد النقشبندي في مقدمته على كتاب المكتوبات ما نصه: (الإنسان لا يخلو من رابطة ما فمن مرابط لماله ومن مرابط لحرفته ومن مرابط للنساء ومن مرابط لأصحابه وأخدانه إلى غير ذلك فالرابطة في إصلاح الصوفية ليست إلا عبارة عن نفي هذه الروابط عن القلب وصرفه عنها وربطه بالشيخ وتخيله كأنه معه ومن المقرر أن إعمال الفكر في أمر من الأمور ربطه به على سبيل المحبة لاسيما إذا استولت هذه الخطرة على القلب يعمل في نفس الإنسان عمل مزاولة ذلك الأمر فإعماله في الأمور المحمودة محمود وفي الأمور المذمومة مذموم...).

وقال الشيخ خالد النقشبندي: الرابطة هي من أعظم أسباب الوصول بعد التمسك التام بالكتاب العزيز وسنة الرسول([1]٣) .

وقال من الأئمة الشافعية الإمام الغزالي في الإحياء وفي باب تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن من الصلوات ما نصه: (وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشخصه الكريم وقل السلام عليك أيها النبي وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه.

([21]١) سورة آل عمران الآية (١٠٣).

([22]٢) سورة البقرة الآية (٧٤).

([1]٣) الرسالة الخالدية في الطريقة النقشبندية (٢٥).

وقال منهم العلامة الشهاب ابن حجر المكي شيخ الشهاب الخفاجي في شرح العباب في بيان معاني كلمات التشهد ما نصه: وخوطب صلى الله عليه وآله وسلم كأنه إشارة إلى أنه تعالى يكشف له عن المصلين من أمته حتى يكون كالحاضر معهم ليشهد لهم بأفضل أعمالهم وليكون تذكر حضوره سببا لمزيد الخشوع والخضوع ثم أيده بما مر عن الإحياء.

وقال منهم أيضا محشي الأشباه: أحمد بن محمد الشريف الحموي في كتابه: (نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الانتقال) ما خلاصته: (إن الأولياء يظهرون في صور متعددة بسبب غلبة روحانيتهم على جسمانيتهم وحمل على هذا المعنى ما في بعض روايات الحديث الصحيح حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم : (ينادى من كل باب من أبواب الجنة بعض أهل الجنة) فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهل يدخل من تلك الأبواب كلها؟ فقال: (نعم وأرجو الله أن تكون منهم)[١][2]. والأنبياء يظهرون في صور متعددة أكثر من باب أولى كما حصل مع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حين مر بسيدنا موسى صلى الله عليه وآله وسلم في قبره فوجده يصلي ليلة إسراءه ثم صلى به في المسجد الأقصى ثم وجده في السماء السادسة وهو الذي كان سببا في تخفيف الصلاة من الخمسين إلى خمس وأجساد الأنبياء لا تبلى وهم أحياء في قبورهم.

وقال منهم الحافظ الجلال السيوطي في رسالة حافلة ألفها في مثل هذه المادة سماها (كتاب المنجلي في تطور الولي) نقلا عن الإمام السبكي الشافعي في (الطبقات الكبرى) : (الكرامات أنواع... إلى أن قال: الثاني والعشرون: التطور بأطوار مختلفة وهو الذي يسميه الصوفية المثال وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها في صور مختلفة من عالم المثال واستأنسوا بقوله تعالى ﴿فتمثل لها بشرا سويا﴾[٢][3].

وقال منهم أيضا العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية في كتابه (الروح): إن للروح شأنا آخر غير شأن البدن وتكون في الرفيق الأعلى وهي متصلة ببدن الميت بحيث إذا سلم على صاحبها رد السلام وهي من مكانها هناك انتهى نقلا عن الحافظ السيوطي في كتابه المنجلي.

([2]١) أخرجه البخاري (١٧٨٩) ومسلم (١٠٢٧) والترمذي (٣٦٧٤).

([3]٢) سورة مريم الآية (١٧).

وقد جاء في كتاب (رشحات عين الحياة) أيضا في معنى قوله تعالى ﴿وكونوا مع الصادقين﴾([4]١) إن للكينونة معهم معنيين: كينونة بحب الصورة وهي التزام مجالسة أهل الصدق ومصاحبتهم حتى ينور باطنه بأنوار صفاتهم وأخلاقهم بسبب دوام الصحبة معهم وكينونة بحسب المعنى وهو أن يلتزم طريق الرابطة بحسب الباطن بطائفة يستحقون الوساطة ولا تنحصر الصحبة في المجالسة الصورية والنظر بالعين بل ينبغي أن يجعل الصحبة دائمة وأن يتجاوز عن الصورة إلى المعنى حتى تكون الواسطة في نظره دائما ويكون المقصود الأصلي حاصلا حقيقة بتلك الواسطة.

وقال الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) في باب تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة: فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه.

وأما الاعتدال قائما فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضاءك مطرقا مطأطئا منتكسا وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عن العرض للسؤال واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام قيامك في صلاتك انك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة ان ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عن ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدعين معرفة الله وحبه ألا تستحين من استجرائك عليه؟ مع توقيرك عبدا من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟ ولذلك لما قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم «تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»([5]٢).

([4]١) سورة التوبة الآية (١١٩).

([5]٢) أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب (العراقي على إحياء علوم الدين) (١/١٦٦).

وقال الشهاب بن حجر في الفتاوى الصغرى إن الرابطة هي الطريقة السالمة من كدرات جهلة الصوفية وهي مندوبة لأنها من الوسائل الموجبة لدفع الخطرات ونفي الغفلة والوسائل لها حكم المقاصد والأمر الذي لم ينه عنه الشرع يسوغ فعله إما عن طريق الإباحة إن أدى إلى مباح أو الندب إن أوجب مندوبا أو الواجب إن حصّل واجبا لا يحصل بغيره.

فقد حصل لنا بالتجربة أنا إذا تصورنا الرابطة انتفت عنا الأغيار كلها وبقي هذا الغير وحده فتعرض حينئذ وهذا مثل إنسان له أعداء فتودد إلى بعضهم وسلطه على باقيهم فإذا أهلكهم عنه لم يبق إلا واحد فيقدر على إزالته فيزيله وهذا وجه ينبغي للمنصف أن يتأمله فإنه ظاهر الحسن مطابق للواقع لأن الرابطة ليست مرادة لعينها بل مرادة لغيرها.

وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾([6]١)، والوسيلة بالأعمال الصالحات ولا تكون الأعمال الصالحة إلا بالإخلاص ولا يكون العمل خالصا إلا إذا خلا من الشوائب وقد حصل بالتجربة أنا إذا اشتغلنا بالرابطة خلت أعمالنا من شوائب الغفلة والعمل في الغفلة غير معتد به لأنه لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها فهي من الوسائل الموجبة للغفلة وزوال الغفلة مقصود وما أوصل إلى المقصود فهو مقصود ومن لوازم زوال الغفلة الحضور وهو من أشرف الوسائل والرابطة لزوال الغفلة فهي أيضا من أشرف الوسائل الموجبة للخشوع والحضور ومن أوثق الأسباب لتذكر العبد أثناء الذكر أو غيره أنه عبد لله وأنه إنما يجلس بين يدي رب العزة والجلال من بيده مقاليد أمره كله ومن لا يستطيع جميع الناس ولو اجتمعوا أن يلحقوا به ضرا أو نفعا إلا بإذنه فهل يليق به بعد هذا كله أن يجالسه بجسده وقد شتت قلبه وفكره هنا وهناك وهو يعلم أنه يعلم السر وأخفى فتراه عندها يهرع إلى الرابطة وما ذاك إلا عملا بقوله الصريح صلى الله عليه وآله وسلم «خير الوجوه من إذا رأيته ذكرك الله»([7]٢) فينقطع بذلك كل ما يشوشه أو يعرقل

([6]١) سورة المائدة الآية (٣٥).

([7]٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد بلفظ [قال رجل يا رسول الله من أولياء الله؟ قال: الذين إذا رؤوا ذكر الله] (١٦٧٧٩) وفي رواية [إن من الناس مفاتيح لذكر الله إذا رؤوا ذكر الله] (١٦٧٨٠) ووراه أبو يعلى (٢٤٣٧) والطبراني في الكبير (١٠٤٧٦) وابن المبارك في الزهد بإسناد صحيح (٢١٨) بلفظ [قيل يا رسول الله: أي جلسائنا خير؟ قال: من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقة وذكركم بالاخرة عمله] .

تفكره في خالقه وجليسه جل وعلا وحسبنا هذا الحديث دليلا لمن يرضى بقول الله وقول رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويخضع من خلالها للحق ويصم سمعه عن الافتراء ولسانه عن الجدل والمراء ويكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر يجمع بين المسلمين ولا يفرقهم.

ويقول الإمام الغزالي في الصحيفة (١٦٩) من الجزء الأول أيضا عن الكلام على الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : (واحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشخصه الكريم وقل: سلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين).

ويقول العارف بالله المرحوم الشيخ محمد أمين الكردي الإربلي الشافعي النقشبندي المتوفى سنة (١٣٣٢)هـ صاحب كتاب (تنوير القلوب) في هذا عند بيان آداب الذكر عن السادة النقشبندية: (التاسع : رابطة المرشد: وهي مقابلة قلب المريد بقلب شيخه وحفظ صورته في الخيال ولو في غيبته وملاحظة أن قلب الشيخ كالميزان ينزل الفيض من بحره المحيط إلى قلب المريد المرابط واستمداد البركة منه لأنه الواسطة إلى التوسل ولا يخفى ما في ذلك من الآيات والأحاديث قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾([1][8]).

وقال تعالى ﴿اتقوا لله وكونوا مع الصادقين﴾([2][9]).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم «المرء مع من أحب»([3][10]).

وقال العارفون : (كن مع الله فإن لم تستطع فكن مع من كان مع الله).

قال الشيخ الأكبر مولانا عبدالله الأحرار المشهور بخواجه أحرار: (إن الكينونة مع الصادقين المأمور بها في كلام رب العالمين على قسمين : كون بحسب الصورة ، وهي مجالستهم حتى تنطبع فيه صفاتهم، وكون بسحب المعنى ثم فسر الكينونة بمعنى الرابطة)([4][11]).

([1][8]) سورة المائدة الآية (٣٥).

([2][9]) سورة التوبة الآية (١١٩).

([3][10]) أخرجه البخاري (٥٨١٧) ومسلم (٢٦٤٠) وأبو داود (٥١٢٧) والترمذي (٣٢٥٢٩).

([4][11]) تنوير القلوب ص (٥١٧).

فإن قال أحد : من أين لكم أن استحضار صورة رجل في الذهن – ولو كان من الصالحين – تحصل به هذه المطالب كلها؟

وإن استحضاركم بسبب تعلق القلب؟ وإنه جائز؟

والجواب عن هذا من وجوه: الأول : قولك من أين لكم أن استحضار صورة رجل في الذهن تحصل به هذه المطالب كلها؟

أقول: قال تعالى ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾([12]١) ، ألا ترى انك إذا كبرت تكبيرة الإحرام اشتغلت برابطة التاجر الذي يعطيك زكاة أو صدقة أو برابطة الحاكم أو الزير الذي يعدك بمنصب أو عطية أو برابطة أهلك ومالك أو بكل في الركعة أو السجدة وتنسى من أنت واقف بين يديه ولا تستحي منه وتنسى نفسك وتخرج من الصلاة ولا تدري أي شيء قلت، أتنكر ذلك؟! ما أراك تجحد ذلك!! ومن المعلوم أن زوال الغفلة مطلوب وهو مفتاح السعادة أن الحضور روح العبادة وزال الغفلة لا يكون إلا بنزول رحمة الله تعالى على عبده ومن أسباب نزول الرحمة: ذكر الصالحين قال سفيان بن عينية (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة) وذكرهم من لوازم محبتهم ومحبتهم فرض لقوله عليه الصلاة والسلام [من أحب لله وابغض لله وأعطى لله فقد استكمل الإيمان]([13]٢) ومحبتهم محبة الله لقوله صلى الله عليه وآله وسلم حاكيا عن الله تعالى : «حقت محبتي على المتحابين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ والمتصادقين فيَّ»([14]٣) وعداوتهم محاربة لله تعالى لقوله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»([15]٤).

وقال الشيخ صاحب الرسالة أيضا وهو يتكلم عن رابطة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأهميتها؟ ونفع السالك في الطريق الوصول إلى مراقبة الله عز وجل ونفي ما سواه: (واعلم أيها الأخ في الله – ألهمك الله رشدك إن رابطة الشيخ الكامل توصلك إلى رابطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك من أجل النعم واوفر

([12]١) سورة الحج الآية (٤٦٩.

([13]٢) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٩/٤.

([14]٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٧٧٩ واحمد (٢٣٩/٥) والترمذي في الزهد باب ما جاء في الحب في الله والطبراني (١٦٨/٢٠) وأبو نعيم في الحيلة (١٢١/٥).

([15]٤) رواه البخاري (٦١٣٧٩).

القسم ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾([16]١) والفناء في النبي صلى الله عليه وآله وسلم موجب للولوج في حضرة القدس والهيجان في مفاوز الأنس والتعرض لنفحات الله تعالى مأمور به ومحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرض وروي عن أنس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»([17]٢) .

والنفس تدخل في عموم قوله ﴿والناس أجمعين﴾ وقد وقع التنصيص بذكر النفس في حديث عبدالله بن هشام وهو أن عمر رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال عمر رضي الله عنه فإنه الآن والله لأنت أحب اليَّ من نفسي فقال صلى الله عليه وآله وسلم «الآن يا عمر»([18]٣) . ويكفيك قوله تعالى ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾([19]٤).

فمن هو أولى بك من نفسك فكيف لا ينبغي أن يكون أحب إليك منها؟ قال سهل رضي الله عنه (من لم يرَ ولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جميع أحواله ويرَ نفسه في ملكه لا يذوق حلاوة سنته)([20]٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي يودُّ أحدهم لو رآني بأهله وماله»([21]٦).

وفي كتاب (الشفا) سئل علي رضي الله عنه : كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: كان والله أحب الينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البراد على الظمأ([22]٧).

وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه : خرج عمر رضي الله عنه ليلة يحرس فرأى مصباحا في بيت عجوز تنفش صوفا وتقول:

على محمد صلاة الأبرار	صلى عليه الطيبون الأخيار

([16]١) سورة فصلت الآية (٣٥).

([17]٢) أخرجه البخاري (١٥ ومسلم (٤٤ والنسائي (٥٠١٣).

([18]٣) أخرجه البخاري (١٦/٥ و ٧٣/٨ و ١٦١) وأحمد (٢٣٣/٤ و ٣٣٦) .

([19]٤) سورة الأحزاب الآية (٦.

([20]٥) الشفا للقاضي عياض (١٩/٢).

([21]٦) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) وابن حبان في صحيحه (٧٢٣١٩.

([22]٧) الشفا للقاضي عياض (٢٢/٢).

يا ليت شعري والمنايا أطوار	قد كنت قواما بكا بالأسحار
هل تجمعني وحبيبي الدار	

فجلس عمر رضي الله عنه يبكي([١][23]).

وروي أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما خدرت رجله فقيل له: أذكر أحب الناس اليك يزل منك فصاح (يا محمداه) فانتشرت([٢][24]).

قال: والعم أن من أحب شيئا آثره وآثر موافقته وإلا لم يكن صادقا في حبه وكان مدعيا فالصادق في حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تظهر علامات ذلك عليه.

وعن انس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل) ثم قال لي: (يا بني وذلك من سنتي ومن احيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة)([٣][25]).

وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا وكذلك كثير من التابعين.

وقال بعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب.

وقال آخر: الميل الدائم بالقلب الهائم.

وقال آخر: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

وقال آخر : إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

وقال آخر: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

وقال آخر: أن تهب كلك لمن أحببت.

وحقيقة الحب: الميل إلى ما يوافق الإنسان وتكون موافقته له إما بإدراكه كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها أو استلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني شريفة باطنة كمحبة الصالحين والعلماء وأهل

([23]١) الشفا للقاضي عياض (٢/٢٣٩).

([24]٢) الشفا للقاضي عياض (٢/٢٣) والبخاري في الأدب المفرد (٩٦٤).

([25]٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٠).

المعروف والمأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة ، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء.

وقال الشهاب ابن حجر في شرح الهمزية عند قول الناظم:

فاملاء السمع من محاسن يمليها	عليك الإنشاد والإنشاء

فإنها تحدث للسامع سكرا وأريحية وطربا وتحريكا للنفس إلى جهة محبوبها فيحصل بتلك الحركة والشوق تخيل المحبوب وإحضاره في الذهن وقرب صورته من القلب واستيلاؤها على الفكر فيحصل للروح ما هو أعجب من سكر الشراب وألذ من عشاق الشوابِّ!.

ومن فوائد الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم محبة المصطفى عليه صلى الله عليه وآله وسلم بل زيادة المحبة المذكورة اللازمة لها ازدياد للشوق مع استحضار للمحاسن النبوية في القلب والحنان بحيث يمثل خياله به ولا يكاد يفتر عن ذكر القلب واللسان.

واعلم أنه يتأكد على المصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصور وقت الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم صورته النبوية الكريمة في مرآة قلبه كأنه بين يديه سائلا من الله الصلاة والسلام عليه لأنه إذا واظب المصلي على ذلك تدوم عليه أسرار أنواره الكريمة المحمدية.

واعلم ان من ثمرات الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم انطباع صورته الكريمة في النفس انطباعا ثابتا متأصلا متصلا.

وقال القاضي في (الشفا): (إن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله لأنت أحب الي من أهلي ومالي وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فانظر إليك وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت انك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك فانزل الله تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾([26]١) فدعاه فقرأها عليه([27]٢).

([26]١) سورة النساء الآية (٦٩).

([27]٢) الشفا (٢/٢٠) وانظر أسباب النزول للواحدي ص (١٤٠و ١٤١).

وفي حديث آخر: (كان رجل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينظراليه لا يطرف فقال عليه الصلاة والسلام (ما بالك؟) قال: بأبي أنت وأمي: أتمتع بالنظر اليك ، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله فأنزل الله الآية)([28]١).

فقد تبين من المقالات السابقة: أن الرابطة كانت تحصل للصحابة رضي الله عنهم أجمعين من شدة محبتهم وكمال اتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك كان حصوله للتابعين وأتباعهم من صحبة الخلفاء الراشدين والأئمة المرشدين ولما تمادى الزمان وتكدرت بالأشغال الدنيوية قلوب الأنام وفترت عزائمهم في المحبة بالإخلاص التام احتاجوا إلى التنبيه عليها والتصريح بها فأمر الخلفاء المرشدين شيوخ العلم والتربية السالكين بالتكلف بها لجمع قلوبهم وتلقيح أرواحهم بأرواحهم وتأليفها لأجل الاستفاضة منهم ثم عبَّروا عن هذه المحبة الروحانية الدينية الرابطة لأن العشق والمحبة يربط قلب المحب بالمحبوب ويقيده به فيحصل الارتباط الروحاني بينهما وقد يسمونها – نسبة – لانتسابه وإضافته بها اليهم فصارت اصطلاحا شائعا فيما بينهم كما أن لكل قوم اصطلاحا ولما كانت الرابطة من أخص أوصافهم وأعظم أركان طريقتهم ومدار امرهم اشتهروا بها بين الناس حتى سموهم مرابطين فلم يزالوا يسمونهم في بلاد العرب بهذا الاسم إلى يومنا هذا فيعنون به الصوفية المقربين والأولياء العارفين قدس الله أسرارهم وكذلك سميت طريقتهم طريق العشق والمحبة لأن مدار الأمر والعمدة فيه كما عرفت هو المحبة الدينية للرفيق الديني والواصل الموصل إلى الله العارف بأسرار السلوك في سبيل الله وفي الله وفي تحصيل رضى الله لا لغرض مما سواه وفي مثل هذه المحبة يقول الله عز وجل في الحديث القدسي «أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»([29]٢) ومن الصورة الواضحة لمصداقية الرابطة الشريفة الطاهرة ما حصل مع سيدنا بلا الحبشي عند سكرات الموت عندما كانت تقول له زوجته واكرباه واحزناه وهو يقول: وا فرحتاه وا طرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه فهل نقول أن سيدنا بلالا أشرك لأنه نسي الله في هذا المقام إنه لشيء عجاب!! وهل إذا تذكر الإنسان في صلاته أمور الدنيا أشرك ايضا فلماذا بعد هذا كله تقولون إذا تذكر الشيخ وهو

([28]١) الشفا (٢/٢١).

([29]٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٩٥٢/٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٧/٢) ومسلم (٢٥٦٦) وابن حبان في صحيحه (٥٧٤).

يـذكر الله فيكـون قـد أشـرك؟ لـذلك لابـد ان نعـرف ونميـز بـين الشـرك والحـب (أي الرابطـة) لذلك قالوا: من قل علمه كثر اعتراضـه، ومن كثر علمه قل اعتراضـه.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم قـال: (يقول الله عز وجل : حقت محبتي للمتحـابين فـيَّ والمتزاورين فـيَّ والمبتـاذلين فيَّ والمتصـادقين فيَّ)([30]١).

وفـي تفسير ابن مسعود عند قولـه تعالـى: ﴿ألا إن أوليـاء الله لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون﴾([31]٢)، عن عمر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه أنـه قـال: سمعت رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم يقـول: (إن مـن عبـاد الله عبـادا ليسـوا بأنبيـاء ولا شـهداء يغـبطهم الأنبيـاء والشـهداء يـوم القيامـة لمكـانتهم مـن الله تعـالـى) قـالوا: يـا رسـول الله !خبرنا من هم وما أعمالهم لعلنا نحبهم قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام منهم، ولا أموال يعطونها فو الله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»([32]٣).

وهذه المحبـة اختياريـة وعقليـة فـإن العاقـل إذا تيقن منفعتـه وسـلامته فـي شـيء يختـاره لنفسـه بحكـم عقلـه ولـو كـان خـلاف طبعـه، كشـرب المـريض الـدواء المـر باختيـاره بخـلاف مـا تحبـه النفـوس بالميـل الطبيعـي كالمحبـة الكائنـة بـين الآبـاء والأولاد أو الحاصلة من النظر إلى الأشياء العجيبة والصور الجميلة فإنه جبلة اضطرارية وقد تنقلـب المحبـة الاختياريـة اضـطرارية وذلـك حـين مشـاهدة كمـالات المحبـوب بعـد حصول الاتحـاد الروحـاني بينهما ثم إن الرابطـة وإن كانت أصـالة لرسول الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم إلا أنـه لا شـك فـي جوازهـا أيضـا لأوليـاء الله العـارفين والمشـايخ الكاملين الذين هم مأمورون بتسليك العبـاد وإرشـادهم فـإنهم آلـة وأتباعـه ونوابـه وورثتـه عليـه الصـلاة والسـلام الـذين أمرنـا بحـبهم وإكـرامهم والبـر بهـم كمـا وقعـت الإشـارة فـي الحديث السابق إليهم.

([30]١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٧٧) واحمد (٢٣٩/٥) والترمذي في الزهد باب ما جاء في الحب في الله والطـبراني (١٦٨/٢٠) وأبو نعيم في الحلية (١٢١/٥).

([31]٢) سورة يونس الآية (٦٢).

([32]٣) أخرج نحوه أبو داود (٣٥٢٧) وابن حبان في صحيحه (٥٧٣) وأحمد (٣٤٣/٥) والحاكم في المستدرك (١٧٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

فكما جازت الصلاة والتسليم عليهم تبعا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جازت الرابطة اليهم أيضا لأنها ليست من الخصائص النبوية بل هي من لوازم الدعوة وتتمة الإرشاد والتربية وهم يشاركونه فيها وفي لوازمها من حيث كونهم أتباعه ونوابه إلى يوم القيامة فكيف لا ؟ ألا ترى قوله تعالى ﴿قل هذه سبيل أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾(١[33]) فانظر كيف أشركهم به في الدعوة والإرشاد وامتثالا لقوله تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾(٢[34]) فهم أحق الناس اقتداء به واتباعا وتأمل – أيضا – كيف أوجب لهم الطاعة علينا بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾(٣[35]).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(٤[36]) والأعمال بدنية وقلبية فالحركات والتصورات المباحة إذا نوى بها الإنسان الطاعة أو التقوي بها عليها فله ما نوى ولو لم يدرك مراده فكيف إذا تحقق حصول المراد؟!! ولا يخفى أن قول الجائع للشبعان (أنت جائع) مثلا لا يوجب له جوعا فكذلك قول المعترض (ما نرى صحة ما ترونه) لا يوجب عدم صحة رؤيتنا فعليه أن يقول: ما تدَّعونه حقا، فأنتم وشأنكم ولا يسوغ له غير ذلك إن نصح نفسه(٥[37])!!.

وقال الفقهاء : يسن للمصلي أن لا يجاوز بصره إشارته وذلك لأنه أجمع لِلْهَمِّ وأدفع للتفرقة فكذلك الرابطة تستعمل لدفع الأغيار واستجلاب الحضور فحين القيام في الصلاة ينظر لموضع سجوده وحين الركوع ينظر لظاهر القدمين وحين الجلوس ينظر لحجره وحين السجود ينظر لأرنبة أنفه وحين التلسليم إلى منكبيه.

وقد ورد في الأثر إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون عباد الله إلى الله ويمشون في الأرض بالنصيحة.

فهذا الذي ذكر في الأثر هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله(٦[38]).

([33]١) سورة يوسف الآية (١٠٨).

([34]٢) سورة الأحزاب الآية (٢١).

([35]٣) سورة النساء الآية (٥٩).

([36]٤) رواه البخاري (١/١٥٧) وأبو داود (٢٢٠١) والترمذي (١٦٤٧) والنسائي (١/٥٩ – ٦٠).

([37]٥) السفر الأسنى في الرابطة الحسنى (٧٤).

([38]٦) عوارف المعارف ص (٧٣) المطبوع بملحق إحياء علوم الدين.

إن قيل: كيف يتصور النبي صلى الله عليه وآله وسلم من لم يره أصلا وكيف يحضره في قلبه؟

فالجواب: (يكون هذا): بمطالعة شمائله الشريفة وضبط حليته المنيفة من كتب الأحاديث الصحيحة وقد ألف العلماء الكتب الكثيرة في هذا الشأن وبينوها بأوضح بيان وإن كان ممن تشرف بزيارة قبره عليه الصلاة والسلام فيتصور في نفسه كانه حاضر في الروضة المطهرة ومشغول بزيارته فهذا أسهل من الأول.

وهل لو شعر الإنسان قلبيا بأن عليه حافظين كراما كاتبين في كل لحظة يكون قد أشرك؟ ! وهل ما يخطر على بال العبد من صور الملائكة والجن والعرش والتماثيل والأشخاص وغيرها في الصلاة ومختلف العبادات يعتبر شركا؟! خصوصا إذا جاء ذكرها فيما تلوه من القرآن؟!

الأصل أن المريد يبدأ دخوله الحضرة الإلهية بتصور من كان سببا في صلته بالله وفاء له وتبركا به ثم هو يفنى بعد هذا في ذهنه وتصوره بمجرد اندماجه في الذكر فهو نوع من الاستصحاب الروحي المؤقت لطرد الشيطان والخواطر الصارفة استعدادا للقيام بحق الله والاستغراق في أنواره وهو ليس من الشروط الأكيدة في السلوك ولكنه نوع من العلاج ووسائل التصفية والتنقية وطرد الشيطان وبخاصة للمبتدئين.

فلا شرك ولا خوف من شرك بل هو التوحيد كل التوحيد.

ونصيحتي في الخاتمة لهذا الباب أن أقول:

بعد وضوح هذه الأدلة الساطعة يجب عليك إذا كنت ممن يرضى بما قال الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن تنقاد للحق وتخضع وتصم سمعك عن الافتراء ولا تصحب من كذب وافترى وأن تصون لسانك عن الجدل والمراء والكذب وأن تكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر تجمع المسلمين ولا تفرقهم فقد قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا»([39]١) ولا داعي لمحاربة الذاكرين المحبين للصالحين وهذا نوع من انواع تحريش الشيطان بين المسلمين فلا تكن بريدا له وكن على حذر وإياك ان تقطع الناس عن طريق الذاكرين الصالحين

([39]١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٤٥٠٠) وأبو داود (٤٨٣٥) وأخرجه البخاري بلفظ «يسر ولا تعسر وسكنوا ولا تنفروا» (٩٦) و (٦١٢٥).

فإن الخطب جلل فعندما تقطعهم عن أهل الذكر والصلاح يتصيدهم الشيطان ومحاربة إبليس وجنوده وما نرى من الكبائر التي تهز عرش الرحمن أمامي وأمامك والتي تحصل عيانا ولا تنكر وكأنها جائزة فمحاربتها أولى وهذا ما يقوله أي إنسان فيه حرارة الإيمان الصادق والوعي الناضج .

المبايعة

(أخذ العهد)

مقدمة

سر المبايعة واهميتها:

قال العارف بالله السيد حسين برهان الدين الرفاعي قدس سره حين سئل عن سر البيعة: (حد من حدود الحق يقف عنده أهل الصدق الذين صدقوا ما بايعوا الله عليه وما عاهدوا الله عليه فخافوا سؤله وعظموا جلاله فتغلب على قلوبهم سلطان الهيبة وأخذهم من علة نفوسهم إلى حضرته العلية فانطمست قوابس أوهامهم بأشعة أنوار عظمته فإذا سول لهم الشيطان خروجا أو دخولا وقفوا على قدم الاستقامة ذاكرين الله قائلين﴿إن العهد كان مسؤولا﴾([1]١) أولئك ﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾([2]٢) وانحجبت بصائرهم عن غيره فأبصروه بها وعن الأغيار تعاموا وعلى طريق رضاه قعدوا والى داعيه قاموا وما البيعة إلا بيعة النفس وقطع علائقها والأعنة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾([3]٣). فإن انطبع المبايع على الصدق ودخل حضرة قوم تجردوا من علائق رطبهم ويابسهم فقد لوحظ من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعونة ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾([4]٤) وعلى هذا يقوم منار الأمر ويتم نظام الخير وتصح

([1]١) سورة الإسراء الآية (٣٤).

([2]٢) سورة فصلت الآية (٣٠).

([3]٣) سورة التوبة الآية (١١١).

([4]٤) سورة الأحزاب الآية (٦).

الوصلة إلى الله ويأخذ القلب عن الله ويصير العبد صفة من صفات الله يصل بالله ويقطع بالله ويتكلم عن الله ويستهدي بالله ويسير إلى الله ويعان من الله عز وجل قال الله لحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إن الذين يبايعونك إنما يباعيونك الله﴾(١[5]) وإن بيعة الإمام المبين والصادق الأمين عليه الصلاة والسلام نافذة سارية باقية هي هي تتلقاها النفس السليمة وتعقد عليها الأكف الكريمة لا تبديل لكلمات الله وأهل الله نواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)(٢[6]).

الأدلة على مشروعية المبايعة (أخذ العهد):

أ- من القرآن الكريم:

١- قال تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾(٣[7]).

٢- قال أيضا ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾(٤[8]).

٣- قال أيضا ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾(٥[9]).

ب- من السنة:

أولا بيعة الرجال:

١- عن سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه) فبايعناه على ذلك(٦[10]).

([5]١) سورة الفتح الآية (١٠).

([6]٢) السير والمساعي ص (٢٢٢ - ٢٢٤).

([7]٣) سورة الفتح الآية (١٠).

([8]٤) سورة النحل الآية (٩١).

([9]٥) سورة الإسراء الآية (٣٤).

([10]٦) أخرجه البخاري (١٨) واللفظ له، ومسلم (٤٤٣٦) والترمذي (١٤٣٩) والنسائي (٤١٧٢) وأحمد (٣١٤/٥) والحميدي (٣٨٧) (٣٨٧) والدارمي (٢٣٦٢).

٢- وعنه رضي الله عنه أيضا أنه قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لا ننازع في الأمر أهله وأن نقول الحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم)([11]١).

ثانيا بيعة النساء:

١- عن السيدة أميمة بنت رقيقة رضي الله عنها أنها قالت: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نسوة يبايعنه فقلنا : يا رسول الله نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروف قال (فما استطعتن وأطقتن) قالت: الله ورسوله أرحم بنا هلم نبايعك يا رسول الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة أو مثل قولي لامرأة واحدة»([12]٢).

٢- وعن سيدنا عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبايعه على الإسلام فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئا ولا تسرقي ولا تزني ولا تقتلي ولدك ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك ولا تنوحي ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى»([13]٣).

٣- وعن السيدة سلمى بنت قيس رضي الله عنها وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد صلت معه القبلتين وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار قالت: جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبايعته في نسوة من الأنصار فلما شرط علينا أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف قال (ولا تغششن أزواجكن) قالت: فبايعناه ثم انصرفنا فقلت لامرأة منهن ارجعي فاسألي

([11]١) أخرجه البخاري (٧١٩٩) ومسلم (٤٧٤٥) واللفظ له والنسائي (٤٠٦٠) وابن ماجه (٢٨٦٦) واحمد (٣١٦/٥) ومالك (٤٤٥/٢ - ٤٤٦) وابن حبان (٤٥٤٧) والبغوي (٢٤٥٦).

([12]٢) أخرجه الترمذي (١٥٩٧) مختصرا وقال (حديث حسن صحيح) والنسائي (٤١٩٢) واللفظ له وابن ماجه (٢٨٧٤) مختصرا واحمد (٣٥٧/٦) والحميدي (٣٤١) ومالك (٩٨٢/٢ -٩٨٣) والبيهقي (١٤٦/٨) والطيالسي (١٦٢١) وابن حبان (٤٥٥٣) والطبراني في الكبير (٢٤ برقم ٤٧٠) وصححه الحاكم (١٧/٤) ووافقه الذهبي.

([13]٣) أخرجه أحمد (١٩٦/٢) ورجاله ثقات كذا في (مجمع الزوائد) (٩٨٥٨).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما غِشُّ أزواجنا؟ قالت: فسألته فقال: (تأخذ ماله فتحابي به غيره)([14]١).

ثالثا: بيعة من لم يحتلم:

١- عن سينا محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايع الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهم وهم صغار لم يبلغوا قال: ولم يبايع صغيرا إلا منا([15]٢).

وعن سيدنا عبدالله بن الزبير وعبدالله بن جعفر رضي الله عنهما أنهما بايعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهما ابنا سبع سنين فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبسم وبسط يده فبايعهما([16]٣).

المرشد

أهمية المرشد

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ولكل قوم هاد﴾([1]٤) فدل على أن قضية المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورة لزومية طبعا وشرعا ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾([2]٥) ولم يدع الناس لأفكارهم وحدها وإن سمت فإن العقل مهما بلغ فهو محل للخطأ ولأن العلم وحده قد يكون طريق الهلاك والأدلة شتى في تواريخ الفلاسفة والمفكرين بين العقليين وأصحاب المذاهب الاجتماعية المختلفة والواقع المكرر.

ومن هنا وجد الإشراف والتوجيه البشري في كل شيء سواء كان وظيفة أو تجارة أو تعليما أو احترافا أو إدارة أو غير ذلك.

([14]١) أخرجه أحمد (٦/٢٧٩ - ٣٨٠) وأبو يعلى (٧٠٧٠) والطبراني في الكبير (٢٤ برقم ٧٥١) ورجاله ثقات كذا في مجمع الزوائد (٩٨٦٣).

([15]٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٤٣) وهو مرسل ورجاله ثقات كذا في مجمع الزوائد (٩٨٧٥).

([16]٣) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط (٣٤٢٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥٣٨).

([1]٤) سورة الرعد الآية (٧).

([2]٥) سورة الإسراء الاية (١٥).

ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾([3]١) ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾([4]٢) .

ولا تكون القدوة حسنة إلا إذا كان الله غايتها: ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾([5]٣) ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾([6]٤) ﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾([7]٥) ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾([8]٦) وعندما ذكر الله أنماطا من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى في سورة الأنعام قال لرسوله : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾([9]٧).

ولو شاء الله لأنزل كتابا بغير نبي ولكنه لم ينزل كتابا إلا وأنزل معه نبيه ليبين للناس ما نزل اليهم.

ربما كان الأخذ السليم عن الكتاب السليم فيه الأجر فقط أما الأخذ عن الشيخ ففيه الأجر وفيه الوصول معا لأن فيه سر الإمداد بالبركة وربط المريد بالحبل المحمدي وذلك اشبه بالتيار الكهربائي لا ينتقل الا بالموصل.

وفي قضية جبريل والنبي صلى الله عليه وآله وسلم معنى اتخاذ المرشد الهادي والدليل المعلم وإلا فربما كان يكفي النور الإلهي المنقدح في القلب المحمدي عن مصاحبة جبريل والأخذ عنه.

وقد طلب سيدنا موسى الشيخ المعلم المرشد الهادي الدليل وسعى إليه حتى وجده في العبد الصالح وتتلمذ عليه ولم يكتف بأنه كان كليم الله.

وهل يمكن لأي إنسان أن يقرأ القرآن قراءة صحيحة بغير موفق خبير؟! وكذلك شأن جميع الصناعات والفنون.

إن اتخاذ الشيخ مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما رأيت طبعا وشرعا ومؤيدا بالواقع العلمي والتاريخي والموضوعية التي لا تقبل النقاش ومجال اتخاذ الشيخ إن

([3]١) سورة الأحزاب الآية (٢١).

([4]٢) سورة الممتحنة الاية (٤).

([5]٣) سورة لقمان الآية (١٥).

([6]٤) سورة الأعراف الآية (١٤٢).

([7]٥) سورة غافر الآية (٣٨).

([8]٦) سورة يس الآية (٢١).

([9]٧) سورة الأنعام الآية (٩٠).

خلا شغله الشيطان بيقين وقد أشار الله سبحانه إلى أهمية القدوة والمرشد بآيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾([10]١) وقوله ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾([11]٢) وقوله ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾([12]٣) وقوله ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾([13]٤) وقوله ﴿الرحمن فاسأل به خبيرا﴾([14]٥).

إذن فلابد من هاد ذي قدرة ذي ذكر خبير بوسائل الفرار إلى الله والهجرة إليه وإن لم يكن للمريد شيخ في العلم ضل وافترسه الشيطان واستهواه وجعل إلهه هواه فهلك وما لم يكن للمرء معلم في بقية الصناعات لما أصاب ولما أجاد وربما هلك وهو يطلب الحياة ولابد للسالك أيضا إلى الله من إمام يرشده ويوجهه ويسدده ويكشف له أحابيل الشيطان في العبادات والمعاملات والخطوات النفسية والإرادات القلبية التي قد تكون على صاحبها أخطر من الكفر الصريح لأن من أراد الله هدايته هيء له مرشداً وإلا فقد قال الله تعالى ﴿ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾([15]٦).

وإن المنهج التربوي يحتم وجود معلم ومتعلم والسلوك الصوفي يؤكد بشكل قطعي وجود المربي المعلم والمرشد ويشترط علماء التصوف في هذا المنهج وجود الشيخ المربي الذي سمت روحه إلى درجة الإحسان وعرجت نفسه في معارج الكمال وتهذبت أخلاقه وتنامت قدراته الروحية والعقلية إلى درجة القرب والأنس والطمأنينة الكاملة.

والرسول عليه الصلاة والسلام كانت له وظيفة كبرى قبل التعليم وهي التزكية قال تعالى ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾([16]٧).

والمعلم دوره خطير في تزكية النفوس وتطهيرها من عيوبها وتخليصها من امراضها ثم الرقي بالنفس إلى مراحل متقدمة في السلوك الإسلامي الصحيح ومكانة المربي

([10]١) سورة الأنبياء الآية (٧).

([11]٢) سورة فاطر الآية (١٤).

([12]٣) سورة الأنعام الآية (٩٠).

([13]٤) سورة لقمان الآية (١٥).

([14]٥) سورة الفرقان الآية (٥٩).

([15]٦) سورة الكهف الآية (١٧).

([16]٧) سورة البقرة الآية (١٥١).

هي وراثة للقدوة المحمدية الكاملة ولذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «العلماء ورثة الأنبياء»([17]١).

والشيخ العارف بالله والعالم بكتابه والمقتدي بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام هو ا لصادق الذي لابد لنا من الحياة معه والاسترشاد بمواعظه والتأدب في مجلسه وحسن الاستماع له والعمل بالوصايا التي يأمر بها وخاصة إن كانت متقيدة بالدليل الشرعي القاطع.

وهو من أولياء الله الذين قال عنهم في كتابه العزيز: ﴿ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾([18]٢).

وقد أمر الله تعالى المسلمين أن يعيشوا مع الصادقين قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾([19]٣).

والصادقون في كتاب الله هم كما قال الله تعالى ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾([20]٤).

ولذا نجد أن وجود المربي في العملية التربوية الروحية والسلوك الإيماني والتزكية النفسية حتم مطلوب شرعا وعقلا وعملا.

والدليل الشرعي لأهمية المربي والمعلم والمرشد هو قول الله تعالى ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾([21]٥) فهؤلاء الذين نفروا ليتفقهوا في الدين وليتعمقوا في السلوك التربوي السليم والذين تكاملت صفاتهم النفسية وازداد قربهم إلى الله تعالى سلوكا وفكرا ونضوجا فهم الذين يكونون قادرين على تزكية النفوس وتطهيرها من أمراضها المتعددة .

([17]١) رواه البخاري معلقا (١ – ٣٧) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣) وصححه ابن حبان (٨٠).

([18]٢) سورة يونس الاية (٦٢ – ٦٤).

([19]٣) سورة التوبة الآية (١١٩.)

([20]٤) سورة الحجرات الآية (١٥).

([21]٥) سورة التوبة الآية (١٢٢).

فالشيخ العارف بالله تعالى يختصر لك طريق السلوك فيعطيك خلاصة ما وصل إليه ويعينك على كشف خفايا نفسك وأمراضها لتتخلص منها ولا ريب في أنك بصحبة الشيخ تأخذ منه حالا ترتقي به ولذا قيل: لا تصاحب من لا ينهضك حاله ويدلك على الله مقاله.

وقصة نبي الله موسى عليه السلام مع المعلم قد وردت بالتفصيل وترشد السالكين إلى درب العلم اللدني قال الله تعالى عن المعلم الذي اتخذه موسى عليه السلام: ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا، قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾([22]١) وهذا دليل شرعي على حاجة الناس إلى المعلم والمربي الذي علم ما لم يعلموا وفقه ما لم يفقهوا.

وإن الارتباط الروحي بين الشيخ والمريد يولد الطاقة التربوية للعروج بالمريد السالك في مقامات واحوال السلوك الروحي الرفيع.

وقلما يعرف الرجل نقائض النفس وعلل الباطن وإذا عرفت وفهمت فقلما يعرف الرجل طرق علاجها وإصلاحها وإذا علم ذلك وعرف لتعسر إذن العمل به لصراع النفس ومن هنا يحتاج الإنسان إلى الشيخ الكامل لأنه هو الذي يعرفه بهذه الأمور بعدما يتفهمها ويتعرفها ثم يصف لها علاجا وتدابير لمداواتها([23]٢).

- شروط المرشد وصفاته:

من شروطه أن يكون عالما بكتاب اله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وينبغي أن يكون موصوفا بصفات أهل الكمال ويكون معرضا عن حب الجاه والدنيا وما أشبه ذلك ويكون قد أخذ الطريق عن شيخ محقق تسلسلت متابعته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وارتاض بأمره رياضة بالغة من قلة الطعام والكلام والنوم وقلة الاختلاط مع الأنام وكثرة الصلاة والصيام والصدقة ونحو ذلك وبالجملة يكون متخلقا بأخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

([22]١) سورة الكهف من الآية (٦٥- ٦٩).

([23]٢) بين التصوف والحياة ص (٢١٧).

ولا يصلح للتربيةوالمشيخة المجذوب فإنه وإن ذاق المقصود لكنه لم يذق الطريق إلى الله وكذا لا يصلح للمشيخة السالك فقط.

وكان أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى يقول: قد درج أشياخ الطريق كلهم على أن أحدا منهم لم يتصدر للطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة ولم يكن أحد في عصر ممن العصور إلا وعلماء ذلك الزمان يتواضعون له ويعملون بإشارته([24]١).

وقال الإمام ابو العباس المرسي رحمه الله تعالى : من كان فيه خمس خصال لا تصح مشيخته:

١- الجهل بالدين.

٢- وإسقاط حرمة المسلمين.

٣- والدخول فيما لايعني.

٤- واتباع الهوى في كل شيء.

٥- وسوء الخلق من غير مبالاة.

وقال ابن عطاء السكندري رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا أبا العباس المرسي رضي الله عنه يقول: (العارف لا دنيا له ولا آخرة لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه)([25]٢).

وعرفه الشيخ الاكبر ابن عربي قدس الله سره فقال: الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام في زمانهم بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير انه لا يشرعون فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وليس لهم التشريع ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب في الخصوص وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب وقد جمع الشيخ بين الأمرين.

والشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة قائلون بها في ظواهرهم متحققون بها في سرائرهم يراعون حدود الله تعالى ويوفون بعهد الله قائمون براسم الشريعة لا يتأولون في الورع آخذون بالاحتياط مجانبون لأهل التخليط مشفقون على

([24]١) الأنوار القدسية للإمام الشعراني ص (٦٣).

([25]٢) تاج العروس ص (٩٠).

الأمة لا يمقتون أحدا من العصاة يحبون ما أحب الله ويبغضون ما أبغض الله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه يسارعون في الخيرات ويعفون عن الناس يوقرون الكبير ويرحمون الصغير يميطون الأذى عن الطريق طريق الله وطريق الناس يؤدون حقوق الناس يبرون عباد الله هينون لينون رحماء بين خلق الله.

وشرط الشيخ يلقي المريد إليه نفسه:

ذوق صريح وعلم صحيح وهمة عالية وحالة مرضية وبصيرة نافذة فمن فيه ما مضى من الوصف صحت مشيخته ويحق له التصدر للإرشاد أما إن كان جاهلا بالدين متهاونا بحرمة المسلمين يتدخل فيما لا يعنيه متبعا للهوى في كل شيء سيء الخلق مجالسا للأحداث يطمع بما في أيدي الناس فهذا شيطان أخرس ليس له حظ في المشيخة والأولى أن يرشد نفسه([26]١).

وقال سيدي السيد أحمد عز الدين الصياد قس سره: اعلم أن من تصدرللمشيخة في هذه الطريقة العلية الرفاعية فقد جلس على بساط النيابة عن شيخ الأمة سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه فيجب عليه أن يكون عالما بما أمره الله ونهاه عنه فقيها في الأمور التعبدية حسن الأخلاق طاهر العقيدة عارفا بأحكام الطريقة سالكا مسلكا كاملا شيخا زاهدا متواضعا حمولا للأثقال صاحب وجد وحال وصدق مقال ذا فراسة وطلاقة لسان في تعريف أحكام الطريقة متبرئا عن عوائق الشطح طارحا ربقة الدعوى والعلو محبا لشيخه حافظا شأن حرمته في حياته وبعد مماته يدور مع الحق أين دار منصفا في أقواله وأفعاله متكلا على الله في جميع أحواله.

وذكر شيخنا السيد محمد أبو الهدى رحمه الله تعالى في كتابه (العقد النضيد في آداب الشيخ والمريد) فقال: وينبغي أن يتصف الشيخ المسلك باثنتي عشرة صفة:

- ❖ صفتان من حضرة الله تعالى وهما: الحلم والستر.

([26]١) حقيقة الصوفية ص (٢٩ –٣١).

- ❖ وصفتان من حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهما: الرأفة والرحمة.
- ❖ وصفتان من حضرة الصديق الأكبر رضي الله عنه وهما: الصدق والتصديق.
- ❖ وصفتان من حضرة الفاروق الأعظم رضي الله عنه وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- ❖ وصفتان من حضرة عثمان بن عفان ذي النورين رضي الله عنه وهما: الحياء والتسليم.
- ❖ وصفتان من حضرة علي الكرار رضي الله عنه وهما : الزهد الأتم والشجاعة.

ومتى اتصف الشيخ بهذه الأوصاف وتمكنت قدمه وذكت شيمه صح أن يكون قدوة في الطريق.

وقد نقل نحو ذلك من حضرة السيد الشيخ عبدالقادر الكيلاني قدس الله سره ومن كلامه رضي الله عنه وأرضاه في وصف الشيخ المرشد في هذه الأبيات الشريفات:

إذا لم يكن للشيخ خمس فوائد	وإلا فدجال يقود إلى جهل
عليم بأحكام الشريعة ظاهرا	ويبحث عن علم الحقيقة عن اصل
ويظهر للورَّاد بالبشر والقِرى	ويخضع للمسكين بالقول والفعل
فهذا هو الشيخ المعظم قدره	عليم بأحكام الحرام من الحل
يهذب طلاب الطريق ونفسه	مهذبة من قبل ذو كرم كلي([27]١)

وقال الشيخ عبدالعزيز الدباغ قدس الله سره: ولشيخ التربية علامات ظاهرة وهي:

- ❖ أن يكون سليم الصدر على الناس.
- ❖ أن يكون كريما إذا طلبته أعطاك.
- ❖ وأن يحب من أساء إليه.
- ❖ وأن يغفل عن خطايا المريدين.

([27]١) السير والساعي ص (٢٠٨ -٢١١).؟

❖ وأن يكون الشيخ خاليا من الأهواء وأن يكون ذا بصيرة ولا يكون مغترا([28]١).

وقال الشيخ عبدالقادر عيسى رحمه الله تعالى في كتابه (حقائق عن التصوف) متحدثا عن الوارث المحمدي وشروطه: (ومما سبق يتبين اهمية صحبة الوارث المحمدي للترقي في مدارج الكمال وتلقي دروس الآداب والفضائل واكتشاف العيوب الخفية والأمراض القلبية.

ولكن قد يسأل سائل كيف الاهتداء إليه؟ والوصول إلى معرفته؟! وما هي شروطه وأوصافه؟!! فنقول:

حين يشعر الطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب عليه ان يصدق العزم ويصحح النية ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر يناديه في جوف الليل ويدعوه في سجوده وأعقاب صلاته : (اللهم دلني على من يدلني عليك وأوصلني إلى من يوصلني إليك).

ثم عليه ان يبحث في بلده ويفتش ويسأل عن المرشد بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربي في هذا الزمن([29]٢) فإذا لم يجد أحدا في مدينته فليبحث عنه في مدن أخرى ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية للتداوي إذا لم يجد الطبيب المختص أو حين يعجز اطباء مدينته عن تشخيص دائه ومعرفة دوائه . ومداواة الأرواح تحتاج إلى أطباء أمهر من أطباء الأجسام

([28]١) الإبريز ص (١١٩ -١٢١).

([29]٢) يقول ابن عجيبة رحمه الله تعالى : (والناس في إثبات الخصوصية ونفيها على ثلاثة أقسام:

١- قسم اثبتوها للمتقدمين ونفوها عن المتأخرين وهم أقبح العوام.
٢- وقسم أقروها قديما وحديثا وقالوا إنهم أخفياء في زمانهم فحرمهم الله بركتهم.
٣- وقوم أقروا الخصوصية في أهل زمانهم مع إقرارهم بخصوصية السلف وعرفوهم وظفروا بهم وعظموهم وهم السعداء الذين أراد الله ان يرحلهم إليه ويقربهم إلى حضرته وفي الحكم: (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه).. وبهذا يرد على من زعم أن شيخ التربية انقطع فإن قدرة الله تعالى عامة وملك الله قائم والأرض لا تخلوا ممن يقوم بالحجة حتى يأتي أمر الله) – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (٧٧/١) ويحضرني في هذا الموضوع أبيات لبعضهم يرد فيها على من يدعي أن المرشدين قد عدموا في هذا العصر أو قلوا قال:

يقول قوم عن هداهم ضلوا	قد عُدموا في عصرنا أو قلوا
فقلت: كلا إنما قد جلوا	عن أن تراهم أعين الجهال

وقد أدركنا والحمد لله في زماننا هذا رجالا عارفين مرشدين قد توفرت فيهم شروط التربية على الكمال ذوي همة وحال ومقال تخرج على أيديهم خلق كثير وانتفع بهم جم غفير ولكن الخفاش لا يستطيع أن يبصر النور.

وللمرشد شروط لابد منها حتى يتأهل لإرشاد الناس وهي أربعة:

- ❖ أن يكون عالما بالفرائض العينية.
- ❖ وأن يكون عارفا بالله تعالى.
- ❖ وان يكون خبيرا بطرائق تزكية النفوس ووسائل تربيتها.
- ❖ وان يكون مأذونا بالإرشاد من شيخه.

١- أما الشرط الأول: فينبغي أن يكون المرشد عالما بالفرائض العينية: كأحكام الصلاة والصوم والزكاة إن كان مالكا للنصاب واحكام المعاملات والبيوع إن كان ممن يتعاطى التجارة... وأن يكون عالما بعقيدة أهل السنة والجماعة في التوحيد فيعرف ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل إجمالا وتفصيلا وكذلك في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام وهكذا سائر أركان الإيمان.

٢- اما الشرط الثاني: فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة والجماعة عملا وذوقا بعد أن عرفها علما ودراية، فيشهد في قلبه وروحه صحتها ويشهد أن الله تعالى واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله ويتعرف على حضرات أسماء الله ذوقا وشهودا ويرجعها إلى الحضرة الجامعة ولا يشتبه عليه تعدد الحضرات إذ تعدد الحضرات لا يدل على تعدد الذات.

٣- وأما الشرط الثالث: فلابد أن يكون قد زكى نفسه على يد مرب ومرشد فخبر مراتب النفس وأمراضها ووساوسها وعرف أساليب الشيطان ومداخله . وآفات كل مرحلة من مراحل السير وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه.

٤- وأما الشرط الرابع: فلابد للمرشد أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير فمن لم يشهد له الأخصائيون بعلم يدعيه لا يحق له أن يتصدر فيه فالإجازة: هي شهادة أهلية الإرشاد وحيازة صفاته وعليها أسست الآن فكرة المدارس والجامعات فكما لا يجوز لمن لا يحمل شهادة الطب أن يفتح عيادة لمداواة المرضى ولا يصح لغير المجاز في الهندسة أن يرسم مخططا للبناء وكما لا يجوز للذي لا يحمل شهادة أهلية التعليم أن يدرس في المدارس

والجامعات فكذلك لا يجوز أن يدعي الإرشاد غير مأذون له به من قبل مرشدين مأذونين مؤهلين يتصل سندهم بالتسلسل إلى رسول الله([1][30]).

وكما أنه لا يصح من العاقل أن يتداوى عند جاهل الطب كذلك لا يجوز للمرء ان يركن إلى غير المرشد المأذون المختص بالتوجيه والإرشاد وكل من درس الوضع العلمي في الماضي يعرف قيمة الإجازة من الأِشياخ وأهمية التلقي عندهم حتى إنهم اطلقوا على من لم يأخذ علمه من العلماء اسم (الصحفي) لأنه أخذ علمه من الصحف والمطالعة الخاصة.

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)([2][31]).

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: «يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ خذ الدين عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا»([3][32]).

وقال بعض العارفين: (العلم روح تنفخ لا مسائل تنسخ فليتنبه المتعلمون عمن يأخذون وليتبنه العالمون من يعطون).

ثم اعلم أن من علامات المرشد أمورا يمكن ملاحظتها:

- **منها:** أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية ونشوة روحية لا يتكلم إلا بالله ولا ينطق إلا بخير ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه تنتفع من قربه كما تنتفع من بعده تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه.
- **ومنها:** أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص والتقوى والتواضع وتتذكر وانت تخالطهم المثل العيا من الحب والصدق والإيثار والأخوة الخالصة وهكذا يعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده حيث

([30][1]) على غرار علماء الحديث الذين تناقلوا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسند رجلا عن رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعتبروا السند أساسا لحفظ السنة النبوية من الضياع والتحريف ولهذا قال ابن المبارك (الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء).

([31][2]) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين (٨٤/١) وابن حبان في المجروحين (٢٢/١).

([32][3]) أخرجه الحافظ ابن عدي عن ابن عمر، كنز العمال (١٥٢/٣).

ترى المرضى الذين شفوا على يديه وتخرجوا من مصحَّه بأوفر قوة وأتم عافية.

علما أن كثرة المريدين وقلتهم ليست مقياسا وحيدا وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين وتقواهم وتخلصهم من العيوب والأمراض واستقامتهم على شرع الله تعالى.

- فالظفر به يدفع الطالب للأخذ بيده والتزام مجالسه والتأدب معه والعمل بنصحه وإرشاده في سبيل الفوز بسعادة الدارين([33]١).
- وإذا أردت أخي القارئ زيادة في شروط المرشد والمريد فارجع إلى باب الصحبة من هذه الموسوعة ففيه ما يغني بإذن الله تعالى والحمد لله رب العالمين.

الصحبة

الصحبة: هي الطريق السوي والسبب الأقوى في حصول ثمرة السلوك وبها يصل المملوك إلى درجات الملوك.

وورد في الأثر: الصحبة مع العاقل زيادة في الدين والدنيا والآخرة والصحبة مع الأحمق نقصان في الدين والدنيا وندامة عند الموت وخسارة في الآخرة .

الأدلة على أهمية الصحبة من القرآن العظيم:

قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾([1]٢).

والصادقون: هم الصفوة من المؤمنين الذين عناهم الله تعالى بقوله﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾([2]٣).

([33]١) حقائق عن التصوف ص (٧٦ –٨١).

([1]٢) سورة التوبة الاية (١١٩).

([2]٣) سورة الأحزاب الآية (٢٣).

قال تعالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾([3]١).

الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبيل تعليم أمته وإرشادها.

وقال تعالى ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾([4]٢).

وقال تعالى ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾([5]٣) وقال تعالى ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾([6]٤).

الأدلة على أهمية الصحبة من السنة الشريفة:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك) وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا منتنة»([7]٥).

٢- عن حنظلة رضي الله عنه قال: لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكرنا بالجنة والنار رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثير. قال أبو بكر رضي الله عنه (فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وما ذلك؟» قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا راي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والضيعات نسينا كثيرا قال رسول الله صلى

([3]١) سورة الكهف الآية (٢٨).

([4]٢) سورة لقمان الآية (١٥).

([5]٣) سورة الفرقان الآية (٢٧- ٢٩).

([6]٤) سورة الزخرف الآية (٦٧).

([7]٥) أخرجه البخاري (٥٢١٤) ومسلم (٢٦٢٨).

الله عليه وآله وسلم «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة – ثلاث مرات–»([1][8]).

٣- عن سيدنا ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»([2][9]).

٤- عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه قال: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ؟ قال: (أنت يا أبا ذر مع من أحببت) قال فإني أحب الله ورسوله قال: «فإنك مع من أحببت» قال: فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم([3][10]).

٥- عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾([4][11]). ([5][12])

٦- عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: «من ذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم في الآخرة عمله»([6][13]).

٧- وعن سيدنا أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه

([8][1]) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

([9][2]) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣).

([10][3]) أخرجه أبو داود (٥١٢٦).

([11][4]) سورة يونس الآية (٦٣).

([12][5]) تقدم تخريجه.

([13][6]) أخرجه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد (١٠/٢٢٦).

مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»([14]١).

٨- ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه([15]٢).

٩- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي»([16]٣).

١٠- وعن انس رضي الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما أعددت لها؟» قال: حب الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت»([17]٤).

أقوال العلماء في أهمية الصحبة

١- الإمام الرفاعي قدس الله سره:

قال السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس الله سره: (ذكر الله يثبت في القلب ببركة الصحبة (المرء على دين خليله)([18]٥).

وقال أيضا خطابا دالا على حرقته: ما الفائدة من علم بلا عمل؟ ما الفائدة من عمل بلا إخلاص؟ الإخلاص على حافة الطريق من ينهض بك إلى العمل ! من يداويك من سم الرياء من يدلك على الطريق الأمين من بعد الإخلاص؟ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾([19]٦) هكذا أنبأنا العليم الخبير.

وذكر رضي الله عنه صفة الصاحب فقال:

اصحب من الإخوان من قلبه	أصفى من الياقوت والجوهر
ومن إذا سرك أودعته	لم يظهر السر إلى المحشر
ومن إذا أذنبت ذنبا أتى	معتذرا عنك كمستغفر
ومن إذا ما غبت عن عينه	أقلقه الشوق ولم يصبر

([14]١) أخرجه البخاري (٥٦/١) ومسلم (١٠٣١).

([15]٢) أخرجه البخاري (١١٩/٢) ومسلم (١٠١٣).

([16]٣) أخرجه الترمذي (٢٣٧٩) وأبو داود (٤٨٣٢) وصححه ابن حبان (٢٠٤٩).

([17]٤) أخرجه البخاري (٤٦٢/١٠) ومسلم (٢٦٣٩) وأبو داود (٥١٢٧) والترمذي (١٣٨٦).

([18]٥) تقدم تخريجه ص (٢٩٤) بلفظ الرجل ...

([19]٦) سورة النحل الآية (٤٣).

أين هذا الأخ وأين الأخوة الحقيقية!؟ ما هم إلا كعنقاء الزمان لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله فيلزم على الداخل تحت تربية المرشد أن يكون مراعيا إخوانه محبا لهم ولا يختص نفسه بشيء دونهم ويحب لهم ما يحب لنفسه ويعودهم إذا مرضوا ويسأل عنهم إذا غابوا وليبتدرهم بالسلام وطلاقة الوجه ويراهم خيرا منه يطلب منهم الرضا ولا يزاحمهم على أمر دنيوي ويوقر كبيرهم ويرحم صغيرهم يتعاون معهم على حب الله وليجعل رأس ماله مسامحة إخوانه([1][20]).

٢- الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي قدس الله سره:

وقال الشيخ الأكبر محي الدين في كتابه (الوصايا): عليك بمجالسة من تنتفع بمجالسته في دينك من علم تستفيده منه، أو عمل يكون فيه أو خلق حسن يكون عليه فإن الإنسان إذا جالس من تُذَكّر مجالسته الآخرة فلابد أن يتحلى منها بقدر ما يوفقه الله لذلك([2][21]).

٣- الإمام الشيخ علي الخواص:

قال رضي الله عنه :

لا تسلكن طريقا لست تعرفها	بلا دليل فتهوي في مهاويها([3][22])

لأن الدليل والمرشد يوصل السالك إلى ساحل الأمان ويجنبه مزالق الأقدام ومخاطر الطريق وذلك لأن هذا الدليل المرشد قد سبق له سلوك الطريق على يد دليل عارف بخفايا السير واطلع على مجاهله ومآمنه فلم يزل مرافقا له حتى أوصله إلى الغاية المنشودة ثم أذن له بإرشاد غيره والى هذا أشار ابن البنا في منظومته:

وإنما القوم مسافرونا	لحضرة الحق وظاعنونا
فافتقروا فيه إلى دليل	ذي بصر بالسير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد	ليخبر القوم بما استفاد([4][23])

٤- الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

وقال سيدي أبو مدين : (من لم يأخذ الآداب من المتأدبين أفسد من يتبعه)([1][24]).

([20][1]) السير والمساعي ص (٢١١ -١١٣) بتصرف يسير .

([21][2]) كتاب الوصايا للشيخ ابن عربي ص (٤٥).

([22][3]) المنن للشعراني (٥١/١).

([23][4]) أحمد بن محمد التجيبي المعروف بابن البنا الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية (١٤٢/١).

٥- الشيخ أبو حامد الغزالي:

قال: يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به([25]٢).

وقال أيضا رضي الله عنه : (كنت في مبدأ أمري منكر لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي (يوسف النساج) فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات فرأيت الله تعال في المنام فقال لي : يا أبا حامد دع شواغلك واصحب أقواما جعلتهم في أرضي محل نظري وهم الذين باعوا الدارين بحبي قلت: بعزتك إلا أذقتني برد حسن الظن بهم قال قد فعلت والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا فاخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاغرا فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسي فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت إلى شيخي (يوسف النساج) فقصصت عليه المنام فتبسم وقال: يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية بل إن صحبتني ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد.... الخ)([26]٣).

وقال أيضا : (إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشاراته في مجاهداته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع استاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجها... الخ)([27]٤).

([24]١) النصرة النبوية ص (١٣).

([25]٢) الإحياء للغزالي (٦٥/٣).

([26]٣) شخصيات صوفية لطه عبدالباقي سرور ص (١٥٤).

([27]٤) الإحياء للغزالي (٥٥/٣).

وقال أيضا مؤكدا على اتباع المرشد : (فمما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق المحمودة ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع فكلما رأى حجرا او نباتا مضرا بالزرع قلعه وطرحه خارجا ويسقي الزرع مرارا إلى أن ينمو ويتربى ليكون أحسن من غيره وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لابد للسالك من مرشد البتة لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلا لهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نوابا عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله وهكذا إلى يوم القيامة فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة)([28]١).

٦- الإمام ابن عطاء الله السكندري:

قال رضي الله عنه : (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم في خدمة مولاه فإذا وجهد فليمتثل ما أمر ، ولينته عما نهى عنه وزجر)([29]٢).

وقال أيضا: (لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله)([30]٣).

وقال ايضا : (ليس شيخك من سمعت منه وإنما شيخك من أخذت عنه وليس شيخك من واجهتك عبارته وإنما شيخك الذي سرت فيك إشارته وليس شيخك من دعاك إلى الباب وإنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب وليس شيخك من واجهك مقاله وإنما شيخك الذي نهض بك حاله).

شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى شيخك هو الذي ما زال يحدو مرآة قلبك حتى تجلت فيها أنوار ربك أنهضك إلى الله فنهضت إليه وسار بك حتى وصلت إليه وما زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك([31]٤).

٧- الشيخ عبدالوهاب العشراني:

([28]١) خلاصة التصانيف في التصوف لحجة الإسلام الغزالي ص (١٨).

([29]٢) مفتاح الفلاح ص (٣٠).

([30]٣) إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة (٧٠٩هـ) لأحمد بن عجيبة الحسني (٧٤/١).

([31]٤) لطائف المنن ص (١٦٧).

قال رحمه الله تعالى في كتابه (العهود المحمدية) : أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان نواظب على الركعتين بعد كل وضوء بشرط أن لا نحدث فيهما أنفسنا بشيء من أمور الدنيا أو بشيء لم يشرع لنا في الصلاة ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى شيخ يسلك به حتى يقطع عنه الخواطر المشغلة عن خطاب الله تعالى ... فاسلك يا أخي على يد شيخ ناصح يشغلك بالله تعالى حتى يقطع عنك حديث النفس في الصلاة كقولك: أروح لكذا أفعل كذا ، أقول كذا، أو نحو ذلك، وإلا فمن لازمك حديث النفس ولا يكاد يسلم لك منه صلاة واحدة ولا فرض ولا نفل فاعلم ذلك وإياك ان تريد الوصول إلى ذلك بغير شيخ كما عليه طائفة المجادلين بغير علم فإن ذلك لا يصح لك ابد([32]١).

وقال رضي الله عنه : (ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ يسير بالطالب فيها لما احتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبدالسلام أخذ أدبهما عن شيخ مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما طريق القوم : كل من قال: إن ثم طريقا للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله عز وجل)فلما دخلا طريق القوم كانا يقولان: قد ضيعنا عمرنا في البطالة والحجاب وأثبتا طريق القوم ومدحاها) (٢[33]).

وقال أيضا: (وكانت صورة مجاهداتي لنفسي من غير شيخ أنني كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيري وعوارف المعارف والقوت لأبي طالب المكي والإحياء للغزالي ونحو ذلك وأعمل بما ينقدح لي من طريق الفهم ثم بعد مدة يبدو لي خلاف ذلك فأترك الأول وأعمل بالثاني... وهكذا فكنت كالذي يدخل دربا لا يدري هل ينفذ أم لا ؟ فإن رآه نافذا خرج منه وإلا رجع ولو أنه اجتمع بمن يعرفه أمر الدرب قبل دخوله لكان بين له أمره وأراحه من التعب فهذا مثال من لا شيخ له فإن فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق للمريد ومن سلك من غير شيخ تاه وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة في الليالي المظلمة)(٣[34]).

([32]١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية للعارف بالله عبدالوهاب الشعراني (٥١/١).

([33]٢) لطائف المنن والأخلاق للإمام ا لشعراني (٢٥/١).

([34]٣) لطائف المنن والأخلاق (٤٨/١ -٤٩).

وقال أيضا: (وكفى شرفا لأهل الطريق قول سيدنا موسى عليه السلام، للخضر : ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾([1][35]) .

واعتراف الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه لأبي حمزة البغدادي بالفضل عليه واعتراف الإمام احمد بن سريج رحمه الله تعالى الله تعالى لأبي القاسم الجنيد وطلب الإمام الغزالي له شيخا يدله على الطريق مع كونه كان حجة الإسلام وكذلك طلب الشيخ عز الدين بن عبدالسلام له شيخا مع أنه لقب بسلطان العلماء ... وكان رضي الله عنه يقول: ما عرفت الإسلام الكامل إلا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه فإذا كان هذان الشيخان قد احتاجا إلى شيخ مع سعة علمهما بالشريعة فغيرهما من أمثالنا من باب أولى)([2][36]).

٨- الشيخ محمد الهاشمي:

قال رحمه الله تعالى : (فاسلك يا اخي على يد شيخ حي عارف بالله صادق ناصح له علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة مرضية سلك الطريق على يد المرشدين وأخذ أدبه عن المتأدبين عارف المسالك ليقيك في طريقك المهالك ويدلك على الجمع على الله ويعلمك الفرار من سوى الله ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى اله يوقفك على إساءة نفسك ويعرفك بإحسان الله إليك فإذا عرفته أحببته وإذا احببته جاهدت فيه وإذا جاهدت فيه هداك لطريقه واصطفاك لحضرته قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾([3][37]) فصحبة الشيخ والاقتداء به واجب والأصل فيه قوله تعالى ﴿واتبع سبيل من أناب الي ﴾([4][38]) وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾([5][39]) ومن شرطه أيضا أن يكون له الإذن في تربية الخلق من مرشد كامل ذي بصيرة نافذة ولا يقال: أين من هذا وصفه؟ لأنا نقول كما قال ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن : (لا يعوزك وجود الدالين وإنما يعوزك وجود الصدق في طلبهم) جد صدقا تجد مرشدا:

([35][1]) سورة الكهف الآية (٦٦).

([36][2]) لطائف المنن والأخلاق (٥٠/١).

([37][3]) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

([38][4]) سورة لقمان الآية (١٥).

([39][5]) سورة التوبة الآية (١١٩).

لكن سر الله في صدق الطلب	كم ريءَ([40]1) في اصحابه من العجب

وقال في لطائف المنن أيضا: إنما يكون الاقتداء بولي دلك الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته فألقيت إليه القيام فسلك بك إلى سبيل الرشاد.... الخ.

وقال ابن عطاء الله في حكمه : (سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه)([41]2).

٩- الإمام ابن حجر الهيثمي:

قال رحمه الله تعالى في كتابه الفتاوى الحديثية: (والحاصل أن الأولى بالسالك قبل الوصول إلى هذه المعارف أن يكون مديما لما يأمره به أستاذه الجامع لطرفي الشريعة والحقيقة فإنه هو الطبيب الأعظم فبمقتضى معارفه الذوقية وحكمه الربانية يعطي كل بدن ونفس ما يراه هو اللائق بشفائها والمصلح لغذائها)([42]3).

١٠- الإمام فخر الدين الرازي:

قال رحمه الله تعالى في تفسيره عند تفسير سورة الفاتحة الباب الثالث في الأسرار العقلية المستنبطة من هذه السورة (الفاتحة) فيه مسائل ... اللطيفة الثالثة: قال بعضهم إنه لما قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لم يقتصر عليه بل قال ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط فلابد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل الكامل فحينئذ يصل إلى مدارج السعادات ومعارج الكمالات([43]4).

١١- الإمام ابن قيم الجوزية:

([40]1) على وزن (قيل) مبني للمجهول.

([41]2) شرح شطرنح العارفين (١٤).

([42]3) الفتاوى الحديثية ص (٥٥).

([43]4) تفسير مفاتيح الغيب (١/١٤٢).

قال رحمه الله تعالى (فإذا أراد العبد أ ن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإذا كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا.. فينبغي للرجل ان ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه فإذا وجده كذلك فليبتعد عنه وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى ، واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه ، بل هو حازم في امره فليستمسك بغرزه)([44][1]).

١٢- الشيخ أبو علي الثقفي:

قال رحمه الله تعالى (لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه عن آمر له وناه ويريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات)([45][2]).

١٣- الشيخ إبراهيم الباجوري:

قال رحمه الله تعالى عند شرحه كلام الشيخ إبراهيم اللقاني صاحب جوهرة التوحيد:

وكن كما كان خيار الخلق	حليف حلم تابعا للحق

(أي كن متصفا بأخلاق مثل الأخلاق التي كان عليها خيار الخلق ... وإذا كانت المجاهدة على يد شيخ من العارفين كانت أنضج لقولهم: حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل فينبغي للشخص أن يلزم عارفا على الكتاب والسنة بأن يزنه قبل الأخذ عنه فإن وجده على الكتاب والسنة لازمه وتأدب معه فعساه يكتسب من حاله ما يكون به صفاء باطنه والله يتولى هداه)([46][3]).

١٤- الإمام الطيبي:

قال رحمه الله تعالى (لا ينبغي للعالم ولو تبحر في العلم حتى صار أوحد أهل زمانه أن يقنع بما علمه وإنما الواجب عليه الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم حتى يكون ممن يحدثهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ويخلص من الأدناس وأن يتجنب ما شاب عليه من كدورات الهوى وحظوظ نفسه الأمارة

([44][1]) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص (٥٣).

([45][2]) طبقات الصوفية ص (٣٦٥).

([46][3]) شرح جوهرة التوحيد ص (١٣٣).

بالسوء حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس وتطهيرها من النجاسات المعنوية وحكمة معاملاتها علما وذوقا ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية فقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخا له يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه ليصبح حضوره وخشوعه في سائر العبادات من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولا شك أن علاج أمراض الباطن واجب فيجب على كل من غلبت عليه الأمراض أن يطلب شيخا يخرجه من كل ورطة وإن لم يجد في بلده أو إقليمه وجب عليه السفر إليه)([47]١).

١٥- الشيخ ابن أبي جمرة:

شرح الإمام الحافظ المحدث الورع أبو محمد عبدالله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال: (أحي والداك؟ قال: نعم قال: ففيهما فجاهد)([48]٢) وبعد أن بين عشرة وجوه له قال في الوجه العاشر: (فيه دليل على أن الدخول في السلوك والمجهدات السنة فيه أن يكون على يد عارف به فيرشد إلى ما هو الأصلح فيه والأسد بالنسبة إلى حال السالك لأن هذا الصحابي رضي الله عنه لما أراد الخروج إلى الجهاد لم يستبد برأي نفسه في ذلك حتى استشار من هو اعلم منه وأعرف هذا ما هو في الجهاد الأصغر فكيف به في الجهاد الأكبر؟!)([49]٣).

١٦- الشيخ عبدالواحد بن عاشر:

قال رحمه الله تعالى في منظومة العقائد وعبادات فقه مالك المسماة (المرشد المعين) مبينا ضرورة صحبة الشيخ المرشد وما تفتح من آثار طيبة:

يصحب شيخا عارف المسالك	يقيه في طريقه المهالك
يذكّر الله إذا رآه	ويوصل العبد إلى مولاه

([47]١) تنوير القلوب ص (٤٤ - ٤٥).

([48]٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧ - كتاب ٣١ - باب ١٤٦ - رقم ٢).

([49]٣) بهجة النفوس مختصر صحيح البخاري (١٤٦/٣).

يحاسب النفس على الأنفاس	ويزن الخاطر بالقسطاس
ويحفظ المفروض رأس المال	والنفل ربحه به يوالي
ويكثر الذكر بصفو لبه	والعون في جميع ذا بربه
يجاهد النفس لرب العالمين	ويتحلى بمقامات اليقين
يصير عند ذاك عارفا به	حرا وغيره خلا من قلبه
فحبَّه الإله واصطفاه	لحضرة القدوس واجتباه

قال شارح هذه المنظومة الشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافي في كتابه (النور المبين على المرشد المعين): إن من نتائج صحبة الشيخ السالك ما يحصل لمريده من انه يذكره الله أي يكون سببا قويا في ذكر المريد ربه إذا رأى الشيخ لما عليه من المهابة التي ألبسه الله إياه ويشهد لذلك ما ورد عن سيدنا انس رضي الله عنه : «أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى لرؤيتهم»([50]١).

ومن ثمرة صحبة هذا الشيخ السالك أيضا انه يوصل العبد إلى مولاه بسبب ما يريه من عيوب نفسه ونصحه بالهروب من غير الله إلى الله تعالى فلا يرى لنفسه ولا لمخلوق نفعا ولا ضرا ولا يركن لمخلوق في دفع أو جلب بل يرى جميع الانقلابات والتصرفات في الحركات والسكنات لله تعالى وهذا معنى الوصول إلى الله تعالى.

ففائدة الشيخ مع المريد هي إظهار العيوب القاطعة عن الله تعالى للمريد فيشخصها له ويريه دواءها ولا يتم هذا إلا مع مريد صادق ألقى مقاليد نفسه لشيخه وألزم نفسه ألا يكتم خاطرا ما عن شيخه وأما إذا كتمه ولو واحدا فلا ينتفع بشيخه البتة)([51]٢).

١٧- الأمير عبدالقادر الجزائري:

قال رحمه الله تعالى في كتابه (المواقف) قال الله تعالى حاكيا قول موسى لخضر عليهما السلام: ﴿هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا﴾([52]٣) ، اعلم أن المريد لا ينتفع بعلوم الشيخ وأحواله إلا إذا انقاد له الانقياد التام ، ووقف عن أمره

([50]١) أخرجه أبو يعلى (٢٤٣٧) بلفظ : قيل يا رسول الله أي جلسائنا خير؟ قال: «من ذكركم الله رؤيته» ومن زاد في علمكم منطقه وذكركم بالاخرة عمله» وابن المبارك في الزهد (٢١٨) ورواه الطبراني (١٢٣٢٥) ورجاله ثقات كما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧٧٨).

([51]٢) النور المبين على المرشد المعين ص (١٧٨).

([52]٣) سورة الكهف الآية (٦٦).

ونهيه مع اعتقاده الأفضلية والأكملية ولا يغني أحمدهما عن الآخر كحال بعض الناس يعتقد في الشيخ غاية الكمال ويظن أن ذلك يكفيه في نيل غرضه وحصول مطلبه وهو غير متمثل ولا فاعل لما يأمره الشيخ به أو ينهاه عنه فهذا موسى عليه السلام مع جلالة قدره وفخامة أمره طلب لقاء الخضر عليه السلام وسأل السبيل إلى لقيه وتجشم مشاق ومتاعب في سفره كما قال: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾(١[53]) ومع هذا كله لما لم يمتثل نهيا واحداً وهو قوله: ﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾(٢[54]) . ما انتفع بعلوم الخضر عليه السلام مع يقين موسى عليه السلام الجازم ان الخضر اعلم منه بشهادة الله تعالى لقوله تعالى عندما قال موسى عليه السلام (لا أعلم أحدا أعلم مني: بلى عبدنا خضر) وما خص علما دون علم بل عمم وكان موسى عليه السلام أولا ما علم ان استعداده لا يقبل شيئا من علوم الخضر عليه السلام وأما الخضر عليه السلام فإنه علم ذلك أول وهلة فقال: ﴿إنك لن تستطيع معي صبرا﴾(٣[55]) وهذا من شواهد علمية الخضر عليه السلام فلينظر العاقل إلى أدب هذين السيدين قال موسى عليه السلام : ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾ أي: هل تأذن في اتباعك لأتعلم منك؟ ففي هذه الكلمات من حلاوة الأدب مايذوقها كل سليم الذوق قال الخضر عليه السلام: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ وما قال: فلا تسألني وسكت فيبقى موسى عليه السلام حيران متعطشا بل وعده أنه يحدث له ذكرا أي : علما بالحكمة فيما فعل، او ذكرا بمعنى تذكيرا.

فأكملية الشيخ في العلم المطلوب منه المقصود لأجله لا تغني عن المريد شيئا إذا لم يكن ممتثلا لأوامر الشيخ مجتنبا لنواهيه:

وما ينفع الأصل من هاشم	إذا كانت النفس من باهلة

وإنما ينفع أكملية الشيخ من حيث الدلالة الموصلة إلى المقصود وإلا فالشيخ لا يعطي المريد إلا ما أعطاه له استعداده واستعداده منطو فيه وفي أعماله كالطبيب الماهر إذا حضر المريض وأمره بأدوية فلم يستعملها المريض فما عسى أن تغني

(١[53]) سورة الكهف الآية (٦٢).

(٢[54]) سورة الكهف الآية (٧٠).

(٣[55]) سورة الكهف الآية (٦٧).

عنه مهارة الطبيب ؟ وعدم امتثال المريض دليل على أن الله تعالى ما أراد شفاءه من علته فإن الله إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه وإنما وجب على المريد طلب الأكمل والأفضل من المشايخ خشية أن يلقي قياده بيد جاهل بالطريق الموصل إلى المقصود فيكون ذلك عونا على هلاكه([56]١).

١٨- الشيخ أحمد زروق:

قال رحمه الله تعالى : (أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتمم من أخذه دونهم: ﴿بل هو آيات ببينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾([57]٢). ﴿واتبع سبيل من أناب إليَّ﴾([58]٣) فَلَزِمت المشيخة سيما والصحابة أخذوا عنه صلى الله عليه وآله وسلم وقد اخذ هو عن جبريل واتبع إشارته في ان يكون عبدا نبيا وأخذ التابعون عن الصحابة فكان لكل أتباع يختصون به كابن سيرين وابن المسيب والأعرج من ابي هريرة وطاوس ووهب ومجاهد لابن عباس إلى غير ذلك فأما العلم والعمل فأخذه جلي فيما ذكروا كما ذكروا. وأما الإفادة بالهمة والحال، فقد أشار اليها أنس بقوله: (ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى أنكرنا قلوبنا).([59]٤) .

فأبان أن رؤية شخصه الكريم كانت نافعة لهم في قلوبهم إذ من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها فلذلك أمر بصحبة الصالحين ونهى عن صحبة الفاسقين([60]٥).

فالطبع يسرق من الطبع وما أسرع أن يسير الإنسان في الاتجاه الذي يهواه صاحبه وللعدوى قانونها الذي يسري في الأخلاق كما يسري في الأجسام بل إن الروح الذي يسود المجلس قد يكون مصدره من شخص قوي يغمر من حوله بفيض مما يتفجر من باطنه.

وقد شوهد أن عدوى السيئات أشد سريانا وأقوى فتكا من عدوى الحسنات ففي أحيان كثيرة تنتقل عدوى التدخين من المصاب بها إلى البريء منها، ويندر أن يقع العكس.

([56]١) المواقف (٣٠٥/١).

([57]٢) سورة العنكبوت الآية (٤٩).

([58]٣) سورة لقمان الآية (١٥).

([59]٤) أخرجه ابن ماجه (١٦٣١).

([60]٥) قواعد التصوف لأحمد زروق القاعدة (٦٥).

فالصداقة يجب أن تعتمد على قوة العقائد وسمو الأعمال وخير من يستديم المرء عشرتهم ويستبقي للدنيا والآخرة مودتهم اولئك الذين عناهم الأثر: (من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته)([61]١).

الفرقة الناجية

روى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)([1]٢).

وقد تكلم المحدثون في سند هذا الحديث ومتنه وأعلوه فلم يصل عندهم إلى رتبة الصحة التي يسوغ معها الاحتجاج به علميا وعلى تقدير صحة الحديث فإننا نقول:

إن من المسلم به أن تعدد السبل إلى المقصد الواحد أمر طبيعي وشرعي فلا ينسحب عليه حكم: (تعدد الفرق والعقائد) لأن الذي يطلق عليها تجاوزا أو مجازا اسم (الفرق) في الإسلام كلها دائرة في الكتاب والسنة فهي على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو وأصحابه فهي (مذاهب) أو (مشارب) أو (سبل) تبتدئ من الشهادتين وتنتهي عند حقهما فالسادة الشافعية والمالكية والأحناف والحنابلة والزيدية والظاهرية والإمامية والهادوية والصوفية والسلفية والأشعرية والماتريدية والمعتزلة المعتدلون كل هؤء وأمثالهم يسيرون في طريق واحد على أساليب مختلفة مع اتحاد المضمون وهذه نتيجة طبيعية للاستنباط والمقارنة والبحث والنقل والتلقي في حدود الكتاب والسنة.

هذه الأساليب هي السبل الشرعية التي هداهم الله إليها بقوله تعالى:

([61]١) خلق المسلم ص ٢٠٢ بتصرف.

([1]٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩١).

﴿والـذين جاهـدوا فينـا لنهـدينهم سـبلنا﴾(١[2]) والتـي سـماها الله تعـالى ﴿سـبل السـلام﴾(٢[3]) وهـي سبل الله الواحـد كمـا جـاء علـى لسـان الأنبيـاء ﴿وقـد هـدانا سبلنا﴾(٣[4])...

ويلحق بهؤلاء جميعا سائر الهيئات والجماعات الإسلامية السليمة المنتشرة في بقاع الأرض.

ثم لماذا؟ وبأي دليل؟ نطبق هذا الحديث على الطرق الصوفية وحدها ولا نطبقه علـى الجمعيـات والهيئـات الإسـلامية والـروابط المعاصـرة وفروعهـا الأخـرى وهـي أضعاف هذا العدد؟

وإنما ينطبق هذا الحديث على فرض صحته على أمثال غلاة الخوارج، والباطنية والقرامطة والبهائية والقاديانية ونحو هؤلاء من الفرق التي ذكرها أصحاب كتب الملل والنحل ممن خالفوا الأصول عمدا وأنكروا عمدا المعلوم من الدين بالضرورة.

ربما كان فيهم المقصرون أو المنحرفون أو العصاة وهذا لا يخرجهم من الدين ولا يسحب إليهم حكم الفرق الكافرة.

فبعض الفرق أشد غلوا وانحرافا وتطرفا وانجرافا مع هذا فهي مسلمة فالمعصية شيء والردة شيء آخر.

ثم إنه قد ذهب بعض العلماء إلى أن المقصود من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وتفترق أمتي) أمة الدعوة لا أمة الإجابة والفرق بينهما أن أمة الدعوة هي من بعث إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء آمن به أم كفر جنا وإنسا منذ بعثه إلى يوم القيامة فهو صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الرسل وشريعته ناسخة لما قبلها.

وأمة الإجابة: هي كلم من آمن به وأقر بأنه لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواء الظالم منهم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ولا يعارض هذا أن بعضهم يعذب عذاب تطهير وإعداد إن احتاج إليه ولم تشمله رحمة الله الواسعة ولا شفاعة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودليل ذلك قوله

(١[2]) سورة العنكبوت (٦٩).

(٢[3]) سورة المائدة الآية (١٦).

(٣[4]) سورة إبراهيم الآية (١٢).

تعالى ﴿ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ إلى قوله تعالى ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾([5]١).

وأخرج الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنه (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلهم ناج وهي هذه الأمة».

فأصحاب الجنة هم الذين فصلتهم آيات فاطر إلى ثلاثة ويدخل فيها جميع الفئات والمذاهب والجماعات التي لا تخالف أو تنكر معلوما من الدين بالضرورة وقد مر معنا ذكر بعض هذه الجماعات في بداية البحث وكلهم داخلون في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «... ما عليه أنا وأصحابي»([6]٢).

وفي الرواية الأخرى: «كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»([7]٣).

وأصحاب النار في الآية هم الذين كفروا بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقروا بنسخ شريعته لما هم عليه وكونه بعث إليهم أيضا فهم يعتبرون بذلك من أمة الدعوة الإسلامية (المحمدية) لا من أمة الإجابة لأنهم لم يدخلوا الإسلام.

ولا يخفى على كل من علم أوليات أحكام الإسلام بأن ملة الكفر واحدة وملة الإسلام واحدة ولكن الحق واحد لا يتعدد والتعدد إنما وقع في ملة الكفر لا أمة الإجابة لقوله تعالى : ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾([8]٤).

ويشهد له قوله صلى الله عليه وآله وسلم «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»([9]٥).

([5]١) سورة فاطر الآية (٣٢) وما بعدها.

([6]٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٠) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢٩٣).

([7]٣) أخرج هذه الرواية الترمذي (٢٦٤١).

([8]٤) سورة الأنعام الآية (١٥٣).

([9]٥) أخرجه البخاري (٦٨١٥).

وإني أرى في هذا القول جمعا لشتات المسلمين وسدا لباب التكفير والتضليل بين صفوفهم وهذا ما ينبغي أن نسعى إليه في هذا الزمان الممزق.

الورد

تعريف الورد:

الورد بالكسر كما في المصباح: الوظيفة من قراءة ونحو ذلك والجمع أوراد يطلقه الصوفية على أذكار يأمر الشيخ تلميذه بذكرها صباحا بعد صلاة الصبح ومساء بعد صلاة المغرب والوارد في اللغة: هو الطارق القادم يقال: ورد علينا فلان أي قدم وفي الاصطلاح: ما يتحفه الحق تعالى قلوب اوليائه من النفحات الإلهية فيكسبه قوة محركة وربما يدهشه أو يغيبه عن حسه ولا يكون إلا بغتة ولا يدوم على صاحبه.

والورد يضح ثلاثة صيغ من صيغ الذكر المطلوبة شرعا والتي دعا اليها كتاب الله عز وجل وبينت السنة الشريفة فضلها ومثوبتها:

١- كلمة التوحيد بصيغة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير)مائة مرة مع التفكير بأنه لا خالق ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا قابض ولا باسط.. إلا الله وحده مع محاولة محو ما يسيطر على القلب من حب الدنيا والأهواء والشهوات والوساوس والشواغل والعلائق والعوائق الكثيرة حتى يكون القلب لله وحده لا لسواه.

ولهذا دعانا الله تعالى إلى هذا التوحيد الخالص فقال: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾([1]١) وكذلك رغبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الإكثار من ترداد كلمة التوحيد وبين أفضليتها ومثوبتها فقال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»([2]٢).

([1]١) سورة محمد الآية (١٩).

([2]٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣١) والحاكم (٥٠٣/١) وصححه ووافقه الذهبي وابن ماجه (٣٨٠٠) وابن حبان (٨٤٦).

ويقول العلامة ابن علان في شرح هذا الحديث : (إنها [أي لا إله إلا الله] تؤثر تأثير ا بينا في تطهير القلب عن كل وصف ذميم راسخ في باطن الذاكر وسببه أن (لا إله) نفي لجميع أفراد الآلهة و (إلا الله) إثبات للواحد الحق الواجب لذاته المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله فبإدمان الذكر لهذه المقولة ينعكس الذكر من لسان الذاكر إلى باطنه حتى يتمكن فيه فيضيئه ويصلحه ثم يضيء ويصلح سائر الجوارح ولذا أمر المريد وغيره بإكثارها والدوام عليها)([3]١).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «جددوا إيمانكم قيل يا رسول الله كيف نجدد إيماننا قال: اكثروا من قول لا إله إلا الله»([4]٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضا: «من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه»([5]٣).

٢- الاستغفار: بصيغة [استغفر الله] مائة مرة بعد محاسبة النفس على الزلات لتعود صفحة الأعمال نقية بيضاء وقد أمرنا الله تعالى بذلك بقوله ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾([6]٤).

وقال تعالى أيضا ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾([7]٥).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من الاستغفار تعليما لأمته وتوجيها كما روى سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه قوله: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)([8]١).

([3]١) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٩/٢).

([4]٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٩/٢).

([5]٣) أخرجه مسلم (٢٦٩١) والترمذي (٢٣٩٠).

([6]٤) سورة المزمل الآية (٢٠).

([7]٥) سورة نوح الآية (١٠- ١٢).

وعن سيدنا عبدالله بن بسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا»([٢][9]).

٣- الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة: [اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم]([٣][10]) مائة مرة مع استحضار عظمته صلى الله عليه وآله وسلم وتذكر صفاته وشمائله والتعلق بجنابه الرفيع محبة وتشوقا . ولا مانع أن يصلي عليه بأي صيغة كانت.

وقد أمرنا الله تعالى بذلك بقوله ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾([٤][11]) .

وكذلك رغب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكثرة الصلاة والسلام عليه فقال: (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا)([٥][12]).

وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر سيئات ورفعت له عشر درجات»([٦][13]).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضا: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»([٧][14]).

مع الملاحظة أن هذا الورد يكون في الصباح والمساء في جلسة يخلو فيها العبد بربه وبذلك يكون قد افتتح نهارها بذكر الله تعالى وختمه بذكره وطاعته ولعله يكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾([٨][15]).

ولا ينبغي للسالك في طريق اهل الله أن يكون ورده مقصورا على العدد المذكور بل ينبغي له أن يزيد ذكره لله تعالى لأن قلب السالك في ابتداء سيره كالطفل الصغير

([8]١) أخرجه البخاري (٥٩٤٨) وابن ماجه (٣٨١٦).

([9]٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨) في الأدب وقال في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات.

([10]٣) رواه أبو داود (٩٨١) ورواه الحاكم (٢٦٨/١) والبيهقي في السنن (١٤٦/٢) وابن خزيمة (٧١١) وابن حبان (١٩٥٩).

([11]٤) سورة الأحزاب الآية (٥٦).

([12]٥) أخرجه النسائي (١٢٩٦).

([13]٦) أخرجه النسائي في (١٢٩٦).

([14]٧) أخرجه الترمذي (٤٨٤) وابن حبان (٩١١).

([15]٨) سورة الأحزاب الآية (٣٥).

فكما أن الطفل كلما كبر زيدت له كمية الغذاء كذلك كلما كبر المريد في سيره إلى الله تعالى زاد ذكره لله لأن الذكر غذاء لقلبه وحياة له . مع مراعاة إرشادات شيخه حتى يبقى دائما في حالة اطمئنان وسكينة وثبات.

والورد كله بأمر من الله عز وجل وبأمر من سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الاستغفار ومن الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قول لا إله إلا الله فليس لأحد أن ينكره أو يتركه فمن انكر فلجهله ومن حرم الأوراد في بدايته حرم الواردات في نهايته فعليك بالأوراد ولو بلغت المراد.

والذكر مع وجود الغفلة سبب قلة الذكر فلابد من كثرة الذكر حتى تنقل الى الحضور ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾([16]١) وهذا صعب وليس بسهل فلابد من المجاهدة ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾([17]٢).

ولما كان الورد منهج وسبيل السالكين إلى الله تعالى وقف الشيطان في طريقهم يصدهم عن ذكر ربهم سبحانه بمغاليط خفية وحجج شتى وتلبيسات منوعة فقد زين الشيطان لبعض الذاكرين أن يتركوا الذكر بحجة أن ذكرهم لا يسلم من الوساوس والذكر لا يفيد إلا إذا كان الذاكر حاضر القلب مع الله تعالى ، ولكن مرشدي الصوفية حذروا مريديهم من هذا المدخل الشيطاني الخطير. فقال أحد ساداتنا الإمام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى : (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز)([18]٣).

وقد يترك بعض المريدين قراءة أورادهم محتجين بكثرة أشغالهم وأعمالهم وعدم فراغهم لها ويوحي إليهم شيطانهم أن هذا عذر مشروع ومبرر مقبول وأنه لا بأس بتأجيل الأوراد لوقت الفراغ ولكن المرشدين حذروا السالكين من الإهمال والتسويف وانتظار الفراغ لأن العمر سرعان ما ينتهي والمشاغل لا تزال في تجدد قال الإمام ابن عطاء الله رحمه الله تعالى في حكمه:

([16]١) سورة الأحزاب الآية (٤١).

([17]٢) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

([18]٣) إيقاظ الهمم في شرح الحكم (٧٩/١).

(إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس) وقال الشارح ابن عجيبة رحمه الله تعالى : (فالواجب على الإنسان أن يقطع علائقه وعوائقه ويخالف هواه ويبادر إلى خدمة مولاه ولا ينتظر وقتا آخر إذ الفقير (الصوفي) ابن وقته([١][19]).

وإقامة الورد في وقته عند إمكانه لازم لكل صادق فإذا عارضه عارض بما هو واجب من الأمور الشرعية لزم إنفاذه بعد التمسك بما هو فيه من غير إفراط مخل بواجب الوقت ثم يتعين تداركه بمثله لئلا يعتاد البطالة ولأن الليل والنهار خلفة والأوقات كلها لله فليس لك اختصاص وجه إلا من حيث ما خصص.

فمن ثم قال بعض المشايخ: ليس عند ربكم ليل ولا نهار يشير للكون بحكم الوقت لا كما يفهمه البطالون من عدم إقامة الورد وقيل لبعضهم وقد رؤيت بيده سبحة : أتعد عليه؟ قال لا ولكن له فكل مريد أهمل أوقاته فبطال وكل مريد تعلق بأوقاته دون نظر للحكم الإلهي فهو فارغ من التحقيق ومن لا يعرف موارد الأحوال عليه فغير حاذق بل هو غافل.

ولذلك قيل : من وجد قبضا أو بسطا لا يعرف له سبب فلعدم اعتنائه بقلبه وإلا فهما لا يردان دون سبب والله أعلم([٢][20]).

وقد رأى رجل الإمام الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة فقال له: (أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة؟! فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا فلا نتركه أبدا).

وقال الإمام ابن عطاء الله رحمه الله تعالى : (لا يستحقر الورد إلا جهول الوارد يوجد في الدار الآخرة والورد ينطوي بانطواء هذه الدار وأولى ما يعتنى به مالا يخلف وجوده: الورد هو طالبه منك والوارد أنت تطلبه منه وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه؟)([٣][21]).

وإن المريد إذا ترك ورده بسبب من الأسباب السابقة ثم عاد إلى يقظته والتزم عهده فلا يقنط من رحمة ربه نتيجة تقصيره بل عليه أن يتوب إلى الله تعالى ثم يقضي ما فاته من الأوراد لأنها تقضى كسائر العبادات والطاعات.

([19]١) إيقاظ الهمم ي شرح الحكم (/ ٤٩).

([20]٢) قواعد التصوف للعلامة البرنسي المغربي ص (١١٣).

([21]٣) شرح الحكم العطائية للشرنوبي ص (٩٢).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : (ينبغي لمن كان له وظيفة من الذكر في وقت من ليل أو نهار أو عقيب صلاة أو حالة من الأحوال ففاتته أن يتداركها ويأتي بها إذا تمكن منها ولا يهملها فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرضها للتفويت وإذا تساهل في قضائها يسهل عليه تضييعها في وقتها).

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»([22]١). ([23]٢)

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز مفتي المملكة العربية السعودية : الأفضل ان تقرأ بعد صلاة الفجر والمغرب التسبيح ثلاثا وثلاثين والتحميد ثلاثا وثلاثين والتكبير ثلاثا وثلاثين ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير تمام المئة ثم آية الكرسي ثم يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ثلاث مرات وهذا ما نص عليه ابن باز مع أن (سورة الصمد والمعوذات ثلاثا ليس فيها نص شرعي صريح على قراءتها بعد الصلاة إنما اجتهاد منه وهكذا اجتهد العلماء وأهل السلوك نفعنا الله بهم جميعا.

الفرق بين الكرامة والاستدراج

الأدلة على كرامات الأولياء

أ- من القرآن الكريم:

قال تعالى في قصة مريم ﴿وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾([1]٣) فاخضر الجذع بعد أن كان يابسا وتساقط منه الرطب الجني في غير أوانه.

([22]١) أخرجه مسلم (٧٤٧).

([23]٢) الأذكار للنووي ص (١٣).

([1]٣) سورة مريم الآية (٢٥).

وقال تعالى في قصة أصحاب الكهف ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا﴾([2]١) فقد بقوا طوال هذه المدة في حالة نوم أحياء محفوظين من كل الآفات.

وقال تعالى في قصة صاحب سليمان عليه السلام (آلآصف بن برخيا): ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾([3]٢) فجاءه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل ارتداد طرفه عليه السلام.

وقال تعالى في قصة زكريا عليه السلام مع مريم: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ﴾([4]٣).

ب- من السنة النبوية الشريفة:

عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لم يتكلم من المهد إلا ثلاثة : عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي فجاءته أمه فدعته فقال أجيبها أو أصلي؟ فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجه المومسات. وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلمته فابى فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت: من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى ثم اتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام؟ فقال : الراعي فقالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا إلا من طين وكان امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال اللهم لا تجعلني مثله ثم اقبل على ثديها يمصه) قال ابو هريرة رضي الله عنه : كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمص أصبعه (ثم مر بأمه قالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها: فقالت: ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون : سرقت زنت ولم تفعل)([5]٤).

وعن سيدنا عبالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى

([2]١) سورة الكهف الآية (٢٥).

([3]٢) سورة النمل الآية (٤٠).

([4]٣) سورة آل عمران الآية (٣٧).

([5]٤) أخرجه البخاري (٢٢١٥) ومسلم (٦٨٨٤) وأحمد (٢/٣٠٧ – ٣٠٨).

غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح اعمالكم فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي المسير في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج » قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «وقال الآخر » الله إنه كان لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها على نفسها فامتنعت مني: حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها) قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله ! أد الي أجري فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبدالله ! لا تستهزيء بي. فقلت: إني لا استهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»([6]١).

وعن سيدنا ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «بينما رجل راكب على بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه البقرة فقالت: إني لم اخلق لهذا وإنما خلقت للحرث فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم!! فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر»([7]٢).

([6]١) أخرجه البخاري (٣٦٩/٤) ومسلم (٢٧٤٣).

([7]٢) أخرجه البخاري (٢٣٢٤) ومسلم (٦١٣٦) والترمذي (٣٦٧٧).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»([1][8]).

وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما كانا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حاجة حتى إذا ذهبت من الليل ساعة وهي ليلة شديدة الظلمة خرجا وبيد كل واحد منهما عصا فأضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا في ضوئها حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله)([2][9]).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أن خبيبا كان أسيرا عند بني الحارث بمكة في قصة طويلة وفيها أن بنت الحارث تقول: (ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقا رزقه الله)([3][10]).

وعن سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: شكا ناس من أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر (فبعث معهم يسأل عنه بالكوفة فطيف به في مساجد الكوفة فلم يقل له إلا خيرا حتى انتهى إلى مسدد فقال رجل يدعى أبا سعدة: أما إذ انشدتنا فإن سعدا كان لا يقسم بالسوية ولا يسير بالسرية ولا يعدل في القضية فقال سعد: اللهم عن كان كاذبا فأطل عمره واطل فقره وعرضه للفتن قال ابن عمير: فرأيته شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر وقد افتقر يتعرض للجواري في الطريق يغمزهن فإذا قيل له: كيف انت؟ يقول: شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد)([4][11]).

وفي صحيح البخاري تعليقا أن سيدنا أبا بكر الصديق كان عنده أضياف فقدم لهم الطعام فلما أكلوا منه ربا من أسفله حتى إذا شبعوا قال لامرأته : يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: وقرة عين لهي [أي القصعة] أكثر منها قبل أن يأكلوا ... إلى آخر القصة.

([8][1]) أخرجه البخاري (٤٠/٧) ومسلم (٢٣٩٨).

([9][2]) أخرجه أحمد (١٣٧/٣) وعبد بن حميد (١٢٤٤) والنسائي في فضائل الصحابة (١٤١).

([10][3]) أخرجه البخاري تعليقا (٦٠٢) وأحمد (١٩٧/١ - ١٩٨).

([11][4]) أخرجه البخاري (٧٥٥).

وعن سيدنا عروة بن الزبير رضي الله عنه : (أن أروى بنت اويس ادعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئا من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم فقال سعيد: أنا كنت آخذ من أرضها شيئا بعد الذي سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال: وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ؟من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوقه إلى سبع أرضين» فقال له مروان : لا أسألك بينة بعد هذا فقال اللهم إن كانت كاذبة فعم بصرها واقتلها في أرضها قال : فما ماتت حتى ذهب بصرها ثم بينما هي تمشي في أرضها إذا وقعت في حفرة فماتت)([12]١).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: (رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبدا رأيته قطع البحر على فرسه يوم دارين وقدم من المدينة يريد البحرين فلما كانوا بالدهناء نفد ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رملة فارتووا وارتحلوا ونسي رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه ولم يجد الماء وخرجت معه من البحرين إلى صف البصرة فلما كنا بلياس مات ونحن على غير ماء فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره.)([13]٢).

وعن سيدنا أبي السفر رضي الله عنه قال: (نزل خالد بن الوليد الحيرة فقالوا له احذر السم لا تسقيكه الأعاجم. فقال: ائتوني به فأخذه بيده وقال: بسم الله وشربه فلم يضره شيئا)([14]٣).

وعن سيدنا عثمان بن القاسم رضي الله عنه قال: (خرجت ام أيمن مهاجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد وهي صائمة في يوم شديد الحر فاصابها عطش شديد حتى كادت ان تموت من شدة العطش قال: وهي بالروحاء أو قريب منها فلما غابت الشمس قالت: إذ أنا بحفيف شيء فوق رأسي فرفعت رأسي فإذا أنا بدلو من السماء مدلى برشاء أبيض قالت: فدنا مني حتى إذا

([12]١) أخرجه البخاري (٣١٩٨) ومسلم (٤١١٠) واحمد (١٨٨/١).

([13]٢) أخرجه ابن سعد (٣٦٣/٤).

([14]٣) ذكرها ابن حجر في تهذيب التهذيب (١٢٥/٣) وكذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء.

كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت قالت: فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش وما عطشت بعدها)([15]١).

وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله : إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فغذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الملك حتى ختمها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»([16]٢).

وأخرج البيهقي عن سيدنا قيس رضي الله عنه قال: (بينما ابو الدرداء وسلمان يأكلان من صحفة إذ سبحت وما فيها).

وعن سيدنا محمد بن المنكدر رضي الله عنه ان سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحا من الواحها فطرحني اللوح في أجمة فيها الأسد فأقبل الي يريدني فقلت يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطأطا رأسه وأقبل الي فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به)([17]٣).

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: (دخلنا مقابر المدينة مع علي رضي الله عنه فنادى يا أهل القبور السلام عليكم ورحمة الله ، تخبرونا بأخباركم ام نخبركم ؟ قال : فسمعنا صوتا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا أمير المؤمنين خبرنا عما كان بعدنا فقال علي: أما أزواجكم فقد تزوجن وأما أموالكم فقد اقتسمت والأولاد قد حشروا في زمرة اليتامى والبناء الذي شيدتم فقد سكنه أعداؤكم فهذه أخبار ما عندنا فما أخبار ما عندكم؟ فأجابه ميت: قد تخرقت الأكفان وانتشرت الشعور

([15]١) أخرجه أبو نعيم (٦٧/٢).

([16]٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠).

([17]٣) أخرجه الحاكم (٦٠٦/٣) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وابن الجوزي في صفة الصفوة (٦٧١/١ – ٦٧٢) وابو نعيم في الحلية (٣٦٨/١).

وتقطعت الجلود وسالت الأحداق على الخدود وسالت المناخر بالقيح والصديد وما قدمناه وجدناه وما خلفناه خسرناه ونحن مرتهنون).

وقال التاج السبكي رحمه الله تعالى : (كان عمر رضي الله عنه قد امر سارية ابن زنيم الخلجي على جيش من جيوش المسلمين وجهزه على بلاد فارس فاشتد على عسكره الحال على باب نهوند وهو يحاصرها وكثرت جموع الأعداء وكاد المسلمون ينهزمون وعمر رضي الله عنه بالمدينة فصعد المنبر وخطب ثم استغاث في أثناء خطبته بأعلى صوته : (يا سارية! الجبل، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم فأسمع الله تعالى سارية وجيشه أجمعين وهم على باب نهاوند صوت عمر فلجؤوا إلى الجبل ، وقالوا: هذا صوت أمير المؤمنين فنجوا وانتصروا).

وذكر التاج السبكي رحمه الله تعالى في الطبقات وغيره: (أنه دخل على عثمان رضي الله عنه رجل كان قد لقي امراة في الطريق فتأملها فقال له عثمان رضي الله عنه :يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا؟ فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال لا ولكنها فراسة المؤمن وإنما اظهر عثمان هذا تأديبا للرجل وزجرا له عن فعله).

من أقوال العلماء:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (العقيدة الواسطية) : (ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات والمأثور عن سلف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة).

وقال أيضا: (وكرامات الأولياء حق باتفاق أئمة أهل الإسلام والسنة والجماعة وقد دل عليها القرآن في غير موضع والأحاديث الصحيحة والاثار المتواترة عن الصحابة والتابعين)([18]).

([18]) مختصر الفتاوى المصرية ص (٦٠٠).

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعا﴾([19]١) : احتج اصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات وهو استدلال ظاهر فنقول : الذي يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والاخبار والآثار ، والمعقول....)([20]٢).

وقال الإمام النسفي رحمه الله تعالى : نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة.

وقال العلامة اليافعي رحمه الله تعالى : (والناس في إنكار الكرامات مختلفون فمنهم من ينكر كرامات الأولياء مطلقا وهؤلاء أهل مذهب معروف، عن التوفيق مصروف ومنهم من يكذب بكرامات أولياء زمانه ويصدق بكرامات الذين ليسوا في زمانه كمعروف الكرخي والإمام الجنيد وسهل التستري وأشباههم رضي الله عنهم فهؤلاء كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه والله ما هي إلا إسرائيلية صدَّقوا بموسى وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم أدركوا منه ومنهم من يصدق بأن الله تعالى أولياء لهم كرامات ولكن لا يصدق بأحد معين من أهل زمانه)([21]٣).

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : قال الإمام ابو المعالي إمام الحرمين والمرضي عندنا جواز خوارق العادات في معارض الكرامات([22]٤) .

وقال الشيخ إبراهيم اللقاني رحمه الله تعالى في متن جوهرة التوحيد:

وأثبتن للأولياء الكرامة	ومن نفاها فانبذن كلامه

الفرق بين الكرامة والاستدراج:

الكرامة لا تكون إلا لولي والولي هو صاحب العقيدة الصحيحة المواظب على العمل الصالح والمتابعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما يجري على أيد بعض الزنادقة كطعن أجسادهم بالأسلحة الحادة وأكل النار والزجاج وغير ذلك مع كونهم

([19]١) سورة الكهف الآية (٢٥).

([20]٢) التفسير الكبير (٦٨٢/٢).

([21]٣) روض الرياحين ص (٤٢).

([22]٤) بستان العارفين ص (٩٥).

مجاهرين بالمعصية منحرفين عن دين الله تعالى فهو من قبيل الاستدراج وإن الولي لا يستأنس بالكرامة ولا يتفاخر بها على غيره.

قال العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره الكبير: إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج وأما صاحب الاستدراج فإنه يستانس بذلك الذي يظهر عليه ويظن انه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقا لها وحينئذ يحتقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وقعابه ولا يخاف سوء العاقبة فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجا لا كرامة).

وقال أيضا: (إن من اعتقد في نفسه أنه صار مستحقا لكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم فيقلبه ومن كان لعمله وقع عند كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم وقع عظيم فيقلبه ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلا ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قوصر وكل معارفهم وعلومهم في مقابلة عزته حيرة وجهل رايت في بعض الكتب أنه قرأ المقرئ في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾([23]١) فقال علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى عندك (أي عملك) فإن بقي عملك في نظرك فهو مدفوع وإن لم يبق معك فهو مرفوع([24]٢).

وبناء على ذلك فإننا حين نرى أن أحدا من الناس يأتي بخوارق العادات لا نستطيع أن نحكم عليه بالولاية وأن نعتبر عمله هذا كرامة حتى نقيس أعماله على الكتاب والسنة.

قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : لو رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا حاله عند الأمر والنهي([25]٣).

موقف الصوفية من الكرامات:

([23]١) سورة فاطر الآية (١٠).

([24]٢) التفسير الكبير للعلامة فخر الدين الرازي (٦٩٢/٥).

([25]٣) الزواجر (٢٨٥/٢).

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى : قال المحققون (أكثر ما اتفق من الانقطاع عن حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات فلا جرم أن ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء).

وقال الإمام الكبير أحمد الرفاعي رضي الله عنه : (ولا ترغب للكرامات وخوارق العادات فإن الأولياء يستترون من الكرامات كما تستتر المرأة من الحيض)([١][26]).

وقال الشيخ عبدالله القرشي رحمه الله تعالى : (من لم يكن كارها لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهو في حقه حجاب وسترها عليه رحمة فإن خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شيء من الآيات وخوارق العادات له بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك فإذا فني عند إرادته جملة فكان له تحقيق في رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف والتحقق بمراتب الصديقين)([٢][27]).

وقال علي الخواص رحمه الله تعالى : الكُمَّل يخافون من وقع الكرامات على أيديهم ويزدادون بها وجلا وخوفا لاحتمال أن تكون استدراجا([٣][28]).

ويجوز إظهار الكرامة عند الصوفية لغرضين احدهما نصرة شريعة الله أمام الكافرين والمعاندين كما وقع مع الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى مع ذلك الفيلسوف الذي ينكر معجزات الأنبياء حيث يقول رحمه الله تعالى : حضر عندنا سنة ست وثمانين وخمسمائة فيلسوف النبوة على الحد الذي يثبتها المسلمون وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد وأن الحقائق لا تبدل وكان زمن البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل نارا فقال المنكر المكذب: إن العامة تقول: إن إبراهيم عليه السلام ألقي في النار فلم تحرقه والنار محرقة بطبعها الجسوم القابل للاحتراق وإنما كانت النار المذكورة في القرآن في قصة إبراهيم عليه السلام عبارة عن غضب نمرود وحنقه فهي نار الغضب فلما فرغ من قوله قال له الشيخ محي الدين بن عربي قدس الله سره : فإن أريتك أنا صدق الله في ظاهر ما قاله في النار أنها لم تحرق إبراهيم وأن الله جعلها عليه كما قال : بردا وسلاما وأنا أقوم لك في هذا المقام مقام إبراهيم في الذب عنه فقال

([26]١) البرهان للمؤيد (١٦١).

([27]٢) نور التحقيق ١٢٧.

([28]٣) اليواقيت والجواهر (١١٣/٢).

المنكر: هذا لا يكون فقال له : أليست هذه النار محرقة قال نعم فقال تراها في نفسك ثم ألقى النار التي في المنقل في حجر المنكر وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده فلما رآها لم تحرقه تعجب ثم ردها إلى المنقل ثم قال له : قرب يدك أيضا منها فقرب يده فأحرقته : فقال له هكذا كان الأمر وهي مأمورة تحققر بالأمر وتترك الإحراق كذلك والله تعالى الفاعل لما يشاء فأسلم ذلك المنكر واعترف([29]١).

والغرض الثاني الذي يجوز إظهار الكرامة فيه عند الصوفية إبطال سحر الفسقة والمشعوذين الذين يضلون الناس عن دينهم كما ذكر العلامة ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى : أو صوفيا ناظر برهميا والبارهمة قوم تظهر لهم خوارق لمزيد الرياضات فطار البرهمي في الجو فارتفعت إليه نعل الشيخ ولم تزل تضرب رأسه وتصفعه حتى وقع على الأرض منكوسا على رأسه بين يدي الشيخ والناس ينظرون([30]٢).

وأما إظهار الكرامة بدون سبب مروع فهو مذموم لما فيه من خطر النفس والمفاخرة والعجب.

قال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : ولا يخفى أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس إلا إن كانت لنصر دين أو جلب مصلحة لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم هذا مشهد هم وليس وجه الخصوصية إلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم فإذا أحيا كبشا مثلا أو دجاجة فإنما ذلك بقدرة الله لا بقدرتهم وإذا رجع الأمر إلى القدرة فلا تعجب([31]٣).

وإن أعظم الكرامات عند الصوفية الاستقامة على الشريعة.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته : واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والحفظ من المعاصي والمخالفات([32]٤).

وذكرت عند سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى الكرامات فقال:

([29]١) الفتوحات الملكية (٢٧١/٢).

([30]٢) الفتاوي الحديثية ص (٢٢٢).

([31]٣) اليواقيت والجواهر (١١٧/٢).

([32]٤) الرسالة القشيرية ص (١٦٠).

(وما الآيات وما الكرامات؟! أشياء تنقضي لوقتها ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خُلُقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود)([1][33]).

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها ومرجعها أمران: صحة الإيمان بالله عز وجل واتباع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا وباطنا فالواجب على العبد أن لا يحرص إلا عليها ولا تكون لهمة إلا في الوصول اليها وأما الكرامة بمعنى خرق العادة فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق بها من لم تكتمل استقامته وقد يرزق بها المستدرجون وقال إنما هي كرامتان جامعتان محيطتان كرامة الإيمان بزيمد الإيقان وشهود العيان وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب ليس ذا حظ في العلم بالصواب كما أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا([2][34]).

وقال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : (واعلم أن الكرامة على قسمين حسية ومعنوية ولا تعرف العامة إلا الحسية مثل الكلام على الخاطر والإخبار بالمغيبات الماضية والكائنة والآتية والأخذ من الكون والمشي على الماء واختراق الهواء وطي الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعاء في الحال ونحو ذلك فالعامة لا تعرف الكرامة إلا مثل هذا وأما الكرامة المعنوية فلا يعرفها إلا الخواص من عباد الله تعالى والعامة لا تعرفذلك وهي ان يحفظ على العبد آداب الشرعية وأن يوفق لفعل مكارم الأخلاق واجتناب سفاسفها والمحافظ على أداء الواجبات مطلقا في أوقاتها والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل والحقد من صدره للناس والحسد وسوء الظن وطهارة القلب من كل صفة مذمومة وتحليته بالمراقبة مع الأنفسا ومراعاة حقوق الله تعالى في نفسه وفي الأشياء وتفقد آثار ربه في قلبه ومراعاة أنفاسه في دخولها وخروجها فيتلقاها بالأدب إذا وردت عليه ويخرجها وعليها حلة الحضور مع الله عز وجل فهذه كلها عندنا كرامات الأولياء المعنوية التي لا يدخلها مكر ولا استدراج)([3][35]).

([33][1]) كتاب اللمع للطوسي ص (٤٠٠).

([34][2]) نور التحقيق لحامد صقر ص (١٢٨).

([35][3]) الفتوحات المكية (٣٦٩/٢).

وقال الشيخ أحمد الحارون رحمه الله تعالى : «كرامتان ليس بعدهما كرامة: الإيمان والاستقامة فإذا وجدتم رجلا مستقيما فلا تطلبوا منه كرامة»([1][36]).

- ليس صاحب الكرامة مفضلا على غيره عند الصوفية:

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليلا على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى([2][37]).

- عدم ظهور الكرامة ليس دليلا على عدم الولاية عند الصوفية:

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في رسالته : (لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها في كونه وليا).

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه لرسالة القشيري عند هذا الكلام: (بل قد يكون أفضل ممن ظهر له كرامات لأن الأفضلية إنما هي بزيادة اليقين لا بظهور الكرامة)([3][38]).

الكرامة بعد الموت:

قد يستاءل البعض فيقول: هل تختص كرامات الأولياء بحال حياتهم؟ وهل يخرج الولي عن ولايته بالموت؟ والجواب على ذلك: أن كرامات الأولياء إنما هي تصرف بإذن الله تعالى لا بتأثير مؤثر ولا بقوة أخرى مودعة وإذا كانت كذلك لا تتغير بموتهم بل هي بعد الحياة أولى منها لأن النفس أصفى والروح أنقى وإظهارها أحوج وكم رُشيت لكثير من المستورين كرامات لم تظهر إلا بعد انقضاء حياتهم وبعضهم ظهرت قبيل موتهم بعد أن كان سرهم مع الله عز وجل فلما أظهرها اختاروا لقاءه كتمانا للسر ورغبة في الستر ثم إنه لا ينعزل الولي عن ولايته بالموت ولا يخرج منها كالأنبياء في نبوتهم لأن الاختصاص باق كحال الحياة وليس معلقا بها لحاجة بل اختيار الله تعالى

([36][1]) كرامات الأولياء لأبي محمد الخلال ص (١٥).

([37][2]) كتاب نشر المحاسن الغالية ص (١١٩).

([38][3]) الرسالة القشيرية ص (١٥٩).

من شاء من خلقه لولايته امتياز باق ما بقي على العهد لا فرق بين حياة وممات أو إقامة وانتقال أو ظعن وسفر ([39]١).

ثم إذا فقدت مكانة الولي عند موته فما الفرق الكبير بينه وبين العاصي؟؟..

الشطح

الشطح: هو عبارة عن كلمات تصدر من بعض الصوفية غير الكُمَّل في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الله تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق وهذه الكلمات لو صدرت عنه وعقله معه لأنكرها وهذه الحالة غير محمودة عند الصوفيين ولكن صاحبها معذور في ذلك لذهوله وعدم انضباط فكره حينئذ ولكن كما أنه لا جناح عليه بسبب هذا العذر فلا يجوز الاقتداء به لمن كان في حالة صحو ولا حمل كلامه وأفعاله على الصحة بل ينظر إلى ذلك على أنه شطحات يعفى عنها لأهل الأحوال والمواجيد الصحيحة كما حصل مع الرجل الذي أضل راحلته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه ومتاعه وعندما وجدها أصابه حال سرور فأخطأ من شدة فرحه فقال : (اللهم أنت عبدي وأنا ربك)([1]٢) فهذا قد فرح براحلته فكيف بالذي يفرح بالله وهذه العبارة وغيرها مما يصدر عن الذي خرجت عنه بغير صحو ويؤاخذ بها كل من رددها أو أيدها عقلا ممن لم يكن في مثل ذلك الحال والى هذا يشير الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه إذ يقول:

(هذه الكلمات ومثلها من الشطحات التي تتجاوز حد التحدث بالنعمة مثل صاحبها: كمثل رجل نام في بيت الخلاء فرأى في منامه أنه جلس على سرير سلطنة فلما استيقظ خجل وعرف مكانه: الله الله بالوقوف عند الحدود عضوا على سنة السيد العظيم صلى الله عليه وآله وسلم بالنواجذ).

([39]١) كرامات الأولياء لأبي محمد الخلال ص (١٤ – ١٥).

([1]٢) أخرجه البخاري (١١/ ٩١ –٩٢) ومسلم (٢٧٤٨) وذكره النووي في رياض الصالحين (١٥).

مالي وألفاظ زيد	ووهم عمرو
ووجه الشريعة أهدى	من سر ذاك وسري([2]١)

وحدة الوجود

إن وجود الله عز وجل ذاتي أي لا تأثير لغيه به إذ أن الله تعالى هو الأول فليس قبله يء وقد رود في الحديث: «كان الله ولم يكن شيء غيره»([1]٢).

أما وجود الموجودات فهو حاصل من إيجاد الله عز وجل لها ومستمر بإمداد الله تعالى لها بالوجود ولو انقطع الإمداد لعادت عدما.

وعليه فمن نظر الى الموجد الممد سبحانه وتعالى رآه هو الموجود حقيقة ومن لاحظ الإمداد رأى الأياء عدما لولاه سبحانه فوجودها ليس ذاتيا كوجوه الله عز وجل ولذلك قالوا: الوجود الحقيقي واحد وهو الله سبحانه وتعالى ووجود غيره لا يشابه وجوده.

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»([2]٣).

وقال أحدهم:

فالكل دون الله إن حققته	عدم على التفصيل والإجمال([3]٤)

أي عدم حقيقة أصله موجود بمدد الله تعالى له وهذه هي واحدة الوجود.

وقال الشيخ عبدالقادر عيسى رحمه الله تعالى في كتابه (حقائق عن التصوف) : إن الوجود نوعان: وجود قديم أزلي وهو واجبوهو الحق سبحانه وتعالى ﴿ذلك بأن

([2]١) كرامات الأولياء لأبي محمد الخلال ص (١٤ –١٥).

([1]٢) أخرجه البخاري (٣٠١٩/٢).

([2]٣) أخرجه البخاري (٣٦٢٨/٢).

([3]٤) شرح الصاوي ص (٧٧).

الله هو الحق﴾([4]١) أي الثابت الوجود المحقق ووجود جائز عرضي ممكن وهو وجود من عداه من المحدثات.

وإن القول بوحدة الوجود وأن الوجود واحد هو الحق تعالى يحتمل معنيين :
أحدهما حق والثاني كفر ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان: الفريق الأول أرادوا به اتحاد الحق وأنه لا شيء في هذاالوجود سوى الحق وان الكل هو وأنه هو الكل وأنه عين الشياء وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه... فقوله هذا كفر وزندقة وأشد ضلالة من اباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وقد شدد الصوفية النكير على قائله وأفتوا بكفره وحذروا الناس من مجالسته.

قال العارف بالله أبو بكر محمد بناني رحمه الله تعالى : فاحذر يا أخي كل الحذر من الجلوس مع من يقول: ما ثم غلا الله ويسترسل على الهوى فإن ذذلك هو الزندقة المحضة إذ العارف المحقق إذا صحح قدمه في الشريعة ورسخ في الحقيقة وتفوه بقوله: ما ثم إلا الله لم يكن صده من هذه العبارة إسقاط الشرائع وإهمال التكاليف حاشا لله ان يكون هذا قصده([5]٢).

الفريق الثاني: قالوا ببطلان وكفر ما ذكر من أن الخالق عين المخلوق وإنما ارادوا بوحودة الوجود القديم الأزلي وهو الحق سبحانه فهو لا شك واحد منزه عن التعدد ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضي المتعدد وهو الكون الحادث نظرا لأن وجوده مجازي وفي اصله عدمي لا يضر ولاينفع فالكون معدوم في نفسه هالك فإن في لك لحظة قال تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾([6]٣).

وإنما يظهره الإيجاد ويثبته الإمداد والكائنات ثابتة بإثابته وممحوة بأحديه ذاته وإنما يمسكه سر القيومية فيه وهؤلاء قسمان : قسم اخذ هذا الفهم بالاعتقاد والبرهان ثم الذوق والعيان وغلب عليه الشهود فاستغرق في لجج بحار التوحيد ففني عن نفسه فلا عن شهود غيره مع استقامته على شرع الله تعالى وهذا قوله حق.

وقسم ظن أن ذلك علم لفظي فتوغل في تلاوة عبارته وتمسك بظواهر إشاراته وغاب في شهودها عن شهود الحق فربما هانت الشريعة في عينيه لما يلتذ به من حلاوة

([4]١) سورة الحج الآية (٦٢).

([5]٢) مدارج السلوك إلى ملك الملوك للعارف الكبير محمد بناني المتوفى سنة (١٢٨٤هـ).

([6]٣) سورة القصص الآية (٨٨).

تلك الألفاظ فيقع على أم رأسه ويتكلم بما ظاهره أن الشريعة في جهة يختص بها أهل الغفلة والحقيقة في جهة أخرى يختص بها أهل العرفان ولعمري إن هذا لهو عين الزور والبهتان وما ثمَّ إلا شريعة ومقام إحسان([7]١).

الاتحاد والحلول

أقوال العلماء في الاتحاد والحلول

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في تبرئة السادة الصوفية من هذه التهمة الباطلة ما نصه: ليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتمد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بضع أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكون من الاتحادية الإباحية الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية([1]٢).

وقال أيضا : (كل المشايخ الذين يقتدى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف طالأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث وتامييز الخالق عن المخلوق وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا([2]٣).)

وقال الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: (ولعمري إذا كان عُباد الأوثان لم يتجرؤوا أن يجلوا آلهتم عين الله بل قالوا: ﴿ما نبعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾([3]٤)).

فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعقله العقول اضعيفة؟! هذا كالمحال في حقهم رضي الله عنهم إذ ما من ولي إلا وهو يعلم أن

([7]١) حقائق عن التصوف ص (٥٥٣ – ٥٥٦).

([1]٢) مجموع الفتاوى ("٧٤/١١ و ٧٥).

([2]٣) مجموع الفتاوى (٢٢٣/٢).

([3]٤) سورة الزمر الآية (٣).

حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق وأنها الخارجة عن جميع معلومات الخلائق لأن الله بكل شيء محيط([4]).

وقد تحدث الإمام الغزالي عن هذه العقيدة الفاسدة وأظهر بطلانها فقال:

وأما القسم الرابع وهو الاتحاد: فذلك أيضا أظهر بطلانا لأن قول القائل: إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه وتعالى عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات ونقول قولا مطلقا: إن قول القائل: إن شيئا صار شيئا آخر محال على الإطلاق لأننا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل إن زيدا صار عمرا واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجودين أو كلاهما معدومين أو زيد موجودا وعمرو معدوما أو بالعكس ولا يمكن قسم وراء هذه الأربعة فإن كانا موجودين فلم يصر عين أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لا يوجب الاتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا تتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض بالعبض وإن كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث.

وإن كان أحدهما معدوما والآخر موجودا فلا اتحاد إذ لا يتحد معدوم بموجود فالاتحاد بين شيئن مطلقا محال وهذا جار في الذات المتماثلة فضلا عن المختلفة فإنه يستحيل أن يصير هذا السواد كما يستحيل أن يصير هذا السواد ذلك البياض أو ذلك العلم والتباين بين العبد والرب أعظم من التباين بين السواد والعلم فأصل الاتحاد إذا باطل.

وأما القسم الخامس وهو الحلول: فذلك أن يتصور أن يقال: إن الرب تبارك وتعالى حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين وهذا لو صح لما وجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لا تصير صفة المحل بل تبقى صفة للحال كما كان.

([4]) اليواقيت والجواهر (١/٨٣).

ووجه استحالة الحلول لا يفهم إلا بعد فهم معنى الحلول فإن المعاني المفردة إذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن أن يفهم نفيها أو إثباتها فمن لا يدري معنى الحلول فمن أي يدري أن الحلول موجود أو محال.

فنقول : المفهوم من الحلول أمران:

أحدهما: النسبة التي بين الجسم ومكانه الذي يكون فيه وذلك لا يكون إلا بين جسمين فالبريء عن معنى الجسيمة يستحيل في حقه ذلك.

والثاني: النسبة التي بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه.

فدع عنك ذكر الرب تعالى وتقدس في هذا العرض فإن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب([5]١).

وقال الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في عقيدته الصغرى: تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها.

وقال في عقيدته الوسطى: اعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل في شيء أو يتحد في شيء.

وقال في الباب التاسع والستين والمائة: القديم لا يكون قط محلا للحوادث ولا يكون حالا في المحدث([6]٢).

وقال في الباب الثاني والستين ومئتين : من أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاته وإنما كان القمر محلا لها فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه.

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته وذلك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلها وصار الحق خلقا والخلق حقا وما وثق أحد بعلم وصار المحال واجبا فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدا.

([5]١) المقصد الأسنى ص (١٦٨).

([6]٢) الفتوحات المكية كما في اليواقيت والجواهر (١/٨٠ و ٨١).

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل: وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ولا حل فيه الحق إذ لو كان عين الحق أو حل فيه لما كان تعلى قديما ولا بديعا.

وقال في باب الأسرار: لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا القول حاشاه إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل([7]١).

وقال في باب الأسرار أيضا: من قال بالحلول فهو معلول فإن القول بالحلول مرض لا يزول وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول.

وقال في باب الأسرار أيضا: الحاث لا يخلو عن الحوادث ولو حل بالحادث القديم لصح قول أهل التجسيم فالقديم لا يحل ولا يكون محلا.

وجاء في شعره ما ينفي الحلول والاتحاد كقوله:

ودع مقالة قوم قال عالمهم	بأنه الإله الواحد اتحدا
الاتحاد محال لا يقول به	إلا جهول به عن عقله شردا
وعن حقيقته وعن شريعته	فاعبد إلهك لا تشرك به أحدا

وقال صاحب كتاب نهج الرشاد في الرد عل أهل الوحدو والحلول والاتحاد: حدثني الشيخ كمال الدين المراغي قال: اجتمعت بالشيخ أبي العباس المرسي تلميذ الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي وفاوضته في هؤلاء الاتحادية فوجدته شديد الإنكار عليهم والنهي عن طريقهم وقال: أتكون الصنعة هي عين الصانع ؟!([8]٢).

وأما ما ورد من كلام السادة الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهرة الحلول والاتحاد فهو إما مدسوس عليهم بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة وإما لم يقصدوا به القول بهذه العقيدة الضالة ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ ورموهم بالكفر والضلال أما العلماء المنصفون فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة

([7]١) الفتوحات المكية كما في اليواقيت والجواهر (١/٨٠ و ٨١).

([8]٢) الحاوي للفتاوي (٢/١٣٤).

والجماعة وأولوه بما يلائم ما ورد عنهم من نصوص صريحة موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى وأما قول الشاعر في شعره:

أنا من أهوى	ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي كاتحاد أحد المحبين بالآخر الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر ويبغض ما يبغضه ويقول مثل ما يقول ويفعل مثل ما يفعل وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد العين بالعين إذ كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه كقول الآخر :

غبت بك عني	فظننت أنك أني

فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ([9]١).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه "(مدارج السالكين) ما نصه : (.. الدرجة الثالثة من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين وهو الفناء عن إرادة السوى شائما برق الفناء عن إرادة ما سواه سالكا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه فانيا بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه فضلا عن إرادة غيره قد اتحد مراده بمراد محبوبه أعني المراد الديني الأمري لا المراد الكوني القدري فصار المرادان واحدا... وليس في العقل اتحاد صحيح إلا هذا والاتحاد في العلم والخير فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدا مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خنواص المحبين وفناؤهم قد فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به واطلب منه عن حب ما سواه ومن تحقق بهذا الفناء لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا فيه ولا يوالي إلا إياه ولا يستعين إلا به فيكون دينه كله ظاهرا وباطنا لله ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فلا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق إليه بل:

يعادي الذي عادى من الناس كلهم	جميعا ولو كان الحبيب المصافيا

([9]١) مجموع رسائل ابن تيمية ص (٥٢).

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضي ربه تعالى وحقوقه والجامع لهذه كله تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علما ومعرفة وعملا وحالا وقصدا وحقيقة هذا النفي والإثبات التي تضمنته هذه الشهاد\ة هو الفناء والبقاء فيفنى عن تألهه ما سواه علما وإقرارا وتعبدا ويبقى بتألهه وحده فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد لذي اتفقت عليه الرسل صلوات الله عليهم وأنزلت به الكتب وخلقت لأجله الخليقة وشرعت له الشرائع وقامت عليه سوق الجنة وأسس عليه الخلق والأمر وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الإرادة والمعصوم من عصمه الله وبالله المستعان والتوفيق والعصمة.

وقال أيضا: وإن كام مشمرا للفناء العالي وهو الفناءعن إرادة السوى لم يبق في قلبه مراد يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب تعالى هو عين مراد العبد وهذه حقيقة المحبة الخالصة وفيها يكون الاتحاد الصحيح وهو الاتحاد في المراد لا في المريد ولا في الإرادة([10]١).

وقال العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه (الحاوي للفتاوى) واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد والتوحيد معرفة الواحد والأحد فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشارتهم فحملوه على غير محمله فغلطوا وهلكوا بذلك..).

إن أصل الاتحاد باطل محال مردود شرعا وعقلا وعرفا بإجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين وليس هذا مذهب الصوفية وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام اتحد ناسوته بلاهوته وأما من حفظه الله تعالى بالعناية فإنهم لم يعتقدوا اتحادا ولا حلولا وإن وقع منهم لفظ الاتحاد فإنما يريدون به محو أفسهم وإثبات الحق سبحانه ... وقد يذكر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وفناء حظوظ النفس من الدنيا وبقاء الرغبة في الآخرة وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة وفناء الشك وبقاء اليقين وفناء الغفلة وبقاء الذكر... وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : (سبحاني ما أعظم شأني)

([10]١) مدارج السالكين (١/٩٠ و ٩١).

فهو في معرض الحكاية عن الله وكذلك قول من قال: (أنا الحق) محمول على الحكاية ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد لأن ذلك غير مظنون بعاقل فضلا عن المميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات ولا يظن بالعقلاء المتميزين على اهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلط بالحلول والاتحاد كا غلط النصارى في ظنهم ذلك في حق عيسى عليه السلام وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعات جهلة المتصوفة وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك.. والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول وهو كفر ويطلق على مقام الفناء اصطلاحا اصطلح عليه الصوفية ولا مشاحة في الاصطلاح إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح ولا محذور فيه شرعا ولو كان ذلك ممنوعا لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد وأنت تقول: بيني وبين صاحبي زيد اتحدا وكم استعمل المحدثون والفقهاء وغيرهم لفظ الاتحاد في معان حديثية وفقهية ونحوية كقول المحدثين: اتحد مخرج الحديث وقول الفقهاء اتحد نوع الماشية وقول النحاة: اتحد العامل لفظا أو معنى.

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققي الصوفية فإنما يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس وإثبات الأمر كله لله سبحانه لا ذاك المعنى المذموم الذي يقشعر له الجلد وقد أشار إلى ذلك سيدي علي بن وفا فقال من قصيدة له:

يظنوا بي حلولا واتحادا	وقلبي من سوى التوحيد خالي

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول وقال أبي أبيات أخر:

وعلمك أن كل الأمر أمري	هو المعنى المسمى باتحاد

فذكر أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوه هو تسليم الأمر كله لله وترك الإرادة معه والاختيار والجري على مواقع أقداره من غير اعتراض وترك نسبة شيء ما إلى غيره([11]١).

وقال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى ما نصه: (ولقد كان من تأثير التباس تلك الفلسفة الفكرية الجانحة بهذه الحالة الشهودية الوجدانية على

([11]١) الحاوي للفتاوى (١٣٤/٢).

كثير من الناس جهلهم بتلك التعابير والكلمات التي تطفح على ألسنة أصحاب تلك الأحوال كتلك الألفاظ التي اشتهرت عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله فظنوا أن قوله (ما في الجبة إلا الله) عقيدة فكرية يتبناها الشيخ فهو يعتنق إذن عقيدة الحلول وينادي بها ولو أنهم تمهلوا وأمعنوا في حقيقة الأمر وواقعه ووقفوا علىتراجم هؤلاء الرجال وأحوالهم لما تسرعوا في الانجراف في هذا الفهم الباطل والتهمة الشنعاء! بل لعلموا أنه ما من مؤمن بالله حق الإيمان إلا وله حظ من هذا الفناء ولكنه ليس فناء الشعور عن كل ما سوى الله بل هو فناء الإرادة لكل ما عدا الله وهو يتمثل في اليقين بأن الله هو النافع والضار وفي صدق التوكل عليه والتفويض إليه واخضاع إرادته وحبه لما يحبه الله ويرضاه إلا أن هؤلاء الرجال رحمهم الله تعالى لما استرسلوا في هذا الحال وواصلوا مراقبتهم لله عز وجل وعودوا أنفسهم أن لا يبصروا شيئا من مظاهر الكون إلا وتتجلى لهم صفات الله من خلاله تجاوزوا مرحلة ذلك الفناء الإرادي إلى الفناء الشعوري فمنهم من استمر على منهج التنسيق بين الجمع والفرق وذلك هو المقام السامي الذي بعث به الرسل والأنبياء وتحلوا به وهو الذي يجب أن يكون مطمح أبصار السالكين إلى الله عز وجل([12]١).والحمد لله رب العالمين

حل الإشكالات حول الشيخ محي الدين بن عربي

ترجمة الشيخ محي الدين بن عربي قدس الله سره

٥٦٠ – ٦٣٨هـ ، ١١٦٥ – ١٢٤٠م

هو محمد بن علي بن عربي، أبو بكر الطائي الأندلسي المعروف بمحي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر من أشهر فلاسفة المتصوفة وأكبر أئمة المتكلمين في كل علم ولد بمريسة من الأندلس ونشأ بها وتلقى العلم فيها ثام انتقل إلى إشبيلية

([12]١) السلفية ص (٢٠١ – ٢٠٢).

واختلف بعد ذلك إلى كثير من بلاد المشرق كمصر والحجاز وبغداد والموصل وأخذ عن كبار العلماء ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة طويلة ثم أتى إلى الشام وظل بها حتى مات ودفن هنا ونسب إليه الحي الذي دفن فيه فيقال: (حي الشيخ محي الدين) وفي هذا الحي مسجد عظيم دفن الشيخ قدس سره في غرفة ملحقة به اشتهر الشيخ بالتصوف وأخذ نفسه بالزهد في ملذات الحياة ليخلص إلى الله تعالى وكان في الفقه ظاهري المذهب حصلَّ فنون العلم وأتقنها وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق وله مؤلفات قيمة في التصوف والفلسفة والآداب لاسيما الشعر الصوفي ولو قيس بأمثاله من المتفلسفين كابن سينا والغزالي لبزهم([1]١) جميعا في ميدان التأليف فقد ألف نحوا من مائتين وتسعة وثمانين كتابا ورسالة وقال الشعراني في الجواهر: بلغت أربعمائة كتاب وهو أخصب المؤلفين إنتاجا.

عدَّ طائفة من العلماء كتبه الصوفية من إشارات العارفين ورموز السالكين وعدها طائفة من متشابه القول وأن ظاهرها كفر وباطنها حق وعرفان وأنها صحيحة في نفسها كبيرة القدر والصواب أنه مات على الحق فقد كان عالما بالآثار والسنن قوي المشاركة في العلوم وقولي أنا([2]٢) فيه :يجوز أن يكون من أولياء الله تعالى الذين اجتذبهم الحق إلى جناته عند الموت وختم لهم بالحسنى ومن قوله في الله عز وجل:

يا من يراني ولا أراه	كم ذا أراه ولا يراني

فلما تسامع الناس بهذا القول أنكروه فزاد بيتين أخر فسراه وأزال غموضه:

يا من يراني مذنبا	ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما	ولا يراني لائذا

فهدأت موجة اعتراضهم إذ رأوا القول ممكن التأويل ويكاد يكون معظم كلامه الذي اعترض به عليه من هذا القبيل اما ما نسب إليه مما لا يمكن تأويله فالراجح أنه مدسوس عليه كما سيمر بك إن شاء الله تعالى.

غلبه التوحيد علما واعتقادا وحالا وجمع بين العلوم الكسبية ومنح كثيرا من العلوم الوهبية وقد أثنى عليه أقرانه وعلماء وقته كابن النجار وابن نقطة وابن العديم

([1]١) بزهم: غلبهم .

([2]٢) المقصود: هو الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني راجع لسان الميزان (٣١١/٥) وما بعدها.

والذكي المنذري ومازني في كلامهم طعن عليه وأجازه الكثير من العلماء الأعلام قال ابن المديني قدم بغداد سنة ثمان وستمائة فكان يومى إليه بالفل والمعرفة غلب عليه طريق اهل الحقيقة قال ابن النجار صحب الصوفية وارباب القلوب وسلك طريق الفقر وحج وجاور([3]١) وله أشعار حسان وكلام مليح وقد أطراه الكمال ابن الزملكاني ووصفه بأنه البحر الزاخر في المعارف الإلهية وقال ابن المنصور (وكان من أكابر علماء الطرق) وقد اشار بكراماته القشاش والشعراني والمناوي والنبهاني وقال الشيخ شمس الدين : توسع في علم الكلام([4]٢) ولم يكن به بأس ولعل ذلك([5]٣) وقع منه حال سكر([6]٤).

دراسة لإشكالات أثيرت حول الشيخ محي الدين بن عربي قدس سره:

إن الحقائق عندما تعالج ينبغي أن لا تعالج بالعواطف بل بالتجرد والعقل الذي يكون رائده الحق فنحن إزاء أي مشكلة لا ينبغي أن نعالجها حسب ميولنا ومصالحنا وأهوائنا بل نناقشها مناقشة من يبحث عن الحق ليظفر به فالحق أحق أن يتبع ذلك لأنه الميزان الجديد الذي توزن به الاعتبارات وميزان الحق لا يعول: وكثيرون هم الذين تكلموا عن الشيخ الأكبر وخاضوا في أحواله وتناولوه بالدراسات المختلفة ولكن هل كان رائد كل أولئك أن ينصفوه؟

فمن تجرد من بحثه عن المؤثرات والأهواء رأى الشيخ عالما جليلا ووليا قائما على حدود الشرع ملتزما بالكتاب والسنة فيما يأتي ويذر ورأى عذهر في الشطحات ورآها أحوالا خارجة عن إرادته تطرأ عليه كظل سحابة ما يلبث أن يمر ثم يعود إلى صحوه فينكر ما قاله أثناء الغيبوبة ولا خلاف في أن حال الصحو أفضل من حال الشطح ولا يجوز لمن في حال الصحو أن يقتدي بأهل الشطح ولا اعتبار لأقوالهم هذه ولا يؤاخذون عليها في ذلك الحال بسبب الذهول الذي يرافقهم في ذلك الحال

([3]١) أي أقام بجواز الكعبة أو جاور في المدينة المنورة .

([4]٢) علوم العقيدة والتوحيد.

([5]٣) أي تكلمه بالشطحات.

([6]٤) السُكر غيبة بوارد قوي يغيب فيه العارف عن المييز فيشطح بكلمات لو صدرت عن قائلها وعقله معه لاعتبرناه ضالا وهذا الال ليس مرغوبا ولا هو وصف كمال بل غاية صاحبه أنه يكون معذورا لضعف عقله عن احتمال التمييز راجع أصفى الموارد في مكتوبات مولانا خالد لجامعها الشيخ أسعد صاحب ص (٢٨ - ٢٩) والرسالة القشيرية.

ويسلبهم الإرادة وسيمر بك الآن شيء من كلام الشيخ عده منكروه من عظائم الأمور لكنه حينما يؤول يزول إشكاله ويسقط عنه حجاب الغموض والاستتكار.

فمن ذلك البيت الذي مر بك في ترجمته آنفا:

يا من يراني مذنبا	ولا أراه آخذا
كما ذا أراه منعما	ولا يراني لائذا

فينبغي أن لا نبادر بالإنكار على أصحاب هذه الحالات بل علينا ان نلتمس لهم الأعذار ما دام كلامهم ممكن التأويل فمن هذا القبيل ما سئل عنه أبو عثمان الخيري النيسابوري رضي الله عنه من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (أعوذ بك منك)([7][١]) فقال: استعمل الصدق في اللفظتين يبلغ فهمك إلى هذه الكلمة وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم (أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك)([8][٢]).

ومن ذلك دعوى أن الشيخ يقول في كتبه (لا موجود إلا الله) والجواب أن معنى ذلك بتقدير صحة القول عنه: أنه لا موجود قائم بنفسه إلا هو تعالى وما سواه قائم بغيره كما أشار إليه بيت لبيد المشهور (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)([9][٣])، ومن كانت حقيقته كذلك فهو إلى العدم أقرب غذ هو وجود مسبوقبعدم وفي حال وجود تردد بين وجود وعدم لا تخلص لأحد الطرفين فإن صح أن الشيخ قال: (لا موجود إلا الله) فإنما قال ذلك عندما تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق تعالى بقلبه كما قال أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : (من شهد الحق تعالى بقلبه لم يهد الخلق) وقد ذكر الشيخ في الباب السابع والخمسين وخمس مائة من الفتوحات المكية بعد كلام طويل ما نصه: وهذا يدللك صريحا على ان العالم ما هو عين الحق تعالى ، إذ لو كان عين الحق تعالى ما صح كون الحق تعالى بديعا.

ومن ذلك

دعوى المنكر أن الشيخ يقول بقبول إيمان فرعون وذلك كذب وافتراء عليه فقد صرح الشيخ في الباب الثاني والستين من الفتوحات: بان فرعون من أهل النار الذين لا

([7]١) أخرجه مسلم (٥٤٢) والنسائي (١٣/٣) والدارقطني (٢٩/٤).

([8]٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٦/١).

([9]٣) البيت للبيد وكل نعيم لا محالة زائل.

يخرجون منها أبد الآبدين والفتوحات آخر مؤلفاته فإنه فرغ منها قبل موته بنحو ثلاث سنين .

قال شيخ الإسلام الخالدي رحمه الله تعالى : والشيخ محي الدين بتقدير صدور ذلك عنه لم ينفرد به بل ذهب جمع كثير من السلف إلى قبول إيمانه لما حى الله عنه أنه قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾([10]١) ، وكان ذلك آخر عهده بالدنيا وقال أبو بكر الباقلاني قبول إيمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال ولم يردنا نص صريح أنه مات على كفره ودليل جمهور السلف والخلف على كفره انه آمن عند اليأس وإيمان أهل اليأس لا يقبل.

ومن ذلك دعوى المنكر أن الشيخ رحمه الله تعالى يقول بجواز إباحة المكث([11]٢) للجنب في المسجد فإن صح ذلك عن الشيخ فهو موافق فيه لمولانا عبدالله بن عباس رضي الله عنه والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وهو مذهب المزني وجماعة من التابعين والفقهاء فقول المنكر إن الشيخ محي الدين خالف في ذلك الشريعة وأقوال الأئمة مردود.

ومن ذلك دعوى المنكر أن الشيخ يقول: الولي أفضل من الرسول والجواب أن الشيخ لم يقل ذلك وإنما قال: اختلف الناس في رسالة النبي وولايته أيهما أفضل والذي أقول به: إن ولايته أفضل لشرف المتعلق ودوامها في الدنيا والآخرة بخلاف الرسالة فإنها تتعلق بالخلق وتنقضي بانقضاء التكليف ووافقه على ذلك عز الدين بن عبدالسلام فإن الكلام في رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ولايته لا في رسالته ونبوته مع ولاية غيره ذلك لأن الولاية نسبة ذاتية بين الله وبين عبده أي أنه اصطنعه لنفسه وأعده مظهرا لأسمائه وصفاته واصطفاه لمعرفته وتولاه بمحبته أما النبوة فهي نسبة إضافية بمعنى أنه سبحانه كلف هذا العبد أن يبلغ دعوته لخلقه فلو فرض عدم المرسل إليهم ما حدث لهذا العبد اسم نبي ولا رسول ولكان يدعي بالولي فالنسبة الأولى أصل لا يمكن انفكاكها والنسبة الثانية فرع عارض ترتفع بارتفاع التكليف عند الانقلاب إليه تعالى فولاية كل نبي بهذا الاعتبار أفضل من نبوته لا أن مطلق الولاية أفضل من النبوة وكيف يذهب السادة الصوفية إلى تفضيل الأولياء

([10]١) سورة يونس الآية (٩٠).

([11]٢) المكث مثلثة الميم : اللبث.

على الأنبياء وفيهم (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم وهم يعتقدون أنه أفضل الأنبياء وأشرف المخلوقات([12]١)، وفي (قوانين الاستشراق)ص (٥٩) أن الشيخ الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى نقل عنه أنه لما سئل : هل يصل الولي إلى رتبة يزول عنه فيها كلفة التكليف؟ فأجاب بقوله: (قلنا يكون الولي أولا يجد كلفة التعب فإذا وصل وجد بالتكليف الراحة والطرب من باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم «أرحنا بها يا بلال»([13]٢) وخلاصة الكلام أن ما نراه في كتب الصوفية من الأمور التي يخالف ظاهرها نصوص الشريعة واحكامها هي إما أن تكون مدسوسة عليهم من قبل الزنادقة والحسدة أعداء الإسلام كما بينا وإما أن تكون قابلة للتأويل كما في كثير من الكلام العربي فمن جملة التأويل الذي لا محيد عنه ما فيه هذه الآية الشريفة : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾([14]٣) فإما أن نستعمل الصفات في معانيها المجازية وإما القول بهلاك ما أثبته الله لذاته من الصفات سوى وجهه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا([15]٤) وكما في تاويل هذا الحديث الشريف : «إن الله خلق آدم على صورته»([16]٥) . فإن عاد الضمير في (صورته) إلى الله وجب التأويل على ما هو معروف من مذهب الخلف وهناك غير هذه الاعتراضات موجودة في مظانها كاليواقيت والجواهر للإمام الشعراني أجوبتها وسيمر معنا الكلام عن هذا امفصلا في باب السنة والبدعة وباب التأويل وإثبات المجاز عند السلف إن شاء الله تعالى ولعمري إن قام المنكرون والمعترضون في وجه هذا العالم الجليل والولي الكامل فأنكروا كلامه وتعرضوا له بالأذى والنكران وضروب التشويش والإزعاج وإثارة الجهلة والمغرضينعليه فقد حدث مثل ذلك للأنبياء والصالحين على مدى الدهور وقد قال الله تعالى ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾([17]٦) وقد نقل الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه (التحدث بالنعمة) ومما أنعم الله به علي أن أقام لي عدوا يؤذيني ويمزق عرض لتكون لي أسوة بالأنبياء والأولياء وقال رسول

([12]١) مجلة الأنصار والصوفية لفضيلة العلامة الشيخ حسن رمضان علامة الفرات وشيخها.

([13]٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) .

([14]٣) سورة القصص الآية (٨٨).

([15]٤) ردود على شبهات السلفية لمحمد نوري الدير ثوي.

([16]٥) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤١).

([17]٦) سورة الفرقان الآية (٢٠).

الله صـلى الله عليـه وآلـه وسـلم «أشـد النـاس بـلاء الأنبيـاء ثـم العلمـاء ثـم الصالحون»([18]١) فلا يخفى مقدار ما تحمله النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المنكرين والكافرين والأقرباء المقربين قال الجلال السيوطي رحمه الله تعالى : (ما كـان كبيـر فـي عصـر إلا كـان لـه عـدو مـن السـفلة) إذ الأشـراف لـم تـزل تبتلـى بـالأطراف فكـان لآدم إبليس ولنـوح حـام ولـداود جـالوت ولسليمان صـخر ولإبـراهيم النمـرود ونسـبوا عبـدالله بـن الزبيـر رضـي الله عنـه إلـى الريـاء والنفـاق فـي صـلاته فصبوا على رأسه ماء حميما فزلع([19]٢) وجهه ورأسه وهو لا يشعر فلما سلم من صلاته قال: ما شأني؟ فذكروا له القصة فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل ومكث زمانا وهو يتألم من رأسه ووجهه وكان لابن عباس رضي الله عنهما نافع الأزرق وكان يؤذيه أشد الأذى ويقول: إنه يفسر القرآن بغير علم وكان لسعد بن أبي وقاص جهلة من جهال الكوفة يؤذونه مع أنه مشهود له بالجنة وأما الأئمة المجتهدون فلا يخفى ما قاساه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه من الضرب والحبس وما قاساه الإمام البخاري حين اخرجوه من بخارى إلى خرتنك ([20]٣)، ونفوا أبا يزيد البسطامي سبع مرات وشيعوا ذا النون المصري من مصر إلى بغداد مقيدا مغلولا وكذلك سمنون وسهل التستري واسعد لخراز والجيند ورويم وابن عطاء وآخرون لقوا عظائم الأمور من المنكرين من الهزء والسخرية والتنكير والإيذاء ومهما يكن فهذه سنة الكون التي لم يسلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها لأننا لو استعرضنا سيرته نجدكم لقي من قومه وأهله المقربين وصحابته أيضا نالهم حظهم من الإيذات والابتلاء ولقد لقي القوم ما لقوا حين نظر الناس في ظاهر عباراتهم ولم يستعينوا بهم على فهم معانيها وإدراك مراميها فلكل قوم لغة ولكل فئة اصطلاح والمتصوفة حين يكتبون إنما يفعلون ذلك تخاطبا فيما بينهم باصطلاحهم حسبما درجوا عليه وهم في هذا كما يكتب منطقي لمنطقي أو عروضي لعروضي فإذا جاء غير المنطقي فربما ضحك حينما يجدهم يسمون الإنسان حيوانا ناطقا ويسمون أحقر الأشياء جوهرا ويشاهد العروضي يستعمل البيت والوتد والإقواء والتكاوس والتواتر

([18]١) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرك (٣/٣٤٣).

([19]٢) زلع: انقشر الجلد عن اللحم.

([20]٣) خرتنك قرية بينها وبين سمرقند ثلاثة فرساخ بها قبر إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري.

فيأخذه العجب من هذه الكلمات ويبقى مدهوشا مستنكرا فهل يستقيم لنا ان نعترض عليهم لأنهم يتفاهمون فيما بينهم بهذه الاصطلاحات التي لا يفهمها غير المختص وفي الجملة فإن هذا الوضع أحوال ومنازل واصطلاحات وتعابير لا تنال بقراءة الأوراق بل بصحبة أهل الأذواق ولابد لمن يريد الفهم من صحبتهم لمعرفة إشاراتهم وإدراك مصطلحاتهم لتتضح له مقاصدهم وتستنير سبلهم مثلما فعل إمامنا حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى .

عقيدة الشيخ محي الدين بن عربي قدس سره:

إن الذين رموا الشيخ الأكبر قدس سره بالحلولية تارة وبالزندقة تارة أخرى لو نظروا بعين الإنصاف في كل ما كتب لخرجوا من ذلك بما لا مجال فيه للشك أن الشيخ من أكابر الموحدين وان عقيدته واضحة لا لبس فيها وأن المعروف من حاله يخالف ما رمي به من عظائم الأمور مما قيل عنه من اتحاد وحلول إن الشيخ وإن كان قد قال شيئا من هذه الأُّول ففي حال سكر وذهول عن الوعي والحالة السوية وسرعان([21]١) ما يتبرأ من ذلك كما سيمر بك إن شاء الله والمعروف من اعتقاده أن الله لا يحل في شيء فهو مباين عن الحوادث بقدمه لكن الذي دفع أولئك إلى م قالوا عن هذا الموحد الجليل والعالم الذ كلمات دست عليه وعلى غيره من العلماء الأعلا فاعتبروا لازم هذه الأقوال حالا مصاحبا لكنهم لو أنصفوا لفرقوا بين حالي الصحو والسرك ، ولقد ثبت من أقوال العارفين إن إحساسهم بشدة القرب من الحظيرة الإلهية يحجبهم عما حولهم تغمرهم انوار الفيوضات مستغرقين في الواردات استغراقا يسلبهم اليقظة والوعي لكن الله جلت قدرته لا يديم عليهم هذا الحال فاستغراقهم في هذه المواجيد ومضات وجيزة يعودون بعدها إلى حالهم الأول ولولا ذلك لما خلفوا لنا مما كتبوا هذه الأسفار الجليلة من الآداب والسلوك والحكم وما كانوا أشدوا الناس بالحجة والبرهان أما أقوالهم تلك فيمكن تأويلها بكل يسر إن كان ثمة تجرد وإنصاف فإذا بها أقوال ليس فيها ما يخالف الشرع أو يستغرب أو يستنكر وفي الجملة فهذه عقيدة الشيخ بين يديك وأمام ناظريك فانظر فيها تشاهد التنزيه من أجلى مظاهره والتوحيد من أنقى معانيه اقرأ قوله في عقيدته الصغرى([22]٢) : تعالى

([21]١) سرعان: مثلثة السين أ ما أسرع ما فعلت كذا.

([22]٢) العقيدة الصغرى والوسطى اسما كتابين للشيخ محي الدين وهما في العقيدة.

الحق ان تحله الحوادث او يحلها) وقال في عقيدته الوسطى : (اعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل في شيء أو يتحد بشيء) وقال في الباب الثامن من الفتوحات (اعلم أنه ليس في أحد شيء من الله ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه) وقال في باب الأسرار (لا يجوز لعارف أن يقول: (أنا الله) ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا وحاشاه إنما يقول: (أنا العبد الذليل في المسير والمقيل) وقال في باب المائة والتاسع والستين (القديم لا يكون قط محلا للحوادث ولا يكون حالا في المحدث وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط ببعض ربط إضافة وحكم لا بط وجود عين بعين فإن الرب لا يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة([23]١) هذه هي أيها القارئ عقيدة الشيخ مع ما مر معنا من اقواله التي اتخذناها شاهدا في باب الشطح والحلول والاتحاد فهي كاشفة عن حقيقة هذا الموحد الجليل ومظهرة أنه رضي الله عنه يتمتع بعقيدة طاهرة هي في أعلى مراتب التنزيه والتوحيد الخالص بعيدا عن التشبه والتعطيل وقد مر بك في ترجمته انه كان متخصصا في علم التوحيد بل إماما من ابرز أعلامه فإن غلبه الوجد في لحظة عابرة عند إحساسه بمقام القرب فسرعان ما يعود إلى وعيه وصفائه ويعود إليه حاله الطبيعي لذلك فالإنصاف والأدب أن نغض الطرف عن هذه الحالات الطارئة إزاء هذا الرسوخ الإيماني في تنزيه واجب الوجود مما يستحيل عليه من صفات الحوادث وأعراضها).

واليك رأي كبار الشيوخ والعلماء في الشيخ محي الدين بن عربي وما دس عليه من كلام.

فقد تناول العالم الجليل الشيخ عبدالوهاب الشعراني رحمه الله ما ورد من الفتوحات المكية للشيخ محي الدين بن عربي قدس سره من أقوال مستغربة لدى من لم يدرك معناها ممن لم يذق حميا القوم ولم تهبط على أفئدتهم الفيوضات وتغمرهم الواردات فعاغلج هذه الأقوال وناقشها بتؤدة العالم المنصف والباحث المطلع والناقد الموضوعي القدير بعيدا عن سطوة الهوى وتحكم العاطفة كما أورد الشيخ آراءهم فيه فأدرى الناس بالمرء معاصروه ممن هم في أحواله فقال: إني طالعت من كلام

([23]١) اليواقيت والجواهر للإمام الشعراني ص (٤).

أهل الكشف ما لا يحصى من ا لرسائل فما رأيت أوسع عبارة من الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى لكني رأيت في كتابه (الفتوحات المكية) مواضع لم أفهمها فذكرتها لينظر فيها علماء الإسلام فلا تظن يا أخي أني ذكرتها لكني أعتقد صحتها فمعاذ الله أن أخالف جمهور المتكلمين (أما التفسير المزعوم والمنسوب إلى ابن عربي فقد وضعه عليه أحد الملاحدة وهو القاشاني الباطني الشهير فقد أقامه على منهج وحدة الوجود القائمة على اعتبار أن كل العالم بظواهره ومظاهره ما هو إلا مجال لوجود الحق أي الله تعالى وقد نسب هذا الكتاب إلى القاشاني المؤرخ حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون وكان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى يقول (لا يخلو كلام الأئمة عن ثلاثة أحوال لأنه إما أن يوافق صريح الكتاب والسنة فهذا يجب اعتقاده جزما وإما أن لا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته فأحسن أحواله الوقف وإما أن يخالف الكتاب والسنة ولا يمكن تأويله فمرفوض مردود لا يصح قبوله وقد أخبرني العارف بالله الشيخ أبو الطاهر المزني الشاذلي رضي الله عنه أن جميع ما في كتب الشيخ محي الدين مما خالف ظاهر الشريعة مدسوس عليه لأنه رجل كامل بإجماع المحققين والكامل لا يصح في حقه شطح عن ظاهر الكتاب والسنة فمن كلامه يعني الشيخ محي الدين بن عربي أن (من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه ولقد كانت عند الشيخ أبي طاهر المغربي نسخة من الفتوحات كان قد قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه فلم أر فيها مما كنت قد توقعت فيه وإن هذا الإمام إن كان قد دُسَّ عليه فقد دس الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل في مرض موته عقائد زائفة ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتنوا بما وجدوه تحت وسادته فهذا هو ابن الفراء يقول في طبقاته نقلا عن أبي بكر المرزوي ومسد وحرب: أنهم رأوا الكثير من المسائل ونسبوها إلى الإمام أحمد بن حنبل ويضيق رجلين صالحين بليا بأصحاب سوء : وهما جعفر الصادق وأحمد بن حنبل أما جعفر الصادق فقد نسبت إليه أقوال كثيرة دونت في فقه بعض الفئات الإسلامية على أنها له وهو منها بري

وأما أحمد بن حنبل فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها([24]١) ، كما قال الإمام ابن حجر في فتاويه الحديثية([25]٢): (إن عقيدة الإمام أحمد بن حنبل موافقه لعقيدة أهل السنة والجماعة وكل ما نسب إليه مما يخالفها كذب وافتراء وبهتان) وكذلك دسوا على مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط كتابا في الرد على أبي حنيفة رضي الله عنه وتكفيره فأعلن الفيروز آبادي براءته من هذا الكتاب وأنه يجب حرقه وكذلك دسوا عليَّ انا([26]٣) في كتابي المسمى بالبحر المورود، وأنا منه بريء : من جملة ما دس على الإمام الشعراني في كتابه الطبقات الكبرى (١٣٥/٢) في ترجمة سيدي علي بن وحيش مالا أطيق كتابته من الفاحشة المنسوبة إلى هذا الرجل الصالح ولابد أن هذا الدس قد حصل بعد وفاة الإمام الشعراني رحمه الله والوضع في هذه الفرية ظاهر وأراد مختلقها أن يحتال لها فيجعلها في حالة قد تنطلي على البسطاء والمغفلين فقال: إن هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة وإننا إزاء هذا القول المختلق وأمثاله يكفينا ردا ما هم عليه من الأحوال السامية والقمامات الشريفة المستنيرة بضوء الكتاب والسنة.

ويتابع الشيخ الشعراني رضي الله عنه عنه فيقول: ولقد قال المجد الفيروز آبادي: والذي أقوله وأتحققه وأدين الله به أن الشيخ محي الدين كان شيخ الطريقة حالا وعلما وإمام التحقيق حقيقة ورسما الخ.

وكان سراج الدين المخزومي شيخ الإسلام بالشام يقول: إياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محي الدين فإن لحوم الأولياء مسمومة وقد أثنى عليه العلماء امثال الشيخ قطب الدين الحموي وممن أثنى عليه الحافظ أبو عبدالله الذهبي والشيخ قطب الدين الشيرازي وكان مؤيد الدين الخجنيدي يقول: ما سمعنا بأحد من أهل الطرق اطلع على ما انطلع عليه الشيخ محي الدين وكذلك كان يقول الشيخ شهاب الدين السهروري والشيخ كمال الدين الكاشي مع أن هؤلاء الأشياخ كانوا من اشد الناس إنكارا على من يخالف ظاهر الشريعة وممن أثنى عليه أيضا الشيخ فخر الدين الرازي وقال كان الشيخ محي الدين وليا عظيما وسئل الإمام محي الدين

([24]١) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني لطه عبدالباقي سرور ص (٨٢).

([25]٢) الفتاوى الحديثية لابن حجر ص (١٤٨).

([26]٣) المقصود هو الشيخ عبدالوهاب الشعراني مؤلف كتاب اليواقيت والجواهر.

النووي عن الشيخ محي الدين بن عربي فقال: تلك أمة قد خلت ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله عز وجل ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم ولا يعجز ([27]١) عن ذلك إلا قليل التوفيق قال في شرح المهذب : (ثم إذا أوَّل فليؤول كلامهم إلى سبعين وجها ولا نقبل تأويلا واحدا) وممن أثنى عليه الشيخ محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي وقد صنف الشيخ سراج الدين المخزومي كتابا في الرد عن الشيخ محي الدين وأما قاضي القضاة المالكي فقد ترك القضاء وتبع طريقة الشيخ وانقطع لخدمته وبالجملة فما أنكر على الشيخ إلا الفقهاء الذين لا حظ لهم في شرب المحققين([28]٢) ونحن إزاء موضوع الدس لابد أن نعلم ان كثيرا من العلوم لم تسلم من آفة الدس والتحريف فلا يخفى أن بعض تفاسير القرآن يكاد ينوء بالاسرائليات وملء الحديث الشريف حين دسوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث جمة لم يقلها وهي الأحاديث المعروفة بـ الموضوعة كأحاديث إسناد الجهة إلى الله تعالى مثل الفوقية وأحاديث التجسيم والتشبيه ونحو ذلك من العقائد الزائفة لكن الله تعالى قيض للرد على هؤلاء علماء مخلصين أزالوا كل شائبة عن هذين العلمين وإن الدس وإن يكن قد نال من هذين العلمين فإن التاريخ الإسلامي أيضا قد سرى إليه هذا الداء قديما كقصص ألف ليلة وليلة وما فيها عن هارون الرشيد رحمه الله تعالى وحديثا ككتابات المستشرقين الحاقدين أمثال فيليب حتي وبركلمان وجرجي زيدان أما جرجي زيدان فقد شوه التاريخ الإسلامي حين صاغه في أسلوب روايات غرامية جردها من دوافعها الإيمانية وكذلك دس على أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه كما فعل الشريف الرضي علي بن الحسين على ما ذكره الذهبي حين قال: (وهو المتهم بوضع نهج البلاغة) ومن طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه عنه ففيه السب الصريح والحط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وفيه التناقض والأشياء الركيكة والعبارات

([27]١) العجز: العف وهو من باب ضرب وسمع.

([28]٢) اليواقيت والجواهر للإمام الشعراني ط (البابي الحلبي ١٩٥٩) ص (٧) وما بعدها.

التي من له معرفة بنفس القرشيين والصحابة وغيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن أكثره باطل(١[29]).

وكذلك دسوا على حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى فها هو الشيخ الشرعاني يقول: ومما دسوا على الغزالي وأشاعه بعضهم عنه أنه قال: (إن لله عبادا لو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها وإن لله عبادا لو سألوه أن يقيم الساعة الآن لأقامها) فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة الإسلام رحمه الله وإن وجد في بعض مؤلفات الإمام فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة وقد رأيت كتابا كاملا مشحونا بالعقائد المخالفة لأهل السنة والجماعة صنفه بعض الملحدين ونسبه إلى الإمام الغزالي فاطلع عليه الشيخ بدر الدين بن جماعة فكتب عليه (كذب والله وافترى من أضاف هذا الكتاب إلى حجة الإسلام)(٢[30]).

ورابعة العدوية رضي الله عنها لم تسلم من التقول عليها فقالوا بأنها قالت عن الكعبة (الصنم المعبود في الأرض) وقد كذب ابن تيمية هذا القول وقال إنه مدسوس عليها لما سألوه عنها فقال: (وأما ما ذكر عن رابعة العدوية من قولها عن البيت إنه الصنم المعبود في الأرض فهو كذب على رابعة العدوية المؤمنة التقية ولو قال هذا من قال لكان كافرا يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون ولكنهم يعبدون رب البيت بالطواف والصلاة إليه)(٣[31]).(٤[32])

وقد سبق أن ذكرنا أن الشيخ الأكبر رضي الله عنه تناول أحواله بالدراسة كثيرون لكن لم يجعل كل أولئك نصب أعينهم أن ينصفوه فلم يلتمسوا له الأعذار فيا أيها القراء الكرام: أما وقد اطلعنا على جانب مهم من جوانب حياة هذا الشيخ الكبير والعالم الجليل والمرشد الرباني الكامل وعلمنا مقدار رسوخه في علم التوحيد ووقوفه عند النصوص التي أجمع عليها جمهور المتكلمين فينبغي أن لا نغدو أسارى دعاوى أضاليل قيلت من غير بهان وثيق او بناء على قناعات سابقة من غير تمحيص شأن المغرضين فعلى القارئ الذي يسعى نحو معرفة حقيقة هذا الحبر

([29]١) ميزان الاعتدال (١٢٤/٣).

([30]٢) لطائف المنن والأخلاق للشيخ الشعراني (١٢٧/١).

([31]٣) مجموعة الرسائل لابن تيمية (٨٠/١) وما بعدها.

([32]٤) من كتاب الصوفية والتصوف للشيخ عدنان حقي حفظه الله ص ١٠٤.

الجليل أن يسلك في دراسته طريقة التحقيق العلمي مع التماس الأعذار كما ورد بذلك الأثر: (التمس لأخيك سبعين عذرا) بعيدا عن دائرة جاذبية العاطفة أو الارتجال وما لم نعتق أنفسنا من تأثيرات الظنون الآثمة والعواطف الآسرة فلن نهتدي إلى سواء السبيل.

وحسبنا في هذا رادعا قول الله جل وعلا ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾([1][33]).

المجاهدة

تمهيد

تعريف المجاهدة: قال الراغب الأصفهاني في كتابه (المفردات في ترغيب القرآن)([2][1]): الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهرة ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾([3][2]) وقوله: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾([4][3]).

ولا شك أن النفس الإنسانية قابلة لتغيير صفاتها الناقصة وتبديل عاداتها المذمومة وإلا لم يكن هناك فائدة من بعثة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولا ضرورة لمن بعده من ورثته العلماء العاملين والمرشدين المصلحين.

وإذا كان كثير من سباع الطيور والبهائم قد امكن ترويضها وتبديل كثير من صفاتها فالإنسان الذي كرمه الله تعالى بالعقل وخلقه في احسن تقويم من باب أولى.

([33][1]) سورة الإسراء الآية (٢٦).

([1][2]) المفردات في غريب القرآن (٢٠٨) مادة جهد.

([2][3]) سورة الحج الآية (٧٨).

([3][4]) سورة التوبة الآية (٤١).

وليس المراد من مجاهدة النفس استئصال صفاتها بل المراد تصعيدها من سيء إلى حسن وتسييرها على مراد الله تعالى وابتغاء مرضاته.

فصفة الغضب مذمومة حين يغضب المرء لنفسه أما إذا غضب لله تعالى فعندها يصبح الغضب ممدوحا كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغضب إذا انتهكت حرمات الله أو عطل حد من حدوده ولكنه حين أوذي في الله وضرب وأدمي عقبه يوم الطائف لم يغضب لنفسه بل دعا لمن آذوه بالهداية والتمس لهم العذر فقال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون([4]١).

وكذلك صفة الكبر فهي مذمومة حين يتكبر المسلم على إخوته المسلمين أما حين يتكبر على المتكبرين الكافرين فتصبح هذه الصفة محمودة لأنها في سبيل الله وضمن حدود شرعه.

وهكذا معظم الصفات المذمومة تحول بالمجاهدة وتصعد إلى صفات ممدوحة.

فمجاهدة النفس فطمها وحملها على خلاف هواها المذموم وإلزامها تطبيق شرع الله تعالى أمرا ونهيا.

الأدلة على مشروعية المجاهدة:

أ- من القرآن الكريم :

قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾([5]٢).

قال العلامة المفسر القرطبي في تفسير هذه الآية (قال السدي وغيره : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال) وهذا يدل على أن المراد بالجهاد هنا هو جهاد النفس كما قال العلامة المفسر ابن جزي في تفسيرها: يعني جهاد النفس .

ب- من السنة الشريفة:

عن فضالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «المجاهد من جاهد نفسه في الله»([6]٣).

وفي رواية «في طاعة الله»([7]٤).

([4]١) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢) وأحمد (٣٨٠/١ – ٤٢٧) والطبارني (٥٦٩٤) وابن حبان (٩٧٣) والفسوي في تاريخه (٣٣٨/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/٦).

([5]٢) سورة العنكبوت الاية (٦٩).

([6]٣) أخرجه الترمذي (١٦٢١) وقال حديث حسن صحيح وأحمد (٢٠٦) والطبراني في الكبير (٧٩٧/١٨) وابن حبان (٤٧٠٦).

([7]٤) أخرجه أحمد (٢١/٦) والحاكم (١٠/١ -١١) وصححه ووافقه الذهبي.

حكم المجاهدة :

تزكية النفس فرض عين ولا تتم إلا بالمجاهدة ومن هنا كانت المجاهدة فرض عين أيضا من باب: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

قال الشيخ عبدالغني النابلسي رحمه الله : المجاهدة في النفس عبادة ولا تحصل لأحد إلا بالعلم وهي فرض عين على كل مكلف([8]١).

طريقة المجاهدة:

وأول مرحلة في المجاهدة عدم رضى المرء عن نفسه وإيمانه بوصفها الذي أخبر عنه خالقها ومبدعها ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾([9]٢) وعلمه ان النفس اكبر قاطع عن الله تعالى([10]٣) كما أنها أعظم موصل إليه وذلك ان النفس حينما تكون أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات ولكنها بعد مجاهدتها وتزكيتها تصبح راضية مرضية لا تسر إلا بالطاعات والموافقات والاستئناس بالله تعالى.

وإذا اكتشف المسلم عيوب نفسه وصدق في طلب تهذيبها لم يعد عنده متسع في الوقت للانشغال بعيوب الناس وإضاعة العمر في تعداد اخطائهم وإذا رأيت أحدا من الناس قد صرف وقته في إحصاء أخطاء الآخرين غافلا عن عيوب نفسه فاعلم أنه جاهل ممكور به قال ابو مدين:

ولا تر العيب إلا فيك معتقدا	عيبا بدا بينا لكنه استترا

وقال بعضهم :

لا تلم المرء على فعله	وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا قد أتى مثله	فإنما دل على جهله

ولذا قالوا: لا ترعيب غيرك ما دام فيك عيب والعبد لا يخلو من عيب أبدا .

([8]١) شرح الطريقة المحمدية (٣٢٣/١).

([9]٢) سورة يوسف الآية (٥٣).

([10]٣) والقواطع عن الله تعالى أربعة: النفس والدنيا والشيطان والخلق أما عداوة النفس والشيطان فظاهرة وأما الخلق فملاحظة مدحهم وذمهم تعرقل سير السالك إلى ربه وأما الدنيا فالاهتمام بها وانشغال القلب بتقلباتها قاطع كبير عن الله تعلى ففي حالة الفقر تكثر هموم المرء فتشغله عن الله وفي حال الغنى ينشغل بزينتها وزخرفها عن الله تعالى ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ اما اذا أخرج حبها من قلبه فإنها لا تضره كما قال شيخ الصوفية سيدي عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى : أخرج الدينا من قلبك وضعها في جيبك أو في يدك فإنها لا تضرك.

فإذا عرف المسلم ذلك أقبل على نفسه بفطمها عن شهواتها المنحرفة وعاداتها الناقصة ويلزمها بتطبيق الطاعات والقربات.

ويتدرج في المجاهدة على حسب سيره فهو في بادىء الأمر يتخلى عن المعاصي التي تتعلق بجوارحه السبعة وهي:

اللسان والأذنان والعينان واليدان والرجلان والبطن والفرج([11]١) ثم يحلي هذه الجوارح الجوارح السبعة بالطاعات المناسبة لكل منها([12]٢) فهذه الجوارح السبعة منافذ على القلب إما أن تصب عليه ظلمات المعاصي فتكدره وتمرضه وإما أن تدخل عليه أنوار الطاعات فتشفيه وتنوره.

ثم ينتقل في المجاهدة إلى الصفات فيبدل صفاته الناقصة كالكبر والرياء والغضب... بصفات كاملة كالتواضع والإخلاص والحلم.

وبما أن طريق المجاهدة وعر المسالك متشعب الجوانب يصعب على السالك ان يلجه منفردا كان من المفيد عمليا صحبة مرشد خبير بعيوب النفس عالم بطرق معالجتها ومجاهدتها يستمد المزيد من صحبته خبرة عملية بأساليب تزكية نفسه كما يكتسب من روحانيته نفحات قدسية تدفع المريد لى تكميل نفسه وشخصيته وترفعه فوق مستوى النقائص والمنكرات فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المرشد الأول والمزكي الأعظم الذي ربى أصحابه الكرام وزكى نفوسهم بقاله وحاله كما وصفه الله تعالى بقوله ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾([13]٣).

([11]١) لكل جارحة من الجوارح السبعة معاص تتعلق بها: فمن معاصي اللسان: الغيبة والنميمة والكذب والفحش ومن معاصي الأذنين: سماع الغيبة والنميمة والأغاني الفاحشة ومن معاصي العينين : النظر للنساء الأجنبيات وعورات الرجال ومن معاصي اليدين : إيإذا المسلمين وقتلهم واخذ اموالهم بالباطل ومصافحة النساء الأجنبيات ومن معاصي الرجلين: المشي إلى محلات المنكرات والفجور . ومن معاصي البطن: أكل المال الحرام وأكل لحم الخنزير وشرب الخمور ومن معاصي الفرج: الزنا واللواط..

([12]٢) فمن طاعات اللسان: قراءة القرآن الكريم وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ومن طاعات الأذنين سماع القرآن الكريم والأحاديث النبوية والنصائح والمواعظ ومن طاعات العينين النظر إلى وجوه العلماء والصالحين والنظر إلى الكعبة المشرفة والنظر التأملي لآيات الله في الكون ومن طاعات اليدين مصافحة المؤمنين وإعطاء الصدقات ومن طاعات الرجلين المشي إلى المساجد والى مجالس العلم وعيادة المريض والإصلاح بين الناس ومن طاعات البطن: تناول الطعام الحلال بنية التقوي على طاعة الله تعالى ومن طاعات الفرج النكاح المشروع بغية الإحصان وتكثير النسل.

([13]٣) سورة الجمعة الآية (٢). ومن هنا نجد أن التزكية شيء وتعليم الكتاب والحكمة شيء آخر لذا قال تعالى ﴿ ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ففرق كبير بين علم التزكية وحالة التزكية كما يلاحظ الفرق الواضح بين علم الصحة وحالة الصحة إذ قد يكون الطبيب الماهر الذي عنده علم الصحة فاقدا حالة الصحة ومصابا بالأمراض والعلل الكثيرة وكذلك الفرق ظاهر بين علم الزهد وحالة الزهد

والذي يحقق النفع للمريد هو استقامته على صحبة مرشده واستسلامه له كاستسلام المريض للطبيب فإذا ما أدخل الشيطان على قلب المريد داء الغرور والاكتفاء الذاتي فأعجب بنفسه واستغنى عن ملازمة شيخه باء بالفشل ووقف وهو يظن انه سائر وقطع وهو يظن أنه موصول([14]١).

صور من مجاهدة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام:

١- عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض)([15]٢).

٢- وعنها رضي الله عنها قالت : (كان فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أُدمٍ([16]٣) وحشوه ليف)([17]٤).

٣- وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما فوجدته جالسا مع أصحابه وقد عصب بطنه من الجوع فذهبت إلى أبي طلحة وهو زوج أم سليم بنت ملحان فقلت : يا أبتاه قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عصب بطنه بعصابة فسألت بعض أصحابه فقالوا: من الجوع فدخل أبو طلحة على أمي فقال: هل من شيء؟ قالت نعم عندي كسر من خبز وتمرات فإن جاءنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشبعناه وإن جاء آخر معه قل عنهم وذكر تمام الحديث)([18]٥).

٤- وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لقد رأيتني وإني لأخرُّ فيما بين منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مغشيا علي فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون([19]٦) وما بي من جنون ما بي إلا الجوع([20]٧) .

كالمسلم الذي عنده علم واسع بالآيات والأحاديث والشواهد المتعلقة بالزهد ولكنه يفقد حالة الزهد ويتصف بالطمع والشره والتكالب على الدنيا الفانية.

([14]١) حقائق عن التصوف ص (١١٥- ١١٩).

([15]٢) أخرجه البخاري (٤٧٨/٩) ومسلم (٢٩٧٠).

([16]٣) أي جلد.

([17]٤) أخرجه البخاري (٥/١١).

([18]٥) أخرجه البخاري (٤٢٩/٦ - ٤٣٢) ومسلم (٢٠٤٠).

([19]٦) أي وتلك عادقم بالمجنون حتى يفيق.

([20]٧) أخرجه البخاري (٧٣٢٤) والترمذي (٢٣٦٧).

٥- وعن سيدنا فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة([21]١) وهم اصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف إليه فقال: (لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزداوا فاقة وحاجة)([22]٢).

٦- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما فيهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)([23]٣).

٧- وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير([24]٤) .

٨- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ما يجد من الدقل([25]٥) ما يملأ بطنه([26]٦).

من أقوال العارفين بالله في اهمية المجاهدة

١- قال الإمام البركوي رحمه الله تعالى: المجاهدة: وهي فطم النفس وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات فهي بضاعة العباد ورأس مال الزهاد ومدار صلاح النفوس وتذليلها وملاك تقوية الأرواح وتصفيتها ووصلوها إلى حضرة ذي الجلال والإكرام فعليك أيها السالك بالتشمير في منع النفس عن الهوى وحملها على المجاهدة إن شئت من الله الهدى قال الله تعالى ﴿والذين جاهدوا

([21]١) الخصاصة: الفاقة والجوع الشديد.

([22]٢) أخرجه الترمذي (٢٣٦٨) وقال حديث حسن صحيح وصححه ابن حبان (٧٢٤) واحمد (١٨/٦) والطبراني في الكبير (١٨ برقم ٧٩٨) وأبو نعيم (١٧/٢).

([23]٣) اخرجه البخاري (٤٤٧/١).

([24]٤) أخرجه البخاري (٤٧٨/٩).

([25]٥) الدقل: تمر رديء.

([26]٦) أخرجه مسلم (٢٩٧٨) والترمذي (٢٣٧٣).

فينا لنهدينهم سبلنا﴾([27]١) وقال أيضا ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾([28]٢).

٢- وقال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى : من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة وقال الله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وعلم أنه من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة([29]٣).

٣- وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى : (من ظن أنه يفتح له بهذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها لا بلزوم المجاهدة فهو في غلط).

٤- وقال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : سمعت السري السقطي يقول: يا معشر الشباب جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت. وكان في ذلك الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة.

٥- وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى : لابد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق وهي مظهر ومجلاة للنهايات فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته فمن رأيناه جادا في طلب الحق باذلا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه وإذا رأيناه مقصرا علمنا قصوره عما هنالك([30]٤).

٦- وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى في تعليقاته على الرسالة القشيرية : إن نجاة النفس أن يخالف العبد هواها ويحملها على ما طلب منها ربها.

رد الشبهات حول المجاهدة:

إن قال قائل: إن رجال التصوف يحرمون ما أحل الله من أنواع اللذائذ والمتع وقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾([31]٥).

([27]١) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

([28]٢) سورة العنكبوت الآية (٦).

([29]٣) الرسالة القشيرية ص (٤٨ - ٥٠).

([30]٤) إيقاظ الهمم (٢/٣٧٠).

([31]٥) سورة الأعراف الآية (٣٢).

وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ فنقول: إن رجال التصوف لم يجعلوا الحلال حراما إذ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرض عين وان للنفس أخلاقا سيئة وتعلقات شهوانية توصل صاحبها إلى الردى وتعيقه عن الترقي في مدارج الكمال وجدوا لزاما عليهم ان يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى.

وبهذا المعنى يقول الصوفي الكبير الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى الله ردا على هذه الشبهة وجوابا لمن احتج بالآية الكريمة ﴿ قل من حرم زينة الله ..﴾ فهذا الاحتجاج تعنيف ومن القول تحريف لأنا لم نرد بهذا التحريم ولكنا أردنا تأديب النفس حتى تأخذ الأدب وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك ألا ترى إلى قوله جل وعلا ﴿ إنما حرم ربي الواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ﴾([32]١) فالبغي في الشيء الحلال حرام والفخر حرام والمباهاة حرام والرياء حرام والسرف حرام فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها حتى فسد القلب فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق تريد بذلك تغنيا او مباهاة أو رياء علمت أنها خلطت حراما بحلال فضيعت الشكر وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر فلما رأيت سوء أدبها منعتها حتى إذا ذلت وانقمعت ورآني ربي مجاهدا في ذاته حق جهاده هداني سبيله كما وعد الله تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾([33]٢) فصرت عنده بالمجاهدة محسنا فكان الله معي ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل وقذف في القلب نورا عاجلا في دار الدنيا حتى يوصله إلى ثواب الآجل وتجافى عن دار الغرور بما قذف في قلبه من النور فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخداعها وخرابها فغاب عن قلبه البغي والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء والحسد لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيم الدنيا وحلاوتها في قلبه وحبه لها وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس بمنع الشهوات منها([34]٣). وقد تسرع بعض الناس فزعموا جهلا أن

([32]١) سورة الأعراف الآية (٣٣).

([33]٢) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

([34]٣) كتاب الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذي ص (١٢٤).

التصوف في مجاهداته ينحدر من أصل بوذي أو براهيمي ويلتقي مع الانحرافات الدينية في النصرانية وغيرها التي تعتبر تعذيب الجسد طريقا إلى إشراق الروح وانطلاقها ومنهم من جعل التصوف امتدادا لنزعة الرهبنة التي ظهرت في ثلاثة رهط سألو عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر وقال الثاني: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام وقال الثالث: أما أنا فاعتزل النساء ولا أتزوج ولما عرض أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحح لهم أفكارهم وردهم إلى الصراط المستقيم والنهج القويم([35]١).

والجواب على ذلك أن التصوف لم يكن في يوم من الأيام شرعة مستقلة ولا دينا جديدا ولكنه تطبيق عملي لدين الله تعالى واقتداء كامل برسوله عليه الصلاة والسلام وإنما سرت الشبهة على هؤلاء المتسرعين لأنهم وجدوا في التصوف اهتماما بتزكية النفس وتربيتها وتصعيدها ومجاهدتها على أسس شرعية ضمن نطاق الدين الحنيف فقاسوا تلك الانحرافات الدينية على التصوف قياسا أعمى دون تمحيص أو تمييز غائبين عن مواقف المجاهدة العظيمة التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام مما لو سمع به أحد هؤلاء المنكرين ولم يعلم أنه موقف لرسول الله لاتهم صاحبه بأنه متنطع بالعبادة وأنه يشاد الدين ويحرم على نفسه ما أحل الله لها ولكنه ثمة فرق كبير بين المجاهدة المشروعة المقيدة بدين الله تعالى وبين المغالاة والانحراف وتحريم الحلال وتعذيب الجسد كما عليه البوذيون الكافرون.

ومن الظلم والبهتان أن يحكم على كل من جاهد نفسه وزكاها أنه ينحدر من أصل بوذي أو براهيمي كما يزعم المستشرقون ومن خدع بهم أو أنه يقتدي بهؤلاء الرهط الذين تقالوا عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يقوله المتسرعون السطحيون مع أن رسول الله صحح لهم خطأهم فرجعوا إلى هديه وسننه.

وإذا وجد في تاريخ التصوف من حرم الحلال أو قام بتعذيب الجسد على غرار الانحرافات الدينية السابقة فهو مبتدع ومبتعد عن طريق التصوف لذا ينبغي التفريق

([35]١) أخرجه البخاري (٤٧٧٦) ومسلم (١٤٠١).

بين التصوف والصوفي فليس بانحرافه ممثلا للتصوف كما أن المسلم بانحرافه لا يمثل الإسلام.

والمعترضون لم يفرقوا بين الصوفي والتصوف وبين المسلم والإسلام فجعلوا تلازما بينهما فوقعوا في الكاملين قياسا على المنحرفين.

وبعد فإن منتهى آمال السالكين ترقية نفوسهم فإن ظفروا بها وصلوا إلى مطلوبهم والنفس تترقى بالمجاهدة والرياضة من كونها أمارة إلى كونها لوامة وملهمة وراضية ومرضية ومطمئنة ... الخ فالمجاهدة ضرورية للسالك في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى ولا تنتهي إلا بالوصول إلى درجة العصمة وهذه لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام([36]١) فالأولياء يصلون لدرجة الحفظ والأنبياء لدرجة العصمة.

إذا فالمجاهدة أصل من أصول طريق الصوفية وقد قالوا: (من حقق الأصول نال الوصول ومن ترك الأصول حرم الوصول).

الطريقة والحقيقة

معنى الطريقة والحقيقة

الشريعة اسم لمجموع الأحكام التكليفية وهي تحيط بالأعمال الظاهرة والباطنة جميعا وكانوا يرون الفقه مرادفا لها لدى المتقدمين كما أثر عن الإمام أبي حنيفة في التعريف بالفقه (معرفة النفس ما لها وما عليها) ثم جاء المتأخرون فأصبح في مصطلحهم العنصر من الشريعة الذي يخص الأعمال الظاهرة فقها وأما ما يخص الأعمال الباطنة من شعب الشريعة فصار تصوفا([1]٢).

إنه يقال لطرق هذه الأعمال الباطنة طريقة ثم ما يتولد من الصفاء والانجلاء في القلب لصلاح هذه الأعمال الباطنة يتكشف به للقلب بعض الحقائق الكونية المتعلقة بالأعيان والأعراض وعلى الأخص الأعمال الحسنة والحقائق الإلهية من

([36]١) حقائق عن التصوف ص (١٢٤ – ١٢٧).

([1]٢) لكن هذين المصطلحين ليسا متخالفين ولا متضادين بل إن التالي تكميل للأول.

صفاتية وذاتية وعلى الأخص المعاملة التي بين الله وبين العبد ويقال لهذه المكشوفات حقيقة ويسمى الانكشاف معرفة ويدعى صاحب الانكشاف محققا وعارفا.

فجميع هذه الأمور تبع للشريعة وأما ما شاع عند العامة من أن الشريعة إنما تدعى بها الأعمال الظاهرة والحقيقة تختص بالأعمال الباطنة فليس بمأثور عن أي رجل عالم وليس مفهومه عند العامة بسديد كذلك إذ هو اعتقاد لتضاد الظاهر والباطن([2]١).

من أقوال العلماء والعارفين في معنى الطريقة والحقيقة

١- الإمام الرفاعي قدس الله سره: قال رضي الله عنه في البرهان المؤيد: الطريقة الشريعة والشريعة الطريقة والفرق بينهما لفظي والمادة والمعنى والنتيجة واحدة.

٢- الإمام الرواس قدس الله سره: قال رضي الله عنه في قصيدة له مبينا أحكام الطريقة وآدابها وأنها مستمدة من الكتاب والسنة:

طريقتنا تنجي الفؤاد من الغوى	وتحفظه من زيغه وتسلم
طريقتنا حال النبي وطوره	وعن سره للعارفين تترجم
طريقتنا صدق وزهد ورأفة	وذل إلى المولى ونهج مقوم
طريقتنا أن لا يرى المرء نفسه	وفيها أخير القوم فهو المقدم
طريقتناأن تصلح العبد صحبة	فنحن سكوت والهوى يتكلم
طريقتنا أن يجعل الشرع سلما	أجل وبه السلاك ترقى وتعظم
طريقتنا قلب سليم ونية	مطهرة أنف المآمل ترغم
طريقتنا أن لا نرى الغير فاعلا	سوى أنه الرحمن يعطي ويحرم
طريقتنا حب النبي وآله	وأصحابه والذكر للخير عنهم
طريقتنا ذوق وشوق وعِبرة	وعَبرة عين دمعها كله دم
طريقتنا جد وجهد ولوعة	وخلوة صدق خالص وتكتم
طريقتنا أن لا نرى الشق للعصا	فإن موالاة الجماعة ألزم
طريقتنا ود لكل موحد	وأن نسدي إحسانا لمن هو مسلم

([2]١) بين التصوف والحياة ص (٢٢١- ٢٢٢).

طريقتنا بالآدميين رحمة	كما أمر الهادي الرسول المكرم
طريقتنا ان نشهد الخلق كلهم	بخير وان نزوي الأذية عنهم
طريقتنا محو الرياء وطرحه	وحفظ نظام الصدق إذ نتكلم
طريقتنا صون الجوارح كلها	فإن سؤال الحشر بالصون ملزم
طريقتنا أن نجذب القلب دائما	إلى الله بل في ذكره نترنم
طريقتنا دوم الهيام تولها	وهل مرتضى المحبوب إلا المهيم
طريقتنا وجه مع الناس حاضر	وقلب بذكر الله لا يتلعثم
طريقتنا إعظام شأن محمد	كما هوفهو الهاشمي المعظم
طريقتنا نهج الرفاعي أحمد	فمنهاجه من جملة القوم اقوم
طريقتنا أن نملأ العين دمعة	إذ الناس في فرش البطالة نوَّم
طريقتنا أن نبدي في الله شدة	ونبغض فيه من به الزيغ يرسم
طريقتنا نصر المحق وغوثه	وإذلال من للناس يؤذي ويظلم
طريقتنا إكرام شيخ لسنه	ورحمة طفل إنما الطفل يرحم
طريقتنا الإيثار والبذل دائما	بلا ريبة والله أغنى وأكرم
طريقتنا هجر الكذوب وتركه	وحب صدوق هكذا القوم ألزموا
طريقتنا غسل الفؤاد من الهوى	ومن بعده وفقا له نتوسم
طريقتنا رد الفراسة للذي	به الشرع يقضي في الأمور ويبرم
طريقتنا إن جاء بالصدق وارد	نحكمه في أمرنا ونسلم
طريقتنا التحكيم للنص بالذي	به في الإشارات الغوامض نلهم
طريقتنا إعزاز من شاد سنة	بها ركن زيغ في البرية يهدم
طريقتنا أن لا نقول بوحدة	ولا بحلول والمصيبة أعظم
طريقتنا أن نحفظ الشرع ظاهرا	وهذا هو السر الخفي المطلسم
طريقتنا رد الشطوحات كلها	إذا لم يكن منها المؤول يفهم
طريقتنا أن يأخذ القلب عبرة	ولو من هبوب الريح إذ يتنسم
طريقتنا أن نتبع النص خضعا	وإن جاء طيشا غيره لا نسلم
طريقتنا أن البدايات كلها	بتصريف أمر الله تبدو وتختم

هذه طريقتنا التي سقنا القلوب اليها وعولنا في المسير إلى الله عليها وهي طريق المتمسكين بسنة سيد المرسلين(١[3]).

٣- الإمام ابن عابدين: قال رحمه الله تعالى : (الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل والترقي في المقامات) وقال في الصفحة التي تليها (فالحقيقة هي مشاهد الربوبية بالقلب ويقال: هي سر معنوي لا حدَّ له ولا جهة والطريقة والشريعة متلازمة لأن الطريق إلى الله تعالى لها ظاهر وباطن فظاهرها الشريعة والطريقة وباطنها الحقيقة فبطون الحقيقة هي الشريعة والطريقة كبطون الزبد في لبنه ولا يظفر من اللبن بزبده بدون خضه والمراد من الثلاثة (الشريعة والطريقة والحقيقة) إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد(٢[4]).

٤- صاحب كشف الظنون: قال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف(ويقال: علم التصوف علم الحقيقة أيضا وهو علم الطريقة أي تزكية النفس عن الأخلاق الردية وتصفية القلب عن الأغراض الدنية وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل علم الشريعة وما يتعلق بإصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج وعلم الطريقة بإصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل وعقبات الطريق فكما أن مجرد علم اللوازم ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان في الحج المعنوي بدون العمل بموجبيهما(٣[5]).

٥- الشيخ عبدالله اليافعي : قال رحمه الله تعالى : (إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة فمن سلك الطريق وصل إلى الحقيقة

([3]١) رفرف العناية ص (١٣٥ - ١٣٨).

([4]٢) حاشية ابن عابدين (٣٠٣/٣).

([5]٣) كشف الظنون (٤١٣/١).

فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ونهاية الشيء غير مخالفة له فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة)([6]١).

٦- الحافظ محمد صديق الغماري: قال رحمه الله تعالى : (أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدما بينها واحدا واحدا دينا بقوله (فإنه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم)([7]٢) وهو الإسلام والإيمان والإحسان فالإسلام طاعة وعبادة والإيمان نور وعقيدة والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..) ثم قال رحمه الله تعالى (فإنه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بهذا المقام (الإحسان) الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركنا من أركانه فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان)([8]٣).

٧- الشيخ محمد متولي الشعراوي: قال رحمه الله تعالى (كل إنسان وصل إلى الله بطريق من الطرق أو صيغة من الصيغ يعتقد أن الطريق الذي سلكه إلى الله هو أقصر الطرق ولذلك اختلف الناس لأن وسائل عبادة الله متعددة فإذا دخل إنسان من باب وطريق وأحس أنه نقله وأوصله بادر إلى نقله لمن يحب).

ومن هنا فإن معنى أن هناك طرقا صوفية هو أن أناسا وصلوا إلى الصفاء من الله سبحانه وتعالى وجاءتهم الإشراقات والعلاقات التي تدل على ذلك في ذواتهم فعلموا ان الطريق الذي سلكوا فيه إلى الله صحيح وكلما زادوا في العبادة زاد الله في العطاء([9]٤) وبعد هذا نرى من يتحامل على السادة الصوفية ويتهمهم زورا وبهتانا بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ويهملون جانب الشريعة فهذا كله افتراء باطل ويشهد على بطلانه كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في فتاويه حيث قال متحدثا عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة : (فاما المستقيمون من السالكين كجمهور

([6]١) نشر المحاسن الغالية (١/١٥٤).

([7]٢) جزء من حديث اخرجه مسلم (٨) وأبو داود (٢٦١٣) والترمذي (٤٦٩٥) والنسائي (٨/٩٧).

([8]٣) الانتصار لطريق الصوفية ص (٦).

([9]٤) أصول الوصول ص ٣٣٧ ، ٣٣٨٧.

مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن ادهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والسري السقطي والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين فهؤلاء لا يسوغون للسالك لو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم)([10]١).

وفيما يلي نورد بعض أقوال السادة الصوفية التي تدل على تمسكهم بالكتاب والسنة تذكير وزيادة على ما أوردناه في باب التصوف من هذه الموسوعة.

١- قال الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : (مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة).

وقال أيضا : (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واتبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه([11]٢). وذكر رجل عنده المعرفة فقال: (أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات (الأعمال) من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل) فقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال الصالحة التكليفية وهو عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى واليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها([12]٣).

٢- قال الشيخ سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى : (أصولنا سبعة أشياء التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأكل الحلال وكف الأذى واجتناب الآثام والتوبة وأداء الحقوق)([13]٤).

([10]١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥١٦/١٠ - ٥١٧).

([11]٢) طبقات الصوفية للسلمي ص (١٥٩).

([12]٣) الرسالة القشيرية ص ٢٢.

([13]٤) طبقات الصوفية للسملي ص ٢١٠.

٣- وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى : (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة طِر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال أيضا: (ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية ولا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال)([١][14]).

٤- وقال الشيخ عبدالوهاب الشعراني رحمه الله تعالى : (إن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون)([٢][15]).

٥- وقال ابو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : (إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في الكشف والإلهام)([٣][16]).

٦- وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : (كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل)([٤][17]).

٧- وقال ابو الحسن الوراق رحمه الله تعالى : (لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم في شرائعه ومن جعل الطرق إلى الوصول من غير الاقتداء يضل من حيث ظن انه مهتد)([٥][18]).

٨- وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة)([٦][19]).

([14]١) الفتح الرباني ص (٢٩).

([15]٢) لطائف المنن والأخلاق (٢/١).

([16]٣) إيقاظ الهمم (٣٠٢/٢ - ٣٠٣).

([17]٤) الرسالة القشيرية ص ٢٧.

([18]٥) طبقات الصوفية ص ٣٠٠.

([19]٦) الرسالة القشيرية ص ١٦.

وقال رحمه الله تعالى في الصوفي: (هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة وبالأخرى إلى النار ويأتزر بالدنيا ويرتدي بالآخرة ويلبي من بينهما للمولى : لبيك اللهم لبيك)([20]١).

٩- وقال الشيخ إبراهيم بن محمد النصر أباذي رحمه الله تعالى : (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم الأخلاق الجميلة والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب ارخص والتأويلات وما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء)([21]٢).

١٠-وقال الشيخ احمد زروق رحمه الله تعالى : في قواعده (وكل شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله ، وإن صح في نفسه وظهر عليه ألف ألف كرامة من أمره)([22]٣).

وقال ايضا : (لا تصوف إلا بفقه إذ لا تعرف احكام الله الظاهرة إلا منه ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى ولا هما (التصوف والفقه) إلا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما دونه فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأجسام للأرواح ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة إلا بها فافهم)([23]٤).

ولقد جمع علماء الشريعة الإسلامية من الفقهاء والمحدثين بين الشريعة والطريقة والحقيقة مقتفين بذلك أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد ذكر صاحب الدر المختار: أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: (أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر آباذي وقال أبو القاسم : أنا أخذتها من الشبلي وهو من السري السقطي وهو من معروف الكرخي وهو من داود الطائي وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه وكل منهم اثنى عليه وأقر بفضله...) ثم قال صاحب الدر معلقا: (فيا عجبا لك يا أخي! ألم تكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب

([20]١) شطحات الصوفية ص ٩٦.

([21]٢) طبقات الصوفية ص ٤٨٨.

([22]٣) قواعد التصوف للشيخ احمد زروق ص ٧٦.

([23]٤) قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق قاعدة (٣) ص ٣.

الشريعة والحقيقة؟ ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع)([24]١).

وقال ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته معلقا على كلام صاحب الدر السابق في حديثه عن ابي حنيفة رحمه الله تعالى : (هو فارس هذا الميدان فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس وقد وصفه بذلك عامة السلف فقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في حقه: إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه احد ولقد ضرب بالسياط ليلي القضاء فلم يفعل.

وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى : ليس احد احق أن يقتدى به من أبي حنيفة لأنه كان إماما تقيا نقيا ورعا عالما فقيها كشف العلم كشفا لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى: وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة : لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض([25]٢).

فإن قيل: لو كان التصوف امرا مشروعا لوضع فيه الأئمة المجتهدون كتبا!!

وفي الجواب على ذلك يقول الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : (إنما لم يضع المجتهدون في ذلك كتابا لقلة الأمراض في أهل عصرهم وكثرة سلامتهم من الرياء والنفاق ثم بتقدير عدم سلامة أهل عصرهم من ذلك فكان ذلك في بعض أناس قليلين لا يكاد يظهر لهم عيب وكان معظم همة المجتهدين إذ ذاك إنما هي في جمع الأدلة المنتشرة في المدائن والثغور مع أئمة التابعين وتابعيهم التي هي مادة كل علم وبها تعرف موازين جميع الأحكام فكان ذلك اهم من الاشتغال بمناقشة بعض أناس في أعمالهم القلبية التي لا يظهر بها شعار الدين).

ولا يقول عاقل قط: إن مثل الإمام أبي حنيفة أو مالك او الشافعي أو احمد رضي الله عنهم يعلم أحدهم من نفسه رياء أو حسدا أو نفاقا ثم لا يجاهد نفسه ولا يناقشها أبدا ولولا أنهم يعلمون سلامتهم من تلك الآفات والأمراض لقدَّموا الاشتغال بعلاجها على كل علم([26]٣).

([24]١) الدر المختار (٤٣/١).

([25]٢) حاشية ابن عابدين (٤٣/١).

([26]٣) لطائف المنن والأخلاق (٢٥/١ – ٢٦).

حكمة تعدد الطرق

والتعدد والاختلاف في الطرق الشرعية ليس اختلافا في الحقيقة والهدف وإنما الاختلاف هو في الوسيلة والأساليب والمناهج ليس إلا فالطرق الصوفية الشرعية على تعددها سبل تعددت إلى الله لتلائم حاجات كل سالك إليه فيجد فيها كل مريد ما يناسب طاقته ووقته ومزاجه وبيئته قطعا لأعذار القاعدين عن الهجرة إلى الله عز وجل فليس كل الناس سواء في الطاقة والمزاج ولنتأمل بإمعان قوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾([27]١) إذن فهناك سبل شتى توصل إليه تعالى كما قال عز وجل: ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾([28]٢) وهذه السبل المتعددة القويمة تمضي متوازية متحاذية في اتجاه واحد فكأنها طريق واحد ولذلك جاء في أكثر من آية بلفظ المفرد نحو (سبيلي أو سبيله او سبيل ربك) لاتحاد البداية والنهاية فهي مجتمعة ضمن صراط الله المستقيم الواحد المتبع وذلك ان الطرق الشرعية جميعا تبدأ بالتوبة وتنتهي بالمعرفة فإذا تصورنا (دائرة ذات مركز) كانت لكل الطرق الشرعية خطوطا داخلية تصل ما بين محيط الدائرة ونقطة المركز وكيفما كان اتجاه نقطة البداية فلا خلاف في النهاية ولا في الأصول العامة ولكن في الفروع وكيفية الوصول.

ولهذا يندفع الاعتراض بقوله تعالى ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾([29]٣) فالمنهي عنه هو سبل الشيطان وأما سبل الرحمن فلله ذكرها كما قدمنا ووعد المجاهدين فيه بهدايتهم اليها قال تعالى ﴿ لنهدينهم سبلنا﴾([30]٤) وسماها تعالى ﴿ سبل السلام ﴾([31]٥) واعتز بها الأنبياء فقالوا: ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾([32]٦) فكلها متوازية متحاذية وكلها شرائح يتكون فيها (سبيله) تعالى فهي وإن تعددت سبيل واحدة للاتحاد في البداية والنهاية والنية

([27]١) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

([28]٢) سورة المائدة الآية (١٦).

([29]٣) سورة الأنعام الآية (١٥٣).

([30]٤) سورة العنكبوت الآية (٦٩).

([31]٥) سورة المائدة الآية (١٦).

([32]٦) سورة إبراهيم الآية (١٢).

والهدف الأعظم أن الحق واحد لا يتعدد ولكن السبل تتعدد في إدراكه أو الوصول إليه شأن الناظرين إلى الشمس والقمر في كافة اقطار الدنيا تختلف موقع الطالب ويتعدد ولا يختلف المطلوب المحدد فعند الانتقال من مكان لآخر قريبا كان أو بعيدا يستطيع المرء أن يتخذ أية وسيلة نقل شاء ماشيا أو راكبا ، دابة أو سيارة ، طيارة أو سفينة ، وكلها سبل توصل إلى الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد([33]١).

السنة والبدعة

- السنة

لغة: هي الطريقة .

قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى : هي العادة وهي الطريق التي تتكرر لتتسع لأنواع الناس مما يعدونه عبادة أو لا يعدونه عبادة([1]٢).

- شرعا:

للسنة عدة تعريفات اتجه اليها العلماء وكل عرفها بحسب اختصاصه وعلمه من أصوليين وفقهاء ومحدثين وأقرب هذه التعاريف إلى الموضوع الذي أبحثه هنا هو ما قاله الأصفهاني من (مفردات القرآن) : سنة رسول الله وهي طريقته التي كان يتحراها أي طريقته في الفعل والأمر والقبول والرد.

البدعة

لغة: قال الراغب الأصفهاني في (مفردات القرآن) الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء وإذا استعمل في الله تعالى فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان وليس ذلك إلا الله والبديع يقال للمبدع نحو قوله ﴿ بديع السماوات

([33]١) أصول الوصول ص (٢٦٢).

([1]٢) كتاب الاقتضاء ص (٧٦).

والأرض﴾([2]١) ويقال للمبدع – بفتح الدال – نحو بديع وكذلك البدع يقال لها جميعا بمعنى الفاعل والمفعول وقوله تعالى ﴿ ما كنت بدعا من الرسل﴾([3]٢) قيل معناه: مبدعا لم يتقدمني رسول وقيل : مبدعا فيما أقوله.

وقال الفيومي في (المصباح) أبدع الله تعالى الخلق إبداعا خلقهم لا على مثال وأبدعت الشيء وابتدعته: استخرجته وأحدثته .

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند شرح حديث : «وشر الأمور محدثاتها..»([4]٣).

- البدعة لغة: كل شيء أحدث على غير مثال.

وقال أيضا عن شرح حديث «نعمت البدعة هذه »([5]٤): البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق.

- شرعا: قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في (تهذيب الأسماء واللغات) : هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال الفيومي : هي الزيادة أو النقص في الدين لكن قد يكون بعضها غير مكروه فيسمى بدعة مباحة وهي ما شهد لجنسها أصل في الشرع أو اقتضتها مصلحة تندفع بها مفسدة.

هذا وقد قسم العلماء البدعة إلى قسمين اثنين:

فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم.

وأخرج البيهقي عن الإمام الشافعي في مناقبه: المحدثات ضربان: ما أُحدث يخالف كتابا أو سنة أو إجماعا فهو بدعة الضلالة وما أحدث في الخير لا يخالف شيئا من ذلك فهو محدثة غير مذمومة.

([2]١) سورة البقرة الآية (١١٧).

([3]٢) سورة الأحقاف الآية (٩).

([4]٣) أخرجه مسلم من حديث طويل (٢٠٠٢) والنسائي (١٥٧٧) وابن ماجه (٤٥) والدارمي (٢٢١٠) وأحمد (٣/٣١٠) وابن خزيمة (١٧٨٥) وأبو يعلى (٢١١١) والبيهقي (٣/٢٠٦) والبغوي (٤٢٩٥) وابن حبان (١٠).

([5]٤) أخرجه البخاري (١٩٠٦) ومالك (١/ ١١٤ –١١٥).

حتى إنه نفى اسم البدعة عما له أصل في الشرع فقال رضي الله عنه : كل ما له مستند من الشرع فليس ببدعة ولو لم يعمل به السلف لأن تركهم للعمل به قد يكون لعذر قام لهم في الوقت أو لما هو أفضل منه أو لعله لم يبلغ جميعهم علم به.

وقال الإمام النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) عند كلامه عن البدعة: هي منقسمة إلى حسنة وقبيحة.

وقال الحافظ ابن الأثير في (النهاية) البدعة بدعتان بدعة هدى وبدعة ضلال فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو من حيز الذم والإنكار وما كان واقعا تحت عموم مما ندب الله إليه وحض عليه الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو في حيز المدح وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو في الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به.

وقال الحافظ ابن العربي في شرحه على سنن الإمام الترمذي عند الكلام على حديث «إياكم ومحدثات الأمور»([6]١)، وقال عمر نعمت البدعة وإنما يذم من البدع ما خالف السنة ويذم من المحدثات ما دعا إلى ضلالة.

حتى إن بعض العلماء أوصلها إلى خمسة أقسام:

واجبة: تعلم النحو ، ونظم ادلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين.

مندوبة: الأذان على المنابر، وتصنيف كتب العلم وبناء المدارس وغير ذلك.

مباحة: استعمال المنخل والتوسع في المأكل والمشرب.

مكروهة: تزيين المصاحف وزخرفة المساجد.

محرمة: وهي ما أحدث لمخالفة السنة ولم تشمله أدلة الشرع العامة، ولم يحتوِ على مصلحة شرعية.

هذا وقد أثبت القرآن الكريم جواز ابتداع ما فيه خير وزيادة قربى إلى الله فقد قال أبو أمامة رضي الله عنه : (إن الله فرض عليكم صوم رمضان ولم يفرض قيامه وإنما قيامه شيء أحدثتموه فدوموا عليه فإن أناسا من بني إسرائيل ابتدعوا بدعا فعابهم الله

([6]١) رواه الإمام أحمد (٤/١٢٦ -١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤٣) والدارمي (٩٥) والبغوي (١٠٢) والحاكم (١/٩٥ - ٩٦) وصححه ووافقه الذهبي والبيهقي (٦/٥٤١) والطحاوي في مشكل الآثار (٢/٦٩) وابن حبان (٥) والطبراني في الكبير (١٨/ برقم ٦١٧) والآجري في الشريعة ص (٤٦) وابن أبي عاصم (٢٧).

بتركها فقال: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾([١][7]))([٢][8]).

وأما حديث : « كل بدعة ضلالة»([٣][9]) فهو من قبيل العام المخصوص.

فقد قال الإمام النووي رضي الله عنه : هذا عام مخصوص والمراد به المحدثات التي ليس في الشريعة ما يشهد لها بالصحة فهي المراد بالبدع.

وقال الحافظ ابن رجب في شرحه للحديث: المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة.

وقال الحافظ ابن حجر: المراد بقوله (كل بدعة ضلالة) ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام.

فليس هذا الحديث إذا كلية تقتضي شمول الضلالة لكل محدث بل هو من قبيل العام المخصوص أو العام الذي أريد به الخصوص.

وأمثلة ذلك كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم

من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾([٤][10]) واسم الموصول من حيث العموم ولكن مما لا شك فيه أن عيسى عليه السلام وأمه والملائكة عُبِدوا من دون الله لكنهم غير مقصودين في الآية فتبين أنه من العام الذي أريد به الخصوص.

ومنه قوله تعالى ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ﴾([٥][11])، ومعلوم أن هناك أدلة كثيرة تثبت أن المسلم ينتفع بعمل غيره من إخوانه المسلمين ودعاء الملائكة كما قرر ذلك الشيخ ابن تيمية وذكر أكثر من عشرين موضعا بدلائلها أولها صلاة الجنازة والصدقة عن الميت ثم دعاء المؤمنين([٦][12]).

([7][١]) سورة الحديد الآية (٢٧).

([8][٢]) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٤٤٦).

([9][٣]) تقدم تخريجه.

([10][٤]) سورة الأنبياء الآية (٩٨).

([11][٥]) سورة النجم الآية (٣٩).

([12][٦]) نقلها الشيخ الجمل في حاشيته على (الجلالين) عن ابن تيمية رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية (وقد أوردها في باب وصول ثواب القرآن.

ومنه قوله تعالى ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾([13]١).

فالمراد بالناس في الأول المخبرين وهم لاشك عدد محدود وفي الثاني أبو سفيان وجماعته من مشركي مكة الذين قاتلوا المسلمين في أحد.

ومنه قوله تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾([14]٢) وأبواب الرحمة لم تفتح عليهم.

ومنه قوله تعالى ﴿وشاورهم في الأمر﴾([15]٣).

فمن المعلوم أنه لا يشاورهم في التشريع والأحكام قال سيدنا ابن عباس رضي الله عنه : (وشاورهم في الأمر) أي في بعض الأمر.

ومنه قوله تعالى ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى﴾([16]٤).

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»([17]٥) وهو من حيث العموم وقطعا ليس على عمومه فمن صلى في هذين الوقتين وترك بقية الصلوات لا يدخل في عموم هذا الحديث فهو من العام الذي أريد به الخصوص أو من العام المخصوص بالنصوص.

ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام»([18]٦) وأجمع الشراح على أنه ليس على عمومه مع أن فيه الكلية (كل).

ويخصص حديث : (كل بدعة ضلالة) الحديث الذي روته سيدتنا عئشة رضي الله عنها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»([19]٧).

([13]١) سورة آل عمران الآية (١٧٣).

([14]٢) سورة الأنعام الآية (٤٤).

([15]٣) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

([16]٤) سورة طه الآية (١٥).

([17]٥) أخرجه مسلم (٦٣٤) وابن حبان (١٧٤٠) وقال إسناده صحيح وأبو داود (٤٢٧) والنسائي (٤٧٠) وأحمد (٢٦١/٤) والبيهقي (٤٦٦/١) وابن أبي شيبة (٣٨٦/٢) وابن خزيمة (٣١٨) والبغوي (٣٨٢).

([18]٦) أخرجه البخاري (٥٣٦٤).

([19]٧) أخرجه البخاري (٢٥٥٠) وفي خلق أفعال العبد (٤٣) ومسلم (١٧١٨) وأحمد (٧٣/٦) في المسند، وابن ماجه (١٤) وأبو داود (٤٦٠٦) والداقطني (٢٢٤/٤ – ٢٢٥) وابن حبان في صحيحه (٢٦ – ٢٧) وابن أبي عاصم في السنة (٥٢) والبغوي (١٠٣) وأبو عوانه (١٨/٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٣٥٩) والطيالسي (١٤٢٢) وأبو يعلى (٤٥٩٤).

قال ابن رجب: هذا الحديث يدل منطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع فهو مردود ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره فهو غير مردود.

وقال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده فإن معناه: من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه.

مما تقدم تبين لنا أنه ليس معنى ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم للشيء هو أن ذلك الشيء لا يجوز فعله فإن القاعدة الأصولية مشهورة بين أهل العلم : (ترك الشيء لا يدل على حرمته) ونقصد بالترك أن يترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئا لم يفعله أو تركه السلف الصالح من غير أن يأتي حديث أو أثر بالنهي عن ذلك الشيء المتروك بمقتضى تحريمه أو كراهته.

ثم إن للترك أنواع ومنها:

أن يكون تركه عادة كترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكل الضب في حديث سيدنا خالد أنه دخل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيت ميمونة فأتي بضب محنوذ فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده فقيل: هو ضب يا رسول الله فرفع يده فقلت: أحرام هو يا رسول الله؟ فقال: « لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه» قال خالد: فاجترته فأكلته والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ينظر([20]١).

والحديث يدل على أمرين:

١- أن تركه للشيء ولو بعد الإقبال عليه لا يدل على تحريمه.

٢- أن استقذاره الشيء لا يدل على تحريمه أيضا.

- أن يكون تركه نسيانا سها صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة فترك منها شيئا فسئل: هل حدث في الصلاة شيء؟. قال «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني»([21]٢).
- أن يكون تركه مخافة أن يفرض كصلاة التراويح.

([20]١) أخرجه البخاري (٥٥٣٧) ومسلم (١٩٤٥) وأبو داود (٣٧٩٤) وابن ماجه (٣٢٥١) ومالك (٩٦٨/٢) والطبراني في ال كبير (٣٨١٦) والشافعي (١٧٤/٢) والنسائي (٤٣٢٧).

([21]٢) أخرجه البخاري (١٢٢٥) ومسلم(٥٧٢) والدارقطني (٣٧٥/١) وأبو داود (١٠٢٠) والنسائي (١٢٤٠) ومختصرا وابن ماجه (١٢١١) وابن حبان (٢٦٦٢) وابن أبي شيبة (٢٥/٢) وأبو عوانة (٢٠٢/٢) وأحمد (٣٧٩/١).

- أن يكون تركه لعدم تفكيره فيه ولم يخطر على باله – مثل إحداث المنبر له صلى الله عليه وآله وسلم .
- أن يكون تركه لدخوله في عموم آيات أو أحاديث كتركه كثيرا من المندوبات لأنها مشمولة في قوله تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾([22]١) وغيرها.
- أن يكون تركه خشية تغير قلوب بعض الصحابة قال صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضي الله عنها : (لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزمته بالأرض وجعلت له بابين باب شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أسس إبراهيم عليه السلام)([23]٢).

والترك وحده إن لم يصحبه نص على أن المتروك محظور لا يكون حجة في ذلك بل غايته أن يفيد أن ترك ذلك الفعل مشروع.

وهذه قاعدة في الأصول وأدلتها هي:

- أحدها: أن الذي يدل على التحريم ثلاثة أشياء:

النهي نحو ﴿ ولا تقربوا الزنا﴾([24]٣) ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾([25]٤).

لفظ التحريم نحو (من غشنا فليس منا)([26]٥).

والترك ليس واحدا من هذه الثلاثة فلا يقتضي التحريم.

- ثانيها : إن الله تعالى قال ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾([27]٦).

ولم يقل ما تركه فانتهوا عنه فالترك لا يفيد التحريم.

- ثالثها: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «ما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»([28]٧).

([22]١) سورة الحج الآية (٧٧).

([23]٢) أخرجه مسلم (١٣٣٣) والنسائي (٢٩٠٣) وابن حبان (٣٨١٨) وأحمد (١٧٩/٦ – ١٨٠) وأبو يعلى (٤٦٢٨).

([24]٣) سورة الإسراء الآية (٣٢).

([25]٤) سورة البقرة الآية (١٨٨).

([26]٥) أخرجه مسلم (١٠٢) والترمذي (١٣١٥) وابن ماجه (٢٢٢٤) والحاكم (٩/٢) والبيهقي (٣٢٠/٥) وابن منده في الإيمان (٥٥٢) والبغوي (٢١٢٠) وأحمد (٢٤٢/٢) وأبو داود (٣٤٥٢) وأبو عوانه (٥٧/١) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٤/٢) وابن حبان (٤٩٠٥).

([27]٦)سورة الحشر الآية (٧).

([28]٧) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (٦٠٦٨) وأحمد (٢٥٨/٢) والبغوي (١٩٩/١) وابن حبان (١٨).

ولم يقل ما تركته فاجتنبوه فكيف دل الترك على التحريم؟

- رابعها: أن الأصوليين عرفوا السنة بأنها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفعله وتقريره ولم يقولوا وتركه لأنه ليس بدليل.
- خامسها: تقدم أن الترك يحتمل أنواعا غير التحريم والقاعدة الأصولية (أن ما دخله الإحتمال سقط به الاستدلال).
- سادسها: أن الترك أصل، لأنه عدم فعل والعدم هو الأصل والفعل طارئ والأصل لا يدل على شيء لغة ولا شرعا فلا يقتضي الترك تحريما([١][29]) ، فيعلم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يفعل جميع المندوبات المباحات لأنها كثيرة لا يستطيع بشر أن يستوعبها ولاشتغاله بمهام اعظم استغرقت معظم وقته من تبليغ للدعوة ومحاربة للمشركين ونقاش مع الكتابيين والكفار وغيرها مما هو مهم لتأسيس الدولة الإسلامية.
- بل إنه ترك بعض المندوبات عمدا مخافة أن تفرض على أمته أو يشق عليهم إذا هو فعلها ، فها هي سيدتنا عائشة تخبرنا بذلك فتقول: (إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يترك العمل وفعله أحب إليه خشية أن يستن به الناس فيفرض عليهم وكان يحب ما خفف عليهم)([٢][30]).

وقالت رضي الله عنها : (خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عندي مسرورا ثم رجع وهو كئيب فقال: «إني دخلت البيت وددت أني لم أكن فعلت إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي بعدي» وفي رواية «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما دخلتها، إني أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي» وفي رواية: « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما دخلتها إني أخاف أن أكون شققت على أمتي»)([٣][31]).

وقالت أيضا في قصة صلاته بعد العصر (وكان لا يصليها في المسجد مخافة أن تثقل على أمته وكان يحب ما خف عليهم).

وفي باب (يسروا ولا تعسروا) في البخاري قال: (وكان يحب أن يخفف على الناس وييسر عليهم).

([29]١) من كتاب إتقان الصنعة للشيخ عبدالله بن الصديق الغماري.

([30]٢) أخرجه البخاري (١١٧٧).

([31]٣) أخرجه أبو داود (١٧٨٤) والحاكم (١٧٦٢) وصححه ووافقه الذهبي.

وهذا المعنى موجود في كثير من المواضع في السواك وفي تأخير صلاة العشاء إلى ثلث الليل: (لولا أن أشق على أمتي ...).

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال موضحا لنا هذا الإشكال: (ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم الله فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينس شيئا ثم تلا ﴿ وما كان ربك نسيا﴾([32]١))([33]٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « إذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه»([34]٣) ولم يقل: إذا تركت شيئا فاجتنبوه.

وكذلك ترك السلف لشيء – أي عدم فعلهم له – لا يدل على أنه محظور قال الإمام الشافعي : (كل ما له مستند من الشرع فليس ببدعة ولو لم يعمل به السلف)، لأن تركهم العمل به قد يكون لعذر قام لهم في الوقت أو لما هو أفضل منه أو لعله لم يبلغ جميعهم علم به.

فإذا ليس كل ما لم يفعله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خارجا عن السنة بل إن الحوافز القولية الكثيرة لعمل الخير والترغيبات الكثيرة القولية بالفضائل العامة والخاصة هي أيضا من السنة كما أن التقريرات الصادرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما يحدث من الخير مما لا يخالف المشروع هي أيضا من السنة بل هي طريقة الرسول وسنته التي حث على اتباعها والتمسك بها.

من هذا المنطلق فعل كثير من الصحابة باجتهاداتهم أمورا فكانت سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطريقته قبول ما كان من العبادة والخير ويتفق مع المشروع ولا يخالفه ورد ما كان مخالفا لذلك فهذه سنته وطريقته التي سار عليها خلفاؤه وصحابته واقتبس منها العلماء رضوان الله عليهم قولهم: إن ما يحدث يجب أن يعرض على قواعد الشريعة ونصوصها فما شهدت له الشريعة بالحسن فهو حسن مقبول وما شهدت له الشريعة بالمخالفة والقبح فهو المردود وهو البدعة المذمومة وقد يسمون

([32]١) سورة مريم الآية (٦٤).

([33]٢) أخرجه الدارقطني (١٣٧/٢) والبزار (٢٢٣١) والحاكم (٣٤١٩) وصححه ووافقه الذهبي وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١١٦٠) وقال ورجاله ثقات.

([34]٣) تقدم تخريجه .

الأول بدعة حسنة من حيث اللغة باعتباره محدثا وإلا فهو في الواقع ليس ببدعة شرعية بل هو سنة مستنبطة ما دامت شواهد الشريعة تشهد له بالقبول.

سماها بذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نفسه حين قال: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)([١][35]).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : فيه الحث على الابتداء بالخيرات وسن السنن الحسنات والتحذير من الأباطيل والمستقبحات.

وفي هذا الحديث تخصيص قوله صلى الله عليه وآله وسلم « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وأن المراد به المحدثات الباطلة والبدع المذمومة.

وسن سنة أو استنانها يعني إنشاؤها باجتهاد واستنباط من قواعد الشرع أو عمومات نصوصه أي من أنشأ سنة حسنة مستندا في ابتداع ذاتها إلى دلائل الشرع كان له اجرها ومن أنشأ سنة سيئة مستندا في ابتداع ذاتها إلى ما تنكره الشريعة كان عليه إثمها وإثم من عمل بها([٢][36]).

ولنورد الآن بعض الصور من عمل الصحابة في عهد النبوة وإتيانهم بما لم يروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعله او يقوله أو إقراره صلى الله عليه وآله وسلم على افعالهم:

١- عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: (كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاء الرجل وقد فاته شيء من الصلاة أشار إليه الناس فصلى ما فاته ثم دخل في الصلاة ثم جاء يوما معاذ بن جبل فأشاروا إليه فدخل ولم ينتظرما قالوا فلما صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكروا له ذلك فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم « سن لكم معاذ»([٣][37]).

وفي رواية سيدنا معاذ بن جبل: (إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا)([٤][38]).

([35][١]) أخرجه مسلم (٢٣٤٨) والنسائي (٢٥٥٣) وأحمد (٣٥٧/٤) مختصرا والترمذي (٢٦٧٥) وابن ماجه (٢٠٣).

([36][٢]) من كتاب إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة للشيخ عبدالله بن الصديق الغماري الحسيني.

([37][٣]) أخرجه الطبراني (٢٧١/٢٠).

([38][٤]) أخرجه أحمد (٢٣٣/٥) وصححه ابن دقيق العيد وابن حزم (٢٧٢/٢٠).

٢- وعن العاص بن وائل قال: قدم بكر بن وائل مكة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر : « ائتهم فاعرض عليهم» وفيه : فأتاهم فعرض عليهم الإسلام فقالوا: حتى يجيء بنو ذهل بن شيبان فعرض عليهم أبو بكر قالوا: إن بيننا وبين الفرس حربا فإذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فقال أبو بكر : أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا ؟ قالوا : لا نشترط لك ذلك علينا ولكن إذا فرغنا بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التقوا يوم ذي قار مع الفرس قال شيخهم : ما اسم الذي دعاكم إلى الله؟ قالوا : محمد قال هو شعاركم فنصروا على القوم فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم «بي نصروا»([39]١).

فهذا منهم توسل باسمه صلى الله عليه وآله وسلم وقد أقرهم على ذلك بل قد قال مؤكدا قوله : « بي نصروا» وأقر سيدنا أبا بكر عندما قال لهم : (أرأيت ان غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا..) وذلك من كمال اعتقاده بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو هو نفسه إن دعا لهم بالنصر فإن الله لن يخزيه لأنه يطلب ذلك لنشر دين الله وإعلاء كلمته.

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر: « يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دُف نعليك في الجنة» قال: ما عملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي([40]٢).

وفي رواية : قال لبلال: «بم سبقتني إلى الجنة؟ قال: ما أذنت قط إلا صليت ركعتين وما أصابني حدث قط إلا توضأت ورأيت أن لله علي ركعتين فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «بهما» أي نلت تلك المنزلة»([41]٣).

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : يستفاد منه جواز الاجتهاد في توقيت العبادة لأن بلالا توصل إلى ما ذكره بالاستنباط فصوبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

([39]١) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات رجال الصحيح (٥٥٢٠) كما في مجمع الزوائد (١٠٣٦١/٦).

([40]٢) أخرجه البخاري (١١٤٩) ومسلم (٦٢٧٤) وأحمد (٣٣٣/٢) والنسائي في فاضئل الصحابة (١٣٢) والبغوي (١٠١١) وابن حبان (٧٠٨٥) وابو يعلى (٦١٠٤) وابن خزيمة (١٢٠٨).

([41]٣) أخرجه أحمد (٣٥٤/٥) وابن خزيمة (١٢٠٩) والحاكم (٣١٣/١) وصححه ووافقه الذهبي والترمذي (٣٦٨٩) والطبراني في الكبير (١٠١٢/١).

٤- وعن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد قال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله قال آ لله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك قال أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فاخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة([42]١).

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا الناس يصلون في ناحية المسجد فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ما هؤلاء؟» فقيل : أناس ليس معهم قرآن وأبي ابن كعب يصلي بهم وهم يصلون بصلاته فقال: (أصابوا) أو قال: (نعم ما صنعوا)([43]٢).

٦- وعن سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: (اعتمرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمرة اعتمرها فحلق شعره فاستبق الناس إلى شعره فاستبقت إلى الناصية فأخذتها فاتخذت منها قلنسوتي فجعلتها في مقدم القلنوسة فما وجهتها في وجه إلا فتح علي)([44]٣).

٧- وعن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل منهم([45]٤).

٨- عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها فأتيت فقيل لها: هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم نائم في بيتك على فراشك قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ففزع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (ما تصنعين يا أم سليم؟) فقالت يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا قال «أصبت»([46]٥).

([42]١) تقدم تخريجه في باب الذكر مع الجماعة وغيره ص (٣٥٦).

([43]٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٥٤١) وأبو داود (١٣٧٧) وابن خزيمة (٢٢٠٨) والبيهقي مرسلا (٢/٤٩٥).

([44]٣) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (٢/١١١) وصححه الحاكم (٣/٢٩٩) وأخرجه الطبراني في الكبير (٤/٤٠٤٤) وعزاه إلى أبي يعلى وفي سير أعلام النبلاء (١/٣٧٤ - ٣٧٥) فلم أشهد قتالا وهي معي إلا رزقت النصر كذا في المجمع.

([45]٤) أخرجه مسلم (٦٠١٠) وأحمد (٣/٢٢١).

([46]٥) اخرجه مسلم (١٣٠٥).

٩- وعن يزيد بن الأسود في حديث حجة الوداع قال: فلما صلى الصبح انحرف جالسا فاستقبل الناس بوجهه وذكر قصة الرجلين اللذين لم يصليا قال: ونهض الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونهضت معهم وأنا يومئذ أشب الرجال وأجلدهم قال فما زلت أزاحم الناس حتى وصلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذت بيده فوضعها إما على وجهي أو صدري قال: فما وجدت شيئا أطيب ولا أبرد من يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: وهو يومئذ بمسجد الخيف وفي رواية ثم ثار الناس يأخذون بيده ويمسحون بها وجوههم([47]١).

١٠- وعن سيدنا أبي جحيفة رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبة حمراء ورأيت بلالا أخرج وضوءا فرأيت الناس يبتدرون ذلك الوضوء فمن أصاب منه شيء مسح به ومن لم يصب منه أخذ من بلل صاحبه([48]٢).

وفي رواية : (شهدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبطحاء وأتى بلال بفضل وضوئه فابتدره الناس فنلت منه شيئا)([49]٣).

١١- وعن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا وغمس يده فيها فربما جاؤوا في الغداة الباردة فيغمس يده فيها([50]٤).

١٢- وعن ام ثابت كبشة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت رضي الله عنهما قالت : (دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشرب من قربة معلقة قائما فقمت إلى فيها فقطعته)([51]٥).

([47]١) أخرجه أحمد (١٦١/٤).

([48]٢) أخرجه البخاري (٣٧٦) ومسلم (٥٠٣) وأحمد (٣٠٨/٤) وأبو داود (٦٨٨) والنسائي (٧٢/٢) وابن حزيمة (٨٤١) والبيهقي في السنن (٢٧٠/٢) وأخرجه الطيالسي (٨٨/١) والشافعي (٦٦/١ - ٦٧) وعبدالرزاق (٢٣١٤) وابن أبي شيبة (٢٧٧/١) وابن حبان (١٢٦٨) في صحيحه.

([49]٣) أخرجه النسائي (١٣٧).

([50]٤) أخرجه مسلم (٥٩٩٦).

([51]٥) أخرجه الترمذي (١٨٩٢).

١٣- عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آخر الليل فصليت خلفه فأخذ بيدي فجرني حتى جعلني حذاءه فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صلاته خنست فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما انصرفت قال: (ما شأنك ؟ أجعلك حذائي فتخنس) فقلت: يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلي بحذائك وأنت رسول الله الذي أعطاك الله؟ قال: فأعجبه فدعا لي أن يزيدني الله علما وفقها([52]١).

١٤- وعن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيدا طيبا وصليا ثم وجد الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرا له ذلك فقال للذي لم يُعد: «أصبت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذي أعاد «لك الأجر مرتين»([53]٢).

١٥- وعن سيدنا علي رضي الله عنه قال: كان أبو بكر يخافت بصوته إذا قرأ وكان عمر يجهر بقراءته وكان عمار إذا قرأ يأخذ من هذه السورة وهذه السورة فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لأبي بكر : « لِمَ تخافت؟» قال: إني أسمع من أناجي وقال لعمر: « لِمَ تجهر بقراءتك؟» قال : أفزع الشيطان وأوقظ الوسنان وقال لعمار: « لِمَ تأخذ من هذه السورة وهذه السورة؟» قال: أتسمعني أخلط به ما ليس منه؟ قال: (لا) ثم قال: «فكله طيب»([54]٣).

١٦- عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه : أنه لما بعث في غزوة ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرودة فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح فلما قدمنا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذكروا له ذلك فقال: (يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟!) فقلت : ذكرت قول الله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم

([52]١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠).

([53]٢) أخرجه النسائي (٤٣١ - ٤٣٢) وأبو داود (٣٣٨) والدارمي (٧٤٤).

([54]٣) أخرجه أحمد (١- ١٠٩).

رحيما﴾([55]١) فتيممت وصليت فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقل شيئا([56]٢).

١٧- وحديث سيدنا خباب رضي الله عنه أنه أول من سن الصلاة لكل مقتول صبرا ركعتين ([57]٣).

١٨- وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم وفد الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلعبون في المسجد قال الزهري: وأخبرني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: دخل عمر .. والحبشة يلعبون في المسجد فزجرهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « دعهم يا عمر فإنما هم بنو أرفدة»([58]٤).

وفي رواية : «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة»([59]٥).

١٩- وعن سعيد بن المسب أن سينما بلالا اتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤذن بصلاة الفجر ، فقيل : هو نائم فقال: «الصلاة خير من النوم»([60]٦) فأقرت في صلاة الفجر.

وفي رواية (ما أحسن هذا فاجعله في أذانك)([61]٧).

وفي رواية : (أن المؤذن جاء إلى عمر يؤذنه لصلاة الصبح فوجده نائما فقال: الصلاة خير من النوم فأقره عمر أن يجعلها في أذان الفجر)([62]٨).

٢٠- عن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل والناس في الصلاة فقال حين وصل إلى الصف: الله اكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا فلما

([55]١) سورة النساء الآية (٢٩).

([56]٢) أخرجه أبو داود (٣٣٤) وأحمد (٢٠٣/٤ - ٢٠٤) والدارقطني (١٧٨/١) وصححه الحاكم (١/ ١٧٧) ووافقه الذهبي والبيهقي (٢٦/١) وابن حبان (١٣١٥) وعلقه البخاري (٤٥٤/١) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (وهذا التعليق وصله أبو داود والحاكم ... وإسناده قوي).

([57]٣) أخرجه البخاري (٣٠٤٥) وأبو داود (٢٦٦٠) وأحمد (٢٩٤/٢ - ٢٩٥) والطيالسي (٢٥٩٧) والبيهقي في دلائل النبوة (٣٢٣/٣ - ٣٢٥) والطبراني في الكبير (٤١٩١) وعبدالرزاق (٩٧٣٠) وابن حبان (٧٠٣٩) وأبو نعيم في الحليلة (٢٩٤/٦).

([58]٤) أخرجه البخاري (٢٩٠١) ومسلم (٨٩٣) وأحمد (٣٠٨/٢) وابن حبان (٥٨٦٧) وعبدالرزاق (١٩٧٢٤) والبيهقي (١٠/ ١٧) والبغوي (١١١٢).

([59]٥) أخرجه أحمد (١١١/٢٢) الفتح الرباني.

([60]٦) أخرجه ابن ماجه بإسناد رجاله ثقات (٧٠٧).

([61]٧) أخرجه الطبراني (١٠٨١/١).

([62]٨) أخرجه مالك في الموطأ (٨/٧٨).

قضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاته قال: (من صاحب الكلمات؟) قال الرجل : أنا يا رسول الله ، والله ما أردت بها إلا الخير قال: (لقد رأيت أبواب السماء فتحت لهن) قال ابن عمر : فما تركتهن منذ سمعتهن([١][63]).

٢١- وعن سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: (أهلَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر التلبية مثل حديث ابن عمر قال : والناس يزيدون ذا المعارج ونحوه من الكلام والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع فلا يقول لهم شيئا)([٢][64]).

وفي رواية مسلم : واهل الناس بهذا الذي يهلون فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئا ولزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلبيته([٣][65]).

٢٢- وعن سيدنا رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: كنا نصلي وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما رفع راسه من الركعة قال (سمع الله لمن حمده) قال رجل وراءه ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف قال (من المتكلم؟) قال: أنا قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها»([٤][66]).

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (يستدل به على جواز إحداث ذكر في الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لم يشوش).

٢٣- وعن سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا قال ذات يوم ودخل في الصلاة: الحمد لله ملء السماء وسبح ودعا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قائلهن؟ فقال: أنا فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لقد رأيت الملائكة تلقي به بعضها بعضا»([٥][67]) .

٢٤- وعن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحلقة إذ جاء رجل فسلم على النبي صلى الله

([63]١) أخرجه مسلم (١٣٥٧) والترمذي (٣٥٩٢) والنسائي (٨٨٤) وأحمد (١٤/٢).

([64]٢) اخرجه مسلم (١٢٨٥) وأبو داود (١٨١٣).

([65]٣) أخرجه مسلم (١٢٨٢).

([66]٤) اخرجه البخاري (٧٩٩) والنسائي (١٠١٦) وأبو داود (٧٧٠) وأحمد (٣٤٠/٤) وابن حزيمة (٦١٤) .

([67]٥) أخرجه أحمد (١٧٩/٣ – ١٨٠ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦١٣.

عليه وآله وسلم وعلى القوم فقال السلام عليكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» فلما جلس قال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « والذي نفسي بيده لقد ابتدرها عشرة أملاك كلهم حريصون على أن يكتبوها فما دروا كيف يكتبونها فرجعوا إلى ذي العزة جل ذكره فقال « اكتبوها كما قال عبدي»([68]١).

٢٥- وعن سيدنا رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعطست فقلت الحمد لله حمدا طيبا مباركا فيه مباركا عليه كما يحب ربنا ويرضى فلما انصرف قال: (من المتكلم؟ ثلاثا) فقلت أنا فقال: والذي نفسي بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكا أيهم يصعد بها([69]٢).

٢٦- وعن سيدنا علاقة بن صحار السليطي التميمي رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم اقبل راجعا من عنده فمر على قوم عندهم رجل موثق بالحديد فقال أهله: إنه قد حدثنا أن صاحبكم قد جاء بخير فهل عندك شيء ترقيه؟ فرقيته بفاتحة الكتاب فبرأ فاعطوني مائة شاة فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (خذها فلعمري لمن اكل برقية باطل قد اكلت برقية حق)([70]٣).

٢٧- وعن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رهطا من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم انطلقوا في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوا فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذي نزل بكم لعله أن يكون عند بعضهم شيء فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ فسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء فهل عند أحدكم شيء ؟ فقال بعضهم : نعمم والله إني لراق ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما انا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل ويقرأ ﴿ الحمد لله رب

([68]١) أخرجه أحمد ورجاله ثقات (١٥٨/٣) كذا في مجمع الزوائد (١٦٨٩٤).

([69]٢) أخرجه الترمذي (٤٠٤).

([70]٣) أخرجه ابن حبان (٦١١١) وابو داود (٣٨٦٩) واحمد (٢١٠/٥ - ٢١١).

العالمين﴾ حتى كأنما نشط من عقال فانطلق يمشي ما به قلبة قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم اقسموا وقال الذي رقى : لا تفعلوا حتى نأتي رسول اله صلى الله عليه وآله وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا به فقدموا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له فقال: (وما يدريك أنها رقية ثم قال: قد أصبتم اقسموا واضربوا لي معكم بسهم)([71]١).

٢٨- وعن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرا على مبتل في أذنه فأفاق فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (ما قرأت؟) قال ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا﴾([72]٢) إلى آخر السورة فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم « لو أن رجلا مؤمنا قرأ بها على جبل لزال»([73]٣).

٢٩- عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر على أعرابي وهو يدعو في صلاته: يا من لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون ولا يصفه الواصفون ولا تغيره الحوادث ولا يخش الدوائر ويعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وعدد قطر الأمطار وعدد ورق الأشجار وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ولا تواري منه سماء سماء ولا أرض أرضا ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ولا جبل إلا يعلم ما في ورعه اجعل خير عمري آخره وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم ألقاك فيه فوكل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأعرابي رجلا فقال : (إذا صلى فأتني به) وكان قد اهدي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذهب من بعض المعادن فلما أتاه الأعرابي وهب له الذهب وقال: (ممن انت يا أعرابي) فقال من بني عامر بن صعصعة يا رسول الله قال يا أعرابي هل تدري لما وهبت لك الذهب قال : للرحم الذي بيني وبينك قال صلى الله عليه وآله وسلم « إن للرحم حقا ولكن وهبت لك الذهب لحسن ثنائك على الله»([74]٤).

([71]١) أخرجه البخاري (٢١٥٦) ومسلم (٢٢٠١) وأبو داود (٣٩٠٠) والترمذي (٢٠٦٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢٨) وابن ماجه (٢١٥٦).

([72]٢) سورة المؤمنون الآية (١١٥).

([73]٣) أخرجه أبو يعلى (٥٠٤٥/٨) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٣١) وأبو نعيم في الحلية (٧/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٦٩/٥) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٣٤٩/٢ برقم ٢٤٤٤) وذكره ابن كثير في التفسير (٤٥/٥).

([74]٤) اخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٤٤) ورجاله رجال الصحيح والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٢٦٧/١٠).

٣٠- عن سيدنا أنس رضي الله عنه قال: كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في دعائه اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل أعطى»([75]١).

٣١- وعن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ ﴿ قل هو الله أحد﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا احب أن أقرأ بها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أخبروه أن الله يحبه»([76]٢).

نبذة مما أحدثه الصحابة رضي الله عنهم بعد عهد النبوة

أخرج البزار بسنده : خرجنا مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في يوم عيد فسأله قوم من أصحابه عن الصلاة قبل العيد وبعدها فلم يرد عليهم شيئا ثم جاءه قوم فسألوه فلم يرد عليهم شيئا فلما انتهينا إلى الصلاة فصلى بالناس فكبر سبعا ثم خطب الناس ثم نزل فركب فقالوا: يا أمير المؤمنين هؤلاء قوم يصلون! قال: فما عسيت أن أصنع؟ سألتموني عن السنة إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها فمن شاء فعل ومن شاء ترك أتروني امنع قوما يصلون فاكون بمنزلة من منع عبدا إذا صلى .

عن عبدالرحمن بن عبدالقاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة في رمضان إلى المسدد فإذا الناس اوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر رضي الله عنه : إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر: نعمت البدعة هذه والتي ناموا عنها أفضل من التي يقومون يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله([77]٣).

([75]١) أخرجه الحاكم (١٨٥٦) وقال: صحيح.

([76]٢) أخرجه البخاري (٦٩٤٠) ومسلم (١٨٨٧) والنسائي (٩٩٢) وفي عمل اليوم والليلة (٧٠٣) وابن حبان (٧٩٣).

([77]٣) تقدم تخريجه.

قال ابن الأثير في النهاية عند ذكر البدعة الحسنة: (ومن هذا النوع قول عمر رضي الله عنه : نعمت البدعة هذه لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يسنها لهم وإنما صلاها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ولا جمع الناس لها ولا كانت في زمن ابي بكر وإنما عُمر جمع الناس عليها وندبهم اليها فبهذا سماها بدعة وهي على الحقيقة سنة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»(١[78]) ، وقوله : «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر(٢[79]) ، وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر «كل بدعة ضلالة»(٣[80]) وإنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة).

وعند البيهقي عن السائب بن يزيد رضي الله عنه بإسناد صحيح قال: كانوا يقومون على عهد عمر بن الخطاب بعشرين ركعة وكانوا يتوكؤن على عصيهم في عهد عثمان من شدة القيام.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول في التشهد بعد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته: (السلام علينا من ربنا) فيزيد على اللفظ الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفظة: (من ربنا).

وثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يلازم في اسفاره كلها القصر فيصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين ركعتين ولم يثبت قط أنه صلى الرباعية أربعا في السفر ومع ذلك فقد صلى عثمان رضي الله عنه في منى اربعا وأنكر عليه ابن مسعود ثم صلاها معه اربعا فلما قيل له قال : إني أكره الخلاف(٤[81]).

وأخرج ابن أبي شيبة عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: ألا يقوم احدكم فيصلي أربع ركعات ويقول فيهن : (تم نورك فهديت فلك الحمد وعظم حلمك فعفوت فلك الحمد وبسطت برك فأعطيت فلك الحمد ربنا وجهك أعظم الوجوه وجاهك أعظم الجاه وعطيتك أفضل عطية وأهنأها تطاع ربنا فتشكر وتعصى فتغفر وتجيب

([78]١) تقدم تخريجه.

([79]٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي (٣٦٦٣) وابن سعد (٣٣٤/٢) وأحمد (٣٣٩/٥) والطحاوي في مشكل الآثار (٨٥/٢) وابن ماجه (٩٧) في المقدمة ، والحاكم (٧٥/٣) والخطيب في التاريخ (٢٠/١٢) وأبو نعيم في الحلية (١٠٩/٩) وابن حبان (٦٩٠٢) .

([80]٣) تقدم تخريجه ص (١٤٩).

([81]٤) أخرجه البخاري (١١٠٧) ومسلم (٧٠٤).

المضطر وتكشف الضر وتشفي السقيم وتغفر الذنب وتقبل التوب ولا يجزي بآلائك أحد ولا يبلغ مدحك قول قائل).

وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء وهي دار في سوق المدينة وسمي هذا الأذان ثالثا باعتبار إضافته إلى الأذان الأول والإقامة ويقال له ثان بإسقاط اعتبار الإقامة([82]١).

وقتال أبي بكر رضي الله عنه لما نعي الزكاة واستباحة دمائهم حتى يُذعنوا له حتى قال قولته المشهورة : (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم عليه مع قول عمر ومراجعته له ثم إذعانه لرأيه فقال: فعلمت أنه الحق([83]٢).

وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه ان تلبية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك وكان عبدالله بن عمر يزيد في تلبيته: لبيك لبيك وسعديك والخير بيديك لبيك والرغباء إليك والعمل([84]٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنه أيضا: (أن عمر كان يقول هذه الزيادة في تلبيته)([85]٤) وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يزيد أيضا : (لبيك مرغوب إليك ذا النعماء والفضل الحسن)([86]٥).

وكان الناس يزيدون في التلبية (ذا المعارج)([87]٦).

وذكر الحافظ في المطالب العالية أنه كان سيدنا أنس رضي الله عنه يقول في تلبيته : (لبيك حقا حقا تعبدا ورقا).

([82]١) أخرجه البخاري (٩١٢) وابن ماجه (١١٣٥) وابن خزيمة (١٧٧٣) وأبو داود (١٠٨٧) واحمد (٣/٤٤٩) والنسائي (١٣٩١) والترمذي (٥١٦).

([83]٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩) ومسلم (١٢٤) والنسائي (٢٤٤٢) وأبو داود (١٥٥٦) والترمذي (٢٦٠٧) واحمد (١/١٩).

([84]٣) أخرجه البخاري (٢/١٧٠) ومسلم (١١٨٤) وأبو داود (١٨١٢) والنسائي (٥/١٦٠) ومالك في الموطأ (٢١٩) وأحمد (٢/٣٤ – ٤٨٩٦).

([85]٤) أخرجه مسلم (١١٨٤).

([86]٥) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح (٤/ كتاب (١١٢) باب (١١٥) رقم (١١)).

([87]٦) أخرجه أبو داود (١٨١٣) بإسناد صحيح وأحمد (٣/٣٢٠) وابن خزيمة (٢٦٢٦).

والذي ثبت عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه عنه البخاري ومسلم وغيرهما أنه كان يستلم الركنين اليمانيين من الكعبة المشرفة ولم يستلم غيرهما وصح عن جماعة من الصحابة استلام الأركان الأربعة .

فعن أبي الطفيل قال قدم معاوية وابن عباس الكعبة فاستلم ابن عباس الأركان كلها فقال له معاوية إنما استلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الركنين اليمانيين ! قال ابن عباس: ليس شيء من البيت مهجورا([88]١).

وحكى ابن المنذر ذلك عن جابر وأنس والحسن والحسين رضي الله عنهم:

جاء سيدنا عمر بن الخطاب إلى سيدنا أبي بكر رضي الله عنه يقول له: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرى القتل قد استمر في القراء فلو جمعت القرآن في مصحف فيقول الخليفة: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فيقول عمر: إنه والله خير ولم يزل به حتى قبل فيبعثان إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقولان له ذلك فيقول: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فيقولان له : إنه والله خير فلا يزالان به حتى شرح الله صدره كما شرح صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما([89]٢).

وقد أقر الشاطبي بهذا العمل وأنه واجب وسماه مصلحة وأبى أن يسميه بدعة لأن البدعة عنده ما قصد بها الزيادة على الشارع ويعني بهذا البدعة السيئة.

وعن أبي مدينة الدارمي وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾([90]٣).([91]٤)

ولما جمع زيد بن ثابت القرآن في مصحف وضعها عند أبي بكر فلما توفي كانت عند عمر فلما توفي كانت عند حفصة وفي أوائل خلافة عثمان رضي الله عنه حصل الاختلاف في قراءة القرآن فقال حذيفة بن اليمان لعثمان رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة ، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود

([88]١) أخرجه البخاري (١٦٠٨) والترمذي (٨٢٨) والطبراني في الكبير (١٠٦٣١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ برقم ٥٤٧٤).

([89]٢) أخرجه البخاري (٤٦٧٩) والترمذي (٣١٠٣) وأحمد (١/١٠) والنسائي في فضائل القرآن (٢٠).

([90]٣) سورة العصر الآية (١، ٢).

([91]٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥١٢٠).

والنصارى فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق وأهل العراق يقرؤون بقراءة عبدالله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضا فارسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي علينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وأرسل إلى كل أفق بمصحف وحبس واحدا بالمدينة وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ان يحرق وتركوا القراءات الشاذة.

وهذا العمل وإن لم يكن على عهد النبوة لكنه يعد من أهم وأكبر حسنات سيدنا عثمان وأكثرها فائدة للإسلام والمسلمين.

وعن سيدنا أنس رضي الله عنه : أنه شهد جنازة رجل من الأنصار قال: فأظهروا الاستغفار فلم ينكر ذلك أنس وأدخلوه من قبل رجل القبر([92]١).

وعن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

وأخرج الطبراني عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله وولده ودعا لهم.

وعن داود بن أبي صالح قال: أقبل مروان يوما فوجد رجلا واضعا وجهه على القبر فقال : أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب فقال: نعم جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم آتِ الحجر([93]٢).

وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه : أنه كان يقول في تشميت العاطس : يرحمنا الله وإياكم ويغفر الله لنا ولكم. والمأثور : فليقل له صاحبه : يرحمك الله فإذا قال له ذلك فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم([94]٣).

وأخرج أحمد في الزهد عن سيدنا أبي صفية رضي الله عنه – رجل من الصحابة كان خازنا – أنه كان يسبح بالحصى.

([92]١) أخرجه أحمد (٨/ ٥٨ -٥٩).

([93]٢) تقدم تخريجه.

([94]٣) أخرجه مالك في الموطأ موقوفا على ابن عمر (١٤٥/٨٢٥).

وأخرج ابن سعد أن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان يسبح بالحصى.
وسيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أيضا صح عنه أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به. وقد قال رضي الله عنه : (إني لأستغفر الله عز وجل وأتوب إليه كل يوم اثني عشر ألف مرة وذلك على قدر ذنبي)([95]١).
واخرج الطبراني في معجمه الأوسط عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه كان يعلم بصيغة جديدة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولها: (اللهم يا داحي المدحوات...).
وأورد الحافظ ابن حجر في المطالب العالية – ورمز بالصحة – عن ثوبة مولى بني هاشم قال: قلت لابن عمر: كيف الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال ابن عمر (اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير اللهم ابعثه يوم القيامة مقاما محمودا يغبطه الأولون والآخرون وصل اللهم على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).
وعن سيدنا الطفيل بن أبي بن كعب أنه كان يأتي عبدالله بن عمر فيغدو معه إلى السوق قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبدالله على سفاط ولا صاحب بيعة ولا مسكين ولا أحد إلا سلم عليه فقلت له : ما تصنع وأنت لا تقف على البيع ولا تسأل عن السلع ولا تسوم بها ولا تجلس في مجالس السوق؟ فقال: يا أبا بطن – وكان الطفيل ذا بطن – إنما نغدوا من اجل السلام لنسلم على من لقيناه([96]٢).
وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما أن المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مبنيا باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه ابو بكر شيئا وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج (خشب هندي).

([95]١) أورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٩٤/٤).

([96]٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٠٦).

وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: إن المقام كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وزمن أبي بكر ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر.

وقال الحافظ في فتح الباري: ولم تنكر الصحابة فعل عمر ولا من جاء بعدهم فصار إجماعا وكأن عمر رأى إبقاءه يلزم منه التضييق على الطائفين أو على المصلين فوضعه في مكان يرتفع فيه الحرج وتهيأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذ مصلى وأول من عمل عليه المقصورة الموجودة الآن.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : (أول من أرزق المؤذنين إمام هدى عثمان ابن عفان).

وإن مما يعتقد بعض الناس بدعيته وهو ثابت في الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الاستعانة بالقرآن العظيم

أدلة الاستعانة بالقرآن العظيم

أ- من القرآن الكريم :

قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[1] وقال أيضا ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾[2] وقال أيضا ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾[3] وقال أيضا ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾[4] وقال أيضا ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[5] وقال تعالى أيضا ﴿ وذا النون إذ ذهب

---

[1] سورة يونس الآية (٥٧).

[2] سورة الإسراء الآية (٨٢).

[3] سورة التوبة الآية (١٤).

[4] سورة المؤمنون الآية (٩٧ -٩٨).

[5] سورة آل عمران الآية (١٧٣ - ١٧٤).

مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾([6]١).

ب- من السنة الشريفة:

عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء فقال بعضهم لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم : نعم والله إني لأرقي ولكن استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق حتى تجعلوا لنا جعلا فصالحوهم على قطيع من الغنم فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ الحمد لله رب العالمين﴾ فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبة قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه فقال بعضهم : اقتسموا فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكروا له ذلك فقال: وما يدريك أنها رقية ثم قال قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي سهما([7]٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى : حمدني عبدي وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال: أثنى علي عبدي ، أو مجدني عبدي ، وإذا قال العبد: ملك يوم الدين قال فوض الي عبدي وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين قال فهذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما

([6]١) سورة الأنبياء الآية (٨٧ - ٨٨).

([7]٢) اخرجه البخاري (١٧٨/١٠) ومسلم (٢٢٠١) وابو داود (٣٩٠٠) والترمذي (٢٠٦٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢٨) وابن ماجه (٢١٥٦).

سأل فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال فهذا عبدي ولعبدي ما سأل»([8][١]).

وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله! ما لقيت من عقرب لدغني البارحة قال: أما لو قلت حين أمسيت: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك)([9][٢]).

وعن السيدة خولة بنت الحكيم السلمية رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، ما يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»([10][٣]).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، و ﴿قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات([11][٤]).

وعن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد اشتكيت ؟ قال : نعم فقال جبريل عليه السلام : بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك)([12][٥]).

وعن سيدنا عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاث وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)([13][٦]).

([8][١]) أخرجه البخاري (١١) في القراءة خلف الإمام ومسلم (٨٧٦) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤) والنسائي (٣٨) في فضائل القرآن واحمد (٢٤١/٢) والحميدي (٩٧٣) وابن خزيمة (٤٩٠) بنحوه وصححه وقال العلامة المبرد معلقا على هذا الحديث (احتج بعضهم من هذا الحديث على أنه ما قرأ أحد الفاتحة لقضاء حاجة وسأل حاجته إلا قضيت) الاستعانة بالفاتحة ص (١٩).

([9][٢]) أخرجه مسلم (٦٨١٩) ومالك (٩٥١/٢).

([10][٣]) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) .

([11][٤]) أخرجه البخاري (١٠٠/٨) و (٥٦/٩) ومسلم (٢١٩٢) وأبو داود (٣٩٠٢) والترمذي (٣٣٩٩).

([12][٥]) أخرجه مسلم (٥٦٦٤) والترمذي (٩٧٢) وابن ماجه (٣٥٢٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٠٥) واحمد (٢٨/٣).

([13][٦]) أخرجه مسلم (٥٧٠١).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إذا فزع أحدكم من النوم فليقل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون فإنه لن تضره)([١][14]).

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يعلمهن من عقل من بنيه ومن لم يعقل كتبها في صك ثم علقها في عنقه.

وعن سيدنا علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خير الدواء القرآن »([٢][15]) وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : « فاتحة الكتاب شفاء من كل داء»([٣][16]).

وعن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إذ سجد فلدغته عقرب في أصبعه فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : (لعن الله العقرب ما تدع نبيا ولا غيره قال: ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح ويقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين حتى سكنت)([٤][17]).

والأحاديث في هذا كثيرة متناثرة في كتب السنة الشريفة ولكن الدليل الواحد يكفي لمن كان اعتقاده متوقفا حقا على دليل من الكتاب والسنة.

من أقوال السلف الصالح:

قال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله ويسقيه المريض.

وقال أيوب: رأيت أبا قلابة كتب كتابا من القرآن ثم غسله بماء وسقاه رجلا كان به وجع.

وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى :

([14]١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذي (٣٥٢٨) وقال حديث حسن .

([15]٢) أخرجه ابن ماجه (٣٥٠١).

([16]٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٥٨٢٧).

([17]٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ كتاب (١٦) باب (٢٢) رقم (١) .

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجربة فما الظن بكلام رب العالمين الذي فضله على كل كلام كفضل الله على خلقه الذي هو الشفاء التام والعصمة النافعة والنور الهادي والرحمة العامة الذي لو أنزل على جبل لتصدع من عظمته وجلالته قال تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾([18]١) ، و (من) هنا لبيان الجنس لا للتبعيض هذا أصح القولين كقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾([19]٢)، فما الظن بفاتحة الكتاب التي لم ينزل في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها؟ المتضمنة لجميع معاني كتب الله المشتملة على أصول أسماء الرب سبحانه ومجامعها وهي الله والرب والرحمن والرحيم .

وقال رحمه الله تعالى: ولقد مر بي وقت بمكة سقمت فيه وفقدت الطبيب والدواء فكنت أتعالج بها آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مرارا ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع به غاية الانتفاع ([20]٣).

وقال رحمه الله تعالى : .... فما تضمنته الفاتحة من أعظم الأدوية الشافية الكافية وقد قيل: إن موضع الرقية منها ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء الدواء ...)([21]٤) .

وقال رحمه الله تعالى أيضا : ... إن أم القرآن هي السبع المثاني والشفاء التام والدواء النافع والرقية التامة ومفتاح الغنى والفلاح وحافظة القوة ودافعة الهم والغم والخوف والحزن لمن عرف مقدارها وأعطاها حقها واحسن تنزيلها على دائه وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها والسر الذي لأجله كان كذلك.

وقال أيضا رحمه الله تعالى : ومن ساعده التوفيق وأُعين بنور البصيرة حتى وقف على أسرار هذه السورة وما اشتملت عليه من التوحيد ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال وإثبات الشرع والقدرة والمعاد وتجريد توحيد الربوبية الإلهية

([18]١) سورة الإسراء الآية (٨٢).

([19]٢) سورة الفتح الآية (٢٩) .

([20]٣) الطب النبوي (١٣٧ - ١٣٩) وزاد المعاد (٣/١٢١ - ١٢٢).

([21]٤) الطب النبوي (١٣٩ - ١٤٠).

وكمال التوحيد والتفيوض إلى من له الأمر كله وله الحمد كله وبيده الخير كله واليه يرجع الأمر كله والافتقار إليه من طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحها ودفع مفاسدها فإن العافية المطلقة التامة والنعمة الكاملة منوطة بها موقوفة على التحقيق بها : أغنته عن كثير من الأدوية والرقى ، واستفتح بها من الخير أبوابه ودفع بها من الشر أسبابه.

وقال العلامة ابن المبرد رحمه الله : ... وقد شاهدت أنا من نجاح الأمور بها أمرا عظيما فقل حاجة من الحوائج تعرض لي من الحوائج الدنيوية والأخروية فأقرؤها عليها إلا قضيت ونجح أمرها وكم من حاجة تعسرت واستدت طرقها([22]١) وحالت دونها الموانع فقرأتها لنجاحها فقضيت وعادت أتم ما كانت ... .

ثم قال رحمه الله تعالى : وهي سورة عظيمة فعليك رحمك الله بالإكثار منها على أمورك وحوائجك وأدوائك ومهماتك وكل ما عرض لك وتأمل ذلك تجد منه ما يظهر لك.

وقال رحمه الله تعالى أيضا معلقا على حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ...) احتج بعضهم من هذا الحديث على انه: ما قرأ أحد الفاتحة لقضاء حاجة وسأل حاجته إلا وقضيت([23]٢).

وقال العلامة محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : في كتابه روح القدس في (محاسبة النفس) في ترجمة فاطمة بنت أبي المثنى ما نصه : (كانت سورتها من القرآن الفاتحة قالت لي : أعطيت الفاتحة أصرفها في كل أمر شئته)([24]٣).

المذاهب الأربعة

إذا قال قائل

([22]١) استدت طرقها : بمعنى سدت أي عميت عليه مذاهبها.

([23]٢) الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور ص (١٩).

([24]٣) روح القدس لابن عربي ص (٨٤).

(فدين الإسلام واحد لا مذاهب فيه ولا طرق يجب اتباعها إلا طريق محمد صلى الله عليه وآله وسلم).

وقال أيضا:

(اعلم أن المذهب الحق الواجب الذهاب إليه والاتباع له هو مذهب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقل الإمام أبو حنيفة ولا مالك ولا أحد من الأئمة خذوا بقولي أو تمذهبوا بمذهبي بل ولا قال ذلك أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهم بل نهوا عن ذلك فإن كان الأصل هكذا فمن أين جاءت المذاهب؟ ولماذا شاعت وألزمت على ذمم المسلمين فتدبر وتأمل أنها ما شاعت إلا بعد خير القرون وما ألزمت إلا من الأمراء الغاشمين والحكام الجاهلين والعلماء الضالين).

فالجواب: إذا قلنا إن الاتباع ينبغي ان يكون للكتاب والسنة فقط أليس ذلك ينبغي ان يكون مبنيا على فهم الصحابة والأئمة المجتهدين نعم إن أحدا من الصحابة لم يقل خذوا بقولي ولم يقل أحد أيضا بأن اتباع واحد بعينه دون الآخر فرض محتم ولكن اتباع الكتاب والسنة بناء على فهم الصحابة والأئمة المجتهدين لهما إنما يكون باتباع أقوالهم ولا شك أن هذا لا خلاف فيه وإنما الإشكال في كيفية اتباع أقوال الصحابة والأئمة المجتهدين رضي الله عنهم.

ففي الماضي اجتهد الصحابة رضي الله عنهم والأئمة الأوائل الذين جاؤوا بعدهم واعتمد بعضهم في اجتهاده على الدليل واعتمد البعض الآخر على الرأي المعتمد على القياس أو الأصول العامة في الشرع المجمع عليها نحو ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾([1]١) . (لا ضرر ولا ضرار)([2]٢) وهكذا وذلك إما لعدم وصول دليل الغير إليه وعدم علمه بالدليل أو لأن لديه دليلا اعتمد عليه ووجده أقوى من دليل غيره أو لاختلافه مع غيره في تفسير النص أو لاختلافهم في نوع الحكم على المسألة هل هي فرض أ و سنة مثلا بسبب اختلافهم في قواعد الاجتهاد ... وهكذا أما من لم يصله الدليل من الصحابة والأئمة المجتهدين واجتهد برايه فرأيه ناقشه العلماء المجتهدون فيما بعد حينما صارت الأدلة متوفرة

([1]١) سورة الحج الآية (٧٨).

([2]٢) أخرجه مالك (٧٤٥/٢) واحمد (١٥/ ١١٠) وابن ماجه (٢٣٤١) والطبراني (١١ / رقم ١١٨٠٦) والدار قطني (٢٢٧/٤) والحاكم (٢٣٤٥) وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

لدى الجميع أي بعد القرن الثالث فعلماء المذاهب فيما بعد على مر العصور ناقشوا هذه الآراء وأخذوا بما يدعمه الدليل منها وتركوا ما يتعارض مع الأدلة وليس أدل على ذلك من مخالفة كثيرين من الأئمة في كل مذهب لقول الإمام أو لقول غيره عملا بالدليل الأقوى وسنبين ذلك إن شاء الله وهذا الوضع لم يشكل سببا هاما من أسباب نشوء المذاهب واستمرارها.

لكن الوضع الثاني وهو الحل الذي يكون كل طرف فيه معتمدا على دليل قوي يتمسك به أوله رأي بدليل غيره أو تفسير أو حكم مختلف فيه عن تفسير غيره أو حكمه في المسألة أو له قواعد تختلف عن قواعد غيره في الاجتهاد هو السبب الأهم في نشوء المذاهب واختلاف الآراء.

ونضرب لذلك مثلا في اختلاف الصحابة في تفسير قوله تعالى ﴿ أو لامستم النساء ﴾([3]١) قال ابن عباس: إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع ولكن الله يكني ما يشاء بما يشاء وقال بعده ابن جرير بذلك واحتج بحديث عائشة الصحيح : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ».

أما عبدالله بن مسعود فقد قال: اللمس ما دون الجماع والقبلة من المس وفيهما الوضوء وروى مالك عن عبدالله بن عمر انه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة فمن قبل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء.

وتابعهم على ذلك الشافعي وأصحابه ومالك وأحمد بن حنبل وقالوا: قد قرئ في هذه الآية – أي قراءة متواترة – (لامستم) و (لمستم). واللمس يطلق في الشرع على الجس في اليد قال تعالى ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾([4]٢) أي جسوه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لماعز حين اقر بالزنا يعرض له بالرجوع عن الإقرار (لعلك قبلت أو لمست) وفي حديث آخر (واليد زناؤها اللمس)([5]٣).

([3]١) سورة المائدة الآية (٦).

([4]٢) سورة الأنعام الآية (٧).

([5]٣) أخرجه البخاري (٦٤٣٨.)

وأنت تلاحظ أن الاختلاف هنا واقع بين الصحابة الذين كانوا في عصر واحد وفي بلد واحد وقد اختلفوا في تفسير النصوص وترجيح بعضها على بعض وكل منهم تسمك بدليله وتبعهم على ذلك الأئمة الأربعة ولا شك أن كل طرف من أطراف الخلاف قد اطلع على دليل الآخر في هذه المسألة.

فالإمام مالك هو شيخ الشافعي والشافعي قرأ على محمد بن الحسن كبير أصحاب أبي حنيفة في العراق وهو أي الشافعي شيخ الإمام أحمد بن حنبل ومع ذلك نجد أن هؤلاء الأئمة افترقوا في الحكم في هذه المسألة على افتراق الصحابة ولم يتفقوا على حكم واحد فيها .

وذكر هذه الأقوال وغيرها ابن كثير والقرطبي مثلا فلم يقولا : قال العلماء : إن سبب الخلاف بين الصحابة هنا هو عدم وصول الدليل إلى من قال إن لمس المرأة ينقض الوضوء ولا قالوا : بخطأ هذا القول وبعدم صحة العمل به كما يفعل بعضهم بل ذهب بعضهم إلى تأييد القول الأول وذهب البعض الآخر إلى تأييد القول الثاني على أنه أخذ بظاهر النص وهو مع ذلك متوافق مع القاعدة الأصولية عندهم والتي تقول: إنه يجوز استعمال الكلمة في كل من معناها الحقيقي والمجازي بآن واحد إذا كان ذلك ممكنا شرعا وعقلا.

والملامسة هنا تعني المس على المعنى الحقيقي والجماع على المعنى المجازي وفي هذه القاعدة خلاف بين الأصوليين.

والاختلاف في بعض قواعد الاجتهاد وقواعد الأخذ بالأدلة هو من الأسباب الهامة في اختلاف الاجتهادات ونشوء المذاهب في الأقوال.

فالأئمة من السلف الصالح رضي الله عنهم وضعوا قواعد وأصولا لمعرفة أحوال الأدلة واستفادة الأحكام الشرعية منها وهذه القواعد إنما وضعوها ليبينوا المنهج العلمي الصحيح للاجتهاد وتفسير النصوص واستنباط الأحكام وليقطعوا الطريق على من يفهم من النصوص فهما لا يستقيم مع الشرع ولا يصح في الدين وأول من فعل ذلك هو الإمام الشافعي رضي الله عنه في (الرسالة).

وهذه القواعد تنبثق من دلالات اللغة وفقهها والأساليب الصحيحة في فهم النصوص واستنباط الأحكام وهي بمثابة ميزان تستقيم عليه هذه الأمة في فهم

الكتاب والسنة وتحتكم إليه عند الاختلاف في تفسير النصوص وتأويلها وعند الاجتهاد والنظر في المبادئ والأحكام.

ومعلوم ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا في غنى عن هذا المنهج لأنهم كانوا يجتهدون بناء على سليقتهم في اللغة وفطرتهم السليمة في فهم معاني النصوص وهم الذين عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووقفوا على أسباب نزول الآيات القرآنية وورود الأحاديث النبوية الشريفة وعرفوا أسلوب الفهم الصحيح للدين فساغ لهم ذلك الاجتهاد.

أما الذين جاؤوا بعدهم فقد صاروا يعانون من شوائب العجمة وظهور الزندقة وظهور من يتاجرون بالشبهات والصناعة الجدلية وأساليب اللجاج للتشويش على المسلمين ولإقحام اسباب الريبة في الطريق إلى الفهم الصحيح للعقيدة والأحكام وهم ممن لا زالوا متأثرين بعقائدهم الفاسدة وأديانهم السابقة فكان لابد من وضع هذا المنهج الذي سمي بعلم أصول الفقه وهذا مثال يوضح لنا صورة من صور اختلاف العلماء في بعض القواعد الأصولية مما أدى إلى اختلافهم في بعض الأحكام الفقهية مع وجود الأدلة:

يقول ابن حجر في الخيرات الحسان في معرض الدفاع عن ابي حنيفة والرد على من قال إنه خالف صرائح الأدلة من غير حجة:

واما مخالفته (أعني خبر الواحد) لظاهر عموم القرآن لأن أبا حنيفة لا يرى تخصيص عمومه أي عموم القرآن بخبر الواحد لأن خبر الواحد ظني الثبوت والقرآن قطعي الثبوت وتقديم أقوى الدليلين واجب.

من ذلك خبر : (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)([6]١) مخالف لعموم ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه﴾([7]٢) لذلك جعل الحنفية قراءة أي آية من القرآن شرطا لصحة الصلاة للنص المذكور : ﴿ فاقرؤوا ما تيسر منه ﴾ وجعلوا قراءة الفاتحة واجبا من الواجبات فلو لم يقرأ شيئا من القرآن في الصلاة لم تصح صلاته ولو قرأ شيئا غير الفاتحة صحت مع الكراهة لأنه أنقص واجبا من واجبات الصلاة وهو تعيين قراءة الفاتحة وتعيين الفاتحة إنما اعتبروه من الواجبات لخبر الآحاد المذكور : مع

([6]١) أخرجه البخاري (٧٥٦) ومسلم (٨٧٢) وأبو دود (٨٢٢) والترمذي (٢٤٧) والنسائي (٩١٠) وابن ماجه (٨٣٧).

([7]٢) سورة المزمل الآية (٢٠).

مراعاة العمل بالدليل الثاني ولكنهم لم يجعلوا الدليل الثاني خبر الآحاد بمرتبة المتواتر بحيث لو ترك العمل به لم يصح العمل بالمتواتر لأنه ليس بدرجته في الثبوت.

أما الشافعية فإنهم يرون تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد لو كان دون المتواتر في المرتبة ولذلك جعلوا قراءة الفاتحة فرضا مع أن الآية تفيد كفاية قراءة ما تيسر من القرآن وقالوا: إن الحديث يخصص الآية ولو كان دونها في الثبوت.

ثم يقول ابن حجر : (وأما مخالفة خبر الآحاد للسنة المشهورة لأن الخبر المشهور أقوى من خبر الآحاد كخبر الشاهد واليمين فإنه مخالف لعموم الخبر المشهور : (البينة على المدعي واليمين على من أنكر)[١][8] واما كونه زائدا على القرآن كهذا فإن الذي في القرآن رجلان أو رجل وامرأتان فالشاهد واليمين زائد عليهما – أي على الخبر المشهور والقرآن – ولذلك رده).

ثم يقول ابن حجر (إذا تقرر ذلك علم منه نزاهة أبي حنيفة رحمه الله تعالى مما نسبه إليه أعداؤه والجاهلون لقواعده بل لمواقع الاجتهاد من أصلها من تركه لخبر الآحاد بغير حجة وأنه لم يترك خبرا إلا لدليل أقوى عنده وأوضح).

وقال ابن حزم : (جميع الحنفية مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من الرأي فتأمل هذا الاعتداد بالأحاديث وعظيم جلالتها وموقعها عنده).

وهذا الحال بالنسبة للاهتمام بالأحاديث النبوية لم يكن ميزة أبي حنيفة وحده أو الأحناف الذين بنوا مذهبهم على هذه القاعدة وحدهم وإنما كان ميزة جميع أئمة المذاهب وعلمائها ولكن اجتهاداتهم في ترجيح الأدلة وطرق استفادة الأحكام منها هو سبب الاختلاف الذي وقع في أقوالهم.

وهكذا نرى مما مر من الأمثلة أن اختلاف الأئمة رضي الله عنهم قد كانت له أسباب علمية وموضوعية وجوهرية أدى اليها اجتهادهم الصحيح والمشروع والمبني على اساس الكتاب والسنة .

([8]١) أخرجه البخاري (٢٥٢٦) ومسلم (١٧١١) وأبو داود (٢٢٥٤).

ذكر الدكتور إبراهيم سلقيني في كتابه (أصول الفقه الإسلامي) : أن الدارس لأصول الفقه يتعرف على الطريقة العلمية الصحيحة التي كتب ها هذا التراث العظيم من الفقه الإسلامي والمعايير الدقيقة العميقة التي كانت متحكمة في أذهان كاتبيه ومهيمنة على بحوثهم.

فيطمئن الباحث إلى أنهم لم يكتبوا إرضاء لنزعة شخصية أو انبعاثا عن هوى متبع أو تحقيقا لمطلب دنيوي أو مجاراة لتسلط عابث ويتخذ من فقههم ومنهجهم فيه نموذجا يحتذي به ويتأكد الباحث أن أسباب الاختلاف بين الأئمة والمذاهب هي أسباب موضوعية علمية وليست أسبابا شخصية.

فإذا أدركنا أن أسباب الاختلاف بين الأئمة والمذاهب هي أسباب موضوعية علمية أدركنا أن هذا الاختلاف هو توسع في الاجتهاد وفسحة في الأحكام المستفادة من نصوص الكتاب والسنة ولا خروج عن مضمونهما وأصولهما فالاختلاف هنا هو نتيجة طبيعية للاجتهاد وأدركنا أن كل مجتهد مصيب بما وصل إليه من طريق الاجتهاد الذي اقرها الشارع عليه وذلك إذا عرف أدلة الغير وكان مقتنعا بدليله وبما أوصله إليه اجتهاده وبذلك لا يكون هذا النوع من الاجتهاد هو المقصود بالذم الذي ذم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المختلفين ولا هو المقصود من التحذير الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالحديث الشريف : « وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»([9]١).

ولكن الاختلاف الذي حذر منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يخرج بأصحابه عن دائرة الإسلام لا الاختلاف الذي يدور ضمن هذه الدائرة وأن الفرق الضالة علامتها أنها تخرج عن الكتاب والسنة ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» وسنة الخلفاء الراشدين شيء غير سنته ولكنه معتمد عليها وهنا تنبغي الإشارة الى أن سنته وسنة خلفائه إنما تفهم على ضوء ما يفهمه العلماء الثقات من الأمة كأئمة المذاهب ومن جاء بعدهم رضوان الله تعالى عليهم اجمعين فتكون سنتهم كسنة

([9]١) أخرجه أبو داود (٢٦٧٨) وابن ماجه في المقدمة (٤) وأحمد (١٢٦/٤).

الخلفاء الراشدين مبنية على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويمثلون بمجموعهم أهل السنة والجماعة.

ولذلك يقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله عنه : لولا بيان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمجتهدين لنا ما أجمل في الكتاب والسنة لما قدر أحد منا على ذلك وهذا الذي بينوه من مجمل الكتاب والسنة بعضهم قال عنه فرض وبعضهم قال عنه واجب كقراءة الفاتحة في الصلاة وبعضهم قال: يصح العمل بتركه وبعضهم قال : لا يصح كالنية في الوضوء مثلا وهكذا كانت اقوالهم مختلفة بحسب ما وصلت إليه اجتهاداتهم رضي الله عنهم.

والحاصل أن هذه القواعد التي وضعها السلف الصالح رضي الله عنهم وأولهم الشيخ الشافعي لاستنباط الأحكام من النصوص والاجتهاد في فهم الكتاب والسنة قد أخذوها من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وقواعد اللغة العربية وإجماعات الصحابة المدونة في كتب أصول الفقه هذه القواعد إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون غير صحيحة فإذا كانت صحيحة فلا يسعنا إلا أن نقبل نتائجها التي وصل اليها المجتهدون عبر القرون الماضية بناء عليها ولو تسببت هذه القواعد في وقوع الاختلاف في الاجتهادات بينهم طالما أن هذا الاختلاف ناتج عن الاجتهاد والاجتهاد حق المجتهدين ولو سرنا عليها فلن نصل لغير ما وصلوا إليه وإن كانت غير صحيحة فكيف وضعها الأئمة وأولهم الشافعي رضي الله عنه ؟ وكيف سار عليها علماء الأمة عبر العصور الإسلامية؟

إننا إن أخذنا بهذه القواعد والموازين سلمنا لمن اخذ بها فيما وصل إليه من الاجتهاد في فهم الكتاب والسنة وقبول النصوص أو ردها لأن عمله هذا مبني في الأصل على الكتاب والسنة إذ أن هذه القواعد مستنبطة منهما وإن لم نأخذ بها خرجنا عن منهج السلف وأئمة المسلمين عبر عصور الإسلام في فهم الكتاب والسنة ونحن ندعي اتباعهم في فهمهم لهما وهم إنما فهموهما وضبطوا فهمهما بناء على هذه الأصول.

هل نقحت المذاهب؟

فإن قال أحدهم" (ولما كان من أكبر أسباب الخلاف بين المذاهب الفقهية هو ظهور الفقيه ونشوؤه قبل استكمال جمع السنة وتدوينها ودراستها وتحقيقها وشرحها وكان من الواجب بعد أن تم للسنة الجمع والتمحيص والشرح والتحقيق أن يعاد النظر في آراء المذاهب المختلفة لتعدل وتنقح بناء على ذلك لكون تعصب كل قوم لمذهبهم وإمامهم وضيق صدرهم عن الرجوع عن قوله وضعف علمهم وكل ذلك حال دون إعادة النظر في كثير من المسائل الموجودة في كل مذهب مما ظهر بطلانه وتهافت دليله).

فالجواب: أن القول [بأن أئمة المذاهب بعد استكمال جمع السنة وتدوينها أي بعد نهاية القرن الثالث الهجري لم يقوموا بدراستها وتحقيقها وتمحيصها ولم يعيدوا النظر في أقوال أئمة مذاهبهم ولم ينقحوها بناء على ذلك ولكن قل قوم قد تعصبوا لإمامهم وضاق صدرهم عن الرجوع عن قوله وكان جهلة مما حال ذلك كله دون إعادة النظر في الكثير من المسائل الموجودة في كل مذهب مما ظهر بطلانه وتهافت دليله] باطل وغير صحيح وهذا الكلام إن دل على شيء فإنما يدل على أن المفكرين يرون أن أكثر علماء المذاهب والمحققين من أقوام الأئمة الأربعة كانوا متهمين في دينهم وأمانتهم وضربوا بالسنة عرض الحائط وأخذوا بالأقوال المخالفة لها ظلما وعدوانا وهذا كذب صريح على علماء المذاهب وشتم خطير لأمانتهم وصدقهم وطعن في الدين ليس مثله طعن فإن علماء المذاهب قد أعادوا النظر في أقوال أئمتهم ونقحوها ونظروا في أقوال وأدلة الغير أيضا وكانوا يرجعون عن أقوال أئمتهم لدى توفر الحديث والدليل والأقوى لديهم وليس أدل على ذلك من تعديل الكثير من أقوال المذاهب خلال عصور الاجتهاد ولم تثبت في المذاهب إلا الأحكام التي لها أدلتها والتي أقرها إمام المذهب بعد أن عرف أدلة الغير فيها أو التي أقرها غيره من أئمة مذهبه وتعرضت للدراسة من آلاف الأئمة الكبار في كل مذهب ممن شهدت لهم الأمة عبر العصور بعلمهم وأمانتهم وعدالتهم].

حتى الأئمة الحنفية رضي الله عنهم الذين اشتهروا بأصحاب الرأي نجدهم يقدمون العمل بالحديث الضعيف « إذا لم يوجد لمسألة دليل غيره » على القياس.

ويقول الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى في رسالته (السهام الصائبة):
ومن راجع تخريج أحاديث الهداية للإمام الزيلعي – المتوفى سنة (٧٦٣هـ) – يتحقق أن مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه هو أيضا مذهب أهل الحديث كباقي المذاهب إذ القاعدة عند جميعهم الاستدلال على المسألة من القرآن فإن لم يجد فيه دليلا لها فمن السنة فإن لم يوجد فمن الإجماع فإن لم يوجد فحينئذ يقيسون على أقرب المسائل اليها وأشبهها بها بما ثبت دليله بالكتاب أو السنة أو الإجماع.
وقد مر كلام ابن حجر الهيثمي عن ابن حزم بذلك ومثله يذكره ابن القيم في إعلام الموقعين حيث يقول إن أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله تعالى مجمعون على أن ضعيف الحديث مقدم على القياس والرأي وعلى ذلك بناء مذهبه.
وفي كتاب نصب الراية يعرض الإمام الزيلعي رضي الله عنه بعض أدلة المذهب الحنفي كما يعرض فيه أدلة الغير أيضا من الحديث ونجد فيه أن الحنفية اطلعوا على السنة اطلاعا واسعا وأخذوا بها.
ويقول الشيخ المحقق محمد زاهد الكوثري في مقدمة له على كتاب نصب الراية:
(وكتاب الزيلعي هذا يجد فيه الحنفي صفوة ما استدل به أئمة المذهب من أحاديث الأحكام، ويلقى المالكي فيه نقاوة ما خرجه ابن عبدالبر في الـ (التمهيد) و(الاستذكار) وخلاصة ما بسط عبدالحق في كتبه في أحاديث الأحكام والشافعي يرى فيه غربلة ما خرجه البيهقي في (المسند والمعرفة) وغيرهما وتمحيص ما ذكره النووي في (المجموع) و (شرح صحيح مسلم) واستعراض ما بينه ابن دقيق العيد في (الإلمام) و (الإمام) و (شرح العمدة) وكذلك الحنبلي يلاقي فيه وجوه النقد في كتاب (التحقيق) لابن الجوزي و (تنقيح التحقيق) لابن عبدالهادي وغير ذلك من الكتب المؤلفة في أحاديث الأحكام بل يجد الباحث فيه سوى ما في الصحاح والسنن والمسانيد والآثار والمعاجم من ادلة الأحكام أحاديث في الأبواب من مصنف ابن أبي شيبة – أهم كتاب في نظر الفقيه ومصنف عبدالزاق ونحوهما مما ليس بمتناول يد كل باحث اليوم ثم يقول وهذا حافظ واحد من حفاظ الحنفية قام بمثل هذا العمل العظيم الذي وقع موقع

الإعجاب الكلي بين طوائف الفقهاء كلهم في عصره وبعد عصره فمن قلب صحائف هذا الكتاب ودرس ما في الأبواب من الأحاديث تيقن أن الحنفية في غاية التمسك بالأحاديث والآثار في الأبواب كلها ولكن لا تخلو البسيطة من متعنت يتقول فيهم إما جهلا أو عصبية جاهلية ... فمرة يتكلمون في أخذهم بالرأي عند فقدان النص مع أنه لا فقه بدون رأي ومرة يرمونهم بقلة الحديث وقد امتلأت الأمصار بأحاديثهم ..... الخ .

ويقول الشيخ عبدالسلام عيرط: وقد حاولت أن انظر في بعض الأقوال التي يدعي اللامذهبيون أن الأئمة خالفوا الحديث الصحيح فيها أو أنها لم تصل إليهم ولا إلى أتباعهم فرأيت أن هذه الأحاديث قد وصلت إليهم والى أتباعهم وفهموا منها غير الذي فهمه دعاة اللامذهبية وبعضها وصل إليهم ولم يأخذوا به لمعارضته بعموم الكتاب أو أحاديث أخرى ولكن هؤلاء ليس عندهم قواعد في الأصول والترجيح يسيرون عليها حتى يصلوا إلى الفهم الصحيح ويعرفوا الصواب.

وهذه كتب أهل المذاهب في الحديث والفقه والأصول أكبر دليل على أن علماء المذاهب قد حققوا مذاهبهم ونظروا في أدلة الغير وأخذوا بما هو أقرب للكتاب والسنة ولكن كل حسب اجتهاده وفهمه للنصوص وقواعد الاستنباط التي اعتمد عليها ورآها أفضل لفهم النصوص ومعرفة الأحكام وما هذه الشهادات التي مرت من هؤلاء العلماء وغيرهم بعد معرفتهم لكتبهم وأقوالهم وما استمرار الأئمة والعلماء والآلاف المؤلفة من أكابر هذه الأمة وصالحيها عبر القرون على هذه المذاهب إلا الدليل الأكبر والبرهان الأعظم على أن هذه المذاهب قد درست ونقحت وبينت على الكتاب والسنة من غير زيغ ولا انحراف.

وإن الذي يقول غير ذلك إنما يحمله على ذلك القول جهله وقلة علمه وسوء ظنه بالمسلمين وإن من الغريب أن تجد أناسا من المسلمين يسيئون الظن بهذا الجمهور الواسع من أتباع المذاهب ويشككون بهم إلى الحد الذي يخالفون فيه النصوص التي شهدت لهذه الأمة وعلمائها وهم يزعمون الدعوة إلى الإصلاح.

لقد قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾([10]١).
قال ابن كثير : يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم.
وروي من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (فضلت هذه الأمة على سائر الأمم)([11]٢) وقد ساق ابن كثير الأحاديث الكثيرة والمختلفة عن فضل هذه الأمة.

ومنها ما روي عن حصين بن عبدالرحمن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق الأحمر فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)([12]٣).
ويقول ابن كثير: ومن الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله عز وجل وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا ثم قال : « ألا ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبرنا ثم قال « إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»([13]٤) .
ثم روي بعدة روايات كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومئة صف أنتم منهم ثمانون صفا)([14]٥) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم (أنتم ثلث أهل الجنة أو نصف أهل الجنة)([15]٦).

([10]١) سورة آل عمران الآية (١١٠).

([11]٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٨٣/٥).

([12]٣) أخرجه البخاري (٦٥٤١) ومسلم (٢٢٠) و (٣٧٤) والترمذي (٢٤٤٦) وابن منده (٩٨٢ -٩٨٣ -٩٨٤) والبغوي (٤٣٢٢) وابن حبان (٦٤٣٠).

([13]٤) اخرجه البخاري (٥٢٨) والترمذي (٢٥٤٨) وابن ماجه (٤٢١٨٣) وأبو يعلى (٥٣٨٦) وأحمد (٣٨٦/١) وأبو نعيم في الحلية (١٥٢/٤) وفي صفة الجنة (٦٤) وأبو عوانة (٨٧/١ – ٨٨) والطبري في تهذيب الآثار في مسند ابن عباس (٧٠٥) وابن منده في الإيمان (٩٨٥) والطبري في تفسيره (١٧/ ١١٢) وهناد بن السري في الزهد (١٩٥) و الطحاوي (٣٦٠) والطيالسي (٣٢٤) وابن حبان (٧٢٤٥).

([14]٥) أخرجه أحمد (٤٥٣/١) وأبو يعلى (٥٣٥٨) والبزار (٣٥٣٤) والطبراني في الكبير (١٠٣٥٠) وفي الأوسط (٥٤٣) ورجالهم رجال الصحيح في مجمع الزوائد (١٨٦٧٧) واخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٦٥) وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٣٢٩) مختصرا وابن أبي شيبة (٤٧١/٥).

([15]٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩٠٢) وإسناده جيد كما في مجمع الزوائد (٧٤٥/١٠) برقم (١٨٠٦٨٠).

وهل هذه الأمة المقصود ة هنا إلا السلف من الصحابة والتابعين وأهل المذاهب الذين تتهمون علماءهم بالتعصب الموقع بالكفر من جراء ردهم للآية والحديث وأخذهم بقول مذهبهم المخالف.

أين أنتم من حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها»([16]١).

فهل حصل التجديد الذي يعنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أم لم يحصل؟ ومن الذي كان يقوم به ؟ أليس علماء المذاهب الذين تطعنون بهم وتتهمونهم وتضللون من سار على مذاهبهم؟ وهل الأمة إلا أهل هذه المذاهب؟

أين أنتم من الحديث الذي رواه جمع من المحدثين عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريق الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»([17]٢).

والذي قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه: هذا إخبار منه صلى الله عليه وآله وسلم بصيانة هذا العلم وحفظه وعدالة ناقليه وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفا من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف فلا يضيع وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر وهكذا وقع ولله الحمد وهو من أعلام النبوة ولا يضر كون بعض الفساق يعرف شيئا من علم الحديث فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه لا أن غيرهم لا يعرف شيئا منه([18]٣) .

ما رأيكم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الأمة؟ وما رأيكم بقول الإمام النووي هذا؟ أليس هؤلاء العدول من كل عصر هم من أتباع المذاهب ؟ أليست هذه شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعدالة لهم ولمن تبعهم بإحسان أيضا؟! ألا ينبغي أيها الأخوة أن تنتبهوا إلى هذه النواحي وأن لا يحملكم الغرور والكبر والتعصب للرأي والثقة الزائدة بالنفس على اتهام الأمة وعلمائها والطعن بمن شهد لهم الكتاب والسنة؟.

([16]١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) والحاكم (٥٢٢/٤) والطبراني في الأوسط (٦٥٢٣).

([17]٢) أخرجه البزار (١٤٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٠١).

([18]٣) تهذيب الأسماء واللغات.

رأي المنكرين في علماء المذاهب

فإن قيل (لا تقل إنه وجد في كل مذهب على ممر القرون علماء محققون هذبوا المذاهب وحققوا أقوالها وتركوا ما فيها من ضعف وخطأ وهذا الإمام النووي مثلا رجح بعض الأقوال خلاف مذهبه الشافعي لا تقل ذلك لأننا نعلم أن أكثر علماء المذاهب والمحققين فيها لم يفعلوا ذلك بل كان كل عنايتهم وهمهم الدفاع عن مذاهبهم فقط وكانوا يبحثون في الأدلة بروح التعصب لمذاهبهم ويحاولون تقويتها بكل سبيل ولو كانوا أنفسهم غير مقتنعين به ولا يقبله المنهج العلمي أما الإمام النووي فهو واحد من مئات لم يفعلوا فعله ثم هو نفسه لم يسلك هذه الطريق ويترك رأي مذهبه في كل مسألة رأى فيها ضعف دليله بل فعل ذلك في مسائل قليلة وربما كان ذلك خوفا من الرأي العام المذهبي الذي كان يلهب بسياطه ظهر كل عالم يخرج على المعتاد والمتوارث ويحاول التفلت من قيود التعصب المذهبي وإنك لتلمس فرقا واضحا بين ما كتبه النووي في المجموع وبين ما كتبه في شرحه لصحيح مسلم حيث حاول أن يبحث الأمور بروح موضوعية متجردة حرة)!!.

هذا هو رأي المنكرين في علماء الأمة الذين مروا على المذاهب عبر القرون عليه فإن اقل منكر من المنكرين هو أحرص على دين الله وأكثر غيرة على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من كل هؤلاء العلماء والأئمة فأنت ترى المنكر يتحرق على الانتصار للكتاب والسنة ويتفانى في سبيل التمسك بهما والذود عنهما وبينما ترى وللآسف آلاف الأئمة والعلماء والشيوخ من هذه الأمة يصرون على مخالفتهم للشريعة ويتعصبون زورا وبهتانا للأقوال المناقضة لها على الرغم من عدم قناعتهم بها ويتواطؤون على إقناع الناس بالخطأ من غير خوف من الله ولا وجل حتى الإمام النووي شيخ الإسلام هو نفسه لم يسلك طريقة المنكرين ولم يترك رأي مذهبه في كل مسألة رأى فيها ضعف دليله إلا في مسائل قليلة وما الكتاب الذي ألفه في الفقه الشافعي وهو يعلم أن الناس سيتلقونه عنه ويتعلمون دينهم منه إلا شاهد ودليل على أن النووي لم يكن موضوعيا في بحثه ولم يكن متجردا ولا حرا في نقله للعلم وتقريره للشرع.

واما هذه النظرة التي تشمل معظم علماء الأمة والآلاف المؤلفة منهم يجد المسلم سؤالا يطرح نفسه ترى هل درس المنكرون تراجم كل هؤلاء الأئمة وكتبهم وأعمالهم قبل أن يحكموا عليهم بهذه التهمة ؟ أم هل هذا بإمكانهم ؟ لكنه ما إن ينظر في بعض التراجم لهؤلاء العلماء حتى يكشف كذب هذه التهمة الموجهة إليهم وجرأة هذا المتهم الذي يريد ان يشوه سيرتهم ويخيل للناس تواطأهم عبر القرون الطويلة على الكذب زاعما أنه ينتصر للكتاب والسنة وأنه جاء بعد كل هذه العصور ليدعو إلى ما تجاهلت الأمة الدعوة إليه وليصحح ما تغافلت الأمة عن تصحيحه.

ونتناول مثالا على ذلك مختصرا لترجمة الإمام النووي الشافعي وذلك نقلا عن تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي رحمه الله تعالى يقول الذهبي : (النووي الإمام الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الشافعي صاحب التصانيف النافعة لازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم والعبادة والأوراد والصيام والذكر والصبر على المعيشة الخشنة في المأكل والملبس).

قال ابن العطار: ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يضيع وقتا في ليل ولا في نهار حتى في الطريق وأنه دام ست سنين ثم اخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق قلت: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها .

كان حافظا للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليله رأسا في معرفة المذهب وقال ابن العطار: كلمته في الفاكهة – أي بأن ياكل من فواكه دمشق فلم يكن يأكل منها ورعا – فقال: دمشق كثيرة الأوقاف وملاك لمن تحت الحجر والتصرف لهم ولا يجوز إلا على وجه الغبطة لهم ثم المعاملة فيها على المساقاة وفيها خلاف فكيف تطيب نفسي بأكل ذلك.

وكان يواجه الملوك والظلمة بالإنكار ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى.

وقال ابن فرج: الشيخ محي الدين قد صار إلى ثلاثة مراتب كل مرتبة لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال : العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال الشيخ قطب الدين اليونييني : كان – أي النووي – أوحد زمانه في العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش وفي دار العدل في قضية الغوطة لما أرادوا وضع الأملاك على بساتينها رد عليهم ذلك وقام على الملك الظاهر في مسائل غيرها فحيك عن الملك الظاهر أنه قال: (أنا أفزع منه) أهـ كلام الذهبي وجاء في طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي : (الشيخ العلامة محي الدين أبو زكريا شيخ الإسلام أستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين والداعي إلى سبيل السالفين).

هذه هي صورة الإمام النووي عند أعلام الأمة فهو حافظ وقدوة ومحي الدين وصاحب التصاينف النافعة يصنف ويفيد وينصح ويقول الحق مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة لله عزوجل ... وبعد ، فهل يتصور من رجل هذا حاله وهذه سيرته أن يسير على رأيه ويقرره في كتبه ولا يتركه وهو يرى خطأه وضعف دليله وقد تحصل لديه الأصح؟!

إذن فأين عمله بدقائق الورع؟ وأين مراقبته لله؟ وأين غيرته على الحق وأين نصحه وإفادته إذا كان يقرر في تصنيفاته وكتبه ما يراه مخالفا للصحيح من الكتاب والسنة ولماذا سمي محققا للمذهب الشافعي؟ ثم هل خدع به هؤلاء الذين يشهدون به هذه الشهادات؟ أم أنهم متهمون في دينهم وأقوالهم مثله لا شك أن هذا القول الثاني هو الذي يرجحه المنكرون ويعللون ذلك بخوف الجميع من الرأي العام المذهبي الذي كان يلهب بسياطه ظهر كل عالم يخرج عن المعتاد المتوارث ويحاول التلفت من قيود التعصب المذهبي.

وليت شعري أين شجاعة النووي إذن؟ أين جرأته التي كان يواجه بها الملوك ويأمر بها بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ ويقوم على الملوك حتى يرد الحق إلى نصابه ويقف في وجه الباطل حتى يمنعه ومن أي شيء يخاف هذا الرجل إذا كان الملك يخاف منه ويفزع؟.

هل بقي ما يرده عن كلمة الحق عندما يريد أن يقولها؟ هل يتصور أن مثل هذا الرجل الذي لا يخاف في الله من الملوك والظلام يخاف من الناس والعوام وهو على هذه الدرجة العالية من النزاهة والتقوى والورع والعلم؟!!

ثم كيف يؤلف كتابه المجموع في الفقه الشافعي وهو مغلوب على أمره ؟ فيقرر فيه ما ليس مقتنعا به وينقل فيه ما يخالف الصحيح من كتاب الله وسنة رسوله وهو يرى تلامذته من كبار العلماء ويعلم أنهم سوف ينقلونه عنه إلى الناس وكيف بقيت المواربة هذه خافية على علماء الأمة والمذاهب قرونا شتى؟ حتى جاء المنكرون اليوم فاكتشفوها وفضحوا أمرها إنها تساؤلات يجيبنا اليها العلماء الأكثر علما من هؤلاء المنكرين والأئمة الأكثر معرفة وفهما للشرع ولكلام النووي في المجموع و في شرح صحيح مسلم فيبطلون بها هذه التهم التي افتراها هؤلاء الناس على هذا الإمام الجليل والتي لا تليق إلا بالفساق والمتهاونين والمنافقين.

ويقول سيدنا الشيخ صالح الفرفور – رحمه الله تعالى – في شرحه على الأربعين النووية عند ترجمة الإمام النووي – رضي الله عنه –: (ومن أشهر ما كتب – أي النووي – في الفقه الشافعي شرح المهذب للشيرازي المسمى (المجموع) وهو أعظم ما كتب – أي النووي – في الفقه ولم يصنف في مذهب الإمام الشافعي على مثل أسلوبه لكنه لم يكمله.

قال الأسنوي وابن الملقن : (ليته أكمله ونقصت كتبه كلها).

وقال ابن كثير في تاريخه: (إنه لو كمل لم يكن له نظير في بابه لأنه أبدع فيه وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاء وحرر الفقه في المذهب وغيره وحقق الحديث على ما ينبغي وبحث في اللغة ولا أعرف في كتب الفقه (أي الفقه الشافعي) أحسن منه).

وقال في طبقات الشافعية متحدثا عن المجموع : (سلك فيه طريقا وسطا سهلا جامعا لأشتات الفضائل وعيون المسائل ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء وتحرير الألفاظ وبيان صحة الحديث من سقمه وبالجملة فهو كتاب ما رأيت أحدا نسج على منواله من المتقدمين ولا حذا على أمثاله مصنف من المتأخرين).

وقال العثماني : (إنه لا نظير له ولم يصنف مثله ولكنه ما أكمله ولا حول لاو قوة إلا بالله إذ لو أكمله ما احتيج إلى غيره – أي في فقه الشافعية – وبه عرف قدره واشتهر فضله).

وقد حاول السبكي تكملة شرح المهذب وقال في أول التكملة مترجما للنووي رحمه الله : (الشيخ الإمام العلامة علم الزهاد وقدوة العباد محي علوم الأولين وممهد سبل الصالحين) ووصل في التكملة إلى كتاب التفليس.

وقال الحافظ السخاوي : ولم يتهيأ إكماله لأحد ممن انتدب لذلك من العلماء لا إسماعيل الحسباني ولا التاج السبكي ولا الشهاب ولا ابن النقيب ولا السراج البلقيني ولا الزين العراقي ولا ولده وعد ذلك من كرامات مؤلفه.

وهكذا أخي المسلم يستبين لك من خلال ما مر جهل هؤلاء الناس بالفقه والحديث وقصورهم في العلم والفهم من خلال أقوالهم الشاذة التي يخالفون فيها من هو أوثق منهم ويخطئون فيها من هو أصوب قولا منهم يطعنون فيها بأصح ما اتفق عليه العلماء ويتحاملون فيها على الأكابر والفضلاء.

وما اكثر ما يصدق على هؤلاء قول الشاعر:

إذا وصف الطائي بالبخل مادر	وعير قسا بالفهامة باقل
وقال السها للشمس أنت ضئيلة	وقال الدجى يا صبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة	وفاخرت الشهب الحصا والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة	ويا نفس جدي إن دهرك هازل

ولو قرأنا تاريخ المذهب الشافعي مثلا لوجدنا أنه قد مر على المذهب أئمة عظماء وكبار وأتقياء هم الذين وضعوا احكامه وحققوا أدلتها وبينوا اعتمادها على الكتاب والسنة وكانو محل ثقة الناس بهم واتباعاهم لهم وتمسكهم بهم واليك أمثلة عنهم من كل قرن([19]١). فهذا ابو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبراني الشهير بابن القاضي صاحب التصانيف المشهورة – التخليص والمفتاح وأدب القاضي وله مصنف في أصول الفقه وكان إماما جليلا توفي سنة (٢٢٥هـ).

وهذا أبو العباس أحمد بن عمرو بن سريج: كان يفضل على جميع أصحاب الشافعي له مصنفات كثيرة يقال إنها بلغت (٤٠٠ مصنف) توفي (٣٠٦هـ).

وهذا ابو عثمان بن سعيد الأنماطي الذي اشتهرت به كتب الشافعي وتوفي سنة (٣٨٨).

([19]١) عن كتاب تاريخ التشريع الإسلامي لخضر بك باختصار وكتاب تاريخ التشريع للشيخ الدكتور عبدالطيف الفرفور.

وأولئك هم بعض أصحابه في العراق أما أصحابه في مصر فهم:

يوسف بن يحيى البويطي المصري وهو اكبر اصحاب الشافعي المصريين تفقه بالشافعي وحدث عنه وعن عبدالله بن وهب وغيرهما وله المختصر المشهور الذي اختصره من كلام الشافعي وكان الشافعي يعتمده في الفتيا ويحيل عليه إذا جاءته مسألة واستخلفه على أصحابه بعد موته فتخرج به أئمة تفرقوا في البلاد ونشروا علم الشافعي في الآفاق توفي سنة (٢٣١هـ).

ومنهم ابو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني المصري – ولد سنة (١٧٥هـ) – وهو الذي ألف الكتب التي عليها مدار مذهب الشافعي وأخذ عنه كثيرون من علماء خراسات والعراق والشام – توفي سنة (٢٦٤هـ).

ومنهم الربيع بن سليمان المرادي وحرملة بن يحيى التجيبي ويونس بن عبد الأعلى الصدفي وكلهم قد ألفوا في فقه الشافعي ونشروا عنه مذهبه.

ثم جاء بعدهم أئمة المذهب أبو إسحاق إبراهيم بن احمد المروزي إمام عصره في الفتوى والتدريس في القرن الثالث والرابع ، توفي (٣٤٠هـ).

وهذا محمد بن سعيد بن أبي القاضي الخوارزمي صاحب كتاب الحاوي والعمدة القديمين في فقه الشافعية في نفس العصر وهذا ابو بكر أحمد بن إسحاق الضبعي النيسابوري صاحب كتاب الأحكام توفي سنة (٤٣٢هـ).

وهذا ابو السائب عتبة بن عبدالله بن موسى القاضي أحد العلماء الأئمة أول من ولي قضاء القضاة ببغداد توفي سنة (٣٥٠هـ).

وهذا القاضي ابو حامد أحمد بن بشر المروزي صاحب كتاب الجامع وهو محيط بالأصول والفروع وهو عمدة عند أصحاب الشافعي توفي سنة (٣٦٢هـ).

وهذا القفال أكبر فقهاء الشافعية بما وراء النهر وعنه انتشر فقه الشافعي بما وراء النهر توفي سنة (٣٦٥هـ).

وهذا ابو حامد الإسفراييني انتهت إليه رياسة بغداد في العلم في عصره والذي قال القدوري في حقه: هو أفقه من الشافعي توفي سنة (٤٠٨هـ).

وهذا أحمد بن محمد الضبي صنف المجموع والمقنع واللباب توفي سنة (٤١٥هـ) وإبراهيم بن محمد الاسفراييني وطاهر بن عبدالله الطبري انتهت إليه رياسة العلم في بغداد في عصره وعنه أخذ العراقيون العلم توفي (٤٥٠هـ).

وهذا علي بن محمد الماوردي صاحب الحاوي والإقناع في الفقه توفي سنة (٣٥٠هـ) وهذا أبو إسحاق الشيرازي وابن الضباع في القرن السادس وأبو المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني المعروف بإمام الحرمين وإمام المشرق صنف النهاية في الفقه لم يصنف في المذهب مثلها توفي سنة (٤٨٧هـ).

وعبدالواحد بن إسماعيل الروياني صاحب كتاب البحر إمام أئمة المذهب.

وحجة الإسلام الغزالي الذي قالوا عنه: بأنه مجدد القرن الخامس.

وهذا ابن أبي عصرون قاضي القضاة في دمشق وعبدالكريم بن محمد القزويني الرافعي الذي قيل عن كتابه (فتح العزيز) لا مثل له وكان من افراد زمانه وكان في الفقه عمدة المحققين وصل إلى درجة الاجتهاد توفي سنة (٦٢٣هـ).

وهذا شيخ الإسلام يحيى بن شرف النووي وقد مر الكلام عنه مفصلا وله في المذهب الشافعي كتب كثيرة منها المجموع والمنهاج توفي سنة (٦٧٦هـ).

وهذا تقي الدين السبكي الفقيه الأصولي والمحدث وله كثير من المؤلفات وقد أكمل شيئا من كتاب المجموع للنووي توفي سنة (٧٥٦هـ).

وهذا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الذي انتهت إليه رياسة العلم في مصر له تآليف كثيرة في الفقه والحديث وغيرهما منها في الفقه (منهاج الطلاب) وشرحه المسمى (فتح الوهاب) وله (تحفة الباري شرح صحيح البخاري) توفي سنة (٩٢٦هـ) وهذا شهاب الدين بن حجر الهيثمي كان بحرا في الفقه وقدوة الأئمة في زمانه له مؤلفات قيمة منها (تحفة المحتاج شرح المنهاج للنووي) و (الزواجر عن اقتراف الكبائر) وغير ذلك توفي سنة (٩٩٥هـ).

كل هؤلاء وغيرهم مروا عبر القرون العشرة الأولى وكانوا بحرا في العلم ومثالا في التقوى والورع والمخافة من الله عز وجل وكتبهم وأقوالهم هي عمدة المذهب الشافعي.

وأمثال هؤلاء قد مروا على بقية المذاهب وكانت كتبهم واقوالهم واجتهاداتهم هي سبب نشوء المذاهب واستمرارها وتمسك الناس بها وبقاء الإسلام واستمراره، فهل هؤلاء الأئمة هم العلماء المضلون الذين يقصدهم المنكرون؟!!

إنني كمسلم يخاف من الله ويغار على دينه ويصيبه كثير من الأسى والحزن عندما يرى مثل هذا الطعن يوجه إلى صميم الإسلام من خلال توجيهه إلى أئمته وعلمائه وعامة أهله وذلك بأيدي مسلمة أراني لا أجد ما أقوله لهؤلاء الذين يزعمون ذلك إلا قولي: إن كانت عندكم مخافة من الله وإيمان باليوم الآخر وإن كنتم تحسبون حسابا للوقوف بين يد الله عز وجل فاتقوا الله ... اتقوا الله أيها المسلمون... اتقوا الله في أوليائه ... اتقوا الله في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم اتقوا لله ولا تقفوا بين يديه خصوما لهؤلاء الأئمة الكبار يوم القيامة لا تتهموا أئمة الإسلام لا تشككوا المسلمين بعلمائهم لا تشككوا المسلمين بدينهم وما وصلهم عن طريق هؤلاء الثقات وأسأل الله أن يجعل لرجائي هذا سبيلا إلى قلوبكم.

هل يحرم التزام مذهب معين

اجتهد المنكرون في الحكم على من يقلد مذهبا معينا بأنه يحرم عليه ذلك وأوجبوا عليه عدم التزام مذهب معين لعدة أمور رأوها انه أدلة على ذلك الحكم.

قالوا: (إن التزام المذهب خطأ وبدعة في الدين لأمور منها: أن عدم التزام مذهب هو الأصل والأيسر والأقرب إلى الفهم الصحيح لمراد الله تعالى لأن الله تعالى حين أمر الجاهل بسؤال أهل الذكر لم يحدد واحد معينا منهم بل أطلق ذلك ومن المعروف ان المطلق يبقى على إطلاقه حتى يأتي ما يقيده).

أقول: وهذا السبب كما يفهم منه عدم وجوب الأخذ من أكثر من واحد فالأمر مباح إن شاء اخذ المقلد أو المتبع من واحد وإن شاء اخذ من أكثر وليس هناك ما يوجب عليه أن يأخذ من أكثر من واحد والقول بأن الأصل كان كذلك مخالف للواقع.

وذكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في اللامذهبية ص (٧٩) عن شذرات الذهب لابن العماد (١٤٨/١) : ومعلوم أن اتباع مذهب معين لا يعتبر اتباعا

لإمام المذهب فحسب وغنما هو اتباع لجمهور من العلماء ممن ساروا على هذا المذهب ودعوا إليه وألفوا فيه كتبهم وعلموها للناس فإذا عرفنا أنهم كانوا من خيرة الناس وهم معظم علماء هذه الأمة فكيف يستسيغ هؤلاء المنكرون تضليلهم وتسفيه عملهم والحكم عليه بأنه بدعة محرمة يجب الرجوع عنها؟!!

ثم إن القول بأن الأيسر والأقرب إلى الفهم الصحيح لمراد الله تعالى هو عدم التزام مذهب بعينه عكس الواقع تماما فإن الذي يجد أهل قريته أو بلده على مذهب واحد وحالة واحدة في العمل بالأحكام غير متفرقين بين أقوال هذا المجتهد وأقوال ذاك يسهل عليه معرفة احكام دينه وتعلمها أكثر بكثير من أن يجد هناك أقوالا مختلفة بين المجتهدين لا يعرف ايها الأصح وأيها بإمكانه ان يختاره .

والذي يجد نفسه يسير على مثل ما يسير عليه الناس يكون اكثر راحة في نفسه من الذي يجد نفسه مخالفا لغيره في اعماله.

وسنتكلم فيما بعد عن عدم إمكانية توحيد الناس في مذهب واحد وعدم إمكانية تركهم ياخذون من أي مجتهد شاؤوا لما يترتب على ذلك من وقوع العنت والمشقة على الناس من جراء اختلاف أحوالهم وافعالهم وأن حصرهم في أربعة مذاهب أسهل بكثير من ترك كل واحد منهم على مذهب مختلف عن غيره.

اما السبب الثاني في عدم صحة اتباع مذهب معين فقد جاء عن المنكر: (وأن عدم التزام مذهب معين واجب للتفريق بين اتباع المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم واتباع غير المعصوم لأن من يلتزم اتباع مذهب ما يكون قد سوى في واقع الأمر بين اتباع النبي المصعوم صلى الله عليه وآله وسلم وبين اتباع الفقيه الذي يخطئ ويصيب).

الرد: ذكرنا فيما مر ان اتباع النبي المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم إنما يكون باتباع أقوال اهل الذكر واتبا ع المذهب إنما هو اتباع لجمهرة كبيرة من العلماء فكيف لا يكون المتبع للمذهب متبعا للمعصوم وهل يستطيع ان يرجع إلى نصوص الشرع لينظر فيها كما نظر فيها الذين يتبعهم وغيرهم ليكون متبعا للمعصوم تماما؟!

ومن أين لـه ذلك؟ وقد كفاه ذلك من هو أقدر عليه منه وهم جمهرة العلماء في مذهبه وهو يتبعهم بناء على ذلك فإذا قلنا إنه لم يفعلوا ذلك فهذا كذب عليهم وافتراء وطعن بهم قد بيناه فيما مر وإذا عرفنا أنهم فعلوا ذلك عرفنا أن اتباعهم إنما هو اتباع للمعصوم ولكن بالصورة الصحيحة لا بالاجتهاد لجهل وغير علم.

ويقول الدكتور محمد سعيد حفظه الله في كتابه اللامذهبية (ولو أن الناس جميعا عرفوا كيفية اتباع المعصوم والوسيلة إلى فهم المراد من كلامه لما انقسموا إلى قسمين : مقلدين ومجتهدين ولما قال الله تعالى للصنف الأول ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾([20]) فقد امرهم باتباع أهل الذكر مع أنهم غير معصومين ولم يأمرهم بالرجوع إلى ألفاظ الكتاب والسنة مع أنهما معصومان).

وقال أحد المنكرين

(وإن فعل الصحابة والسلف الصالح من أهل القرون الثلاثة الفاضلة الذين أمرنا بالاقتداء بهم هو عدم الالتزام بمذهب معين فكان الذي لا يعرف استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية فيهم يسأل أي واحد من العلماء دون تعيين).

الرد: مر معنا أن هذا لم يكن عاما بين الناس فقد كان هناك من يتبع واحدا بعينه أو جماعة بعينها ثم إن الظروف فيما بعد اختلفت عما كانت عليه وتطورت تطورا دعا الناس إلى الالتزام بالمذاهب وعدم الأخذ من أي مجتهد في أي مسألة.

فمعلوم أن الظروف والأوضاع التي كان عليها السلف رضي الله عنهم في بداية العصور الإسلامية كانت بسيطة وسهلة وان المسائل الحياتية كانت قليلة ومحدودة وان المجتهدين في البلاد الإسلامية كانوا قلائل ولذلك كان من السهل أن يسأل المسلم أي واحد من العلماء ويأخذ من أي المجتهدين شاء لكن هذه الظروف الاجتماعية فيما بعد قد تطورت بتطور المجتمع الإسلامي وبدأت أمور الحياة تتعقد أكثر فاكثر والمسائل تزيد أكثر فأكثر والمعاملات بين الناس تتطور وتتغير والمستجدات تكثر وتتوسع وزاد العلماء والمجتهدون، وتوسعت آرائهم بسبب تطور الظروف وكثرة المستجدات وكثرت المذاهب بين الناس حتى صارت بالعشرات وكان هذا هو السبب الذي دعا بعض الحكام إلى أن يحمل الناس على

([20]) سورة النحل الاية (٤٣).

مذهب أو على بعض المذاهب حرصا على اوضاع المجتمع لا بدافع الجور والغشم كما يصوره بعضهم وكان ذلك من اهم العوامل التي أحوجت الناس إلى الالتزام بمذهب معين من المذاهب المختلفة لئلا يختلف الناس اختلافا واسعا في أخذهم من المجتهدين وتطبيقهم لمسائل الشريعة ولئلا يصير لكل واحد منهم مذهب.

وسارت الأمة على هذا الحل وحسم ذلك الوضع الذي كان من المحتمل وقوعه وجعل الناس يلتزمون في بعض المذاهب ويتركون البعض الآخر مما تسبب في انقراض المذاهب الأخرى وكان في ذلك حكمة كبيرة حيث ضاقت شقة الخلاف بين المسلمين بصورة كبيرة فلم يتسبب حق الاجتهاد الشرعي في تفريق الناس وتبديد المجتمع الإسلامي بسبب سوء استعماله ولم يخسر المسلمون ثمرات هذا الحق في الوصول إلى معرفة أحكام الشرع في كل الأمور المستجدة والمختلفة عن طريق ما بقي من أقوال المجتهدين الثقات.

فإذا قال أحد: لا يجب على المسلم اتباع مذهب معين والالتزام وللمسلم أن يتبع في كل مسألة من شاء من المجتهدين.

نقول: هذا صحيح وقد ذكره العلماء ولكنه كما لا يصح أن نلزم أحدا بإتباع مذهب معين فإنه لا يصح أيضا أن نمنع أحدا من التزام مذهب معين إذا شاء.

وهذه الأمور السابقة التي استنبطتم منها الحكم بحرمة التزام مذهب معين لا تصح أدلة على ذلك الحكم ولا نسلم لكم بهذا الاجتهاد الذي لم يقل به الأئمة والعلماء ولا نراه في نفس الوقت صحيحا.

ثم لنفترض أن الناس استجابوا لهذه الدعوة وصار كل واحد منهم يتبع في كل مسألة من شاء من المجتهدين فعند هذه المسألة يسأل مجتهدا وعند مسألة أخرى يسأل مجتهدا آخر أو يأخذ من قول مجتهد مضى والمسائل كثيرة والمجتهدون كثر والآراء مختلفة في كل مسألة فما الذي سينجم عن ذلك؟ إنه سينجم عنه صور كثيرة جدا ومختلفة يمكن أن يصل اليها الناس من خلال اعتماد كل واحد منهم على الأخذ ممن شاء من المجتهدين في كل مسألة .

وسنرى الناس فيما بعد وليس فيهم واحد يطبق أحكاما في كل أموره الشرعية مشابهة لما يطبقه الآخر وسيبدو الناس وكأن لكل واحد منهم مذهبا يختلف عن غيره فيه وفي ذلك مالا يخفى من الفساد سيما وأن الظروف كما قلنا تعقدت وتطورت والمسائل والمستجدات قد زادت وكثرت والآراء قد توسعت والمجتهدين قد كثروا ويمكن أن يزيدوا على حد قولكم ويقع الناس في مآزق اعقد وأخطر من التي حدثت في الماضي عندما وقعت هذه الحالة وكثرت المذاهب وتشعبت الآراء وسلم الله عز وجل الإسلام والمسلمين منها بثبات الناس على هذه المذاهب الأربعة وتمسكهم بها.

وتصور هذا الاختلاف الواسع في الآراء والتطبيق وذلك من كثرة الصور المحتملة من المسائل والاجتهادات وما يمكن ان يسببه للناس من عنت ومشقة وضياع.

توحيد المذاهب

فإذا قال قائل: يمكن ان نخرج من ذلك كله بتوحيد المذاهب في مذهب واحد.

كما قال بعضهم وذكر السبيل إلى ذلك قائلا

(نص المشروع : تؤلف لجنة تضم أكبر علماء المسلمين في العالم الإسلامي وتضم مختلف الاختصاصات الشرعية وتكون مهمتها توحيد المذاهب الفقهية الإسلامية في مذهب واحد).

نقول: كيف ندعو الناس إلى الاجتهاد ونطالب باحترام حق الاجتهاد والرأي لكل مجتهد ملك الأهلية ثم نتصور أن بالإمكان توحيد الاجتهادات والآراء سواء فيما مضى من الأقوال أو فيما يمكن أن يستجد اليوم؟

إن اقتراح قيام مؤتمر يجمع القادرين على الاجتهاد ولا نتصور من أصحابه المقدرة على الاتفاق في كل مسألة من المسائل على قول واحد لأن آرائهم في المسألة ستختلف على حسب قواعد كل منهم في تفسيرها وفهمها وطبقا لما وصله من العلم ولما ترجح لديه من الأدلة وأقوال الأئمة والعلماء السابقين وهؤلاء قد اختلفت اقوالهم وأدلتهم وقواعدهم فلابد ايضا أن تختلف اجتهادات من بعدهم إذ أن أسباب اختلاف السابقين ستكون هي نفسها اسباب اختلاف اللاحقين مع وجود

أسباب أخرى جديدة تنتح عن عدم وجود الكفاءة عند الجدد كما كانت عليه عند الذين سبقوا.

ولو كان بالإمكان الوصول إلى التحقق من القول الأصح في كل مسألة مختلف بها بين المذاهب لوصل إليه المتقدمون الذين كانوا أوسع علما واكثر كفاءة وقدرة وأوسع معرفة واطلاعا على أدلة الغير وقواعدهم ولوجدناهم تجاوزوا أسباب الاختلاف هذه لو كان يصح تجاوزها وعدم اعتبارها.

إن الاختلاف بين المذاهب لم ينتج عن التعصب أبدا وإنما نتج عن هذه الأمور التي ذكرناها والتي لا تزال قائمة ولا نستطيع تجاهلها وعدم اعتبار دورها عند كل اجتهاد ولو ان واقع المذهب يتعارض مع مصلحة الدين ولا يعتبر نتيجة طبيعية لحق الاجتهاد الشرعي لما وسع الأئمة والعلماء السابقون إقراره والسير عليه ولما وجدناهم يؤلفون الكتب في مذاهبهم ويعلمونها الناس خدمة لدين الله عز وجل وعملا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بل ولما أباح الله تعالى الاجتهاد أصلا.

إن الأئمة رضي الله عنهم كانوا يرون أن مصلحة الدين هي في موافقة حكمة الله عز وجل في فتح باب الاجتهاد للمسلمين وترك المسلمين يتبعون ما شاؤوا من المذاهب طالما أن ذلك يحمي المسلمين من التشتيت ويضيق شقة الاختلاف بينهم اكثر بكثير مما كان يمكن أن يحصل لو لم يلتزم المسلمون بهذه المذاهب وشيء آخر يدل على عدم إمكانية توحيد المذاهب أو آراء المجتهدين هو أن المنكرين الحاليين ممن يبيحون لأنفسهم الاجتهاد والأخذ من الكتاب والسنة أو أقوال العلماء هم أنفسهم مختلفون في اجتهاداتهم ولا يسلم بعضهم للبعض الآخر برأيه ولا يرجع أحدهم عن قوله.

أحدهم قال في مناظرة جرت بينه وبين شيخنا الشيخ أديب الكلاس ردا على سؤال أظنه: كيف تنكرون علينا تمسكنا بأقوال أئمتنا علما أنكم أنتم أيضا لا تخرجون عن قول شيخكم؟ سمعته يومها يقول: أنا لا أتفق مع الشيخ (...) في كل مسألة وضرب مثالا على ذلك اختلافه معه فيمن استيقظ قبل طلوع الشمس بوقت لا يسعه فيه الوضوء والصلاة يتيمم ويدرك الوقت أم يتوضأ ولو فاته الوقت فذكر أن

أحدهما يقول بقول والآخر يخالفه إلى القول الثاني وهذا خلاف شيخ وتلميذه لم يمكن التوصل فيه إلى الاتفاق وكل منهما يطرح دليلا لرأيه ولا يسلم لدليل مخالفه فما بالك بما قد يقع بين مجتهد من المشرق وآخر من المغرب لكل منهما ظرفه ومحيطه وعلمه ورأيه ودليله.

إذا كان هذا هو كلام هذا المنكر حول مخالفته لشيخه ... وذاك كلامه حول الدعوة إلى توحيد المذاهب فهل هذا إلا التناقض بعينه؟!

ما حكم الاختلاف في الاجتهادات بين المذاهب

يقول العلماء: إن الذي انتهى إليه الأئمة من الاجتهاد يعتبر من الدين بدليل ثبوت الأجر عليه وبدليل وجوب التعبد به مادام صاحبه ثقة وغير متنبه إلى خطئه أو أن صاحبه يراه صحيحا ولا يقر بقول من خطأه بذلك وخاصة إذا جاء أئمة وعلماء أقروا بصحة اجتهاد هذا المجتهد ولم يؤيدوا من قال بخطئه ولو كان هناك من أيد من قال بخطئه فلكل اجتهاده والاجتهاد من الدين وما أدى إليه الاجتهاد فهو من الدين أيضا طالما قرره المجتهد ولم يعتبر قول من خلافه وهذا ما يحصل في الاجتهاد وهو ما يحصل بين الأئمة الأربعة في كثير من المسائل وتبعهم على ذلك من بعدهم فمثلا الإمام أبو حنيفة قال: إن لمس المرأة لا ينقض الوضوء وجاء بعده الإمام الشافعي وأحمد ومالك رضي الله عنهم فقالوا : ينقض وهم يعرفون دليله ولهم أدلتهم كما مر.

والمنكرون يقولون لا ينقض ويخطئون القائلين بأنه ينقض ويقولون : لا يكون القول ونقيضه حقا فهل يكون القول بأن لمس المرأة ينقض الوضوء خطأ؟

إذن فكيف سار عليه هؤلاء الذين جاؤوا بعد أبي حنيفة وهم يعرفون الدليل الذي اعتمده الأحناف ويرون أدن دليلهم أصح وأصوب ولا يرون أنفسهم مخطئين ولا يسلمون لمن يخطئهم.

فإن قال قائل: إذن فكيف يكون القول ونقيضه صوابا؟

نقول: يكون القول ونقيضه صوابا بالنسبة لاجتهاد صاحبيه ولا يكون صوابا بالنسبة لقول أحدهما فقط فالعمل وضده يكونان صوابا صحيحين باعتبارين إذ إن لمس المرأة ينقض الوضوء بالنسبة لمن يعتبر أدلة المالكية والشافعية والحنابلة

أرجح من أدلة الأحناف وهو لا ينقض بالنسبة لمن يعتبر دليل الأحناف أرجح من أدلة أولئك ولكل اجتهاده وحقه في الاجتهاد والعلم عند الله سبحانه والمتبعون إذا لم يثبت لهم خطأ إمامهم في المسألة بقي قوله صحيحا ولو خالفه فيه غيره وهذا هو ما حصل بين أصحاب المذاهب في كل المسائل التي يختلفون فيها.

وقد ورد في السنة ما يؤيد صحة ما وصل إليه المجتهدون ولو تناقض هذا الذي وصلوا إليه فقد روي أن صحابيين خرجا في سفر فحضرتهما الصلاة ولم يجدا ماء فتيمما وصليا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فلما قصا أمرهما على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أقر كلا منهما على ما فعل فقال للذي لم يعد : «أصبت السنة وأجزأتك صلاتك» وقال للذي أعاد « لك الأجر مرتين »([21]١) فإعادة الصلاة وعدم إعادتها أمران متناقضان وكل واحد منهما صحيح بالنسبة لاجتهاد صاحبه.

والحاصل هو ان الاجتهاد من الدين وما أدى إليه الاجتهاد فهو من الدين أيضا ولو اختلف المجتهدون.

اما أن نعلل هذا الاختلاف باتهام الأئمة والعلماء بالتعصب ومخالفة الكتاب والسنة عن قصد وإصرار فهذا ما لم يقع ولا يصح أن يصدر عن مؤمن ومسلم في رجالات العلم وأئمة المسلمين.

وذكر أحد المنكرين : محتجا على الاختلاف الذي بين المذاهب بعد ان ذكر أمثلة عليه من أقوال بعض الأئمة في المذاهب أو من التي فعلها بعض المتعصبين ولم تكن معتمدة في المذاهب وهكذا شأنهم في تعميم كل حادثة جزئية ليجعلوا من هذه الجزئيات مبررا لرفضهم للمذاهب كعدم صلاة بعضهم خلف بعض أو عدم تزويج الحنفية من الشافعي مما لا تجده يعمل به ولا يعتبر هو القول المعمول به في المذهب : ذكر قوله (وليت أن اختلافهم المذكور انحصر ضرورة فيما بينهم ولم يتعد إلى غيرهم من أمة الدعوة إذن لهان الخطب بعض ويا للأسف تجاوزهم إلى غيرهم من الكفار في كثير من البلاد والأقطار فصدوهم بسبب اختلافهم عن الدخول في دين الله أفواجا فقد جاء في كتاب (ظلام من

([21]١) أخرجه النسائي (٤٣١ - ٤٣٢) وأبو داود (٣٣٨ - ٣٣٩) واللفظ له.

الغرب) للأستاذ الفاضل محمد الغزالي ص (٢٠٠) ما نصه : (حصل في المؤتمر الذي عقد في جامعة (بريستون) بأمريكا أن أثار أحد المتحدثين سؤالا كثيرا ما يثار في أوساط المستشرقين والمهتمين بالنواحي الإسلامية قال: بأي التعاليم يتقدم المسلمون إلى العالم ليحددوا الإسلام الذي يدعون إليه؟ أبتعاليم الإسلام كما يفهمها السنيون؟ أم بالتعاليم التي يفهمها الشيعة من إمامية أو زيدية ثم إن كلا من هؤلاء واولئك مختلفون بينهم).

وقد يفكر فريق منهم في مسالة ما تفكيرا تقدميا محدودا بينما يفكر آخرون تفكيرا قديما متزمتا والخلاصة أن الدعاة إلى الإسلام يتركون المدعوين في حيرة لأنهم هم أنفسهم في حيرة والجواب على هذا المنكر وعلى هذا المستشرق:

لقد كان هناك في الإسلام في الماضي ولا يزال فرق وجماعات دسها اعداء الإسلام ضمن المسلمين لإثارة الشك والفوضى في نفوس الناس تجاه الدين وصارت هناك أقوال وآراء مختلفة كلها ينسبها أصحابها إلى الإسلام فهل منع هذا أصحاب الصدق وانصاف من المسلمين وغير المسلمين أن يبحثوا عن القول الحق في دين الله وأن يتبعوه.

إن وجود الاختلافات بين العلماء في كل العلوم قديم فهل حمل ذلك الأوربيين على نبذ العلوم والتنكر للعلم بسبب ما يقوم بين اصحابها من خلاف؟؟ اليوم مثلا: يوجد في علم الطب مدارس مختلفة وأساليب وطرق متعددة وآراء وأقوال متناقضة بين علماء هذا الفن وما تثبته جماعة تنفيه جماعات أخرى في بعض الأمور فهل حمل ذلك الناس على ترك علم الطب؟ ام ان كلا منهم يتبع مدرسة معينة أو طريقة معينة في المعالجة وكل حسب اجتهاده.

واليوم في علم الحياة يتصارع العلماء حول النظرية القائلة بأن أصل الإنسان قرد ومع ما ثبت من الأدلة والبراهين الكثيرة والمختلفة على بطلانها نجد أناسا من العلماء يحاولون عبثا إثباتها من أجل أغراضهم واهوائهم ونجد في الوقت الذي يقول فيه بعض العلماء : إن أصل الإنسان قرد نجد أن أحد العلماء الألمان يقول: إن أصل القرد إنسان متقهقر وليس الإنسان قردا مترقيا ويستخدم نفس الأدلة التي استخدمها داروين في إثبات قوله.

فهل رفض الناس وعابوا علم الحياة لوجود أمثال هذه التناقضات فيه؟ إن كل فروع العلم يدور فيها الخلاف والتناقض في الآراء ولم يستطع العلم ان يقول القول الفصل في كل مسألة فلماذا لا نعيب هذه العلوم؟ لماذا يريد هؤلاء المستشرقون أن يتخذوا من هذه الخلافات ذريعة للتهجم على الشريعة والمسلمين مع ان الشريعة علم واسع كبقية العلوم مفتوح فيها الباب للاجتهاد ويمكن أن يقع فيها كما وقع في بقية العلوم من اختلاف الاجتهادات ويمكن بالدراسة والإنصاف أن يصل الإنسان إلى معرفة الحق من الباطل فيما ينسب اليها ويمكن بالدراسة والإنصاف أن يصل إلى التمييز بين الاجتهادات الصحيحة ولو تعددت وبين الافتراءات الكاذبة الخارجة عن أساس الكتاب والسنة ولو تعددت.

ثم يقول المنكر نفسه:

(وفي مقدمة رسالة (هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان) للعلامة محمد سلطان المعصومي رحمه الله تعالى :

(إنه كان ورد علي سؤال من مسلمي بلاد جابان – يعني اليابان– من بلدة (طوكيو) (أوصاكا) في الشرق الأقصى حاصله: ما حقيقة دين الإسلام ؟ ثم ما معنى المذهب؟ وهل يلزم من تشرف بدين الإسلام أن يتمذهب على أحد المذاهب الأربعة؟ أي ان يكون مالكيا أو حنفيا أو شافعيا أو غيرها أو لا يلزم؟

لأنه قد وقع هنا اختلاف عظيم ونزاع وخيم وحينما أراد عدة أنفار من متنوري الأفكار من رجال (يابوينا) أن يدخلوا في دين الإسلام وتشرفوا بشرف الإيمان فعرضوا ذلك على جمعية طوكيو، فقال جمع من أهل الهند : ينبغي أن يختاروا مذهب الإمام أبي حنيفة لأنه سراج الأمة وقال جمع من أهل أندونيسيا (جاؤوا): يلزم أن يكون شافعيا فلما سمع اليابانيون كلامهم تعجبوا جدا وتحيروا فيما قصدوا وصارت مسالة المذهب سدا في سبيل إسلامهم.

الرد : أمام ما في هذا العرض لهذه القصة من التهويل والتعقيد المزعوم يجد الإنسان نفسه متعجبا من تجاهل هؤلاء للمسألة أو جهلهم بها! وهو يعلم أن المسلم يكون شافعيا فيسكن في بلد اهله أحناف فيتابعهم على مذهبهم لقربه منهم او لتوفر من يعلمه المذهب الحنفي لديه لا عتقاده أن المذاهب كلها حق وأنها

مبنية على الكتاب والسنة وأنها تمثل الجماعة الإسلامية لا لأن الإمام أبا حنيفة رحمه الله هو سراج هذه الأمة ويعلم أن الرجل يكون حنفيا فيحصل معه مثل ذلك فيصير شافعيا وأن المسألة لا تحتاج لكل هذا التعقيد الذي يصوره هؤلاء وأنها لا يتصور منها أن تقف سدا في سبيل إسلام هؤلاء أو غيرهم وكان بإمكانه أن يقول لهم: تعلموا على يدي أقرب العلماء اليكم، فإن لم يوجد لديهم علماء ارسلنا من يتوفر لدينا من العلماء القادرين على تعليمهم ايا كان مذهبهم وتتحل هذه المعضلة التي استعصت على المنكرين ومسلمي بلاد اليابان ورأوا فيها وبأمثالها مبررا لمحاربة المذاهب ويسع مسلمي اليابان ما وسع الأمة عبر العصور.

ولكن المنكر يعتقد بما يقوله شيخه الشيخ .... وهو : (إن كل الذي ندعوا ايه ترك اتخاذ المذاهب دينا ونصبها مكان الكتاب والسنة بحيث يكون الرجوع اليها عند التنازع أو عند إرادة استنباط أحكام جديدة لحوادث طارئة كما يفعل متفقهة هذا الزمان).

فالمذاهب في نظر هذا الشيخ وتلميذه شيء غير الكتاب والسنة وهي مخالفة لهما وهي تريد أن تحل مكانهما ولذلك فإن الرجوع اليها عند التنازع او عند إرادة استنباط احكام جديدة لحوادث طارئة هو خروج عن الكتاب والسنة بالطبع وقد تبين بطلان هذا الزعم.

أمور لا خلاف فيها

هناك أمور لا خلاف فيها لابد من إبعادها عن دائرة البحث في أصل الدعوة الخطيرة الذي يذكرها المنكرون:

فأولها: أن المقلد لأحد المذاهب ليس ثمة ما يلزمه شرعا بالاستمرار في تقليده وليس ثمة ما يمنعه من التحول عنه إلى غيره فقد اجمع المسلمون أن للمقلد أن يقلد من شاء من المجتهدين إذا توصل إلى حقيقة مذاهبهم وآرائهم فله مثلا ان يقلد كل يوم إماما من الأئمة الأربعة ولئن ظهر في بعض العصور المتأخرة من استهجن تحول المقلد من مذهب إلى آخر فهو التعصب المقيت الذي أجمع المسلمون على بطلانه ومعلوم لكل باحث ان هذا الذي لا خلاف فيه هو غير

دعوى أن على المقلد ان لا يلتزم مذهبا بعينه وان عليه أن يلون ويغير أي أن عدم وجوب الالتزام لا يستلزم حرمة الالتزام.

ثانيها: ان المقلد إذا ما تمرس في فهم مسالة من المسائل وتبصر بأدلتها من الكتاب والسنة وأصول الاجتهاد وجب عليه أن يتحرر من الأخذ بها من مذهب إمامه وحرم عليه التقليد فيها ما امكنه ان يجتهد فيها معتمدا على طاقته العلمية المتوفرة لديه أجمع على ذلك العلماء وأئمة المذاهب انفسهم وبديهي أنه يحرم عليه إذا ترجيح إمامه على ما هداه إليه اجتهاده في تلك المسألة التي توفر على دراستها والتعمق في فهم أدلتها وأصولها ولئن ظهر أيضا في بعض العصور المتأخرة من جنح إلى هذا التعصب وخرج بذلك عن إجماع المسلمين فإنه مظهر آخر من مظاهر التعصب والتحزب البغيض الذي يجب التنبيه إليه والتحذير منه ومعلوم لكل باحث أيضا أن هذا الذي لا خلاف فيه لا يستلزم بحال دعوة المقلد الجاهل بأدلة الأحكام إلى نبذ التقليد والاعتماد مباشرة على نصوص الكتاب والسنة .

ثالثها: إن جميع الأئمة الأربعة على حق بمعنى أن اجتهاد كل منهم جعله معذورا عند الله عز وجل إن هو لم يستيقن حقيقة الحكم الذي أراده الله عز وجل لعباده في تلك المسائل الاجتهادية فليس عليه إلا ان يسير فيه حسب ما هداه إليه اجتهاده. ومن هنا كان اتباع المقلد لمن شاء منهم اتباعا لحق وتمسكا بهدى وهو إذ يختار اتباع واحد منهم لا ينبغي أن يتصور أن الآخرين على خطأ ولذلك اجمع العلماء على صحة اقتداء الحنفي بالشافعي والمالكي والعكس ولقد ظهر أخيرا في بعض البلدان وعلى يد فريق من الناس ما يخالف هذا الحق المتفق عليه ولكنه أيضا امتداد للتعصب السيء الذي لا وجه له في الدين ويجب تحذير المسلمين منه بكل وسيلة إن تعداد المحاريب في المساجد وتسمية كل محراب منها باسم مذهب من المذاهب الأربعة أسوأ مظهر يتجسد فيه التحزب المقيت الذي لا معنى له ولا مسوغ وإن ما يفعله بعض العوام من الانزواء في طرف من المسجد وصلاة الجماعة قائمة تؤدى أمام عينيه ولا يمنعه من القيام اليها إلا ان الإمام ينتمي الي غير مذهبه فهو ينتظر إمامه الذي من حزبه لا يقتدي بغيره ولا

يرى أن صلاته تصح إلا من ورائه نقول: إن هذا الذي شاع عند كثيرمن العوام أو من يتسم بسمة العلم شيء لا يتند إلى أي أصل من أصول الدين وما أجمع الأئمة والعلماء في عصر وزمن إلا على خلافه وما يمسك الناس على هذه العادة إلا شيئان اثنان: تعصب لا وجه له من هؤلاء الناس و (تنفيع) لأناس توارثوا مثل هذه الوظائف واعتادوا على نيل جراياتها والاستفادة منها.

هذه الأمور الثلاثة من الأمور المتفق عليها ولا نخالف منبها اليها أو مؤكدا لها.

لطالما أثبتها العلماء والأئمة رحمهم الله في أبحاثهم وسجلوها في كتبهم .

وكل ما أورده هذا المنكر من نصوص الإمام ابن القيم والعز بن عبدالسلام والشاه الدهلوي وغيرهم إنما يدور حول الأمور الثلاثة ولم يخالفهم فيها أحد ممن يعتد به وما ينبغي أن يخالفهم فيه أحد.

ولو أن هذا المنكر ركز كلامه عليها واقتدى في ذلك بما فعله أولئك الأئمة فشدد النكير على هذه الألوان من التعصب المقيت الذي لا وجه له لما وسعنا مخالفته والإنكار عليه.

ولكن المنكر عمد إلى هذه النصوص والأدلة فشدها إلى دعاوى أخرى لا علاقة لها بها واتخذ من الأدلة على حرمة مخالفة هذه الأمور المتفق عليها براهين على حرمة التزام مذهب من المذاهب الأربعة لأي أحد من الناس وأين هذا من ذاك؟

ولذلك جاءت أدلته هذه مناقضة لدعواه إذ استدل على صدق دعواه بكلام العز بن عبدالسلام والعز بن عبدالسلام شافعي المذهب واستدل بكلام الكمال بن الهمام وهو حنفي المذهب واستدل بكلام ابن القيم وهو حنبلي المذهب واستدل بكلام الدهلوي وهو حنفي المذهب لقد استدل المنكر بأقوال هؤلاء جميعا على دعواه من حرمة التمذهب بمذهب معين وهم أنفسهم متلبسون بهذا الذي يدعي حرمته!!.

الجديد الذي يدعيه المنكر وأدلته والرد عليه

والآن وبعد أن جردنا من كلام المنكر كل ما لا دخل له في النزاع وجردنا من كلامه أيضا تلك النصوص التي أثبتها أربابها لتأكيد أمور متفق عليها لا نزاع فيها نجد خلف ذلك كله دعوى خطيرة وجديدة هي أصل ما رمى إليه المنكر ألا

وهي دعوى أنه يحرم على المسلم أيا كان أن يتمسك بمذهب معين من المذاهب الأربعة وأن ذلك منه تعصب أعمى وضلال مبين وأن الذين فعلوا ذلك هم الذين فرقوا دينهم شيعا.

فلنكشف عن وجه الحق في هذه الدعوة ولنتسائل عن دليلها وأساسها بعد أن أبعدنا عنها الحجاب الذي كانت تستتر خلفه حجاب تلك الأمور الثلاثة المتفق عليها وما أثبته الأئمة لها من أدلة وبراهين فهي أمور لا علاقة لها من قريب أو بعيد بهذه الدعوى وليس لأرباب هذه الدعوة أن يستعيدوا لها شيئا من أدلة تلك الأمور أو أن يقووها بها ويسندوها اليها.

ما هي الأدلة التي اعتمدها المنكر لدعواه هذه؟

تتلخص أدلته فيما يلي:

- الدليل الأول: دعوى أن الإسلام ليس أكثر من أحكام معدودة يسيرة يفهمها أي أعرابي أو مسلم مستدلا لذلك بأحاديث ساقها وأن المذاهب ليست أكثر من آراء أهل العلم في فهمهم بعض المسائل وهذه الآراء لم يوجب الله تعالى ولا رسوله على أحد اتباعها.

ونقول: كان ينبغي لو صح أن أحكام الإسلام محصورة في تلك الأمور المعدودة التي ألقى بها الرسول إلى سمع ذلك الأعرابي ثم انطلق ان لا تفيض كتب الصحاح والمسانيد بآلاف الأحاديث المتناولة لشتى الأحكام المتعلقة بحياة الإنسان المسلم وكان ينبغي أن لا يقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم الساعات الطوال على قدميه يخالف بينهما من التعب يعلم وفد ثقيف أحكام الإسلام وواجبات الله في أعناقهم طوال عدة أيام.

إن تلقين الرسول الإسلام وأركانه للناس شيء وتعليمه إياهم كيفية تنفيذ تلك الأركان شيء آخر ذلك لا يحتاج إلى أكثر من دقائق وهذا يحتاج إلى جهد وتعلم ومراس.

ولذلك كان يتبع تلك الوفود المسلمة التي لم يكلفها الفهم الإجمالي لأركان الإسلام أكثر من بضع دقائق برجال من اخص أصحابه ليمكثوا فيهم ويعلموهم مختلف أحكام الإسلام وواجباته فأرسل خالد بن الوليد إلى نجران وعليا رضي الله عنه إلى اليمن وأبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن أيضا وعثمان بن أبي العاص

إلى ثقيف أرسل هؤلاء جميعا ليعلموا أمثال ذلك الأعرابي الذي استدل المنكر بسرعة فهمه للإسلام ليعلموهم تفاصيل الأحكام الشرعية بالإضافة إلى ما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام من التعليم والبيان.

أجل كانت المشكلات التي تتطلب من الإسلام حلولا لها وبيانا لأحكامها قليلة في صدر الإسلام بسبب ضيق رقعة الإسلام وبساطة المسلمين إذ ذاك ولكن هذه المشكلات كثرت فيما بعد مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وظهور كثير من التقاليد والعادات والمصالح التي لم تكن من قبل وهي جميعا لا تخلو من أحكام تتعلق بها سواء كان مصدرها نصا في الكتاب أو حديثا من السنة أو إجماعا من الأمة أو قياسا على أصل فهذه كلها مصادر تنبثق من صميم الإسلام وحكمه وليس حكم الله عز وجل إلا ما هدانا إليه أحد من هذه المصادر حسب شروط معينة في فهمها والترتيب بينها وكيفية الاستنباط منها.

فكيف يفصل إذا بين الإسلام وما استنبطه الأئمة الأربعة وأمثالهم من هذه المصادر الأساسية للإسلام؟ ! ... كيف يقول المنكر : (أما المذاهب فهي آراء أهل العلم وأفهامهم في بعض المسائل واجتهاداتهم وهذه الآراء والاجتهادات والفهوم لم يوجب الله تعالى ولا رسوله على أحد اتباعها؟....)

وهل هذا إلا عين الباطل الذي تفوه به عن مكابرة وعناد المستشرق الألماني المعروف بحقده على الإسلام (شاخت).

يقول شاخت : إن الفقه الإسلامي الذي ألفه أئمة المذاهب ليس إلا عملا قانونيا أنتجته أدمغة قانونية ممتازة طاب لها أن تعزوه إلى الكتاب والسنة وكتابه في هذا هو الكتاب الأول الذي تدرسه جامعات أوربا لطلابها.

وإذا كان كلام كل من المنكر والمستشرق الألماني شاخت كلاما صحيحا فمعنى ذلك أنه لا شيء يلزمنا شرعا بالتزام أكثر أحكام قانون الأحوال الشخصية لأنها لا تعدو أن تكون اجتهادات وآراء للمذاهب ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد اتباعها على حد تعبير المنكر وكذلك لا شيء يلزمنا شرعا بالتزام قانون مدني إسلامي تؤلفه غدا لجنة من العلماء لأن أكثر أحكامه آراء واجتهادات لم يلزمنا الله ولا رسوله باتباع شيء منها!!

وإذا فكيف يصح لنا ان نقول بأن الإسلام دين ودولة؟!.... ولماذا لا نصحو إذا إلى خطئنا لنعلن كما يريد شاخت بأن الإسلام دين فقط.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعث إلى القبائل والبلدان من يمتاز من الصحابة بجودة الحفظ والفهم والاستنباط ويكلفهم بتعليم الناس احكام الإسلام وأمور الحلال والحرام وقد أجمعت الأمة أنهم كانوا يجتهدون إذا أعوزهم الدليل الصريح من الكتاب والسنة وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرهم على ذلك.

وروي عن شعبة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال: (كيف تصنع إن عرض لك قضاء) قال أقضي بما في كتاب الله قال «فإن لم يكن في كتاب الله » قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » قال : اجتهد رأيي ولا آلو قال فضرب رسلو الله صلى الله عليه وآله وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم([22]١) .

فهذه اجتهادات وفهوم من علماء الصحابة كانو يحكمون بها ويسيرون الناس بموجبها بموافقة وإقرار من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يقال عنها : (أنها اجتهادات وفهوم لم يوجب الله تعالى ولا رسوله على أحد اتباعها)؟

وإذا فإن أحكام الإسلام ليست من اليسر في فهمها والقلة في عددها كما تصور المنكر مستدلا بتلك الأحاديث التي نوهنا عنها بل هي من السعة والشمول بحيث تتسع لكل ما يتعلق بشؤون الحياة الخاصة والعامة في مختلف الظروف والأحوال وهي جميعا تعود إلى الكتاب والسنة إما بدلالة ظاهرها مباشرة أو بواسطة النظر والاجتهاد والاستنباط وبأي الوسيلتين فهم المسلم الحكم فهو حكم الله عز وجل في حقه لا يسعه التحول عنه وهو أيضا حكم الله فيمن جاء يستفتيه فافتاه به وإلا لكانت بعثة الرسول واصحابه إلى القبائل والبلدان عبثا ولصح لأولئك الناس أن يقولوا لهم : لم يوجب الله ولا رسوله علينا اتباع فهومكم واجتهاداتكم!

([22]١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) والدارمي (٦٠/١) وأحمد (٣٢٠/٥) وابن سعد (١٠٧/٢) بألفاظ متقاربة وهو في نصب الراية للزيلعي (٦٣/٤) وجمع الفوائد (٦٥/١) والتلخيص الحبير (١٨٢/٤) وجامع الأصول (١٧٧/١٠).

- الدليل الثاني : إن أساس التمسك بالإسلام إنما هو التمسك بالكتاب والسنة وهما معصومان عن الخطأ اما اتباع أئمة المذاهب فهو تحول عن الاقتداء بالمعصوم إلى الاقتداء بغير المعصوم.

ونقول تعليقا على هذا الكلام العجيب : من هم الذين تخاطبونهم بهذا الدليل وتحاكمونهم إليه ..؟ إن كانوا أولئك الذين أوتوا القدرة على فهم الحكم من الكتاب والسنة والقياس عليهما مباشرة بدون وساطة مفت وإمام فدليلكم صحيح إذ لا وجه لتقليده أقوال الأئمة وهو غير عاجز عن فهم قول الله ورسوله مباشرة ولكن هذا خارج عن محل البحث والنزاع كما اوضحنا فليس في المسلمين قديما وحديثا أحد يخاطبكم ويجادلكم في هذا وإن كان الذين تخاطبونهم بهذا الكلام هم عامة الناس ومن لا يملك وسيلة الاجتهاد والاستنباط والتصر بالأدلة ومفهوماتها فهو كلام عجيب حقا ولا يملك ان يستقيم له أي معنى .

فالمعصوم عن الخطأ في كلام الله هو ما أراده الله عز وجل بكلامه والمعصوم عن الخطا في السنة هو ما أراده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بسنته أما فهم الناس منهما فهيهات أن يكون معصوما سواء كان هؤلاء الناس مجتهدين أو علماء او جهالا (اللهم إلا نصا في كتاب أو سنة كان قطعي الدلالة والثبوت وكان الناظر فيه عربيا خليعا فعصمة الفهم منه تأتي من قطعية دلالته) وإذا كانت وسيلة الأخذ بالكتاب والسنة هي الفهم وكان الفهم منهما محاولة لا يمكن ان تتسم بالعصمة فيما عدا الصورة التي استثنيناها فما الفرق بين محاولة العامي الفهم ومحاولة المجتهد ذلك إلا أن تكون محاولة العامي أبعد عن العصمة من محاولة المجتهد؟ وما معنى دعوة العامي إلى نبذ التقليد بحجة ان القرآن معصوم والإمام المتبع غير معصوم؟. وهل كان الناس ينقسمون منذ القديم إلى عامي وعالم ومقلد ومجتهد لو أتيح للعامي أو الجاهل من الناس أن يتناول من نصوص القرآن الفهم المعصوم من الخطأ والذي هو المراد في علم الله عز وجل؟...

وكأني بالمنكر يتوهم أن مذاهب الأئمة تستمد اجتهادها من معين آخر غير الكتاب والسنة فهي مذاهب مستقلة عن مذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي إنما ظهرت لتنافسه وتزاحمه فهو يريد أن يلفت نظر المخدوعين بها إلى المذهب

الحق واستدل على ذلك بأن هذه المذاهب غير معصومة على حين أن مذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم معصوم فكيف تتحولون عن المعصوم إلى غيره ..؟ وفكر مهما شئت في معنى هذا الدليل الطريف فو الله لن تعثر له على وجه من المعنى إلا على هذا التقدير من الفهم والتصوير.

- الدليل الثالث: أنه لم يثبت أي دليل على أن الإنسان يسأل في قبره إذا مات عن المذاهب أو الطريق.... .

وهذا الاستدلال يوضح كما ترى أن المنكر يعتقد بأن ميزان معرفة الواجبات التي كلف الله الإنسان بها إنما هو أسئلة الملكين في القبر فكل ما يتعرض له الملكان بالسؤال عنه فهو الواجب المكلف به وكل ما لم يتعرض له فهو غير واجب ولا مشروع؟

ولست أدري هل ثبت في أي مصدر من مصادر العقيدة الإسلامية أن الملكين يسألان الميت عن الديون والذمم التي عليه للناس أو عن بيوعه التي لم تتعقد صحيحة ومعاملاته التي لم تكن مشروعة أو عن إهماله تربية أهله وأولاده أو عن أوقاته التي كان يقضيها في اللهو والعبث أو عن استغابته للمسلمين وتشكيكهم في دينهم وتفكيك أواصر المحبة والترابط والوحدة فيما بينهم ؟!

إذا كان ثمة ما يدل على أن الملكين يسألان الميت عن كل هذا وأمثاله فلننظر إذا أفيسأله الملكان: لماذا قلد الشافعي ولم يجتهد ولماذا التزم اتباع إمام ومجتهد واحد ولم يغير ويلون ؟... وإذا كان يسأله الملكان عن هذا فأشهد أن هذا المنكر على حق وأشهد أنني وسائر الباحثين والعلماء كنا على خطأ يوم كنا نحسب أن سؤال الملكين إنما يتناول كليات المبادئ الإسلامية المتمثلة في أسئلة معدودة بأعيانها كما ورد في الصحاح ولابد ان مهمة الملكين مع الميت في قبره هي مهمة محاسبة تفصيلية شاملة!

ولكني لا أزال أقول كما يقول سائر العلماء والمسلمين بان الواجبات المنوطة بأعناق المسلمين في دنياهم أوسع بكثير مما تنحصر فيه أسئلة الملكين لهم في قبورهم ولن نجد أي معنى واضح لهذا الدليل الثالث أيضا إلا إذا تصورت مرة أخرى بأن المنكر يعتقد بأن مذاهب الأئمة في فهم الأحكام الشرعية من أدلة الكتاب والسنة إنما هي

مذاهب تنافس وتزاحم مذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهؤلاء الأئمة إنما جاؤوا (على حد فهمه) مسابقين ومنافسين له وطبيعي أن الملكين إنما يسألان الميت عن موقفه من هذا الرجل الذي أرسل فيهم أي عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ولن يسألاه عن شيء من المذاهب المنافسة الأخرى التي أخذت تروج نفسها فيهما بعد!

وأرجو من القارئ الكريم أن لا يحسب أنني أصطنع بهذا الكلام أسلوب سخرية بالمنكر وتقريع له ... فهذا والله ما فهمته ويفهمه كل متأمل في كلامه وقد صرح الرجل بهذا الذي هو معنى كلامه تصريحا وذلك عندما قال : (اعلم أن المذهب الحق الواجب الذهاب اليه والاتباع له إنما هو مذهب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فحسب وهو الإمام الأعظم الواجب اتباعه ثم مذهب خلفائه الراشدين رضي الله عنهم وما من أحد أمرنا باتباعه بعينه إلا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فحسب لا غير وقد قال الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾([23]١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين »([24]٢) .

أفليس واضحا من هذا الكلام أن المنكر يتصور أن ثمة عددا من المذاهب ظهرت خلال التاريخ كل منها يروج لنفسه ويدعو الناس إليه والمذهب الحق من بينها هو مذهب سيدنا محمد أما الأخرى فباطلة؟

وأنت يا أيها القارئ مهما كانت ثقافتك بتاريخ التشريع الإسلامي قليلة وضعيفة أفيمكن للحقائق كلها ان تغيب عنك حتى تفهم هذا الفهم المقلوب العجيب؟.

ما هو الفرق بين مذاهب الأئمة الأربعة ومذهب زيد بن ثابت أو معاذ بن جبل أو عبدالله بن عباس في فهم بعض أحكام الإسلام؟ وما الفرق بين أرباب المذاهب الأربعة وأرباب مذهب الرأي في العراق وأرباب مذهب الحديث في الحجاز وقوام هذين المذهبين خيرة الصحابة والتابعين وهؤلاء لهم مقلدون وأولئك لهم مقلدون؟!

أفيقول المنكر إنها عشرات المذاهب وليست أربعة فقط كلها جاء تعارض وتنافس مذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن المذاهب الخارجة على الملة

([23]١) سورة الحشر الآية (٧).

([24]٢) تقدم تخريجه.

القسيمة لمذهب رسول الله إنما هي هذه الأربعة فقط أما مذاهب من قبلهم فمذاهب صحيحة جيدة تقوم على قدم المساواة جنبا إلى جنب مع مذهب رسول الله؟!.

لست أدري أي القولين يختار هذا المنكر ولكن الذي أعلمه أنهما قولان أحلاهما مر ، وأفضلهما كذب وافتراء ومعاذ الله أن تكون اجتهادات الصحابة والتابعين أو بقية الأئمة المجتهدين أكثر من خدمة وشرح لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحيا من ربه ولكن بعض اجتهاداتهم وتفسيراتهم خالفت بعضها بعضا فكانت تلك الاجتهادات المتخالفة مذاهب في فهم كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا مذاهب منافسة ومعارضة له؟.... وكيف يكونون منافسين ومعارضين له والكل يستشهد بكلامه ويمعن في فهم مراده؟!

- الدليل الرابع: كلام نقله المنكر عن كتاب الإنصاف للشاه ولي الله الدهلوي نقل عنه في غضونه قوله : (فمن أخذ بجميع أقوال أبي حنيفة أو جميع أقوال مالك أو أقوال الشافعي أو جميع أقوال أحمد أو غيرهم ولم يعتمد على ما جاء في الكتاب والسنة فقد خالف إجماع الأمة كلها واتبع غير سبيل المؤمنين).

أقول: لم يثبت هذا الكلام عن الدهلوي في حق المقلد العاجز عن الاجتهاد إطلاقا لا في الإنصاف ولا في غيره من كتبه الأخرى بل الذي قال في أكثر من موطن عكسه تماما.

يقول ولي الله الدهلوي في كل من كتاب الإنصاف ص (٥٣) وحجة الله البالغة (١٣٢/١ ط : الخيرية) ما نصه:

(إن هذه المذاهب الأربعة المدونة المحررة قد اجتمعت الأمة أو من يعتد به منها على جواز تقليدها الى يومنا هذا وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى لاسيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم جدا وأشربت النفوس الهوى واعجب كل ذي رأي برأيه).

وأنا أتحدى هذا المنكر ومقلديه أن يثبتوا سطرا مما تقوله المنكر على الدهلوي في أي من كتبه ..!!

ويقول بعد ذلك في ص (١٢٤ – ١٢٥) موضحا أنه لا مانع من التزام إمام بعينه: (كيف ينكر هذا أحد مع أن الاستفتاء والإفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبي

صلى الله عليه وآله وسلم ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائما أو يستفتي هذا حينا وذاك حينا بعد أن يكون مجمعا على ما ذكرناه كيف لا ولم نؤمن بفقيه أيا كان أنه أوحى الله اليه الفقه وفرض علينا طاعته أنه معصوم فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بانه عالم بكتاب الله وسنة رسوله فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة أو مستنبطا عنهما بنحو من الاستنباط أو عرف بالقرائن أن الحكم في صورة ما منوطة بعلة كذا واطمأن قلبه لتلك المعرفة فقاس غير المنصوص على المنصوص فكأنما يقول: ظننت أن رسول الله صلى قال: كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا والمقيس مندرج في هذا العموم فهذا أيضا معزي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن في طريقة ظنون ولولا ذلك لما قلد مؤمن مجتهدا).

فتأمل في مناقضة هذا الكلام الذي يقوله الدهلوي للذي يقوله عليه هذا المنكر!... ولك ان تعود الى كتابه حجة الله البالغة والإنصاف لتتأكد من ألفاظه ومطابقتها للذي نقلناه عنه؟ ولا شك أن الدهلوي تحدث في هذا المجال عن حرمة التقليد في حق من بلغ رتبة الاجتهاد في مسألة من المسائل أو في عامة المسائل والأحكام ولكن كلامه في ذلك خارج عن محل النزاع والبحث كما أوضحنا ولا يمكن أن يستدل العاقل بشيء منه على دعوى حرمة التقليد أو حرمة التزام مذهب معين في حق من لم يستطع أن يكون مجتهدا فهذا شيء وذلك شيء آخر ولست أدري ما هو نوع الدافع الى الخلط بينهما.

- الدليل الخامس: كلام نقله المنكر عن العز بن عبدالسلام وعن ابن القيم وعن الكمال بن الهمام يستدل به على مدعاه وهو دعوى حرمة التمسك بمذهب معين ووجوب الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة على الناس كلهم أو استمرار التنقل بين المجتهدين والأئمة دون الوقوف عند واحد منهم بعينه.

وكل ما نقله عن هؤلاء بمعزل عن هذه الدعوى الباطلة التي لا دليل عليها وكيف تكون تلك الأقوال دليلا على شيء من ذلك وأصحاب تلك الأقوال أنفسهم ملتزمون بمذاهب معينة لم يتحول واحد منهم عن مذهبه الذي عرف إلى سواه!!...

فالعز بن عبدالسلام شافعي وابن القيم حنبلي والكمال بن الهمام حنفي إن أقوال هؤلاء الأئمة كلها مستنبطة على تلك الأمور الثلاثة التي أخرجناها عن محل النزاع

والتي لم يخاصم فيها أحد من العلماء المنصفين أما أن يكون شيء منها دليلا على ما يشتهي هذا المنكر أن يروجه ويجمع له الأنصار فهيهات له ذلك.

واليك أولا ما يقول العز بن عبدالسلام

يقول في كتابه قواعد الأحكام (٣٥/٢) ما نصه : (... وليس لأحد أن يقلد من لم يؤمر بتقليده كالمجتهد في تقليد المجتهد أو في تقليد الصحابة وفي هذه المسائل اختلاف بين العلماء ويرد على من خالف ذلك قوله عز وجل : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾([25]١). يستثنى من ذلك العامة فإن وظيفتهم التقليد لعجزهم عن التوصل إلى معرفة الأحكام بالاجتهاد بخلاف المجتهد فإنه قادر على النظر المؤدي إلى الحكم ومن قلد إماما من الأئمة ثم أراد تقليد غيره فهل له ذلك ؟... فيه خلاف والمختار التفصيل فإن كان المذهب الذي أراد الانتقال إليه مما ينقض فيه الحكم فليس له الانتقال إلى حكم يوجب نقضه فإنه لم يجب نقضه إلا لبطلانه فإن كان الأخذان متقاربين جاز التقليد والانتقال لأن الناس لم يزالوا من زمن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب الأربعة يقلدون من اتفق من العلماء من غير نكير من أحد يعتبر إنكاره ولو كان ذلكم باطلا لأنكروه وكذلك لا يجب تقليد الأفضل وإن كان هو الأولى لأنه لو وجب تقليده لما قلد الناس الفاضل والمفضول في زمن الصحابة والتابعين من غير نكير بل كانوا مسترسلين في تقليد الفاضل والأفضل ولم يكن الأفضل يدعو الكل إلى نفسه ولا المفضول يمنع من سأله عن وجود الفاضل هذا مما لا يرتاب فيه عاقل).

لقد نقلت لك كلامه هذا بطوله دون أن أترك منه حرفا لتعلم أن ما يقوله هذا الإمام ينطبق على نقيض ما يتقوله هذا المنكر على لسانه تماما فالعز رحمه الله يوجب على العامة التقليد والمنكر يلزمه باتباع المعصوم وترك غير المعصوم كما قد رأيت والعز رحمه الله يجعل الأصل في المقلد أن يلتزم إماما بعينه ثم يفرع عنه البحث في حكم رغبته في الانتقال إلى مذهب آخر ويذكر في الخلاف ويجنح – كما قد رايت – إلى القول بجواز ذلك " لا بوجوبه" بشروط.

([25]١) سورة يوسف الآية (٤٠).

فالعز رحمه الله تعالى الله لا يرى مانعا من التزام المقلد مذهبا معينا دون أن يتحول عنه هذا المنكر يفرض عليه ان يتنقل بين جميع هذه المذاهب ويلزمه بذلك إلزاما والعجب العاجب أنه يتقول على العز رحمه الله تعالى الله هذه الأشياء وينطقه بها وهو إنما نطق بعكسها.

نعم أتبع العز بن عبدالسلام رحمه الله تعالى الله هذا الكلام الذي نقلته لك بكلام آخر مباشرة أنحى فيه باللائمة على الفقهاء الذين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه ويسبر حقيقته ويدرك ما يتعلق به بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ومع ذلك يقلد ويترك الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه جمودا على تقليد إمامه وأطال العز في بيان خطورة ذلك وأجاد ولكن ما علاقة هذا بدعوى هذا المنكر ؟! وما هو المسوغ لما يفعله هذا الرجل من اتخاذ مثل هذه النصوص ثوبا يكسو بها مزاعمه العارية؟ ... وهلا تبصر الكلام الطويل الآخر الذي يجاوز هذه الفقرة مجاورة مباشرة ليفهم معاني الكلام وأطراف البحث ؟ وهل هو حقا لم يتبصره ولم يعثر عليه أم رآه وفهمه ولكنه تجاهله وعفى عليه ونسخه بما بعده ثم أنطق الرجل بما هو منه بريئ؟!.

ثم إليك ما يقول ابن القيم

يقول في كتابه إعلام الموقعين (٦٨/٣ ، ط: السعادة) ذكر تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى ما يحرم القول فيه والإفتاء به والى ما يجب المصير إليه والى ما يسوغ من غير إيجاب.

فأما النوع الأول فهو ثلاثة أنواع أحدها: الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء والثاني تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله والثالث التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المجتهد.

ثم أطال ابن القيم في سرد وشرح أضرار ومساوي التقليد المحرم الذي حصره في هذه الأنواع الثلاثة فكل ما أورد في كلامه الطويل من إنكاره التقليد وتسفيهه والتحذير منه فهو وارد على هذه الأنواع الثلاثة التي فرعها عن الأول.

وربما قرأ القارئ السطحي جزاء من كلامه الطويل في ذلك دون ان يمسك بأصل البحث ومنطلقه فيتوهم أنه إنما ينكر التقليد مطلقا ثم يذهب يستدل على بطلان

التقليد مطلقا بفقرات من كلامه الذي ساقه في خضم بحثه الطويل كما فعل هذا المنكر.

ولكن المتأمل يعلم ان ابن القيم إنما فرع كلامه الطويل ذاك على هذا التقسيم الذي جعله أصل بحثه وحسبك دليلا قاطعا على ذلك بالإضافة إلى النص الذي نقلته من كلامه قوله في غضون بحثه هذا : (فإن قيل: إنما ذم من قلد الكفار وآباءه الذي لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ولم يذم من قلد العلماء المجتهدين بل قد أمر بسؤال أهل الذكر وهم اهل العلم وذلك تقليد لهم فقال تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾([26]١)).

وهذا أمر لمن لا يعلم بتقليد من يعلم – فالجواب انه سبحانه ذم من أعرض عما أنزله إلى تقليد الآباء وهذا القدر من التقليد هو مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه أما تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور كما سيأتي بيانه عند ذكر التقليد وهو التقليد الواجب والسائغ إن شاء الله .

ولقد أطال ابن القيم بعد ذلك في ذم أنواع التقليد الباطل وأنفق في ذلك ما يقارب مائة صحيفة ويبدو أنه نسي بعد حديثه المسهب الطويل هذا أن يعود فيتحدث عن النوع الثاني من التقليد وهو التقليد الواجب الذي وعد بالحديث عنه فانتقل منه إلى الحديث عن النصوص وحرمة الإفتاء بما يخالفها وموقع السنة من القرآن.

ومن تأمل أبحاث ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين) وصبر على قراءتها بتمهل واستقصاء وجد فيه غرائب من هذا القبيل فهو تارة يفرع اصل البحث ويجزؤه ثم يبدأ فيتناول بعض أجزاءه ويطيل الشرح والبحث ويشفق له الاستطرادات المختلفة ثم يتجاوز البحث كله إلى غيره دون أن يعود إلى بقية فروعه وأجزائه بالنظر والبحث كما فعل هنا ، وهو تارة يقع في تناقضات عجيبة لا تدري سبب وقوعه فيها كتلك التناقضات التي وقع فيها اثناء حديثه المسهب جدا عن الحيل واحكامها وعلى كل فقد تحدث الرجل عن مشروعية التقليد وضرورته لمن لم يبلغ رتبة الاجتهاد في مكان آخر من كتابه فقد عقد فصولا طويلة تتعلق بشروط الفتوى وآدابها ضمن كثيرا من

([26]١) سورة النحل الآية (٤٣).

أبحاثها ومسارها بيان ما ينبغي أن يكون عليه العامي والعالم الذي لم يلغ رتبة الاجتهاد وأن عليه اتباع إمام يسترشد به ويقلده في أحكام الحلال والحرام وانه لا يجوز لمثل هذا الإنسان أن يفتي الناس ولو توفرت لديه كتب الحديث وأمكنه العثور فيها على حديث يتعلق بفتواه واليك مقاطع من كلامه في بيان هذا الأمر :

قال في (١٧٥/٤) (الفائدة العشرون) : لا يجوز للمقلد أن يفتي في دين الله بما هو مقلد فيه وليس على بصيرة فيه سوى أنه قول من قلده دينه وهذا إجماع من السلف كلهم وصرح به الإمام احمد والشافعي رضي الله عنهما قال أبو عمرو بن الصلاح : قطع أبو عبدالله الحليمي إمام الشافعيين بما وراء النهر والقاضي أبو المحسن الروياني صاحب بحر المذهب وغيرهما بأنه لا يجوز للمقلد أي يفتي بما هو مقلد فيه.

ثم أطال ابن القيم في تأكيد هذا الحكم وبيان انه الحق.

وقال في (١٩٦/٤) ما نصه : (الفائدة الحادية والعشرون) : إذا تفقه الرجل وقرأ كتابا من كتب الفقه أو أكثر وهو مع ذلك قاصر في معرفة الكتاب والسنة وآثار السلف والاستنباط والترجيح فهل يسوغ تقليده في الفتوى؟ فيه للناس أربعة أقوال... والصواب فيه التفصيل وهو أنه إن كان السائل يمكنه التوصل إلى رأي عالم يهديه السبيل لم يحل له استفتاء مثل هذا ولا يحل لهذا أن ينسب نفسه إلى الفتوى مع وجود هذا العالم وإن لم يكن غيره بحيث لا يجد المستفتي من يسأله سواه فلا ريب أن رجوعه إليه أولى من أن يقدم على العمل بلا علم..)

وقال في (٢١٥/٤) ما نصه (الفائدة الثلاثون) : إن كان الرجل مجتهدا في مذهب إمام ولم يكن مستقلا بالاجتهاد فهل له أن يفتي بقول ذلك الإمام؟ على قولين: وهما وجهان لأصحاب الشافعي واحمد أحدهما الجواز ويكون متبعه مقلدا للميت لا له وإنما له مجرد النقل عن الإمام والثاني لا يجو له أن يفتي لأن السائل مقلد له لا للميت وهو لم يجتهد له والسائل يقول له : أنا أقلدك فيما يفتي به.

وقال في (٢١٥/٤) ما نصه (هل يجوز للحي تقليد الميت والعمل بفتواه من غير اعتبارها بالدليل الموجب لصحة العمل بها؟ فيه وجهان لأصحاب الإمام أحمد: فمن منعه قال : يجوز تغيير اجتهاده لو كان حيا فإنه كان يجدد النظر عند نزول هذه

النازلة ... والثاني الجواز وعليه عمل جميع المقلدين في أقطار الأرض وخيار ما بأيديهم تقليد الأموات ... والأقوال لا تموت بموت قائلها كما لا تموت الأخبار بموت رواتها).

وقال في (٢٣٤/٤) (الفائدة الثامنة والأربعون) : إذا كان عند الرجل الصحيحان أو أحدهما أو كتاب من سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مؤثق بما فيه فهل له أن يفتي بما يجده فيه .؟... والصواب في هذه المسألة التفصيل فإن كانت دلالة الحديث ظاهرة بينة لكل من سمعه لا يحتمل غير المراد فله أن يعمل به ويفتي به ولا يطلب التزكية له من قول فقيه أو إمام بل الحجة قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ... وإن كانت دلالته خفية لا يتبين المراد منها لم يجز له أن يعمل ولا يفتي بما يتوهمه مرادا حتى يسأل ويطلب بيان الحديث ووجهه... ثم قال: وهذا كله إذا كان ثمة نوع أهلية ولكنه قاصر في معرفة الفروع وقواعد الأصوليين والعربية وإذا لم تكن ثمة أهلية قط ففرضه ما قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾([27]١) .

وقال في (٢٣٧/٤) جوابا على سؤال: هل للمفتي أن يفتي بغير مذهب إمامه؟ ينقل عن ابي عمرو بن الصلاح : (ومن وجد حديثا يخالف مذهبه فإن كملت آلة الاجتهاد فيه مطلقا او في مذهب إمامه أو في ذلك النوع أو في تلك المسألة فالعمل بذلك الحديث أولى وإن لم تكمل آلته ووجد في قلبه حزازة من مخالفة الحديث بعد ان بحث فلم يجد لمخالفته عنده جوابا شافيا فلينظر هل عمل بذلك الحديث إمام مستقل أم لا فإن وجده فله أن يتمذهب بمذهبه في العمل بذلك الحديث ويكون عذرا له في ترك مذهب إمامه في ذلك والله اعلم).

وقال بعد ذلك مباشرة : (الفائدة الخمسون): هل للمفتي المنتسب إلى مذهب إمام بعينه أن يفتي بمذهب غيره إذا ترجح عنده ؟ إن كان سالكا سبيل ذلك الإمام في الاجتهاد ومتابعة الدليل فله أن يفتي بما ترجح عنده من قول غيره وغن كان مجتهدا متقيدا بأقوال ذلك الإمام لا يعدوها إلى غيرها فقد قيل: ليس له أن يفتي بغير قول إمامه فإن اراد ذلك حكاه عن قائله حكاية محضة والصواب أنه إذا ترجح عنده قول

([27]١) سورة الأنبياء الآية (٧).

غير إمامه بدليل راجح فلابد ان يخرج على اصول إمامه وقواعده فإن الأئمة متفقون على أصول الأحكام ومتى قال بعضهم قولا مرجوحا فأصوله ترده وتقتضي القول الراجح فكل قول صحيح فهو يخرج على قواعد الأئمة بلا ريب فإذا تبين لهذا المجتهد المقيد رجحان هذا القول وصحة مأخذه على قواعد إمامه فله أن يفتي به. وبالله التوفيق.

فهذه مقاطع من كلامه في غضون حديثه عن الفتوى وشرطها وآدابها أفتراه كلام من يحرم التقليد ويلزم الناس جميعا بالأخذ بالكتاب والسنة مباشرة أم تراه يحرم الالتزام بمذهب معين أم تراه يأمر المقلد بأن يظل عمره يقفز من مجتهد إلى آخر؟

ألست ترى أن كل مقطع من هذه المقاطع تصريح بشكل لا يحتمل الريب بأن الجاهل لا يسعه إلا التقليد وأن المتمذهب بمذهب معين لا يجوز له أن يفتي الناس في مسألة ما بغير مذهبه إلا أن يكون مجتهدا فيها وأن تقليد الميت كتقليد الحي على السواء لأن الأقوال لا تموت بموت قائلها على حد تعبيره وإن الاعتماد على كتب الحديث وحدها لا تجعل من المقلد مجتهدا؟!.

وإذا كان ابن القيم يرى ما يراه هذا المنكر ومن أن تقليد الأئمة تقليد لغير المعصوم وتقليد الرسول تقليد للمعصوم فلا يجوز لأحد إلا الأخذ من المعصوم مباشرة فما باله يجعل من تقليد المذاهب الأربعة موضوعا لبحثه وأساس لتعريفاته وما باله يحجر على المقلد الأخذ من كتب الحديث ويمنعه من الافتاء ويمنع السائل من الاعتماد عليه ويحذره (المموقت) الذي يتهمون به عامة المسلمين المقلدين لمذاهب أئمتهم ... عسى أن يسهل لهم هذا التعصب له إذا ما تأملوا في نصوصه هذه سبيل الرجوع إلى جادة الحق.

أما النص الذي وقع عليه اختيار ذلك المنكر من مجموع ما قاله ابن القيم في هذا الصدد واستله من كتابه دون غيره ليعتمد عليه فيما يدعي من حرمة المتذهب بمذهب معين فهو بعيد كل البعد عن دعواه ليس له اليها أي منفذ أو سبيل.

والنص الذي اختاره من مجموع كلامه هو قوله : (... بل لا يصح للعامي مذهب ولو تمذهب به فالعامي لا مذهب له فإذا قال: أنا شافعي أو حنفي أو حنبلي أو مالكي أو غير ذلك لم يصر كذلك بمجرد القول...)

والكلام الذي قبله وبعده بيان لما لا خلاف في حقيته وهو عدم وجوب التزام المقلد لمذهب واحد في كل فروعه ومسائله وقد قلنا إن هذا محل وفاق واستبعدناه عن مجال البحث ولكن هذه الفقرة التي نقلناها من كلامه هي وحدها التي قد توهم تصديق ما يدعوا إليه المنكر من نبذ التقليد وحمل الناس جميعا على الأخذ من الكتاب والسنة غير أن العبارة ليست من هذا في شيء .

إن المقصود بهذا الكلام الذي قاله كثير من العلماء أن العامي إذا لقي مفتيا لمشكلته التي يبحث عن حكمها وسأله عنها فإن عليه أن يأخذ بما يقول وليس للعامي أن يطلب إليه افتاءه فيها بموجب مذهب معين ذلك لأن المفتي مجتهد وإلا لم يجز أن يسمى أو ينصب مفتيا والمجتهد إنما يجيب السائل حسب ما أداه إليه اجتهاده وليس له أن يقلد مجتهدا مثله ثم يفتيه بمذهبه في ذلك نعم للعامي أن يسأله عما يقول الشافعي في مشكلته وله أن يروي له ما يقول فيها على وجه النقل لا الفتيا أما أن يحمل العامي المجتهد على أن يفيته بمذهب إمامه فليس له ذلك لأنه ليس أكثر من جاهل يدعي علما بمذهب إمام معين ونسبة إليه وهو لو كان كذلك لما احتاج إلى استفتاء هذا المجتهد وسؤاله وتعبيرا عن هذا المعنى الذي لا شك ولا إشكال فيه قال العلماء : مذهب العامي مذهب مفتيه وليس للعامي مذهب معين.

ولكن ما هو مصير العامي عندما يلتفت حوله فلا يرى مفتيا (أي مجتهدا مطلقا) ولا يرى إلا علماء مقلدين كل منهم يلتزم مذهبا معينا ومن يسمى مفتيا بينهم إنما أطلق عليه هذا الاسم تشبيها ومجازا؟.. إن قاعدة (مذهب العامي مذهب مفتيه) لا تنطبق في هذه الحال إطلاقا كما هو واضح إذ لا مفتي له وإنما الذي يتعين عليه أن يستفتي واحدا من المجتهدين السالفين وقد مر بك أن العلماء قالوا وفي مقدمتهم ابن القيم: إن الأقوال لا تموت بموت قائلها فيجوز للحي تقليد الميت.

وخير من يستفتيه من المجتهدين السالفين الأئمة الأربعة بإجماع علماء هذه الملة بأسرها بسبب ما نالته مذاهبهم من الخدمة والتمحيص والتدوين وتوفر أسباب الطمأنينة في صحة إسنادها إلى أربابها كما لم يتوفر مثل تلك الأسباب بالنسبة لأي مذهب آخر فهو يسأل من شاء منهم عن طريق سؤال علمائه والمتفقهين فيه أو دراسة كتبه إن امكنه ذلك ثم له أن يلتزم واحدا منهم لكل ما يعرض له من مسائل

واحكام وله أن ينتقل من احدهم إلى الآخر بالشروط التي ذكرها العلماء والتي أوضحنا طرفا منها فيما مضى .

والعامي – وهو يفعل هذا – لم يخرج في الحقيقة عن قاعدة (مذهب العامي مذهب مفتيه) لأنه لما لم يجد من حوله مفتيا واضطر إلى استفتاء الشافعي مثلا فقد أصبح مذهبه هو مذهب الشافعي نفسه بموجب نص القاعدة ذاتها.

فهذا هو معنى كلام ابن القيم تجده مفصلا واضحا في سائر كتب الأصول في باب الاجتهاد ارجع إلى أي منها شئت تجد تفصيل ذلك كله.

ثم إليك ما يقول الكمال بن الهمام في هذا الصدد:

قال في التحرير ما نصه : (وهل يقلد غيره أي غير من قلده أولا) في غيره أي في غير ذلك الشيء؟

المختار: نعم للقطع بأنهم كانوا يستفتون مرة واحدا ومرة غيره غير ملتمزمين مفتيا واحدا فلو التزم مذهبا معينا كأبي حنيفة أو الشافعي فقيل : يلتزم وقيل لا ثم أخذ شارح التحرير يرجح القول بعدم وجوب الالتزام وهو مذهب جمهور العلماء إذ لا واجب إلا ما أوجب الله والله ما أوجب على الجاهل إلا تقليد العالم المجتهد ولم يوجب عليه التزام واحد بعينه دائما والغريب أن صاحب الإنكار عزا إلى الكمال بن الهمام كلاما طويلا غير هذا لم يقله ولم يتفوه به إنما هو كلام ذكره ابن أمير حاج في شرحه للتحرير واسم كتابه (التقرير والتحبير) وقد اختلط الأمر على (العلامة) صاحب الإنكار فأسند الكلام الذي ساقه إلى ابن الهمام وهو لم يقله أصلا وأسند إليه كتابا اسمه التقرير والتحبير وهو لم يؤلف كتابا بهذا الاسم اصلا.

على أن ما قاله ابن أمير حاج في ذلك هو عين ما قاله ابن القيم عن العامي الذي جاء يستفتي المفتي مع أنه لا مذهب له وأن مذهبه مذهب مفتيه وقد ذكرنا معنى هذا الكلام وأوضحنا المقصود منه.

- الدليل السادس: زعم أن حدوث المذاهب الأربعة إنما كان بسبب السياسة الغاشمة واستيلاء الأعاجم ذوي الأغراض على الملك وعزا صاحب الإنكار زعمه هذا إلى مقدمة ابن خلدون فقال : (إن أردت الاطلاع على اسباب حدوث المذاهب والطرائق فعليك بمطالعة مقدمة تاريخ ابن خلدون فإنه قد أبدع في هذا البيان

فجزاه الله خيرا وأفاد أن المذاهب حدوثها وشيوعها إنما هي بسبب السياسات الغاشمة واستيلاء الأعاجم ذوي الأغراض على الملك).

أقول: وقد فعلنا ما أشار به صاحب الإنكار فرجعنا إلى مقدمة ابن خلدون وطالعناها وتتبعنا كلامه عن نشأة المذاهب وأسبابها فما وقعنا في شيء من ذلك على هذا الزعم الذي اسنده إليه صاحب الإنكار وما وقفنا من كلامه في ذلك إلا على ما هو الحق المبين المتفق عليه من قبل جمهور المسلمين مما لا يُعجب صاحب الإنكار في قليل ولا كثير .

قال في (ص ٢١٦، ط: بولاق) بصدد حديثه عن علم الفقه وكيفية نشأته ونشأة مذاهبه ما نصه: (.... إن الصحابة كلهم لم يكونوا اهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وغنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم او ممن سمعه منهم من عليتهم وكانوا يسمون لذلك القراء... وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسته الكتاب وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعة وعملا فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين :

أهل الرأي والقياس وهم اهل العراق وطريقة اهل الحديث وهم اهل الحجاز وكان الحديث قليلا في اهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا فيه فلذلك قيل: أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة النعمان وإمام أهل الحجاز مالك بن أنس والشافعي من بعده ثم انكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا المدارك كلها منحصرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة إلى النص لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان إمام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكانت هذه المذاهب إذ ذاك هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة).

واوضح بعد ذلك أن مذهب الظاهرية درس بدروس أئمته بتدوين الأصول وتقعيد قواعد الاستنباط من النصوص والرأي وبسبب إنكار الجمهور على منتحليه ثم قال: (ولم يبق إلا في بعض الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين ممن تكلف

بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يأتي بطائل ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من اهل البدع بنقله العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين).

ثم أخذ ابن خلدون يترجم لكل من الأئمة الأربعة ويوضح مدى فضله وعلمه ، وكيفية اخذهم الفقه واصول بعضهم وكيف مزج أصحاب ابي حنيفة طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق فتلاقت المدرستان بذلك وبين مدى انتشار مذهب كل منهم والكمال الذي انتشر فيه ثم قال:

(وسد الناس باب الخلاف وطرقه بعد ذلك لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ولما فشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه).

فهذه خلاصة ما قاله ابن خلدون عن المذاهب ونشأتها وكله مما لا يعجب صاحب الإنكار ومما لا يفيده أن يشد أزره به وأرجو من القارئ الكريم ان يعود إلى هذا البحث في مقدمة ابن خلدون فيقرأه بطوله ثم يجهد جهده أن يضع يده على كلمة واحدة يجدها تتحدث عن السياسات الغاشمة التي تدخلت في إنشاء المذاهب الأربعة على حد تعبير صاحب الإنكار وليسم القارئ بعد ذلك هذا العمل من حضرة صاحب الإنكار بالاسم الذي تطلقه اللغة العربية وغير العربية عليه وليعذرني إن لم أفعل انا ذلك ، فقد التزمت([28]١) في مقدمة هذه الرسالة ان لا أتناول الموضوع إلا بالمعالجة العلمية المجردة وأن لا أحمل قلمي على أي تعبير أو وصف ينزل عن ذلك المستوى وإن كان كلامه هو محشوا بمثل هذه الأوصاف والتعابير .

- الدليل السابع : قوله : (يقال للمقلد : على أي شيء كان الناس قبل أن يوجد فلان وفلان الذين قلدتموهم وجعلتم اقوالهم بمنزلة نصوص الشارع ... أفكان الناس قبل وجود هؤلاء على هدى أو ضلالة ؟ فلابد أن يقروا بانهم كانوا على هدى فيقال لهم : فما الذي كانوا عليه غير اتباع القرآن والسنة والآثار وتقديم قول الله تعالى ورسوله وآثار الصحابة رضي الله عنهم على ما يخالفها والتحاكم

([28]١) المقصود الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

اليها دون قول فلان وفلان برأيه ؟ وإذا كان هذا هو الهدى فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى يؤفكون؟!!...) الكراس.

ونحن نقول في الكشف عن هذا الدليل العجيب ونجيب عن المقلد الذي يسأله صاحب الإنكار هذا السؤال فنقول: كان الناس قبل وجود فلان وفلان يفعلون كما قال ابن خلدون في الفصل الذي اعتمدت أنت بنفسك على كلامه ألم يقل ابن خلدون في نفس ذلك الفصل : (إن الصحابة كلهم لم يكونوا اهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته). فما معنى هذا الكلام الواضح؟.

إذا كان أهل الفتيا والاجتهاد من الصحابة عددا محصورا ومميزا فيهم كما يقول وكان الباقون منهم دون هذه المرتبة فعمن يتلقى هؤلاء الباقون إذا دينهم؟.... لا جرم أنه يتلقونه من هذا العدد المحصور الممتاز عنهم بالقدرة على الاجتهاد والاستنباط وهل التقليد شيء آخر غير هذا ؟.. إذا لم يختلف الأمر ولم يتبدل بين العهدين كان العوام في عصر الصحابة يقلدون من اشتهر في عصرهم بالفتيا والاجتهاد وكانوا في عصر التابعين أيضا يفعلون ذلك وفي العصر الذي يليه يفعلون ذلك أيضا وما الشافعي وأبو حنيفة وأحمد ومالك إلا طائفة من هؤلاء المجتهدين جاء للعوام ان يقلدوهم كما جاز لمن قبلهم من العوام أن يقلدوا مثلهم وكما جاز للعوام من الصحابة أن يقلدوا مجتهدة عصرهم من امثال ابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت والخلفاء الراشدين .

ألم يجمع كل علماء التاريخ وتاريخ التشريع على انه كان في عهد التابعين مذهبان عظيمان: مذهب أهل الحديث في الحجاز ومذهب أهل الرأي في العراق وأن عامة أهل الحجاز كانوا يقلدون المذهب السائد عندهم وعامة أهل العراق يقلدون المذهب السائدة فيما بينهم وأنه كان لهذا المذهب أئمته وللمذهب الآخر أئمته؟!.

فما الذي حدث مما يخالف هذا الواقع عندما ظهرت المذاهب الأربعة؟ لم يظهر جديد كل ما في الأمر أن أئمة هذه المذاهب الأربعة وضعوا منهجا للاستنباط فيما بينهم واشتقوه من أدلة الكتاب والسنة ضبطوا به الرأي والقياس السليم وميزوه عن الرأي والأقيسة الباطلة فتلاحم بذلك كل من مذهبي الرأي والحديث واختفى – تدريجيا

كل من طرفي الإفراط والتفريط وكان هذا من أكبر العوامل لتبوء المذاهب الأربعة مكانة عليا في صعيد البحث والاجتهاد ولإقبال مختلف الفئات والطبقات على التزامها والأخذ منها وهذا الواقع شيء معروف ومدروس لا أظنني بحاجة إلى أن أنفق وقتا في سرد أدلة ونصوص عليه.

إذا فأي اختلاف حصل في جوهر واقع الاجتهاد والتقليد حتى يقول صاحب الإنكار: على أي شيء كان الناس قبل فلان وفلان وكأنه ألزم بذلك الخصم إلزاما لا مخلص منه؟!.. وأي ضلال وأي إفك وقع فيه مقلدوا المذاهب الأربعة وهم ليسوا في ذلك إلا كالذين قلدوا من قبلهم مذهب الرأي أو الحديث وكالذين قلدوا من قبلهم أئمة الصحابة ومجتهديهم ؟!.

لا مناص من التقليد ولا مانع من اتباع مذهب معين ودليل ذلك:

لخصنا لك فيما مضى الأدلة التي قالها صاحب الإنكار على دعواه وأوضحنا بما لا يدع أي شك لمنصف أنها ليست أدلة إلا من حيث أن صاحب الإنكار اعتبرها كذلك فهي أقوال لا ينهض بها أي دليل او جزء من دليل يقره العلم ويعتد به وتسمية صاحب الإنكار إياها (دليلا) لا يغير شيئا من حقيقة الأمر .

وما لم نتعرض له من كلامه بنقاش أو رد تفصيلي فكله منصب على تلك البنود الثلاثة المتفق عليها عند العلماء جميعا والتي أخرجناها من حيز الخلاف ولذلك لم نتعرض له بشيء ولم نجد ما يدعو إلى تضييع الوقت فيه ومع ذلك فما ينبغي أن نثبت عكس ما يدعيه صاحب الإنكار عن طريق تزييف أدلته فقط بل لابد أن نطالب أنفسنا من وراء ذلك ببراهين إيجابية جديدة تدل على فساد المزاعم الخطيرة التي يدعيها صاحب الإنكار وتثبيت عكسها تماما.

إن ما يحاول صاحب الإنكار تقريره ينحصر في أمرين اثنين لا ندري سبيلا للتوفيق بينهما بل ولا ندري كيف يتلاقيان معا في ذهب ذلك المنكر :

فالأمر الأول الذي يدعيه ويكرره في أكثر من مكان من كلامه هو حرمة التقليد مطلقا مستدلا بأن المجتهد غير معصوم والكتاب والسنة معصومان واتباع المعصوم أفضل من اتباع غير المعصوم وبأن الاجتهاد سهل لا يحتاج إلى أكثر من الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود وجامع الترمذي.

والأمر الثاني الذي يدعيه ويكرره أيضا هو أن المقلد ليس عليه أن يلتزم مذهبا بعينه وإذا فعل ذلك فهو ضال وهو من الحمر المستنفرة... .

ولست أدري ما هي وسيلة الجمع بين هذين الأمرين! .. إذا كان التقليد من أصله باطلا لأنه اتباع غير المعصوم فما معنى النهي عن نوع من التقليد بعينه وهو التزام مذهب معين ؟! .. وإذا كان الباطل من التقليد هو هذا النوع فما معنى إطراح التقليد من أساسه والاستدلال له باتباع المعصوم وغير المعصوم؟! لست أدري صورة الحكم في مجموعه كما هو في ذهن صاحب الإنكار ولكني سأضع أمام القارئ الدليل على أن التقليد أمر لا مناص منه بين المسلمين وأنه مشروع وثابت وعلى أن المقلد إذا شاء أن يلتزم مذهبا معينا ولا يتحول عنه فله ذلك وليس مرتكبا لمنهي ولا مقترفا لمحرم.

أولا : لا مناص من التقليد وهو مشروع بإجماع المسلمين .

والتقليد هو اتباع قول إنسان دون معرفة الحجة على صحة ذلك القول وإن توفرت معرفة الحجة على صحة التقليد نفسه فالمقلد قد يعرف الحجة على صحة تقليده للعالم المجتهد ولكنه لا يعرف الحجة على صحة ما يقلد المجتهد فيه.

ولافرق بين أن تسمي هذا العمل تقليدا أو اتباعا فكلاهما بمعنى واحد ولم يثبت أي فرق لغوي بينهما وقد عبر الله بالاتباع عن التقليد في أسوى أنواعه فقال جل جلاله ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا﴾([29]١)، فما من شك أن المراد بالاتباع هنا هو التقليد الأعمى الذي لا مسوغ له وسواء اصطلحت أنت على فارق جديد من المعنى بينهما في هذا المبحث أو لا فإن القسمة ثنائية على كل حال إذ الباحث إما أن يكون عالما بالأدلة خبيرا بكيفية الاستنباط منها أو لا فهو مقلد للمجتهد وكثرة الألفاظ والاصطلاحات لا تغير من الواقع شيئا .

فما الدليل على مشروعية التقليد ووجوبه عند عدم التمكن من الاجتهاد([30]٢)؟!.

([29]١) سورة البقرة الآية (١٦٦).

([30]٢) ينبغي أن يعلم بأن كلامنا إنما هو فيما يتعلق بالفروع من الأحكام أما الأمور الاعتقادية المتعلقة بأصول الدين فلا يجوز التقليد فيها بالإجماع والفرق أن الأمور الاعتقادية لا يغني فيها الظن وإنما سبيلها اليقين والقطع لقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ ولقوله وهو ينكر على الذين اتبعوا الظن في اعتقاداتهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ ولا يوصل إلى اليقين إلا إشغال الفكر والاستقلال في النظر والبحث أما الأحكام الفرعية فقد تعبدنا الله فيها بالظن أي إنه جعل

الدليل من وجوه

الوجه الأول : قوله جل جلاله ﴿ فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾([31]١) أجمع العلماء على أن الآية أمر لمن لا يعلم الحكم ولا دليله باتباع من يعلم ذلك وقد جعل عامة علماء الأصول هذه الآية عمدتهم الأولى في أن على العامي تقليد العالم المجتهد ومثل هذه الآية في نفس الدلالة قوله تعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾([32]٢) فقد نهى الله تعالى أن ينفر الناس كافة للغزو والجهاد وأمر ببقاء طائفة منهم يتفرغون للتفقه في دين الله حتى إذا عاد إخوانهم إليهم وجدوا فيهم من يفتيهم في أمر الحلال والحرام وبيان حكم الله عز وجل([33]٣).

الوجه الثاني : ما دل عليه الإجماع من أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يتفاوتون في العلم ولم يكن جميعهم أهل فتيا – كما قال ابن خلدون – ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم بل كانوا فيهم المفتي المجتهد وهم قلة بالنسبة لسائرهم وفيهم المستفتي المقلد وهم الكثرة الغالبة فيهم ولم يكن المفتي من الصحابة يلتزم مع ذكر الحكم بيان دليل للمستفتي وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يبعث الفقيه من الصحابة إلى المكان الذي لا يعلم سكانه من الإسلام إلا عقيدته والاعتقاد بأركانه فيتبعونه بكل ما يفتيهم بما هداه إليه الاجتهاد فيقلدونه في ذلك .

يقول الغزالي في المستصفى في باب التقليد والاستفتاء مستدلا على أن العامي ليس له إلا التقليد ما نصه : (ونستدل على ذلك بمسلكين احدهما إجماع الصحابة فإنهم كانوا يفتون العوام ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد وذلك معلوم على الضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم)([34]٤).

ظن المجتهد والباحث دليلا شرعيا يلزمه العمل بمقتضاه والدليل على ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يبعث آحاد الناس لتعليم الناس أحكام الفروع من عبادات وغيرها ويلزمهم باتباع ما يقوله لهم هذا الواحد مع العلم بأن خبر الآحاد لا يفيد إلا الظن ... فكأنه يقول لهم إذا ظننتم – بموجب البحث أو تقليد العالم الباحث – أن الحكم كذا وجب عليكم تطبيقه والمصير إليه فهذا هو الفرق بين الواجبات الاعتقادية والأحكام العلمية .

([31]١) سورة النحل الآية (٤٣).

([32]٢) سورة التوبة الآية (١٢٢).

([33]٣) انظر تفسير الجامع لأحكام القرآن (٢٩٣/٨ و ٢٩٤).

([34]٤) المستصفى للغزالي (٣٨٥/٢).

وقال الآمدي في كتابه الأحكام: (وأما الإجماع فهو أنه لم تزل العامة في زمن الصحابة والتابعين قبل حدوث المخالفين يستفتون المجتهدين ويتبعونهم في الأحكام الشرعية العلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر الدليل ولا ينهونهم عن ذلك من غير نكير فكان إجماعا على جواز اتباع العامي للمجتهد مطلقا)([35]١).

وقد كان المتصدرون للفتوى في عصر الصحابة أفرادا محصورين عرفوا بين الصحابة بالفقه والرواية وملكة الاستنباط واشهرهم الخلفاء الأربعة وعبدالله بن مسعود وابو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت أما المقلدون لهؤلاء في المذهب والفتوى فكانوا فوق الحصر .

أما في عهد التابعين فقد استعت دائرة الاجتهاد وسلك المسلمون في هذا العهد نفس الطريق الذي سلكه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن الاجتهاد تمثل في مذهبين

رئيسيين هما مذهبا الرأي والحديث بسبب العوامل الاجتهادية التي ذكرناها عندما نقلنا كلام ابن خلدون.

ومن أقطاب مذهب الراي في العراق: علقمة بن قيس النخعي ومسروق بن الأجدع الهمداني وإبراهيم بن زيد النخعي وسعيد بن جبير وقد كان عامة من في العراق وما حولها يقلدون هذا المذهب من دون أي نكير.

و من أقطاب مذهب الحديث في الحجاز : سعيد بن المسيب المخزومي و عروة بن الزبير و سالم بن عبدالله بن عمر و سليمان بن يسار و نافع مولى عبدالله بن عمر و كان أهل الحجاز وما حولها يقلدون هذا المذهب دون نكير .

وقد كان بين اقطاب هذين المذهبين مناقشات وخصومات حادة في بعض الأحيان ولكن العوام والمتعلمين ممن كانوا دونهم في العلم والفقه لم يكن يعنيهم شأن تلك الخصومة إذ كانوا يقلدون من شاؤوا أو من كان قريبا منهم

([35]١) الأحكام للآمدي (١٧١/٣).

دون أي إنكـار مـن أحـد علـيهم ومناقشــة المجتهـدين بعضــهم لـبعض لا تنعكس باي تبعية أو مسؤولية على الجاهل المعذور .

الوجه الثالث: الدليل القطعي (العقلي)البين ونعبر عنه بما قاله العلامة الشيخ عبدالله دراز : (.... والدليل المعقول هو أن من لم يكن عنده أهلية الاجتهاد إذا حدثت به حادثة فرعية فإما ان لا يكون متعبدا بشيء أصلا وهو خلاف الإجماع وإن كان متعبدا بشيء فإما بالنظر في الدليل المثبت للحكم أو بالتقليد والأول ممتنع لأن ذلك مما يفضي في حقه وحق الخلق أجمع إلى النظر في ادلة الحوادث والاشتغال عن المعايش وتعطيل الحرف والصناعات وخراب الدنيا بتعطيل الحرث والنسل ورفع التقليد راسا وهو منتهـى الحـرج فلـم يبـق إلا التقليـد وانـه هـو المتعبـد بـه عنـد ذلـك الغرض)([36]١).

ولما رأى العلماء تكامل كل من دليل الكتاب والسنة والعقل على ان العامي أو العـالم الـذي لـم يبلـغ درجـة الاسـتنباط والاجتهـاد لـيس لـه إلا أ ن يقلـد مجتهدا متبصرا بالدليل.

قـالوا: إن فتـوى المجتهـد بالنسـبة للعـامي كـدليل الكتـاب والسـنة بالنسـبة للمجتهد لأن القرآن كما ألزم العالم به التمسك بدلائله وبراهينه فقد ألزم الجاهل بالتمسك بفتوى العالم واجتهاده في بيان ذلك يقول الشاطبي : (فتـاوى المجتهـدين بالنسـبة إلـى العـوام كالأدلـة الشـرعية بالنسـبة إلـى المجتهدين والدليل عليه ان وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء إذ كانوا لا يستفيدون منها شيئا فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم ولا يجوز ذلك لهم البتة وقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾([37]٢)، والمقلد غير عالم فلا يصح له إلا سؤاله أهل

([36]١) انظر تعليق الشيخ عبدالله دراز على الموافقات اللشاطبي (٢٢/٤) وانظر ما قاله في ذلك الآمدي والغزالي في المرجعين السابقين .

([37]٢) سورة النحل الآية (٤٣).

الذكر واليهم مرجعه في احكام الدين على الإطلاق فهم إذا القائمون له مقام الشرع واقوالهم قائمة مقام الشارع)([38]١).

هذا ولابد أن أذكرك بالنصوص التي سقناها لابن القيم والدهلوي والعز بن عبدالسلام والكمال بن الهمام في معرض الرد على أدلة صاحب الإنكار وكلها تنطوي على أدلة مشروعية التقليد بالنسبة لمن قصرت رتبته العلمية عن القدرة على استنباط الأحكام والاجتهاد فيها .

وإذا ظهر لك الدليل الواضح القائم على اساس النقل الصحيح والإجماع القطعي والبداهة العقلية على مشروعية التقليد بل ووجوبه عند القصور عن درجة الاستنباط والاجتهاد فاي فرق عندئذ بين ان يكون المجتهد المقلد واحدا من أفراد الصحابة أو واحدا من أئمة مذاهب الرأي او الحديث أو واحدا من أئمة المذاهب الأربعة ما داموا جميعا مجتهدين وما دام الآخر مقلدا جاهلا بكيفية الاستدلال والاستنباط؟!.

وما معنى القول بأن نشأة المذاهب الأربعة بدعة وأن اتباعها وتقليدها بدعة أخرى؟ لماذا تعتبر نشاة المذاهب الأربعة بدعة ولا تعتبر نشأة مذهب الرأي والحديث ايضا كذلك ؟ ولماذا يكون مقلد الشافعي والحنفي مبتدعا ولا يكون مقلد النخعي في العراق وسعيد بن المسيب في الحجاز كذلك ؟ بل لماذا يكون اتباع هذه المذاهب الأربعة ابتداعا ولا يكون مثله في الابتداع مذهب عبدالله بن عباس أو عبدالله بن مسعود أو عائشة أم المؤمنين ؟!.

وماذا فعل أئمة المذاهب الأربعة من البدع حتى نصد العامة عن تقليدهم ونتهمهم بالابتداع إن هم التزموا اتباعهم؟ ... أي شيء زادوه على أسلافهم المجتهدين من الصحابة والتابعين ؟! إن كل ما يعتبر جديدا من عملهم أنهم دونوا السنة والفقه من جانب ووضعوا اساسا ومنهجا للاستنباط والبحث من جانب آخر فكان من نتيجة ذلك أن انكسرت حدة الخلاف بين مذهبي

([38]١) الموافقات للشاطبي (٤/٢٩٠ - ٢٩٢).

الرأي والحديث من قبلهما واصطلح الفريقان على تحكيم الميزان الجديد المستند هو ايضا بدوره إلى دلائل السنة والكتاب والإجماع فقويت بذلك اركان هذه المذاهب الأربعة ورسخت جذورها ودونت اصولها وفروعها وأولاها العلماء العناية والتمحيص فكان سر امتداد أجلها وانتشار كتبها ودفاع العلماء في كل عصر من العصور عنها مع الاتفاق على أنه ليس لأي عالم فهم مدرك الحكم ودليله وكان لديه من ملكة الاستنباط والبحث ما يطمئن به إلى سلامة فهمه وعلمه ان يقلد أحدا من هؤلاء الأئمة في ذلك الحكم.

هذا هو الجديد الذي امتازت به المذاهب الأربعة عن المذاهب الأخرى فأي بدعة تكتنفها واي ضلالة تحيق بأولئك الملايين الذين اتبعوها وبأي سبب علمي أو شبه علمي يدعي صاحب الإنكار هذا بأن هذه المذاهب أمور مبتدعة وأن التمذهب بها بدعة نشأت بعد القرن الثالث وبأي وجه شرعي يشبه المقلدين لهذه المذاهب بالحمر المستنفرة ؟!

حسبي بعد أن أوضحت حقيقة التقليد ودليله وموقع المذاهب الأربعة من المذاهب التي قبلها وواقع المسلمين في عصر هذه المذاهب وقبلها أن أضع أمام القارئ العاقل المنصف هذه الأسئلة التي تثير العجب العجاب من كلام هذا المنكر ولن أتبرع أنا بالجواب عن شيء من هذه الأسئلة فإن في إنصاف أي قارئ عاقل ما يقنعه بجنوح هذا الإنكار وصاحبه عن الحق البين النير الصريح.

ولننتقل بعد هذا إلى الدليل على الأمر الثاني

ثانيا: لا يحرم على المقلد التزام مذهب معين

فإذا انتهينا بعد حديثنا السابق إلى ان الجاهل المقصر عن رتبة الاجتهاد والاستنباط لا يسعه إلا التقليد وثبت لنا ذلك بالأدلة الواضحة التي

عرضناها فإننا نسأل بعد ذلك هل على المقلد أن يستبدل كل يوم بإمامه الذي يتبعه إماما جديدا؟ أو هل عليه أن يفعل هذا كل شهر أو كل سنة مثلا؟ ... وإذا كان هذا هو الحكم أي إذا كان عليه أن يلتزم تغيير إمامه المتبع بين كل حين وآخر فما هو الدليل الشرعي على ضرورة الالتزام؟

نقول في الجواب: إن واجب الجاهل بدليل الحكم أن يقلد كما ذكرنا والأمر في ذلك مطلق كما هو واضح من دلالة قوله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾([39]١). فمهما سأل الجاهل أهل الذكر وقلدهم فيما أفتوا به وذهبوا إليه فقد طبق أمر الله بالنسبة لنفسه سواء التزم إماما بعينه أو لم يلتزمه وسواء أكان التزامه بسبب قربه منه أو سهولة اطلاعه على مذهبه أو لمزيد من الاطمئنان لديه إلى آرائه ومذهبه فإن اعتقد أن عليه أن يلتزم إماما بعينه لا يحيد عنه ولا يستبدل به غيره فهو مخطئ وإن اعتقد حكما من عند الله عز وجل دون أن يتبع في اعتقاده هذا مجتهدا قد أخطأ في اجتهاده كان آثما وإن اعتقد أن عليه ان يلتزم استبدال إمامه كل يوم أو بين كل حين وآخر فهو أيضا مخطئ وإن اعتقد حكما منزلا من الله عز وجل ولم يكن له عذر الانخداع براي من يتظاهر بمظهر الاجتهاد كان آثما أيضا إذ كل ذلك تزيد على أمر الله وحكمه.

إن عليه أن يعلم بأن واجبه اتباع مجتهد في كل ما لا يستطيع فهمه من الأدلة الأصلية ولم يكلفه الله تعالى أكثر من ذلك أي لم يكلفه باي التزام لا التزام التغيير في الأئمة ولا التزام التمسك بواحد على الدوام.

هذا هو الحكم المتفق عليه لدى العلماء والأئمة ودليل ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: أن إيجاب التزام إمام واحد أو التزام تغيير الأئمة حكم زائد على الأصل الذي هو واجب الاتباع والتقليد فلابد له من دليل ولا دليل له.

([39]١) سورة النحل الآية (٤٣).

إذ لم يرد الدليل إلا ببيان أن على من لم يستطع تمحيص الأدلة واستنباط الأحكام منها أن يتبع إماما توفرت لديه قدرة الاجتهاد وكل شرط يزاد على مدلول هذا الدليل فهو ابتداع واختراع باطل لا يؤبه به والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيما صح عنه: (كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط)([40]١).

والعجيب أن صاحب الكراس يستدل على ما يدعيه من حرمة التزام مذهب بعينه بهذا الذي نقوله من أنه لا دليل على وجوب الالتزام وإذا كان إيجاب الالتزام أمرا لا دليل عليه كما نقول فما الفرق بين أن يوجب المقلد على نفسه التزام التغيير أو التزام عدم التغيير؟ ولماذا يكون أولهما واجبا لا مناص منه وثانيهما محرما لا مسوغ له مع أن كلا منهما داخل تحت الالتزام المنهي عن تصور وجوبه؟!.

وإذا فليس على المقلد المعذور في تقليده إلا أن يعلم وجوب ذلك عليه فإن اعتقد ان واجبه التزام إمام بعينه لا يتحول عنه أو أن واجبه التزام التحول من إمام إلى آخر كل يوم فهو على خطأ ويجب تنبيهه إلى الصواب أما إن علم أن الشارع لم يكلفه بالتزام إحدى الحالتين فهو على حق سواء التزم (من الناحية العلمية) إماما بعينه ولم يتحول عنه أو كان دأبه التحول من إمام إلى آخر ([41]٢).

الوجه الثاني : أننا نقول : إن هنالك عشر قراءات متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلى بها القرآن وقد تجرد لخدمة كل قراءة من هذه القراءات إمام معين رواها وقرأ بها وأقرأها الناس وتتلمذوا عليه فيها وقد ثبت أن المسلم يقرأ بأي هذه القراءات شاء كما ثبت أن المسلم العاجز عن الاجتهاد يقلد أي المذاهب الأربعة أفيجب على المسلم إذا أن يقرأ كل حين

([40]١) أخرجه ابن حبان (٤٢٧٢) وروى الشيخان البخاري (٢٥٦٥) ومسلم (١٥٠٤) عن عائشة قريبا منه بلفظ: (ما بال رجال يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط...).

([41]٢) ولكن يشترط لصحة التحول أن لا يدفعه إلى ذلك هوى في نفسه وتطلع إلى التفلت من التكاليف والواجبات وأن لا يقلد أكثر من مجتهد واحد في عبادة واحدة عند جمهور الفقهاء والأصوليين إذ لو فعل ذلك لاستلزم الإتيان بعبادة واحدة ملفقة من اجتهاد إمامين على صورة لا يقرها كل منهما وأن يعلم مذهب الإمام الجديد الذي تحول إليه فيما يريد أن يتبعه فيه.

بقراءة جديدة بحيث يحرم عليه التزام قراءة بعينها دون أن يتحول عنها؟!
وهل قال أحد من المسلمين بهذا الكلام قديما أو حديثا؟ وصاحب الإنكار نفسه أفيقرأ القرآن كل يوم بقراءة معينة غير التي قرأ بها في الأمس.
وما الفرق بين اتباع أئمة الفقه في فروع الدين واتباع أئمة القراءات في قراءة القرآن ؟ لماذا يجب على متبع الطائفة الأولى أن يلون ويغير... ولا يجب على متبع الطائفة الثانية أن يفعل مثل ذلك؟.
سيقول بعضهم إن المسلم قد لا يتوفر إلا على تعلم قراءة واحدة وليس له من سبيل إلى معرفة سائر القراءات الأخرى ونحن نقول مثل هذا في اتباع المذاهب أيضا إن المسلم قد لا يتوفر غلا على حفظ مذهب إمام واحد من الأئمة الاربعة وليس لديه من سبيل إلى حفظ مذاهب الأئمة الأخرى فيما يحتاج من الأحكام فلماذا نعذر الأول ولا نعذر الثاني ؟ على أن القضية ليست قضية عذر أو عدمه ولكنها تعود إلى الدليل.
وليس لنا من دليل على وجوب التزام التغيير أو عدم التغيير لا في الاقتداء بأئمة القراءات ولا في الاقتداء بأئمة الفقه فالحكم فيها إذا سواء.
الوجه الثالث: أنه قد انقضى عصر الصحابة وانقضى من بعده عصر التابعين وجاء بعد ذلك دور الأئمة الأربعة والعصر الذي يليه ولم نسمع أن إماما من أئمة هذه العصور كلها حذر المقلدين للأئمة والمفتين من ان يلتزموا مفتيا بعينه ولم نسمع أن واحد منهم امر الناس ان يتنقلوا بين الأئمة يتلقون من جميعهم ويقلدون كل واحد منهم فترة من الوقت بل الذي نعلمه عكس ذلك إننا نعلم أن الخليفة كان يعلن اسم الإمام الذي عهد إليه بالافتاء ويوجه أنظار الناس في البلدة إليه ليلقوه بأسئلتهم ويتبعوه في أمر دينهم وربما منع الخليفة من دونه عن فتوى الناس كي لا يضطربوا ويحتاروا فيما يواجههم من الفتاوى المختلفة.

لقد انفرد عطاء بن أبي رباح ومجاهد بالفتوى في مكة وكان يصيح منادي الخليفة ان لا يفتي الناس إلا أحد هذين الإمامين(١[42]).

ومضى على أهل مكة مدة طويلة من الزمن يلتزمون فيها مذهب هذين الإمامين وما أنكر عطاء ولا مجاهد ولا غيرهما من الأئمة على الخليفة شيئا من هذا الأمر ولا نهى واحد منهم الناس عن التزام مذهب إمام بعينه وربما اطمأنت نفس بعض الناس إلى فتاوى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما فكان لا يلقي بأسئلته واستفتاءاته إلا لهذا الصحابي الجليل وما عرف أحد من العلماء أنه أو غيره من الصحابة نهى عن هذا الالتزام وأثم صاحبه من أجله وقد عاش أهل العراق أمدا طويلا من الزمن وهم يلتزمون مذهب الحديث متمثلا في شخص عبدالله بن عمرو وتلاميذه وأصحابه فلا ينكر عليهم أحد من أهل العلم ذلك وقد تمذهب ملايين من الناس عواما ومتعلمين وفقهاء بمذاهب الأئمة الأربعة كل يختار منها ما يشاء أو ما يسهل عليه او ما هو أقرب إلى موطنه ومحل سكنه وقد سجلت كتب الطبقات أسماء آلاف مؤلفة من أعيانهم وأعلامهم تقرأ تلك الأسماء في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي وفي طبقات الحنابلة للحافظ القرشي ولم يقل واحد منهم أو من أساتذتهم وأئمتهم إنه لا يجوز للمقلد في المذهب أن يلتزم مذهبا بعينه !!.. وها هو الإمام الذهبي رحمه الله تعالى الله يتحدث عن الفقهاء الذين التزموا مذهب أئمتهم مادحا ومثنيا ومؤيدا لهم في ذلك ما لم يتعصب أحدهم لمذهب إمامه مع انكشاف الدليل الصحيح له وفهمه له على وجهه.

يقول في رسالة (زغل العلم والطلب) : الفقهاء المالكية على خير اتباع وفضل إن سلم قضاتهم ومفتوهم من التسرع إلى الدماء والتكفير ثم يقول : والفقهاء الحنفية أولوا التدقيق والرأي والذكاء والخير من مثلهم إن سلموا من

(١[42]) انظر شذرات الذهب لابن العماد (١/١٤٨).

التحيل والحيل على الربا وإبطال الزكاة ... ثم يقول والفقهاء الشافعية من أكيس الناس وأعلمهم بالدين فأساس مذهبهم مبني على اتباع الأحاديث الثابتة المتصلة وإمامهم من رؤوس أصحاب الحديث ومناقبه جمة فإن حصلت يا هذا مذهبه لتدين الله به وتدفع عن نفسك الجهل فأنت بخير.. ويقول عن الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين بالجملة ولهم قلة حظ في الدنيا والناس يتكلمون في عقيدتهم ويرمونهم بالتجسيم وبأنه يلزمهم؟ وهم بريؤون من ذلك إلا النادر والله يغفر لهم وينهى هؤلاء المتمذهبين عن التعصب المذموم لأئمتهم واعتقاد الواحد منهم بأن مذهبه أفضل المذاهب كلها ويقول: (لا تعتقد أن مذهبك أفضل المذاهب وأحبها إلى الله تعالى فإنك لا دليل لك على ذلك ولا لمخالفتك أيضا بل الأئمة رضي الله عنهم كلهم على خير كثير ولهم في صوابهم أجران على كل مسألة وفي خطئهم أجر واحد)([43]١).

فتأمل يا أخي المنصف : هذا كلام الحافظ الكبير شمس الدين الذهبي تلميذ الإمام ابن تيمية يثني على المذاهب الأربعة ويقرهم على الأخذ من أئمتهم والتزام اجتهاداتهم ويثني عليهم بالذي رأيت من كلامه فيهم محذرا إياهم بإنصاف من الانسياق في العصبية وترجيح رأي الإمام على ما اتضح لهم من الدليل المبين المفهوم وتلك هي طبقات أعلام الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وذلك هو واقع التابعين والصحابة كما شرحته لك وأوضحت ... وكل ذلك ناطق بأبين لسان مجمع بأقوى اتفاق على أن التزام المقلد لإمام معين لا يتحول عن تقليده لا ضرر فيه ولا إثم ولا حرج.. ما لم يعتقد أن الله قد كلفه بهذا الالتزام فهذا ما ننكره وينكره كافة المسلمين .

([43]١) انظر زغل العلم والطلب ص (١٤ – ١٦).

ما معنى الإمام والتمسك بمذهبه؟ وعندما توضح ما يعلمه كل مسلم منصف من أن من لم يبلغ درجة الاجتهاد لا يسعه إلا أن يتبع إماما مجتهدا سواء التزمه أو لم يلتزمه ينبغي أن نوضح أيضا معنى ضرورة اتباع هذا الإمام والتمسك بمذهبه أهو التمسك بمذهبه لشخصه أو لمزية معينة في ذاته هو؟

معاذ الله .... معاذ الله أن يكون في المسلمين من قال هذا لقد علم جميع المسلمين منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى اليوم ان شريعة الله وحدها هي الحاكمة على الناس وهي وحدها المنار لهم واساس سلوكهم واقتدائهم .

ولكن لما اقتضت حكمة الله وسنته في خلقه ان يتفاوت الناس في العلوم والمعارف عموما وفي معرفة احكام الشريعة الإسلامية خصوصا كان لابد ليخضع الجميع لشريعة الله وقانونه من ان يتمسك الجاهل بذيل العالم وان يقتدي العالم بالأعلم حتى يلتقي الجميع على صراط واحد هو صراط الله العزيز الحميد وهذه الحقيقة ماثلة حتى بالنسبة لاقتدائنا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنحن لا نقتدي به من حيث إنه محمد المتمثل بشخصه الإنساني المجرد وإنما نقتدي به من حيث إنه مبلغ عن الله سبحانه وتعالى ولذلك لا يقال: إن اتباع الكتاب أولى من اتباع السنة لأن كلام الله أحق وأولى بالاتباع من كلام البشر أيا كان لأن موجب اتباعنا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كونه مبلغا عن الله عز وجل فنحن إنما نتبعه لذلك فقط وشأن ما بين الأئمة المجتهدين وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التبليغ عنه والفهم لمراده المقصود بكلامه مثل شأن ما بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وربه عز وجل من حيث التبليغ عنه وبيان ما نزل إليه من القرآن.

ولقد عبر الشاطبي عن هذا المعنى الذي أوضحته لك اجمل تعبير قال في كتابه الاعتصام (٣/٢٥٠) ما نصه: (إن العالم بالشريعة إذا اتبع في قوله وانقاد الناس في حكمه فإنما اتبع من حيث هو عالم بها وحاكم بمقتضاها لا من جهة أخرى فهو في الحقيقة مبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المبلغ عن الله عز وجل فيتلقى منه ما بلغ عن العلم بانه بلغ أو على غلبة الظن بأنه بلغ لا من جهة كونه منتصبا للحكم مطلقا إذ لا يثبت ذلك لأحد على الحقيقة إنما هو ثابت للشريعة المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وثبت ذلك له عليه الصلاة والسلام وحده دون الخلق من جهة دليل العصمة).

ثم قال : (فإذا المكلف بأحكام الشريعة لا يخلو من احد أمور ثلاثة):

أحدها: أن يكون مجتهدا فيها فحكمه أداه إليه اجتهاده فيها ... الخ.

والثاني: أن يكون مقلدا صرفا خاليا من العلم الحاكم جملة فلابد له من قائد يقوده وحاكم يحكم عليه وعالم يقتدي به ومعلوم أنه لا يقتدي به إلا من حيث هو عالم بالعلم الحاكم ودليل ذلك انه لو علم أو غلب على ظنه أنه ليس من أهل ذلك العلم لم يحل له اتباعه ولا الانقياد لحكمه بل لا يصح أن يخطر بخاطر العامي ولا غيره تقليد الغير في امر مع علمه بأنه ليس من أهل ذلك الأمر كما أنه لا يمكن أن يسلم المريض نفسه إلى احد يعلم أنه ليس بطبيب إلا أن يكون فاقد العقل وإذا كان كذلك فإنما ينقاد إلى المفتي من جهة ما هو عالم بالعلم الذي يجب الانقياد إليه لا من جهة كونه فلانا أو فلانا أيضا وهذه الجملة لا يسع الخلاف فيها عقلا ولا شرعا.

والثالث : أن يكون غير بالغ مبلغ المجتهدين ولكنه يفهم الدليل وموقعه ويصلح فهمه للترجيح بالمرجحات المعتبرة في تحقيق المناط ونحوه فلا يخلوا إما أن يعتبر ترجيحه او نظره أو لا فإن اعتبرناه صار مثل المجتهد

في ذلك الوجه والمجتهد إنما هو تابع للعلم والحاكم ناظر نحوه متوجه شطره فالذي يشبه كذلك وإن لم نعتبره فلابد من رجوعه إلى درجة العامي والعامي إنما اتبع المجتهد من جهة توجهه إلى صوب العلم الحاكم فكذلك من نزل منزلته

إذا علمت هذا وتصورته وانت مقبل إلى هذا الكلام بعقل منصف غير متعصب أدركت أن من الجهل الغريب والشنيع ما يقوله صاحب الإنكار (اعلم أن المذهب الحق الواجب الذهاب إليه والاتباع له إنما هو مذهب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو الإمام الأعظم الواجب الاتباع) إلى ان يقول (فإن كان الأصل هكذا فمن أين جاءت هذه المذاهب؟ ولماذا شاعت وألزمت على ذمم المسلمين) ثم يكيل ألفاظ السب والشتم لأتباع هذه المذاهب والمتمسكين بها! إنه يتجاهل ما يعلمه أي دارس لتاريخ التشريع الإسلامي عن نشأة المذاهب والمصدر التي جاءت منه مما ذكرنا طرقا منه في هذه الرسالة ليوهم العوام من الناس أن اتباعها إنما كان بسبب تفضيل لها على مذهب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم !!... وقد انطلى هذا الوهم على كثير من العوام الذين لا يعلمون أي علم عن معنى الاجتهاد والتقليد ونشأة المذاهب وتسللت هذه الخديعة إلى تفكيرهم حتى راح أحدهم يقول: حقل يا أخي أنحن أتباع رسول الله أم أتباع الشافعي واي قيمة لمذاهب هؤلاء الأئمة أمام مذهب رسول الله ؟!

أليس هذا الإيهام خدعة يترفع عنها كل ذي مسكة من العلم والإنصاف والإخلاص لدين الله ؟!.

أحقا لا يعلم صاحب الإنكار حقيقة معنى اتباع المذاهب وقد شرحها سائر العلماء في مئات الكتب والمراجع وأثبتها التاريخ في معظم مراجعه

ومصادره حتى يكون معذورا بالجهل عندما يقول للعامة هذا الكلام العجيب ؟!

لئن كان جاهلا بهذه الحقيقة الواضحة ومع ذلك يتنطح لهذه الدعوة الخطيرة ، فإنه لأمر مؤسف وشنيع وإن كان يعلمها جميع الباحثين والمثقفين ولكنه يتجاهلها ليفسح المجال لبدعته أن تسير إلى أدمغة الناس فإن الأمر لينطوي على ما هو أشد وأشنع!!..

متى يجب الانقطاع عن تقليد المذاهب وإمامه

هنالك حالتان يجب فيهما على المقلد مهما كان شأنه أن يمتنع عن مواصلة اتباع إمامه وتقليده.

الحالة الأولى: أن يصل في معرفة مسألة من المسائل إلى الإحاطة بها والاطلاع على كافة أدلتها ومعرفة كيفية استنباط الحكم منها فإن عليه أن يتبع في تلك المسألة ما يهديه إليه اجتهاده وليس له أن يطوي ملكته العلمية فيها ليواصل السير وراء إمامه.. فإن كانت ملكته هذه تتسع لأكثر من مسألة واحدة فالحكم فيها كذلك.

الحالة الثانية: إذا رأى حديثا يدل على عكس ما يذهب إليه إمامه الذي يقلده في دينه وتاكد من صحة الحديث ودلالته على الحكم فإن عليه أن يتبع دلالة الحديث ويقلع عن التمسك بمذهب إمامه في الحكم لأن الأئمة الأربعة جميعا كانوا يوصون أصحابهم وتلاميذهم بالتحول إلى دلالة الحديث الصحيح إذا جاء مخالفا لاجتهاداتهم فالتحول إلى الحديث هو في الحقيقة من صميم المذاهب الأربعة وهو قدر مشترك يلتقون عليه ويدينون به .

ولكن لذلك شروطا لابد من معرفتها ومراعاتها فليس كل حديث يلمحه الباحث ويرى أنه يدل على خلاف اجتهاد إمامه دالا في الحقيقة على ما فهمه هذا الباحث.

وإليك ما يقوله في بيان ذلك الإمام النووي في كتابه المجموع:

(... وهذا الذي قاله الشافعي ليس معناه أن كل واحد رأى حديثا صحيحا قال هذا مذهب الشافعي وعمل بظاهره وإنما هذا فيمن له رتبة الاجتهاد في المذهب على ما تقدم من صفته أو قريب منه وشرطه أن يغلب على ظنه ان الشافعي رحمه الله لم يقف على هذا الحديث أو لم يعلم صحته وهذا إنما يكون بعد مطالعة كتب الشافعي كلها ونحوها من كتب أصحابه الاخذين عنه وما أشبهها وهذا شرط ضعيف قل من يتصف به وإنما اشترطوا ما ذكرنا لأن الإمام الشافعي رحمه الله ترك العمل بظاهر أحاديث كثيرة رآها وعلمها لكن قام الدليل عنده على طعن فيها أو نسخها أو تخصيصها أو تأويلها أو نحو ذلك([44]١).

ولترك الإمام العمل بظاهر حديث ما أسابا اجتهادية كثيرة وأوصلها ابن تيمية رحمه الله إلى عشرة أسباب وأضاف اليها سببا آخر هو أنه يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع عليها فإن مدارك العلم واسعة([45]٢).

فإذا بحثنا عن أسباب ترك الإمام المجتهد لظاهر الحديث ولم نعثر على سبب من الأسباب العشرة التي صورها ابن تيمية فلا يجوز أن يعدل بعد ذلك عن دلالة الحديث الصحيح بحجة أنه قد يكون له عذر لم نطلع عليه وقد تكون له حجة لم يذكرها إذ أن تطرق الخطأ إلى العلماء أكثر من

([44]١) المجموع للنووي (٦٤/١).

([45]٢) انظر رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية ص (٣١).

تطرقـه إلـى الأدلـة الشـرعية بعـد معرفتهـا وتمحيصــها وفهـم المقصــود منها(١[46]).

فهذه هي أدلة مشروعية التقليد بالنسبة لمن لم يبلغ أن يكون مجتهدا وهذه هي أدلة جواز التزام المقلد مذهبا بعينه وجواز عدم الالتزام ذكرناها مفصلة واضحة ليس حولها أي غموض ولا تكتنفها أية غاشية فإن كنت يا أخي القارئ منصفا متحررا من العصبية وحب الانتصار للذات والنفس أدركت أن ما قلته هو الحق .

إما إذا كنت مسوقا بدافع من العصبية والأهواء النفسية فإن كل هذا الذي أوضحته لك ليس إلا كلاما فارغا لا قيمة له وهيهات أن تجد فيه أي علاج لعصبيتك وأهوائك إنما العلاج أن أدعو الله لي ولك أن ينجينا من حظوظ النفس ويبعدنا عن مطارح الهوى ويهبنا نعمة الإخلاص لدينه والإنصاف في فهم شريعته.

ماذا يحدث لو أنساب الناس جميعا في بيداء اللامذهبية

وبعد كل ما أوضحناه وسردناه من الأدلة القاطعة نتسائل: لماذا أعرضنا عن كل هذه الأدلة ودعونا الناس (اجتهادا منا) إلى الانطلاق من قيد المذاهب واتباعها والانسياح في رحب الاجتهاد؟.

وأقول لك في الجواب: ما يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الانطلاق في مشاريعهم العمرانية عن اتباع المهندسين والاستعانة بهم والاعتماد عليهم وفي قضاياهم وعلاجاتهم الصحية عن اتباع الأطباء والاعتماد عليهم والأخذ بأقوالهم وفي صناعاتهم وأسباب معايشهم عن اتباع أرباب الاختصاص في تلك الصناعات ونبذ الاستفادة من معلوماتهم ومهاراتهم ماذا يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الخروج عن اتباع هؤلاء المختصين

(١[46]) انظر المرجع السابق .

والاستعاضة عن ذلك بالاجتهاد في كل ذلك واعتماد القناعة الذاتية التي تأتي بعد البحث والاجتهاد ثم صدقنا الناس في هذه الدعوة وفعلوا ذلك.؟

إن الذي سيحدث وراء ذلك بلا شك هو الفوضى المهلكة للعمران والحرث والنسل يعمد الناس إلى تخريب بيوتهم عن طريق التعمير ويسرعون إلى إزهاق أوراحهم باسم التطبيب ويجرون على أنفسهم الفقر والضياع من وراء العمل والتصنيع ذلك لأنهم وضعوا الاجتهاد في غير مكانه وطبقوه بدون شرطه وتجاهلوا سنة الله في الكون من ارتباط فئات الناس بعضهم ببعض في مجال التعاون والتناصر والتعليم والاسترشاد.

وهذه حقيقة يعلمها الناس جميعا حتى الأطفال الصغار وحتى دعاة اللامذهبية أنفسهم ولكن لماذا لا يفهم هؤلاء الناس هذا القانون نفسه في مجال الاختصاصات الدينية وأحكام الحلال والحرام ؟.... لا ندري!.

إن النتيجة التي ستحدث لدى اقتحام الناس جميعا ميادين الاجتهاد في تلك الاختصاصات الدنيوية هي نفس النتيجة التي ستحدث لدى اقتحام الناس جميعا ميادين الاجتهاد في العلوم الشرعية وأحكام الحلال والحرام.

عندنا اليوم فقه متكامل يتعلق بجميع أحوال الناس أفرادا وجماعات استخرجه ودونه الأئمة المجتهدون وأصحابهم العلماء فهو اليوم متجسد ماثل أمامنا يقول لسان حاله لنا: ليس بينكم وبين أن تطبقوا هذا الفقه في قضاياكم المدنية والجنائية وغيرها إلا أن تصنفوه بطريقتكم المفضلة ... فإذا عرضنا هذه الثروة الفقهية لرياح عاتية من الاجتهاد العام لكل المسلمين كان مصير هذا الفقه مصير الهشيم الذي تذروه الرياح الهائجة ... وننظر فإذا بنا من بنياننا الفقهي العتيد أمام أطلال ونثار من الأحجار والأنقاض المبعثرة هنا وهناك وإنها لنتيجة لا يماري فيها إلا مكابر من طراز غريب وأمام المسلم اليوم سبيل سائغة لفهم أحكام صلاته

وصيامه وزكاته وسائر ما تتعرض له حياته الخاصة من القضايا الدينية عن طريق دراسة كتاب صغير في مذهب من المذاهب الأربعة يحوي خلاصة الأحكام الشرعية ولا عليه أن لا يفهم أو يقف على أدلتها ما دام غير مجتهد كما كان عليه حال كثير ممن يستفتون كبار الصحابة والتابعين .

فإذا ما كلفت كل مسلم بالاجتهاد والنظر في الأدلة وأقصيته عن هذه الكتب التي كان بوسعه أن يحفظ منها أحكام الحلال والحرام مقلدا أحد الأئمة فمعنى ذلك أنك قد قلت له بكل صراحة ووضوح ليس حكم الله فيما يعترضك من مشكلات إلا ما تهديك إليه قناعتك الذاتية ... وانتظر بعد ذلك أن تجد الشريعة الإسلامية كلها اسما لا مسمى تحته وعنوانا لا موضوع له وبناء كمقبرة جحا جدار أثبت فيه باب موصد بالأغلال ومن ورائه أرض سائبة ترتع فيها السباع والذئاب أما إن انطلقت به بعد اقصائك إياه عن تلك الكتب وأئمتها إلى كتب أخرى ألفها واجتهد فيها أناس آخرون فألزمته بهم وحملته على تقليدهم فأنت لم تفعل بذلك شيئا أكثر من أنك أوجبت عليه أن يتحول من تقليد الشافعي وأبي حنيفة ومالك واحمد إلى تقليد فلان وفلان من المعاصرين وليس لهذا الإلزام أي معنى إلا معنى الحقد والضغينة على الأئمة الأربعة وتابعيهم والتعصب لفلان وفلان والترويج لاجتهاداتهم.

لقد قلت([47]) مرة لطالب صلى إلى جانبي وهو يحرك اصبعه في جلسة التشهد تحريكا مستمرا: لماذا تحرك إصبعك هكذا ؟ فقال: لأنه سنة واردة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: ما الحديث الوارد في ذلك وما درجته من الصحة وما دليل النص الذي فيه على أن المقصود بالتحريك

([47]) المقصود الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

هذا التحريم المستمر؟ فقال الشاب : لا أدري ولكن سأسأل عن ذلك فلانا من الناس .....! لو أنه إذ وجد نفسه جاهلا بالدليل قال: أقلد في ذلك مذهب الإمام مالك لاستراح وأراح وأدى الواجب الذي عليه.

إذا فقد قضى هذا الإنسان على تمسكه بمذهب إمام من الأئمة الأربعة لا لشيء إلا ليرتبط بتقليد شخص آخر ولو عاش هذا الإنسان عمره كله ملازما هذا الشخص يأخذ عنه وحده لما قال له هؤلاء الناس: يحرم عليك التزام مذهب بعينه كما يقولون ذلك في حق المتمسكين بمذاهب الأئمة الأربعة !!..

أفرأيت إلى التعصب في أسوى أشكاله وأعتى مظاهره(١[48])؟!.

(١[48]) قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى لا يهمنا أن يكون لهؤلاء اللامذهبيين اجتهادات خاصة في أحكام الشريعة الإسلامية يخالفون فيها الجمهور من الأئمة ويوافقون بها من يرون موافقتهم من الآخرين لا يهمنا هذا فربما بحث بعضهم وبذل من الجهد في بعض المسائل الفقهية ما جعله قادرا على الاجتهاد فيها وذلك في اعتقاده هو على أقل تقدير وقد ترى رأيا يخالفهم في ما ذهبوا إليه وقد تفضل ما ذهب إليه الجمهور وقد لا تقر قدرتهم على الاجتهاد وقد نناقشهم في ذلك كله مناقشة أخوية هادئة إذا اقتضت المناسبة ولكننا لا نجعل من رايهم الذي اختاروه باسم النظر والأخذ من الكتاب أو السنة موضوع استنكار وسبب إثاره النزاع أو الضجيج .

أجل فليس لنا من شأن فيمن يفضل أن يحرك اصبعه أثناء التشهد أو يفضل أداء صلاة التراويح ثمان ركعات أو لا يرى في اعتقاده ما يسوغ قضاء المكتوبة الفائتة عمدا... فقد وجد في الأئمة والفقهاء من قال بهذه الأقوال وليس بدعا في التاريخ الإسلامي أن يدعي اناس الاجتهاد فيختاروا لأنفسهم مذاهب في بعض المسائل الفقهية سواء كانوا أهلا للاجتهاد في الحقيقة أو لم يكونوا كذلك ولكن الذي نذكره ويهمنا أمره هو أن يتخذ هؤلاء الناس من آرائهم التي ذهبوا إليها اسلحة ماضية يحاربون بها أئمة المذاهب ويقطعون بها النسب المتين بينهم وبين جماهير المسلمين ويثيرون بها الفتن في المساجد والأحياء في كل المناسبات الممكنة تماما كما هو حال أكثرهم الآن لقد تركوا سبيل الدعوة إلى الله والى دينه وأعرضوا عن المنحرفين وما هم فيه من ضلال وشكوك وغي وانطلقوا يتصدون لكل متدين يخالفهم في اجتهادهم أو يصر على تمسكه بمذهب إمام من الأئمة الأربعة أو يعلن عن ضعفه عن الاجتهاد وحاجته إلى التقليد فيثيرون معهم جدالا لا نهاية له وينتهون بهم إلى شحناء لا مسوغ لها يتهمونهم بالضلال ويرمون أئمتهم بالجهل ويصفون كتبهم بالصدى والانحراف؟؟!!..

إن ظهرت في يد أحد سبحة يضبط بها أوراده انقضوا عليه بالتسفيه والرمي بالضلال والابتداع وإن صلى المؤذن على رسول الله جهرا عقب الأذان لوحوا له تهمة بالشرك وحذروه من العود إلى مثلها وإن آثر الناس أن يصلوا التراويح في مسجدهم عشرين ركعة عصفوا في المسجد بفتنة لا أول ولا نهاية لها وربما هاج الناس بسبب ذلك وماجوا في داخل المسجد حتى ترتفع الأصوات فيه بالسباب والمهاترات ولا أزال أذكر ليلة من ليالي رمضان زارني فيها بعد العشاء جمع من عوام الناس وبسطائهم يزيدون على خمسة عشر رجل وقد لاحت على وجوههم وفي أصواتهم آثار خصومة أقبلوا على توا منها وراحوا يناشدوني العمل على إيقاف فتنة هوجاء قامت في مساجدهم بسبب من قام بينهم يحرم ما زاد من صلاة التراويح على ثمان ركعات وضل يلاحيهم حتى اشتدت الفتنة في داخل المسجد وتحول بيت لله إلى حلبة صراع في سبيل الشيطان ؟

ماذا يضر هؤلاء إلى أن يصلوا التراويح كما يحبون ويتركونا نحن أيضا نصلي كما نعتقد تقليدا منا أو اجتهاداً ؟! أليس كل همهم أن يزعموا لأنفسهم القدرة على فهم أحكام الشريعة من الكتاب والسنة دون التقيد بمذهب إمام من الأئمة المجتهدين ؟

فها نحن تركناهم يزعمون لأنفسهم ذلك فليؤسسوا لأنفسهم كما يحبون مذهبا جديدا شامخا إلى جانب المذاهب الأربعة المدونة يشيدونه على عشر مسائل فقط من مسائل العبادات ليرتقوا في هذه المسألة كما يشتهون ولينأوا عن فقه الأئمة واجتهاداتهم قدر ما يحبون .؟ ولكن

فاي إنسان منصف يستسيغ نبذ تلك الأدلة التي سقناها على ضرورة تقليد المسلم واحدا من الأئمة المجتهدين ما دام عاجزا عن الاجتهاد ثم دعوة الناس جميعا إلى ان يجتهدوا وإن لم يكونوا أهلا لذلك وأن يتحللوا من تقليد الأئمة المجتهدين وإن اتبعهم من قبله ملايين المسلمين وأن يستخرجوا أحكام الحلال والحرام من الكتاب والسنة كما يفهمون وكما يتخليون وإن مزقوا بذلك شريعة الله بين أوهامهم وأخيلتهم المتنوعة المختلفة ؟

وأي إنسان لا يعلم أن فتح هذا الباب على مصرعيه أمام جميع الناس على اختلافهم إنما هو تمكين للمتربصين بالاسلام وشريعته من أن يمزقوها إربا إربا بسكين الاجتهاد؟!.

فيما التعرض بعد ذلك كله للآخرين بالتجهيل والتسفيه والتضليل ؟!. فيم يبسطون ألسنتهم بالسوء والسخرية إلى أئمة المذاهب الأربعة والى الكثير من كتبهم واجتهاداتهم ومقلديهم ؟! فيم إضاعة الوقت بتلقف ما يسمونه بسقطات أبي حنيفة ؟!.

فيم التصدر في المجالس للطعن بالشافعي والسخرية من فقهه لأنه أفتى بصحة نكاح الرجل من البنت التي انعقدت من مائة بطريق السفاح ؟ وهو لو قرا كلام الشافعي في ذلك في كتابه (الأم) لتطوح ذاهلا في تلافيف جهل عجيب ؟!.

وقد يقول الرجل من أمثال الشيخ .... معاذ الله إننا لا نبخس الأئمة حقهم ولا نمد ألسنتنا إلى المذاهب بأي سوء !... أجل قد يقول ذلك في بعض المجالس ولكن واقع أمره لا يصدق ما يقول بل هو نقيض ما يقول إن الذي يحترم الأئمة الأربعة ويحترم ما بذلوه من جهد لتجلية أحكام الشريعة الإسلامية واستخراجها من الكتاب والسنة لا يقول في تعليق له على حديث نزول عيسى عليه الصلاة والسلام بدون مناسبة ولا مسوغ : (هذا صريح في إن عيسى عليه السلام يحكم بشر عنا ويقضي بالكتاب والسنة لا بغيرهما من الإنجيل أو الفقه الحنفي ونحوه !!) .

تأمل هذا الكلام !! تأمل معنى قوله : لا بغيرهما من الإنجيل والفقه الحنفي . إن الرجل يعتقد إذا إن الفقه الحنفي ما هو إلا كالانجيل شيء لا علاقة له بالشريعة الإسلامية أو الكتاب والسنة!! أفيوجد مسلما يتقي الله في معرفة الحق ثم لا يعلم أن الفقه الحنفي ليس إلا أحكاما مستنبطة من الكتاب أو السنة أو القياس والتخريج عليهما وإن إمام هذا الفقه أبا حنيفة رضي الله عنه إنما تقرب بذلك إلى الله في تجلية أحكام كتابه وسنة نبيه و لم يتقرب إلى الشيطان في اختراع فقه آخر إلى جانب الإنجيل ليعارض به القرآن بقطع النظر عن إنه رضي الله عنه أخطأ في بعض اجتهاداته أو أصاب .؟!

ثم من هو هذا الذي قال : إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام سيأتي أعجز من الشيخ ... في معرفته بالكتاب والسنة حتى لا يستطيع الاجتهاد ويضطر إلى تقليد الأئمة في أحكام الشرع ويختار من بينهم الإمام أبا حنيفة بالذات أصحيح أن في الحنيفة من ادعى هذا الكلام ... ؟ قد ... قد يوجد من يشذ تفكيره وعقله فيهرف بهذا اللغو لكن السلوك العلمي الصحيح في هذا الحال هو أن يذكر لنا الشيخ ... اسم هذا القائل ويحدد مكان كلامه هذا من الكتاب الذي ورد فيه ثم يرد عليه بالكلام العلمي الذي لا يعجز عنه كل مخلص لدين الله ومقدر لأئمة الإسلام وهو أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قادر على أخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة وإن ذلك أقل ما يمكن أن يتصف به رسول الله عيسى عليه الصلاة والسلام وفي هذه الحال فإن تقليد الأئمة غير وارد في حقه وليس من العمل العلمي ولا الإسلامي الصحيح أن يستغل الشيخ ... مناسبة الرد على مثل هذا الكلام للطعن في فقه الإمام أبي حنيفة ولزعم أنه شيء غير الشرعية الإسلامية تماما كالانجيل الذي هو غيره ولعلك تستعظم أيها القارئ المسلم صدور هذا الكلام من أي إنسان مسلم !... إذا فارجع إلى الكتاب مختصر صحيح مسلم للمنذري واقرأ التعليق الذي كتبه الشيخ ... عليه ص (٣٠٨).

وهل عالمنا العربي مثقف وعى شيئا من واقع التاريخ الحديث لا يعلم السبيل الذي نفذت منه بريطانيا عقب احتلالها لمصر إلى الشريعة الإسلامية تعبث بها كما تشاء؟ لقد كان الإسلام في نظر اللورد كرومر متأخرا جامدا يستعصي على التطور وكان يبحث عن وسيلة سائغة لإفلات المجتمع المصري من هذا التقيد ... وكانت الوسيلة السائغة البارعة بث فكرة الاجتهاد في صدور أولئك الرجال الذين كانوا يؤمنون بضرورة تطور المجتمع الأوروبي الحديث وما هو إلا أن سلمت لهؤلاء الرجال المناصب الدينية الحساسة كالافتاء ومشيخة الأزهر وإدارته حتى انطلق الرجال الذين آمنوا بالمجتمع الأوروبي في كثير من مظاهره وقيمه يدعون شيوخ الأزهر وعلماءه إلى الاجتهاد قفزا فوق شروطه حتى ذهب الشيخ المراغي إلى أن للمجتهد أن لا يكون عالما باللغة العربية وقام رسل بريطانية يجتهدون في الشريعة الإسلامية وانتهوا في اجتهادهم إلى تغيير قانون الأحوال الشخصية فقيدوا تعدد الزوجات وحق الطلاق وساووا بين الرجل والمرأة في الميراث وانطلقت الفتاوى الاجتهادية نشيطة تنكر الحجاب وتجيز نسبة معينة من الفوائد الربوية في البنوك وكانوا يصفون أرباب هذه الفتاوى بسعة الأفق ومرونة الفكر وتفهم روح الإسلام([49]١).

فما هي الفائدة التي ينبغي أن نستفيدها من هذا الواقع الغريب؟

ما هو المسوغ لتهديم بنائنا الفقهي العظيم الذي شيد بأيدي أئمة مجتهدين مخلصين بإجماع القرون الماضية كلها ثم لفتح باب الاجتهاد أمام الجميع ونبذ التمسك بالمذاهب الأربعة وإن الوباء الذي اقتحم باب الاجتهاد بالأمس موجود بذاته اليوم وإن الأيدي التي تتهيأ لتمزيق أحكام الإسلام بسكين الاجتهاد اليوم أضعاف الأيدي التي فعلت ذلك بالأمس؟ دعو المسلمين يا

([49]١) انظر كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/٢٩٨) فما بعد وكتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٣٥٠/٤) فما بعد.

هؤلاء يسيرون وراء أئمتهم التي أطبقت القرون كلها على مشروعية تقليدهم واتباعهم واجتهدوا إن كنتم تريدون الاجتهاد في استخراج أحكام المشكلات الحديثة التي لم تكن موجودة بالأمس ولم يتحدث عنها الأئمة في أيامهم ولسوف ندعوا لكم بالتوفيق وسداد الفكر والرأي.

ولكنكم ويا للعجب تعرضون عن الجديد الذي لم يتحدث عنه الأئمة السابقون مما يجب الاجتهاد فيه ومعرفة حكمه في هذا العصر كالتأمين على الحياة والبضاعة، وكأنواع الشركات المغلفة والمساهمة وغيرها وكأنواع الضمانات الاجتماعية المعروفة اليوم والتعويضات الداخلة في العقود ومختلف العقود الجديدة على الأرض بين ملاكها ومستأجريها... الخ. تعرضون عن البحث في هذا كله ثم تمضون في تسفيه اجتهادات الأئمة الأربعة وتحذير عامة الناس من اتباعهم والاقتداء بهم!!.. أجل والله ما رأيت واحدا من هؤلاء اللامذهبيين بحث ذات يوم في مسألة من هذه المسائل الطارئة الجديدة التي يتساءل العوام كل يوم عن حكمها إنما يوفر الواحد منهم جهده كله لتهديم ما تم بناؤه واستقرت أحكامه وأعذر كل من المجتهدين والمقلدين أمام الله في الأخذ به فأبرؤوا بذلك ذممهم وأدوا حق الله في أعناقهم!.

يا هؤلاء دعوا الأحكام المستقرة التي دونها صفوة أئمة المسلمين وتقبلها منهم المسلمون جيلا بعد جيل وشمروا لنا الساعد للاجتهاد في هذه المسائل الطارئة الجديدة التي لم يسبق لأحد من الأئمة فيها نظر أو بحث والتي يشكوا عامة المسلمين جهلهم بحكم الله فيها فإن خرجتم من اجتهادكم فيها بشيء وربطتم بينها وبين أدلتها من الكتاب والسنة وأبرزتم وجه استنباط الأحكام منها سلمنا اليكم عندئذ رقاب الأئمة الأربعة معا وتركناكم تنسخون اجتهاداتهم باجتهاداتكم ودعونا الناس جميعا إلى اتباعكم من دونهم.

خلاصة مناقشة جرت بين فضيلة الدكتور (محمد سعيد رمضان البوطي) حفظه الله تعالى وبين بعض اللامذهبيين قال فضيلته في اللامذهبية:

لعل هذا الفصل يفوق في الأهمية سائر فصول هذه الرسالة !. وليس السبب في ذلك ما قد تجده فيه من نقاط وموازين علمية جديدة فقد ذكرنا من الأدلة العلمية المختلفة ما يزيد عليه ولكن السبب ما ستجده فيه من مظاهر العصبية التي قد لا تجدها عند أي ذي عقل من البشر !. يتهمنا هؤلاء بالعصبية لأنا لا نرضى أن نتحول عن الحق الذي يقوم على ألف دليل ودليل ولكنك ستجدهم من خلال هذا الفصل كيف يحبسون أنفسهم في أقفاص من العصبية المذهلة حتى ولو اقتضاهم ذلك أن يستتجدوا بالتباله والجنون!.

ولست في هذا الفصل متقولا ولا متجنيا على أحد .. ولن آتي بكلمة واحدة فيه من دنيا الوهم أو الخيال ولقد قلت للأخ الذي ناقشه في هذا البحث – وهو يهدر الي بكلامه المذهل العجيب – سوف أنشر ما تقول إن أبيت إلا إصرارا عليه. ويعلم الله أني ما قلت ذلك له إلا وأنا أقصد إيقاظه إلى شيء من التدبير والتريث فيما يقول!. ولكن الرجل قال لي : انشر ما تريد فلست خائفا!.

ولسوف أتجنب التعريف بهذا الرجل وأضرب صفحا عن ذكر اسمه، وحسبك أن تعلم أنه ممن يعلم اللامذهبية لا ممن يتعلمها وهو على ذلك إنسان فاضل وشاب مستقيم ولولا هذه اللوثة التي قذفت به وبتفكيره إلى أقصى قاع في وادي العصبية العجيبة!.

جاء ومعه بعض الشبان الطيبين الذي دأبهم البحث عن الحق في سائر مظانه، وبدأت معه الحديث فقلت له:

ما هي طريقتك في فهم أحكام الله؟ أتأخذها من الكتاب والسنة أم من أئمة الاجتهاد؟

فقال: استعرض أقوال الأئمة وأدلتهم عليها، ثم أعتمد أقربها إلى دليل الكتاب والسنة!.. .

قلت: لديك خمسة ألاف ليرة سورية، مر عليها من الزمن ستة أشهر وهي مخزونة عندك، ثم اشتريت بها بضاعة وأخذت تتاجر بها فمتى تدفع زكاة هذه البضاعة؟ بعد ستة أشهر أخرى أم بعد عام كامل؟

قال وهو يفكر: معنى سؤالك هذا أنك تقرر بأن أموال التجارة تجب فيها الزكاة!.

قلت : إنني أسأل والمطلوب أن تجيبني بطريقتك الخاصة وهذه هي المكتبة أمامك فيها كتب التفسير والسنة وكتب الأئمة المجتهدين.

وفكر الرجل قليلا ثم قال:

يا أخي هذا دين وليس أمرا يسيرا يمكن الإجابة عليه عفو الخاطر لابد لذلك من نظر ومراجعة ودرس ولابد لذلك كله من وقت ونحن إنما جئنا لنبحث موضوعا آخر!.

حسنا.. وهل يجب على كل مسلم أن يستعرض أدلة الأئمة ثم يأخذ بأوفقها مع الكتاب والسنة؟

قال : نعم.

قلت: معنى ذلك أن الناس كلهم يملكون من الطاقة الاجتهادية ما يملكه أئمة المذاهب بل إنهم يملكون طاقة أعظم وأتم لأن الذي يستطيع أن يحكم على آراء الأئمة أو يحكم لها على أساس من مقياس الكتاب والسنة فهو بلا ريب أعلم منهم جميعا!!.

قال: الحقيقة أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: مقلد، ومتبع، ومجتهد، فهذا الذي يتمكن من مقارنة المذاهب ببعضها وانتقاء ما كن أقرب منها إلى الكتاب إنما هو متبع وهو مستوى وسط بين التقليد والاجتهاد.

قلت: فما هو واجب المقلد؟

قال: يقلد من المجتهدين من اتفق.

قلت: وهل عليه من حرج أن يقلد واحدا منهم ويلازمه ولا يتحول عنه؟

قال : نعم يحرم عليه ذلك.

قلت: ما الدليل على حرمة ذلك؟

قال: الدليل أنه التزم شيئا لم يلزمه الله عز وجل به.

قلت: بأي القراءات السبعة تقرأ القرآن؟

قال: بقراءة حفص.

قلت: أفتلتزم القراءة بها، أم تقرأ كل يوم بقراءة مختلفة؟

قال: بل أنا ألتزم القراءة بها.

قلت: فلماذا تلتزم ذلك، مع أن الله عز وجل لم يلزمك إلا أن تقرأ بالقرآن كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم متواترا؟

قال: لأنني لم أتوفر على دراسة القراءات الأخرى ولم يتيسر لي القراءة إلا على هذا الوجه.

قلت: فهذا الذي درس الفقه على المذهب الشافعي هو الآخر لم يتوفر على دراسة المذاهب الأخرى ولم يتيسر له أن يتفقه في أحكامه الدينية إلا على هذا الإمام فإن ألزمته بمعرفة اجتهادات الأئمة كلها حتى يأخذ بجميعها لزمك أنت أيضا أن تتعلم جميع القراءات حتى تقرأ بها كلها وإن اعتذرت عن نفسك بالعجز كان عليك أن تعذر هذا المقلد أيضا. وعلى كل فنحن نقول: ومن أين لك بأن على المقلد أن يلازم التحول من مذهب إلى آخر.

مع أن الله لم يلزمه بذلك أي كما لم يلزمه بالاستمرار على مذهب بعينه لم يلزمه أيضا بالتحول المستمر !..

قال: إن الذي يحرم عليه إنما هو الالتزام مع اعتقاد أن الله أمره بذلك.

قلت: هذا شيء آخر وهو حق لا شك فيه ولا خلاف ولكن هل عليه من حرج أن يلازم مجتهدا بعينه وهو يعلم أن الله لم يكلفه بذلك؟

قال: لا حرج عليه.

قلت: ولكن الكراس الذي تدرس فيه ، يذكر خلاف ما تقول إنه يقرر حرمة ذلك بل ويقرر في بعض الأماكن كفر الذي يلازم اتباع إمام معين لا يتحول عنه.

قال: أين؟..... ورجع إلى الكراس يتأمل نصوصه وعباراته. وراح يتأمل قول صاحب الكراس (بل من التزم واحدا بعينه في كل مسائله فهو متعصب مخطئ مقلد تقليدا أعمى وهو ممن فرقوا دينهم وكانوا شيعا) فقال: يقصد بالالتزام أن يعتقد وجوب ذلك عليه شرعا العبارة فيها قصور !...

قلت: وما الدليل على أنه هكذا يقصد ولماذا لا تقول إن المؤلف مخطئ؟ وأصر الرجل على أن العبارة صحيحة وأنها على تقدير محذوف وأن المؤلف معصوم عن أي خطأ فيها!..

قلت: ولكن العبارة على هذا التقدير لا تواجه أي خصم وليس لها أي فائدة فما من مسلم إلا وهو يعلم أن اتباع إمام بعينه من أئمة المذاهب الأربعة ليس واجبا من الواجبات الشرعية وما من مسلم يلازم مذهبا إلا وهو يفعل ذلك عن رغبة واختيار منه.

قال: كيف؟ إنني أسمع من كثير من الناس وبعض أهل العلم أنه يجب شرعا ملازمة مذهب بعينه حتى إنه لا يجوز التحول منه إلى غيره!... .

قلت له: اذكر لي اسم واحد فقط من العوام أو من أهل العلم قال لك هذا الكلام.

وسكت الرجل ، ولكنه تعجب من أن يكون كلامي صحيحا وظل يردد: أن كل ما يتصوره هو أن كثيرا من الناس يحرمون التنقل من مذهب إلى آخر.

قلت له: لا تجد اليوم ولا واحد يعتقد هذا الوهم الباطل نعم رووا عن بعض العصور الأخيرة من عهد العثمانيين أنهم كانوا يستعظمون تحول الحنفي من مذهبه إلى مذهب آخر ولا شك أن ذلك كان منهم – إن صح النقل – غاية في السخف والعصبية المقيتة العمياء.

قلت له بعد ذلك: ومن أين لك هذا الفرق بين المقلد والمتبع أهو فرق لغوي أم اصطلاحي.

قال: بل بينهما فرق لغوي.

وجئته بمراجع اللغة ليثبت منها الفرق اللغوي بين الكلمتين فلم يجد شيئا.

ثم قلت: إن أبا بكر رضي الله عنه قال لأعرابي اعترض على الدخل الذي أقره المسلمون له: (إذا رضي الله عنه المهاجرون فإنما أنتم تبع) فقد عبر بالتبعية عن الموافقة التي ليس معها أي حق في النظر والمناقشة والبحث.

قال: فليكن فرقا اصطلاحيا ... أليس من حقي أن أصطلح على شيء ؟

قلت: بلى ولكن اصطلاحك هذا لن يغير من حقيقة الأمر . فهذا الذي تسميه متبعا إما أن يكون خبيرا بالأدلة وطرق الاستنباط منها فهو إذا مجتهد وإن لم يكن خبيرا بها أو غير قادر على استنباط الأحكام منها فهو إذا مقلد. وإن كان في بعض المسائل هكذا وفي بعضا هكذا فهو إذا مقلد في البعض ومجتهد في البعض. فالقسمة إذا ثنائية على كل حال وحكم كل منها واضح ومعروف.

قال: إن المتبع هو ذاك الذي يستطيع أن يمايز بين الأقوال وأدلتها ويرجح البعض منها على الآخر . وهذه مرتبة مختلفة عن محض التقليد.

قلت: إن كنت تقصد بالتمييز بين الأقوال تمييزها عن بعضها بقوة الدليل وضعفه فتلك أرفع رتبة في الاجتهاد وهل بوسعك أن تكون أنت شخصيا كذلك.

قال: إني أفعل ذلك جهد استطاعتي.

قلت له: أنا أعلم بأنك تفتي بأن الطلاق الثلاث في مجلس واحد إنما يقع طلقة واحد فهل رجعت قبل فتواك هذه إلى أقوال الأئمة وأدلتهم في ذلك ثم مايزت بينها فأفتيت بناء على ذلك؟ ... إن عويمر العجلاني طلق زوجته ثلاثا في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن لاعن منها. فقد قال: كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها، هي طالق ثلاثا. فما علمك بهذا الحديث وموقعه من هذه المسألة ومدى دلالته على مذهب الجمهور أو مذهب ابن تيمية؟

قال: لم أطلع على هذا الحديث.

قلت: فكيف أفتيت بهذه المسألة مخالفا فيها ما أجمعت عليه المذاهب الأربعة دون أن تقف على أدلتهم ومدى ضعفها أو قوتها؟... فها أنت قد تركت مبدأك الذي تقول إنك قد ألزمت نفسك به وتحاول أن تلزمنا به، وهو مبدأ (الاتباع) بالمعنى الذي اصطلحت عليه!..

قلت: فما الذي حملك على أن تتعجل بالفتوى مخالفا فيها جمهور المسلمين وأنت لم تطلع بعد على شيء من أدلتهم؟

قال: فماذا أفعل وقد سئلت ... وليس لدي إلا قدر محدود من المراجع؟

قلت: كان يسعك ما وسع العلماء والأئمة جميعا وهو أن تقول: لا أدري أو أن تنقل له رأي المذاهب الأربعة ورأي المخالفين دون أن تفتي بأحد القولين

كان يسعك أن تفعل ذلك بل كان هذا هو واجبك خصوصا وإن المشكلة لم تنزل بك أنت حتى تكون مضطرا إلى الأخذ بمخرج ما من الأمر !.. أما أن تفتي بالرأي المخالف لإجماع المذاهب الأربعة وأنت لم تطلع – على أدلتهم مكتفيا بانشراح قلبك لأدلة المخالفين فهذا منتهى التعصب الذي تتهموننا به.

قال: لقد اطلعت على آراء الأئمة الأربعة في الشوكاني وسبل السلام وفقه السنة لسيد سابق.

قلت: فهذه كتب خصوم الأئمة الأربعة في هذه المسألة وكلها ينطق من طرف واحد ويذكر من الحجج ما يقوي طرفه أفترضى أن تحكم على أحد الخصمين بناء على سماع كلامه فقط وكلام شهوده وأقاربه؟..

قال: إنني لا أرى في تصرفي هذا ما يستوجب أي لوم لقد كان علي أن أفتي السائل وهذا مبلغ ما استطعت أن أصل إليه بفهمي.

قلت: أنت تقول بأنك متبع وأن علينا جميعا أن نكون كذلك وفسرت الاتباع باستعراض أقوال المذاهب كلها ودراسة أدلتها واعتماد أقرب هذه المذاهب إلى الدليل الصحيح. وأنت في تصرفك هذا ضربت بمبدئك عرض الحائط أنت تعلم أن إجماع المذاهب الأربعة على أن الطلاق الثلاث يقع ثلاثا وتعلم أن لهم أدلة على ذلك وأنت لم تطلع عليها. ومع ذلك تحولت عن إجماعهم إلى الرأي الذي تشتهيه نفسك أفكنت على يقين سلفا بأن أدلة الأئمة أدلة مردودة.

قال: لا ولكني لم أطلع عليها إذ لا مرجع عندي لها.

قلت: فلماذا لم تنتظر؟.. لمذا استعجلت ولم يكلفك الله بذلك أبدا؟ ... أفكان عدم اطلاعك على أدلة الجمهور دليلا يقوي رأي ابن تيمية؟ ... هل التعصب الذي تتهموننا به زورا شيء آخر غير هذا؟

قال: لقد رأيت في الكتب التي توفرت لدي أدلة أقنعتني وما كلفني الله بأكثر من ذلك.

قلت: فإذا رأى المسلم فيما اطلع عليه من الكتب دليلا على شيء أفيكفيه ذلك موجبا لترك المذاهب التي خالفت فهمه وإن لم يطلع على أدلتها؟

قال: يكفيه ذلك!..

قلت : شاب جديد العهد بالتدين ليس له أي حظ من الثقافة الإسلامية قرأ قوله تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾([50]١) ففهم منه أن للمسلم أن يتجه في صلاته إلى أي جهة شاء كما يدل على ذلك ظاهر اللفظ ولكنه سمع من الأئمة الأربعة مجمعون على ضرورة اتجاهه إلى الكعبة وعلم أن لهم على ذلك أدلة ولكنه لم يطلع عليها فلماذا يفعل إذا قام إلى الصلاة أيتبع قناعته من الدليل الذي توفر لديه أم يتبع الأئمة الذين أجمعوا على خلاف ما فهم؟

قال: بل يتبع قناعته..!!

قلت: ويصلي إلى جهة الشرق مثلا وتكون صلاته صحيحة؟!.

قال: نعم، إذ هو مكلف باتباع قناعته الذاتية!...

قلت: فهب أن قناعته الذاتية أوحت إليه أن لا حرج عليه أن يزني بحليلة جاره وأن يملأ جوفه خمرا وأن يسلب أموال الناس بدون حق أفيحل الله له ذلك كله بفضل (قناعته الذاتية)!؟...

وسكت الرجل قليلا ثم قال: على كل هذه الصورة التي تسألني عنها صورة وهمية لا تتحقق.

قلت: هي ليس وهمية بل ما أكثر ما يتحقق مثلها وأغرب منها. شاب لاعلم له بالإسلام وكتابه وسنته وسمع عرضا أو قرأ صدفة هذه الآية، فعلم

([50]١) سورة البقرة الآية (١١٥).

منها ما يعلم كل عربي ينظر إلى ظاهر اللفظ أن لا حرج في أن يتجه المصلي إلى أي جهة يشاء رغم ما يراه من اتجاه الناس إلى الكعبة دون سواها... أمر طبيعي التصور والوقوع ما دام في المسلمين من يجهل كل شيء عن الإسلام. وعلى كل فقد حكمت على هذه الصورة (وهمية كانت أو حقيقية) بحكم غير وهمي واعتبرت القناعة الذاتية هي المحكمة على كل حال وهذا يناقض تقسيمك للناس إلى ثلاث فئات مقلدين ومتبعين ومجتهدين.

قال: إن عليه أن يبحث... ألم يقرأ حديثا أو أي آية أخرى؟

قلت: لم تتوفر لديه مصادر البحث تماما كما لم تتوفر لديك عندما أفتيت في مسألة الطلاق ، ولم يتح له أن يقرأ غير هذه الآية مما يتعلق بأمر القبلة وتعيينها أفلا تزال مصرا على أنه يتبع قناعته الذاتية ويترك إجماع الأئمة؟

قال: نعم إذا لم يستطع أن يتابع النظر والبحث فقد أعذر وحسبه أن يعتمد على ما هداه إليه نظره وبحثه!.

قلت: إنني سأنشر عن لسانك هذا الكلام ... إنه لكلام خطير وعجيب!.

قال: انشر ما شئت إنني لا أخاف.

قلت: وكيف تخاف مني، إذا كنت لا تخاف من الله عز وجل وتطرح بكلامك هذا قوله عز وجل ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ عرض الحائط!.

قال: يا أخي هؤلاء الأئمة غير معصومين أما الآية التي اعتمدتها فهي كلام المعصوم جل جلاله فكيف يترك المعصوم ويلحق بذيل غير معصوم؟

قلت: يا هذا المعصوم هو المعنى الحقيقي الذي أراده الله بقوله ﴿ ولله المشرق والمغرب ...﴾ وليس المعصوم هو فهم هذا الشاب البعيد كل البعد عن ثقافة الإسلام وأحكامه وطبيعة قرآنه. أي فالمقارنة التي أسألك عنها هي بين فهمين اثنين

فهم هذا الشاب الجاهل وفهم الأئمة المجتهدين وكلاهما غير معصومين إلا أن أحدهما موغل في الجهل والسطحية والآخر موغل في البحث والعلم والدقة.

قال: إن الله لا يكلفه بأكثر مما وصل إليه جهده!..

قلت: أجبني إذا على هذا السؤال: رجل له طفل مريض يعاني من بعض الالتهابات . أشرف عليه جميع أطباء البلدة واتفقوا على إعطائه علاجا معينا وحذروا والده من أن يحقنه بالبنسلين وأخبروه بأنه لو فعل ذلك عرض حياة الطفل للهلاك... إلا أن والد الطفل يعلم مما قرأ في بعض النشرات الطبية أن البنسلين يفيد في حالات الالتهاب. فاعتمد على معلوماته الخاصة في ذلك ونبذ كلام الأباء لأنه لا يعلم دليلهم على ما قالوا، فاستعمل (قناعته الذاتية) وعالج الطفل بحقنة بنسلين انتقل على أثرها إلى رحمة الله. أفيقاضى ويأثم فيما فعل أم لا؟

ففكر الرجل قليلا ثم قال: هذه غير تلك!.

قلت: بل هي عينها: سمع عن إجماع الأطباء كما سمع ذاك عن إجماع الأئمة ولكنه اعتمد على نص قرأه دون سواه في نشرة طبية كما اعتمد ذاك نصا قرأه دون سواه في كتاب الله عز وجل واستعمل هذا قناعته الذاتية كما استعمل ذاك قناعته الذاتية!.

قال: يا أخي القرآن نور.. نور.. وهل النور في دلالته مثل أي كلام آخر؟

قلت: ونور القرآن ينعكس إلى عقل أي ناظر وقارئ فيفهمه نورا كما أراد الله؟! فما الفرق بين أهل الذكر وغيرهم إذا ، ما داموا جميعا ينهلون من هذا النور؟

المثالان سواء ... لا فرق بينهما إطلاقا ولابد أن تجيبني: أيتبع الباحث فيهما قناعته الذاتية أم يتبع ويقلد أهل الاختصاص؟

قال: بل القناعة الذاتية هي الأصل.

قلت: وقد استعمل قناعته الذاتية فترتب على ذلك وفاة الطفل فهل تترتب عليه أي مسؤولية شرعية أو قضائية؟

وقال الرجل بملء فمه: لا تترتب عليه أي مسؤولية!.

قلت: فلنختم البحث والنقاش، دون هذه الكلمة التي أطلقتها. لقد انقطع بها السبيل إلى أي قدر مشترك بيني وبينك يمكن أن يقام عليه أي بحث. وحسبك أنك خرجت

بجوابك العجيب هذا عن إجماع الملة الإسلامية كلها ... ولا والله لن يكون أي معنى للتعصب المقيت على وجه الأرض ، إن لم تكونوا أنتم أصحاب هذا التعصب المقيت.

المسلم الجاهل يستعمل (قناعته الذاتية) في فهم ما اطلع عليه من القرآن... ويصلي إلى غير القبلة مخالفا كل المسلمين فتكون صلاته صحيحة!... والرجل العامي من الناس يستعمل (قناعته الذاتية) فيطبب من شاء. ويعالج كما يشاء ويموت المريض تحت يده فيقال له : الله يعطيك العافية!..

ولست أدري إذا، لماذا لا يدعنا هؤلاء الناس وشأننا لنستعمل نحن أيضا (قناعتنا الذاتية) في أن الجاهل بأحكام الدين وأدلتها لابد له أن يتمسك بمذهب إمام من الأئمة المجتهدين يتبعه من حيث إنه أبصر منه بكتاب الله وسنة رسوله.

ومهما يكن من خطأ هذا الرأي عندهم فلتشمله على كل شفاعة (القناعة الذاتية) وليكن له أسوة عنده برأي من استدبر القبلة فكانت صلاته صحيحة وقتل الطفل فكان قتله اجتهادا وتطبيبا([51]١)!

هل يجوز تقليد غير المذاهب الأربعة؟

الجواب: لا يجوز ذلك لما وضحناه من أن المذاهب الأربعة هي وحدها التي تطمئن النفس لصحة أقوال علمائها لأنها نقلت الينا عن طريق الأئمة الثقات ولم يتخلل ذلك فترة عن العمل بها والأخذ بأقوال أئمتها بخلاف غيرها من المذاهب وقد نوه عدد من الأئمة إلى هذا المعنى.

فقد قال الإمام النووي: يلزم غير المجتهد أن يجتهد في اختيار مذهب يقلده على التعيين وليس له أن يتبع في ذلك مجرد التشهي والميل إلى ما وجد عليه آباءه، وليس له التمذهب بمذهب أحد من أئمة الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من الأولين وإن كانوا أعلم وأعلى درجة ممن بعدهم لأنهم لم يتفرغو لتدوين العلم وضبط أصوله وفروعه فليس لأحد منهم مذهب محرر مقرر وإنما قام بذلك من جاء بعدهم

([51]١) وقد اعتمدت أيضا في أكثر كلامي في هذا الباب على كلام الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتبه وخصوصا كتاب (اللامذهبية) مع شيء من التغير والزيادة وذلك لما وجدت فيه من البلغة في التعبير عن ما يختلج في خاطري تجاه هذا البحث الدقيق وذلك بأسهل عبارة وأبسط أسلوب يستطيع إدراكه كل من عنده أدنى مسكة من الاطلاع على الثقافة الشرعية فجزاه الله تعالى خيرا.

من الأئمة الناحلين لمذاهب الصحابة والتابعين القائمين بتمهيد أحكام الوقائع قبل وقوعها الناهضين بإيضاح أصولها وفروعها كمالك وأبي حنيفة وغيرهما([52]١).

وقال العلامة ابن حجر: نقل إمام الحرمين عن المحققين امتناع تقليد الصحابة على العوام لارتفاع الثقة بمذاهبهم إذ لم تدون وتحرر وبه جزم ابن الصلاح وألحق بالصحابة التابعين وغيرهم ممن لم يدون مذهبه وبأن التقليد متعين للأئمة الأربعة فقط. قال: لأن مذاهبهم انتشرت حتى ظهر تقييد مطلقها وتخصيص عامها بخلاف غيرهم ففيه فتاوى مجردة لعل لها مكملا أو مقيدا لو انبسط كلامه فيها لظهر خلاف ما يبدو منه فامتنع التقليد إذن لتعذر الوقوف على حقيقة مذاهبهم.

([52]١) شرح المهذب للنووي (/ ٥٥).

خاتمة

وفـي نهايـة هـذا البـاب أقـول: إن علـى المسـلمين أن يسـعوا إلـى الاجتمـاع والوحـدة، والتماسك قال تعالى ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾([53]١) والى نبذ الاختلاف والفرقة والتنـازع وكل من تخالف دعوته هذه الغاية فهو عاص لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم مخالف لقوله تعالى ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾([54]٢) ولم تكن المذاهب الإسـلامية فـي الماضـي سـببا فـي تفريـق المسـلمين وتخـالفهم وتنـازعهم فقـد كـان الصحابة رضـي الله عنهم فرقا متعددة فهناك أصحاب ابن عباس وهناك أصحاب ابن مسعود وأصحاب ابن عمر وغيرهم كما مر معنا ومع ذلك كانوا كلهم جماعة واحدة وكان الإسلام في أوجه وعزته وجاءت المذاهب الأربعة وبقي الإسلام قويا عزيـزا وعنـدما تـرك المسـلمون العلـم بـدينهم والالتـزام بمـذاهبهم والتفتـوا إلـى الـدنيا والتصارع عليها وتركوا الدعوة إلى الله عز وجل ضعفوا وهانوا وتخلفوا وصاروا أذل الأمم ولو عادوا اليوم فتمسكوا بدينهم ومذاهبهم واجتهاداتهم وجمعوا شملهم ووحدوا صفوفهم فلابد أن يعيد الله تعالى إليهم عزتهم وكرامتهم فكما اعز الله الإسلام في القرون الأولى كذلك يعزه في هذه الأيام إن تمسكنا بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حق التمسك.

([53]١) سورة الحجرات الآية (١٠).

([54]٢) سورة الأنفال الآية (٤٦).

والحمد لله رب العالمين.

الأدب مع العلماء والصالحين

قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾([1]١) .

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال تبارك وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أي قبله بل كونوا تبعا له في جميع الأمور.

قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

وقال الحسن البصري: لا تدعوا قبل الإمام.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا ، لو صح كذا فكره الله تعالى ذلك.

(واتقوا الله) فيما أمركم به (إن الله سميع عليم) أي لأقوالكم (عليم) بنياتكم ، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوق صوته وقد روي أنها نزلت في الشيخين (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما فقد روي عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا (أبو بكر) و (عمر) رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حين قدم عليه ركب

([1]١) سورة الحجرات الآية (١- ٣).

بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر قال: نافع لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : ما أردت إلا خلافي قال: ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ قال ابن الزبير: فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه(١[2]).

وفي رواية أخرى له قال: قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أبوبكر رضي الله عنه أمر (القعقاع بن معبد) وقال عمر رضي الله عنه : بل أمر (الأقرع بن حابس)فقال أبو بكر رضي الله عنه : ما أردت إلا خلافي فقال عمر رضي الله عنه : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ حتى انتقضت الآية ﴿ لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ﴾(٢[3]) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ قلت: يا رسول الله ! والله لا أكلمك إلا كأخي السرار (٣[4]) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكسا رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال: شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد حبط عمله فهو من أهل النار فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره أنه قال: كذا وكذا ، قال موسى فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: (اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة)(٤[5]).

(١[2]) أخرجه البخاري (٤٥٦٤).

(٢[3]) أخرجه البخاري (٤٥٦٦).

(٣[4]) أخرجه البزار (٢٢٥٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١١٣٤٩).

(٤[5]) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٦٥).

وفي رواية عن أنس رضي الله عنهما أيضا قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ وكن ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا من أهل النار حبط عملي وجلس في أهله حزينا ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار فأتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه بما قال فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا بل هو من أهل الجنة » فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفنه فقال: بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه)([6]١).

وفي رواية ابن جرير: فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة؟» فقال رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أرفع صوتي أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: وأنز الله تعالى ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين.

كذلك فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما ثم قال: من أين أنتما؟ قلا: من أهل الطائف ، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا.

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وآله وسلم كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حيا وفي قبره صلى الله عليه وآله وسلم دائما ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه بل يخاطب بسكينة

([6]١) أخرجه البخاري (٧٠) في خلق أفعال العباد، ومسلم (٣١٠) ، وأحمد (١٣٧/٣) وابن حبان (٧١٦٨) وأبو يعلى (٣٣٣١).

ووقار وتعظيم ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾.

كما قال تعالى ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾([7]١)، وقوله عز وجل ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الحديث الصحيح « إن الرجل ليتكلم الكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالا تكتب له بها الجنة وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»([8]٢).

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه فقال : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلا ومحلا: ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾.

وقد ثبت في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »([9]٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضا « ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه »([10]٤).

وقال أيضا فيما رواه الطبراني : « من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الإسلام».

- قال الإمام أحمد الرفاعي قدس الله سره:

كل الآداب منحصرة في متابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قولا وفعلا وحالا وخلقا فالصوفي آدابه تدل على مقامه زنوا أقواله وأفعاله وأحواله وأخلاقه بميزأن

([7]١) سورة النور الآية (٦٣).

([8]٢) أخرجه أحمد (١٩/ ٢٥٩).

([9]٣) أخرجه أحمد (٥/١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٠).

([10]٤) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣) والترمذي (١٩٢١) وأحمد (١٨٥/٢).

الشرع يعلم لديكم ثقل ميزانه وخفته خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن قال تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾(١[11]).

من التزم الآداب الظاهرة دخل جنسية القوم وحسب في عدادهم ومن لم يلتزم الآداب الظاهرة فهو فيهم غير لا يلتبس حاله عليهم لأن استعمال الآداب دليل الجنسية بل تكون علة الضم قال رويم رحمه الله تعالى : التصوف كله أدب . وهذا الأدب الذي أشارت إليه الطائفة أدب الشرع كن متشرعا ودع حاسدك يكذب عليك، وينسب ما يحب إليك.

ولست أبالي من رماني بريبة	إذا كنت عند الله غير مريب
إذا كان سري عند ربي منزها	فما ضرني واش أتى بغريب(٢[12])

- وقال أبو نصر السراج:

الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا فأكثر أدابهم الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم والمنظوم وأما أهل الدين فأكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود (التي بين العبد وربه) وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب.

- وقال الإمام الرواس قدس الله سره:

في المادة الثامنة من كتاب (فذلكة الحقيقة):

الأدب في كل قول وفعل فإن الأدب من الحياء والحياء من الإيمان وفي الأدب التخلق بخلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أرواحنا لغبار قدميه الكريمتين الفداء قال (أدبني ربي فأحسن تأديبي)(٣[13]). (٤[14])

وقال في المادة العشرين وما بعدها:

(١[11]) سورة الأنعام الآية (٣٨).

(٢[12]) البرهان المؤيد ص (٦٤ ، ٦٥).

(٣[13]) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣١٠) ورمز لصحته .

(٤[14]) المجموعة النادرة لأبناء الآخرة ص (١٣٩).

وكمال الأدب حالة ذكر الله عز وجل سواء كان ذلك مع الإخوان أو بالانفراد فإن طريقنا يشمل الذكرين الجلي والخفي، أما الجلي فمع الإخوان في حلق الأذكار وأما الخفي فهو ورد المرء يخلو به مع الله تعالى ولا ينفع كلاهما بغير الأدب الصحيح، وهو صحة الحضور مع المذكور ليذكره الذاكر معتبرا بآياته معظما لجلال سلطانه ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾([15]١).

والقيام بأدب النظر فلا يصرفه للمستعارات الفانيات ولا يبعث منه لحظة خائنة قال الله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾([16]٢).

والأدب العظيم حالة تلاوة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكون المصلي عليه كأنما يصلي عليه وهو بين يديه عارفا ما أمكنه بجليل قدر وعظمة شأنه وأنه الرحمة للعالمين والإمام لجميع المرسلين والباب لوصلة المتقين والشفيع للمذنبين عليه أفضل صلوات الباري المعين.

ومن الأدب احترام الأولياء والصالحين العلماء لأنهم ورثة الأنبياء على الحقيقة وإجلال شأنهم أحياء كانوا أو أمواتا.

وكفاك نص الكتاب المكنون : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾([17]٣).

والولاية اختصاص بالرحمة من الرحيم المنعم الكريم ليست مقيدة بحياة أو موت بل لما كانت من الرحمة ففي حالة الموت هي أعم وأليق.

ولذلك فالرحمة الإلهية تشمل قصاد الأموات من الأولياء والنادبين لهم والمستنصرين بهم اللاجئين إليهم رضوان الله عليهم([18]٤).

- وقال الإمام القشيري رضي الله عنه :

لو لم يكن للمريد من معرفة مقام الأدب مع الشيخ إلا قول موسى عليه السلام للخضر ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا؟﴾([19]١) لكان في ذلك

([15]١) سورة الشورى الآية (٥٣).

([16]٢) سورة غافر الآية (١٩).

([17]٣) سورة يونس الآية (٦٢).

([18]٤) المجموعة النادرة لأبناء الآخرة ص (١٤١ و ١٤٢).

كفاية . فإن موسى لما أراد صحبة الخضر حفظ شرط الأدب فاستأذن أولا في الصحبة ثم شرط عليه الخضر أن لا يعارضه في شيء ولا يعترض عليه في حكمه ثم لما خالفه موسى تجاوز عنه المرة الأولى والثانية فلما صار إلى الثالثة التي هي آخر حد القلة وأول حد الكثرة سئمه فقال: ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾([20]٢).([21]٣)

- وقال أبو الحسين النووي:

ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة وآداب الشريعة حلية الظاهر والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب.

- وقال الجنيد:

من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب.

- وقال أبو علي الدقاق:

العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى .

- وقال الجلال البصري:

التوحيد يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

- وقال عبدالله بن المبارك:

من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان المعرفة.

- وقال انس بن مالك رضي الله عنه :

الأدب في العمل علامة قبول العمل.

- وقال ابن المبارك أيضا:

نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

- وقال النووي :

([19]١) سورة الكهف الآية (٦٦).

([20]٢) سورة الكهف الآية (٧٨).

([21]٣) الوصايا ص (٣٠١ ، ٣٠٢).

من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

- وقال ذو النون:

إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء.

مسألة حجاب المرأة المسلمة

أجمع الفقهاء قديما وحديثا على وجوب تغطية المرأة كامل جسدها حتى الوجه والكفين عند الخوف من الفتنة استنادا إلى القاعدة الأصولية التي تقول: (ما أدى إلى حرام فهو حرام) وبالتالي: (ما أدى إلى واجب فهو واجب) فالفتنة حرام ودرؤها واجب وهو المشهور عن جمهور الصحابة والتابعين حيث استدلوا بالأدلة التالية:

من القرآن الكريم:

١- قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾(١[1]).

قال ابن عباس: أمر الله تعالى نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهم بالجلابيب، وقال ابن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ فغطى وجهه ورأسه.

٢- وقوله تعالى ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾(٢[2]) .

قالوا: ما ظهر بحكم الضرورة كأن كشفته الريح.

وقالوا أيضا: ما ظهر بحكم العادة وهو زينة ظاهر اللباس.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (إلا ما ظهر منها) أي كالرداء وظاهر الثياب، لأنه لا يمكن إخفاؤه ومثله قال ابن سيرين والنخعي وأبو الجوزاء والحسن.

(١[1]) سورة الأحزاب الآية (٥٩).

(٢[2]) سورة النور الاية (٣١).

وقال ذلك ايضا أحمد بن حنبل في تفسير زاد المسير لابن الجوزي: حتى الظفر يحرم أن يظهر منها.

٣- وقوله تعالى ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾([3]١) .

فظاهر الآية خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنها عامة الحكم بجميع النساء لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وذلك عن طريق القياس الأولى أو ما يسمى (القياس الجلي).

من الأحاديث النبوية الشريفة والآثار:

١- عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين»([4]٢).

قال الشيخ ابن تيمية : (وهذا يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن ، وذلك يقتضي ستر وجوههن).

وفي رواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا تلثم المراة ولا تتبرقع ولا تلبس ثوبا بورس ولا زعفران »([5]٣) .

٢- عن السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك وفيه قولها : (فسترت وجهي عنه بجلبابي ...)([6]٤).

٣- عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أردف الفضل بن العباس يوم النحر خلفه وفيه قصة الخثعمية التي وقفت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فطفق الفضل ينظر اليها، فأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بذقن الفضل فحول وجهه عنها([7]٥).

فلو لم يكن عورة لما حول وجهه عنها مع أنها كانت محرمة بالحج لذلك كانت كاشفة وجهها.

([3]١) سورة الأحزاب الآية (٥٣).

([4]٢) أخرجه البخاري (١٨٣٨) والنسائي (٢٦٧٢) والترمذي (٨٣٣) وأحمد (٦/ ١١٩) ومالك موقوفا (١/ ٣٢٨) وأبو داود (١٨٢٥).

([5]٣) أخرجه البخاري (٤٧٦/١).

([6]٤) أخرجه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٦٩٥١) وأبو داود (٢١٣٨) وأحمد (١٩٤/٦) وأبو يعلى (٤٩٢٧) وابن حبان (٤٢١٢) والبغوي (٢٣٢٥).

([7]٥) أخرجه البخاري (١٤٦٩).

٤- واخرج ابن سعد عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما اجتلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صفية رأى عائشة متنقبة وسط النساء فعرفها.

٥- وورد في مصنف عبدالرزاق عن سيدتنا أم سلمة رضي الله عنها قالت: (لما نزلت آية الحجاب خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان لسترهن وجوههن بفضل أكسيتهن).

٦- عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « إياكم والدخول على النساء: فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: (الحمو الموت)([8]١) فلو كان الوجه غير عورة لسهل على الأحماء للضرورة المدعاة لهم.

٧- عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : (أن أم سليم صنعت حيسا (نوع من الحلوى) وأرسلت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمناسبة زواجه من زينب بنت جحش فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه وجلسوا يأكلون ويتحدثون ورسول الله جالس وزوجته مولية وجهها إلى الحائط إلى أن خرجوا)([9]٢).

٨- قصة إجلاء بني قينقاع: (أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها)([10]٣). فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجلعوا يراودونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت تكشف بعض جسمها فضحكوا منها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين فقتله...)([11]٤) .

فكونهم يريدون منها كشف وجهها فأبت هذا دليل على أنها كانت مغطية وجهها.

٩- وأخرج البيهقي بإسناد صحيح عن عاصم بن الأحول قال: (كنا ندخل على حفصة بنت سيرين، وقد جعلت الجلباب هكذا وتنقبت به)، فنقول لها: رحمك

([8]١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٥٦٣٨) والترمذي (١١٧١).

([9]٢) أخرجه مسلم (٣٤٩٣).

([10]٣) ما يجلب إلى السوق للبيع .

([11]٤) سيرة ابن هشام (٤٧/٢) والطبري (٤٨٠/٢) وطبقات ابن سعد (٦٧/٣).

الله ، قال الله تعالى ﴿ والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾([12]١) هو الجلباب ؟ فتقول لنا: أي شي بعد ذلك ؟ فنقول: ﴿ وإن يستعففن خير لهن ﴾([13]٢) فتقول إثبات الحجاب.

فإن كن النساء القواعد والفتنة فيهن أخف يسترن وجوههن فما هو حال غيرهن؟!!

١٠- عن أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده ميمونة زوجته، فأقبل عبدالله بن أم مكتوم شيخ كبير أعمى فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «قوما واحتجبا منه فقلت يا رسول الله: أليس هو بأعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال عليه السلام: أفعمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه؟»([14]٣).

فتأملوا رحمكم الله تعظيم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الأمر وتشديده فيه مع علمه بنزاهة وكمال عفتهن وسلامة صدورهن وصحبتهن لكمال النبوة كيف أمرهن بالاحتجاب لئلا ينظرن إلى ابن أم مكتوم مع كبر سنه وعمى بصره وفقد جماله وبعده عن الآفة في جميع أحواله حتى زجرهن عن النظر إليه تعظيما لأمر الله وحسما لمادة الآفة عن البواطن العفيفة أن يبقى خاطر لذكر غير محرم لم يؤذن في النظر إليه موافقا لقوله تعالى لأزواجه.

﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾([15]٤) وبهذا تأمن الفتنة([16]٥).

وأقول: إذا أراد الخاطب أن يخطب فتاة لا يحق له أن يرى من خطيبته إلا الوجه والكفين، وهذا معروف مشهور يتناقله الخاصة والعامة على السواء إذن تبين أنه إن لم يرد خطبتها فلا يحق له أن يرى حتى وجهها وكفيها. ولكن لا يعني هذا الكلام أن

([12]١) سورة النور الآية (٦٠).

([13]٢) سورة النور الآية (٦٠).

([14]٣) أخرجه أبو داود في سننه (/ ٤١٢) والترمذي (٢٧٧٨) وقال حديث حسن صحيح وأحمد في المسند (١٤٨/٣) وقال الحافظ في الفتح (٢٩٤/٩) عن الحديث : أخرجه أصحاب السنن من رواية الزهري عن نبهان مولى أم سلمة عنها، وإسناده قوي.

([15]٤) سورة الأحزاب الآية (٣٣).

([16]٥) عرائس الغرر وغرائس الفكر في أحكام النظر ص (٢٦٢ ، ٢٦٣).

المرأة تحتجب وتجلس في بيتها ولا يحق لها أن تعمل أو يخرج من بيتها فالإسلام سمح للمرأة بالغزو في سبيل الله لمداواة الجرحى وسمح لها بالعمل لكن ضمن حدود شرعية تخرج محتشمة مستورة عفيفة وبهذا يكون المجتمع مجتمعا إسلاميا حقيقيا يعيش في عفة وصفاء.

وذكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى في كتاب: (إلى كل فتاة تؤمن بالله) بشأن حجاب المرأة ما يلي:

قال: إن أئمة المسلمين كلهم قد أجمعوا على ما يلي:

١- لا يجوز أن تكشف المرأة أمام غير الذين استثناهم الله عز وجل شيئا أكثر من وجهها وكفيها.

٢- لا يجوز لها أن تكشف الوجه والكفين أيضا إذا علمت أن حولها من قد ينظر اليها النظر المحرم الذي نهى الله تعالى عنه، بان يتبع النظرة النظرة ولا تستطيع أن تزيل هذا المنكر إلا بحجب وجهها عنه وعلى هذه الحالة يحمل ما نقله الخطيب الشربيني عن إمام الحرمين من اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات الوجه)([17]١) وقد صرح بهذا القيد القرطبي فيما نقله عن ابن خويذ منداد من أئمة المالكية : أن المرأة إذا كانت جميلة، وخيف من وجهها الفتنة فعليها ستر ذلك([18]٢).

وقال صاحب الدر المختار من الحنفية : وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين الرجال لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة ولا يجوز النظر إليه بشهوة.

وهكذا فقد ثبت الإجماع عند جميع الأئمة (سواء من يرى منهم أن وجه المرأة عورة كالحنابلة والشافعية، أو من يرى منهم أنه ليس بعورة كالحنفية والمالكية): أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عند خوف الفتنة بأن كان من حولها ينظر اليها بشهوة ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم أن الفتنة مأمونة اليوم وأنه لا يوجد في الشوارع من ينظر إلى وجوه النساء بشهوة([19]٣)؟!.

([17]١) مغني المحتاج (١٢٩/٣).

([18]٢) تفسير القرطبي (٢٣٨/١٢).

([19]٣) الدر المختار على هامش ابن عابدين (٢٤٨/١).

٣- واتفقوا على جواز كشف المرأة وجهها ترخصا لضرورة تعلم أو تطبب أو عند أداء شهادة أو تعامل من شأنه أن يستوجب الشهادة فهذه النقاط الثلاث محل إجماع لدى الأئمة وعامة الفقهاء.

ثم إنهم اختلفوا فيما وراء هذه الأحوال وهو أن تكون المرأة بادية الوجه في مجتمع عام وليس ثمة من يتعمد النظر اليها بريبة وهذا فرض وهمي اليوم فقد ذهب البعض كما رأينا إلى أنه لا حرج عليها في ذلك. وذهب آخرون إلى أنه يجب عليها أن تستر وجهها مطلقا.

هذا هو حكم الإسلام في لباس المرأة اتفقت عليه كلمة علماء المسلمين كلهم معتمدين في ذلك على نصوص واضحة صريحة في كتاب الله تعالى وأحاديث ثابتة من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا عثرنا بعد ذلك على وقائع وتصرفات فردية لبعض نساء الصحابة أو التابعين أو غيرهم تخالف هذا الذي أجمع عليه الأئمة مما دل عليه صريح الكتاب والسنة فإنها وقائع محجوجة بالحكم المبرم الذي دل عليه إجماع الأئمة وصريح الكتاب والسنة وحاشا أن يكون حكم الله هو المحجوج بها([20]١).

مسألة المصافحة بعد الصلاة

المصافحة بعد الصلاة أمر مشروع يزيد المحبة بين المسلمين ويوثق أواصر الأخوة فيما بينهم والأدلة على ذلك ما يلي:

١- عن سيدنا يزيد بن الأسود رضي الله عنه : أنه صلى الصبح مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: ثم ثار الناس يأخذون بيده يمسحون بها وجوههم فأخذت بيده فمسحت بها وجهي فوجدتها (أبرد من الثلج وأطيب ريحا من المسك).

([20]١) إلى كل فتاة تؤمن بالله ص (٣٧ - ٣٩).

وفي رواية عن سيدنا أبي جحيفة رضي الله عنه قال: ثم صلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة تمر من ورائها المرأة وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم قال فأخذت بيده فوضعتها على وجهي فإذا هي (أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك)(١[1]).

٢- وقال البراء بن عازب رضي الله عنه : من تمام التحية أن تصافح أخاك(٢[2]).

٣- وعن قلدة بن دعامة الدوسي رضي الله عنه قال قلت لأنس : (أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : نعم).

٤- عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما جاء أهل اليمن قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قد جاءكم أهل اليمن، وهم أول من جاء بالمصافحة »(٣[3]).

٥- وعن سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا»(٤[4]).

فالأحاديث الثلاثة الأخيرة عامة في مشروعية المصافحة وهي تشمل المصافحة بعد الصلاة وفي الأوقات كلها ، والحديثان الأولان يخصصان ويبينان جواز السلام والمصافحة بعد الصلاة خصوصا.

أقوال العلماء في الصافحة بعد الصلاة

١- قال الإمام الطحاوي في حاشيته على مراقي الفلاح: (تطلب المصافحة فهي سنة عقب الصلاة كلها وعند كل لقي).

٢- وقال الشيخ عبدالغني النابلسي عن المصافحة بعد الصلاة : (إنها داخلة تحت عموم سنة المصافحة مطلقا)(٥[5]).

(١[1]) أخرجه البخاري (٣٣٦٠).

(٢[2]) أخرجه البخاري في الأدب (٩٦٨).

(٣[3]) أخرجه أبو داود (٥٢١٣) والبخاري في الأدب (٩٦٧) وقال الحافظ سنده صحيح.

(٤[4]) أخرجه أبو داود (٥٢١٢).

(٥[5]) شرح الطريقة المحمدية للشيخ النابلسي (١٥٠/٢).

٣- وقال الشيخ الإمام أبو محمد عز الدين بن عبدالسلام رحمه الله : (أنها من البدع المباحة).

٤- وقال الإمام النووي في الأذكار : (أنها بدعة مباحة).؟

على أن المصافحة بعد الصلاة ودعاء المسلم لأخيه المسلم بأن يتقبل الله منه صلاته بقوله (تقبل الله) لا يخفى ما فيهما من خير كبير وزيادة تعارف وتآلف وسبب لربط القلوب وإظهار للوحدة والترابط بين المسلمين.

مسألة صلاة الأوَّابين بعد المغرب

الأوابون: جمع أواب : والمعنى : رجاع إلى الله بالتوبة والاستغفار . وقد سميت الصلاة بين المغرب والعشاء صلاة الأوابين لما ورد في الحديث.

عن محمد بن المنكدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « إنها – أي الصلاة بين المغرب والعشاء – صلاة الأوابين »([1]١).

وهو وإن كان مرسلا ، فإن الإمام أبا حنيفة ومالكا وأحمد في إحدى الروايتين عنه وجمهور المحدثين يحتجون بالمرسل.

الأدلة على مشروعيتها:

١- قال صلى الله عليه وآله وسلم « من صلى المغرب والعشاء فإنها صلاة الأوابين»([2]٢).

٢- عن سيدنا أبي هريرة قال: قال رسول الله « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتي عشرة سنة»([3]٣).

([1]١) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٤٨.

([2]٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٨٠٤).

([3]٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٨٠٣).

٣- وعن عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أنه سئل أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بصلاة بعد المكتوبة؟ قال: نعم ، بين المغرب والعشاء)(١[4]).

٤- وسئل سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه عن قوله تعالى ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾(٢[5]) قال : كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء ، وكذلك ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾(٣[6]).(٤[7])

٥- وقد روي عن حذيفة (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى المغرب ، فما زال يصلي في المسجد حتى صلى العشاء الآخرة)(٥[8]).

وجاء في حاشية الباجوري في الفقه الشافعي : (إن من النوافل صلاة الأوابين، وهي بين المغرب والعشاء، وهي ست ركعات إلى عشرين ركعة وتصلى ركعتان أيضا)(٦[9]).

وجاء في الفقه الحنفي : (مطلب السنن والنوافل قال: وست بعد المغرب ليكتب من الأوابين بتسليمة أو اثنتين أو ثلاث)(٧[10]).

وقال الحافظ العراقي: (وممن كان يصلي ما بين المغرب والعشاء من الصحابة. عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر ، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن عمرو، وأنس بن مالك في ناس من الأنصار، ومن التابعين : الأسود بن يزيد وأبو عثمان النهدي وابن أبي مليكة وسعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر وأبو حاتم وعبدالله بن سخبرة وعلي بن الحسين (زين العابدين)) وأبو عبدالرحمن الحنبلي وشريح القاضي وعبدالله بن مغفل وغيرهم فتبين لنا مشروعية صلاة الأوابين بين المغرب والعشاء

(١[4]) أخرجه الإمام أحمد (٩٦٦).

(٢[5]) سورة الذاريات الآية (١٧).

(٣[6]) سورة السجدة الآية (١٦).

(٤[7]) أخرجه أبو داود (١٣١٨) وقال العراقي: إسناده جيد.

(٥[8]) أخرجه أحمد في المسند (٥/٤١٤).

(٦[9]) حاشية الباجوري (١/١٣٥).

(٧[10]) حاشية ابن عابدين على الدر المختار (١٢/٢ - ١٣).

مدللة بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفعل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

مسألة مس غير الطاهرين المصحف

ذهب جمهور العلماء قديما وعموم أهل السنة والجماعة حديثا ، وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة، أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأتباعهم إلى أنه لا يجوز للمحدث حدثا أصغر ولا أكبر ولا للحائض والنفساء أن يمس المصحف والأدلة على ذلك:

١- قوله تعالى ﴿ إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾([1]١).

فالهاء في (لا يمسه) عائدة على القرآن الكريم، ويدل على ذلك الآية التي بعدها ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ والتنزيل من خصائص القرآن فقط دون غيره مما لم ينزل كاللوح المحفوظ مثلا، والمخاطب بالطهارة في الآية هو الإنسان، والمراد بها الطهارة الظاهرة من الحدثين الأكبر والأصغر وليس طهارة العقيدة كما يزعم بضعهم.

٢- وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ولا يمس القرآن إلا طاهر »([2]٢).

٣- وعن سيدنا حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: « لا تمس القرآن إلا وأنت على طهر »([3]٣).

٤- وفي حديث الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن حزم إلى اليمن وفيه « أن لا يمس القرآن إلا طاهر »([4]١).

([1]١) سورة الواقعة الآية (٧٧ - ٨٠).

([2]٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١١٦٢) والدارقطني (١٢١/١) وفي الكبير (١٣٢١٧) والبيهقي (٨٨/١) وابن حبان (٦٥٥٩).

([3]٣) أخرجه الدارقطني (١٢٢/١) والحاكم (٦٠٥١) وصححه وأقره الذهبي .

وقال ابن عبدالبر : إنه أشبه المتواتر لتلقي الناس له بالقبول.

٥- عن عبدالرحمن بن يزيد قال: كنا مع سلمان فخرج فقضى حاجته ثم جاء فقلت: يا أبا عبدالله لو توضأت لعلنا أن نسألك عن آيات فقال: (إني لست أمسه إنما لا يمسه إلا المطهرون) فقرأ ما يشاء ([٢][5]).

٦- وعن سيدنا علي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توضأ ثم قرأ شيئا من القرآن ثم قال: هكذا لمن ليس بجنب فأما الجنب فلا ولا آية([٣][6]).

قال العلماء : طالما لا يجوز للجنب أن يقرأ القرآن كذلك لا يجوز له ولا لغيره من غير الطاهرين مسه.

سنة الجمعة القبلية

إن صلاة الجمعة تقوم مقام صلاة الظهر، فيسن قبلها ما يسن قبل الظهر، من صلاة سنة الظهر القبلية، وجُلُّ الأمر أننا أبدلنا كلمة الظهر بالجمعة ، على أنه وردت الأحاديث بلفظ الجمعة والأدلة على ذلك ما يأتي:

١- عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي قبل الجمعة أربعا وبعدها أربعا)([٤][1]).

٢- وعن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء سُليك الغطفاني ورسول الله يخطب ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أصليت قبل أن تجيء » قال لا قال: « فصل ركعتين وتجوز فيهما »([١][2]).

([١][4]) أخرجه الحاكم (٦٠٥١) والدارقطني (١/١٢١) وابن حبان (٦٥٥٩).

([٢][5]) أخرجه الدارقطني (١/١٢٤) وقال صحيح ورجاله ثقات.

([٣][6]) ذكره الشوكاني في نيل الأوطار (١/٢٦٦) وقال الهيثمي : رجاله موثوقون.

([٤][1]) ذكره الحافظ المناوي في فيض القدير (٥/٢١٦) وقال الحافظ العراقي: إسناده جيد.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم (قبل أن تجيء) دليل صريح على سنة الجمعة القبلية، لأن تحية المسجد لا تفعل قبل المجيء.

٣- وذكر الإمام البخاري في صحيحه في باب (الصلاة قبل الجمعة وبعدها) حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي قبل الظهر ركعتين)(٢[3]).

وقال القسطلاني في شرحه على هذا الحديث: (والظاهر أنه قاسها أي الجمعة على الظهر) . أي أن الإمام البخاري يقول بسنية الصلاة قبل الجمعة .

وفي مصنف الحافظ عبدالرزاق : باب الصلاة قبل الجمعة وبعدها وفي مصنف ابن أبي شيبة (باب الصلاة قبل الجمعة) وفي سنن الترمذي (باب الصلاة قبل الجمعة وبعدها) وهؤلاء أئمة السلف.

وعن سيدنا أبي أيوب رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يركع قبل الظهر أربعا لا يفصل بينهن)(٣[4]).

وعن السيدة أم حبيبة رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتا في الجنة أربعا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل الفجر »(٤[5]) .)

٤- وعن سيدنا عبدالله بن الزبير رضي الله عنه : (ما من صلاة مفروضة إلا وبين يديها ركعتين)(٥[6]).

٥- وعن نافع قال: (كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلي ركعتين في بيته ويتحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يفعل ذلك)(٦[7]) ،

(١[2]) أخرجه بن ماجه (١١١٤) بإسناد صحيح ، كما قال الحافظ العراقي في شرح الترمذي وقال المجد في بن تيمية في الأحكام (رجال إسناده ثقات).

(٢[3]) أخرجه البخاري (٨٩٥).

(٣[4]) أخرجه ابن ماجه (١١٥٧).

(٤[5]) أخرجه النسائي (١٧٩٤٩) وابن حبان (٢٤٥٢) والحاكم (١١٧٣).

(٥[6]) أخرجه ابن حبان (٢٤٥٥) والدارقطني (١/٢٦٧) .

(٦[7]) أخرجه أبو داود (١١٢٨) وابن حبان في صحيحيه (٢٤٧٦).

وقد استدل واحتج بهذا الحديث الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه (الخلاصة) على إثبات سنة الجمعة التي قبلها.

٦- وصح أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : (كان يصلي قبلها – أي الجمعة – أربع ركعات وبعدها أربع ركعات)([8]١).

٧- وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها: (أنها صلت قبل الجمعة أربعا)([9]٢).

٨- وأيضا ما رواه الحافظ عبدالرزاق بسنده في مصنفه قال: (كان عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه يأمرنا أن نصلي قبل الجمعة وبعدها أربعا).

فتبين لنا مما مر أن الصلاة قبل الجمعة مشروعة ومرغب فيها، ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن الصحابة والسلف رضي الله عنهم.

صلاة الظهر بعد الجمعة

أجمع جمهور الفقهاء من الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة على جواز صلاة الظهر بعد الجمعة، وذلك للأسباب التالية:

١- عند تعدد الجمع في مكان واحد وبدون عذر ولم يعلم أيها الأسبق أو علم الأسبق فعلى الباقين صلاة الظهر أربعا.

٢- وعند فقد شرط من شروط صحة صلاة الجمعة.

٣- وعند عدم إدراك المصلي ركعة مع الإمام بأن لحقه في التشهد فعند سلام الإمام يقوم المسبوق (الذي لم يدرك الركعة مع الإمام) ويصلي الظهر أربعا.

ولكنهم اختلفوا في وجوبها أو ندبها أو استحبابها ومبنى أمرهم كله على اختلافهم في جواز تعدد الجمع لغير عذر أو عدم الجواز، وملخص القول في هذه المسألة أنه: لا

([8]١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه [٢ / كتاب / ٤ / باب (٤٦) رقم (١) وباب (٤٧) رقم (٤)].

([9]٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الدراية ص (١٤٣).

يجوز تعدد الجمع لغير عذر أجمع على ذلك الشافعية والمالكية وبعض الأحناف والحنابلة في إحدى روايتي الإمام أحمد.

فقد قال الشافعي: (إذا اتسعت البلد، وكثرت عمارتها، فبنيت فيها مساجد كثيرة ، عظام وصغار، لم أحب أن تصلى الجمعة فيها إلا في مسجد واحد، وكذلك إذا اتصلت بالبلد الأعظم منها قريات صغار لم أحب أن يصلى إلا في المسجد الأعظم وإن صلى الله عليه وآله وسلم في مسجد منها غيره صليت الظهر أربعا وإن صليت الجمعة أعاد من صلاها فيها)([1]١).

وتبعه بذلك أئمة مذهبه منهم الإمام النووي والسبكي والرملي وغيرهم.

وذكر الإمام ابن عابدين في حاشيته المشهورة : (أن عدم جواز التعدد هو المشهور من مذهب مالك)([2]٢).

وذكر المقدسي في رسالته : (نور الشمعة في ظهر الجمعة) : أن عدم جواز التعدد هو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد – كما نقل ذلك العلامة ابن عابدين في حاشيته – .

ونقل العلامة ابن عابدين أيضا في حاشيته([3]٣) : أن الإمام أبا حنيفة يقول بعدم التعدد وتبعه من أئمة مذهبه الطحاوي وصاحب المختار والعتابي وغيرهم.

ونعود إلى مسألة إعادة الظهر بعد الجمعة عند تعدد الجمع لغير عذر مع مراعاة الخلاف فنقول: **قال الشافعية بوجوب صلاة الظهر بعدها.**

وأما الأحناف فقد تردد القول عندهم فيها، فبعضهم ذهب إلى أنها واجبة أيضا احتياطا ، وبعضهم ذهب إلى الندب عند التعدد سواء كان بعذر أو بغير عذر وبعضهم جعلها خلاف المذهب، ولكن لم يحرمها وتبعهم بهذا القول الإمام أحمد.

فالأمر كما ظهر لنا اجتهاد، فيجوز تقليد المجتهدين القائلين بكل من القولين ولا ننكر على من يصليها أو على من لا يصليها جمعا بين الأقوال ودفعا لتفرقة وتشتيت ذلك الجسم الذي أخبر عنه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث

([1]١) كتاب الأم للشافعي (١٧١/١).

([2]٢) حاشية ابن عابدين (٥٤٢/١).

([3]٣) حاشية ابن عابدين (٥٤٢/١).

يقول: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »([4]١).

صنع أهل الميت الطعام

أدلة جواز صنع أهل الميت الطعام

١- عن الأحنف بن قيس قال: (حين طعن عمر أمر صهيبا أن يصلي الناس ثلاثا وأمر بأن يجعل للناس طعاما)([1]٢).

٢- وعن طاووس قال: (إن الموتى يفتنون في قبورهم سبعا ويستحبون أن يطعموا عنهم تلك الأيام)([2]٣).

والأفضل أن يقوم بإعداد الطعام والقيام عليه جيران الميت ومن حوله من غير أهله ولا يضر كون ثمن الطعام من أموال أهل الميت لا من تركة الميت إلا أنه يستحب أن لا يقوموا هم عليه لانشغالهم بما هو أهم وهو تلقي قدر الله عز وجل بالرضى والتسليم وقبول العزاء من الناس تطبيقا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم ما يشغلهم »([3]٤).

تلقين الميت بعد الدفن

([4]١) أخرجه البخاري (١٠/٣٦٧) ومسلم (٢٥٨٦) وأحمد في المسند (٤/٢٧٠).

([1]٢) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١/١٩٩) رقم (٧٠٩) وقال: إسناده حسن .

([2]٣) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (١/١٩٩) وقال: إسناده قوي.

([3]٤) أخرجه الترمذي (٩٩٨) وحسنه والحاكم وصححه (١/٣٧٢) ووافقه الذهبي ، وأبو داود (٣١٣٢) وابن ماجه (١٦١٠) والدارقطني (٢/٧٩).

استدل القائلون بجواز تلقين الميت بعد دفنه في قبره بالأدلة التالية:

١- أخرج الطبراني وعبدالعزيز الحنبلي عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: إذا أنا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نصنع بموتانا.

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره فليقم احدكم على رأس قبره ثم يقول: يا فلان فإنه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تشعرون فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وبالقرآن إماما فإن منكرا ونكيرا يأخذ كل واحد بيد صاحبه ويقول: انطلق بنا ما يقعدنا عند من لقن حجته. فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه؟ فقال: ينسبه إلى أمه حواء يا فلان ابن حواء. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني إسناد صالح وذكر له شواهد في كتابه التلخيص([1]١).

٢- وأخرج الحافظ سعيد بن منصور حديثا وهو: إذا سوي على الميت قبره وانصرف الناس عنه كانوا (أي الصحابة) يستحبون أن يقال للميت عند قبره: يا فلان قل لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ثلاث مرات يا فلان قل ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم ينصرف، قال الشوكاني ذكره الحافظ ابن حجر في التلخيص وسكت عنه([2]٢).

٣- حديث: « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »([3]٣).

قال المحب الطبري وابن الهمام والشوكاني وغيرهم لفظ موتاكم نص في الأموات وتناوله للحي المحتضر مجاز فلا يصار إليه إلا بقرينة وحيث لا توجد قرينة تصرفه عن حقيقته إلى مجازه فشموله للأموات أولى إن لم يقتصر عليهم فقط والله أعلم.

([1]١) تلخيص الحبير ص (٢٤٢ - ٢٤٣) من المجموع للنووي ص (٢٤٣) وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٧٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢٤٨) وقد قواه الضياء في أحكامه.

([2]٢) تلخيص الحبير ص ٢٤٢ ج٥ من المجموع للنووي .

([3]٣) أخرجه مسلم (٩١٦) وأبو داود (٣١١٧) والنسائي (٥/٤).

٤- أخرج مسلم وغيره أن الصحابي عمرو بن العاص قال لأهله: إذا دفنتموني فأقيموا بعد ذلك حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع رسل ربي(١[4]).

- **ومن أقوال الفقهاء:**

١- قال ابن العربي في مسالكه إذا أدخل الميت قبره فإنه يستحب تلقينه في تلك الساعة وهو فعل أهل المدينة والصالحين من الأخيار لأنه مطابق لقوله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾(٢[5]) ، وأحوج ما يكون العبد إلى التذكير بالله عند سؤال الملائكة(٣[6]) .

٢- وقال النووي: وأما تلقين الميت بعد الدفن فقد قال جماعة كثيرون من أصحابنا باستحبابه وممن نص على استحبابه القاضي حسين والمتولي والمقدسي والرافعي(٤[7]).

وقال يجوز التلقين أيضا: ابن عابدين في حاشيته والزيلعي وابن قدامة وجمهور الفقهاء خاصة المتأخرين.

مسألة قضاء الفوائت من الصلاة

أجمع أهل السنة والجماعة أتباع المذاهب الأربعة على وجوب القضاء على تارك الصلاة عمدا كما هو واجب على الناسي أو النائم وأكدوا واستدلوا بما يلي:

١- قوله صلى الله عليه وآله وسلم « فدين الله أحق بالقضاء»(٥[1]).

(١[4]) رواه مسلم (١٢١).

(٢[5]) سورة الذاريات الآية (٥٥).

(٣[6]) هامش مواهب الجليل (٢/٢٣٨).

(٤[7]) الأذكار ص (١٢٣).

(٥[1]) أخرجه البخاري (١٧٥٤ - ٦٣٢١).

فالصلاة المتروكة بأي شكل من الأشكال هي دين في ذمة تاركها وحقوق الله ألزم الحقوق وآكدها في القضاء وهذا الحديث ولو كان في الحج إلا أنه عام يبقى على عمومه ما لم يقم دليل على تخصيصه والدليل على عمومه أنه ورد هذا الحديث أيضا لمن سأله عن صوم أمه.

صح أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن أفطر في رمضان «صم يوما مكانه»([1][2]).

وصح أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن سألته: إن أمي أدركها الحج ولم تحج أفأحج عنها؟ وفي رواية: أينفعها إن حججت عنها؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم « أرأيت إن كان على امك دين فقضيته أينفعها ذلك؟ قالت : نعم قال صلى الله عليه وآله وسلم : «فدين الله أحق بالقضاء وفي رواية : بالأداء»([2][3]).

والصلاة والصوم والحج عبادات فيقاس بعضها على بعض وخصوصا الصوم والصلاة لأنهما عبادتان بدنيتان فقط، أما الحج فهو عبادة بدنية ومالية.

٢- لقد أوجب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الناسي والنائم قضاء الصلاة وقال فيما أخرجه الطبراني في الكبير (لا كفارة لها إلا ذلك) ، وهو لفظ عام يشمل تارك الصلاة مطلقا طالما أنه لم يأت نص يخصصه.

ثم إن الناسي والنائم معذوران وأوجب عليهما القضاء فكيف بتاركها عمدا إنه لا شك آكد في وجوب قضائها من الناسي والنائم مع أنه قال عنهما صلى الله عليه وآله وسلم « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان... »([3][4]) . وقال أيضا: « رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الغلام حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق»([4][5]).

([1][2]) أخرجه أبو داود (٢٣٩٣).

([2][3]) تقدم تخريجه.

([3][4]) أورده السيوطي في الجامع الصغير (٤٤٦١) ورمز لصحته.

([4][5]) أخرجه أحمد (١٠٠/٦ و ١٠١ و ١٤٤) والدارمي (١٧١/٢) وأبو داود (٤٣٩٨) والنسائي (١٥٦/٦) وابن ماجه (٢٠٤١) وصححه الحاكم ٥٩/٠٩٢ ووافقه الذهبي وأخرجه أيضا ابن الجارود في المنتقى (١٤٨).

الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عقب الأذان

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عقب الأذان سنة بلا خلاف عند جميع المسلمين لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي »([1]١). وتصح بأي صيغة كانت وينبغي السلام مع الصلاة لقوله تعالى ﴿ صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾([2]٢).

ويعتبر ذلك على ما قاله بعض الحفاظ من المحدثين الآتي بيانهم هو في حد ذاته بدعة حسنة وقد حدثت سنة (٧٨١) كما قاله ابن عابدين في حاشيته نقلا عن كتاب القول البديع في الصلاة على النبي الشفيع للإمام الحافظ السخاوي بعد أن ذكر ما يفعله المؤذنون عقب الأذان من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذكر اختلاف العلماء فيه وقال الصواب أنه بدعة حسنة.

وقد وافقه على ذلك من الحفاظ الإمام الحافظ السيوطي والحافظ ابن حجر الهيثمي عن شيخه زكريا الأنصاري ولم نعلم أن أحدا من العلماء المعتبرين أنكر عليهم ذلك وقد ذكر صاحب التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول في تعليقه على ما يستحب لسامع الأذان فقال: الصلاة بعد الأذان سنة للسامع والمؤذن ولو برفع الصوت وعليه الشافعية والحنابلة وهي بدعة حسنة كما ذكر ذلك ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار([3]٣).

وسمعت الدكتور مصطفى البغا حفظه الله تعالى يقول: حضرت في أحد المساجد في بلاد المغرب وأذن المؤذن فنظرت إليهم ولم أرَ من يحرك شفتيه بعد الأذان يصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت لهم: من منكم صلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الأذان؟ فلم يرفع يده أحد فقلت لهم: تتكرون على

([1]١) أخرجه مسلم (٣٨٤) وأبو داود (٥٢٣).

([2]٢) سورة الأحزاب الآية (٥٦).

([3]٣) كتاب الإصابة في نصرة الخلفاء الراشدين والصحابة ص (١٦١٥).

المشارقة الصلاة على النبي بعد الأذان ! فهم يصلون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يُذَكّروا الناس بالحديث (ثم صلوا علي).

مسألة الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الصلاة

فقد قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾([1]١) وأحاديث الحث على الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة تبين فضل الصلاة عليه وما يجنيه العبد جراءها من أنه يصلي الله عليه بها عشرا ويرفع بها عشر درجات ويعطيه بها عشر حسنات ويمحو عنه بها عشر سيئات وما إلى ذلك.

وقد جاءت مطلقة دون تقيدها بوقت دون وقت فهي عامة تشمل جميع الأوقات ومعلوم ان العام يعمل به في جميع جزئياته.

على أنه قد ورد الحث عليها في أوقات معينة منها عند الأذان وعند الدعاء وعند دخول المسجد وعند الخروج منه ولكن ذلك ليس بعبرة فإن تخصيص بعض أفراد العام بالذكر لا يخصص العام.

مسألة رفع اليدين في الدعاء عامة وبعد الصلاة خاصة:

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفرا)([1]٢).

وعن عمير مولى أبي اللحم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند أحجار الزيت قريبا من الزوراء يدعو رافعا كفيه قبل وجهه([2]٣).

وفي رواية اخرى عنه (مقبلا بباطن كفه إلى وجهه)([3]٤).

([1]١) سورة الأحزاب الآية (٥٦).

([1]٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥٦) وحسنه وأبو داود (١٤٨٨) والطبراني (٦١٤٨) والبغوي في شرح السنة (١٣٨٥) وابن حبان (٨٧٦).

([2]٣) أخرجه أحمد (٢٢٣/٥) والترمذي (٥٥٧) والنسائي (١٥٩/٣) وابن حبان (٨٧٨) والحاكم (٥٣٣/١) وصححه ووافقه الذهبي وأبو داود (١١٦٧).

([3]٤) أخرجه ابن حبان (٨٧٩).

وعن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن الله جل وعلا يستحي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبتين)([4]١).

وعن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه([5]٢).

(وهذه الأحاديث كلها عامة تشمل كل الأوقات) وفي مشروعية رفع اليدين أحاديث كثيرة أفردها المنذري في جزء سرد منها النووي في (الأذكار) وفي شرح المهذب جملة وعقد لها البخاري أيضا في (الأدب المفرد) (٢١٤ - ٢١٦) بابا ذكر فيه عدة أحاديث وانظر كذلك فتح الباري (١٤٢/١١ - ١٤٣) فرفع اليدين مشروع معهود بين السلف والخلف.

مسألة تحريك الأصبع في التشهد

ثبت عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة أنه كان لا يحرك السبابة حين يشير بها في تشهده منها:

١- عن سيدنا ابن الزبير رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يشير بالسبابة لا يحركها ولا يجاوز بصره إشارته([1]٣) . وفي رواية كان يشير بأصبعه إذا دعا ولا يحركها([2]٤).

٢- وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم قبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه([3]٥).

([4]١) أخرجه أحمد (٤٣٨/٥) وابن حبان (٨٨٠) والطبراني (٦١٣٠) والحاكم (٤٩٧/١) وصححه ووافقه الذهبي وجود إسناده الحافظ في الفتح (١٤٣/١١).

([5]٢) أخرجه مسلم (٨٩٥) وعلقه البخاري (٦٣٤١) وانظر تعليق التعليق (٣٩٣/٢) وأحمد (

([1]٣) أخرجه أبو داود (٩٩٠) والنسائي (١١٥٩) وأحمد (٧٢٢/٤) وقال الإمام النووي في (شرح المهذب) إسناده صحيح.

([2]٤) أخرجه أبو داود (٩٨٩).

([3]٥) أخرجه مسلم (٥٨ - ١١٥) وأبو داود (٩٨٧) والنسائي (١٢٦٧) ٣٦/٣ والبيهقي (١٣٠/٢) وأبو عوانة (٢٢٣/٢) وأحمد (٦٥/٢) ومالك في الموطأ (٨٨/١ - ٨٩).

٣- وعن سيدنا نمير الخزاعي قال: رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم واضعا ذراعه اليمنى على فخذه اليمنى رافعا إصبعه السبابة قد حناها شيئا([4]١).

٤- وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قعد في التشهد وضع يده اليمنى على ركبته اليمنى وعقد ثلاثة وخمسين وأشار بالسبابة([5]٢).

٥- وعن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى([6]٣).

فالأحاديث الثلاثة الأخيرة تدل على أن المقصود بالتحريك مجرد الإشارة دونما إدامة لتحريكها كما صرح بذلك سيدنا ابن الزبير في الحديث الأول.

وأما التحليق في فعله صلى الله عليه وآله وسلم الذي نقله عنه سيدنا وائل ابن حجر حيث قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حلق الإبهام الوسطى ورفع التي تليها يدعو بها في التشهد)([7]٤).

وفي رواية: (وقبض ثنتين وحلق ورأيته يقول هكذا وأشار بالسبابة من اليمنى وحلق الإبهام والوسطى)([8]٥).

فمعناه جعل الإبهام والوسطى على شكل حلقة والإشارة بالسبابة ولا يعني هذا تحريكها وقد قال العلماء (الحكمة من وضع اليدين على الفخذين في التشهد أن يمنعهما من العبث)([9]٦) والتحريك مناقض لهذه الحكمة.

أقوال العلماء في تحريك الأصبع في الصلاة:

([4]١) أخرجه أبو داود (٩٩١ والنسائي (٣٩/٣) وابن خزيمة(٧١٥) و (٧١٦) والبيهقي (١٣/٢).

([5]٢) أخرجه مسلم (٥٨٠ - ١١٥) وأبو عوانة في مسنده (٢٢٤/٢) والبيهقي (١٣٠/٢) والدارمي (٣٠٨/١).

([6]٣) أخرجه مسلم (٥٨٠) وأبو داود (٩٨٧).

([7]٤) أخرجه أحمد (٣١٦/٤) والنسائي (٣/ ٣٥ - ٣٦) وابن خزيمة (٦٩٧).

([8]٥) أخرجه النسائي (٣٥/٣ - ٣٦).

([9]٦) كما في شرح المهذب للإمام النووي (٤٥٥/٣).

قال الإمام النووي رضي الله عنه في فتاويه: تستحب الإشارة برفع المسبحة من اليد اليمنى عند الهمزة من قوله: إلا الله مرة واحدة ولا يحركها فلو كرر تحريكها كره ولم تبطل صلاته على الصحيح وقيل تبطل...)([10]١).

قال شيخ الحنابلة ابن قدامة المقدسي رضي الله عنه في (المغني): (ويشير بالسبابة يرفعها عند ذكر الله تعالى في تشهده لما روى عبدالله بن الزبير... وذكر حديث (لا يحركها)([11]٢).

وقال رضي الله عنه أيضا: (ويشير بأصبعه يرفعها عند ذكر الله تعالى قدر تشهده لما رويناه ولا يحركها لما روى ابن الزبير ...)([12]٣).

وقال صاحب كتاب (الروض المربع) وهو مختصر معتمد في فقه السادة الحنابلة : (ويشير بسبابته من غي تحريك في تشهده ودعائه في الصلاة وغيرها عند ذكر الله تعالى تنبيها على التوحيد)([13]٤).

واما حديث سيدنا وائل بن حجر رضي الله عنه الذي ذكر فيه وضع اليدين في التشهد ثم قال: (ثم رفع أصبعه فرأيته يحركها ويدعو بها)([14]٥)، فهو حديث صحيح إلا أن لفظة (يحركها) شاذة غير صحيحة فقد انفرد بها زائدة بن قدامة وهو ثقة ولكنه خالف بها طريق أحد عشر ثقة ممن رووه من غير ذكر هذه الزيادة، وقد قال الإمام البيقوني في منظومته:

وما يخالف ثقة به الملا	فالشاذ والمقلوب قسمان تلا

وقال الإمام ابن خزيمة في صحيحه عن ذكر الحديث:

(ليس في شيء من الأخبار (يحركها) إلا في هذا الخبر زائد ذكرها)([15]٦) والأحد عشر ثقة الذين رووا الحديث دون زيادة (يحركها) هم:

([10]١) الفتاوى ص ٥٤.

([11]٢) المغني (٥٣٤/١).

([12]٣) المغني (٤٦٦/١).

([13]٤) الروض المربع (٥٩/١).

([14]٥) أخرجه أحمد (٣١٨/٤) وابن خزيمة (٧١٤) والبيهقي (١٣٢/٢) وابن حبان (٤٨٥).

([15]٦) صحيح ابن خزيمة (٣٥٤/١).

١- أبو عوانة اليشكري.

٢- أبو الأحوص سلام بن سليم.

٣- بشر بن المفضل.

٤- خالد بن عبدالله الطحان.

٥- زهير بن معاوية.

٦- سفيان الثوري.

٧- سفيان بن عيينة.

٨- شعبة بن الحجاج.

٩- عبدالله بن إدريس.

١٠- عبدالواحد بن زياد.

١١- غيلان بن جامع.

ثم إن سلمنا عدم الشذوذ فقد وقع تعارض بين حديث سيدنا ابن الزبير وحديث سيدنا وائل رضي الله عنهما وأهل الأصول يوجبون الجمع بينهما إن أمكن فقد قالوا:

فالجمع بينما تعارضا هنا	في الأولين واجب إن أمكنا

وقد قال الإمام البيهقي في حديث سيدنا وائل بن حجر: (يحتمل أن يكون المراد بالتحريك الإشارة بها لا دوام أو تكرير تحريكها موافقة لرواية ابن الزبير بعد التحريك)([16]١).

وقال الشيخ سلام الله في شرح موطأ الإمام مالك بعد ذكر حيث سيدنا وائل: (... ففيه تحريك السبابة عند الرفع وبه أخذ مالك والجمهور على أن المراد بالتحريك ههنا هو الرفع فلا يعارضه ما في أبي داود عن ابن الزبير (كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشير بأصبعه إذا دعا لا يحركها)([17]٢) والله الهادي إلى سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين

([16]١) سنن البيهقي (١٣٢/٢).

([17]٢) عون المعبود (٤٥٥/٣).

صلاة التراويح

صلاة التراويح هي قيام الليل في شهر رمضان المبارك وهي سنة صلاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة منفردين كل على حدة وصلوها جماعة.

فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ، ثم اجتمعوا في الليلة الثالثة فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما أصبح قال: « قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج اليكم إلا أني قد خشيت أن تفرض عليكم»([1]١). فلما علم الصحابة رضي الله عنهم أن مقصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه يخشى أن تفرض عليهم دون أن يكون فيها أي مخالفة شرعية عادوا إلى المسجد واصبحوا يصلونها فيه بعضهم يصلي منفردا وبعضهم يصلي بجماعة وبقي العمل على هذا حتى جاء عهد سيدنا عمر رضي الله عنه فدخل عليهم المسجد فوجدهم قد كثروا وأصبح المسجد مكتظا بالصحابة والتابعين وكل يصلي على حدة أو بجماعة مع صاحب له فنظر إليهم نظرة متبصر بحالهم نظرة باحث عن الطريقة الأمثل لتأمين كامل الخشوع لهم فقرر أن يجمعهم على قارئ واحد فجمعهم على سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه كما يروي لنا سيدنا عبدالرحمن بن عبد القاري فيقول: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر رضي الله عنه : إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة اخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال عمر : (نعمت البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون يريد آخر الليل وكان الناس يقومون أوله)([2]٢).

([1]١) أخرجه البخاري بلفظ قريب (٢٠١٢) وأبو داود (١٣٧٣).

([2]٢) أخرجه البخاري (٢٠١٠).

فلم ينكر عليه احد من الصحابة رضي الله عنهم ولم يثبت ذلك عنهم أبدا لأنهم علموا أنه ليس في فعله مخالفة للسنة فإن سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عندما انقطع عن الخروج إليهم في رمضان إنما كان ذلك خشية افتراض القيام عليهم، والآن قد انتقل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحياة البرزخية وتوقف نزول الأحكام فلم يعد ثمة أي مانع من اجتماعهم على إمام واحد وصلاتهم جماعة في المسجد لاسيما أنه أكمل في الخشوع وأكثر ثوابا من الصلاة منفردين ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»([3]١).

ويقول أيضا: « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »([4]٢).

فكثر سيدنا عمر رضي الله عنه الركعات وخفف القراءة بقدر ما زاد من الركعات لأنه أخف على المأموم من تطويل الركعة الواحدة وعندما قال رضي الله عنه : (نعمت البدعة هذه) إنما قصد بها القيام في بداية الليل لا كما كان صلى الله عليه وآله وسلم يقوم في أوسطه أو آخره ودل على ذلك قول سيدنا عمر في الحديث نفسه: (والتي ينامون عنها يقصد قيام آخر الليل أفضل من التي يقومون) وأيضا تفسير راوي الحديث سيدنا عبدالرحمن رضي الله عنه لها بذلك وهو أعلم بما يقوله.

وقد كانت طائفة من السلف الصالح يقومون بأربعين ركعة ويوترون بثلاث وآخرون بست وثلاثين ويوترون بثلاث وغير ذلك كما سيمر معنا إن شاء الله .

والأدلة على ذلك هي:

عن يزيد بن رومان قال: (كان الناس في زمن عمر يقومون في رمضان بثلاث وعشرين ركعة). قال الشوكاني: قال ابن إسحاق وهذا أثبت ما سمعت في ذلك([5]٣).

وعن سيدنا السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: (كانوا يقومون على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شهر رمضان بعشرين ركعة وكانوا يقومون بالمئتين وكانوا يتوكؤون على عصيهم في عهد عثمان من شدة القيام)([6]١).

([3]١) أخرجه أحمد (١٢٦/٤) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣).

([4]٢) أخرجه أحمد (٣٨٢/٥) والترمذي (٣٦٦٢) وقال حديث حسن وابن ماجه (٩٧).

([5]٣) أخرجه مالك في الموطأ ص (١٠٦).

وأخرج المروزي عن زيد بن وهب أنه قال: (كان عبدالله بن مسعود يصلي لنا في شهر رمضان فينصرف وعليه ليل) قال الأعمش : (كان يصلي عشرين ركعة يوتر بثلاث).

وكذلك عن داود بن قيس أنه قال: (أدركت الناس في إمارة أبان بن عثمان وعمر بن عبدالعزيز يعني بالمدينة يقومون بست وثلاثين ركعة ويوترون بثلاث).

وعن نافع قال: (لم أدرك الناس إلا وهم يصلون تسعا وثلاثين ويوترون منها بثلاث).

ونقل الحافظ ابن حجر أن مالكا قال: (الأمر عندنا بتسع وثلاثين وبمكة بثلاث وعشرين وليس في شيء من ذلك ضيق).

ونقل عنه أيضا قوله: (أنها بست وأربعين وثلاث وتر).

وعن زرارة بن أوفى أنه كان يصلي بهم في البصرة أربعا وثلاثين ويوتر بثلاث وعن سيدنا سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه أربعا وعشرين.

وعن إسحاق بن منصور قال: قلت لأحمد بن حنبل: كم ركعة يصلى في قيام شهر رمضان؟ فقال: (قد قيل ألوان نحو أربعين وإنما هو تطوع).

وقال الترمذي: أكثر ما قيل أنه يصلي إحدى وأربعين مع الوتر.

بناء على ذلك تعددت مذاهب الأئمة الأربعة وفقهائهم في عددها إلى المذاهب التالية:

ذهب الشافعية والأحناف والحنابلة إلى أنها عشرون ركعة بعشر تسليمات آخذين بما صح عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم صلوها في عهد عمر وعثمان وعلي عشرين ركعة وقال به ايضا صاحب كتاب فقه السنة ونقل أنه مذهب داود الظاهري.

وقال الترمذي: (وأكثر أهل العلم على ما روي عن عمر وعلي وغيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قول النووي وابن المبارك).

وقال الإمام الشافعي: (هكذا أدركنا الناس بمكة يصلون عشرين ركعة)([7]٢).

([6]١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/٤٩٦) وممن صححه العيني والقسطلاني في شرحيهما لصحيح البخاري والسبكي في شرح المنهاج والكمال بن الهمـــام في شرح الهداية والعراقي في شرح التقريب والإمام النووي في المجموع.

([7]٢) فقه السنة (٢/٥٤) والترمذي (٣/١٧٠).

وذهب الإمام مالك: إلى أنها ست وأربعون عدا الوتر، كما نقله الحافظ ابن حجر في (الفتح) وقال: هذا المشهور عنه.

وروي عنه أيضا أنه قال: (الأمر عندنا بتسع وثلاثين) أي التراويح ست وثلاثون وثلاثة للوتر.

فنستنتج مما مضى من حياة السلف الصالح والصحابة وأتباعهم أن عدد الركعات في صلاة التراويح غير محدد وقد قال الشيخ ابن تيمية الحنبلي (اعلم أنه لم يوقت رسول صلى الله عليه وآله وسلم في التراويح عددا معينا ومن ظن أن قيام رمضان فيه عدد معين مؤقت من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يزيد ولا ينقص فقد أخطأ)([8]١).

وقال الشوكاني في نيل الأوطار: (فقصر الصلاة المسماة بالتراويح على عدد معين ، وتخصيصها بقراءة مخصوصة لم يرد به سنة)([9]٢).

وأما ما ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر ركعة)([10]٣). فكانت تقصد فيه ركعات الوتر وليس التراويح.

فقد قالت : (ولا في غيره) وفي غير رمضان لا يوجد صلاة للتراويح أما صلاة الوتر فمشتركة بين رمضان وغيره.

وقد قال الإمام الترمذي: (روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الوتر بثلاث عشرة وإحدى عشر وتسع وسبع وخمس وثلاث وواحدة) فإذا كان وتره في غير رمضان بإحدى عشر أو ثلاث عشرة ركعة فهل يعقل أن يوتر في شهر العبادة والقيام بثلاث فقط؟! على القول بأن ثماني ركعات للتراويح وثلاث ركعات للوتر هذا بعيد جدا.

ثم إن قلنا إن المقصود من كل منها صلاة التراويح والوتر معه، يصبح للتراويح عدد ركعات معين ثابت وهو ثمان ركعات ، وهذا يتنافى مع ما مر معنا من عمل

([8]١) ذكره ملا علي القاري في شرحه مشكاة المصابيح ص (١٧٥).

([9]٢) نيل الأوطار (٥٣/٣).

([10]٣) أخرجه البخاري (١٠٩٦) ومسلم (٧٣٨) وأبو داود (١٣٤١) والنسائي (١٦٩٦) والترمذي (٤٣٩) ومالك في الموطأ (١١٤/١).

الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يصلونها عشرين ركعة حتى عهد الإمام مالك والإمام الشافعي وهل يعقل أن تعلم السيدة عائشة بصلاتهم عشرين ركعة ثم تسكت عنهم إذا كان فعلهم مخالفا لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!! هذا والله بعيد جدا وكما هو معلوم أن عدد صلاة التراويح في البيت الحرام عشرون ركعة ولا ينكر هذا العدد احد من العلماء المعتبرين فنسأل الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي في رمضان عشرين ركعة والوتر([11]١).

ويقوي هذا الحديث أن الصحابة جميعا فمن بعدهم من السلف الصالح اتفقوا على العمل بله.

وعن السائب بن يزيد: أن عمر جمع الناس في رمضان على أبي بن كعب وتميم الداري على إحدى وعشرين ركعة([12]٢).

وعن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد الأنصاري: أن عمر بن الخطاب أمر رجلا يصلي بهم عشرين ركعة([13]٣).

وقال ابن قدامة المقدسي بعد أن نقل صلاة التراويح بعشرين ركعة عن عمر وعلي قال: وهذا كالإجماع([14]٤).

وقال ابن تيمية : قد ثبت أن أبي بن كعب كان يقوم بالناس عشرين ركعة في قيام رمضان ويوتر بثلاث فرأى كثير من العلماء أن ذلك هو السنة لأنه إقامة بين المهاجرين والأنصار ولم ينكر منكر، وهذه هي صورة الإجماع([15]٥).

والنتيجة: أن الصحابة قد اتفقوا على صلاة التراويح عشرين ركعة وتبعهم على ذلك التابعون فمن بعدهم ولم يخالفهم أحد من السلف الصالح إلا في زيادة العدد على العشرين.

([11]١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٩٤/٢).

([12]٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٧٧٣٠) .

([13]٣) المغني لابن قدامة (٧٩٩/١).

([14]٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٩٣/٢).

([15]٥) الفتاوى لابن تيمية (١١٢/٢٣).

مسألة بناء المساجد على القبور

قال الشيخ عبدالله بن الصديق الغماري في كتاب اتقان الصنعة:

استدل الذين قالوا بكراهة بناء المساجد على القبر بحديث : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)([1]).

والحديث صحيح ولكن الاستدلال به غير صحيح لأمور:

٢- أن معنى اتخاذ القبور مساجد : الصلاة اليها تعبدا أو السجود لها.

٣- إن عائشة لما روت قوله صلى الله عليه وآله وسلم أعقبته بقولها: (ولولا ذلك لأبرزوا قبره ، غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا).

٤- قال الحافظ في الفتح : قولها لأبرزوا أي لكشف قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يتخذ عليه الحائل والمراد الدفن خارج بيته.

بقي أمر لابد أن ننبه عليه وهو: إذا كان مسجد مبنيا ثم دفن فيه ميت أو أدخل فيه قبر فلا يدخله الخلاف في بناء المسجد على القبر لأنه لم يبن عليه والدليل على ذلك أمور:

١- استشارة سيدنا أبي بكر للصحابة الكرام في اختيار موضع دفنه عليه الصلاة والسلام فقال بعضهم : عند المنبر وقال بعضهم حيث كان يصلي يؤم الناس.

فهؤلاء الصحابة لم يشيروا بدفنه صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الأماكن إلا لعلمهم بأن هذا لا يشمله بناء مسجد على قبره وهؤلاء هم أصحابه الكرام.

٢- أن القبر الشريف أدخل في المسجد النبوي في عهد الوليد بن عبدالملك على يد عمر بن عبدالعزيز ولم يغير ذلك خلفاء بني العباس ولا أرشدهم أحد إليه مع كثرة من زار المسجد النبوي من الأئمة والحفاظ والفقهاء والزهاد وغيرهم وكان الإمام مالك زار المسجد النبوي من الأئمة والحفاظ والفقهاء والزهاد وغيرهم وكان الإمام مالك مسموع الكلمة عند المنصور ولو أشار عليه بإقامته حاجز بين

([1]) أخرجه البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠) وأبو داود (٣٢٢٧) وأحمد (٢/٢٨٤) والبيهقي (٤/٨٠) وابن حبان (٢٣٢٦).

القبر والمسجد لفعله وما ذاك إلا لأن إدخال قبر في مسجد ليس كبناء المسجد عليه وهو في المسجد النبوي إجماع من الأمة بجميع طبقاتها وامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تجتمع على ضلالة .

ومما يستأنس به في هذا الباب حكاية الله عز وجل لقول الذين اكتشفوا أهل الكهف وقالوا: ﴿ لنتخذن عليهم مسجدا﴾[١][2] وهم مسلمون كما قال ابن عباس فذكر الله جل جلاله قولهم ولم ينكر عليهم.

والآن وبعد جميع ما ذكر من صور إحداث الصحابة رضي الله عنهم لأمور في زمن النبوة وبعدها لم تكن موجودة في عهد النبوة وأنها من باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ...)[٢][3].

نستطيع أن نصل إلى قاعدة نجعلها أساسا لنا خلال مسيرتنا في هذه الحياة لنكون دعاة إلى جمع شتات المسلمين ألا وهي (ليس كل جديد بدعة) لأن الحياة ما تزال تتحول بأصحابها من حال إلى حال ومن طور إلى طور وهذه سنة الله تعالى في الكون فلا مطمع في إمكان التغلب عليها وربطها بمسمار من الثبات والجمود على حالة واحدة على مر الأزمنة والعصور وكانت هذه التطورات موجودة في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان يرحب بسنة الحياة إذا لم تكن مخالفة لقواعد الشريعة.

فالبدعة بمعناها الشرعي هي التي يجب الابتعاد عنها والتحذير من الوقوع فيها، وأصل ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٣][4] وليس المقصود منها معناها اللغوي وهو ما تعارف عليه الناس بأنه كل جديد طارئ على حياة المسلم مما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أصحابه الكرام ولم يكن معروفا لديهم .إذ لو كان المقصود من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، المعنى اللغوي إذا لكان المسلمون اليوم كلهم يعانون من ضلالات لا مفر لهم منها ويتقلبون في بحار من البدع أينما حلوا وأينما سكنوا أبنية بيوتهم وموائدهم وطراز ثيابهم

([2]١) سورة الكهف الآية (٢١).

([3]٢) تقدم تخريجه.

([4]٣) تقدم تخريجه.

والأساليب التي تنهض عليها أنشطتهم الثقافية والعلمية والاجتماعية طامات متراكمة بدات بعد عصر الصحابة إلى يومنا هذا ولا مطمع في إمكانية التغلب عليها!! فلا يعقل إذا أن يكون المقصود من البدعة هو المعنى اللغوي.

على أننا بعد هذا كله لابد لنا أن نتذكر قول إبراهيم النخعي التابعي: (كانوا يكرهون اشياء لا يحرمونها) وكذلك كان مالك والشافعي وأحمد كانوا يتوقون إطلاق لفظ الحرام على ما لم يتيقن تحريمه لنوع شبهة فيه أو اختلاف أو نحو ذلك بل كان أحدهم يقول (أكره كذا) لا يزيد على ذلك ويقول الإمام الشافعي تارة : أخشى أن يكون حراما ولا يجزم بالتحريم.

يخاف أحدهم إذا جزم بالتحريم أن يشمله قول الله تعالى ﴿ لا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾([5]١) فمن نحن أمام الإمام الشافعي والإمام أحمد وأئمة السلف الصالح؟!!

هل بلغنا من العلم القدر الذي فقناهم فيه حتى يجوز لنا أن نسارع بالتحريم والتحليل من ذات أنفسنا؟!! اللهم اهدنا سواء السبيل والحمد لله رب العالمين.

التأويل عند السلف الصالح وإثبات المجاز

إن عدول هذه الأمة من الأئمة الثقات أصحاب القرون الأولى المسمين بالسلف المشهود لهم بالخيرية([1]٢)، وكل من نحى نحوهم إلى يومنا هذا كلهم قد أثبتوا التأويل بل أولوا كثيرا من النصوص المتعلقة بتوحيد الله وصفاته وأجمعوا على أن الظاهر من النصوص المشكلة ليس هو المراد على الحقيقة تطبيقا لقوله تعالى ﴿

([5]١) سورة النحل الآية (١١٦).

([1]٢) وذلك بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٦٤١٩) والترمذي (٣٨٥٩) وابن ماجه (٢٣٦٢) .

ليس كمثله شيء ﴾([2]١) وهم بحملهم النص على غير مراده الظاهر لم يبتدعوا أمرا محدثا إنما تعلموه من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وإليك الأدلة على ذلك:

١- قال تعالى ﴿ إنا نسيناكم﴾([3]٢) وقال أيضا : ﴿ نسوا الله فأنساهم﴾([4]٣) حيث ورد لفظ النسيان في هاتين الآيتين منسوبا إلى الله عز وجل ورغم هذا هل نستطيع أن ننسب إلى الله صفة النسيان أو نقول: (له نسيان لا كنسياننا)؟ وهو جل جلاله يقول: ﴿ وما كان ربك نسيا﴾([5]٤) قياسا على قولها (له سمع لا كسمعنا أو له بصر لا كبصرنا)؟!.

الجواب: أن هذا خطأ لا يجوز، لأن المراد من قولنا: (له سمع لا كسمعنا) أن نثبت له صفة السمع وننزهه في نفس الآونة من آلة السمع ألا وهي الأذن وذلك بأن نفوض علم الطريقة التي يسمع بها إليه جل جلاله وكذلك الأمر في البصر وفي كل الصفات التي أثبتها هو جل جلاله لذاته العلية، أما صفة النسيان فليست من صفاته وهي صفة نقص في حقه فلا تقاس على السمع والبصر.

٢- عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى قال: « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ....»([6]٥) الحديث.

وقال الإمام النووي : (قال العلماء إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفا للعبد وتقريبا له قالوا: ومعنى وجدتني عنده: أي وجدت ثوابي وكرامتي...) أهـ فتأمل . فلا يجوز لنا إذا إأن نثبت لله صفة المرض مع أن ظاهر الحديث يشير اليها، لأن ذلك يخالف العقيدة السليمة.

([2]١) سورة الشورى الآية (١١).

([3]٢) سورة السجدة الآية (١٤).

([4]٣) سورة التوبة الآية (٦٧).

([5]٤) سورة مريم الآية (٦٤).

([6]٥) أخرجه مسلم (٢٥٩٦) والبخاري في الأدب (٥١٧) وابن حبان (٢٦٩).

وإليك الآن نبذة من تأويل أولئك الرعيل الأول من السلف الصالح أهل القرون الأولى منهم سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»([7]١) وقد نقلت عنه تأويلات كثيرة بمسألة الصفات نذكر منها:

٣- ما قاله في قوله تعالى ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾([8]٢). وأن النسيان بمعنى الترك (أي ففي هذا اليوم – ذلك يوم القيامة – ننساهم يقول نتركهم في العذاب) قال الطبري في تفسيره: (ونقل ذلك بأسانيده عن ابن عباس ومجاهد)([9]٣).

٤- قال تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق﴾([10]٤).

قال ابن عباس : (يكشف عن شدة) مؤولا الساق بالشدة وكذلك اوله غيره من الصحابة والتابعين أمثال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم([11]٥).

٥- قال تعالى ﴿ السماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾([12]٦).

قال ابن عباس: (بقوة)([13]٧) ولفظة (أيد) تستعمل مجازا في معان كثيرة منها (القوة) كما مر، ومنها (التفضيل والإنعام) كقوله تعالى ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾([14]٨).

ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه .

([7]١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٥٨٧) وفي الأوسط (١٤٤٤) وأحمد (٢٦٦/١) والفسوي (٤٩٤/١) في المعرفة والتاريخ وإسناده صحيح على شرط مسلم والبزار (٢٦٧٤).

([8]٢) سورة الأعراف الآية (٥١).

([9]٣) تفسير الحافظ ابن جرير الطبري المجلد الخامس (٢٠١/٨).

([10]٤) سورة القلم الآية (٤٢).

([11]٥) فتح الباري (٤٢٨/١٣) وتفسي الإمام الطبري (٢٩/ ٣٨).

([12]٦) سورة الذاريات الآية (٤٧).

([13]٧) تفسير الحافظ الطبري (٢٧/٧).

([14]٨) سورة ص الآية (١٧).

٦- قال تعالى ﴿ وجاء ربك ﴾([15]١) قال الإمام أحمد رضي الله عنه : (جاء ثوابه)([16]٢).

قال ابن كثير : (وكلامه – أي الإمام أحمد- في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أصحابه)([17]٣).

٧- وروى الخلال عن حنبل عن عمه الإمام أحمد بن حنبل انه سمعه يقول: (احتجوا علي يوم المناظرة فقالوا تجيء يوم القيامة سورة البقرة ...) الحديث. قال: فقلت لهم : إنما هو الثواب). فهذا تأويل صريح منه رضي الله عنه .

٨- ومنهم الإمام البخاري رضي الله عنه : فقد أول الضحك في حديث « يضحك الله من رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة »([18]٤). بمعنى (الرحمة)([19]٥).

٩- ومنهم الإمام الطبري في تفسيره مما أوله هو بكلامه، فقد قال في قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾([20]٦) ، ما نصه (والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله : ﴿ ثم استوى إلى السماء﴾ الذي هو بمعنى : العلو والارتفاع فيقال له: أي للمنكر زعمت أن تأويل قوله (استوى) أقبل أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ولكنه إقبال تدبير ، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها علو ملك وسلطان لا علو انتقال وزوال([21]٧).

([15]١) سورة الفجر الآية (٢٢).

([16]٢) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٣٢٧/١٠) ناقلا إياه عن الإمام البيهقي في كتاب (مناقب الإمام أحمد) الذي قال فيه: هذا إسناد لا غبار عليه.

([17]٣) البداية والنهاية (٣٢٧/١٠).

([18]٤) أخرجه البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (٤٨٦٩) ومالك (٢/ ٤٦٠) في الموطأ والنسائي (٣١٦٦) وابن ماجه (١٩١).

([19]٥) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (٤٧٠).

([20]٦) سورة البقرة الآية (٢٩).

([21]٧) التفسير (١٩٢/١).

١٠- ومنهم الحافظ ابن حجر ، فقد قال: (ولا يلزم من كون جهتي العلو والسفل محال على الله أن لا يوصف بالعلو لأن وصفه بالعلو من جهة المعنى والمستحيل كون ذلك من جهة الحس)([22]١).

ويحسن بنا هنا ان نتطرق لموقف السلف الصالح من النصوص التي استدل بها المجسمون على إثبات الجهة لله تعالى :

- قال تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾([23]٢).
- و قال تعالى ﴿ ويخافون ربهم من فوقهم ﴾([24]٣).
- و قال تعالى ﴿ وهو العلي الكبير ﴾([25]٤).
- و قال تعالى ﴿سبح اسم ربك الأعلى ﴾([26]٥).
- و قال تعالى ﴿ أم أمنتم من في السماء﴾([27]٦).
- و قال تعالى ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾([28]٧).

هذه النصوص مر عليها السلف الصالح على الحالة التي وردت فيها بدون تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه مع إيمانهم بأن الله تعالى متصف بصفات الكمال ومنزه عن الشرك والشبيه والمثال.

وقد لخص ابن كثير رضي الله عنه مذهب السلف بقوله: (إنما مذهب السلف الصالح في هذا المقام: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا) هو إمرارها كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن

([22]١) فتح الباري (١٣٦/٦).

([23]٢) سورة الأنعام الاية (١٨).

([24]٣) سورة النحل الآية (٥٠).

([25]٤) سورة سبأ الآية (٢٣).

([26]٥) سورة العلى الآية (١).

([27]٦) سورة الملك الآية (١٧).

([28]٧) سورة الأعراف الآية (٢٠٦).

الله فـإن الله لا يشـبهه شـيء مـن خلقـه ﴿ لـيس كمثلـه شـيء وهـو السـميع البصير﴾([29]١).

بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم:

نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال: (من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحية على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك الهدى)أهـ.

وأما معنى الفوقية في النصوص التي استدلوا بظواهرها: فإن النصوص المشتملة على لفظ (فوق) كقوله تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾([30]٢) وغيرها.

إذا قرأنا ما قبلها وما بعدها ونظرنا اليها بتمعن نرى أن جوها جو تهديد ومناسبتها مناسبة بيان سلطة الله تعالى وعظمة سيطرته على مخلوقاته.

وأن كلمات العربية جميعها لا تعبر عن هذا الجو وتلك المناسبة كما تعبر عنها كلمة فوق التي تزيد السيطرة قوة والتسلط عظمة ولذا جاء بها القرآن لكونها أفصح كلمة عربية معبرة عن المراد ومناسبة للمقام فيكون معنى لفظ (فوق) هنا في هذه النصوص: السيطة والتسلط بصورة كاملة وتامة عقلا ونقلا فهو محال عقلا: لأن إثبات الجهة والحيز لله تعالى تشبيه له بمخلوقاته لأن المخلوقات تختص بجهة وحيز وتشبيه الله تعالى بالمخلوقات نقص في حقه تعالى وهو منزه عن النقص ومنزه عن التشبيه قطعا.

ومحال نقلا: لأن إثبات الجهة والحيز له تعالى شأنه مخالف لقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾([31]٣). وإثبات الجهة والحيز لله تعالى إثبات لوجود مثيل له في شغل الجهة والحيز والله قد نفى المثيل له فبطل القول بالجهة.

([29]١) سورة الشورى الآية (١١).

([30]٢) سورة الأنعام الآية (١٨).

([31]٣) سورة الشورى الآية (١١).

ثم لو تأملنا قوله تعالى في الآية الكريمة نفسها : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ مع قول فرعون ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾([32]١) فهل نفهم أن فرعون ادعى أنه فوق بني إسرائيل بالجهة!!.

ولما ادعى الربوبية قال، أنا ربكم الأعلى وقد قال تعالى لسيدنا موسى ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى﴾([33]٢). من ادعى الجهة كان فهمه مثل فهم فرعون حيث اعتقد الجهة لله تعالى وقال: ﴿ قال يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى ﴾([34]٣) فرد الله عليه وسحقت عقيدته بقوله تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾([35]٤) أي سبيل القرب إلى إله موسى لأنه نسب إليه ما هو منزه عنه وهو الجهة والمكان.

أما النصوص المشتملة على العندية والعلو فالمراد بها التعبير عن القدرة والقهر والانتصار الكامل والدائم ومما يؤيد ذلك قوله تعالى لموسى ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾([36]٥) ولم يكن موسى فوق السحرة في المكان وإنما كان فوقهم معنويا حيث قهرهم وانتصر عليهم بإذن الله تعالى ويؤيده أيضا قوله تعالى ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ﴾([37]٦) أي أنتم المنتصرون بالقدرة التي أمدكم الله تعالى بها وكذلك لا يجوز تفسير العلو في الآيات التي يستدل بها المجسمون بالجهة لأن في ذلك تشبيه الله تعالى بخلقه وهو مردود لقوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾([38]٧).

وأمثاله من النصوص المعارضة لفهمهم التجسيمي .

([32]١) سورة الأعراف الآية (١٢٧).

([33]٢) سورة طه الآية (٦٨).

([34]٣) سورة غافر الآية (٣٦- ٣٧).

([35]٤) سورة غافر الآية (٣٧).

([36]٥) سورة طه الآية (٦٨).

([37]٦) سورة آل عمران الآية (١٣٩).

([38]٧) سورة الحديد الآية (٣).

وأما عبارات الصعود والعروج والرفع والتنزيل فهي عبارات بعضها متعلق بالملائكة وهي تتصف بهذه الحركات وبعضها الآخر عبارات مجازية استعملت للدلالة على القبول أو للدلالة على المكانة الرفيعة معنويا لا مكانيا كقول القائل: رفعت المديرية كتابا إلى الوزارة . فلا يعني القائل أن الوزارة فوق المديرية مكانيا وإنما يعني أن مقام الوزارة أعلى معنويا بالنسبة للمديرية.

ولا يجوز حمل هذه العبارات على ظاهرها في حقه تعالى لأنه يثبت له الجهة والحيز وهو محال عقلا ونقلا كما قدمنا ، وكذلك مخالف لآيات عديدة منها قوله تعالى ﴿ ونحن اقرب إليه من حبل الوريد﴾([39]١)، وقوله تعالى ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾([40]٢)، وقوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾([41]٣)، فكيف يكون في جهة العلو (على زعمهم) ثم يكون مع الثلاثة والخمسة (كما يقول هو)؟! أو يكون مع المخلوقات أينما كانوا؟! أو يكون أقرب إليهم من حبل الوريد المتصل بقلوبهم؟! فأيهما تأخذ: ما يزعمونه من الجهة المحالة عقلا ونقلا والمخالفة للنصوص أم ما يقوله تعالى عن نفسه؟! وأما النصنص التي فهموا منها أن الله تعالى في السماء كقوله تعالى ﴿ أم أمنتم من في السماء﴾([42]٤) ، وغيره فهي تخبر عن أعمال الملائكة الموجودين في السماء وهي تتعلق بالملائكة لأنهم في السماء فيكون معنى قوله تعالى ﴿ ءأمنتم من في السماء ﴾ هل أمن الكفار العذاب الذي تأتي به الملائكة الموجودون في السماء.

ولا يجوز أن يقال إن الله في السماء لأن السماء سبع سماوات ففي أيهن هو؟

وقال تعالى ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾([43]٥) يعني إذا كان الله في السماء السماء فهذا يعني أن الكرسي أكبر من الله والعياذ بالله ... لأن الكرسي أكبر من السماوات والأرض.

([39]١) سورة ق الآية (١٦).

([40]٢) سورة الحديد الآية (٤).

([41]٣) سورة المجادلة الآية (٧).

([42]٤) سورة الملك الآية (١٧).

([43]٥) سورة البقرة الآية (٢٥٥).

وإذا كان الله في السماء وهي محيطة به إذن فهو اصغر منها والعياذ بالله وإذا كان الله في السماء ففي أي سماء؟! وقبل أن يخلق السماء أين كان؟! وكيف يخلق السماء ويحتاج اليها؟! وهل إذا صعدنا إلى السماء نجد الله عز وجل فيها؟!! تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا.

وقوله تعالى ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾([44]١) فمن الذي يطوي هل يطوي نفسه؟! وقوله تعالى ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾([45]٢) فأين يكون الله عز وجل يومها...؟ إن هذا لشيء عجاب !! ثم إذا خرج منها فهذا يعني أنه يتحرك ويدخل السماء ويخرج منها وهذا محال في حقه عز وجل.

فإن قالوا: السماء من السمو وهو العلو وكل ما علاك فهو سماء والله تعالى فوق السماوات السبع على عرشه قلنا: بطل استدلالك بهذه النصوص لأنها تدل على أنه (على زعمكم) في السماء أي داخلها وأنتم تقولون إنه فوقها على العرش.

وكذلك نقول لهم : إن قولكم إن الله على العرش يلزم منه أن يكون عرشه أكبر منه فيكون قد عرف حجم الله تعالى وأنه جل جلاله أصغر من العرش! والعياذ بالله نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل.

ومما تقدم تبين أم المعاني التي فهموها من هذه النصوص وأثبتوا بها لله تعالى الجهة والحيز غير مناسبة لجلاله تعالى وهي مردودة عقلا ونقلا ومخالفة للآيات والنصوص المحكمة وإنما معناها الصحيح ما ذكرناه فقط.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تعارض ما أثبتوه من الجهة لله تعالى وتنفي هذه المعاني المجسمة وإليك بعضا منها:

قوله تعالى ﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾([46]٣).

فلو كان فوق عرشه كما يقول المجسمون كيف يخبر عن نفسه انه في السماوات وفي الأرض ثم لماذا يقولن إنه في السماء ولا يقولون إنه في الأرض ؟!

([44]١) سورة الأنبياء الآية (١٠٤).

([45]٢) سورة الزمر الآية (٦٧).

([46]٣) سورة الأنعام الآية (٣).

وقوله تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط﴾([47]١) فلو كان في جهة الفوق والعلو فقط (كما يزعم المجسمون) فكيف يكون وراء المخلوقات ومحيطا بهم.

وقوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾([48]٢) فلو كان جالسا على عرشه فكيف يكون ظاهرا وباطنا؟!

وقوله تعالى ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾([49]٣) ، وقوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم﴾([50]٤) وقوله تعالى ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾([51]٥).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء »([52]٦).

فلو كان الله على عرشه (على زعم المجسمين) فكيف يكون العبد على حالة سجوده أقرب ما يكون من ربه؟ وهل السجود إلا على الأرض؟ وهل هو إلا اتجاه نحو الأسفل؟ مما يؤكد خطأ فهمهم لظواهر النصوص التي استدلوا بها على إثبات جهة العلو والفوقية لله تعالى ونسبوا له الحد والحيز جهلا.

ثم قولنا دائما بعد لفظ الجلالة كلمة (تعالى) هل هو إلا تنزيه مستمر له جل جلاله عن كل نقص وتشبيه وعن كل ما يخطر في عقولنا القاصرة.

وفي هذا القدر من الايات المعارضة لمذهبهم في الجهة كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع للبراهين والتفسير المناسب لجلاله تعالى وهو شهيد لكمال الله تعالى المطلق وتنزيهه عن الشبيه والمثال([53]٧).

([47]١) سورة البروج الآية (٢٠).

([48]٢) سورة الحديد الآية (٤).

([49]٣) سورة ق الآية (١٦).

([50]٤) سورة الحديد الآية (٤).

([51]٥) سورة المجادلة الآية (٧).

([52]٦) رواه مسلم (٤٩/٢) وأبو داود (٨٧٥) والنسائي (٢٢٦/٢) وأحمد (٤٢١/١).

([53]٧) الميزان العادل بتصرف وزيادة.

١١- ومنهم الإمام النووي كما مر في بداية البحث عند الكلام عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه عز وجل قال: « ابن آدم مرضت فلم تعدني ..»([54]١) الحديث.

١٢- ومنهم الإمام سفيان بن عيينة رضي الله عنه : فقد أول حديث « لآخر وطأة وطئها الرحمن بوجٍ»([55]٢) فقال: آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الطائف.

١٣- ومنهم الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه : فقد سأله معدان عن قوله تعالى ﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾([56]٣) فقال: بعلمه.

١٤- ومنهم الإمام الترمذي رضي الله عنه : فقد ذكر في سننه بعد حديث الرؤية الطويل الذي فيه : (فيعرفهم نفسه)([57]٤) قال: (ومعنى قوله في الحديث: فيعرفهم نفسه يعني يتجلى لهم)([58]٥).

١٥- ومنهم الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: فقد قال في حديث نزول الله تعالى : « ينزل ربنا تبارك وتعالى أي أمره»([59]٦).

١٦- ومنهم الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه في كتاب : (الإبانة) وكتابه (رسالة أهل الثغر) فقد قال في كتاب الإبانة : (وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استواءا منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تيزده قربا إلى العرش والسماء بل هو رفيع الدرجات عن العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من

([54]١) تقدم تخريجه .

([55]٢) (وج) واد بالطائف أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦٩٠٤).

([56]٣) سورة الحديد الآية (٤).

([57]٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٥٧) وأحمد (٣٦٩/٢).

([58]٥) السنن (٦٩٢/٤).

([59]٦) أخرجه الحافظ ابن عبدالبر في التمهيد (١٤٣/٧) والذهبي في السير (١٠٥/٨).

كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد)([60]١).

١٧- ومنهم الإمام الحافظ ابن حبان رضي الله عنه : حيث أول حديث : (حتى يضع الرب جل جلاله قدمه فيها ، أي جهنم)([61]٢) فقال: (هذا الخبر من الأخبار التي أطلقت بتمثيل المجاورة وذلك أن يوم القيامة يلقى في النار من الأمم والأمكنة التي يعصى الله عليها فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب جل وعلا موضعا من الكفار والأمكنة في النار فتمتلئ فتقول : قط قط، تريد حسبي حسبي لأن العرب تطلق في لغتها اسم القدم على الموضع. قال الله جل جلاله ﴿ لهم قدم صدق عند ربهم ﴾([62]٣) يريد: موضع صدق لا أن الله جل وعلا يضع قدمه في النار جل ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه)([63]٤).

١٨- ومنهم الإمام النضر بن شميل رضي الله عنه حيث أول الحديث: (حتى يضع الرب قدمه فيها) أي : (من سبق في علمه أنه من أهل النار).

١٩- ومنهم الإمام الزهري رضي الله عنه : فقد أوله أيضا بأنه : (من سبق في علم الله أنه من أهل النار).

٢٠- ومنهم الإمام الحسن البصري رضي الله عنه فقد قال: (القدم. هم الذين قدمهم الله تعالى من شرار خلقه وأثبتهم لها).

هذه عشرون شخصية من أعظم الشخصيات من السلف الصالح أصحاب القرون الأولى ومن بعدهم مع ما هو مذكور في باب (السنة والبدعة) كلها تثبت أن التأويل ثابت مشروع وأنه من قواعد الشرع ونهج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجميعن .

([60]١) الإبانة ص (٢١).

([61]٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٨) ومسلم (٢٨٤٨) والترمذي (٢٢٧٢) وأحمد (١٣٤/٣) وابن خزيمة (ص ٩٧ - ٩٨) وابن حبان (٢٦٨) والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٤٩).

([62]٣) سورة يونس الآية (٢).

([63]٤) من صحيح ابن حبان (٥٠٢/١).

وكل خير في اتباع من سلف	وكل شر في ابتداع من خلف

الخاتمة

وبعد أن ظهرت الأدلة من الكتاب والسنة بشكل واضح وظاهر للعيان فعلينا أن نتمسك بديننا وأن نكون قلبا واحدا بوجه الأعداء وأن ننتبه إلى أن أعداء الإسلام لا يهمهم إلا أن نكون متفرقين حتى يستطيعوا أن يسودوا علينا كما قالوا: فرق تسد.

ولماذا هذا الخصام بين المسلمين إذا كان لكل منهم دليله وبرهانه؟!!.

فعلينا أن نبتعد عن أهوائنا وشهواتنا حتى يكون الإيمان كاملا كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»([1])، وإذا كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد عاتب سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنه على قتله الرجل الذي قال لا إله إلا الله مرة واحة فكيف بمن يقول لا إله إلا الله مرات ومرات؟؟!! كيف نحاربه ونكفره وننسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أيما رجل قال لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما »([2]) ؟؟!! وإذا كانت الأدلة ساطعة وظاهرة فلماذا نغض الطرق عن هذه الأدلة ونتبع شهواتنا وأهوائنا ونبقى مختلفين متفرقين مع علمنا أن هذا لا يخدم الإسلام والمسلمين ؟؟!! إلى متى .... إلى متى .... ؟؟!!.

وفي نهاية هذه الخاتمة أقول:

اللهم اجعلنا متمسكين بالكتاب والسنة حق التمسك ، بعيدين عن الخلاف والتفرقة واعين لما يُخططه أعداء الإسلام والمسلمين واجعلنا متحابين فيك بعيدين عن

([1]) رواه الخطيب في تاريخه (٣٦٩/٤) وقال الإمام النووي: حديث حسن رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح (الأربعون النووية ص ١٠٠) والبغوي في شر السنة (١٠٤) وأبو بكر بن عاصم الأصبهاني في كتاب السة (١٥).

([2]) أخرجه البخاري (٦١٠٤) وفي الأدب المفرد (٤٣٩) ومسلم (٢١٣) وأحمد (١٨/٢) ومالك (٩٨٤/٢) والترمذي (٢٦٣٧) والبيهقي (٢٠٨/١٠) وأبو عوانة (٢٢/١) وابن منده (٥٢١) والبغوي (٣٥٥٠) وابن حبان (٢٤٦).

الفوضى والخلاف الذي يخدم أعداء الإسلام وانصرنا على أنفسنا وأهوائنا وبصرنا بما أردته منا، وحققنا بالعمل بالكتاب والسنة، وهيء لنا من أمرنا رشدا ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

والحمد لله رب العالمين

كشاف الآيات

الآية	الصفحة
آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل	
الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا	
أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا	
أفمن هذا الحديث تعجبون	
ألا إلى الله تصير الأمور	
ألا إن أولياء الله لا خوف	
ألا لعنة الله على الظالمين	
ألحقنا بهم ذريتهم	
ألست بربكم	
ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله	
أم أمنتم من في السماء	
أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم	
أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر	
أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك	
إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير	

أو لآمستم النساء	
أولئك الذين هدى الله	
أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة	
إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا	
إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم	
إذ نادى ربه نداء خفيا	
إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم	
إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه	
إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه	
إن الذين أوتوا العلم من قبله	
إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته	
إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا	
إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله	
إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله	
إن العهد كان مسؤولا	
إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم	
إن الله وملائكته يصلون على النبي	
إن الله يبشرك بيحيى مصدقا	
إن النفس لأمارة بالسوء	
إن لدينا أنكالا وجحيما	
إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا	
إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا	
إنا نسيناكم	
إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء	
إنك لن تستطيع معي صبرا	
إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم	

إنما المؤمنون إخوة	
إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله	
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم	
إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن	
إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا	
إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون	
إني جاعل في الأرض خليفة	
اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون	
اتقوا الله وكونوا مع الصادقين	
ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين	
اهدنا الصراط المستقيم	
بديع السماوات والأرض	
بل الإنسان على نفسه بصيرة	
بل هو آيات بينات في صدور	
تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام	
تبارك الذي بيده الملك	
تبارك الله رب العالمين	
تتجافى جنوبهم عن المضاجع	
تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم	
ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا	
ثم استوى إلى السماء	
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك	
حرمت عليكم الميتة	
دنا فتدلى فكان قاب قوسين	
ذلك بأن الله هو الحق	
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء	

	ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب
	ذي قوة عند ذي العرش مكين
	الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم
	الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
	الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم
	رب ادخلني مدخل صدق
	ربنا ظلمنا أنفسنا
	ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا
	رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
	رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت
	الرحمن فاسأل به خبيرا
	رضي الله عنهم ورضوا عنه
	رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك
	سبح اسم ربك الأعلى
	سبحان الذي خلق الأزواج كلها
	سبحانك هذا بهتان عظيم
	سبل السلام
	السماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون
	سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة
	فأعينوني بقوة
	فأما الذين في قلوبهم زيغ
	فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما
	فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب
	فاذكروني أذكركم
	فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون
	فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه

فاعلم أنه لا إله إلا الله	
فاقرؤوا ما تيسر منه	
فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور	
فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين	
فالله هو الولي وهو يحيى الموتى	
فالمدبرات أمرا	
فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا	
فتلقى آدم من ربه كلمات	
فتمثل لها بشرا سويا	
فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا	
فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك	
فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء	
فلولا أنه كان من المسبحين	
فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في	
فما تنفعهم شفاعة الشافعين	
فمن كان يرجو لقار ربه فليعمل	
فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه	
فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في	
قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا	
قال يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ	
قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم	
قل أعوذ برب الفلق	
قل أعوذ برب الناس	
قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها	
قل الله ثم ذرهم	
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا	

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن	
قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده	
قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين	
قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على	
قل هو الله أحد	
قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء	
قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم	
قيل يا نوح اهبط بسلام	
كانوا قليلا من الليل ما يهجعون	
كتاب أنزلناه إليك مبارك	
كل شيء هالك إلا وجهه	
كلا نمد هؤلاء وهؤلاء	
كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا	
كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو	
كما يئس الكفار من أصحاب القبور	
كنتم خير أمة أخرجت للنا	
كونوا قوامين بالقسط	
لأهب لك غلاما زكيا	
لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم	
لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض	
لا تخف إنك أنت الأعلى	
لا تقولوا لما تصف ألسنتكم هذا حلال	
لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون	
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها	
لتجزى كل نفس بنا تسعى	
لقد رأى من آيات ربه الكبرى	

	لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
	لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا
	للذين أحسنوا الحسنى وزيادة
	لنتخذن عليهم مسجدا
	الله أنزل أحسن الحديث كتابا متشابها
	له معقبات من بين يديه ومن خلفه
	الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي
	لهم قد صدق عند ربهم
	لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا
	ليس كمثله شيء وهو السميع البصير
	لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين
	الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا
	ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه
	ما فرطنا في الكتاب من شيء
	ما كنت بدعا من الرسل
	ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى
	ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث
	ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم
	ما يلفظ من قول إلا لديه رقيت عتيد
	من الله ذي المعارج
	من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا
	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم
	نسوا الله فنسيهم
	هذا فراق بيني وبينك
	هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا
	هو الأول والآخر والظاهر والباطن

هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم	
هو الذي بعث في الأمين رسولا منهم يتلو	
هو الذي جعل الشمس ضياءا والقمر نورا	
وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي	
وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس	
وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم	
وأن ليس للإنسان إلا ما سعى	
وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه	
وأن يستعففن خير لهن	
وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا	
وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم	
وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب	
وإذ تخرج الموتى بإذني	
وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير	
وإذا تليت عليهم آياتنا زادتهم	
وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا	
وإذا مرضت فهو يشفين	
وإن استنصروكم في الدين فعليكم	
وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه	
وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة	
وإنا فوقهم قاهرون	
وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم	
وإنك لعلى خلق عظيم	
واتبع سبيل من أناب الي	
واخفض جناحك للمؤمنين	
واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا	

واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا	
واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية	
واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب	
واستعينوا بالصبر والصلاة	
واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	
واستفزز من استطعت منهم بصوتك	
واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم	
واصطنعتك لنفسي	
واعتصموا بحبل الله جميعا	
وافعلوا الخير لعلكم تفلحون	
والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم	
والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان	
والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا	
والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا	
والسماوات مطويات بيمينه	
والشعراء يتبعهم الغاوون	
والطور، وكتاب مسطور، في رق منشور	
والعصر إن الإنسان لفي خسر	
والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون	
والله خلقكم ثم يتوفاكم	
والله من ورائهم محيط	
وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني	
وترى الجبال تحسبها جامدة وهي	
وتعاونوا على البر والتقوى	
وجاء ربك	
وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم	

وجاهدوا في الله حق جهاده	
وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون	
وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين	
وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون	
وخلق كل شيء فقدره تقديرا	
وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن	
وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين	
ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم	
وسع كرسيه السماوات والأرض	
وشاورهم في الأمر	
وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات	
وعلمناه من لدنا علما	
وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم	
وقال اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى	
وقد هدانا سبلنا	
وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا	
وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية	
وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله	
وقل رب أعوذ بك من همزات	
وقل رب أنزلني منزلا مباركا	
وقولوا للناس حسنا	
وكان أبوهما صالحا	
وكان عند الله وجيها	
وكذلك زين لفرعون سوء عمله	
وكلا نقص عليك من أنباء الرسل	
وكونوا مع الصادقين	

ولئن سألتهم من خلق السماوات	
ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل	
ولا تتبع سبيل المفسدين	
ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله	
ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها	
ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا	
ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله	
ولا تصل على أحد منهم	
ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما	
ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها	
ولا تقربوا الزنا	
ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر	
ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات	
ولا تكن من الغافلين	
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم	
ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون	
ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها	
ولا يحيطون بشيء من علمه	
ولا ينبئك مثل خبير	
ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا	
ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير	
ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات	
ولكل قوم هاد	
ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا	
ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق	
ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك	

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم	
ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم	
ولو كنت فظا غليظ القلب	
ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس	
ولولا دفع الله الناس	
ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات	
وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا	
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين	
وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين	
وما أنت بمسمع من في القبور	
وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه	
وما جعل عليكم في الدين من حرج	
وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو	
وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم	
وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل	
وما كان ربك نسيا	
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا	
وما لأحد عنده من نعمة تجزى	
وما منا إلا له مقام معلوم	
وما يعلم تأويله إلا الله	
وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم	
ومن أظلم ممن منع مساجد الله	
ومن الناس من يشتري لهو الحديث	
ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه	
ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا	
ومن يسلم وجهه إلى الله	

ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا	
ومن يطع الله والرسول فأولئك	
ونحن أقرب إليه من حبل الوريد	
وننزل من القرآن ما هو شفاء	
وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك	
وهو العلي الكبير	
وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير	
وهو الله في السماوات والأرض يعلم سركم	
وهو معكم أين ما كنتم	
ويؤثرون على أنفسهم	
ويخافون ربهم من فوقهم	
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم	
ويشف صدور قوم مؤمنين	
ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما	
ويمددكم بأموال وبنين	
ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني	
يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا	
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة	
يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن	
يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا	
يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما	
يا أيها الذين آمنوا قد جاءتكم موعظة من	
يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل	
يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي	
يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله	
يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا	

كشاف الأحاديث

أرسلني أهلي إلى أم سلمة بقدح	
أرى رؤياكم قد تواطأت	
أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء	
أشهد أنكم أحياء عند الله فزوروهم	
أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا	
أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدف	
أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدفوف	
أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال	
أعلنوا النكاح واجعلوه في المساجد	
أعني على نفسك بكثرة السجود	
أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد	
أعوذ برضاك من سخطك	
أعوذ بك منك	
أغث إن كان عندك غوث	
أفضل أيامكم الجمعة فيه خلق آدم	
أفضل الذكر لا إله إلا الله	
أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى	
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد	
أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل بشيء من الشعر	
أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
أكثر واذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون	
أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون	
ألا أدلك على ملاك الأمر الذي	
ألا رجل يتصدق على هذا فيصلي معه	
ألا وإن في الجسد مضغة إذا	
ألم أنهك أن تخبئ شيئا	
أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد	
أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر	
أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة	
أما ترضين أن تكوني سيدة نساء الجنة	

أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما	
أن أم سليم صنعت حيسا وأرسلت	
أن ابن عمر كان يزور قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقول	
أن العباس بن عبدالمطلب رأى أبا لهب في المنام	
أن القائم كالحامل في الأجر	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى منى فأتى الجمرة فرماها	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أردف الفضل بن العباس	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم افتقد ثابت بن قيس	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايع الحسن والحسين	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لأصحابه	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل إلى أم سليم	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل مكة وابن رواحة يمشي	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى المغرب فما زال يصلي	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى حيث المسجد الصغير	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو في قبة له	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن هذه الأمة تبتلى	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا آوى إلى فراشه	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في سفره وكان غلام يحدو	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي في رمضان عشرين	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقي رجلا مختضبا بصفرة	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال: (كيف تصنع ...)	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر ببعض المدينة فإذا هو بجوار يضربن بدُفهنَّ	
أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بمجلسين ، أحد المجلسين يدعون	
أن امرأة رفع صبيا فقالت: يا رسول الله ألهذا	
أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها	
أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد اشتكيت	
أن خبيبا كان أسيرا عند بني الحارث	
أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله لأنت أحب	
أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم	
أن رجلا قال ذات يوم ودخل في الصلاة	

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة	
أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدل صفوف أصحابه	
أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال	
أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جالسا فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجلسه بين يديه	
أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي قبل الظهر ركعتين	
أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضع حجرا على قبر	
أن سيدنا بلالا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤذن بصلاة الفجر	
أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزور قبر عمها	
أن كعب بن زهير لما جاء تائبا رمى صلى الله عليه وآله وسلم إليه	
أن لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر	
أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي	
أنا أعربكم أنا من قريش	
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب	
أنا سيد العالمين	
أنا سيد الناس يوم القيامة	
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة	
أنا عند ظن عبدي بي	
أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه	
أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلت	
الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون	
أنشدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مئة قافية من قول أمية	
أنه صلى الله عليه وآله وسلم دعا فيه ثلاثة أيام على الأحزاب	
أنه صلى الله عليه وآله وسلم قبض أصابعه كلها وأشار	
أنه صلى الله عليه وآله وسلم قرأ أول سورة البقرة عند رأس الميت	
أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يشير بالسبابة لا يحركها	
أنه التمس فلم يوجد	
أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند احجار الزيت	
أنه سئل أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر بصلاة	
أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعا يجده في جسده	

أنه كان في يد عثمان ست سنين	
أهل الجنة يوم القيامة عشرون ومئة صف	
أهلَّ الناس بهذا الذي يهلون فلم	
أهلَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر التلبية	
أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة	
أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم	
إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم	
إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد غوثا	
إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة	
إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض	
إذا رأيتم الجنازة فقوموا	
إذا رأيتم الجنازة فقوموا فمن تبعها	
إذا سألت فاسأل الله وإذا	
إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول ثم	
إذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
إذا فزع احدكم من النوم فليقل	
إذا كنت لابد سائلا فاسأل	
إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب	
إذا مات أحدكم فسويتم	
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث	
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا	
إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفنه	
إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم فإن	
إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم في	
إن أمي ماتت وعليها صوم شهر	
إن أهل ذكر الله ليجلسون إلى ذكر الله	
إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ	
إن الرجل إذا رضي هدي الرجل	
إن الرجل ليبلغ بحسن الخلق درجة	
إن الرجل ليتكلم الكلمة من رضوان الله تعالى	

إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يترك العمل وفعله أحب	
إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى تبلغ	
إن العبد إذا وضع في قبره وتولى	
إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا	
إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا	
إن الله جل وعلا يستحي من العبد أن يرفع	
إن الله خلق آدم على صورته	
إن الله عز وجل ليؤيد حسان بروح	
إن الله لا ينظر إلى أجسامكم	
إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح	
إن الله يؤيد حسان بروح القدس	
إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة	
إن الميت ليسمع خفق نعالهم	
إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه	
إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى في المسجد فصلى بصلاته	
إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر على أعرابي وهو يدعو	
إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا	
إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف	
إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة	
إن كنت ذا غوث فأغث	
إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلا	
إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس	
إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني	
إن لله ملائكة سيارين يتطلبون	
إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة	
إن لله ملائكة يطوفون في الطرق	
إن من الشعر لحكمة	
إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء	
إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء	
إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل	

إنما أنا بشر أنسى كما تنسون	
إنما أنا رحمة مهداة	
إنما الأعمال بالنيات	
إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا	
إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق	
إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا	
إنه لفي ضحضاح من النار ولولا	
إنها لمشية يكرهها الله إلا في مثل	
إنهم يصومونه لأن الله نجى فيهم نبيهم وأغرق	
إني لست امسه إنما لا يمسه إلا المطهرون	
إياكم والدخول على النساء	
ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين	
ابسط ردائك فبسطه فغرف بيديه فيه	
اتخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتما من ورق	
اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة	
اثبت أحد فإنما عليك نبي	
اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة	
استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم	
اشتكى الني صلى الله عليه وآله وسلم إن صلى قائما فصلوا قياما	
اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم	
اعتمرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عمرة اعتمرها	
اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر	
اقتص قال: يا رسول الله إن عليك قميصا	
امح رسلو الله قال سيدنا علي	
انطلق إلى المنزل فأسقيك في قدح	
انطلقت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ... لا ولكنه أواه	
انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا	
انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوى	
بأبي أنت وأمي يا نبي الله لا يجمع	
بايعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهما ابنا سبع سنين	

بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على إقام الصلاة	
بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة	
بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع	
بايعوني على أن لا تشكروا بالله شيئا	
بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا	
بم سبقتني إلى الجنة؟ قال: ما أذنت	
بها نظرة فاسترقوا لها	
بي نصروا	
بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إذ سجد فلدغته	
البينة على المدعي واليمين على من أنكر	
بينما رجل راكب على بقرة قد حمل	
بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ عرض شاعر	
تخفيف العذاب على أبي لهب	
تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح	
تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة	
تلبية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك	
ثبت عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يستلم الركنين اليمانيين	
ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان	
ثم رفع أصبعه فرأيته يحركها يدعو بها	
جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبايعته في نسوة	
جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم آت الحجر	
جئت رسول الله يوما فوجدته جالسا مع أصحابه	
جاء الني صلى الله عليه وآله وسلم فدخل على صبيحة عرسي... يضرب بالدف	
جاء حبش يزفنون في يوم عيد	
جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم	
جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستأذنه في الجهاد	
جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ما لقيت من عقرب	
جاء رجل والناس في الصلاة	
جاء سُليك الغطفاني ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب	
جاء سيدنا عمر بن الخطاب إلى سيدنا أبي بكر	

جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ... أفأحج عنه؟ قال:نعم	
جاءني جبريل فقال: مر أصحابك يرفعوا	
جددوا إيمانكم قيل: يا رسول الله كيف نجدد	
حب الدنيا رأس كل خطيئة	
الحبة السوداء شفاء من كل داء	
حتى يضع الرب جل جلاله قدمه فيها	
حدثتني أمي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى العباس قادما فقام له	
حديث الإسراء المتواتر	
حديث الغار	
حديث تخلف سيدنا كعب بن مالك	
الحسن والحسين سيدا الشباب	
حقت محبتي على المتحابين في	
الحليم سيد في الدنيا وسيد في الآخرة	
حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم	
خدرت رجل ابن عمر فقال له رجل	
خذها فلعمري لمن أكل برقبة باطل قد أكلت برقية حق	
خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عندي مسرورا	
خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة	
خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا الناس يصلون	
خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدنيا ولم	
خرج سيدنا عمر رضي الله عنه إلى المسجد فوجد معاذا	
خرج علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا أيها الناس	
خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر فسرنا	
خير الدواء القرآن	
خير الذكر الخفي	
خير القرون قرني ثم الذين	
خير الوجوه من إذا رأيته ذكرك الله	
دخل أبو بكر وعندي جاريتان	
دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشرب من قربة	
دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين يدي أربعة آلاف	

دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندي جاريتان	
دخل علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عندنا	
دخل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على امرأة وبين يديها نوى	
دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أماه اكشفي لنا قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
دعاء الأخ لأخيه في ظهر الغيب	
دعهم يا عمر فإنما هم بنو أرفدة	
دونكم يا بني أرفدة	
رآني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبر فقال	
رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا قد اتكا	
رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حلق الإبهام والوسطى	
رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم واضعا ذراعه اليمنى على	
رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعقد التسبيح	
رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توضأ ثم قرأ	
رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر والحسن	
رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قبة حمراء	
رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والحلاق يحلقه	
رأيت قصورا مشرفة على الجنة	
رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاثة أشياء	
الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم	
الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل	
رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا	
رجوت بركتها حين لبسها	
رفع القلم عن ثلاث	
رفع عن أمتي الخطأ والنسيان	
ركبت البحر فانكسرت سفينتي	
زار النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبر أمه فبكى	
سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ا لشعر فقال: هو الكلام حسنه	
السلام عليك يا رسول الله	

السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين	
سمعت رد السلام	
شهدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبطحاء وأتى	
شهدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالبطحاء وأتى بلال بفضل وضوئه	
صح عن ابن مسعود أنه كان يصلي قبلها أي الجمعة	
صلاة في مسجد قباء كعمرة	
صلاة في مسجدي هذا خير من ألف فيما سواه	
صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعطست ، فقلت الحمد لله	
صم يوما مكانه	
طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا	
العبد إذا وضع في قبره وتولى	
عبدي إذا ذكرتني خاليا ذكرتك خاليا	
عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط	
عرق فاستنقع عرقه على قطعة	
العلماء ورثة الأنبياء	
عليكم بالتسبيح والتهليل والتقديس	
عن أبي بكر قلت يا رسول الله والله لا أكلمك إلا كأخي السرار	
عن أبي مجلز أن أبا موسى كان بين مكة والمدينة	
عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن امرأة جاءته فقالت: إني نذرت إن رجعت	
عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ضحى بكبشين أملحين	
عن سيدنا عمرو بن العاص أنه لما بعث في غزوة	
عن عائشة أن أبا بكر دخل وعندها جاريتان في أيام منى تدففان	
عن عبدالرحمن بن رزين قال: مررنا بالربوة فقيل	
عن عبدالله بن دينار رضي الله عنه قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشعر أبي طالب وأبيض يستسقى	
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في	
عن محمد بن سوقة عن أبيه قال: لما بنى عمرو بن حريث داره	
عن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره أن الناس نزلوا	
العنهم يا أمير المؤمنين ، قال: لا سمعت	
فاتحة الكتاب شفاء من كل داء	

فاحتضنه من خلفه ولا يبصره فقال	
فاسترقوا لها فإن بها نظرة	
فدين الله أحق بالقضاء	
فزوروا القبور فإنها تذكر الموت	
فزوروها فإنها تذكركم الآخرة	
فسترت وجهي عنه بجلبابي	
فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت في النكاح	
فضلت هذه الأمة على سائر الأمم	
فعلك تمر بقبري ومسجدي	
فكان أبو محذورة يجز ناصيته لا يفرقها	
فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب	
فلما صلى الصبح انحرف جالسا فاتسقبل	
فمر على جبل يقال له	
فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها	
فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني	
في قصة سيدنا عكرمة فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وثب إليه	
فيه ولدت وفيه أنزل علي	
قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لو أن رجلا مؤمنا قرأ بها	
قال المقبري: كنا مع أبي هريرة فلحقه فقال وعليك يا سيدي	
قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسلكن عيسى بن مريم حاجا	
قال تثويت أبا هريرة معه كيس فيه حصى	
قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إن أمي افتلتت	
قال رجل يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه	
قبلة المسلم أخاه المصافحة	
قد جاءكم اهل اليمن ، وهم أول من جاء	
قد روي عن عبدالله أنه رآها زارت قبر أخيها	
قد زيد بن حارثة المدينة فقام إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
قسمت الصلاة بيني وبين عبدي	
قل وروح القدس معك	
قل وروح القدس يؤيدك	

قلت يا رسول الله علمني سنة الأذان	
قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين	
قوموا إلى سيدكم	
قوموا لسيدكم	
كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر	
كان ابو بكر يخافت بصوته إذا قرأ	
كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكروا	
كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتناشدون عنده الشعر	
كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلي	
كان الحبشة يرقصون بين يدي رسول الله	
كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاء	
كان الناس في زمن عمر يقومون في رمضان	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدثهم فإذا قام قاموا	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخل بيت أم سليم فينام	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرفع يديه في الدعاء	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يركع قبل الظهر أربعا	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشير بأصبعه إذا دعا	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد	
كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: زاهر باديتنا	
كان رجل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليه	
كان رجل من أهل نجد إن دعا رفع صوته	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مرض أحد	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق إلى مكة	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي مسجد قباء راكبا	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبني المسجد وعبدالله بن رواحة	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ ثم يقبل ثم	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله على	

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله في كل	
كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي قبل الجمعة أربعا	
كان سلمان في عصابة يذكرون الله فمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم	
كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر بالحداء	
كان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل	
كان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ينزل تحت الشجرة ويتبرك بها	
كان فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ادم	
كان كل من عبدالله بن عمر وأبي هريرة	
كان ينفث على نفسه في المرض	
كانت تبسط للنبي صلى الله عليه وآله وسلم نطعا فيقيل	
كل أمتي يدخلون الجنة إلا من ابى	
كل بدعة ضلالة	
كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل	
كل معروف صدقة وإن من المعروف	
كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ... ارفعوا أيديكم فقولوا	
كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فتفرقنا في ليلة	
كنا نصلي وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما رفع رأسه	
كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ جاء رجل فسلم	
كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده ميمونة	
كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها	
كنت نهيتكم عن زيارة القبور	
كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة	
لأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد صلاة الصبح	
لأن أذكر الله تعالى مع قوم بعد	
لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه	
لا بل أنتم العكارون	
لا تباغضوا ولا تحاسدوا	
لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن	
لا تحاسدوا ولا تناجشوا	

	لا تسيدوني في الصلاة
	لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد المسجد
	لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك
	لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم
	لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض
	لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم
	لا تلثم المرأة ولا تتبرقع ولا تلبس
	لا تمس القرآن إلا وأنت على طُهر
	لا تنقب المرأة المحرمة ولا تلبس
	لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب
	لا ضرر ولا ضرار
	لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك
	لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه
	لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه
	لا يجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله
	لا يدخل الجنة من كان في قلبه
	لا يمس القرآن إلا طاهر
	لا ينبغي للمصلي أن يشد رحاله إلى مسجد
	لتعلم يهود ان في ديننا فسحة
	لعلك قبلت أو لمست
	لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا
	لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا
	لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب
	لقد رأيت نبيكم ما يجد من الدقل
	لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
	لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون
	لقنوا موتاكم لا إله إلا الله
	لكن عند الله لست بكاسد
	لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت
	لم يتكلم من المهد إلا ثلاثة

لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
لما اجتلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صفية رأى عائشة	
لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب	
لما كان ايام الحرة لم يؤذن	
لما نزلت بنو قريظة	
لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع	
اللهم أنت عبدي وأنا ربك	
اللهم إن كانت كاذبة فعم بصرها	
اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا	
اللهم إني أسألك القصر الأبيض	
اللهم اجعل رزق آل محمد	
اللهم اسقنا غيثا مغيثا	
اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون	
اللهم بحقي وحق الأنبياء من قبلي	
اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي	
اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	
لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتها	
لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية	
ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش	
ليبعثن الله أقواما يوم القيامة في	
ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه	
ليس يتحسر أهل الجنة إلى على ساعة	
المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على	
المؤمن يألف ويؤلف ولا خير	
ما أحل الله في كتابه فهو حلال	
ما أعظمك وأعظم حرمتك	
ما أعلم رجلا من المهاجرين إلا وقد سمعته يترنم	
ما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم	
ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت	
ما بين بيتي ومنبري	

ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة	
ما بين لابتيها حرام	
ما جلس قوم يذكرون الله إلا	
ما رأيت أحدا كان اشبه سمتا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
ما شبع آل محمد من خبز	
ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزيد في رمضان	
ما من احد يسلم علي إلا رد الله علي روحي	
ما من أحد يمر بقبر أخيه كان يعرفه	
ما من أحد يمر بقبر أخيه كان يعرفه	
ما من صلاة مفروضة إلا وبين يديها ركعتين	
ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك	
ما من مسلمين يلقتيان فيتصافحان إلا غفر	
ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس	
ما منعك أن تثبت إذ أمرتك	
ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام	
متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	
مثل الجليس الصالح وجليس	
مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكره	
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد	
المجاهد من جاهد نفسه في الله	
مر أبو هريرة وصاحب له على قبر	
مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بامرأة تبكي عند قبر	
مُرَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجنازة فقام	
مرَّ عمر في المسجد وحسان ينشد	
المرء مع من أحب	
المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة	
المسلمون كالجسد الواحد	
من أحب أن يتمثل له الناس	
من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه	
من أحب لله وأبغض لله	

من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد	
من اخذ شبرا من الأرض ظلما	
من أشد أمتي لي حبا ناس يكونون بعدي	
من تشبه بقوم فهو منهم	
من جاءني زائرا لا تحمله حاجة إلا زيارتي	
من جاءني زائرا لا تُعلمه حاجة إلا زيارتي	
من حج إلى مكة ثم قصدني في مسجدي كتبت	
من حج البيت فزار قبري عد وفاتي فكأنما	
من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني	
من حج وزار قبري بعد موتي كان كمن	
من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم	
من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده	
من دخل المقابر فقرأ الفاتحة	
من زار قبري وجبت له شفاعتي	
من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شهيدا	
من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي	
من سن في الإسلام سنة	
من صبر على لأواء المدينة وشدتها كنت له	
من صلى المغرب والعشاء فإنها صلاة	
من صلى بعد المغرب ست ركعات	
من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات	
من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا	
من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة بنى الله	
من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب	
من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه	
من غشنا فليس منا	
من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له	
من نام عن حزبه أو عن شيء	
من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله	
من وجد سعة ولم يفد إلي فقد جفاني	

ناولني يدك التي بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذنا	
نحن الذين بايعوا محمدا	
نزل خالد بن الوليد الحيرة فقالوا له احذر السم	
نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بعض أبياته ﴿ واصبر........	
نعمت البدعة هذه	
نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها	
هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم	
هل أنت إلا أصبع دميت	
هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم	
هي المانعة هي المنجية	
وأبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك	
وأنشد يوما وقد قيل (هما واحد)	
وإذا تصدق بصدقة تطوعا فيجعلها	
وإنه على ترعة من ترع الجنة	
والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى	
والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه	
والله في عون العبد ما كان العبد	
وترق القلب وتدمع العين	
وثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يلازم في أسفاره كلها	
وثبت عن صفية بنت حيي أنها صلت قبل الجمعة أربعا	
وجاء في فتح الباري قبلوا يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم	
وجب أجرك وردها عليك الميراث	
وعن أم أبان بنت الوارع بن زارع عن جدها	
وعن ابن جدعان قال ثابت لأنس: أمسست النبي صلى الله عليه وآله وسلم	
وعن الزبير رضي الله عنه قال: لقيت يوم بدر عبيدة	
وعن الشعبي أن زيد بن ثابت رضي الله عنه صلى على	
وعن ثابت قال: كنت إذا أتيت أنسا	
وعن ثابت قال: كنت إذا أتيت أنسا رضي الله عنه	
وعن جعفر بن عبدالله بن الحكم أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة	

وعن سدنا جابر رضي الله عنه ان سيدنا عمر رضي الله عنه قبل يد النبي	
وعن سيدنا حبان بن واسع عن أشياخ من قومه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدل الصفوف يوم بدر	
وعن سيدنا سهل بن حنيف فقلت يا سيدي والرقى صالحة	
وعن سيدنا عبدالرحمن ... مُرَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجنازة فقام	
وعن صهيب قال: رأيت عليا يقبل يد العباس ورجليه	
وعن عامر بن سعد فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس	
وعن عبدالرحمن بن رزين قال: مررنا ... بايعت بهاتين نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم	
وعن قتادة رضي الله عنه أنه أصيبت عينه	
وعن موسى بن عقبة قال: رأيت سالم بن عبدالله يتحرى أماكن من الطريق فيصلي فيها.	
وعن يحيى بن الحارث الذماري قال: لقيت واثلة	
وعن يزيد بن الأسود في حديث حجة الوداع	
وعن يونس بن ميسرة قال: دخلنا على يزيد بن الأسود	
وفي قصة سيدنا جعفر قام له النبي صلى الله عليه وآله وسلم	
وقال ابن كثير في كتابه فأشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر	
وقبض ثنتين وحلق ورأيته يقول هكذا	
وقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما﴾	
ولينوا في يد إخوانكم	
وما يدريك أنها رقية ثم قال: قد أصبتم	
وهذه البئر صارت معروفة اليوم ببئر الخاتم	
يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود	
يا أهل القبور السلام عليكم	
يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف	
يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك	
يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي	
يا رسول الله أي جلسائنا خير قال: من ذكركم	
يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله	
يا رسول الله وما المفرَّدون	

كشاف الأشعار

إذا ما قال لي ربي	
إذا وصف الطائي بالبخل ما در	
إصحب من الإخوان من قلبه	
إلهنا ما أعدلك	
اضرب الدف وجانب جاهلا	
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	
تنازع الناس في الصوفي واختلفوا	
خلوا بني الكفار عن سبيله	
دع ما ادعته النصارى في نبيهم	
رب ورقاء هتوف في الضحى	
رحماك يا رب العباد رجائي	
سارت مشرقة وسرت مغربا	
صغير هواك عذبني	
طريقتنا تنجي الفؤاد من الغوى	
علم التصوف علم ليس يعرفه	
علم التصوف علم لا نافد له	
علم به تصفية البواطن	
علمتني الحياة أن أتلقى	
على محمد صلاة الأبرار	
غبت بك عني	
غنى بهم حادى الأحبة في الدجى	
فإذا أتينا المسجد النبوي	
فإملاء السمع من محاسن يمليها	
فالجمع بينما تعارضا هنا	
فالكل دون الله إن حققته	
فتشهبوا إن لم تكونوا مثلهم	
فلما بصرنا به مقبلا	
فما المنازل لولا أن تحل بها	
قد رفضوا الآثام والعيوبا	
قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب	

قوم همومهم بالله قد علقت	
قيامي والعزيز إليك حق	
لا تسلكن طريقا لست تعرفها	
لا تلم المرء على فعله	
لكن سر الله في صدق الطلب	
اللهم لولا أنت ما اهتدينا	
ما في التواجد إن حقق من حرج	
مالي وألفاظ زيد	
ناشر الإيمان مبعوث السماء	
نحن الذين بايعوا محمدا	
نحن جوار من بني النجار	
نفس لا كنت ولا كان الهوى	
هل أنت إلا إصبع دميت	
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	
وأثبتن للأولياء الكرامة	
وأفضل الخلق على الإطلاق	
وأمر بعرف واجتنب نميمة	
وإنما القوم مسافرونا	
وتلهيك عن دار الخلود مطاعم	
ودع مقالة قوم قال عالمهم	
وعلمك أن كل الأمر أمري	
وفؤادي كلما عاتبته	
وفي دار الحديث لطيف معنى	
وفينا رسول الله يتلو كتابه	
وقد سن أهل العلم والفضل والتقى	
وقل للذي ينهى عن الوجد أهله	
وكل خير في اتباع من سلف	
وكن كما كان خيار الخلق	
ولا تر العيب إلا فيك معتقدا	
ولست أبالي من رماني بريبة	

وما يخالف ثقة به الملا	
وما ينفع الأصل من هاشم	
ومن أراد ههنا الإنشاد	
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	
يا من يراني مذنبا	٤٤٧
يصحب شيخا عارف المسالك	
يظنوا بي حلولا واتحادا	
يعادي الذي عادى من الناس كلهم	
يقول قوم عن هداهم ضلوا	

كشاف المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- آداب السلوك ، الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، تحقيق محمد غسان عزقول، دار السنابل ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٥م.

٣- الإبانة عن أصول الديانة، أبي الحسن الأشعري، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هظ، - ١٩٨٩ م.

٤- أبجدية التصوف الإسلامي، الشيخ محمد زكي إبراهيم ، منشورات ورسائل العشيرة المحمدية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٩هـ، - ١٩٨٩م.

٥- الإبريز من كلام سيدي الغوث عبدالعزيز الدباغ، الشيخ أحمد بن المبارك ، المطبعة العلمية ، دمشق ، ١١٥٥ هـ - ١٧٤٢م.

٦- إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء، أبو الفضل عبدالله بن محمد بن الصديق الحسنى، عالم الكتب، بيروت.

٧- إتحاف البررة بمعرفة الأحاديث الموضوعة المشتهرة ، أديب الكمداني، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٨- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، الشيخ مرتضى الزبيدي، دار الفكر ، بيروت - لبنان.

٩- إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة، المحدث عبدالله الغماري.

١٠- الأجوبة الفاضلة، عبدالحي اللكنوي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤م.

١١- أحكام القرآن، ابن عربي المالكي، دار المعرفة.

١٢- إحياء علوم الدين ، الإمام الغزالي، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

١٣- أدب الإملاء والإستملاء ، السمعاني ، ليدن ، ١٩٥٢م.

١٤- الأدب المفرد ، الإمام البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م.

١٥- الأدلة الشرعية في جواز الاحتفال بميلاد خير البرية صلى الله عليه وآله وسلم ، الدكتور عز الدين حسين الشيخ.

١٦- الأذكار، الإمام النووي ، تحقيق الشيخ عبدالقادر أرناؤوط ، مطبعة الملاح، ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م.

١٧- أربعون حديثا بالإسناد ، الشيخ أحمد الرفاعي، مكتبة الحلواني.

١٨- الأربعون النووية ، الإمام النووي ، تحقيق نادر ضرسة الرنكوسي، إشراف الشيخ أحمد نصيب المحاميد ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م.
١٩- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني ، مطبعة بولاق بمصر، ١٣٢٣هـ.
٢٠- الإرشاد في معرفة علماء الحديث، الإمام الحافظ الخليل بن أحمد بن عبدالله القزويني، دار الفكر ، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٢١- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.
٢٢- الاستذكار، ابن عبدالبر، طبعة القاهرة ١٣٩١هـ.
٢٣- الاستعانة بالفاتحة على نجاح الأمور، يوسف بن حسن بن عبيد الهادي الحنبلي الشهير بابن المبرد، تحقيق الشيخ عبدالهادي الخرسة والشيخ محمد خالد الخرسة.
٢٤- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر،تحقيق علي البجاوي، القاهرة ، مصر .
٢٥- أسد الغابة، ابن الأثير، دار الفكر ١٤٠٩هـ.
٢٦- الإسعاد في جواز التوسل والاستمداد، الشيخ عبدالهادي محمد الخرسة ، دار فجر العروبة ١٩٩٧م.
٢٧- إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات، محمد المغربي العربي المكي ، طبع بإشراف محمد سعيد البرهاني، الطبعة الثالثة.
٢٨- الإسلام وقضايا الفن المعاصر ، الدكتور ياسين محمد حسن، دار الألباب، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.
٢٩- الأسماء والصفات ، الإمام البيهقي .
٣٠- الأشباه والنظائر ، السيوطي ، مطبعة البابي الحلبي ١٣٥٦هـ.
٣١- الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني وبهامشه الاستيعاب لابن عبدالبر القرطبي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٣٢٨هـ.
٣٢- الإصابة في نصرة الخلفاء الراشدين والصحابة ، القسم التاسع، تأليف محمد حمدي الجويجاني.
٣٣- أصول الوصول، أدلة أهم معالم الصوفية الحقة من صريح الكتاب والسنة، الأستاذ محمد زكي إبراهيم، سلسلة منشورات ورسائل العشيرة المحمدية، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م.
٣٤- الاعتصام ، أبو إسحاق الشاطبي ، دار الفكر.
٣٥- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، الإمام فخر الدين الرازي.
٣٦- الإعاثة بأدلة الاستغاثة ، الشيخ حسن بن علي السقاف، مكتبة الإمام النووي ، عمان ، الأردن.

٣٧- إغاثة اللهفان ،ابن قيم الجوزية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٣٨- اقتضاء الصراط المستقيم ، الشيخ ابن تيمية، دار المعرفة ، بيروت.
٣٩- إلى كل فتاة تؤمن بالله، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفارابي ، دمشق – سوريا.
٤٠- الإلهامات الإلهية ، محمود أبي الشامات.
٤١- كتاب الأم، الإمام الشافعي ، دار المعرفة ، بيروت.
٤٢- الانتصار لطريق الصوفية، أحمد صديق الغماري ، مطبعة دار التأليف ، مصر .
٤٣- الإنسان الكامل، الجيلي ، مطبعة بولاق ١٢٩٣هـ.
٤٤- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف ، المرداوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٤٦- الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، الإمام الشعراني ، حققه طه عبدالباقي والسيد محمد عيد الشافعي ، مكتبة المعارف.
٤٧- الأوائل، ابن أبي عاصم، طبعة المكتب الإسلامي.
٤٨- إيضاح الدلالات في سماع الآلات ، الشيخ عبدالغني النابلسي ، تحقيق د. راتب حموش، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان ، دار الفكر ، دمشق – سوريا ١٤٠١هـ – ١٩٨٩م.
٤٩- إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ابن عجيبة ، دار الفكر .
٥٠- الإيمان ، محمد بن إسحاق بن منده ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ.
٥١- البرهان المؤيد ، سيدي الشيخ أحمد الرفاعي، قدم له وخرج أحاديثه وعلق عليه عبدالله محمد علي مسعود، دار الأنصاري، حلب ، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
٥٢- البداية والنهاية ، ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف بيروت.
٥٣- بستان العارفين ، الإمام النووي ، مطبعة إدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٨هـ.د
٥٤- البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب ، مطبعة الشام، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
٥٥- بلوغ المرام، ابن حجر ، دار الفكر.
٥٦- بهجة النفوس (شرح مختصر البخاري) ابن أبي جمرة ، مطبعة الصدق الخيرية ، مصر ١٣٤٨هـ.
٥٧- بوارق الحقائق، العارف بالله الشيخ محمد مهدي بهاء الدين المشهور بـ (الرواس) قدم له عبدالجليل عطا، دار البشائر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
٥٨- بين التصوف والحياة، الشيخ عبدالباري الندوي ، مكتبة دار الفتح ، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

٥٩- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، الإمام ابن عطاء الله السكندري، المكتبة الأدبية.
٦٠- تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ، دار إحياء التراث، الطبعة السابعة ، ١٩٩٥م.
٦١- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية.
٦٢- تاريخ التصوف الإسلامي منذ البداية حتى نهاية القرن الثاني ، عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ، الطبعة الثانية.
٦٣- تاريخ دمشق ، ابن عساكر ، القسم المطبوع.
٦٤- التاريخ الصغير، الإمام البخاري، طبعة الهند ، ١٣٨٠هـ.
٦٥- التاريخ الكبير ، الإمام البخاري، دار المعرفة ١٤٠٦هـ
٦٦- تأييد الحقيقة العلية ، جلال الدين السيوطي.
٦٧- تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية.
٦٨- تحذير العبد الأواه من تحريك الإصبع في الصلاة، حسن بن علي السقاف، دار الإمام النووي ، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
٦٩- تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي ، المباركفوري، مطبعة الاعتماد، القاهرة.
٧٠- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، المزي، تحقيق عبدالرحمن شرف الدين، المكتب الإسلامي، الدار القيمة.
٧١- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، الشوكاني، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان.
٧٢- تحفة المريد بشرح جوهرة التوحيد، الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ
٧٣- تدريب الراوي ، الإمام السيوطي ، المكتبة العلمية ، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ
٧٤- تذكرة الحفاظ ، الإمام الذهبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
٧٥- التراتيب الإدارية ، العلامة الكتاني، المطبعة الأهلية بالرباط ١٣٤٦هـ.
٧٦- التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين، الدكتور محمد شيخاني، دار قتيبة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٧٧- ترتيب المدارك، القاضي عياض، تحقيق أحمد محمود، مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.
٧٨- الترغيب والترهيب ، الأصبهاني، دار الكتب العلمية، دار الحديث مصر.
٧٩- الترغيب والترهيب، المندري، تحقيق مصطفى عمارة ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.
٨٠- التصوف الإسلامي، الإمام الشعراني، طه عبدالباقي سرور، مطبعة النهضة ، مصر، ١٣٨٢هـ.

٨١- التصوف منشؤه ومصطلحاته ، الدكتور أسعد السحمراني، دار النفائس ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٨٢- التعرف لمذهب أهل التصوف، الشيخ أبي بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.
٨٣- تفسير الطبري ، دار الكتب العلمية، دار الفكر، بيروت.
٨٤- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير القرشي الدمشقي، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م.
٨٥- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.
٨٦- تفسير النسفي ، الإمام الجليل عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٨٧- التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م.
٨٨- تقريب التهذيب ، ابن حجر ، دار الرشيد ، دار القلم، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ
٨٩- التلخيص الجلي في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني ، المدينة المنورة ١٣٨٤هـ.
٩٠- التمهيد، ابن عبدالبر، تحقيق سعيد أحمد أعراب، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م.
٩١- تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر، الشيخ محمد أديب كلكل، المكتبة العربية، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.
٩٢- تنبيه المغترين، الشيخ عبدالوهاب الشعراني ، ضبطه وعلق عليه عبدالجليل عطا، دار البشائر ، الطبعة الأولى.
٩٣- تنوير الحوالك ، الإمام السيوطي ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٩٤- تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٥٨هـ.
٩٥- تهذيب الآثار، محمد بن جرير الطبري، مطبعة المدني ، القاهرة.
٩٦- تهذيب الأسماء واللغات ، الإمام النووي ، الطبعة المنيرية.
٩٧- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند ، ١٣٢٧هـ
٩٨- الثقافة الإسلامية ، محمد راغب الطباخ.
٩٩- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر، المطبعة المنيرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٥١هـ.
١٠٠- الجامع الصغير، الإمام السيوطي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار خدمات القرآن.

١٠١– الجامع لأحكام القرآن ، الإمام القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٥هـ
١٠٢– الجرح والتعديل ، ابن أبي حاتم، الهند، الطبعة الأولى ، ١٣٧١هـ
١٠٣– جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم ، ابن قيم الجوزية.
١٠٤– جلاء الخاطر، الشيخ عبدالقادر الجيلاني، تحقيق خالد الزرعي وعبدالناصر سري، مكتبة الجيلاني، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
١٠٥– الجواب الكافي، ابن قيم الجوزية، دار البيان ، دمشق ، الطبعة الثامنة، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.
١٠٦– الجوهر المنظم، ابن حجر.
١٠٧– حاشية ابن عابدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
١٠٨– حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح، مطبعة بولاق ، مصر ، ١٢٩٠هـ.
١٠٩– حاضر العالم الإسلامي ، الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر ١٣٥٢هـ.
١١٠– الحاوي للفتاوى، الإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد عبدالحميد، المكتبة العصرية ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م.
١١١– حجة الله على العالمين، يوسف النبهاني ، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٣١٦هـ.
١١٢– الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية، النابلسي، مطبعة الدار العامرة، ١٢٩٠هـ.
١١٣– حقائق عن التصوف، الشيخ عبدالقادر عيسى، الطبعة الخامسة ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م.
١١٤– حقيقة الصوفية، أبو سعيد التونسي ، مكتبة الفرابي.
١١٥– حقيقة الفرقة الناجية ، الشيخ سقاف بن علي الكاف، دار القلم، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
١١٦– حكايا الصوفية ، الطبيب محمد أبو اليسر عابدين، دار البشائر ١٤١٣هـ – ١٩٩٤م.
١١٧– الحكايا المنثورة ، الحافظ ضياء الدين المقدسي.
١١٨– حكم السيد أحمد الرفاعي، الإمام الرفاعي قدس الله سره، حققه وعلق عليه عبدالغني نكه مي ، دار الكتاب النفيس ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
١١٩– حُكم القيام والتقبيل في الإسلام، محمود أحمد الرفاعي، تقديم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
١٢٠– الحكم العطائية، ابن عطاء الله السكندري، ضبط وتقديم الشيخ إبراهيم اليعقوبي، الطبعة الثانية.
١٢١– حُكم الغناء في الإسلام، عبدالكريم عكاش ، دار المحبة ١٩٩٢م.

١٢٢- حُكم الغناء والسماع المسمى (الرد على من يحب السماع) القاضي أبو الطيب طاهر بن عبدالله بن عمر الطبري، خرج أحاديثه عبدالرحيم أحمد قميحة ، دار النابغة.

١٢٣- حول الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، محمد بن علوي المالكي الحسني، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

١٢٤- حياة الصحابة ، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٩٧م.

١٢٥- الخصائص الكبرى، الإمام السيوطي ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٧هـ.

١٢٦- خلاصة التصانيف في التصوف ، حجة الإسلام الغزالي ، مطبعة السعادة، مصر.

١٢٧- خلاصة الوفا، السمهودي.

١٢٨- خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالي، دار القلم، دمشق ، ١٤١٦هـ، ١٩٩٢م.

١٢٩- خمرة ألحان ورنة الألحان، الشيخ عبدالغني النابلسي، مطبعة التضامن الأخوي ١٣٥١هـ.

١٣٠- الدرر المباحة في الحظر والإباحة ، النحلاوي ، مطبعة الاعتدال ، دمشق، ١٣٦٦هـ.

١٣١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، الإمام السيوطي ، الطبعة اليمنية .

١٣٢- دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، الحافظ ابن الجوزي، دار الإمام النووي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

١٣٣- دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني، تحقيق محمد رواس قلعجي، دار ابن كثير.

١٣٤- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان الصديقي، مطبعة حجازي.

١٣٥- الذكر والذاكرون، الدكتور صديق السيد رمضان، راجعه العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي.

١٣٦- الرابطة الشريفة وأثرها في تزكية النفس وأقوال العلماء فيها، الشيخ عبدالرحيم الشيخ محمد معصوم الخزنوي الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١٣٧- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الندوي، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٧٩هـ.

١٣٨- ردود على أباطيل وتمحيصات لحقائق دينية، الشيخ محمد الحامد، المكتبة العربية، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

١٣٩- ردود على شبهات السلفية، الشيخ محمد نوري الشيخ رشيد النقشبندي الديرثوي ، مطبعة الصباح ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م.

١٤٠- الرد المحكم المتين ، الغماري.

١٤١- رسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

١٤٢- الرسالة القشيرية الشيخ عبدالكريم بن هوازن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٣٠هـ.

١٤٣- الرسول والعلم، الدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الدار المتحدة ، الطبعة الخامسة، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

١٤٤- رفرف العناية ، العارف بالله الشيخ محمد مهدي الصيادي الرفاعي الحسيني الشهير بالرواس، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ.
١٤٥- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، الشيخ ابن تيمية .
١٤٦- الروح، ابن قيم الجوزية، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير.
١٤٧- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، محمد الألوسي البغدادي ، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
١٤٨- روضة الطالبين، الإمام النووي، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.
١٤٩- روضة الناظرين ، أحمد الوتري، مطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.
١٥٠- الروض المربع شرح زاد المستنقع ، الشيخ منصور بن يونس البهوتي، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ.
١٥١- الرياضة وآداب النفس، الحكيم الترمذي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٦٨هـ.
١٥٢- رياض الصالحين ، الإمام النووي، حققه عبدالعزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دار الفيحاء ، دمشق ، دار السلام، الرياض، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
١٥٣- زاد المعاد، ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ شعيب أرناؤوط وعبدالقادر أرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩هـ.
١٥٤- زاد المسير في علم التفسير، أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١٥٥- الزهد، هناد بن السري الكوفي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ١٤٠٦هـ.
١٥٦- الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيثمي ، مطبعة البابي الحلبي، ١٣٩٨هـ ١٩٨٧م.
١٥٧- زيارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأث محبته في رقي النفس المؤمنة، الشيخ محمد أمين شيخو، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م.
١٥٨- السالكون إلى الله عز وجل (أخبارهم - أحوالهم - أقوالهم) الشيخ عبدالغني نكه مه ، دار الكتاب النفيس ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م.
١٥٩- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، ابن حجر العسقلاني ، دار الكتاب العربي، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ.
١٦٠- سر الأسرار، الشيخ عبدالقادر الجيلاني، دار ابن القيم ودار السنابل ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٦١- السفر الأسنى في الرابطة الحسنى ومعه الرسالة الخالدية في الرابطة النقشبندية، حققها وعلق عليها عبدالجليل العطا (البكري) دار النعمان للعلوم، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

١٦٢- سفر السعادة، الفيروز أبادي، مطبعة دار العصور ١٣٥٢هـ.

١٦٣- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨م.

١٦٤- السنة، عبدالله بن احمد حنبل، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

١٦٥- السنة والبدعة، الشيخ عبدالله محفوظ الحداد باعلوي الحضرمي، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ. ١٩٩٢م.

١٦٦- سنن أبي داود، دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت، دار الجنان، بيروت – لبنان – الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

١٦٧- سنن أبي داود الطيالسي، دار المعرفة ، بيروت – لبنان.

١٦٨- سنن ابن ماجه ، محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الحديث ، القاهرة.

١٦٩- سنن البيهقي طبعة الهند ١٣٥٢هـ

١٧٠- سنن الترمذي ، تحقيق وشرح أحمد شاكر القاضي، دار الحديث، القاهرة .

١٧١- سنن الدارمي، دار الريان ، دار الفكر ، ١٤٠٧هـ.

١٧٢- سنن سعيد بن منصور ، تحقيق الشيخ حبب الله الأعظمي، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٧٣- سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي والسندي، تحقيق مكتب التراث الإسلامي، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٧٤- سير أعلام النبلاء ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

١٧٥- سيرة ابن إسحاق ، تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر ، ١٣٩٨هـ.

١٧٦- سيرة ابن هشام ، دار الجيل ، بيروت – لبنان.

١٧٧- السيرة الحلبية، برهان الدين الحلبي، دار المعرفة ، بيروت.

١٧٨- السيرة النبوية والآثار المحمدية ، زيني دحلان ، على هامش السيرة الحلبية.

١٧٩- السير والمساعي في أرواد وأحزاب الإمام الرفاعي قدس الله سره، جمع وترتيب إبراهيم الراوي ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.

١٨٠- السيف القاطع، الإمام جلال الدين السيوطي.

١٨١- شخصيات صوفية، طه عبدالباقي سرور، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٨هـ.

١٨٢- شذرات الذهب، ابن عماد الدمشقي، دار ابن كثير، دمشقه – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
١٨٣- شرح التقريب، الحافظ العراقي.
١٨٤- شرح جوهرة التوحيد، الباجوري، راجعه فضيلة الأستاذ عبدالكريم الرفاعي ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
١٨٥- شرح الحكم العطائية، عبدالمجيد الشرنوبي، علق عليه الشيخ عبدالفتاح البزم، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
١٨٦- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، مطبعة مصطفى محمد، مصر، ١٣٥٥هـ.
١٨٧- شرح السنة، الإمام البغوي، تحقيق زهير الشاويش، شعيب أرناؤوط، المكتب الإسلامي.
١٨٨- شرح شطرنج العارفين، الشيخ محمد الهاشمي، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٥٧هـ.
١٨٩- الشمائل المحمدية، الإمام الترمذي، تحقيق عزت عبيد الدعاس، مؤسسة الزعبي، حمص ١٣٨٨هـ.
١٩٠- شرح الصاوي على تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.
١٩١- شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
١٩٢- شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، شرح وتعليق محمد حسن الحمصي، دار الرشيد١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
١٩٣- شرح الطريقة المحمدية، الشيخ عبدالغني النابلسي.
١٩٤- شرح العقيدة الطحاوية، الألباني.
١٩٥- شرح عين العلم وزين الحلم، ملا علي القاري، المطبعة المنيرية ١٣٥١هـ.
١٩٦- شرح معاني الآثار، الطحاوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩هـ
١٩٧- شرح المنهاج، الإمام السبكي.
١٩٨- شرح المواهب اللدنية، الرزقاني، دار المعرفة، بيروت.
١٩٩- شطحات الصوفية، عبدالرحمن بدوي، دار القلم.
٢٠٠- شعب الإيمان، أحمد بن حسين البيهقي، دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ.
٢٠١- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مصر.
٢٠٢- شفاء المسائل لتهذيب المسائل، ابن خلدون، مطبعة بيروت ١٩٥٩م.
٢٠٣- شفاء السقام في زيارة خير الأنام صلى الله عليه وآله وسلم، تقي الدين السبكي، دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان.
٢٠٤- شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل، الشيخ ابن عابدين.

٢٠٥- الشكر، ابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
٢٠٦- شمس العلوم، أبو الحسن الحميري.
٢٠٧- شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق، الشيخ يوسف النبهاني، دار الفكر ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.
٢٠٨- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الشيخ علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب أرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
٢٠٩- صحيح ابن خزيمة ، تحقيق مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٢١٠- صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبدالباقي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢١١- صفوة التفاسير، الشيخ محمد علي الصابوني، دار القلم العربي بحلب، دار النمير بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢١٢- الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، الشيخ عبدالله سراج الدين ، دار الفلاح ، حلب – سوريا.
٢١٣- الصلات والبشر بالصلاة على خير البشر صلى الله عليه وآله وسلم ، للفيروز أبادي، تحقيق محمد نور الدين الجزائري، وآخرين ، دمشق.
٢١٤- الصوفية والتصوف، الشيخ عدنان حقي، قدم له الشيخ كريم راجح، الطبعة الثانية.
٢١٥- الصوفية والفقراء ، الشيخ ابن تيمية.
٢١٦- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت – لبنان.
٢١٧- طبقات الحفاظ، الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١٨- طبقات الشافعية الكبرى، الإمام السبكي ، طبعة البابي الحلبي.
٢١٩- طبقات الصوفية، الإمام أبو عبدالرحمن السلمي، تحقيق نور الدين شريبة، دار الكتاب النفيس، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
٢٢٠- الطب النبوي، الشيخ ابن قيم الجوزية، علق عليه وخرج أحاديثه الشيخ شعيب أرناؤوط، والشيخ عبدالقادر أرناؤوط، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
٢٢١- الطريق إلى الله ، أبو سعيد الخراز، مطبعة السعادة، مصر.
٢٢٢- طريقة الصوفي، إدريس شاه مؤسس الوفاء، ترجمة سماء زكي المحاسين، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
٢٢٣- طريق الهجرتين ، ابن قيم الجوزية، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٧هـ.

٢٢٤- طي السجل، السيد محمد مهدي الصيادي الرفاعي الشهير بالرواس، عني بنسخه وتحقيقه الشيخ عبدالحكيم عبدالباسط ، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.
٢٢٥- عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ، ابن عربي المالكي ، المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٥٠هـ.
٢٢٦- العبودية، الشيخ ابن تيمية ، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق.
٢٢٧- عرائس الغُرر وغرائس الفِكَر في أحكام النظر، علي بن عطية الهيثمي، تحقيق محمد فضل عبدالعزيز مراد، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.
٢٢٨- عمل اليوم والليلة، أبو بكر بن السني، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٩هـ.
٢٢٩- عمل اليوم والليلة، أحمد بن شعيب النسائي ، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٩هـ.
٢٣٠- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، العيني، إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٤٨هـ.
٢٣١- عوارف المعارق ، عبدالله السهروردي ، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٢٣٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، مع شرح ابن قيم الجوزية.
٢٣٣- غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، محمد السفاريني الحنبلي ، مطبعة النجاح، مصر ١٣٢٤هـ.
٢٣٤- الغنية لطالبي طريق الحق، الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، دار الكوثر، ١٩٩٦م.
٢٣٥- الفتاوى الكبرى، ابن حجر الهيثمي ، وبهامشه فتاوى الرملي، دار الفكر، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.
٢٣٦- فتاوى الشيخ محمد بن عبدالوهاب.
٢٣٧- فتاوى الإمام النووي، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
٢٣٨- الفتاوى الهندية.
٢٣٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني ، طبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٣٨٥هـ.
٢٤٠- الفتح الرباني، الشيخ عبدالقادر الجيلاني، دار المعرفة، بيروت – لبنان ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٢٤١- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ، مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، كلاهما للشيخ أحمد عبدالرحمن البنا، دار إحيا التراث العربي، بيروت.
٢٤٢- فتح القدير، ابن الهمام، المطبعة الكبرى الأميرية.
٢٤٣- الفتوحات الإلهية ، المعروف باسم (حاشية الجمل).

٢٤٤- الفتوحات الإلهية على شرح المباحث الأصلية، العلامة ابن عجيبة.

٢٤٥- الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، ابن علان الصديقي، مطبعة السعادة ، مصر ١٣٤٧هـ.

٢٤٦- الفتوحات المكية، الشيخ محي الدين بن عربي، مطبعة الميمنية، مصر ، ١٣٢٩هـ.

٢٤٧- فتوح الغيب ، الشيخ عبدالقادر الجيلاني، مطبعة شركة التمدن الصناعية، مصر ، ١٣٣٠هـ.

٢٤٨- فرائد اللألئ من رسائل الغزالي، عني بتصحيحها محمد بخيت، ١٣٤٤هـ.

٢٤٩- الفرق بين الفرق عبدالقاهر البغدادي ، المكتبة المصرية.

٢٥٠- الفروق ، القرافي، دار إحياء الكتب العربية.

٢٥١- الفقه الإسلامي وأدلته، الدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٢٥٢- فقه السنة، سيد سابق، دار الفتح، الإعلام العربي ، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٢٥٣- فقه السيرة النبوية ، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، دار الفكر (بيروت – دمشق) الطبعة العاشرة ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٢٥٤- في رحاب الله ، الشيخ احمد بهجت، مطبوعات الجديد.

٢٥٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ، دار الحديث ، القاهرة، ١٠٩٣هـ.

٢٥٦- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٢٥٧- قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، الشيخ العلامة المحدث أحمد بن عيسى البرنسي المغربي رحمه الله ، ضبط وتعليق فضيلة العلامة إبراهيم اليعقوبي ، مطبعة الملاح.

٢٥٨- قوانين الأحكام الشرعية، محمد بن أحمد بن جزي المالكي، دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢٥٩- قوانين حكم الإشراق لكافة الصوفية في جميع الأفاق، أبو المواهب الشاذلي ، مطبعة مصر.

٢٦٠- قوت القلوب في معاملة المحبوب، الشيخ أبو طالب المكي، تحقيق سعيد نسيب مكارم، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢٦١- الكامل في الضعفاء ، عبدالله بن عدي، دار الفكر ١٤٠٤هـ.

٢٦٢- كرامات الأولياء، الشيخ أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، حققه وعلق عليه عبدالجليل عطا، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٢٦٣- الكشاف، الشيخ محمد بن عمر الزمخشري، دار الفكر ، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
٢٦٤- كشف الأستار عن زوائد البزار، المحدث الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦٥- كشف الخفا، العجلوني، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
٢٦٦- كشف الظنون، حاجي خليفة، مطبعة مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق.
٢٦٧- كشف القناع على متن الإقناع، الشيخ البهوتي الحنبلي ، مكتبة النصر الحديثة، بيروت.
٢٦٨- كنز العمال، علاء الهندي ، دار البلاغة، حلب، ١٣٩٠هـ.
٢٦٩- لباب التأمل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢٧٠- لسان العرب، ابن منظور، بولاق ، المطبعة المحمودية ، مصر ، ١٢٩٠هـ.
٢٧١- لسان الميزان، ابن حجر، دار الفكر، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
٢٧٢- لطائف المنن والأخلاق ، الإمام الشعراني ، منشورات دار الحكمة، دمشق، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٢٧٣- اللامذهبية أخطر بدعة تهدد ا لشريعة الإسلامية، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، مكبة الفارابي ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٢٧٤- لمحات عن التصوف، حامد البرغني ، مطبعة شباب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ١٣٦٩هـ.
٢٧٥- اللمع، الطوسي، دار الكتب الحديثية ، مصر، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
٢٧٦- اللمعة في أجوبة الأسئلة السبعة، السيوطي.
٢٧٧- مجلة لواء الإسلام، العدد الثاني ، شعبان، ١٣٧٩هـ - ١٩٩٠م ندوة لواء الإسلام، التصوف الإسلامي.
٢٧٨- مجلة المسلم، العشيرة المحمدية ، عدد ذي القعدة ١٣٧٣هـ.
٢٧٩- مجمع الزوائد ، الهيثمي ، تحقيق عبدالله درويش ، دار الفكر، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٢٨٠- المجموع، الإمام النووي ، ويليه فتح العزيز الوجيز ، ويليه التلخيص الجلي لابن حجر العسقلاني ، دار الفكر.
٢٨١- مجموعة رسائل ابن عابدين.
٢٨٢- المجموعة النادرة لأبناء الآخرة، السيد محمد مهدي الرواس، تحقيق الشيخ عبدالحكيم عبدالباسط، دار البشائر.
٢٨٣- مجموع فتاوى الشيخ ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
٢٨٤- المحلى، ابن حزم الظاهري، دار إحياء التراث العربي.

٢٨٥- مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي، دار الهجرة، دمشق – بيروت ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.
٢٨٦- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق عماد عامر،دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
٢٨٧- المدخل إلى التصوف، السيد محمود أبي الفيض، الدار القومية ، القاهرة.
٢٨٨- المدد، الشيخ عدنان ياسين، تقديق الشيخ حسين عسيران ومنير العجوز، تحقيق القاضي أحمد الزين.
٢٨٩- المسائل الكافية ، محمد يوسف الكافي التونسي، مطبعة حجازي ، مصر ، ١٣٠٣هـ.
٢٩٠- المستدرك للحاكم على الصحيحين ، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
٢٩١- المستصفى في علم الأصول، الإمام الغزالي، مطبعة مصطفى محمد.
٢٩٢- مسلك ناجية الفطين في مراحل السالكين، الشيخ محمد مهدي بهاء الدين، جمع الشيخ عبدالحكيم عبدالباسط.
٢٩٣- المسلمون في الهند، العلامة الكبير أبو الحسن الندوي.
٢٩٤- مسند أبي عوانة، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥م.
٢٩٥- مسند أبي يعلى الموصلي ، دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى.
٢٩٦- مسند الإمام أحمد ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ.
٢٩٧- المسند الجامع، دار الجيل بيروت، الشركة المتحدة، الكويت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
٢٩٨- مسند الإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٢٩٩- مسند الشهاب القضاعي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
٣٠٠- مسند عبد بن حميد (المنتخب منه) مكتبة السنة ، مصر.
٣٠١- مسند الفردوس ، الديلمي ، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٣٠٢- مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ، عبدالرحمن الأنصاري المعروف بالدباغ، دار صادر، بيروت، ١٣٤٨هـ.
٣٠٣- مشكاة المصابيح ، التبريزي ، المكتب الإسلامي.
٣٠٤- مشكل الآثار، الطحاوي، دار صادر، الطبعة الأولى ١٣٣٣هـ.
٣٠٥- المصباح المنير، الفيومي ، المطبعة المنيرية، مصر ، ١٩١٢م.

٣٠٦- مصنف ابن أبي شيبة الكوفي العبسي، تعليق سعيد اللحام، دار الفكر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٣٠٧- مصنف عبدالرزاق الصنعاني، المكتب الإسلامي ، بيروت.
٣٠٨- المطالب العالية، ابن حجر، دار المعرفة، بيروت.
٣٠٩- المعجم الأوسط، الطبراني تحقيق الطحان، مكتبة المعارف.
٣١٠- المعجم الصغير، الطبراني تحقيق سمارة دار إحياء التراث العربي.
٣١١- المعجم الكبر، الطبراني، دار إحياء التراث العربي.
٣١٢- معجم المصطلحات الصوفية، الدكتور عبدالمنعم الحنفي ، دار المسيرة، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٢م.
٣١٣- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، الدكتور. أ. ي . ونستك.
٣١٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٣١٥- معرفة السنن والآثار ، أحمد بن حسين البيهقي ، تحقيق أحمد صقر، مصر.
٣١٦- معيد النعم ومبيد النقم، السبكي، دار الكتاب العربي، مصر، ١٣٦٧هـ.
٣١٧- المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق د. عبدالله التركي، د. عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة هجر، الطبعة الثاينة ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٣١٨- المغير، الحافظ أحمد الغماري ، دار الرائد، بيروت ١٤٠٢هـ،.
٣١٩- مفاهيم يجب أن تصحح ، السيد محمد بن علوي المالكي ، وزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف، الإمارات العربية المتحدة ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٣٢٠- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، ابن عطاء الله السكندري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨١هـ.
٣٢١- المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ.
٣٢٢- المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٣٢٣- المقاصد، الإمام النووي.
٣٢٤- المقاصد الحسنة، السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٣٢٥- المقالات السنية، الشيخ عبدالله الهرري الحبشي، دار المشاريع ، بيروت ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٤م.
٣٢٦- مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية ، مصر.

٣٢٧- مقدمة الشيخ عبدالحليم محمود على كتاب (غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية).
٣٢٨- مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ابن الجوزي.
٣٢٩- المنتقى ، ابن تيمية.
٣٣٠- المنقذ من الضلال ، الإمام الغزالي، مطبعة صبيح، مصر.
٣٣١- من كنوز الإسلام، محمد فائز المط، الدار المتحدة، الطبعة العاشرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٣٣٢- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، المطبعة السلفية ، مصر.
٣٣٣- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، دار المعرفة ، بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٣٣٤- المواقف ، الأمير عبدالقادر الجزائري ، مطبعة الشباب ١٣٤٤هـ.
٣٣٥- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، العلامة أحمد بن محمد القسطلاني، المكتب الإسلامي ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٣٣٦- موسوعة فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، د. محمد رواس قلعجي، دار النفائس ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.
٣٣٧- موطأ الإمام مالك بن أنس ، رواية ابن قاسم ، وتلخيص القابسي، حققه محمد ابن علوي ابن عباس المالكي، دار الشروق ، جدة ، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
٣٣٨- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٣٣٩- ميزان الإعتدال ، الذهبي ، دار المعرفة ، بيروت.
٣٤٠- الميزان العادل ، الشيخ عبدالقادر عيسى دياب.
٣٤١- نزهة الفكر في سبحة الذكر ، الشيخ محمد عبدالحي اللكنوي ، تحقيق حسنين محمود مخلوف، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
٣٤٢- نسيم الرياض شرح شفاء القاضي عياض، الشيخ شهاب الدين الخفاجي، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٣١٤هـ.
٣٤٣- نشر المحاسن الغالية، اليافعي، مطبعة دار الكتب العربي، مصر، ١٣٢٩هـ.
٣٤٤- نصب الراية، الزيلعي ، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
٣٤٥- النصرة النبوية ، مصطفى المدني، مطبعة العامر، مصر ، ١٤١٦هـ.
٣٤٦- النظام الخاص لأهل الاختصاص، الإمام أحمد الرفاعي قدس الله سره، حققه وعلق عليه عبدالغني نكه مي، دار الكتاب النفيس، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٣٤٧- النكت البديعات، السيوطي، دار الجنان، بيروت، ١٤١١هـ.

٣٤٨- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، المطبعة الخيرية بالقاهرة، ١٣١٨هـ.
٣٤٩- نهاية المحتاج في شرح المنهاج، الرملي ، دار الفكر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٩م.
٣٥٠- نور التحقيق، حامد صقر، مطبعة دار التأليف ، مصر.
٣٥١- النور المبين على المرشد المعين، محمد بن يوسف الكافي، المطبعة العمومية، دمشق ، ١٣٥٧هـ.
٣٥٢- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، الإمام الشوكاني، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر.
٣٥٣- الهداية ، المرغيناني ، مع فتح القدير، المطبعة الأميرية.
٣٥٤- الهدية العلائية ، علاء الدين عابدين ، دار الفكر، دمشق ١٣٨٠هـ.
٣٥٥- هذا هو التصوف، رشيد ناجي الحسن ، دار اليمامة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٣٥٦- هذا والدي، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٣٥٧- الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية ، مطبعة محمد صبيح وأولاده، القاهرة ، ١٣٧٣هـ.
٣٥٨- وحدة الوجود ، مصطفى كمال الشريف، مطبعة العلم، دمشق، ١٣٩٠هـ.
٣٥٩- الوسائل في شرح المسائل، الإمام جلال الدين السيوطي .
٣٦٠- الوصايا، الشيخ محي الدين بن عربي، مطبعة كرم ، دمشق.
٣٦١- الوصايا، الحارث المحاسبي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
٣٦٢- اليواقيت والجواهر، الإمام الشعراني، المطبعة الأزهرية ، مصر، ١٣٠٥هـ.

الكشاف العام

تقبيل اليد	
السيادة	
القيام	
الذكر الجهري	
الذكر بالاسم المفرد (الله)	
الدف	
السبحة	
الإنشاد والسماع	
وصول ثواب القرآن	
زيارة القبور	
الذكر مع الجماعة	
الحب في الله (الرابطة)	
المبايعة	
المرشد	
الصحبة	
الفرقة الناجية	
الورد	
الفرق بين الكرامة والاستدراج	
الشطح	
وحدة الوجود	
الاتحاد والحلول	
حل الإشكالات حول الشيخ محي الدين بن عربي	
المجاهدة	
الطريقة والحقيقة	
السنة والبدعة	
الاستعانة بالقرآن العظيم	
المذاهب	
الأدب مع العلماء والصالحين	
حجاب المرأة المسلمة	
المصافحة بعد الصلاة	
صلاة الأوابين	
مس غير الطاهرين المصحف	
سنة الجمعة القبلية	
صلاة الظهر بعد الجمعة	



إن الأمـة الإسـلامية في هذا الوقت تعيش في صـراع بين مؤيد ومنكر وبين من يقول هذه سنة وهذه بدعة ،

وبهذا الصراع تركنا المهمة الأساسية ألا وهي أن يكون المسلمون صفاً واحداً كما قال المصطفى ﷺ: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سـائر الجسـد بالسهر والحمـى .

وهذا الصـراع يتجلى في عدة مسائل لاغير وكأن المكتبة الإسلامية لاتحوي إلا هذه المسائل!! ففكرت أن أحسم هذا الأمر وذلك بأنني جئت بالأدلة من الكـتاب والسنـة حتى لاينكر علـيَّ أحد وأقطع دابر هذا الأمر نهائياً وبعـد ذلك نهتـم بأمـور المسلمين ونكـون قلباً واحداً كما أراد الله ورسـوله وإن جئت بأقوال العلماء والعارفين فإنما أتيت بها على سبيل الاستئناس .

المؤلف